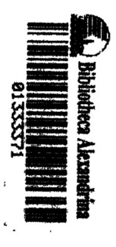


بين الماضي والحاضر

دكتورة
فتحية النبراوي
أستاذ التاريخ الإسلامي
رئيس قسم التاريخ
كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر

دكتور
محمد نصر مهنا
أستاذ العلوم السياسية المساعد
قسم العلوم السياسية
كلية التجارة - جامعة أسيوط



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه



بين الماضي والحاضر

دكتورة

فتحية النبراوي

أستاذ التاريخ الإسلامي

رئيس قسم التاريخ

كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

دكتور

محمد نصر مهنا

أستاذ العلوم السياسية المساعد

قسم العلوم السياسية

كلية التجارة – جامعة أسيوط

الطبعة الأولى

١٩٨٣

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية

جلال حزى وشركاه

الإهداء

إلى أرواح الشهداء الذين سقطوا

دفاعًا عن العروبة والإسلام

مقدمة

سيطر عديد من القضايا والمشكلات السياسية على العالم الاسلامى على مر العصور وصولا الى التاريخ المعاصر ، ونتيجة للعوامل الخارجية المكتنفة بالعالم الاسلامى والظروف الداخلية وجد منحنى متذبذب صعودا وهبوطا غذت عوامل وصول العالم الاسلامى المعاصر الى الحالة الراهنة ، صحيح أن الجهود الصادقة تبذل من جانب بعض الحكام للنهوض به ، لكن القوى الخارجية تعمل لبث الفرقة وتقسيم العالم الاسلامى وخاصة فى المنطقة العربية وقد تم ذلك فعلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بموجب معاهدة سايكس بيكو ٠

والكتاب الذى بين أيدينا يناقش تحليليا بعضا من قضايا العالم الاسلامى ومشكلاته السياسية فى التاريخ الوسيط والحديث ، ففى الاسلام الوسيط كانت هناك قضايا المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب ، وفى الاسلام الحديث هناك العديد من المشكلات السياسية التى يعرض الكتاب لنماذج منها وفيها لم تكتف القوى العظمى بالحصول على الشىء الكثير من المكاسب فحسب وانما ـ وهذا هو الأهم ـ أدخلت العالم الاسلامى الى حلبة الصراع فيما بينها ، وظهر على المسرح السياسى الاسلامى مشكلات سياسية من نوع جديد فى ظل ظروف تطرح أسئلة متعددة حول مستقبل العالم الاسلامى ، هذه الاستفسارات والتساؤلات هى التى دفعت الباحثين الى اختيار هذا الموضوع للكتابة فيه على الرغم من صعوبته ٠

هناك نقطة أخرى يود الباحثان أن يعرضا لها بأمانة وهى ان البحث فى قضايا العالم الاسلامى ومشكلاته السياسية لا يزال يحتاج الى مناقشات موضوعية مسئولة يقوم بها ويشترك فيها باحثون متخصصون بغية الوصول الى نتائج حاسمة واستبصارات متأنية تفيد المخططين السياسيين وتنوز الرأى العام ، العربى والاسلامى ، والجدير بالذكر ان مثل هذه المناقشات المسئولة ستفتح آفاقا أوسع وتستعمل أدوات منهجية أقوى فى الوقت الذى لا يستطيع فيه باحث بمفرده أن يحصل عليها ويستعملها مهما صدقت نواياه ومهما كانت جهوده مخلصة ، ويعنى ذلك الحاجة الى تجميع جهود

الباحثين متعددى التخصصات Multidisciplened للتدقيق فى الكثير من التفاصيل والفروع التى تفرضها طبيعة البحث فى قضايا العالم الاسلامى ومشكلاته ، ويفسر هذا الصعوبات والجهود التى بذلها الباحثان لخدمة أهداف هذه الدراسة ، لكن سعة هذه الدراسة قد فرضت على الباحثين — على حد القول المأثور — أن يسرعا الخطى وفى القلب حسرة وفى النفس حرقة واشتياق لمزيد من التعمق ومزيد أطول من المعايشة للقضايا والمشكلات والعلل التى عانى منها ولا يزال يعانى عالمنا الاسلامى الذى لابد من توسعة دائرته ، بالرغم من اختلاف وجهات النظر بين المسلمين اذ أن اختلاف وجهات النظر ظاهرة طبيعية وصحية نتيجة للحرية الفكرية للاسلام .

وقد اعتمد منهج الدراسة على أساليب البحث العلمى ، المنهج التاريخى والمنهج التحليلى والمنهج المقارن اذ أن طبيعة الدراسة اقتضت تناول هذه المناهج جميعا .

وتم تقسيم الدراسة الى قسمين اهتم القسم الأول منها بقضايا الاسلام فى العصر الوسيط وفجر التاريخ الحديث حيث تناول الباب الأول قضية المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب ، وما نتج عنها من صراع مسلح بين المسلمين والمسيحيين تمثل فى الحرب الصليبية وذلك فى فصلين عالج الفصل الأول الوحدة الاسلامية ، أما الفصل الثانى فناقش قضية استكمال المواجهة الحضارية بين الاسلام من جهة وبين بقايا الصليبيين فى بلاد الشام ، والزحف المغولى القادم من الشرق .

وتناول الباب الثانى ظهور الدولة العثمانية كبعث اسلامى جديد وناقش فى الفصل الثالث تفسير ظاهرة السلطة ، أما الفصل الرابع فدرس حركة التحديث .

أما القسم الثانى فجاء بعنوان فى المشكلات السياسية للعالم الاسلامى الحديث والمعاصر وعالج فى الباب الثالث مشكلة افغانستان وذلك كاحدى مشكلات العالم الاسلامى الحديث فى القارة الآسيوية . أما الباب الرابع فخصص لعرض نماذج ثلاث من المشكلات السياسية فى أفريقيا حيث درس فى الفصل السادس السودان ومشكلة الجنوب وتناول الفصل السابع النزاع الأثيوبى الصومالى فى القرن الافريقى . أما الفصل الثامن فتناول النزاع المغربى الجزائرى حول الصحراء . وعالج الباب الخامس احدى المشكلات القائمة فى القارة الأوروبية وهى قضية النزاع التركى اليونانى حول قبرص حيث تم تناولها فى الفصل التاسع .

وفى الختام يود الباحثان أن يؤكدا على أن ما يمكن أن تؤدى اليه هذه الدراســـة هو تأصيل مستلزمات التأمل فى قضايا العـالم الاســلامى بين ماضيها وحاضرها ، ومن ثم المساهمة فى بناء منطق سليم لمواجهة المشكلات التى تحيط بالمسلمين فى عصرنا الحاضر والمواءمة بين متطلبات الحياة المعاصرة ومواصلة تحقيق عناصر الالتزام بالاســـلام المتكامل كمـا جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية ٠

ويدعو الباحثان الى وقفة للتأمل المنشود لتحـــديد المسلمات والمنهج لخطة عمل اسلامية للمرحلة القادمة ، آملين أن يسد هذا الكتاب نقصا فى المكتبة الاسلامية والعربية ويفيد قطاع المثقفين من طلاب ودارســين وباحثين فى الوطن العربى ٠

والله وحده المعين والموفق ٠

الباحثـان

تمهيد

أثبت الاسلام قدرته على الاستمرارية والسيادة لا فى شبه الجزيرة العربية وحدها وانما على امتداد الرقعة المعروفة من العالم .

لقد استطاع المسلمون أن يحملوا رسالتهم ويخرجوا بها الى آفاق ممتدة شرقا وغربا مواجهين تحديات صعبة استطاعوا اجتيازها ، كما نجحوا فى أن ينشروا الاسلام فى كل مكان وصلوا اليه .

ان مدا حضاريا جديدا وقويا اندفع بالمسلمين ليشق طريقه لتنحسر أمامه كل القوى الأخرى سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

اتجه المسلمون الفاتحون شرقا وغربا ، فكان مد الفتوحات الاسلامية يعنى المواجهة الشاملة مع الحضارة الفارسية بكل مقوماتها ، وكان حتما على القوة الجديدة أن تؤكد كفاءتها على الاستمرارية ، وأن تذهب بالدين الجديد الى أبعد مدى يمكن أن يصل اليه تأثيرها .

ورغم أن تجارب المسلمين كانت أقل بكثير بالمقارنة مع تجارب تلك الشعوب التى كان عليهم مواجهتها الا أنهم استطاعوا وبعقلية المسلم المجاهد فى سبيل الله أن يتفوقوا عليهم وأن يتسيدوا فى المناطق التى وصلت اليها جيوشهم .

ان ظروفا كثيرة معقدة ومتشابكة صادفت خروج المسلمين الفاتحين من شبه الجزيرة العربية فكان عليهم أن يتعايشوا مع حضارات جديدة عليهم ، وكان عليهم أن يؤثروا فى تلك العقليات المختلفة فكريا وثقافيا ودينيا ، وبالسلوك الاسلامى وبالقدوة ، وبالقدرة على الاقناع ، وبالعمل استطاع المسلمون الفاتحون وخلال قرن من الزمان أن يتسيدوا العالم ، وأن يجعلوا من الاسلام دينا عالميا ، وأن تغدوا لغتهم لغة عالمية لتحل محل اللغات القديمة لتصبح لغة العلم فى ذلك الوقت .

ان للجماعات البشرية دينامية وحركية ابداعية تشهدها عصور

صحوتها التى ترتبط بظهور زعيم سياسى أحيانا ، أو بظهور ايديولوجية معينة أحيانا أخرى ، وربما ترتبط بظاهرة أو ظواهر حضارية محددة ، واذا اعتبرنا هذا الاستنتاج قابلا للتطبيق على كل المجتمعات البشرية فاننا يمكننا القول أن المجتمع العربى قد خضع لذلك وتعرض له وعاش تلك الدينامية الابداعية والتى ارتبطت بنزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهوره فى مجتمع شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع لتشهد منطقة الشرق الأدنى أضخم وأعظم تغيير حضارى فى حياتها على مر العصور ٠

لقد كان الاسلام عاملا أساسيا فى تغيير العقلية البشرية فى تلك المنطقة بأسرها ، ثم ليمتد ذلك التأثير ليشمل العقلية البشرية على الاطلاق ، ويمكن القول ان التأثير الاسلامى قد شمل من دخل فى الاسلام ومن لم يؤمن به ٠

لقد استطاع الدين الجديد أن يتحدى وجود مجتمعات بأسرها ، يهزها من كيانها ، بل يخلع جذور كثير من المعتقدات والأفكار والمسلمات التى انتشرت فى المجتمعات الوثنية والمسيحية على السواء ٠

كما استطاع رجاله أن يقتحموا مجتمعات قوية وأن يمتزجوا بها وأن يؤثروا فيها ، وأن يخلقوا منها نماذج جديدة لحياة جديدة خصبة ، ان المد الاسلامى الذى وصل الى أعماق سورية حيث الحضارة البيزنطية المسيحيه ، وحيث النظم الرومانية العريقة ، كان لديه من القدرة والفاعلية مما مكن من تغيير العقلية الرومانية المتعجرفة والتأثير فيها بل وتطويعها وفى كثير من الأحيان كسبها للاسلام ٠ وان ما حدث فى مصر التى دخلها المسلمون الفاتحون فى القرن السابع الميلادى ليغيروا من العقلية المصرية ويؤثروا فيها بشكل جعل مصر كلها تتحول من المسيحية الى الاسلام ، لتكون أقوى المراكز الحضارية التى أسهمت فى نشر الاسلام واللغة العربية لا فى أفريقيا وحدها وانما تتخطى أفريقيا عبر جبل طارق الى بلاد الأندلس ومن ثم الى أوروبا ٠

ان طبيعة العصر الذى عاشته الدولة الأموية فرضت عليها مسئوليات حضارية هامة ، ذلك ان امتداد الفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب ، واستكمال ما بدأه المسلمون الأول فى نشر الاسلام واللغة العربية والحضارة الاسلامية فى الأقاليم التى وصلت اليها جعل مهمة الأمويين كبيرة فى الانفتاح على أقاليم الشرق ذات الحضارة الفارسية القديمة وأقاليم الغرب بما فيها من حضارة أغريقية أو حضارة متأغرقة أو تقاليد بيئية محضة ، ان المسئولية

الحضارية التى تحملتها الدولة الأموية فى الانفتاح على تلك الأقاليم باعتبارها تمثل السلطة المركزية فرضت عليهـــا أمورا هامة **أولها** استمرارية نشر الاسلام واللغة العربية . **وثانيها** : الحفاظ على المفاهيم والقيم الاسـلامية فى تلك الأقاليم ، **وثالثها** : حماية الحضارة الاسلامية من أن تذوب فى حضارات شعوب البلاد المفتوحة .

ان وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لجنوده وقواده فى معـــاملة أهالى البلاد التى يصل اليها الاسلام ، ووصايا خلفائه رضوان الله عليهم يوم ساروا يودعون جند الفتح ، كانت تؤكد سلوكا حضاريا رائعا كان مفتاح نشر الاسلام ونشر الحضارة الاسـلامية ممثلة فى أخـــلاق المسلمين وكانت وسيلنتها وأداتها لغة القرآن الكريم .

من هذا المنطلق كان الانفتاح الحضـــارى الاسلامى على بلاد العـــالم آنذاك ، وبذلك الأسلوب استطاع رجال الفتح أن يصلوا الى عقول وقلوب أهالى تلك البلدان .

لم تدع الحضارة الاسلامية مكانة أسمى ولا أعلى من غيرها ، ولم يدع المسلمون كبرياء أو غطرسة على أهالى البـلاد المفتوحة ، ومن ثم كان منـاخ الحرية الفكرية الذى أتاحه الاسلام لكل من دخل فيه ، ولكل من احتمى به مسلما كان أو ذميا من أهم عوامل ذلك الانفتاح الحضارى الذى جعل من دولة الاسلام آنذاك نموذجا واجه به المسلمون بقيمهم ومفاهيمهم وسلوكهم وعقليتهم حضارة وفكر ونظم الفرس ، وكان لهم جولة هنـــاك فى مدينة كسرا حيث أقنع سلوك المسلمين ، وأقنـــع فكر المسلمين رجـــال ومفكرى ذلك النمط الحضارى فاذا اقتنعوا به اذ هم أقوى الناس دفاعا عنه وحفاظا عليه .

ويواجه المسلمون حضارة وفكر ونظم الدولة البيزنطية وربنة الحضارة الرومانية والفكر الرومانى القديمين ، ويوم يقنع سلوك المسلمين الحضـارى هؤلاء النـــاس ، ويوم يتميز وينفرد فكر المسلمين دون قهر أو اذلال عـلى ما عندهم اذ يدخل الكثيرون منهم فى الاسلام ، ومن لم يدخل فيه من أهـل الذمة كان من أشد المتحمسين ابداعا وعملا فى ظل الدولة الاسلامية .

ويلتقى الاسلام بحضارة مصر ، وتدين مصر كلها حين دخلها الاسلام به ، وتتخلى لأول مرة فى تاريخها عن دينها القديم ، بل تتخلى عن لغتهـــا القديمة وهما سلاحاها اللذان ميزاها دائما كاحدى دعائم الحضارة والفكر .

لم يخل العالم — وقد خرج المسلمون من شبه الجزيرة العربية ينشرون الاسلام — لم يخل من حضارات عريقة ونظم سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية لها من الأصالة والقدم مما جعلها مصدرا للفكر الانســـانى فى شتى مجالاته •

ومن الغبن للانسانية أن نقول ان العالم كان خلوا من أنماط سلوكية وحضارية مختلفة الا أن الاسلام حين خرج يحمله أبنــاؤه من جزيرة العرب خرج مدا جديدا على العالم تلففته العقلية الانسانية آنذاك ، ورأت فيـــه خلاصها ، ورأت فيه حياة جديدة عما ألفته وعرفته قبل ذلك ، ومن هنـــا كان دخول الأقاليم فى الاسلام ، وحرصهم الشديد على نعلم اللغـــة العربية لتغدوا بعد فترة وجيزة من بداية الفتح الاسلامى لغة العلم فى عالم العصور الوسطى •

وتنحسر حضارة العصر القديم ، وفتتخلى مصر عن كل هـــذا ونعتنق الاسلام وتتبنى اللغة العربية ، لتصبح مصر بمن أسلم من أهلهـــا ومن لم يسلم ، مركز اشعاع حضارى للاسلام فى أفريقيا كلها ، ومنه يمتـــد ذلك الاشعاع الى أوروبا •

ويمس الاسلام قلوب البربر فى الشمال الافريقى ليصبح هؤلاء الرجال من أشد الناس حماسا للاسلام ليحملوه عبر المضيق الى أسبانيا ، وهنـــاك يتوج طارق بن زياد دور المسلمين الحضارى بنشر الاسلام والحضارة الاسلامية فى أوروبا وليقيم المسلمون صرحا حضاريا رائعا شهدته بلاد الأندلس عـــلى مدى ثمانية قرون •

الاسلام اذن دين له نمط حضارى مميز يقوم على اقناع الجنب الآخر بالحجة وبالحسنى (وقولوا للناس حسنا) والاسلام سلوك حضارى وسلوك فكرى ، استطاع رجاله أن يقيموا دولهم لتكون أعرق دولة عرفتها الدنيـــا تقوم على التسامح الدينى والحرية الدينية والحرية الفكرية ، مقنعة من حولها دون تعال أو غطرسة أو انغلاق ، وانما تتفاعل وتعطى وتأخذ محافظة عـــلى قيمها الأساسية وبهذا عاشت دولة الاسلام ويوم تخلت عن ذلك انهارت من أساسها •

لقد نهل المسلمون من معارف الدنيا ، وانفتحوا على حضارات العـــالم القديم وكرس خلفاء بنى أمية جهودا كبـــيرة فى تشجيع العلم والعلمـــاء ، وأسهموا فى تطوير نظم الدولة الاسلامية •

ففى عصرهم بدأت محاولات الترجمة التى تعد خطوة أساسية فى تطور فكر المسلمين وصقله ، وكان لبعض خلفاء الأمويين خاصة عبد الملك بن مروان دور هام فى هذا المجال ، فقد اهتم بالأدب والأدباء والعلم ورجاله مما أسهم فى ازدهار الفكر الاسلامى فى الشرق والغرب ٠

الاسلام والقوى الدولية :

عاصرت الدولة الاسلامية منذ بداية قيامها كيانات وقوى سياسية متعددة ، ذلك ان العالم آنذاك كان يضم عددا من القوى تمثلت فى الدولة الاسلامية ، والدولة البيزنطية — والتى انحسر وجودها بعد المد الاسلامى فى آسيا الصغرى والبلقان — هذا بالاضافة الى القوى السياسية الأوروبية والتى سوف تتصل بالاسلام فى مرحلة تالية ٠

وقد بدأت العلاقات السياسية البيزنطية منذ أن وصل المسلمون الى بلاد الشام حيث تمكنت الجيوش الاسلامية من هزيمة الجيوش البيزنطية واخراجها من تلك المنطقة نهائيا ٠

ومن ثم اتسمت العلاقات الاسلامية البيزنطية فى ذلك الوقت بالعداء المسلح خاصة وأن المسلمين تابعوا نشاطهم فامتد الى مصر ثم الى شمال أفريقيا مقلصين بذلك النفوذ البيزنطى فى تلك المناطق ٠

وبدأت العلاقات تتخذ شكلا جديدا فى عصر الدولة الأموية والتى ظهرت تأثيراتها الحضارية والفكرية والمادية بشكل واضح فى العالم آنذاك ٠ وعلى الرغم من النزاع المسلح والحرب السافرة بين البيزنطيين والأمويين الا أنه كانت هناك فترات من التعاون والسلم مما يبرز اتجاها جديدا فى العلاقات الاسلامية الدولية ٠

والدولة الأموية كانت لها حدود مجاورة للدولة البيزنطية ، ومن ثم كانت هناك سهولة فى الاتصال فى نفس الوقت الذى جعل من تلك المنطقة منطقة ثغور دائمة ، اهتمت بها الدولة الاسلامية ، وأولتها عناية متميزة ٠

واذا كانت العلاقات الاسلامية البيزنطية قد بدأت أولا ممثلة فى العرب أيام الدولة الأموية ، فانها تبدلت بعد ذلك لتكون علاقات بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة من جهة ، ثم بين البيزنطيين والعثمانيين من جهة أخرى ٠

لقد استطاع المسلمون أن ينبتوا مقدرتهم السياسية بالاضـــافة الى كفايتهم العسكرية بريا وبحريا ، ويشهد عصر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان السيادة الاسلامية البحرية على شـــواطىء البحر الأبيض المتوســط الشرقية مما ترتب عليه القضاء على السيادة البحرية البيزنطيـــة عن تلك الشواطىء • ويقول Vaseliev فى هذا الصدد : ان العرب قد أصبحوا سادة على ذلك الساحل الطويل ، ذلك انه كان من الضرورى حماية ساحل البحر الأبيض ضد غارات البيزنطيين(١) •

وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك كانت الاستعدادات الاســـلامية الضخمة لحصار القسطنطينية والاستيلاء عليها ، الا أن هـــذا المشروع لم يتم الا فى عهد سليمان بن عبد الملك ، وعلى الرغم من النتـــائج الوخيمة التى انتهى اليها هذا المشروع ، والهزيمة التى منى بهـــا الأسطول الأموى ، فان الأمويين قد واصلوا اهتمامهم بالقوة البحرية الاسلامية ايمانا منهم بأن القوة العسكرية الحقيقية انما تتمثل فى التكامل بين الأسطول والجيش ، وقد غدت القوة البحرية الاسلامية قوة يخشى البيزنطيين بأسها ذلك انها كانت تمثل خطرا حقيقيا عليهم خاصة حين توثق التعاون بين أسطول الشام وأســطول مصر •

ومع ذلك فان تلك العلاقات العسكرية لم تستمر خاصة فى أيام السلم والهدنة التى كانت تعقد بينهم وتصف لنا المصادر تبـــادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين فقد وصل سفراء المسلمين الى القسطنطينية قادمين من القاهرة وبغداد حيث استقبلوا استقبالا حافلا من امبراطور بيزنطة — وكذلك أكرم خلفاء العباسيين والفاطميين مبعوثى الدولة البيزنطية وعاملوهم معاملة طيبة بل ان الأباطرة البيزنطيين فى بعض الأحيـــان فضلوا مبعوثى الدولة الاسلامية فى المعاملة على أصدقائهم من الفرنج من الغرب المسيحى •

كذلك كانت العلاقات الدبلوماسية قائمـــة بين الأمويين فى الأندلس وبين الدولة البيزنطية ، فقد وفد ســـفير الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع على الخليفة الأموى عبد الرحمن النـــاصر حيث استقبله استقبالا كريما ، وقد حمل السفير(٢) البيزنطى الى الخليفة هـــدية ثمينة عبارة عن مخطوطة طبية نفيسة •

---

(١) Vaseliev, Byzantium & Islam, p. 308.

(٢) د• عمر كمال توفيق • تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٣٨ •

وفي كثير من الأحيان عقد المسلمون مع البيزنطيين معاهدات سلام مما يؤكد حرص المسلمين على أن يسود السلام علاقاتهم مع جيرانهم وان الأمثل فى العلاقات الاسلامية هو السلم ، والتعاون الاقتصادى والثقافى لا الحرب والعدوان والدمار .

فقد عقد البيزنطيون مع الفاطميين صلحا دفعوا بمقتضاه الجزية حتى عصر الامبراطور نقفور فوكاس الذى امتنع عن دفعها للفاطميين ثم اضطر الى الاذعان بعد أن منى بهزيمة بحرية فى جزيرة صقلية على يد القوات البحرية الاسلامية .

ورعى الفاطميون العهود بينهم وبين البيزنطيين ، كل يؤدى ما عليه من التزامات تجاه الطرف الآخر ، الا أن هذا الهدوء لم يستمر خاصة بعد انتقال الفاطميين الى مصر وامتداد نفوذهم الى بلاد الشام التى كان الأسطول البيزنطى يصل الى مدنها ويهددها وهنا لم يكن أمام الفاطميين الا المواجهة السافرة مع البيزنطيين ، ومع تغير الأوضاع السياسية فى منطقة الشرق الاسلامى ، وظهور دويلات التصادم ، وميلها أحيانا للمهادنة مع البيزنطيين بدأت موازين القوى تؤثر على العلاقات السياسية الاسلامية .

وأضعف الصراع بين القوى الاسلامية قوتها العسكرية ، ذلك ان الخلاف المذهبى بين العباسيين والفاطميين خلق جوا من التوتر العنيف فى منطقة الشام مما أدى الى تحويلها الى منطقة تنافس ونفوذ بين القوى السياسية الاسلامية من جهة وبين الدولة البيزنطية من جهة أخرى ، ثم يمتد هذا الى الغرب الأوروبى وتتدخل أوروبا الغربية بحملاتها الصليبية لتصبح طرفا جديدا فى السياسة الدولية فى ذلك الوقت .

وتتدخل عناصر جديدة فى الصراع ، وهذه المرة تكون عناصر مشرقية حيث تستعين الخلافة العباسية بالأتراك السلاجقة ، وبدخول الأتراك السلاجقة الى العراق ثم امتداد نفوذهم الى بلاد الشام ، يتحول الصراع بين المسلمين والبيزنطيين الى صراع بين السلاجقة والدولة البيزنطية .

وتشعبت العلاقات الاسلامية البيزنطية بعد ذلك ، اذ تحكم فى تشكيل خريطة المنطقة مد بشرى جديد لم يقتصر نفوذه على العراق وبلاد الشام بل حاول أن يقيم لنفسه وجودا سياسيا فى آسيا الصغرى مما أدى الى اقتطاع أجزاء من أراضى الدولة البيزنطية ومما أدى الى توسيع ميدان الصراع العسكرى من بلاد الشام والعراق ليشمل آسيا الصغرى وايران .

ورغم هذا التغير استمرت العـــلاقات الفاطمية البيزنطية تتأرجح بين العداء تارة والسلم تارة أخرى ، وكانت تعقد المعـــاهدات المتتالية ولعـــل العلاقات الطيبـــة بين مصر فى عصر المستنصر وبـين البيزنطيين فى عصر الامبراطور قسطنطين التاسع الذى وافق عـلى أن يمد مصر وقت محنتهـــا بأربعمائة ألف أردب قمح بناء على طلب الخليفة الفاطمي تؤكد ذلك .

لكن هذه العلاقات الودية لم تستمر بعد وفاة قسطنطين التاسع وقيام الامبراطورة ينودورا عـــلى عرش الامبراطورية ، التى لم تقبـــل أن توفى بتعهدات قسطنطين التاسع الا فى مقابل أن يتعهـــد لها الخليفة المستنصر بامدادها بالجند الفاطمى اذا تعرضت أراضى الدولة البيزنطيـــة للعدوان ، ورفض المستنصر ذلك مما أدى الى توتر العلاقات بين الدولتين .

وعندما تبرز أوروبا المسيحية الكاثوليكية على مسرح الأحـــداث فى الشرق الاسلامى ، نجد أن بيزنطة وقفت موقفا مميزا تجاه مسيحى الغرب بدأت باستعداد الدولة البيزنطية للمعونة فى الهجـــوم على أراضى الدولة الاسلامية ، ثم انتهت بالتردد والحيطة تجاه نوايا الصليبيين وعـــدم وفائهم بالتزاماتهم تجاه الامبراطور .

وعلى أية حال ، ظلت العلاقات الاسلامية البيزنطية تتأرجح بين السلم والحرب ، شأنها شأن العـــلاقات بين القوى السياســـية فى كل عصر من العصور .

وكان على الدولة العثمانية التى أكدت وجودها فى آســـيا الصغرى ، وأثبتت قدرتها علىمواجهة الحضارة الأوروبية فى ذلك ، كان عليها أن تستكمل الدور وأن تحمل مشعل الحضارة الاسلامية ، وعلى الرغم من أنها قد انتهجت سياسة جديدة اختلفت عن سياسة الدولة الاسلامية فى عصورها الســـابقة الا أنها قد خلقت بنيانا حضاريا وثقافيا مميزا وعلى الرغم من طبيعة العصر الذى عاشت فيه الدولة العثمانية والطموحات التى حركت جيوش الدولة ، وشجعت سلاطينها على الزحف العسكرى شرقا وجنوبا وغربا ، على الرغم من كل هذه الظروف والعوامل ، فان المد الاسلامى كان حيـــا متدفقا ، يؤثر بشكل واضح وفعال فى نواحى الحياة كلها فى ذلك الوقت .

وقد صادف المد الاســـلامى فى كل عصر من تلك العصور مشـــكلات سياسية معقدة ، ففى الصدر الأول كان التحدى الأكبر للارستقراطية المكية

من أكبر المشكلات السياسية التى صادفتها الدعوة الاسلامية فى مكة ، ثم صادفتها الدولة الاسلامية في المدينة ، وكان الوجود اليهودى فى المدينة احدى القضايا السياسية التى كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعامل معها بحيطه وحزم ودقه مستخدما المهادنة والتفاوض والتعاون ، ثم ينزل عليه الوحى ليحسم تلك القضية •

وكانت الردة من المشكلات السياسية التى أرقت الدوله الاسلامية فى بداية حياتها وبعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وقد استطاع أبو بكر رضى الله عنـــه أن يحسم تلك المشكلة الســـياسية المتشعبة الجوانب والمرتبطة بقضايا اقتصاديه واجتماعية وفكرية ، استطاع أبو بكر الصديق رضى الله عنـــه أن يحسمها عسكريا ، وأن يثبت قـــدرة العسكرية الاسلامية على التصدى للمشـــكلات السياسية التى من شـــأنها تمزيق وحدة الدولة الاسلامية ، واضعافها وصرفها عن قضاياها الأساسية•

ومع تطور الدولة الاسلامية واستمرارية المد الاسلامى تصادف الدولة فى عصر الفاروق مشكلات جديدة فى دخول عناصر فكرية جديدة لمؤثر على العقلية الاسلامية ، تنتهى بالاغتيال السياسى الذى مهد للفتنة الكبرى التى كانت من أخطر المشكلات السياسيه التى هددت الدولة الاســـلامية والأمة الاسلامية جميعا •

ويدخل التأثير الشيعى منذ ذلك الحين بالاضافة الى المؤثرات المسيحية واليهودية ، لتحرك فتنة عاتية مدمرة ، تؤرق الدوله ، بل ظلت تؤرقهـــا وتهدد أمنها وسلامها لقرون لاحقه ، ومع منتصف القرن الأول الهجرى ومع الأحداث الدامية التى شهدها العراق وبقيام الأمويين على أمر المسلمين بتمثل النقل السياسى من المدينة المنورة الى الشـــام لتبدأ مرحلة حضارية وثقافية جديدة فى حياة الأمة الاسلامية ، وتظهر معها مشكلات ســياسية ذات طابع جديد منها سيادة العنصر العربى ، الذى خلق قسما بعـــد شرخا عميقا فى كيان الأمة الاسلامية والذى كان من شأنه ظهور طبقات جديدة فى الـــدولة الاســـلامية أصبح لهـــا من المطالب والطموحـــات ما أضعف الدولة الأموية وأسرع في القضاء عليهـــا • فقد كان تقريب العرب ، والفرقة بـين بعض العرب وبعضهم وظهور الموالى ، واحساسهم بأن جوهر الاسلام فى المساواة ، تشوبه شائبة فى التطبيق الأموى جعلهم يكونون طبقة ساخطة متذمرة ضـد الأمويين ومن ثم كان استخدامهم سهلا ميسرا لمـا نادى بالمســـاواة ومن ثم

كانت فارس مرتعا خصبا للحركات المعارضة فى العصر الأموى وعرف العباسيون كيفية الافادة منها للقضاء على الأمويين ، ثم كانت عاملا مؤرقا للعباسيين ، وفيه كان قيام الدولة المستقلة التى أضعفت من سلطة الحكومة المركزية على أقاليم الدولة .

وكان الانقسام الفكرى والنقافى بين الشيعة والسنة من أخطر المشكلات التى واجهتها الدولة الاسلامية من بدايتها ، وظل هذا الانقسام يتعمق ويزيد فى الخلاف بين الفريقين الكبيرين فى الأمة الاسلامية مما أصبح معه رأب ذلك الخلاف أمرا عسيرا بل وربما أمرا غير ممكن التحقيق .

وقد تجسد هذا خلال العصور الاسلامية كلها ، بداية بالفتنة الكبرى، واغتيال أمير المؤمنين عثمان ، ثم قتل على رضى الله عنه فى الكوفة ، فى محاولة لتغيير نظام الحكم فى الدولة الاسلامية تحت زعم تطبيق أحكام كتاب الله ، ثم يظهر هذا الخلاف واضحا فى المعارضة الشديدة للحكم الأموى ، تلك المعارضة التى استمرت تؤرق الأمويين حتى زالت دولتهم ، ورغم استخدام العناصر الشيعية فى قيام الدولة العباسية ، الا أنهم لم يحققوا أهدافهم بل أخفقت آمالهم حين رأوا العلويين من آل البيت يتوارون أمام القوة العباسية ، وينالون جزاءهم من التنكيل والتعذيب مما جعل المقاومة الشيعية تتخذ أشكالا جديدة سرية وجعلها تبعد عن مركز الثقل السياسى ولذلك تكون ميادين نشاطها بعيدة اما فى اليمن أو الشمال الافريقى .

وكان الشمال الافريقى من الميادين النشطة التى وجد فيها الفكر السياسى الشيعى جوا مشجعا للنمو والازدهار ، ومن ثم كان قيام الدعوة المهدية والدوله الفاطمية ، ثم المد الجديد الذى جاء من الشمال الافريقى ليغزو مصر الأخشيدية ، ويزيل سلطان الخلافه العباسية فيها ، ويقيم دولة جديدة تتحدى الوجود السنى فى العراق وتظل لسنوات تمثل خطرا كبيرا على الدولة العباسية . وظهر الخلاف السياسى بين الدولتين على أشده ، وأثر ذلك بطبيعة الحال على النواحى الاقتصادية والثقافية ، بل كان له أكبر الأثر فى اضعاف الدولة الاسلامية جميعا ، حيث ظهرت أطماع القوى السياسية الأخرى فى أراضى الخلافة الاسلامية التى لم تقو جيوشها عباسية كانت أو فاطمية على مواجهة تلك الأخطار وشهدت الأمة الاسلامية غزوا عسكريا حضاريا من الغرب مثلته الحملات الصليبية على أرض الاسلام وذلك مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ومشارف القرن الثانى عشر .

وعلى الرغم من الأخطار المحيطة بالعالم الاسلامى فان ميلاد مد جديد قد ظهر فى القرن التالث عشر الميلادى ذلك كان مولد الدولة العثمانية لتكون فيما بعد القوة الضاربة الجديدة التى تؤثر فى سير العلاقات الدولية لقرون لاحقة .

وتتجدد المشكلة التقليدية من جديد - خلاف بين المسلمين ، سنة وشيعة - وذلك حين ظهرت الدولة العثمانية كقوة عسكرية جديدة بدأت تنفذ سياسة مد جديدة ، فكونت أقاليم الدولة العثمانية وامتدت مساحتها لتشمل بلاد الشام ومصر وجزءا من الشمال الافريقى ، وصاحب هذا البناء السياسى الجديد ظواهر حضارية مميزة بالاضافة الى مشكلات سياسية مختلفة كان على الدولة أن تواجهها منذ بدايتها ، ومن أخطر المشكلات التى واجهتها الدولة العثمانية هى القوة الشيعية ممثلة فى الدولة الصفوية فى ايران ، وقد استطاع العثمانيون مواجهة هذا الخطر والقضاء عليه ، كما استطاعوا أن يضعوا ضمانات حمت وجودهم فى الأقاليم لكنها سرعان ما ضعفت وتسلل اليها الوهن ، لما صحبها من ظلم واضطهاد قاسى منه الأهالى فى تلك الأقاليم . ومع ذلك فقد استمر المد الاسلامى بين التوسع والانحسار رغم ظهور الغرب المسيحى كقوة مؤثرة فى سير الأحداث السياسية فى العالم . ومن ثم لم يترك الاستعمار الدولة العثمانية وشأنها بل حاك حولها المؤامرات وتمادى فى اضعافها لتصبح فى آخر أيامها كيانا هزيلا لا حول له ولا قوة أطلق عليه الاستعمار اسم الرجل المريض ومن ثم رأت الدول الاستعمارية ضرورة التخلص من ذلك الرجل المريض وضرورة تقسيم ممتلكاته ميراثا بينها .

وكان زوال الدولة العثمانية كما عرفها العالم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ايذانا ببداية مرحلة جديدة ظهرت معها فى العالم الاسلامى مشكلات وقضايا سياسية من نوع جديد ، خلقت مع العصر الذى شهد الاستعمار ينشب أظفاره فى جسد الدولة الاسلامية .

وانكمشت الدولة العثمانية وزالت ممتلكاتها ، وزالت معها هيبتها الدينية ، ودخلت المؤثرات الأوروبية لتشكل كيانا سياسيا جديدا هو تركيا المعاصرة التى تنتمى دينيا الى العالم الاسلامى ، وتنتمى فكريا وسياسيا الى العالم الغربى ، بما شمله ذلك من حركة تحديث إنعكست على نواحى الحياة المختلفة فى المجتمع التركى .

أما ولايات الدولة العثمانية فقد استحوذت عليها القوى الأوروبية وقسمتها فيما بينها (سيكس بيكو - ١٩١٦ مؤتمر لوزان ١٩٢٣) .

وكان لذلك تأثيراته على العالم الاسلامى فى آسيا وأفريقيا فى فترة ما بين الحربين حيث طفت على السطح مشكلات سياسية أثارها الاستعمار الغربى (الأقليات - الحدود - النعرات القومية) وصولا الى الحرب العالمية الثانية وما أحدثته من تطلع شعوب العالم الاسلامى للحصول على استقلالها وما صاحب ذلك من تناطح مع القوى الاستعمارية مما أدى الى أفول نجم القوى الكبرى التى كانت لها السيادة فى فترة ما بين الحربين (اليابان - ألمانيا - انجلترا - فرنسا .. الخ) وظهور القطبية الثنائية ممثلة فى دولتى الأوليجركية الدولية ، الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى اللتان أخذتا تستقطبان بصورة أو بأخرى دول العالم الاسلامى .

لكن المشكلات التى تركتها القوى الاستعمارية لا تزال تؤرق الشعوب الاسلامية والعربية بحثا عن حلول جذرية تنهى وجودها من هذا العالم .. وقد تعرضت الدراسة لبعض من هذه المشكلات بأطرافها المحلية والاقليمية والعالمية .

وهذه الدراسة تضع أمام المهتمين بقضايا العالم الاسلامى السياسية عددا من التساؤلات التى تلح فى طلب الاجابة عليها ، مثال ذلك :

- الى أين يسير العالم الاسلامى ؟

- أتكمن القوة الحقيقية فى قلب العالم الاسلامى أم فى خارجه ؟

- من أين لنا الحصول على القوة ؟

- هل يطبق العالم الاسلامى سياسات تكفل لشعوبه القوة أم تفرض عليهم نوعا من التبعية لقوى خارجية ؟

- هل أصبح من المحتم على شعوب العالم الاسلامى أن تعانى من التخلف والتبعية الى هذه الدرجة التى وصلت اليها من التردى والضعف مع وجود مصادر القوة كامنة فيه بشريا وحضاريا وفكريا واقتصاديا ؟

- ولماذا يستهين بعض القائمين على الأمور بعقول شعوبهم الى هذا الحد - أم أن التخلف أصبح آفة أبدية لصيقة بالعالم الاسلامى المعاصر ·

وبعد ، فان الباحثين يوقنان ان الاسلام سوف يكون قوة مؤثرة فى مستقبل العلاقات الدولية ، لكن ذلك أيضا يعرض لمزيد من التساؤلات حول امكانية تحقيق ذلك مع ما يسود العالم الاسلامى من فرقة مزقت أوصاله بتخطيط قوى خارجية ، حتى أصبح المسلمون يحارب بعضهم بعضا فى غير هوادة ولا رحمة ، وحتى أصبحت دماء المسلمين تراق رخيصة ودون مبالاة (الحرب بين ايران والعراق - المغرب والجزائر ·· الخ) ·

ومع ذلك فان الباحثين يؤمنان بصدق بأن هذا الواقع الأليم يمكن تجاوزه الى التنبؤ بالحقيقة الواقعية التى عرضاها عن قوة تأثير الايديولوجية الاسلامية فى مستقبل العالم الاسلامى ·

وذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بالمنهج الذى يجب أن يعود اليه المسلمون وهو المنهج الاسلامى المتكامل ·

الباحثان

القسم الأول

فى قضايا العالم الإسلامى الوسيط

الباب الأول

المواجهة الحضارية بين الشرق والغرب

الفصل الأول :

الوحدة الاسلامية فى العصور الوسطى

الفصل الثانى :

استكمال المواجهة الحضارية

الفصل الأول

الوحدة الاسلامية فى العصور الوسطى

مصر قاعدة الجبهة الاسلامية :

كانت الظروف السياسية كلها مهيأة أمام صلاح الدين ليؤسس الدولة الأيوبية فى مصر ، ويتخذها قاعدة للجبهة الاسلامية لينفذ من خلالها خطته فى الجهاد المقدس ضـــد الصليبيين · ومنها يتجه الى بلاد الشام والجزيرة ليتمم بذلك بناء الوحدة الاسلامية · وكانت بلاد الشام وقد توفى عنهـــا نور الدين محمود بن زنكى فى حالة أدعى ما يكون الى من يأخذ بيدها ويعيد اليها استقرارها ذلك أن نور الدين ترك ولدا لم يتجاوز النـــانية عشر من عمره كان فى حاجة الى من يرعاه ويشد من أزره ، وكان صلاح الدين هـــو ذلك الرجل الذى تبنى الملك الصالح اســـماعيل ، وتبنى قضية الاســـلام بأسرها ، فاعترف به وخطب له وأرسل من يقدم له العزاء فى وفاة أبيه ·

أما فى مصر فقد استطاع القضاء على آخر أفراد البيت الفاطمى فأصبح دون منافس حقيقى له هذا بالاضافة الى اعتراف الخليفة العباسى بصلاح الدين ومما هو معروف أن صـــلاح الدين كان يلقب بمحيى دولة أمـير المؤمنين ، وهذا تلقيب الخليفة العباسى له · كل هذا قد ساعد صلاح الدين ولا شك مع وضعنا فى الاعتبار كفاءاته وطموحاته وامكانياته بالاضافة الى امكانيـات مصر وليست معنى ذلك أن مصر خلت من المتاعب بالنسبة لصلاح الدين · وقد كانت أولى تلك المتـــاعب ما تسميه المصادر الاســـلامية بمنافقة الـــكنز بأسوان ، ومنافقة الكنز بأسوان فى الحقيقة كانت ضد صلاح الدين ، قادها ذلك الرجل واجتمع عليه السودان فى أسوان ، واعتقدوا أنهم يستطيعون اعادة الدولة المصرية(١) ·

---

(١) ابن شداد · النوادر السلطانية ص ٤٧ ·

ولما علم صلاح الدين بأمر ذلك التمرد جهز حملة عسكرية وقدم عليها أخاه سيف الدين العادل ، الذى سار اليهم وحاربهم وقتلهم واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ، فاستقرت قواعد الملك واستوت أموره(٢) .
كما لم يترك الصليبيون صلاح الدين دون أن يثيروا فى وجهه المشكلات ففى عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م سيرت الفرنج سفنها فى البحر حيث قصدت مدينة الاسكندرية ، وكانوا كما تقدرهم المصادر فى ثلاثين ألفا . وحاصروا ثغر الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم وصل المدد الى الاسكندرية من القاهرة ، ولما لم يستطيعوا أن ينالوا من الاسكندرية ويئسوا من قتالها عندما علموا بالمدد القادم من السلطان ، خافوا وتركوا آلات حصارهم ومنجنيقاتهم وعادوا دون أن يظفروا بالمدينة وكان كما يذكر ابن شداد من أعظم النعم على المسلمين .

بعد ذلك بدأ صلاح الدين فى ارساء دعائم دولة مستقلة قوية فى مصر ، استخدم فيها الامكانيات المادية والاقتصادية والبشرية فيها لخدمة قضية الجهاد التى آمن صلاح الدين بها وبضرورة العمل من أجلها .

ووجه صلاح الدين اهتماما بالغا الى اعداد جيش قوى يمكن بواسطته أن يضمن سلامة مصر من أى عدوان خارجي ، كما يضمن أيضا القضاء على أية فتن داخلية ، بالاضافة الى المهمة الكبرى التى سوف تقع على عاتق ذلك الجيش وهى الجهاد ضد الصليبيين .

وقد كانت حسابات صلاح الدين دقيقة ، فقد اندلعت الثورة مرة أخرى فى الصعيد وذلك عام ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م ، فثار أهل قفط بتأثير من أحد دعاة العلويين وهو ابن عبد القوى فأرسل السلطان أخاه العادل الى قفط حيث قضى على تلك الثورة وقتل من الثوار نحو ثلاثة آلاف .

وبالقوة العسكرية استطاع صلاح الدين أن يقضى على القوى المعارضة له فى مصر ، لكن الأغلبية من سكان مصر رأوا فى صلاح الدين قائدا يستطيع أن يواجه الخطر الصليبى الذى كان يتهدد مصر بالدرجة الأولى .

وحين هدأت الأحوال فى مصر بدأت سياسة صلاح الدين تتضح وبدات أهدافه تتحدد ، واختص الجهاد بالنصيب الأوفى من اهتمامه وتفكيره ، لكنه

---

(٢) انظر ابن شداد . المصدر السابق ص ٤٨ .

لم يغفل تخفيف عبء الضرائب عن كاهل المصريين ، واهتم أيضا بالتعمير فى القاهرة وانشاء المدارس ، وتعمير المساجد(٣) ٠

خروج صلاح الدين الى بلاد الشام :

فى عام ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م حرج صلاح الدين من مصر متوجها الى بلاد الشام ، وتذكر المصادر الاسلامية أسباب خروجه الى الشـــام فيقـول ابن شداد : انه بعد أن نظم أمور مصر وسياستها وخلف بها من يشتغل بحفظها وحراستها ، تجهز للخروج الى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام ، وكان أمراء الملك الصالح قد كاتبوه ، وخاصة شمس الدبن بن المقدم ، ووصل السلطان صلاح الدين يطالب بالملك للملك الصالح ، وليكون هو القائم على أمره(٤) ٠

وسار صلاح الدين الى دمشق حيث دخل دار أبيه ، واستقبله أهـل دمسق ، وأظهروا الفرح به ، وصـــعد القلعة واستقر فى ملكها ٠ ويذكـر ابن الآثير أنه لم يقطع خطبة الملك الصالح ، وانمـــا أظهر : أنى انما جئت لأخدم مولاى وابن مولاى ، واسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه ٠

وهنا أيضا يوحى ابن الأثير الى القارىء أن العلاقات بين صلاح الدين والملك الصالح لم تكن كمـــا ينبغى لها ، فيخبرنا أنه قد جرت أمور قـــد شوهدت فلا حاجة الى ذكرها كما قال بعضهم : فكان ما كان مما قد سمعت فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر وكان صلاح الدين وقد استقرت له الأمور فى دمشق قد توجه الى حمص فتسلم البلد ، وترك رجاله يستكملون فتحهـــا وسار الى حماه وتسلمها من صاحبها عز الدين جرديك(٥) ٠ وسيره بعـــد ذلك سفيرا الى حلب فأساءوا معاملته وقبضوا عليه وسار بعد ذلك السلطان الى حلب ونزل على جبل جوشن واشتد الفزع فى أهـل حلب ، وخافوا أن تضيع بلدهم وأن يسلمها حكامها ورجالتها الى صلاح الدين كما فعل أهـل دمشق ، واجتمع أهالى حلب بميدانها وخرج اليهم الملك الصالح ، وطالبهم بالتماسك والصمود ، يقول أبو شامه : فافتتن الناس وصاحوا صيحة ،

---

(٣) أبو شامة ٠ الروضتين جـ ١ ص ٥٢٢ ٠

(٤) ابن شداد ٠ النوادر السلطانية ص ٥٠ ، وانظر ابن الأثير حيث يقول : فى ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن أيوب الى دمشق دار العشق وسكنها من يه ابن مولاه ٠ الباهر ص ١٧٦ ، وانظر الروضتين جـ ١ ص ٦٠٢ ، وقارن سنا البرق الشامى ص ٨١ ٠

(٥) الفتح البنداري ٠ سنا البرق الشامى ٠ ص ٨٣ ٠

ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا : نحن عبيـــدك وعبيـد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك ، وأقبلوا عـلى الدعاء والترحم على أبيه(٦) .

واشترطوا على الملك الصالح أن يعيد اليهم الجهة الشرقية من الجـــامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمة ، وأن يجهر بحى على خير العمل والأذان والتذكير فى الأسواق ، وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الاثنى عشر ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحـة الى الشريف الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحسنى ، وأن تكون العصبية مرتفعة ، والناموس وازع لمن أراد الفتنة ، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين ، فأجيبوا الى ذلك(٧) .

حصار حلب :

توجه صلاح الدين من حمـــاه الى حلب بقصد حصـــارها ، وضيق صلاح الدين الحصار على المدينة ، فاستعان أهل حلب بالحشيشية لـكن الله عصم صلاح الدين ، ويخبرنا عماد الدين الكاتب : لـما اشتد الحصـار عليهم استعانوا بالاسماعيلية ، وعينوا لهم أموالا وضياعا وبذلوا من البذول أنواعا فجاء منهم من فتاكم كل عات فعرفهم بوقبيس ناصح الدين خمارتكين ، فقتل لهم : لأى شىء جئتم وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم ...(٨) .

وكان الحشيشية قد اقتحموا معسكر السلطان ووصلوا اليه وصــوب أحدهم الى حشاشته خنجره فلم يتمكن من قتله ، بل قتل هو ومن معه من الفدائيين .

وهذا كله يعكس فى الواقع طبيعة العلاقات السياسية الاسـلامية بين الأمراء المسلمين ، وبينهم وبين الصليبيين . فسوف يستغل الأمـير الصليبى ريموند الثالث أمير طرابلس هـــذا الموقف ويهاجم حمص ممـــا يضطر

---

(٦) ابو شامه ، كتاب الروضتين جـ ١ ص ٦٠٦ .
(٧) ابو شامة ، المصدر السابق جـ ١ ص ٦٠٩ .
(٨) سنا البرق الشامى ص ٨٣ ، وهـــــذه المرة الأولى التى هاجم فيهـا الحشيشية صلاح الدين وانظر :
B. Lewis, Saladin & The Assassins. BSOAS, XV, 1953. The Assassins A Radical sect in Islam, London 1967.

صلاح الدين الى رفع الحصار عن حلب والتوجه اليهـــا ، فيتركها ريموند والواضح أن مثل هـــذا التصرف لم يكن سوى مناورة سياسية لابعـــاد صلاح الدين عن حلب ٠

ويؤكد هذا وليم الصورى يقول : لقد أدرك ريموند الثالث خطـــورة الاتحاد الذى قد ينجم عن استيلاء صلاح الدين عـلى حلب ، فكان لابد من عرقلة مثل هذه الخطوة ، حتى ولو زعم ريموند انه انما هاجم حمص لابعاد صلاح الدين عن حلب حماية للملك الصالح ٠

وكان ريموند الثالث فى أسر نور الدين محمـــود ، فيذكر العمـــاد الكاتب أن قومص طرابلس ريموند الصنجيلى كان فى أسر نور الدين ضـــد كسرة حارم ، وبقى فى الأسر أكثر من عشر سنين ، ثم سعى الأمير فخرالدين الزعفرانى فى خلاصه ، وخلص من الأسر بفدية بلغت مائة ألف دينـــار ، وفكاك ألف أسير من المسلمين ٠ وتصـــادف أن مات الملك عمورى ، وتولى بعده ابنه المجذوم تكفل به قومص طرابلس ، ولمـــا حاصر صـــلاح الدين واشتد فى حصارها كاتبه الحشيشية ، وطلبوا اليه الهجوم على حمص(٩) ٠

صلاح الدين وحصار انطاكية :

لم يفت صلاح الدين وهو فى بلاد الشام أن يشن هجوما على مدينـــة انطاكية خاصة وأن الفرنج قد أتعبوه فى بلاد الشام ســـواء فى ذلك فرنج القدس أو طرابلس ٠ واستطاع أن يلحق بالصليبيين هنـــاك الهزيمة وأن يغنم غنائم حسنة وعادوا(١٠) ٠

وجاء رد فعل الصليبيين ممثلا فى هجوم شنوه على مدينة حمص ممـــا اضطر صلاح الدين الى الاسراع لنجدتها ، وهكذا استطاع ريموند الثالث أن يحقق ما أراد من صرف صلاح الدين عن حصار حلب ٠

وبعـــد أن استطاع صلاح الدين أن يضعف من قوة أعـــدائه فى بلاد الشام ، الصليبيين والأمراء الزنكيين والحشيشية ، قرر العـــودة الى مصر ،

(٩) سنا البرق الشامى ص ٨٣ ، ٨٤ ٠

(١٠) أبو شامة ٠ كتاب الروضتين ٠ ج ١ ص ٦١١ ٠

ولكن بعد أن اصطلح هـو وسيف الدين والملك الصالح كل عـلى ما فى يده(١١) ٠

والواقع أن خطر الصليبيين أو الزنكيين كان أقل شدة فى بلاد الشام ذلك أنه كان محسوبا لدى صلاح الدين ، أما خطر الاسماعيلية وما انبثق عنها من جيوب فى بلاد الشام كان أشد وأعتى لأنه كان ينخر فى قلب الأمة الاسلامية ويهددها فى الصميم ٠

ومن ذلك ما يذكره صاحب زبدة الحلب كمال الدين بن العديم من أنه ظهر فى منطقة جبـل السماق غربى حلب أناس أظهروا الفسـق والفجور وتسموا بالصفاة ، واختلط الرجال والنساء فى مجالس الشرب ولا يمتنـع أحدهم عن أخته أو بنته ، ولبس النساء ثياب الرجال ، وأعلن بعضهم أن سنانا ربهم ، فسير اليهم الملك الصـالح عسكر حلب فهربوا الى الجبـل وتحصنوا فى رءوس الجبل ، فأرسل الصالح الى سنان الذى أنكر حالتهم ، وعاد العسكر عنهم(١٢) ٠

وقد شكل الاسماعيلية على أية حال عقبة كئود فى وجه صلاح الدين ، فكان لابد أن يزيلها من طريقه ليتمكن من اقامة دعائم الجبهه الاسلامية فى مصر والشام والجزيرة ٠

عودة الى مصر :

بعد أن عقد صلاح الدين الصلح مع القوى الاسلامية فى بلاد الشام ، وبعد أن وصلته خلع الخليفة وأهبه بدأ يفكر فى العودة الى مصر خاصة وأن أخبارها كانت تصله خاصة أخبـار التحالف الصليبى البيزنطى على مصر لكن هذا المشروع باء بالفشل ، ونجت مصر من تلك الخطة المدبرة لضربهـا فى غياب صلاح الدين عنها(١٣) ٠

وقد عاد صلاح الدين الى مصر خوفا عليها ولحمايتهـا من ذلك الخطر الداهم الذى كان متوقعا ، فأقام التحصينات لحماية القاهرة وبنى سـورا

---

(١١) ابن الأثير ٠ الباهر ص ١٧٧ ٠
(١٢) ابن العديم ٠ زبدة الحلب ج ٣ ص ٧٧٧ ٠
(١٣) سنا البرق الشامى ٠ ص ١١٤ ٠

ضخما لحماية مصر والقاهرة والدفاع عنها ، كما أمر ببناء القلعة(١٤) •

وتجول صلاح الدين فى مصر فزار دمياط والاسكندرية للتأكد من سلامة وقوة تحصيناتها ، كما حضر هناك مجالس العلماء أمثال الشيخ الحافظ أبى طاهر محمد بن السلفى الأصفهانى(١٥) •

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية : ٥٧٣ : ٥٨٣ هـ ١١٧٧ : ١١٨٧ م

وصلت استراتيجية الجبهة الاسلامية فى ذلك الوقت فى ذهن صلاح الدين درجة من الوضوح والتبلور ، فقد أدرك أن امكانيات مصر عسكرية واقتصادية وبشرية يجب أن تضاف الى امكانيات الشام والجزيرة ، ليمكن القضاء على القوة المسيحية فى الشرق • ومن ثم لم يستقر طويلا فى مصر بعد أن فشل المشروع البيزنطى الصليبى فى غزوها ، وبدأ يفكر فى العودة مرة ثانية الى بلاد الشام بعد أن استقرت الأمور فى مصر تماما وتركها فى يد أخيه الملك العادل ووزيره المحنك القاضى الفاضل •

واتبع صلاح الدين فى تلك المرحلة الحرب الخاطفة ضد الصليبيين ففى عام ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م خرج من مصر الى جنوب فلسطين وشن هجوما على الصليبيين فى منطقة الداروم ثم غزة ، وحين رأى أن الفرسان الداوية فى غزة يستعدون لمقاومته تركها وحاصر عسقلان ، والتقى به الملك بلدوين الرابع الذى حصره صلاح الدين هو وقواته داخل أسوار المدينة • لكن الصليبيين سرعان ما استعادوا قوتهم ، وضربوا حصارا بغتة حول صلاح الدين وقواته ، وأنزلوا بهم الهزيمة عند تل الصافية ، وتمكن صلاح الدين من النجاة بنفسه والعودة الى مصر ، واستكمل بلدوين الرابع عملياته العسكرية فى مطاردة بقية القوات الاسلامية فى عسقلان ، ثم عاد الى عاصمة ملكه القدس(١٦) •

---

(١٤) المصدر السابق ص ١١٩ •

(١٥) المصدر السابق ص ١٢٠ •

(١٦) ابن الأثير الكامل • جـ ١١ ص ٤٣ حيث يذكر الملك الناصر صلاح الدين فى خطاب لأخيه توارانشاه هول المعركه ، لقد أسرفنا على الهلاك غير مرة ، وما أنجانا الا الله سبحانه وتعالى •

وقد كان لانتصار الصليبيين فى تل الصـــافية أثره فى رفع روحهم المعنوية ، كما أعاد الثقة الى جنـــودهم الذين بدأوا فى شن هجماتهم على المسلمين فى شمال بلاد الشام ، فهاجموا منطقة حارم وحماه وأعملوا النهب والسلب فى قراها(١٧) • كذلك أعاد بلدوين بناء الحصون لحمـــاية مملكته ضد أى هجوم يشنه المسلمون ضدها ، فبنى مخاضة بيت الأحزان •

استطاع فرخشاه أن يوقع بهم الهزيمة وينتقم لأهل دمشق ، ويقـــول ابن الأثير وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى ، وما أدراك ما هنفرى ، كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى والحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين(١٨) •

كذلك أغار صاحب انطاكية واللاذقية بوهيمند على شيزر ، كما هاجم أمير طرابلس ريموند الثالث جمعا من التركمان وصادر أموالهم • ويذكر العمـــاد الكاتب أن تلك كانت خطة محكمة من الصـــليبيين لتفريق جمع المسلمين •

وفى عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٨ م عاد صلاح الدين الى بلاد الشام ودخل دمشق حيث بدأ يستعيد خطته واستراتيجيته للجهاد • وكانت أهم أهدافه فى تلك الســـنة هى ازالة الحصـــن المنيع الذى بنـــاه الملك بلدوين الرابع عند مخاضة الأحزان الى الغرب من بانياس ، ورتب عليه فرسان الداوية للدفاع عنه(١٩) •

وقد طلب صلاح الدين من الصليبيين هدم ذلك الحصن وعرض عليهم أن يدفع لهم مبلغا من المال نقدره المصادر الاسلامية والمسيحية بستين ألف قطعة من الذهب ، لكن لم يلق ذلك الطلب قبولا فزاده الى مائة من الذهب لكن الملك رفض أيضا مما أدى بصلاح الدين الى أن يقسم بأن يزيل هذا

---

(١٧) المصدر السابق ج ١١ ص ٤٥ •

(١٨) ابن الأثير • المصدر السابق ج ١١ ص ٤٥٣ ، وانظر سنا البرق الشامى ص ١٦٠ وقارن

S. Runciman, A History of The Crusades, II, p. 419.

وهنفرى كما تذكره المصادر الاسلامية هو • Humphry of Toron.

(١٩) العماد الكاتب • البرق الشامى ج ٣ مخطوط ورقة رقم ١٢٢

الحصن (٢٠) وقد كان هذا الحصن يمثل عقبة كئود فى الطريق بين دمشق والساحل كما كان يهدد بانياس • لكن الصليبيين لم يستجيبوا لطلب صلاح الدين ، وأقاموا حصنا آخر على جبل هونين مسيطرين بذلك على منابع نهر الأردن •

ومن ناحية أخرى واصل الصليبيون هجماتهم على المسلمين فأسروا عددا من أهالى دمشق ممن كانوا يرعون أغنامهم وماشيتهم فى سهول بانياس ، وكان السلطان يعسكر بجنوده عند تل القاضى ببانياس وجاءه ابن أخيه عز الدين فرخشاه يخبره بأن الصيف أوشك على البدء ، وأن هذا يشكل خطرا على كفاءة المسلمين القتالية ، ومن ثم لا بد من انجاز المهمة التى جاءوا من أجلها • واستجاب السلطان لرأى ابن أخيه ، وصمم على ضرب الصليبيين ، فحاصر المسلمون حصن بيت الأحزان وأزالوه واحتموا بباطنه(٢١) •

موقعة مرج عيون ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م :

تقدمت جيوش الصليبيين وعلى رأسها الملك بلدوين الذى دعى ريموند صاحب طرابلس للاشتراك معه فى القتال ، وقصدوا جميعا عسكر السلطان، وفى طريقهم علموا بعودة عز الدين فرخشاه من احدى غاراته محملابالأسباب والغنائم فحاولوا مهاجمته عند سهل مرج عيون بين نهر الليطانى ونهر الأردن ، وعلم صلاح الدين بذلك فأرسل المدد الى جنوده ، وفى نفس الوقت اشتركت قوات الفرسان الداوية مع المسيحيين فى القتال • وقد كانت الضربة التى وجهها صلاح الدين الى جيش الصليبيين قاصمة ، وفر الجيش الصليبى واستطاع الملك بلدوين ومعه ريموند الفرار حيث عبروا الليطانى ، لكن من تبقى من رجالهم وقعوا فى الأسر وكان من بينهم عدد من رجالات الصليبيين ومقدميهم ، وبعد النصر طلب صلاح الدين أن يستعرض الأسرى ويصف العماد الكاتب يقول : تم أذن فى تقديم الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى ، فأول من قدم ابن بارزان بادوين وقد أسره من أمرائنا محمد بن خوشترين ثم قدم أود مقدم الداوية الكبير ، وأحضر هو ابن القومصية ، وقيد أخوه صاحب جبيل وجماعة من مقدميهم الأكابر (٢٢) •

---

(٢٠) Runciman, A History of The Crusades, II. p. 418.

(٢١) سنا البرق الشامى ص ١٦٣ •

(٢٢) عماد الكاتب البرق الشامى جـ ١ مخطوط ورقة رقم ١٣١ وابن الأثير • الكامل جـ ١١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ •

أما ابن بارزان كما تسميه المصادر العربية فهو بلدوين الابليني Baldwin of Ibelin ، وأما مقدم الداوية الكبير فهو أدو ساند آمد Otto of Saint Amand وأما هو بن القومصية فهو Hugh of Galille ابن قومصية طرابلس التى قدمت له فدية مقدارها خمسة وخمسين ألف دينار صورى • وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف دينار فدية بلدوين الابليني بالاضافة الى اطلاق سراح ألف أسير من المسلمين • أما مقدم الداوية فقد رفض أن تدفع له فدية ونقل الى دمشق حيث ظل آسيرا بها الى أن مات فى العام التالى ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م (٢٣) •

وواصل صلاح الدين هجومه على فلسطين خاصة وأنه قد سمع بوصول مدد جديد من الفرسان المسيحية بقيادة هنرى الثانى أمير شامبين ، واستطاع صلاح الدين آن يوقع بهم الهزيمة مما آدى الى فرارهم ، ويعترف المؤرخون المسيحيون بعدم فعالية المدد القادم للصليبيين من الغرب • ولم يكتف صلاح الدين بمهاجمة الصليبيين برا ، بل خرج الأسطول المصرى مبحرا تجاه شواطىء الشام حيث هاجم مدينة عكا • وأمام هذه الانتصارات الاسلامية أرسل الملك بلدوين يطلب عقد الهدنه مع صلاح الدين ، وقد وافق صلاح الدين على ذلك •

وقد حدث فى تلك السنة فى بلاد الشام مجاعة كبيرة بالاضافة الا أن صلاح الدين كان قد قرر الاستيلاء على حلب • وقد عقدت الهدنة لتلك الأسباب ، وكانت مدتها عامين وقع عليها ممثلين لكل من صلاح الدين وبلدوين وذلك فى عام ١١٨٠ م •

وبعد فترة قصيرة وعقب ظهور الأسطول المصرى فى مياه البحر المتوسط طلب ريموند الثالث صاحب طرابلس عقد هدنة مماثلة مع صلاح الدين •

صلاح الدين فى الجزيرة :

فى خريف نفس العام اتجه صلاح الدين شمالا نحو الفرات حيث حليفه الأمير الارتقى صاحب حصن كيفا ، والذى نشب بينه وبين قلج أرسلان السلجوقى خلاف شديد ، وهناك بدأ صلاح الدين يعمل على التوحيد بين أمراء تلك المنطقة ، فورد عليه رسل قلج أرسلان وسيف الدين الدين

---

(٢٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ •

غازى صاحب الموصل ، والأمير روبين صاحب أرمينيا ، وحلف الرسل يمين الولاء للسلطان ، كما اتفقوا على الهدنة فيما بينهم لمدة عامين (٢٤) .

الأحوال العامة فى المعسكر الصليبى :

قضى باودين الرابع ملك بيت المقدس بقية وقته فى اقامة التحصينات العسكرية لتقوية مملكته والدفاع عنها ضد المسلمين ، وكان وليم الصورى أسقف صور فى ذلك الوقت فى القسطنطينية فقد ذهب لزيارتها فى طريقه الى القدس عند عودته من روما حيث كان فى زيارة لها منذ عام ١١٧٥ م ، واستمر هناك حتى عام ١١٧٩ م لحضور مؤتمر اللاتيران .

وفى القسطنطينية قابله الامبراطور ايمانول كومنينوس بحفاوة بالغة وأبدى اهتمامه ببلاد الشام ، رغم أنه كان كهلا يعانى من الشيخوخة وأمراضها .

وفى نفس الوقت حاول الأمير روبين صاحب ارمينيا توطيد علاقته بالصليبيين فقام بزيارة الى بيت المقدس للحج ، وهناك تزوج من احدى الأميرات الصليبيات وهى ايزابيلا أف تورون ، كما أعلن اليعاقبه المسيحيون فى بلاد الشام ولاءهم للصليبيين ، وأرسلوا بطريركهم ميخائيل المؤرخ حيث التقى بملك مملكة بيت المقدس .

وبدأت أحوال المملكة المسيحية فى الاضطراب فقد مرض بلدوين الرابع وتهددتها مشكلة أساسية هى مشكلة الوراثة ، اذ كان بلدوين الرابع يحرص على أن يكون العرش فى أسرته من بعده ، وعلى هذا بدأ فى تزويج شقيقته سيبيلا فتزوجت للمرة الثانية الأمير جى دى لوزنيان وذلك فى عام ١١٨٠م كذلك تزوجت أخته الصغرى ايزابيلا من الأمير همفرى الرابع التورونى ، كما ازدادت صحة الملك فى السوء والتدهور وازداد معها تدخل أمه أجنس أف كورتينى وخاله جوسلين الثالث فى شئون المملكة ، وما لبث أن مات الملك بلدوين الرابع تاركا المملكة تعانى من مشكلاتها المتعددة الداخلية والخارجية .

وأضاف الى مشكلات المملكة التقارب الذى حدث بين صلاح الدين

---

(٢٤) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، وانظر
S. Runciman, A History of The Crusades, II, pp. 421 - 22.

الأيوبى وبين الامبراطور البيزنطى ايمانويل كومنينوس الثانى الذى اعتلى العرش البيزنطى بعد وفاة أبيه ايمانويل كومنينوس الأول ، وفى عام ١١٨١م أرسل الامبراطور البيزنطى مبعوثه الى صلاح الدين لعقد هدنة معه ٠

أصبح المسيطرون على المملكة بعد بلدوين الرابع هم الملكة الأم وأرناط (رينو شاتيون) وأعضاء أسرة لوزجنان وحلفاؤهم بينما أبعد وليم الصورى معلم الملك وأسقف صور لخطورته عليهم واضطر فى النهاية وبعد محاولات للوئام أن يغادر القدس الى روما فى عام ١١٨٢ م أو ١١٨٣ م ليعرض مشكلته على البابا لكنه لم ينجح ومات مسموما هناك على يد مبعوث بطريركى من الشرق (٢٥) ٠

حصن الكرك والشوبك :

كان من المشكلات الأساسية فى العلاقات بين المسلمين والصليبيين قيام حصن الكرك فى الطريق بين بلاد الشام ومصر ، وقد كان صاحب هذا الحصن هو الأمير رينو دى شاتيون (أرناط) والذى يصفه المؤرخون المسلمون بأنه كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين (٢٦) ٠

ويذكر ابن الاثير أن أرناط جمع عسكره فى عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وعزم على المسير فى البر الى تيماء ، ومنها الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة ، فسار اليه عز الدين فرخشاه بعساكر دمشق وفوت على ذلك الأمير الصليبى الفرصة فى الاعتداء على مقدسات المسلمين ٠

وقد أثرت تلك المحاولة الهوجاء من صاحب حصن الكرك على العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، وحدث بعد ذلك أن أغار أرناط على قافلة تجارية للمسلمين كانت فى طريقها من دمشق الى الحجاز وسلبها ، وحين عجزت مملكة بيت المقدس عن ردع حليفها أرناط اضطر صلاح الدين الى اعلان الحرب على الصليبيين وانهاء الهدنة القائمة بينهم ٠

---

(٢٥) يقول ارنول ان وليم الصورى مات مسموما على يد طبيب أرسله هيراكليوس الى روما ، وأن هيراكليوس زار روما بعد ذلك ٠ انظر
S. Runciman, A History of The Crusades, II, 245 - 6.

(٢٦) ابن واصل ـ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٥٣ ٠

الاعداد للمواجهة الشاملة مع الصليبيين :

فى عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م أعد صلاح الدين الأيوبى عدته للخروج الى بلاد الشام ، واتجه صلاح الدين الى ايلة فلما اقترب منها جاءته الأخبار تقول بأن الصليبيين قد جمعوا له واستعدوا لقتاله ، فسير صلاح الدين عساكر قليلة تسبقه ومعها أخاه تاج الملوك بورى حيث اتجه الى دمشق وسار صلاح الدين فى المقاتلة من عسكره عبر بلاد الكرك والشوبك فلم يعترضه أحد من الصليبيين حتى وصل الى دمشق ٠

ومن دمشق بدأت الغارات المتفرقة على بلاد الفرنج فحاصر المسلمون شقيفا بالقرب من طبرية وربما كانت هذه الغارة غارة استطلاعية أعقبها غارات ٠

ويروى ابن الاثير تفصيلات التحركات العسكرية لصلاح الدين منذ أن نزل بدمشق يقول : لما وصل دمشق قضى أياما يستريح هو وجنوده ثم سار الى بلاد الفرنج فقصد طبرية حيث نزل بالقرب منها وخيم بالأقحوانة من الأردن ، جاءت الفرنج بمجموعها فنزلت بطبرية ، فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه الى بيسان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وأغار على جحف الغور غارة شعواء فعم أهله قتلا وأسرا ، وجاءت العرب فأغارت على جينين واللجون حتى قاربوا مرج عكا (٢٧) ٠

وسار الصليبيون من طبرية حتى وصلوا الى جبل كوكب ، وهنا تقدم صلاح الدين اليهم ، وأرسل جنوده الى أعلى الجبل يرمونهم بالنشاب حيث كان الصليبيون فى أسفل الجبل ، وحمل المسلمون على الصليبيين وألحقوا بهم هزيمة قوية ثم عاد صلاح الدين ورجاله الى دمشق ٠ ويقول ابن واصل : والتحم بينهم القتال تحت حصن كوكب ، واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الاسلام ، ثم عاد السلطان مظفرا (٢٨) ٠

وعاود صلاح الدين غزو الكرك فى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وكان قد أرسل الى أخيه الملك العادل أن يسير اليه بعساكر من مصر ليلتقيا على

---

(٢٧) ابن الأثير ٠ الكامل جـ ١١ ص ٤٨١ ٠
ابن شداد ٠ النوادر السلطانية ص ٦٢ ٠
(٢٨) ابن واصل ٠ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٥ ٠

الكرك ، ودارت حرب طاحنة حول ذلك الحصن ، يبدو انها لم تسفر عن نتائج حاسمة . فقد سار السلطان واخوه العادل نحو دمشق ، بينما سير تقي الدين عمر الى مصر .

اقطاع الملك الناصر مدينة حلب لأخيه الملك العادل :

يقول ابن شداد : ثم رحل السلطان مستصحبا أخاه الملك العادل الى دمشق ليبسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من سنة تسع وسبعين ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م واعطى أخاه الملك العادل حلبا (٢٩) .

بينما يقول ابن واصل : ثم عزم السلطان على المسير الى حلب فبلغه ان الواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن مقصدهم ، فتوجه السلطان الى بعلبك وخيم بالبقاع وكان قد واعد أسطول مصر أن يتجهز الى بلاد الشام فبلغه الخبر أنه وصل الى بيروت . فبادره السلطان بعسكره جريدة . فلما وصل رأى أن امر بيروت يطول ، وكان قد سبى الأسطول منها وسلب ، فأغار على تلك البلاد ورجع . واعاد عز الدين فرخشاه الى دمشق ورحل السلطان الى بعلبك ومنها الى حمص ثم الى حماه . ومنها سار الى حلب (٣٠) .

ويروى كمال الدين بن العديم أن السلطان بعد أن دخل دمشق بلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج على قتاله فجعل ذلك حجة عليهم وسار حتى نزل حلب سنه ثمان وسبعين وخمسمائة على عين اشمونيت وامتد عسكره دبليا شرقا . واقام ثلاثة أيام ، فقال له عماد الدين : امض الى سنجار وخذها وادفعها الى أعطيك حلب (٣١) .

ورحل السلطان عن حلب فوصل الى البيره وكانت لشهاب الدين الارتقي فمات وملكها ولده وكان يدين بالولاء لعز الدين صاحب الموصل لكن السلطان لم يتمكن من دخولها . ولما رأى امرها يطول رحل عنها الى ماردين

---

(٢٩) ابن شداد . النوادر السلطانية ص ٦٤ .

(٣٠) ابن واصل . مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٣١) كمال الدين بن العديم . زبدة الحلب في تاريخ حلب جـ ٣ ص ٥٦ .

ويروى ابن واصل أن السلطان راسل الأمراء المسلمين يستنفرهم الجهاد ، ودعاهم قائلا : من جاء مستسلما سلمت بلادة على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفر (٣٢) ٠

ورحل السلطان بعد ذلك عن البيرة ونازل الرها وعددا من مدن الجزيرة فاستولى على حران والرقه ومشهد الرمان وعربان والخابور ورأس عين ونازل بعد ذلك قلعة نصيبين الى أن استأمنت فاقطعها حسام الدين أبا الهيجاء السمين واستولى على الخابور ٠

وبينما السلطان فى نصيبين ينظم أمورها وصلته الأنباء بأن الفرنج هاجموا دمشق ، لكنه لم يعد الى الشام وواصل مهمته فى المشرق فاتجه لمنازلة الموصل ٠

حصار الموصل :

اختار صلاح الدين البقاء فى الشمال ليتم مهمته فى جمع الشمل واتحاد الكلمة وأخبر مجلس مشورته بانهم أى الصليبيين انما يخربون قرى بينما يملك المسلمون عنها عوضا عنها بلادا أو نقوى على قصدهم ، واتجه لحصار الموصل ٠

وكان السلطان قد جمع رجاله ومجلس حربه ليتشاور معهم حول مدينة الموصل ، وهل يبدأ بحصارها أم يقصد سنجار أولا ، واختلف الأمراء الا أن الرأى فى النهاية اجتمع على أن تكون الموصل هى هدف السلطان ٠ ووافق على ذلك بعض الأمراء ومنهم ناصر الدين محمد بن شيركوه ٠ ويقول ابن واصل : وكان عز الدين صاحب الموصل ونائبه فيها مجاهد الدين قايماز قد جمعا بالموصل العساكر الكثيره ما بين فارس وراجل وأظهروا من السلاح آلات الحصار ما حارت له الأبصار (٣٣) ٠

ووصل السلطان بعسكره الى الموصل فلما رآه وجمعه رئى ما هاله وملأ صدوره وصدور أصحابه ، فانه رأى بلد عظيما ، ورأى الأسوار

---

(٣٢) ابن واصل ٠ مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٧ ٠

(٣٣) ابن واصل ٠ المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٨ ، ابن الأثير ٠ الكامل جـ ١١ ص ٤٨٤

قد ملئت بالرجال ، وليس فيها شرافة الا وعليها رجل مقاتل ، فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه (٣٤) ٠

وقال السلطان لناصر الدين ولمظفر الدين : فقد غررتمانى واطمعتمانى فى غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا فى قلوب الناس ، ومتى نازلناه ، وعدنا ولم نأخذه ينكسر ناموسنا ، ويذل حد شوكتنا (٣٥) ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد حاصر السلطان البلد وذلك فى عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٤ م ولم يتمكن جيشه من انجاز مهمته ، واضطر السلطان فى النهاية وبعد أن رأى حصانة الموصل وقوة أسوارها الى الرحيل عنها الى سنجار ٠

منازلة سنجار وامتلاكها :

بعد أن أيس السلطان من حصار الموصل ، نزل بعساكره صوب سنجار ، فالتقى فى طريقه اليها بعساكر من الموصل ، فحاصرهم ، وأخذ خليهم وعددهم وردهم الى الموصل ٠ ووصل السلطان الى سنجار وكان بصحبته رسل دار الخلافة الذين كانوا اتصلوا به للحديث فى الصلح مع أمير الموصل ٠

وضرب صلاح الدين الحصار على سنجار حين وصل اليها ، وضايقها وألح فى قتالها ، ونصب عليها آلات الحصار ، فهدم جزءا من سورها ووكل بها من يحفظ قلعتها ٠

وحل رمضان والسلطان على القتال فكف عنه ، وذلك بعد أن تسلم المدينة وقلعتها ورحل صاحبها وأهله الى الموصل ٠ وولى السلطان على سنجار الأمير سعد الدين مسعود معين الدين أنر ٠

ويروى ابن الاثير أن دخول السلطان الى سنجار كان سلما اذ كاتب جماعة من الأكراد كانوا بداخل البلد وأشاروا عليه بقصد بعض النواحى ، فقصدها فسلموا تلك الناحية اليه ، فملك الباشورة فضعف اذ ذاك قلب

---

(٣٤) ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١٩ ٠
(٣٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢١ ٠

صاحبها ، فسلمها بالأمان • ويضيف ابن الاثير : ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحى عنها ، ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ، ولكنه عجز ، فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين اليه فأمنه وملك البلد (٣٦) •

ولما ملك صلاح الدين مدينة سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين وكانت له منذ أن فتحها وعين عليها الأمير أبا الهيجاء السمين ، فشكا أهلها ظلمه وقسوته لصلاح الدين فعزله وأخذه معه الى حران •

واستطاع صلاح الدين قبل عودته الى حران أن يبطل مشروع تحالف كان على وشك أن يتم بين أمير الموصل أتابك عز الدين ، وبين شاه أرمن صاحب خلاط •

بدء الحرب مع الصليبيين :

كانت البداية الحقيقية لحرب الصليبيين حين هاجم الأمير أرناط أمير الكرك قلعة ايله • وقد دخلت البحرية المصرية الحرب ، وأسهمت فى الجهاد المقدس الذى أعلنه المسلمون ضد الصليبيين •

فتذكر المصادر الاسلامية ان ابرنس الكرك بنى أسطولا عظيما وسيره لحصن ايلة وهو للمسلمين ، ومنع أهله من ورود الماء فتعرض أهله لشدة وخطر عظيمين •

وسارت فرقة أخرى من هذا الأسـطول نحو عيذاب حيث أثاروا موجة من الفزع والرعب فى البحر الأحمر ، وأفسدوا السواحل ، ونهبوا وأخذوا من وجدوا المراكب الاسـلامية ومن فيها من التجـار ، ويقول ابن الاثير : وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم ، فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ولا محاربا (٣٧) •

ويقول ابن واصل : حاول ابرنس الكرك التفكير فى وسيلة يتأتى له عن طريقها فتح قلعة ايلة ، فبنى سفنا ونقل أخشابها على الجمال الى الساحل ثم ركب المراكب وشحنها بالمقاتلة وآلات الحرب ، وأوقف منها مركبين

---

(٣٦) ابن الأثير • الكامل جـ ١١ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ •
(٣٧) المصدر السابق جـ ١١ ص ٤٩٠ •

على جزيرة القلعة تمنع أهلها استسقاء الماء ومضى الباقون فى مراكب الى عيذاب فقطعوا طريق التجارة ، وشرعوا فى القتل والنهب والأسر ، ثم توجهوا الى أرض الحجاز فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم (٣٨) .

ووصل الخبر الى مصر وكان عليها نيابة عن أخيه السلطان صلاح الدين الملك العادل ، فأصـدر أوامره الى الحاجب حسـام الدين لؤلؤ بان يسير فى أسطول مصر الى ايلة حيث استطاع أن يظفر بالمركب الافرنجى ، فأحرقه وأسر من فيه ثم سار الى عيذاب ، ودل على مراكب الفرنج ، فتبعها واستولى عليها بعد أيام وأطلق المأسورين من التجار ، ورد عليهم ما أخذ منهم ثم صـعد الى البر وتتبع الفرنج وضرب عليهم الحصـار فى شعب لا ماء فيه فأسرهم جميعا ، فأرسل ممن أسر الى البلد الحرام ، وأخذ معه من الأسرى الى مصر .

وقد وصف الرحالة ابن جبير ذلك فقال : لما حللنا الاسكندرية فى الشهر المؤرخ أولا المحرم ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م عاينـا مجتمعا من النـاس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوهم الى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق فسألنا عن قصـتهم ، فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا ، وذلك أن جملة من نصـارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ثم حملوا أنقاضها على جمـال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصـلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا انشاءها وتأليفها ودفعوها فى البحر وركبوا قاطعين بالحجاج وانتهوا الى بحر النعم (٣٩) . فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة كانت تاتى من قوص الى عيذاب، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا ، وأخذوا مركبين كان مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الاسلام ولا انتهى رومى الى ذلك الموضع .

---

(٣٨) ابن واصل مفرج الكروب . جـ ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٣٩) لا ذكر لهذا البحر بين البحار المعروفة ولعل اسمه محرف .

ويضيف ابن جبير : ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واخراجه من الضريح المقدس ٠ ولم يكن بينهم وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ من أنجاد المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفســه فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم وبين الزمان وقتلوا وأسروا وفرق من الاســارى على البلاد ليقتلوا فيها ، ووجه منهــم الى قلة الى المدينة وكفى الله بجميل صنعه الاسلام والمسلمين أمرا عظيما والحمد لله رب العالمين

وبينما السلطان صلاح الدين فى بلاد الشــام رأى أن يواصل توحيد المنطقة الشمالية كلها ، فاتجه نحو آمد وذلك بعد أن استأذن الخليفة الأمام الناصر لدين الله ، وكانت تابعة للسلاجقة وعليها شيخ كبير يدعى محمود ابن ايكلدى ، ونصب السلطان على المدينة آلات حصاره وضايقها حتى طلب مؤيد الدين نيسان الحاكم الفعلى للمدينة الأمان وأخرج نساءه الى القاضى الفاضل يسأله أن يأخذ له ولأهله وماله الأمان فسعى الفاضل فى ذلك الى السلطان فأجابه الى ذلك ، وتسلم صلاح الدين آمد فى المحرم لعام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣ م (٤٠) ٠

وبعدها استولى صلاح الدين على تل خالد من أعمال حلب وتسلمها بعد أن طلب أهلها الأمان ٠ ومنها سار الى عين تاب فطلب صاحبها الأمان فأمنه صلاح الدين وأقر حصنها بيده ٠ ولم يبق أمامه من البلدان سوى حلب ٠

استيلاء صلاح الدين على حلب :

وفى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م سار صلاح الدين الى حلب بعد أن استولى على عين تاب فنزل بالميدان الأخضر ، وأقام به عدة أيام وسير المقاتله يباسطون ويقاتلون عســكر حلب ٠ واستدعى السـلطان العســاكر من الأطراف ولما لم يجد السلطان فى القتال رجا أن يأخذها بدون ذلك ٠

---

(٤٠) ابن الأثير ٠ الكامل ج ١١ ص ٤٩٤ . وابن واصــل ٠ مفرج الكروب ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ٠

وكان صاحب حلب عماد الدين زنكى بن زنكى ومعه كثير من العسكر النورى وهم مجتهدون فى القتال مجدون فيه . ورأى عماد الدين كثرة الخرج فشح بماله . وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه شيئا فاعتذر بقلة المال عنده ، فقيل له : من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع حلى نسائه وقيل ولو باع نساءه (٤١) .

ومال عماد الدين زنكى حينئذ الى تسليم حلب وأخذ العوض عنها وفقا لعرض قديم كان السلطان قد عرضه من قبل .

الصلح بين صلاح الدين وصاحب حلب :

أرسل عماد الدين زنكى بن مودود رسوله الى صلاح الدين وكان الأمير حسام الدين طمان الياروقى سرا حيث عرض عليه أمر تسليم حلب مقابل أن يرد عليه سنجار ، فوافق السلطان وزاده الخابور والرقة وسروج واشترط عليه ارسال العساكر فى خدمته للجهاد .

ولما تم ذلك لعماد الدين سرا ، أعلنه على عساكره ، وأعلنه على الرعية . وخرجت العسكر الى خدمة السلطان واجتمعوا به فى الميدان الأخضر ، وخرج اليه أيضا مقدموا حلب فخلع عليهم وطيب قلوبهم .

وتروى المصادر أن أهل حلب لم يرضوا عما فعل عماد الدين زنكى وقبحوه مع قدرته على حفظها والامتناع بها .

وسار عماد الدين الى اقطاعاته الجديدة ، وتسلم صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما واتفقا على أنه اذا احتاج صلاح الدين الى خدمة عماد الدين سار اليه بنفسه وعسكره لا يحتج بحجة .

ومدح الشعراء صلاح الدين بقصائد مبشرين اياه بالفتح الأكبر ومنهم محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق .

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر   مبشر بفتوح القدس فى رجب

وأمضى صلاح الدين بعد ذلك وقتا فى التنظيمات الادارية فى مصر وبلاد

---

(٤١) ابن الأثير . الكامل جـ ١١ ص ٤٩٦ — ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٢ .

الشام ، كما كان يعمل على وضع الترتيبات فى اللازمة لانجاح خطة الجهاد القدس .

وربما ساعد صلاح الدين سوء الأحوال فى مملكة بيت المقدس والخلاف حول من يعتلى عرش المملكة بعد وفاة الملك بلدوين الرابع الملك المجذوم وتدخل صاحب طرابلس وزوجته صاحبة طبرية فى شئون المملكة .

الاستنفار للجهاد :

وقد بدأ صلاح الدين يستنفر الناس للجهاد وذلك فى مستهـل عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، فكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرهما من بلاد الشرق ، والى مصر والى الشام يدعوهم للجهاد ، ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهيز له بغاية الامكان .

وخرج السلطان من دمشق يوم السبت مستهل العام فوصل الى رأس الماء فأمر ابنه الملك الأفضـل نور الدين بالاقامـة هناك لتجتمع عنـده الامداد والاجناد ، ثم سار هو الى بصرى وخيم على قصر السلامة حيث قام بعملية استطلاع وتأمين ضد جنود أرناط صاحب حصن الكرك . وهاجم صلاح الدين مزارع الحصن وأفسد كرومهم وكذلك فعل بأرض الشوبك .

ووصلت العساكر المصرية فتلقاها صلاح الدين بالقريتين ، وأمرهم بالتفرق فى أرض الكرك والشوبك .

وقدمت العساكر الحلبية بعد تأخرها بعض الوقت وذلك لاشتباكها مع الفرنج بالقرب من أنطاكية ، وكان عـلى رأسهم بدر الدين دلدرم بن ياروق ، وقدم عسكر دمشق وعلى رأسهم صارم الدين قايماز النجمى ، وتجمعوا عند الملك الأفضل ، فانهض فرقه الى صفورية حيث التحمت بجيوش الصليبيين وأوقعت بهم الهزيمة وكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح .

ووصلت البشائر الى السلطان وهو يغير على الكرك والشوبك فسار الى عشترا وعسكر بها . وفى عشترا وفدت الجيوش الاسـلامية وكانت عدتها كما تقدرها المصادر اثنتى عشر ألف مقاتل . واستعرض صلاح الدين عسكره ثم رتبه فرقا (أطلابا) وسار الى ثغر الاقحوانة فأقام هناك خمسة أيام حدد لكل أمير من أمراء جيشه مهماته وموقعه ، والتقت العساكر حول بحيرة طبرية .

وترك صلاح الدين أطلاب جيشه على مواقعها رابضة حول البحيرة واتجه هو لحرب طبرية ففتحها فى ساعة واحدة ، واستعصت عليها قلعتها(٤٢) .

موقعة حطين ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

يصفها المؤرخون بأنها مفتاح الفتوح الاسلامية ، وبها تيسر فتح بيت المقدس ، وكان الصليبيون قد علموا أخبار العسكر الاسلامى ، فساروا اليهم وعلى رأسهم مقدميهم وقوادهم وفيهم الملك وابرنس الكرك .

يقول ابن شداد : ان الفرنج تحركوا لمقابلة العسكر الاسلامى فالتقوا بهم عند سطح جبل طبرية الغربى ، وقاتلوهم حتى جن الليل فظل الفريقان شاكين السلاح حتى الصباح فالتحما ، وذلك بأرض لوبية وضيق المسلمون عليهم الخناق ، وحلت بالفرنج خسائر عظيمة .

وكانت خطة المسلمين هى قطع سبل الاتصال بين الصليبيين فى شرق ميدان المعركة وبين الساحل حيث يمكنهم الحصول على مدد من المدن الصليبية . وسمح المسلمون للصليبيين بالتقدم الى نحو حطين ، بينما سيطر المسلمون على سطح الجبل ومنعوهم من التقدم الى طبرية حيث يمكنهم الحصول على الماء .

وغربى بحر الجليل ، وبالقرب من قرون حطين دارت المعركة واحكم المسلمون تضييق الحصار من كل جانب على الصليبيين ، واشتد بالصليبيين العطش ، واشتد ضغط المسلمين عليهم ، وفر بعضهم الى جبل حطين حيث لاحقهم المسلمون . وازداد حرج الموقف بالنسبة للصليبيين حين أشعل المسلمون النار فى الأعشاب المنتشرة فى المنطقة الواقعة بين لوبيا وطبرية مما زاد فى عطش الجنود الصليبيين يضاف الى ذلك حرارة الجو فقد كانت الصيف شديدة الحرارة ، وحين فكر الصليبيون فى العودة الى الساحل كان ذلك من العسير جدا لبعد المسافة بينهم وبين مدن الساحل ولانتشار كمائن المسلمين ، وقطع خط الرجعة عليهم .

وانهى المسلمون تلك المعركة الفاصلة بهجوم شامل على قلب الجيش

---

(٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٨٨ .

الصليبى ، أسروا فيه الملك ، واستولوا على صليب الصلبوت ، وساقوا مقدميهم وأمراءهم أسرى ٠

يقول ابن شداد :(٤٣) ثم كان صباح السبت الذى بورك فيه فطلب كل فريق من الفريقين مقامه ، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين ، وكان حقا علينا نصر المؤمنين ٠

وكانت خسائر الصليبيين فادحة ، كما كانت أسراهم فى أعداد كبيرة وتقدرهم المصادر الاسلامية بثلاثين ألف أسير ما بين رجل وامرأة ٠ كما كانت الغنائم كثيرة عظيمة(٤٤) ٠

وكان من بين الاسرى مقدم الفرنج الملك جفرى (جى دى لوزنجنان) وأبرنس الكرك الأمير أرناط وأخو الملك وهنفرى بن هنفرى صاحب تبنين وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية وصاحب جبيل ومقدم الاسبتارية ٠

أما مقدم الداوية والاسبتارية فقد اختار السلطان قتلهما ، أما الملك فان صلاح الدين أكرمه واحضره اليه وأحضر معه البرنس أرناط ٠ وقدمت المشروبات المثلجة الى الملك الذى شرب منها ثم ناولها الأمير ، لكن صلاح الدين قال للترجمان : قل للملك : أنت الذى سقيته ، والا ما سقيته أنا ، وأراد بذلك عادة عربية بأن الأسير اذا أكل أو شرب ممن أسره حصل له الأمان ٠

يقول ابن شداد وتتفق المصادر الاسلامية معه : أن صلاح الدين كان قد نذر مرتين ان أظفره الله بالابرنس أن يقتله ٠ الأولى حين أراد المسير الى مكة والمدينة والاعتداء على مقدسات المسلمين فيها ، والتانية حين خرق الهدنة بينه وبين السلطان وتعرض لاحدى القوافل الاسلامية المارة بأرضه ، وقال لاسراه : قولوا لمحمد يجىء ينصركم ٠ ولما أظفره الله به ذكره بمقولته تلك ، وقال له هأنذا انتصر لمحمد ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يقبل فاستل صلاح الدين خنجره (النمجاه) وضربه بها فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار ٠ لكنه لم يقتل الملك وقد ظن أنه يعامل مثل

---

(٤٣) ابن شداد ٠ النوادر السلطانية ٠ ص ٧٦ ، ٧٧ ٠

(٤٤) ابن العديم ٠ زبدة الحلب جـ ٣ ص ٩٥ ٠

معاملة أرناط • أما بقية الاسرى فقد سير بهم الى قلعة دمشق حيث تم الاحتياط عليهم •

ويصف ابن شداد فرحة المسلمين بذلك النصر : وبات الناس في تلك الليلة في أتم سرور وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله والتكبير والتهليل حتى طلع صباح الأحد(٤٥) •

واستكمل صلاح الدين انتصاراته في المنطقة فسار بعد ذلك الى طبرية ونسلم قلعتها من صاحبتها زوجة ريموند صاحب طرابلس ، فسلمت القلعة وخرجت مؤمنة على نفسها ومالها وسارت الى زوجها •

ورحل السلطان بعد ذلك الى مدينة عكا حيث قاتل عليها واستطاع أن يستنقذ أربعة آلاف أسير من المسلمين واستتبع ذلك بفتح سلسلة من المدن ففتح قيسارية وبالس وحيفا وصفورية والناصرة والشقيف والفولة ، كذلك استطاع صلاح الدين أن يستولى على تبنين وبيروت وجبيل •

واتجه بعد ذلك جنوبا الى عسقلان فاستولى عليها كما استولى أيضا على الرملة ويبنى (يبنا) والداروم ، وتسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون وبيت لحم ومسجد الخليل وبهذا عادت معظم المدن الساحلية والداخلية المسلمين •

استرداد بيت المقدس :

تقوض نفوذ الضليبيين بسقوط معظم المعاقل والمدن والحصون التى كانت بأيديهم للمسلمين ، وبعد أن استرد صلاح الدين عسقلان واجتمعت عليه عساكره التى وجهها للاستيلاء على المدن الساحلية توجه الى بيت المقدس •

وكانت بداية هجوم صلاح الدين على بيت المقدس من جانب المدينة الغربى لكنه رأى أن السور مكتظ بالمقاتله وقيل ان عدد المقاتله على ذلك الجانب من السور بلغ ستون ألفا •

ومن ثم رأى السلطان الانتقال الى الجانب الشمالى حيث نصب عليه

---

(٤٥) ابن شداد • النوادر السلطانية ص ٧٩ •

آلات حصاره وشدد عليه لقتال والرمى حتى تم للمسلمين أحداث ثلمة بالسور • ولما ضيق المسلمون على بيت المقدس ورأى الصليبيون بها حرج الموقف طلبوا الأمان والتسليم • وتشاور المسلمون فيما يمكن أن يفعلوه ويبدو أن صلاح الدين رفض أن يستجيب للأمان الذى طلبه الصليبيون وبأنه أعاد رسل الصليبيين خائبين دون أن يحقق لهم مطلبهم فى الأمان •

وقد اضطر بليان الابلينى Balian of Ibelin ان يطلب الأمان لنفسه ويأتى الى صلاح الدين للتفاوض • تقول المصادر : وخرج عند ذلك اليه ابن بارزان ملقيا بيده ، ومتوسطا لأمر قومه حتى ستقر مع لسلطان على خروج الفرنج عن بيت المقدس بأموالهم وعيالهم وأن يؤدوا عن كل رجل منهم عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل طفل لم يبلغ الحلم دينارين ، ومن لم يقدر على ذلك وقع فى الرق وبلغ جملة ما أخذ عن الصليبيين مائتين وستين ألف دينار صورية ووقع فى الرق منهم ستة عشر ألفا(٤٦) •

وتسلم المسلمون القدس فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٤ هـ / ١١٧٨ م وأقيمت فيها الصلاة فى الجمعة التالية أول جمعة فى شهر شعبان من نفس العام •

وعاد القدس الى الاسلام ، ورتب صلاح الدين للمسجد الأقصى خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس ، وأمر بعمل منبر للمسجد وكان نور الدين قد أمر بعمل منبر للقدس ليس كمثله فى المنابر فأمر باحضاره واقامته فى المسجد الأقصى • ورتب السلطان أمور البلد وأمر بتحويل المراكز المسيحية للداوية والاسبتارية الى مدارس وأغدق الأموال وأقطع الاقطاعات ثم رحل عنها ليستكمل رسالة الجهاد التى نذر نفسه من أجلها •

الحملة الصليبية الثالثة :

كان رد الفعل قويا فى أوروبا المسيحية نتيجة لسقوط بيت المقدس

---

(٤٦) العماد الكاتب • الفتح القدسى • ص ١١٦ : ١٢٩ •
ابن شداد • النوادر السلطانية ص ٨١ : ٨٢ •
ابن الأثير • الكامل جـ ١١ ص ٥٤٩ : ٥٥١ •
ابن العديم • الزبدة جـ ٣ ص ٩٨ ، ٩٩ •

وعودتها الى أيدى المسلمين ، فقد تقلص ملك الصليبيين فى المشرق فضاعت الرها ، ومن بعدها بيت المقدس ، ثم سقطت المدن الساحلية والداخلية ولم يعد للصليبيين سوى بعض المواقع الساحلية وانكمشت امارة طرابلس ، وتهدد أمن أنطاكية ٠

ولقد تمخض عن ذلك شعور عنيف بالسخط والغضب كان من نتيجته أن كونت أوروبا المسيحية حملة جديدة للانتقام من المسلمين ، وتلك كانت الحملة الصليبية الثالثة ٠

وتحركت ألمانيا لنجدة الصليبيين وحماية المسيحية فى الشرق ، وتزعم الامبراطور فردريك باربروسا الموقف واستعد لقيادة حملة عسكرية سار بها عبر أوروبا الشرقية مخترقين الأراضى البيزنطية فى طريقهم الى بلاد الشام ووصلت الاخبار الى صلاح الدين من حلب تؤكد تحرك ملك الألمان من القسطنطينية فى اعداد عظيمة قدرتها المصادر بمائتين وستين ألف جندبا ٠ وأمام هذا الموقف استنفر السلطان الناس للجهاد ، وسار القاضى ابن شداد بنفسه للدعوة للجهاد ، فذهب الى بغداد حيث الخليفة الناصر ، وسار عماد الدين زنكى صاحب سنجار بعسكره ، كما سار ابن أخيه سنجرشاه ٠ صاحب الجزيرة ، وجاء صاحب الموصل بعسكره وصاحب اربل ، كلهم تحركهم الاستجابة لداعى الجهاد ، مما يؤكد وحدة الكلمة ونجاح صلاح الدين الأيوبى فى توحيد الاسلام ، وتدعيم أسس الجبهة الاسلامية ، واخراجها الى حيز التطبيق العملى ٠

وتتقدم الحملة التى يقودها الامبراطور فردريك باربروسا فى أرض سلاجقة الروم ، حيث تعهد سلطان سلاجقة الروم بمساعدتهم نتيجة لمشكلاته الداخلية والخارجية ، وللعداء الذى كان قائما بينه وبين صلاح الدين من جهة وبين البيزنطيين من جهة أخرى ٠

وعلى الرغم من الاشارة الى نوع من التفاهم بين السلاجقة والالمان الا أن بلادهم لم تنج من هجومهم ، فقد تعرضت قونية لبربرية الالمان فهاجموها وأحرقوا أسواقها ، واقاموا فى قونية خمسة أيام حتى أرسل قلج أرسلان الى الامبراطور الالمانى يطلب الأمان ، واستجاب الامبراطور الى ذلك ، وقدم له السلاجقة الادلاء لقيادته الى بلاد الشام ٠

واشتد الموقف على المسلمين ، وتصور المصادر الاسلامية مدى اهتمام المسلمين بتلك الحملة القادمة اليهم وخوفهم على بلاد الشام ، واستنفار

صلاح الدين للمسلمين بالاستعداد للجهاد حتى أن صلاح الدين أمر بتدمير عدد من المواقع والحصون والمدن فى شمال بلاد الشام حتى يعرقل تقدم الالمان اليها ٠

وتتدخل الأقدار فى تحويل الموقف كله لصالح الاسلام ، اذ يتعرض الامبراطور الالمانى لحادثة يغرق فيها فى نهر صغير فى قيلقية ، ووصل الجيش الالمانى الى أنطاكية ومعهم جثمان الامبراطور الغريق ، ومنها فضل ابن الامبراطور فردريك أن يواصلوا سيرهم الى عكا حيث يشتركون مع الصليبيين فى قتال المسلمين ٠

كذلك حرك الحماس الدينى ملك فرنسا وملك انجلترا للانتقام لبيت المقدس ، والثأر للمسيحية فى المشرق ، أما ملك فرنسا فيليب أغسطس فقد أبحر من مرسيليا فى طريقه الى الساحل الشامى ، وأما الملك الانجليزى ريتشارد فقد خرج من جنوا وتم اللقاء بين الزعيمين الأوروبيين فى صقلية ، ومنها بدأ الترتيب للذهاب الى الشام ٠

وفى عام ١١٩١ م يصل الملك الفرنسى فيليب أغسطس الى صور ومنها الى عكا حيث هاجمها ، وساعده فى ذلك الصليبيون فى بلاد الشام ٠

وفى يونيو من نفس العام تصل أساطيل الملك ريتشارد الى صور فترفض الحامية أن تستقبله ويضطر الى الوصول الى عكا وازداد الصليبيون قوة بوصول ذلك المدد وفى نفس الوقت ساء الموقف فى عكا ، وضعف موقف المسلمين فيها ٠

وعلى الرغم من هذه الحالة الشديدة على المسلمين ، فان أحوال المعسكر الصليبى كانت تعكس التفكك والخلاف بين رجالاتهم ، فقد كان ذلك الخلاف على أشده بين كونراد الثالث وبين جى دى لوزيجنان مما أدى بكونراد الى مغادرة عكا والوصول الى صور ٠ كذلك مرض ريتشارد قلب الأسد واضطر الى مراسلة صلاح الدين يطلب الصلح ورغم تلك الأحوال التى عانى منها معسكر الصليبيين الا أنهم عاودوا القتال وضايقوا عكا ، واشتد الحصار الذى تعرضت له حامية عكا الاسلامية ، ولم تفلح جهود صلاح الدين برا فى انقاذها وانتهى الأمر بالحامية الاسلامية الى الاستسلام(٤٧) ٠

---

(٤٧) ابن شداد ٠ النوادر ٠ ص ١٧١ ٠

وبدأت المفاوضات بين المسلمين والصليبيين ومثل المسلمين فيهـــا الملك العادل ، وقام بالترجمة بينه وبين ملك الانجليز ابن الهنفرى • وكانت القاعدة التى أراد ملك الانجليز أن يقيم عليها الصلح هى : « أن تعـــود البلاد كلها الينا (الصليبيون) وتنصرفون الى بـــلادكم(٤٨) • ولم تتم المفاوضة لتطرف الملك ريتشارد فى مطالبه •

وترددت المراسلات بين السلطان وبين ريتشارد فى طلب استئناف المفاوضات ، فأجاب بأنه ترك أمر الصلح للملك العادل • وكذلك طلب المركيس كونراد الثالث الصلح شريطة أن يعطيه المسلمون صيدا وبيروت •

وعلى الرغم من الجهود العسكرية التى بذلها الطرفان ، والجهـــود السلمية التى هدف من ورائها كل من الصليبيين والمسلمين كسب الوقت واعادة ترتيب الصفوف ، فان الحملة الثالثة اسهمت فى زيادة الخلاف بين الصليبين ، واضطر الملك فيليب أغسطس للعودة الى بلاده وترك الأمر كله للملك ريتشارد قلب الأسد يدلى فيه بدلوه كيفما تطلبته الظروف السياسية

وبرحيل ملك فرنسا أصبح ريتشارد قلب الأسد زعيم الحملة الثالثة دون منازع ومن ثم كان عليه مسئولية ايجاد حلول لمشـــكلات الصليبيين فى الشام •

وكانت أولى المشكلات التى أولاها عنايته هى مشكلة عكا ، وكانت المفاوضات دائرة بينه وبين صلاح الدين • يقول ابن العديم : فصالحـــوا الفرنج على تســـليم البلد وجميع ما فيه من آلات الحصـــار والعدد والأســـلحة والمراكب وغير ذلك ، وعلى مائتى ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جـــانبهم يختـــارونهم وصليب الصـــلبوت على أن يخرجوا ســـالمين بأنفســـهم وذراريهم وأموالهم وقســـاوستهم وضمنوا للمركيس عشر آلاف دينار لأنه كان الواسطة ، ولاصحابـــه أربعـــة آلاف(٤٩) •

وحلف الفـــرنج على ذلك لـــكنهم عادوا فنـــكثوا على أعقابهم ونقضـــوا العهد وأسروا كل من كان فى عكا من المسلمين واستولوا على أموالهم ، وسلبوا ثيابهم وسلاحهم ، ثم قتلوا منهم ألفين فى يوم واحد •

---

(٤٨) ابن شداد • النوادر ص ١٨٢ •

(٤٩) ابن العديم • الزبدة ج ٣ ص ١١٩ •

والمشكلة التانية هى تأمين الساحل ضد هجمات المسلمين وخاصة الاسطول المصرى وكان هدفه عسقلان ، وقد سبقه صلاح الدين اليها وهدمها وبذلك فوت عليه تلك الفرصة واتجه بعد ذلك صلاح الدين الى القدس للدفاع عنه وحمايته ضد آية محاولة لاستعادته من المسلمين ٠

وقعة أرسوف ٥٧٨ هـ / ١١٩١ م :

بدأ الصليبيون تحركهم نحو أرسوف ، وتواصلت الى السلطان أخبارهم فاستعد للقائهم ٠ ويصف القاضى بهاء الدين بن شداد هذه الواقعة فقد كان من شهود العيان يقول : أبلى المسلمون بلاء حسنا ، وأحاط المسلمون بفرسان الصليبيين وأوشكوا أن يوقعوا بهم الهزيمة ،لكن ريتشارد قلب الأسد تمكن من الصمود فى الحرب ، واستطاع فى النهاية ان ينزل هزيمة بالمسلمين ، وهى أول هزيمة تحل بالمسلمين منذ أن قاد زمام المعركة صلاح الدين الأيوبى ٠

وقد كان لتلك الهزيمة أوخم العواقب على المسلمين ، ذلك لأن اطماع الصليبيين لم تكن تقف عند حد ، ومما يؤكد ذلك تفكير ريتشارد بعد انتصاره فى أرسوف فى التوجه الى بيت المقدس ٠

وكان على صلاح الدين فى نفس الوقت أن يواجه مشكلة الحفاظ على بيت المقدس ، ومن تم أعد خطة حكيمة للدفاع عن المدينة وحمايتها ، فقسم سور البلد ، ووزع قواده عليه ، وشرع فى عمارة سور جديد وعلى أية حال لم يتمكن ريتشارد من الاستيلاء على القدس وربما تراجع عن دخولها لأسباب كثيرة منها آن مفاوضات من أجل الصلح كانت دائرة بينه وبين المسلمين ولأن الحرب كانت قد استنفذت امكانيات وطاقات كثيرة للصليبيين والمسلمين على السواء هذا بالاضافة الى الرغبة الملحة للملك ريتشارد فى العودة الى بلاده لأمور داخلية بها ٠

صلح الرملة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م :

بدأت المفاوضات مرة أخرى بين صلاح الدين وريتشارد وأدت فى النهاية الى عقد صلح بينهما كانت بمقتضا الهدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر على أن يسلموا للمسلمين عسقلان وغزة والداروم ، وان يبقى لهم البلاد الساحلية ما بين صور ويافا ٠ وان تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين واشترط صلاح الدين دخول بلاد

الاسماعيلية ، واشترط الصليبيون دخول انطاكية وطرابلس فى الصلح .

أما وضع الاماكن المقدسة فقد نص الصلح على أنه من حق المسيحيين الحج الى بيت المقدس دون أن يدفعوا أية ضرائب للمسلمين .

واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء لثمان بقين من شعبان وحلفوا ولم يحلف ملك الانجليز ، بل اخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وحلف ابن اخته الكونت وبدليان بن بارزان الابليني وكان ممثلوا المسلمين فى هذا الصلح الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر والملك المنصور صاحب حماه ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك ، والامير بدر الدين الياروقى صاحب تل باشر ، والامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر ، والأمير سيف الدين المشطوب(٥٠) .

وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر (٥٠) وأعلن الناس ، الا ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل(٥١) .

وبعد أن استقرت الأمور على ذلك النحو عادت العساكر الاسلامية الى أوطانها ، وعاد السلطان الى دمشق بعد أن زار القدس . وفى دمشق مرض صلاح الدين مرضه الأخير وتوفى بها فى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م .

الدبلوماسية الاسلامية :

كانت الدبلوماسية الاسلامية فى هذه المرحلة من العلاقات السياسية الاسلامية ذات سمة مميزة لعبت دورا هاما فى الأحداث والافادة منها لصالح القضية الاسلامية فعندما خطط المسلمون لاسترداد القدس ، كان عليهم الا يفتحوا أكثر من جبهة قتال على أنفسهم فى وقت واحد . هذا بالاضافة الى أنه حين تمكن المسلمون من استرداد المدينة المقدسة تحركت أوروبا كلها فى حركة سريعة مضادة للمد الاسلامى الذى بدأ يحسر الوجود الصليبى فى المشرق .

---

(٥٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٥ .

(٥١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

ولقد كان صلاح الدين بعيد النظر فى رسم أبعاد الدبلوماسية الاسلامية فمد يده الى علاقة ودية مع الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس خاصة وان العلاقات كانت قد ساءت بين امبراطور ألمانيا والامبراطور البيزنطى وفى مقابل الصداقة التى أبداها اسحق انجليوس طلب أن توضع الاماكن المقدسة المسيحية تحت اشراف الكنيسة الشرقية .

وقد نجح صلاح الدين فى هذا الاتجاه ، حيث وعد الامبراطور البيزنطى أن يخبر المسلمين بتحركات الحملة الصليبية الثالثة ، كما أن الامبراطور البيزنطى تحالف مع المسلمين ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى مما شغل السلاجقة بعض الوقت عن الاغارة على المدن الاسلامية فى شمال الشـــام ومضايقة الأمراء المسلمين .

ومد يده أيضا الى الجمهوريات التجارية الايطالية ، ففى مقابل بعض الامتيازات التى منحها لهم صلاح الدين ، فنقل النجـار الايطاليون أخبار التحركات الأوروبية الى المسلمين ، وذلك حماية لمصالحهم الاقتصادية — وقد أدركت الدبلوماسية الاسلامية أن مصالح الجمهوريات الايطالية المادية تأتى فى المرتبة الأولى ، واستطاع صلاح الدين أن يستخدمهم بما يحقق مصالح المسلمين . وعلى الرغم من تحالف التجار الايطاليين مع الصليبيين فانهم تجاهلوا هذا التحالف ، وتقدموا للمسلمين بما أرادوا فى مقابل المصـــالح المادية .

كذلك عمد صلاح الدين أن يعقد هدنة مع بعض الامراء الصليبيين أو مع مملكة بيت المقدس مما يخدم القضـــية الاســـلامية ، وذلك لأهداف استراتيجية عامة رآها قائد المعركة ، وحين استنفدت غرضها ، كان ينهيها ، ويعلن حالة الحرب . وقد نجحت أيضا هذه الدبلوماسية فى كسب الوقت ، وفى ترحيل موعد المعركة وفق ما يراه المسلمون .

ومن الخطوات الهامة التى اتبعها صلاح الدين ، والتى اسهمت الى حد كبير فى انجاح سياسته هو أنه كان يختار مكان وزمـان المعـــركة التى يريدها ، كما أنه كان يعهد أحيانا الى الحرب الخاطفة حسب ما أملته الظروف العامة السياسية والاقتصادية والعسكرية .

الشرق الأدنى بعد صلاح الدين

البيت الأيوبى :

توفى صلاح الدين الأيوبى فى عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م تاركا وراءه مملكة مترامية الاطراف فقد امتدت املاك الدولة الأيوبية لتشمل مصر وبلاد الشام والجزيرة والحجاز واليمن وشمال أفريقيا والنوبة ٠

وكانت وفاة صلاح الدين خسارة عظيمة أصابت الأمة الاسلامية فقد أثر غيابه على تماسك الجبهة الاسلامية اذ سرعان ما دب النزاع بين أفراد البيت الأيوبى وبدأ الانقسام يهدد صرح الوحدة الاسلامية التى بناها ٠

ويذكر القاضى بهاء الدين بن شداد مدى وقع النبأ على الاسلام والمسلمين يقول : لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا ما لا يعلمه الا الله ، وبالله قد كنت اسمع من بعض الناس أنهم كانوا يتمنون فداءه بأنفسهم(١) ٠

وبوفاة صلاح الدين آلت مصر الى ابنه الملك العزيز عثمان ، بينما احتفظ الملك الأفضل نور الدين بدمشق وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ٠ واستولى الملك الظاهر غازى على حلب ٠ أما الملك العادل أبو بكر أيوب فقد كان من نصيبه فى ذلك الوقت الكرك والاردن بالاضافة الى الجزيرة وديار بكر ٠ ورأى الملك العادل وكان الرجل الثانى فى دوله صلاح الدين أن يظل فى الجزيرة خشية أن تلتهمها الثورة ، كذلك من الممكن أن يكون العادل قد رأى أن يتريث الى أن تتضح له الأمور فى الدولة على وجه العموم وقد كانت اليمن من نصيب سيف الدين طغتكين ٠

لقد هددت مشكلة الوراثة البيت الايوبى كما أثرت فى قوة الجبهة الاسلامية ٠ وقد كان السبب فى قيام النزاع بين أفراد البيت الأيوبى هو أن صلاح الدين رأى أن يوصى لأبنه الأفضل صاحب دمشق بالسلطنة من بعده ٠ وقد قوى من مكانة الأفضل أن حلف له العساكر جميعهم فى أنحاء

---

(١) ابن شداد ٠ النوادر السلطانية ص ٢٤٦ ٠

الدولة الأيوبية ، لكن الأفضل لم يكن بالشخصية السياسية والادارية التى كانت تحتاجها البلاد فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الأمة الاسلامية جميعا فالملك الأفضل اتهم بأنه الملك النوام وذلك لشدة ولعه باللهو • مما أبعده عن السياسة ومن ثم رأى أخوه العزيز أن أمور الدولة لا يمكن ان تترك لهوا وعبثا ، انما لكى توضع الأمور فى نصابها وكان لا بد اذن من التخلص من الملك الأفضل فسار اليه فى جيش كبير وضرب حصارا حول مدينة دمشق ، وهنا لاحت فرصة مواتية للملك العادل صاحب الجزيرة وعم الأخوين المتنازعين العزيز عثمان والافضل وانضم العادل بطبيعه الحال الى الملك العزيز عثمان وبذلك وقف معه ضد بقية افراد البيت الايوبى بالاضافة الى أمراء الشام • ونجح العزيز عثمان وعمه الملك العادل فى القضاء على الملك الأفضل •

وقد كان من أهم نتائج الانقسام والنزاع بين الأمراء الأيوبيين أن بدأت أوروبا تتحرك من جديد لشن عدوان على الشرق الاسلامى • وفى هذه المرة كان الامبراطور الألمانى هنرى السادس هو المتزعم للحركة التى نادى بها المسيحيون باخضاع الشرق اللاتينى والشرق البيزنطى لسلطانهم ، وان يحرروا الاراضى المقدسة الا أن الامبراطور لم يتمكن فى ذلك العام (١١٩٥م) من تحقيق حلمه فأرسل بعض رجاله الى بلاد الشام •

وبالمقارنة كان الصراع على أشده بين رجال الاسرة الأيوبية خاصه بعد القضاء على قوة الأفضل ، اذ لقى الملك العزيز عثمان فى مصر مصرعه أثر سقوطه عن صهوة جواده مما أدى الى أن تقوم على حكم مصر من بعده ابنه الملك المنصور •

ومع حكم الملك المنصور تتزايد المشكلات بين العادل وبين الملك الأفضل ، لكن الملك العادل استطاع ان يحسم الموقف عسكريا فى معركة دارت بينه وبين الأفضل عم الصبى ، والذى كان وصيا عليه وحسمت نتيجة المعركة الموقف تماما ، اذ حلت الهزيمة بالأفضل ، ودخل الملك العادل القاهرة واستولى عليها واستطاع الحصول على موافقة الأمراء فى مصر على أن يعزل المنصور عن حكم البلاد وبذلك تولى الملك العادل حكم مصر • • مع احتفاظه باقطاعاته فى دمشق والجزيرة •

وفى عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م برز الملك العادل سلطان مصر والشام الذى أخذ على عاتقه استكمال ما بدأه صلاح الدين الأيوبى ، فعلى صعيد

العلاقات السياسية الاسلامية رأى العادل وقبل أن يتولى حكم مصر ، أن يواجه الصليبيين فى بلاد الشام ، وان يواجه الحملة الألمانية ، وان يجدد مع المملكة الصليبية صلح الرملة الذى عقده فى عام ١١٨٩ م لكن الصليبيين فى الصلح الجديد احتفظوا ببيروت وجبيل واحتفظ المسلمون بمدينة يافا ، على أن يستمر الصلح ثلاثة سنوات ٠

وأما فى المجال الداخلى فقام الملك العادل بالتغيير الذى يضمن بــه استقرار الأمور ، فجعل من نفسه سلطانا على ممتلكات صلاح الدين ، بينما عين أولاده لحكم الولايات ، ففى مصر عين الملك الكامل ، وأعطى دمشــق للملك المعظم عيسى ، وحوران للاشرف موسى وعين الأوحد على ميافارقين وقد استطاع العادل بواسطة هذا التغيير الادارى أن يعيد الوحدة للدولة الأيوبية ، وان يعيد بناء الجبهة الاسلامية ٠

اتسع مدى الدبلوماسية الاسلامية فى عهد الملك العادل ، فقد افاد من الخلافات التى نشبت بين الصليبيين فى بلاد الشام ، ذلك أن النزاع بين انطاكية وبيت المقدس وامارة طرابلس أدى الى أن تتقارب المصالح بين بيت المقدس ومصر ، ويعقد الملك العادل صلحا مدته ست سنوات ترتب عليه عودة التجارة مع المدن الساحلية فى بلاد الشام ٠

كذلك كان نتيجة للدبلوماسية الاسلامية أن أسهم البنادقة خدمــة لمصالحهم التجارية فى تغيير هدف الحملة الصليبية الرابعة ، فبعد أن كان هدفها مصر ، تنحرف لتتخذ القسطنطينية هدفا لها ٠ وتنجو مصر من عدوان جديد كاد يشنه عليها الغرب المسيحى ٠

الحملة الصليبية الرابعة

اعــداد الحملة :

بدأ الاعداد للحملة منـــذ عام ١١٨٩ م حين تولى منصب البابوية فى روما البابا انوسنت الثالث ٠ وقد رأى هذا الرجل ضرورة الانتقام للمسيحية واعادة ما حققه الصليبيون منذ عام ١٠٩٩ م واسترجاع الاراضى المقدسة من ايدى المسلمين ٠ ويمكن القول ان البابا أنوسنت الثالث أراد أن يهدم كل ما بناه صلاح الدين والمسلمون فى الشرق الاسلامى ٠

وقد بدأ مشروعه بأن اتصل ببطريرك مدينة بيت المقدس يطلب أليه

أن يمده ببيانات مفصلة عن قوة المسلمين ومدى استعداداتهم للقتال ، كما طلب اليه أيضا أن يمده بمعلومات عن العلاقات بين المسلمين بعضهم بعضا ٠

ومن ثم بدأت الاستعدادات للحملة الرابعة ٠ ويلاحظ أن هذه الحملة لم تكن حملة شعبية ، كما لم تكن حملة اباطرة وملوك ، وانما كانت حملة للامراء أسهم فيها عدد كبير من الأمراء والنبلاء الاوروبيين ، وكانت الأغلبية فيها للأمراء الفرنسيين ٠

وربما رأى الصليبيون عدم اشتراك الملوك والأباطرة فى هذه الحملة لأن التجارب أثبتت أن اشتراكهم لم يؤد الى نتيجة جدية فى حين ن الحملة الأولى التى لم يشترك فيها ملك و امبراطور أتت بنتائج طيبة لم تتحقق بعد ذلك ٠

كانت الخطوة الأولى أمام هذه الحملة هى تحديد اتجاهها ، ورأى بعض الأمراء أن تكون وجهتهم بيت المقدس ورأى فريق آخر أن تكون وجهتهم مصر باعتبارها المركز الحقيقى للجهاد وباعتبار أنها القاعدة التى تقوم فيها الدولة الأيوبية والتى سبق أن عانت من وجودها القوات الصليبية ، واستقر الرأى بين الأمراء على أن تكون مصر هى هدف تلك الحملة ٠

وبعد أن تم تحديد الهدف بدأ الاعداد العملى لهذه الحملة وكانت أولى الخطوات التى نفذها هؤلاء الأمراء هى الاتصال باحدى الجمهوريات التجارية الايطالية وهى البندقية حيث عقدوا معها اتفاقا يتم بمقتضاه أن تقوم الأساطيل البندقية بنقل الصليبيين الى الشواطىء المصرية وهنا يجب أن نوضح أن كثيرا من التجار الايطاليين كانوا يمارسون التجارة فى الموانى المصرية وخاصة دمياط والاسكندرية ٠

وفى عام ١٢٠١م بدأت القوات الصليبية تتوافد على البندقية استعدادا للرحيل الى الشواطىء المصرية ويأتى عام ١٢٠٢م دون أن تتحرك الاساطيل الايطالية لنقل هذه القوات لأن الايطاليين بطبيعة الحال لم يكن يهمهم مصالح الصليبيين ولم يكن من المعقول أن يتحركوا بما يمليه عليهم الصليبيون خاصة وان الصليبيين عجزوا عن دفع ثمن نقلهم بالسفن الايطالية الى شواطىء مصر ٠ وهنا بدأت البندقية تملى ارادتها وذلك طبعا وفق ما تمليه عليها مصلحتها الاقتصادية(٢) ٠

---

(٢) S. Runciman, A History of The Crusades, III, pp. 107 - 131.

واقترحت البندقية أن يكون وجهة الحملة مدينة زارا على الشاطىء المقابل للبحر الادرياتيكي لاستردادها من ملك هنغاريا وعند نجاح الصليبيين فى ذلك يكون الثمن نقلهم الى مصر • واستجاب الصليبيون لذلك رغم اعتراض البابا • وهاجم الصليبيون المدينة الآمنة زارا فى عام ١٢٠٢ م واستولوا عليها ، وهنا بدأ النزاع يدب بين البنادقة والصليبيين حول اقتسام الغنيمة وانتهى الخلاف الى حرب بينهما انتهت أيضا بالوصول الى اتفاق •

وتجب الاشارة الى أن البابا انوسنت التالث قد ثارت ثائرته ، وضاق بالحملة وأمرائها ذرعا فأصدر قرارا بالحرمان على أعضاء الحملة بأكملها ، كذلك شمل القرار البنادقة باعتبارهم مسئولين عن انحراف الحملة عن هدفها الأصلى •

بعد ذلك بدأ الصليبيون والبنادقة يستعدون للزحف نحو مصر ، فى نفس الوقت الذى حدثت ثورة فى القسطنطينية أدت الى خلع الامبراطور البيزنطى أسحق الثاني وفرار ابنه الكسيوس الى الغرب حيث طلب المساعدة من البابا ، وكان الكسيوس قد عرض على البابوية أن نعود تبعية الكنيسة الشرقية الى روما فى مقابل تلبية طلبه بالمساعدة •

وقد صادف هذا العرض السخى قبولا من البابوية ، كما وجد فيه التجار البنادقة فرصة طيبة لتحقيق مكاسب ضخمة وفى نفس الوقت كانوا يحرصون على التخلص من اتفاقهم مع الصليبيين ذلك لأن نقل الصليبيين الى مصر معناه انهاء العلاقة الطيبة بينهم وبين الملك العادل ، ومعناه أيضا القضاء على الامتيازات التى منحها لهم فى مصر ومما يذكر انهم فى عام ١٢٠٢م قد أرسلوا مندوبيهم لعقد اتفاقية مع العادل تعهدوا فيها بعدم المساس بمصالح مصر وعدم الاشتراك فى مشروعات من شأنها الاتفاق مع الصليبيين ضد مصر وكان من نتائج هذه الاتفاقية زيادة فى المنح والامتيازات التى حصل عليها البنادقة فى مصر •

من هنا كان من صالح البنادقة اقناع الصليبيين بمعونة الامبراطور البيزنطى الكسيوس فى العودة الى عرشه رغم العداء الشديد القديم بين الامبراطورية البيزنطية وبين البنادقة فقد كانت لا تسمح لهم بالتجارة فى القسطنطينية وحرمتهم بذلك من مكاسب اقتصادية ضخمة خصوصا وانها سمحت لتجار جنوة بالتجارة معها •

بدأ كل فريق فى استعراض مصالحه ، وبدأ البابا يذكر الاخطار التى تمثلها الدولة البيزنطية ضد الحركة الصليبية ، ففد وضع الامبراطور المخلوع اسحق الثانى انجيلوس العراقيل فى طريق الحملة الثالثة ولم يقدم أيـــة مساعدة للامبراطور الالمانى فردريك بربا روسا ، ورأى نجاح الحركـــــة الصليبية فى هذه المرحلة لن يتحقق الا بالاستيلاء على القسطنطينية ، كما أن القسطنطينية نفسها وقبل أن تقوم فيها الثورة قد سالمت العزيز عثمان حاكم مصر ، وكان البيزنطيون من قبل قد سالموا صلاح الدين ، وعاملوا المسلمين معاملة حسنة ، وهذا أيضا لم تكن البابوية لتســكت عليه أو لتغفره لهم ٠

وهكذا نجد أن الحملة الصليبية الرابعة تتجه الى القسطنطينية حيث وصلت اليها فى عام ١٢٠٤م ، واستولوا على المدينة وعاثوا فيها فسادا وقتلا ونهبا وسفكا للدماء ولم ينج الشيوخ والاطفال والنساء من وحشيـة الصليبيين ، بل لم تنج آثار المدينة الرائعة من أيديهم ومن العجيب أن الكنائس ذاتها لم تسلم من التدمير والتخريب ومما يذكر أن المسيحيين فى القسطنطينية قد تمنوا لو أن بلادهم قد سقطت فى أيدى المسلمين ٠

لقد أقتحم الصليبيون كنيسة أيا صوفيا وهم سكارى فانتهكوا حرمة المكان المقدس ، وداسوا الكتب المقدسة وهى كتبهم المقدسة بالاقدام ، ولم تسلم المساجد أيضا فقد أحرقوا مسجد القسطنطينية ، وهو الجامع القديم الذى بنى فى العصر الأموى ، وهو المسجد الذى كان المسلمون يقيمون فيه شعائر دينهم ، وظلت النيران التى أشعلوها فى المسجد تأكله لمدة يومين كاملين ٠

وبعد أن استولى الصليبيون على القسطنطينية بدأ التنافس من جديد بين البنادقة وبين الامـــــراء ، ثم استقر رأيهم عـلى اختيار امبراطور من الصليبيين وبطريرك من البنادقة ٠ وكان الامبراطور هو بلدوين التاسع كونت فلاندرز ، وتم حفل التتويج فى كنيسة أياصوفيا فى ١٢٠٤ م ، أما البطريرك فكان توماس موروسينى ، وبذلك يكون أول الكاثوليك الذى يتولى هذا المنصب الدينى فى كنيسة القسطنطينية الشرقية (٣) ٠

أما بقية أجزاء الامبراطورية فقد تم تقسيمها بين الامراء الذين اشتركوا

(٣) A. Vaseliev, A History of The Byzantine Empire, II p. 463.

فى الحملة وتحولت الامبراطورية البيزنطية الى اقطاعيات تشبه اقطاعيات الغرب المسيحى .

واستمر هذا الوضع الذى تمزقت فيه الامبراطورية البيزنطية وضاعت وحدتها حتى عام ١٢٦١م حين استطاع الامبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن الاستيلاء على القسطنطينية مرة أخرى وأعادة مجد الامبراطورية وهيبتها .

نتائج الحملة الصليبية الرابعة :

مما لا شك فيه أن هذه الحملة قد انحرفت بالفكرة المسيحية التى قامت عليها أساسا حركة الحروب الصليبية ، وهذا يدل على أن الفكرة ذاتها كانت فكرة خاطئة فلم يكن الصليبيون أنفسهم يؤمنون بقضية الأراضى المقدسة والاستيلاء عليها ، وانما كانوا يؤمنون أولا وأخيرا بمصالحهم المادية التى كانت تحرك كل فريق من الذين اشتركوا فى الحملات الصليبية منذ بدايتها .

والحملة الصليبية الرابعة قد أدت الى شدة العداء بين الشرق المسيحى والكنيسة الشرقية وبين الغرب المسيحى والبابوية ، كما عمقت الهوة بينهما فحين لجأ الامبراطور الكسيوس يطلب العون من المسيحية الغربية لم يكن يحتسب أن هجوما وحشيا بربريا سوف يقع على بلاده تكون من نتيجته اقامة امارة لاتينية فى القسطنطينية العاصمة البيزنطية .

وقد كان من نتائج تلك الحملة أيضا الخلاف بين البنادقة والصليبيين ولم تؤد الى أى تعاون بينهما كما كان متوقعا كذلك كان فى موقفة البنادقة وتحالفهم مع الملك العادل فى سبيل الحصول على امتيازات اقتصادية فى مصر دليلا كافيا على أن مصالح الجمهوريات الايطالية تأتى أولا ودائما فى المقام الأول .

كذلك لم يتحقق هدف البابا أنوسنت الثالث ، ولم يقدم للمشرق اللاتينى أية مساعدات لاخوانهم المسيحيين هناك والذين بدأوا يدركون أن أوروبا قد تخلت عنهم .

الفصل الثانى

استكمال المواجهة الحضارية

ظهر فى تلك المرحلة من تاريخ الأمة الاسلامية قوى سياسية جديدة كان لها دورها فى تغيير ميزان القوى ، ونقل الثقل السياسى الى المشرق ٠ فعلى الرغم من وجود بقايا الصليبيين فى بلاد الشام ، وعلى الرغم من تغير الأوضاع السياسية فى مصر الا أن الجذب السياسى انتقل الى الشرق حيث ظهرت الدولة المغولية كقوة مؤثرة فى السياسية العامة لتلك المرحلة ، كما مثل المغول القوة الوثنية المعادية للاسلام ، وأصبح العدو الجديد للاسلام الذى يجب أن يعلن الجهاد العام والاستنفار ضده كذلك ثم نوع من التقارب بين المغول الوثنيين وبين الصليبيين علهم يستطيعون بهذا القضاء عـــلى الاسلام ٠

وكان على العالم الاسلامى أن يواجه المغول كما واجه الصليبيين ، وكان على المسلمين أن يواجهوا التحدى العسكرى القادم اليهم من الشرق ، وأن يصمدوا فى وجه هذا الزحف حفاظا على منجزاتهم الحضارية ذلك الزحف الذى استطاع فى فترة وجيزة أن يقيم دولة اتصلت حدودهـــا مع حدود الخلافة العباسية فى بغداد ٠

والخريطة السياسية التى نناقش الأحداث عليها تشمل فى ذلـــك الوقت أى فى القرن الثالث عشر الميلادى دولة المغول فى الشرق ، وبينها وبين أراضى الخلافة تقوم الدولة الخوارزمية والى الغرب من أرض الخلافة تمتد بلاد الشام التى بدأت تشهد صراع أمراء البيت الأيوبى بالاضافة الى بقايـــا الصليبيين ثم مصر التى انتهت دولة الأيوبيين فيها ، وتسلم الحكم من بعدهم المماليك ٠

والقضية التى تهمنا بالدرجة الأولى تتعلق أساسا بالعلاقات السياسية الاسلامية فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ومدى ما وصلت اليه العلاقات بين الخليفة العباسى وحكم المسلمين وعلاقة الخلافة بالدولة البيزنطية بالاضـــافة

الى علاقة المغول مع الصليبيين ، كل هذا دون شك أثر على مجريات الأمور وأسرع فى أنهيار الخلافة العباسية وزوالها ، وتقدم الزحف المغولى ليهدد مصر ٠

وقد قامت علاقات عدائية بين تلك القوى السياسية فحين بدأ خطر المغول يهدد العالم الاسلامى لم يكن أمامه سوى القوة الخوارزميه التى كانت فى ذلك الوقت تحاول اثبات وجودها السياسى وتوسيع مدى دولتها ، لكن الظروف لم تكن كلها موانية للخوارزمين ، فكان الانتشار الواسع سببا فى ضعف القوات العسكرية الخوارزمية وعدم قدرتها على الوقوف مدى سنوات طويلة أمام الغزو المغولى حتى أصبح الغزو المغولى خطرا يهدد العالم كله تستطيع أية قوة الوقوف أمامه ٠

ولقد كانت الدبلوماسية الاسلامية غير موفقة فى تلك المرحلة فلم يتمكن الخوارزميون من اقامة علاقات وطيدة مع العباسيين ، كما لم يوفق الخوارزميون فى كسب ثقة القوى الاسلامية المحيطة بهم فى ذلك الوقت ٠

وكان قيام دولة المماليك كقوة سنية جديدة امتدادا للدولة الايوبية من العوامل التى حفظت التوازن الدولى فى السياسة الاسلامية ، وحافظت على الاسلام ، وردت للامة الاسلامية مكانتها وحققت النصر النهائى للاسلام ٠

اولا : الدولة الخوارزمية ٠

استطاع الخوارزميون أن يزيلوا دولة السلاجقة فى ايران وان يتقلدوا الحكم فيها وأن يحصلوا على اعتراف الخلافة العباسية بشرعية وجودهم فى المنطقة وذلك فى عام ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ٠ وقد كان قيام الدولة الخوارزمية فرصة سانحة للمسلمين لاحياء الخلافة العباسية التى كانت قد شاخت وهزلت قواتها ولو تم التعاون والاتحاد بين القوى الاسلامية لم يتمكن المغول من القضاء على الخلافة العباسية فى بغداد الا بعد أن أزالوا من طريقهم الدولة الخوارزمية فى ايران وأقاموا على انقاضها دولة مغولية تتاخم حدودها حدود الخلافة الاسلامية ٠

بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساع لها فى عهد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه الذى حكم فى الفترة من ٥٩٦ : ٦١٧هـ / ١١٩٩ : ١٢٢٠م وهذه الفترة توافق ظهور دولة المغول كقوة لها وزنها السياسى فى الشرق ٠ وبذلك أصبحت القوة المغولية تمثل خطرا مباشرا على الدولة الخوارزمية خاصة بعد توسعها شرقا وغربا لتتاخم حدود خوارزمشاه ٠

ولا نستطيع أن نغفل الحديث عن السلطان علاء الدين عند مناقشة الدولة الخوارزمية يقول ابن الاثير : هو محمد بن علاء الدين بن نكش ، كانت مدة حكمه احدى وعشرين سنة ، واتسع ملكه وعظم محله واطاعه العالم بأسره ، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه ، فانه ملك من حد العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند ، وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، وفعل بالخطا الأفعايل العظيمة وملك بلادهم(١) .

وقد أدرك المغول خطورة الدولة الخوارزمية فاعدوا العدة للقضاء عليها وقد صمد فى وجه المغول وصدهم عن أراضها أكثر من مرة .

وكانت الضربة القاضية التى وجهها التتر الى خوارزمشاه فى الرى عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، وذلك بعد أن استولت على كثير من المواقع الهامة فى الدولة الخوارزمية كبخارى وسمرقند ، وانهزم أمام المغول جيش خوارزمشاه بل هرب السلطان من أرض المعركة مؤسرا الا يواجه المغول ، ولم يبق أمام المغول سوى اقليم خورازمشاه القسم الرئيسى فى المملكة ، وحين سقط هذا فى أيدى المغول ضاعت الدولة الخوارزمية .

ويرجع المؤرخون هزيمة خوارزمشاه الى خيانة المرتزقة من الاتراك الذين انحازوا الى جينكيز خان مما ترتب عليه سقوط كثير من المواقع الحصينة ، وتعرض الاهالى لوحشية رهيبة تمثلت فى حمامات الدم والمذابح اللانسانية التى أقامها المغول .

جلال الدين منكبرتى :

كان جلال الدين منكبرتى يحكم اقليم غزنة عن أبيه ، فلما تعرضت الدولة الخوارزمية لهجوم المغول الشامل المدمر استدعاه لمساعدته فى التصدى لهذا الهجوم .

واستطاع جلال الدين منكبرتى أن يؤلف جيشا كبيرا واجه به المغول وأنزل بهم الهزيمة وذلك فى عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م ، وفر جنود المغول الى جينكيز خان حيث أخبروه بما دار وما تم أمام جيش جلال الدين منكبرتى .

---

(١) ابن الأثير . الكامل جـ ١٢ .

الا أن جلال الدين منكبرتى اضطر للعودة الى غزنة ، بعد أن ازال المغول دولة علاء الدين خوارزمشاه .

وكانت الرى وهمذان وأصفهان بيد غياث الدين بن خوارزمشاه ، واستطاع الصمود أمام المغول الذين لم يستطيعوا هزيمته ، بل تحولوا عنه الى بلاد القفجاق وذلك فى أواخر سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م

عاود المغول الهجوم على الرى وهمذان وأصفهان وعاثوا فيها فسادا بينما كان غياث الدين يقوم ببعض الأعمال العسكرية فى خلاط وغيرهما من مدن العراق .

وبدأ تقدم جلال الدين منكبرتى الى خوزستان والعراق فى عام ٦٢٢هـ ١٢٢٦م ذلك أن المغول كانوا قد هاجموا غزنة ببلاد الهند ، فسار جلال الدين الى كرمان ومنها الى أصفهان والتى كانت بيد أخيه غياث الدين خوارزم شاه.

ويقول ابن الاثير : وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى البصرة فسار اليهم شحنة البصرة وهو الأمير ملكتين فهمهم وقتل منهم جماعة ، وأغار عساكر جلال الدين منكبرتى على أراضى العراق فنهبوها ، وأمعن الخوارزميون فى اعتداءاتهم على مدن العراق ، حتى صالح مظفر الدين صاحب أربل جلال الدين منكبرتى ومن ثم عاد الى اذربيجان فملكها واستطاع ان يواجه قبائل الكرج ويهزمهم فقد كانوا يهددون بلاد الاسلام خلاط واذربيجان وأران وأرزن ودربند شروان وهذه هى الولايات المجاورة لهم ويروى ابن الاثير فى أحداث عام ٦٢٢هـ / ١٢٢٦م. أنه فى هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين بن خوارزم شاه وبين الكرج فى شهر شعبان فان جلال الدين حين وصل الى هذه النواحى لا يزال يقول : أننى أريد أن أقصد بلاد الكرج واقاتلهم وأملك بلادهم ، فلما ملك اذربيجان أرسل اليهم يؤذنهم بالحرب ، فاجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك ، وهو أعظم منك ملكا ، وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ما تعلمه ، وأخذوا بلادكم فلم يزل بهم ، وكان قصاراهم السلامة منا(٢) .

ويستطرد ابن الاثير قائلا : وشرعوا يجمعون العساكر فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل فسار اليهم فملك مدينة دوين للكرج قد أخذوها من

---

(٢) ابن الأثير . الكامل حـ ١٢ ص ٤٣٥ .

المسلمين وسار منها اليهم فلاقوه وقاتلوه أشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج ، وأمر أن يقتلوه بكل طريق ولا يبقوا على أحد منهم فالذى تحققناه أنه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقيل أن الكرج بجميعهم قتلوا وافترقوا وأسر من أعيانهم من جملتهم شلوة فتمت عليهم ومضى ايوانى وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم اليه ومعولهم عليه وليس لهم ملك انما الملك امرأة ، ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة(٣) •

والكرج فى الأغلب قوم كانوا يسكنون منطقة جورجيا وأرمينيا ، وكانت عاصمتهم تفليس وكانت أهم مدنهم تبريز وفيها كانت ملكتهم • وامتدت أراضيهم غرب وجنوب بحر قزوين •

وفى عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٧م استطاع جلال الدين منكبرتى دخول مدينة تفليس من بلاد الكرج ، وقد حشدت الكرج قواتها وتحالف مع الاقوام المجاورة من اللان واللكز والقفجاق وغيرهم وذلك لمحاربة جلال الدين الذى تمكن من انزال الهزيمة بهم وولى الكرج منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه ولا الوالد على ولده ، وكل منهم قد أهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج الا اليسير ونزل جلال الدين بالقرب من تفليس ، ودانت له الكرج ، ودخلوا فى الاسلام •

وكانت هذه الاقوام قد ملكت تفليس فى عام ٥١٥هـ فى عهد السلطان محمود بن محمود بن ملكشاه السلجوقى ، ويذكر ابن الاثير أن هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على المجاورين له من الفرس •

وكان هذا من أعظم انجازات جلال الدين منكبرتى ، الذى ظل يحارب فى أكثر من جبهة منها كرمان الا أنه وصلته الاستدعاءات من بلاد الكرج تطلب اليه العودة اليها ، فقام بعدد من العمليات الحربية وقضى على بقايا الكرج وضرب بلادهم وأحرقها • واتجه بعد ذلك الى خلاط حيث حاصرها •

حارب جلال الدين أيضا التركمان الايوانية وهدد مدنهم • وهناك

---

(٣) ابن الأثير ، المصدر السابق جـ ١٢ ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ •

ملاحظة هامة وهى أن ظهور جلال الدين منكبرتى ونشاطه العسكرى الكبير واتساع ملكه فى شمال وشرق العراق ، جعل أفراد البيت الأيوبى يعيدون النظر فى سياستهم التى أدت الى تفكك قوتهم ، فاتصل المعظم من دمشق ، بأخيه الاشرف فى حلب تم اتصلا بالكامل فى مصر وأخبراه بنزول جلال الدين منكبرتى على خلاط مما يهدد أراضيهم تهديدا مباشرا ، كما كان هذا حافزا على عودة التضامن والوحدة الى بيت الأيوبى الذى تفككت أواصره بوفاة صلاح الدين ويقول ابن الاثير : ان هذه الحالة كانت نقضى الاتفاق لعمارة البيت الأيوبى .

ولم يقتصر نشاط جلال الدين العسكرى على محاربة التتر أو الكرج وانما وجه اهتمامه الى الاسماعيليه الذين استشرى أمرهم من قلعتهم الموت ، وكان السبب فى مسير جلال الدين منكبرتى اليهم هو اعتداؤهم على أحد امرائه المعين على مدينة كنجة فلما قتلوه ، سار اليهم جلال الدين وضرب بلادهم الممتدة من حدود الموت الى كروكوه بخراسان ..

ومن الاحداث الهامة التى أثرت على قوة جلال الدين منكبرتى الخلاف بينه وبين أخيه غياث الدين وكان لقاؤه الأخير مع المغول الذى لعبت الخيانة فيه دورا ، اذ راسل الاسماعيلية الملاحدة المغول وأخبرهم بضعف جلال الدين منكبرتى ومن ثم كانت هزيمة جلال الدين أمام المغول ، تلك الهزيمة التى قضت على جلال الدين والدولة الخوارزمية الى الأبد فقد خلفه ملوك ضعاف منهم ركن الدين خوارزمشاه الذى سلم نفسه للمغول .

وكان مقتل جلال الدين عام ٦٢٨هـ / ١٢٣١م اذ اغتاله أحد الاكراد ، وزال بذلك خصم عنيد للمغول وفتح الطريق أمامهم الى عاصمة الخلافة .

ثانيا : المغول :

ظهر المغول فى منطقة منغوليا فى الصين وهى المنطقة الممتدة من جنوب سيبيريا الى شمال التبت الى الغرب من منشوريا . وعاشت القبائل المغولية فى هذه المنطقة بلا رابطة سياسية توحد بينها .

يقول رشيد الدين : المغول صنف من الاتراك ،وبينهم تفاوت واختلاف

شاسع ، وان كان الاتراك والمغول يتشابهون وأطلق عليهم في الأصل لقب واحد(٤) ٠

والمنطقة التي قطنها المغول تتميز بقسوة المناخ وشدة البرودة والاعاصير المدمرة ٠ وقد أثر هذا المناخ دون شك على عادات واخلاق وطبائع المغول ٠

في هذه المنطقة وفي هذا المناخ ولد تيموجين عام ٥٤٩هـ / ١١٥٥م واعتنت أمه بتربينه واعداده ذلك أن والده توفي وهو صغير ، وبدأت علامات القوة والبطش تظهر على الشاب تيموجين ، الذي استطاع أن ينال اعجاب وتقدير المغول ، ومن ثم توج خانا أعظم لهم عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ٠

وارتبط تاريخ المغول بخاقانهم الأعظم جينكيز الذي استطاع أن يوحد القبائل المغولية ، وان يقيم لهم دولة مستقرة وان يكون جيشا قويا يحمي هذه الدولة ويحمي وجودها ، وان يضع لها قانونا يحكم وفقه المغول عرف باسم Yasa الياسا ووفقه نظمت شئونهم وأحوالهم وانضبطت علاقاتهم ٠

كانت البداية العملية لظهور دولة المغول عام ١٢٠٦م ، ولم يمض وقت طويل الا وظهرت القوة العسكرية الضاربة لهم ، وبدأ الجيش المغولي يمارس عملياته الحربية في شمال الصين حيث استولى على أراضي كثيرة ، ودخل كثيرون من سادة الصين في خدمه الخان الأعظم للمغول ٠

وقد كان لظهور جينكيز خان بهذه القوة الضخمة أثرها في أن امبراطور الصين واي وانج way'wang طلب الصلح ، الا أنه تراجع في ذلك وترك العاصمة وأوكل مهمة التصدي للمغول لأبنه ، وقد أدى ذلك الى حدوث انقسام في صفوف الجيش الصيني ومن ثم انتهز جينكيز خان هذه الفرصة السانحة ليستولى على الصين ويدخل عاصمتها بكين عام ٦١٢هـ / ١٢١٥م ٠

بدأ جينكيز خان يتجه ببصره غربا حيث الدولة الخوارزمية وكان عليه أن يقود القبائل المغولية ليضع ثقله العسكري في خدمة الهدف الأكبر وهو ازالة الدولة الخوارزمية تمهيدا للزحف غربا الى دار الخلافة في بغداد ٠

---

(٤) رشيد الدين ٠ جامع التواريخ المجلد الثاني ٠

وقد ساعده فى ذلك كما ساعد خلفاءه من بعده ، تفكك العالم الاسلامى وتمزق قواه .

استطاعت الجيوش المغولية أن تهزم جيوش الدولة الخوارزمية فى عهد محمد الثانى خوارزم شاه ١٢٠٠ : ١٢٢٠م ، ولم يستطيع خوارزم شاه أن يصمد بل فر أمامهم ويرجع المؤرخون هزيمة خوارزم شاه أمام المغول الى خيانة المرتزقة من الأتراك الذين كانوا يمثلون عصب الجيش الخوارزمى ، فقد سلموا فى ميدان المعركة ، وانحاز عدد كبير منهم الى جينكيز خان مما أدى الى أوخم العواقب ، فقد سقطت كثير من المدن والمواقع الحصينة فى أيدى المغول ، وتعرض الأهالى لوحشية رهيبة تمثلت فى حمامات الدم والمذابح التى أقامها جينكيز خان .

وسقطت تحت أقدام المغول افغانستان الحالية وشمال ايران ووصلت جحافلهم الى القوقاز . وإستمرت جيوش المغولة فى توسعها فاستولت على روسيا ، وتقدمت الى أوروبا فوصلوا بولندا وتوفى جنكيز خان فى عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م .

شخصية جنكيز خان :

كان جنكيز خان من أقسى القادة العسكريين الذين عرفهم التاريخ ، ذلك أنه كان يؤمن أن الحرب تستبيح الحريات وتهدر كرامة الانسان ، ولقد ترك جنكيز خان بصمات الوحشية والدمار على التاريخ المغولى كله واستطاع جنكيز خان أن يكسب احترام المغول وخاصة رجال جيشه فقد كانوا يعتبرونه رئيسهم الأعلى ، يقدسون أوامره ، وينزلون على طاعته ، كما رفعوه الى مرتبة التأليه . ولم يكن أحدهم يستطيع مخالفة الخان الأعظم . وأقام جنكيز خان نظاما عسكريا جوهره الارهاب والقسوة والهلاك والدمار للحضارة والعمران ، وتمثل ذلك فى سلوك الجيش المغولى خلال نصف قرن من الحرب المدمرة التى استمرت دون توقف حتى كانت ضربة عين جالوت عام ١٢٦٠م .

ويعكس النظام العسكرى الذى وضعه جينكيز خان مهارة وكفاءة ودهاء فقد استطاع أن يقيم دولة للمغول ، وان يضع لها النظم الادارية ، والاقتصادية وكان أهم ما يعنيه هو اعادة فتح الطريق التجارى القديم بين ايران والصين وكان جنكيز خان يتخذ المستشارين والوزراء وكان يستمع

اليهم ، ويسألهم آراءهم ، وهؤلاء هم الذين وضعوا أسس التنظيم الادارى عند المغول والذى سيظهر فيما بعد .

أولاد جنكيز خان :

وكان جنكيز خان قد أوصى أولاده وكانوا كثيرين بالحفاظ على ملكه ، ودعاهم الى الاتحاد ، وان يدفعوا عن مملكته الممتدة الاعداء .

أما أبناء جنكيز خان فكانوا : جوجى ، أوجداى ، جعطاى ، تولوى وتولى أوجداى حكم المغـول بعد أبيه جنكيز خان ، وقد استطاع أن يوحد المغول وأن يشجعهم على الاستقرار ، واتخذ لهم عاصمة هى قراقروم شرقى الصين .

أما الابن الأكبر جوجى فقد تولى الاشراف على شئون الصيد وتنظيم القصور واختار جغطاى أن يكون حـــاميا لقوانين أبيه الياسا yasa أو التاريخ السرى

وقد عهد جنكيز خان لأبنه أوجداى ليخلفه فى حكم المغول ، وأيـده المغول بعد وفاة أبيه ليقوم على حكمهم وتولى الحكم عام ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وفى اجتماع المغول القوريلتاى توج خانا أعظما للمغول .

وكانت أولى الخطوات التى اتخذها الخان الجديد هو ايفـــاد جيشين عظيمين لاستكمال مهمة أبيه ، الأول كانت وجهته الى الصين والثانى كانت مهمة الاتجاه الى ايران للقضاء على ما تبقى من الدولة الخوارزمية .

وقد قام أوجداى بانجزات عظيمة للمغول ففى عهده وصلت جيوش المغول الى أوروبا ، فقد كون بعد عودته مظفرا من الصين جيشا ضخما بقيادة ابن أخيه جوجى وقام بفتح بلاد الروس والجركس والبلغار واقاليم أوروبا الشرقية .

وقد تمكن هذا الجيش من اتمام مهمته واستولى على الأراضى الواقعة بين جبال الاورال وشبه جزيرة القرم التى كانت موطنا للباشقرد والبلغار . وقد أحرق المغول مدينة موسكو ووصلت جحافلهم الى بولندا ، وقد بالغوا فى أعمالهم الوحشية وفى بولندا حيث أقام المغول مذبحة بشرية مروعة بلغت ٢٧٠٠٠ كما تذكر المصادر وقد قطعوا آذان ضحاياهم ووضعوها فى أكياس

فبلغت ذلك الرقم ٠ وقد هددوا ألمانيا وهنغاريا واحتلوا المجـــر وهددوا ايطاليا مقر البابوية ٠

وتوفى أوجداى فى عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١ وعقد المغول مؤتمرهم الكبير القوريلتاى لاختيار حاكم جديد وكان هذا الحاكم هو كيوك بن أوجداى وكان حكمه قصيرا كما كانت الظاهرة التى ميزته تأثره بالمسيحية فقد كانت أمه مسيحية واتخذ له وزيرين مسيحيين ٠

ثم حدث نزاع بعد وفاة كيوك على من يتولى حكم المغول حسمته بمهارة الأميرة المغولية سرقويتى التى استطاعت أن تصل بابنها منكو الى العرش المغول وكان ذلك عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، واستمر حكمه سبع سنوات ٠

ومنكو خان هو ابن تولوى بن جنكيز خان ، وقد أولى هذا الخان المغولى اهتمامه للاصلاحات الداخلية والنظم الادارية وخفف الضرائب عن رعاياه ، واستخدم جماعة من الايرانيين استعـــان بهم فى تنظيم وادارة الدواوين المغولية ٠

ويظهر تأثير الحضارتين الاسلامية والمسيحية فى حياة المغول ونظمهم ، فقد بدأوا ينظمون دولتهم ويميلون الى الاستقرار ٠

وفى عهد منكوخان كان توغل المغول فى أراضى الاسلام ، وكان سقوط بغـــداد على يدى هولاكو كما كان تقدمهم فى بلاد الشـــام ٠ الا أنه توفى عام ١٢٥٧ فلم يسمع بأخبار نكبة المغول ، وهزيمتهم فى عين جالوت ٠

النظم المغولية :

كان للمغول نظمهم وعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم وأســاليبهم الحربية وطبائعهم الاجتماعية ٠ وغلبت الوثنية على المغول ، فقد كان منهم من يعتنق البوذية ، ومنهم من يعبد الظواهر الطبيعية أو أرواح أجدادهم ، ثم اعتنق عدد منهم المسيحية وأخيرا دخل المغول فى الاسلام وكان ذلك فى عهـــد السلطان أحمد تكودار ٦٨١هـ / ١٢٨٢م وتبعه غازان خان ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الذى أعلن الاسلام دينا رسميا للدولة ٠

وعاش المغول حياة بسيطة بدائية لا ينظمها الا العرف ، فلما تولى خانهم الأعظم جنكيز خان وضع لهم القانون المغولى المعروف باسم وهى كلمة مغولية تعنى الحكم أو القاعدة أو القانون ٠

وأمر جنكيز خان أن يكتب الياسا بالخط الاويغورى وان يحفظ فى خزائن الدولة • كما أوصى بتعليم الاطفال هذا الخط ويطلق اصطلاح الياسا الكبير على قوانين جنكيز خان التى دونت وتسمى ياسه نامه ويرجـــع المغول الى نصوص الياسا فى مشكلاتهم الكبرى كاعتلاء خان جديد للعرش أو عند تسيير جيش من جيوش المغول •

والياسا تنظيم حياة المغول ، وتحدد العلاقة بين الحاكم والمحـــكوم ، وتوضح علاقة الفرد بالمجتمع •

ويمكن تلخيص أحكام الياسة فى أمور ثلاثة :

١ ــ الخضوع التام لجنكيز خان •

٢ ــ الاتحاد فى قبيلة واحدة •

٣ ــ العقاب الصارم لكل مخطىء •

يقول المقريزى : ان جنكيز خان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه ياسه ومن الناس من يسميه يسق والأصل فى اسمه ياسه ولما تمم وضعه كتب ذلك نقشا فى صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم •

وكان جنكيز خان لا يتدين بشىء من أديان الأرض فصارت الياسة حكما فى عقبه لا يخرجون عن شيء من حكمه • ويذكر المقريزى أن نسخة من الياسة توجد بخزانة المدرســة المستنصرية ببغداد كما أخبره بعض العلماء وأورد المقريزى بعض قوانين الياسا ومنها(٥) :

١ ــ من تعمد الكذب أو تجسس أو سحر أو تدخل بين خصمين وأعان احدهما على قتل الآخر قتل •

٢ ــ من بال فى الماء أو على الرماد قتل •

٣ ــ من وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة

---

(٥) المقريزى • الخطط • جـ ٢ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ •

وانظر : عبد السلام عبد العزيز فهمى • تاريخ الدولة المغولية فى ايران ص ٣٤ ، ٣٥ •

القتال وكان أحد وراءه فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فان لم يناوله قتل ٠

٤ ـ بين عقوبة الجنود والقواد فان أذنب أكبر القواد دعى الملك آخر من عنده حتى يعاقبه ٠

ووضع جنكيز خان عقوبة للسرقة ، ونادى بطاعة الوالدين ، ونهى عن ادمان الخمر يقول : اشربوا ثلاث مرات فى الشهر والأفضل ألا تشربوا أبدا فان الرجل السكران كالرجل المضروب على أم رأسه يفقد عقله ٠

الجيش المغولى والنظم العسكرية :

كون المغول جيشا ضخما استطاعوا أن يغلبوا به الدنيا شرقا وغربا ولابد انهم وضعوا نظما ضبطت هذا الجيش ونظمته وأحكمت تدريبه بحيث استطاع أن يؤدى المهام التى سجلها له التاريخ ٠

وكان الجيش المغولى منظما ومقسما الى فرق تراوحت بين العشرة والمائة والألف والعشرة آلاف ٠

وقد كان هناك من يقوم على اعداد الأسلحة وحملها مثل السهام والأقواس ٠ وهناك من عليه مهمة الاشراف على الطعام والشراب للجنود ، ومن يقوم على رعاية الدواب ، ومن يشرف على اعداد العجلات الحربية ٠

وكان لجنكيزخان حرس خاص يتكون من ثمانين شخصا يتناوبون الحراسة ليلا ونهارا ، وقد بلغ حرس جنكيز خان فى فترة من الفترات عشرة آلاف وقد كون أفراد هذا الحرس الارستقراطية العسكرية فى الجيش المغولى٠

وكان الجيش المغولى مقسما لثلاثة أقسام جناحين أيمن وأيسر ، وقلب الجيش تتقدمه الفرق الأمامية أو الطلائع وكانوا مسلحين بدروع كاملة لوقايتهم من هجمات العدو ٠

وقد أولى خانات المغول جيشهم عناية فائقة ، وأنفقوا عليه بسخاء ، وكانوا يشددون فى حمل كل ما يحتاجه عند تحركه من مؤن وأسلحة وماء حتى الابر والخيوط كانوا يأخذونها معهم ٠

وكون الجيش المغولى فرق للاستطلاع تذهب الى مواقع العدو ، وتأتى

بالأخبار والمعلومات حتى تسهل من مهام الجيش فتعرف مكامن الضعف فى صفوف الأعداء وحصونه ، ومن ثم يبدأ تقدم الجيش المغولى .

المغول والعالم الاسلامى :

كانت أهداف المغول تتمثل فى اقامة امبراطورية مغولية عظمى ، وكان هذا يعنى بالضرورة الدخول فى حرب سافرة مع القوى الاسلامية المجاورة باعتبارها تشغل الجناح الغربى الذى رسمته مخيلة المغول لامبراطوريتهم المرتقبة .

وهذا الجناح الغربى كان يتضمن الدولة الخوارزمية فى ايران ، والخلافة العباسية فى العراق ثم بلاد الشام ومصر .

المغول والخلافة العباسية :

استطاع المغول أن يزيلوا كل العقبات التى صادفتهم فى طريقهم الى بغداد ، فقد نجحوا بعد لأى فى القضاء على الدولة الخوارزمية التى كانت تمثل عقبة كؤود فى طريقهم الى عاصمة الخلافة العباسية ، ولقد رأينا كيف استمر الخوارزميون يعوقون تقدم المغول لولا سوء تنظيمهم وانشغالهم بأكثر من هدف وتوزيع جيشهم على أكثر من جبهة .

لقد أقام المغول دولة لهم مكان الدولة الخوارزمية تتاخم حدود الخلافة العباسية ، ومن ثم أحكموا توجيه ضرباتهم المتوالية الى البناء العباسى الذى خارت قواه ، وأنهكته الخلافات والمنازعات ، والخيانة ، والانقسام .

ان الخلافة العباسية التى قضى عليها هولاكو قد دبت الشيخوخة فى أوصالها ، ولم تعد هى الخلافة التى عرفها العالم فى أيام الرشيد انما انحسر نفوذها ، وتطاول عليها حكام الأقاليم ، بل أعلنوا استقلالهم وعصيانهم .

كان الخليفة العباسى المستعصم هو آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد وهو الذى قدر له أن يشهد النهاية المؤلمة الحزينة للدولة العباسية . والخليفة المستعصم كان من الرجال الضعفاء ، الذين التف حوله أهل السوء ، مما أدى الى تسلط الأمراء ورجال الدولة على شئون الخلافة ، وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى وراء الفوضى التى عاشتها بغداد قبيل الغزو المغولى لها .

كما كانت الانقسامات المذهبية على أشدها فى بغداد ، ونشب الخلاف بين سكانها من الشيعة والسنة والمسيحيين واليهود ، وقد انعكست خلافاتهم الدينية على ميولهم وآرائهم السياسية مما أدى الى قيام الفتال بين أهالى بغداد وخاصة بين الشيعة والسنة ·

ويبدو أن الوزير ابن العلقمى وكان من كبار رءوس الشيعة قام بدور خطير فى تسهيل عملية دخول الجيوش المغولية الى بغداد · وتذكر المصادر أنه كاتب التتر وأطمعهم فى دخول العاصمة العباسية ·

وكانت محاولات المغول مستمرة لدخول بغداد ، خاصة وانهم كانوا قد اقاموا دولتهم فى ايران وكان هولاكو يطمع فى توسيع الامبراطورية المغولية تجاه الغرب خاصة بعد أن قضى على الخوارزميين ، وأزال الاسماعيلية واستولى على قلعتهم الموت ·

وفى بداية عام ٦٥٥ هـ/١٢٥٧ م بدأت طلائع الجيوش المغولية تتجه نحو العراق ، بل ان الفوات المغولية استطاعت أن تعسكر بالقرب من بغداد·

ولم يستطع جيش الخلافة بقيادة الوزير مجاهد الدين أيبك الدوادار ان يصد هجوم المغول العاتى على بغداد ومنى الجيش العباسى بهزيمة ساحقة واحكم حصارهم لعاصمة الخلافة ، وتحرج موقف الخليفة ، وعاث المغول فى البلاد فسادا وتخريبا وتدميرا ·

ولم تصمد بغداد أمام جحافل المغول ، ولم تتحرك جيوش الأقاليم لانقاذ الخلافة ، وازداد موقف المستعصم حرجا ، فخرج الى هولاكو طالبا الأمان ومسلما العاصمة بلا قيد ولا شرط ·

وتقدر المصادر ضحايا المسلمين فى هذه الحرب بحوالى ٨٠٠ الف ، وظلت النيران التى أشعلها المغول فى بغداد أربعين يوما لا تبقى ولا تذر وأتت على مظاهر العمران والحضارة وقضت عليها ·

ودخل القائد المغولى بغداد ، واحتفل فى جنوده بالنصر على خلافة الاسلام وأمعنوا فى اذلال الخليفة العباسى المستعصم الذى انصاع لاوامر هولاكو فسلمهم خزائنه وأمواله ، ثم أمر به فقتل ·

ويسهب ابن الأثير فى الحديث عن خروج التتر الى بلاد الاسلام،

وتنضح كلماته بالمرارة والألم للكارثة المروعة التى ألمت بالمسلمين نتيجة ذلك الغزو المخرب الذى قضى على خلافة المسلمين فى بغداد ٠

يقول ابن الأثير : لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فانا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا فنقول أن هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو يدانيها ٠ فمن أعظم ما يذكرونه من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها اضعاف البيت المقدس ، وما بنو اسرائيل بالنسبة الى ما قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم(٦) ٠

ولم يمتد الأجل بابن الأثير ليصف لنا دخول المغول بغداد ، ذلك أن دخولهم بغداد كان مأساة الاسلام ٠ لقد كانت بغداد هدف المغول بعد أن قضوا على الحشيشية فى الموت ، وتقدم هولاكو فى جيشه الضخم نحو عاصمة الخلافة وكان آخر خلفاء بنى العباس هو الخليفة المستعصم الذى سلم أموره وأمور الخلافة الى وزيره الشيعى ابن العلقمى وعليه يلقى المؤرخون المسلمون تبعة تسهيل عملية دخول بغداد للمغول ذلك انه كاتب التتار سرا وأطمعهم فى دخول بغداد ٠

وعلى مشارف أراضى الخلافة طلب هولاكو من الخليفة العباسى الاعتراف بسيادة المغول على أن يكون للمغول ما كان للبويهيين قبلهم ورفض الخليفة ذلك فأعلن هولاكو الحرب على الخليفة ، وطلب الخليفة النجدة من أقاليم الاسلام فلم يصل نداؤه الى أحد ، وتقدمت جحافل المغول تهدد الخلافة ، وتهدد الاسلام جميعا فى عاصمته بغداد ، وحاصر المغول بغداد فى عام

---

(٦) ابن الأثير ٠ الكامل ٠ جـ ١٢ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ٠

١٢٥٨ م ، وحاول الجيش العباسى التصــــدى لجيش المغول فأصيب بكسرة عظيمة ، انقض المغول بعدها على العاصمة العباسية فأتوا على ما فيهـــا ، وأقاموا فيها مذبحة رهيبة راح ضحيتها ثمانمائة ألف من الأهـــالى ودام السلب والنهب فى بغداد أربعين يوما ، أعقبه اشعال الحرائق فى المدينة .

وهكذا أصبح المغول ، وقد قضوا على الخـــلافة العباســـية المحركون الحقيقيون للموقف السياسى وبذلك أصبح الطريق مفتوحـا أمامهم الى بلاد الشام .

ثالثا — المماليك :

قامت دولة المماليك فى مصر فى ظروف سياسية معقدة ، فقـــد كان الصـــليبيون لا يزالون فى مصر يحتلون جزءا من أراضـــيها ، كما كانت الشيخوخة قد هدت كيان الدولة الأيوبية فى مصر ومن ثم كان التفكير جديا فى ضرورة **نقل** السلطة من الدولة المتهالكة نظرا لظروف موت الملك الصالح أيوب وعدم وجود من يتولى من بعده حكم مصر من البيت الأيوبى فقد كان ابنه تورانشاه لا يصلح للحكم ، وعلى الرغم من استدعائه من حصن كيفـا بواسطة زوج أبيه شــجر الدر لتولى الحــكم بعد أبيه على الرغم من أن الملك الصالح ذاته قد أوصى بعدم توليه الحكم وقد استطاع المماليك على كل حال أن يتخلصوا من تورانشاه . وبوفاته أصبح الطريق خالية أمام شــجر الدر عصمة الدين أم خليل فأقاموها فى السلطنة وحلفوا لها(٧) . ثم تزوجت من أيبك التركمان وعلى هذا انتقل السلطان الى المماليك ولم يكن هــذا بالأمر الهين على أمراء البيت الأيوبى الذين قاوموا المعز أيبك ودخلوا فى معـــارك عسكرية انتهت بهزيمة الأيوبيين وانفراد المعز أيبك بالحكم فى مصر .

ولمـا استقرت الأحوال نسبيا فى مصر طلب المعز أيبك من صـــاحب الموصل أن يزوجه ابنته فلما علمت شجرة الدر بما ينويه زوجها دبرت مقتله فتولى من بعده ابنه الملك منصور على ، وقتلت شــجر الدر أيضا وتولى الأمير قطز نيابة السلطنة فى مصر واستقرت الأحوال على هـــذا حتى خرج قطز لمجابهة التقدم المغولى الى بلاد الشام .

وكان لموقف المماليك العسكرى من المغول أهمية كبرى فى تاريخ الجهاد

---

(٧) المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ٢٣٧ .

الاسلامى ، كما كان فى موقفهم من الخلافة العباسية التى سقطت فى بغداد أثر كبير فى كسب تأييد المسلمين ، الذى كان المماليك فى حاجة ماسة اليه ذلك أن المماليك لم يكتسبوا تأييد المسلمين ، ولا حب المصريين لكونهم أرقاء جلبوا الى قصور الخلفاء من المشرق وظلوا فى مصر حتى تمكنوا من الوصول الى الحكم والسلطنة ، وربما كان لدورهم العسكرى أهمية ملحوظة فى البقاء فى الحكم .

وتميزت تلك الفترة من الحكم بكثرة المؤامرات السياسية والاغتيالات بين أفراد المماليك ، فقد تولى السلطان قطز حكم مصر بعد أن عزل السلطان المنصور نور الدين على بن أيبك ، واستطاع قطز أن يحقق انتصارات عسكرية عظيمة ، لكن لم يظفر بالسلطنة طويلا اذ قتل قبل أن يدخل القاهرة ، وتولى مكانه الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى .

وبوصول الملك الظاهر بيبرس الى الحكم تبدأ فترة جديدة فى سياسة مصر الخارجية ، وفى علاقتها بجيرانها .

وكانت أهم الخطوات التى بدأ بها بيبرس تلك المرحلة من حكمه هى احياء الخلافة العباسية فى مصر ، فمنذ أن قتل آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ظل منصب الامام أو الخليفة شاغرا حتى تم انبات نسب الأمير العباسى أحمد بحضور القضاة والشهود وتم بذلك قيام أمل جديد ايذانا باستمرارية الخلافة العباسية ولما تم نصب الامام الجديد الذى لقب بالمستنصر خطب له على المنابر ، وضربت العملة باسمه ومعه الملك الظاهر بيبرس ولما تم ذلك ، قلد الخليفة العباسى الملك الظاهر حكم البلاد الاسلامية وما يفتحه الله على يديه .

وتحقق بذلك للمماليك صفة رسمية وشرعية فى حكم المسلمين وفى حمل مسئولية الجهاد ضد أعداء الاسلام ، كما تحقق لهم حلما أكبر فقد فتح أمامهم الطريق لاستكمال الجهاد ، وانتقل أيضا الى القاهرة العلماء والمفكرون حيث غدت أعظم المراكز الثقافية والحضارية فى العالم آنذاك .

وكان هذا تغيير هام فى ميزان القوى فى العالم فى ذلك الوقت هذا بالاضافة الى تغييرات أخرى سبقت ظهور المماليك ووصولهم الى تلك المكانة الرئيسية فى تحريك السياسة الاسلامية .

الجهاد ضد المغول :

بعد أن دمر المغول بغداد اتجهت أنظارهم نحو سورية ، فقاموا بتدعيم وجودهم في الجزيرة وفى عام ١٢٥٩ م زحفت جيوشهم بقيادة هولاكو الى شمال سورية وتقدمت عبر نصيبين وحران والرها وتل باشر ثم عبروا الفرات ، وحاولت حامية مدينة سروج التصدى لهم ، الا أنهم استولوا عليها ، وفى بداية عام ١٢٦٠ م حاصر المغول حلب ، وحاولت حامية المدينة أن تقاوم لكن دون جدوى • وحاول الناصر يوسف الذى كان فى دمشق أن يجمع قواته وقوات أبناء عمومته استعدادا للمعركة فى نفس الوقت الذى لم تستطع فيه حلب الصمود أمام الزحف المغولى الهائل وانهارت أسوار المدينة أمام ضرباتهم العنيفة ، وانساح المغول فى حلب واستولوا عليها •

ولما رأت دمشق ما حل بحلب خرج بعض رجالها الى هولاكو فسلموه مفاتيح المدينة وتقدمت قوات مغولية اليها فاحتلتها عام ١٢٦٠ م وتوالى تقدم القوات المغولية فى بلاد الشام ، واستولوا على بعلبك وبانياس ووصلت جيوشهم الى غزة دون أن تصادفوا مقاومة تذكر •

عين جالوت ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م :

تولى السلطان قطز حكم مصر عام ١٢٥٩ م ، وذلك لمجابهة الموقف الخطير المتفاقم بالشام نتيجة لغزو المغول المدمر لمعظم مدنه ، حتى أصبح الخطر قريبا من حدود مصر وقد ورد انذار المغول الى مصر بالاستسلام ، فقد خضعت معظم المدن الاسلامية لحكمهم ، ولم يبق أمامهم سوى مصر والحجاز واليمن • وكان لابد من مجابهة حكيمة لهذا الموقف ، فالقوة المغولية زاحفة مدمرة ، ومصر يجب أن تخوض المعركة الفاصلة بنجاح •

اضطرت الظروف الداخلية فى عاصمة المغول هولاكو الى العودة الى بلاده . وذلك عقب وفاة خان المغول الأعظم منكو ، واصطحب معه جزءا كبيرا من الجيش ، تاركا كتبغا على رأس بقية جيش المغول الذى تقدره المصادر بحوالى عشرة آلاف مقاتل وأعد قطز العدة للقتال ، وأتم تجهيزات الجيش متجهة الى غزة حيث تجمعت القوات المغولية تحت قيادة بيدا ، فقد كان كتبغا فى بعلبك •

واخبر المغول كتبغا بتقدم المماليك ، فأمرهم بالدفاع عن غزة ، وعدم تسليمها ووعدهم بالامدادات والعون ، وهنا أخذ المماليك زمام المبادرة

وشنوا هجومهم على جيش المغول فى غزة ، فأنزلوا بهم الهزيمة ، ودخلوا غزة واحتلوها ثم تتبعوا فلول المغول حتى نهر العاصى ٠

وكان هذا النصر الذى أحرزه المماليك فى الواقع نصرا للاسلام والمسلمين جميعا ، فلأول مرة منذ أن بدأ المغول زحفها على أراضى الاسلام ، يلقون الهزيمة ، ولم يكن كتبغا ليسلم بملك الهزيمة أمام المماليك ، فحاول الانتقام خاصة وان جيش المماليك أخذ يتقدم فى أراضى الشام ، ورأى الصليبيون الذين مزقتهم الخلافات المحلية ، رأوا فى المماليك حليفا يمكن أن يخلصهم من المغول ، وكان من صالح المماليك اتباع سياسة الموادعة مع الصليبيين حتى لا تتفرق جهودهم ، وحتى يمكنهم التركيز على قتال عدو واحد فى وقت واحد ٠

وحاول قطز التقدم الى دمشق لانقاذها من الاحتلال المغولى وفى الطريق الى دمشق ، بين بيسان ونابلس ، التقى جيش قطز مع المغول عند عين جالوت ، وقد حارب المماليك معركة باسلة ، شارك فيها السلطان قطز بنفسه ، وكان يصرخ واسلاماه ، وقضى المماليك تماما على المغول فقد أنزلوا بهم هزيمة لم تقم لهم قيامة بعدها ، وقتل قائد الجيش المغولى كتبغا الذى صمد فى المعركة الى أن لقى حتفه ٠

ومعركة عين جالوت من المعارك الحاسمة فى تاريخ الحروب جميعا ، وفى التاريخ العسكرى الاسلامى بصفة خاصة ، فقد أوقفت تلك المعركة المد المغولى الى الأبد حامية بذلك الحضارة الانسانية من دمار محقق لا فى الشرق فقط ولكن فى الشرق والغرب على السواء ٠

لقد أنقذت عين جالوت مصر من وحشية المغول ، كما أزالت خطرهم عن بلاد الشام وعن أراضى الدولة الاسلامية جميعا فقد انحسر مدهم ، وضعفت قوتهم ، وهم الذين اعتقدوا انهم قوة لا تستطيع الجيوش الاسلامية آنذاك أن تقهرها ، فكانت عين جالوت الحقيقة التى هزت المغول هزا عنيفا ليفيقوا بعدها على العودة نهائيا الى بلادهم ٠

وكان التوحيد بين مصر والشام مرة أخرى من الآثار الهامة التى ترتبت على انتصار المماليك فى عين جالوت ، فقد استطاعوا القضاء على المنازعات بين أبناء الأيوبيين فى بلاد الشام ، ووضعها تحت سيطرة المماليك ، وبهذا أعاد المماليك توحيد الجبهة المصرية الشامية ، لتلقى الصليبيين كما

فعل صلاح الدين من قبل ، وعاد الجيش المملوكى منتصرا الى مصر وقد أثلجت انتصاراته على المغول قلوب المسلمين ، وأعادت لهم هيبتهم ورفعت معنوياتهم التى هيأتهم لأعباء المرحلة التالية من الجهاد ٠

الجهاد ضد بقايا الصليبيين :

عاد الجيش المملوكى يحمل النصر الى مصر ، وخرجت مصر تستقبل أبناءها استقبال الفاتحين المنتصرين ، ولم يصل السلطان قطز الى القاهرة اذ قتله بيبرس فى طريق عودة الجيش الى مصر ، ويدخل بيبرس القاهرة ليتوج سلطانا ، ويحتفل بالنصر العظيم ٠

ومنذ الوهلة الأولى بدأ بيبرس سلطان مصر يعد للمرحلة المقبلة من الجهاد ، فقام بعلاج مشكلاته الداخلية ليتفرغ لمواجهة المشكلات الخارجية ومن أهمها بقايا المغول فى بلاد الشام ، الذين أرادوا أن ينتقموا من المسلمين لما حل باخوانهم فى عين جالوت وكان للسياسة التى اتبعها بيبرس فى تأليف وتوحيد جبهة مصر والشام ، وولاء الأمراء له فضل كبير فى مواجهة انتقام المغول الذين نزلوا على حلب فقتلوا أهلها ثم تقدموا نحوه حماه ، واستطاعت جيوش حمص وحماة أن تصد ذلك الغزو وأن تهزم المغول وتطردهم الى ما وراء الفرات ٠

وكان من مشكلاته الخارجية أيضا مشكلة دمشق ، فقد أعلنت دمشق العصيان وتمرد حاكمها سنجر الحلبى ، فأرسل اليه بيبرس جيشا قضى عليه وبذلك أصبح الشام كله خاضعا للظاهر بيبرس ٠

كانت القضية الأساسية التى شغلت بال بيبرس هى قضية الجهاد ، وتطهير الشام من الصليبيين خاصة بعد أن قضى على المغول ٠ ورأى السلطان المملوكى أن يضع ثقله السياسى والعسكرى لمواجهة مشكلة الصليبيين فقد رأى كيف عانى المسلمون من وجودهم فى بلاد الشام ، وتحالفهم مع المغول ضد الاسلام ٠

وقد كان على بيبرس أن يطبع تحركاته السياسية فى الداخل والخارج بصبغة رسمية وشرعية ، فنقل مركز الخلافة العباسية الى القاهرة بعد أن سقطت بغداد فى أيدى المغول ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، وبذلك أصبح المماليك حماة الخلافة الاسلامية والمدافعين عنها ٠

كذلك رأى بيبرس ضرورة أن تكون حربه فى جبهة واحدة ، ومن ثم كان لا بد من ضمانات تحمى ظهره من انقضاض مفاجىء للمغول فاتجه الى محالفة مغـول القفجاق أو مغـول القبيلة الذهبية الذين كانوا قد اعتنقـوا الاسلام ، وعقد صلحا مع ملكهم بركة خان ليضمن بذلك حليفا قويا من المغول أنفسهم •

وكانت سياسة بيبرس الخارجية تتسم بالمرونة واتساع الأفق ، فاتجه الى الدولة البيزنطية ، يعرض التعاون الاقتصادى مـع الامبراطور ميخائيل باليولوجوس وذلك بالسماح للسفن المصرية بالمرور من المضـايق مرة كل عام ، ووصل مندوب بيبرس الى العاصمة البيزنطية ولكن الامبراطور تباطأ فى مقابلته فقد كان ميخائيل باليولوجوس ع لى حلف مع هولاكو ، وخشى أن يؤثر التعاون المصرى البيزنطى على العلاقات البيزنطية المغولية •

ثم تطورت الأوضاع السياسية ففى عام ١٢٦٥ م أعلن خان مغـول القفجان بركة الحرب على الدولة البيزنطية وكان يسانده فى ذلك قيصر بلغاريا وستطاع بركة خان أن ينزل الهزيمة الساحقة بجيوش ميخائيل باليولوجوس، ومن هنا رأى الامبراطور البيزنطى انهاء علاقاته وتحالفه مع هولاكو وانضم الى الحلف المصرى المغولى • واستمرت العلاقات الودية بين المماليك والقبيلة الذهبية والدولة البيزنطية طول حكم الامبراطور البيزنطى ميخائيل •

كان فى اسـتطاعة بيبرس عندئذ أن يخرج لقتـال الصليبيين ففى ١٢٦٥ م خرج على رأس جيش كبير فاتجه الى قيسارية فاستولى عليهـا ثم زحف نحو يافا ، ففرت أمامه حاميتها فدمر قلعتها وواصل زحفه متجها الى أرسوف ، ومن بعدها اتجه الى حصون الصليبيين على الساحل ، ثم وجـه نظره الى مدينة عكا فلم يستطع الاستيلاء عليها ، فتوجه الى البلاد المجاورة يحاول فتحها •

لم يفت فى عضد بيبرس أن تقف فى وجهه قلعة أو مدينة حصينة ، ففى عام ١٢٦٨ م تقدم فى جيوشه الى مدينة انطاكية وضرب حولها حصارا كاملا من كل الجهات ، وقطع الاتصال بينهما وبين الصليبيين فى الجنوب ، كما أغلق الطريق بينهما وبين أرمينيا ليمنع المساعدات اليها ، ثم هجم على قلعتها ، ولم تلبث انطاكية أن سقطت فى أيدى المسلمين ، ودخلهـا جيش مصر منتصرا ، وأسروا من فيها وغنموا ثرواتها واستولوا على خزائنها •

ويعد نصر المسلمين فى انطاكية خطوة عملية على طريق القضاء على الصليبيين فانطاكية هى ثانى الامارات اللاتينية التى أقامها الصليبيين فى الشرق وسقوطها بعد سقوط الرها وبيت المقدس يعنى أن نهاية الصليبيين فى الشام أصبحت وشيكة ، فقد انحسر نفوذهم بشكل كبير ، اذ لم يعد تحت أيديهم من المواقع الهامة سوى طرابلس وعكا •

وكانت هذه هى آخر العمليات العسكرية الهامة التى قام بها الظاهر بيبرس ، ويتابع الدور من بعده السلطان قلاون •

السلطان قلاوة الألفى والجهاد :

لم تشهد حركة الجهاد اهتماما كبيرا من ابنى الظاهر بيبرس السعيد بركة والأشرف سلامش ، واستطاع الأمير قلاون أن ينهى هذا الوضع ، ويغتصب السلطة ليقوم سلطانا على مصر عام ١٢٧٩ م •

وسار قلاون على المنهج الذى رسمه بيبرس ، فكان لا بد من حماية الشام من المغول وقد هددوه فعلا عام ١٢٨٠ م ، وقد استطاع أن يعقد هدنة مع الفرسان الداوية والاسبتارية وكانوا القوة المصممة على بقاء الصليبيين فى بلاد الشام ، كانت مدتها عشر سنوات •

وعاد المغول يهددون الشام مرة أخرى عام ١٢٨١ م حيث خرج قائدهم ابغا على رأس جيش كبير ، وصل الى حمص ، حيث دارت معركة بين جيش السلطان قلاون وجيش المغول ، انتهت بنصر حاسم للمماليك على المغول ، فولوا الأدبار وغادروا الجزيرة •

وقد كانت الأوضاع كلها تنذر بقرب زوال الصليبيين من الشام فالدولة المغولية الايلخانية قد استقرت أوضاعها واعتنق ملوكها الاسلام • وقد اعتنق أيضا تكودار بن هولاكو الاسلام ، ربما لأنه أراد أن تضع الحرب بينهم وبين المماليك أوزارها وبهذا دخل الاسلام الى مغول فارس ، وسبق أن دخل الى مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية •

وكان قلاون يعد العدة للقضاء النهائى على الصليبيين ، فجهز جيشه للاستيلاء على طرابلس آخر الامارات اللاتينية •

وقل المدد القادم الى الصليبيين فى الشام ، نتيجة للحروب التى نشبت

فى أوروبا بين الجمهوريات الايطالية ، بالاضافة الى أن أوروبا لم تعد تهتم كثيرا بأمور الشرق .

وتفككت أحوال الصليبيين الداخليـــة ، واضطربت أمورهم وتقدمت جيوش قلاون عام ١٢٨٩ م الى طرابلس ، وأطبق عليها الحصار وضايقهـــا بشدة ، ونصب حولها آلات الحصـــــار فنقبوا أسوارها وحاول الصليبيون الدفاع عن طرابلس دفاع المستميت ، فلم يتمكنوا واستطاع الجيش المصرى بقيادة قلاون دخول المدينة فى ٢٦ ابريل ١٢٨٩ م . وتبع ذلك بالتقدم الى بيروت وجبيل التى أخلاها الصليبيون وبذلك تم للمسلمين الاستيلاء عـــلى الامارة الصليبية الرابعة ، وقوضوا بذلك قوة الصليبيين ولم يبق بعد ذلك بأيديهم من مدن الشام الهامة سوى مدينة عكا .

الأشرف خليل والجهاد ١٢٩١ م :

تولى الأشرف خليل سلطنة مصر بعد أبيه قلاون ، وكان لزاما عليه أن يستكمل الدور الذى بدأه أبوه فدعم مركزه الداخلى فى مصر .

وفدت عليه رسل الصليبيين تحاول بدء علاقة سلام معه ، وقد صمم على أخذ عكا ، آخر معاقل الصليبيين فى فلسطين ، وسار خليل بن قلاون الى الشام ، واتفق مع الجيوش الشامية ليتعاونوا سويا فى استرجاع عكا .

ووصلت جيوش المسلمين الى عكا ، وضرب الأشرف خليل حصـــارا حول المدينة ، والتفت قوات الحصار حول أسوار المدينـــة وأثخنوها ضربا بالمنجنيقات وكشفوا سور المدينـــة ، وحاول الصليبيون الدفاع عن عكا ، وتكاتفوا جميعا من أجل منعها من أيدى المسلمين ، ووصل اليهم المدد من قبرص بقيادة هنرى الثانى ، الذى حاول التفاوض مع السلطان حول المدينة وعقد الصلح الا أن الأشرف خليل كان قد صمم على انهاء الوجود الصليبى من الشام ، وواصل المسلمون ضرباتهم الى عكا ، ولم تفلح مفاوضات هنرى مع المماليك واختلف مع الصليبيين فى عكا فقفل عائدا الى بلاده .

واستمر الحصار مدة طويلة وفى مايو أطبق المماليك على المدينـــة ، واقتحموها وفر الصليبيون أمامهم الى البحر منهم من نجا باللجوء الى بعض سفنهم ، ومنهم من مات غرقا فى البحر ، وتسلم الأشرف خليل عكا وحاولت الداوية المقاومة الا أنهـــا اضطرت فى النهاية الى التسليم ، وخلصت عكا

للمسلمين ، وتعود بلاد الشام كلها خلال الأشهر التالية الى المسلمين فيخلص المسلمون صيدا وصور من أيديهم وبذلك تنطوى تلك الصـــفحة من تاريخ الصراع بين الشرق والغرب ويعود الاسلام الى أرضه ويتوج المماليك الكفاح الطويل الذى استمر لعدة اجيال بالنصر الكامل على أعداء الاسلام المغول ومن بعدهم بقايا الصليبيين فى بلاد الشام ٠

ويظل العالم الاسلامى هدفا للغزو الخارجى ويستمر الجهاد المقدس ضد أعدائه ٠

ولما كان التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، فلا بد أن يكون ماثلا فى الاذهان ان الفترة القادمة من تاريخ العالم الاسلامى ستشهد مزيدا من ديناميه الاحداث تتمثل فى قيام الدولة العثمانية كبعث اسلامى جديد وهو ما سوف نتناوله فى اطار المنهجين التحليلى والمقارن فى ظل متغير مستقل وهو الاسلام الذى سوف يصعد خطه البيانى على مدى قرون قادمة وهو ما سوف يركز عليه القسم الثانى من هذه الدراسة ٠

الباب الثانى

الدّولة العثمانية (بعث إسلامى جديد)

الفصل الثالث

تفسير ظاهرة السلطة

أيديولوجية نشأة الدولة :

يعد تاريخ نشأة الأتراك الذين أسسوا الامبراطورية العثمانية وتاريخ قدومهم من أواسط آسـيا الى بلاد الأناضول من الأمور الغامضة التى تكتنفها حجب من الأساطير، ومع ذلك يتفق معظم المؤرخين(١) على أن الأتراك العثمانيين قد دخلوا آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى كقبيلة من القبائل التركية التى كانت على فترات متباعدة حينا ومتقاربة حينا آخر تنزح من وسط آسيا متجهة غربا نحو آسيا الصغرى أو الأناضول ، وتقرر احدى الروايات المستقاه من الحوليات العثمانية ان تلك القبيلة التركية قـد أسدت سنة ١٢٣٢ خلال ترحالها فى الأناضول خدمة جليلة لعلاء الدين الأول (١٢١٩ – ١٢٣٥) سلطان دولة الأتراك السلاجقة ، والذى كان يقاتل فى مواجهة جيش آخر ، فانضمت القبيلة الى جانب الجيش الضعيف ، وكان ذلك سببا فى انتصاره ، وبعد المعركة تبين أن القبيلة التركية تدخلت لنصرة بنى جلدتها وهم أتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغـولية فى جيش ابن جنكيز خان كان قد عهد اليها استكمال فتح آسيا الصغرى • وتقدير التدخل القبيلة التركية فى المعركة فقد منحها علاء الدين بقعة واسعة من دولته التى كانت تجتاز دور الاضـــمحلال ، غير أن رئيس القبيلة التركية

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك دكتور عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها • الجزء الأول ، مكتبة الأنجلو المصريه ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٣ – ٤٨ •

وراجع أيضا :

— Gibbous, H.A , The Foundation of the Ottoman Empire (Oxford 1916)

— Darthold, V.V., Histoire des turce d'Asie centrale (Adaptation francaise par Mwe M. Donskis, Paris 1945)

واسمه ارطغول لم يقنع بذلك وشرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين ممتلكات الدولة الرومانية الشرقية ونجح فى سياسة التوسع الاقليمى ، وبعد موته خلفه فى الحكم ابنه عثمان سنة ١٢٩٩ الذى سميت باسمه الأمة والدولة ، وسرعان ما نمت هذه الامارة حتى أصبحت امبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسـيا وأوروبا وأفريقيا ، وأصبحت من أكبر الدول الاسلامية التى شهدها التاريخ .

وخلال فترة حكم الأمير عثمان تحدد الوضع الدينى الذى عكس تأثيراته السياسية على الأتراك العثمانيين ، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الاسلامى وتبعه الأتراك العثمانيون ، وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماما ، ويحتمل انهم كانوا فى حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى الى الاسلام ، وعموما فان الروابط القوية بين الأتراك العثمانيين والأتراك السلاجقة كانت عاملا هاما ساعد على اعتناق الأتراك العثمانيين للدين الاسلامى ، وتحدد الاسلام كعقيدة دينية رسمية فى فترة حكم الأمير عثمان الذى اتسم بالحماس الشديد للاسلام وخضوعه لمشورة الفقهاء المسـلمين وخاصة من خلال تطبيق العدل كمبدأ هام الى جانب الشورى ، ويرى فريق من المؤرخين ان الاسلام كان له تأثير كبير فى مستقبل العثمانيين لا يقل عن التأثير الذى أحدثه الاسـلام فى عرب شبه الجزيرة العربية قبل العثمانيين بسبعة قرون عندما بعث النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، وهيأ الاسلام للأتراك العثمانيين وحدة العقيدة وعبأهم بشعور دينى متدفق وعاطفة اسلامية جياشة عكست تأثيراتها على روح عسكرية اسلامية ، وكانت هذه الروح العسكرية قد استحدثت أصولها من الأوضاع الجيوبولتكية حيث البيئة الأصلية فى سهول آسيا كانت بمثابة حجر الزاوية فى تكوينهم ، وعزز هذه النزعة الموقع الجغرافى فى شبه جزيرة الأناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية كان بعضها مسـيحيا والبعض الآخر اسـلاميا ، وكانت العلاقات بين العثمـانيين وهذه الكيانات السياسية علاقات عدائية فى معظم الأحيان تسودها اختلافات المصالح القومية وتعارضها وخاصة من حيث التوسع الاقليمى ، وبالتالى فقد اصطبغت حياة العثمانيين بالصبغة العسكرية بأسسها التنظيمية والتدريب الدقيق وتنوع الأسلحة ونشر التعبئة الروحية الاسلامية بين أفراده وهو ما جعل الجيش العثمانى يؤدى وظيفتين : الحرب والحكم ، وفى ضوء ذلك الاختصاص الثنائى للجيش العثمانى كان العسكريون فى الدولة لا يشغلون المناصب العسكرية فحسب ، بل كانوا يشغلون أيضـا المناصب القيـادية فى الحكم ، وكانت تصرفات السلاطين العثمانيين توحى بأنهم يعتبرون الدولة بما فيها ومن عليها ملكهم الخاص لهم مطلق التصرف فيهم جميعا وان السيادة قاصرة عليهم فقط

وهم مصدر هذه السيادة ولكنهم يتنازلون عنها لمن يشاءون ، غير أن ذلك لا يعنى أن السلطان العثمانى ظل ممسكا وحده بزمام السلطة بل على العكس فان نمو الدولة العثمانية نحو الامبراطورية فرض أوضاعا جديدة على السلطات العليا الحاكمة ، واضطر السلاطين بالتالى الى اعادة توزيع السلطات وانعكس ذلك على حسن تنظيم الادارة الحكومية بهدف توفير الخير العام وهو ما يفسر ولاء الشعب واخلاصه حيث اعتبر الطاعة والنظام من أرفع الفضائل التى يتحلى بها المرء ، وعلى صعيد قوة الدولة فقد تمكن السلاطين العثمانيون من أن يفرضوا على الدول الأوروبية أن تحسب لدولة قوية كدولتهم حسابها (٢) .

وفى مطلع القرن السادس عشر ، لم يكن قد مضى على تأسيس الدولة العثمانية سوى قرنين من الزمان ، وبالرغم من قصر هذه الفترة الى أن الانجازات التى تحققت خلالها من حيث بلورة الكيان السياسى العثمانى وتجانسه هو أمر يدعو للتأمل وخاصة فيما يتعلق باعتناق الدين الاسلامى من جانب العناصر التركية الوافدة من سهول آسيا الوسطى (٣) ، وبنزوح تلك العناصر ظهر عاملان أثرا على الفكر السياسى للعالم الاسلامى ، العامل الأول هو سيادة اللغة التركية وبالتالى اكتساب السكان القيم والمزاج والشخصية التركية ، أما العامل الثانى فهو تحول السكان فى الأناضول الى اعتناق الدين الاسلامى ، وفيما يتعلق باعتناق العثمانيين الاسلام دينا وكيف تم ذلك ، وفى أية حقبة ، فيبدو ان هناك تباينا فى الرأى عند الباحثين فيقول أ. هـ جيبنز A.H. Gibbons (٤) أنه ليس هناك أى اثبات تاريخى يدل على أن القبيلة التى ينتمى اليها عثمان كانت قبيلة اسلامية ، بل هنالك ما يدل على أن هذه القبائل النازحة الى الأناضول اعتنقت الاسلام بعد أن أستوطنت أراضى تقع ضمن الدولة السلجوقية التركية ، وكان السلجوقيون آن ذاك مسلمين » ، فى حين أن ف. م كوبريلى (٥) يقول « ان هذه القبائل

---

(٢) راجع فى تفصيل ذلك .

Sauvaget, J., Introduction à L'Histoire de L'Orient Musulman, Paris 1926 pp 164-165.

(٣) راجع فى تفصيل ذلك : فيليب حتى ، تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة دار العالم العربى ١٩٥٣ ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٤) راجع فى تفصيل ذلك :

Gibbons, H.A., the Foundation of the ottoman Empire, Oxford 1916 pp 25-30.

(٥) Koprulu, M.F., Les Origines de L'empire ottoman (Paris, 1935).

التركية (٦) كانت بوجه عام قبائل اسلامية ، لكنها لم تكن على شيء من التعصب الديني ، فان تعاليم الدين كانت فى نظرهم معقدة وهو ما جعل ممارسة الشعائر أمرا متعذرا ، فظلت هذه القبائل على اخلاصها وولائها للتقاليد القومية » ومع ذلك فان حركة التتريك لم تمض جنبا الى جنب مع حركة الدخول في الاسلام ، وكان هناك تقصير آخر هو حركة التعريب حيث احتفظ السكان فى مصر وسوريا قبل الغزو العثماني — بديانتهم اليهودية أو المسيحية فى حين أنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية ، وفى الحكم العثمانى قبل بعض الذين حافظوا على دياناتهم — اللغة التركية واعتنق البعض الآخر الدين الاسلامى ، ومن هنا أخذ الاسلام يوائم بين نفسه وبين لغة السكان (٧) من كافة العناصر مثل اليونانية والأرمينية والكردية ، فى حين أن عناصر أخرى قد انزوت لتكون أقليات أخذت تضعف فى الفترة اللاحقة من التجانس التركى ، لكن التجانس الذى حققته الدولة العثمانية — بالرغم من ذلك قد انعكس على قوة هذه الدولة حيث أكدت العناصر التركية بالمقام الأول سيطرتها على اقليم الأناضول ، وكان للأوضاع الجيوبوليتيكية أثرها الواضح فى أحكام هذه السيطرة حيث الأنظمة الرعوية وانطباعها فى نفسية العثمانيين قد تركت بصماتها فى نظرتهم الى الدولة باعتبارها قبيلة كبيرة عليهم طاعة زعيمهم اى سلطانهم وهو ما أدى الى الولاء المطلق للحكم العثمانى حيث دام هذا الولاء من جانب الشعب التركى لآل بيت عثمان قرابة ستة قرون(٨)وهو ما يستدعى وقفة للتفسير والتعليل من جانب فريق من المؤرخين ، فيرى البعض ان القوة العسكرية هو المعيار لتقييم الفرد وبحسب انتظامه وتربيته العسكرية الصارمة كان التقييم للفرد ، ليس هذا فحسب ، بل أن المكانة الاجتماعية — وحتى النفوذ — كانا من نصيب الأتراك ولم تكن هناك للنسب بل أن المجد كله كان

---

(٦) ان استعمال لفظ « تركى » بمعناها الحالى السائع بدأ قبيل نهاية الامبراطورية العثمانية ، أما فى الأصل فقد كانت تستعمل بمعنى فلاح من بر الأناضول (كما هى فى اللغة العربيه) وكان اذا أطلق أحد لفظ « تركى » على رجل من سكان الاستانة فانها تعتبر اهانة تلحق به ٠ انه عثمانى أحد رعايا الامبراطوريه العثمانية ، راجع نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٦ ٠

(٧) راجع فى تفصيل ذلك : محمد عبد المنعم السيد ، الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ١٩٦٨ من ص ١٦ — ١٧ ٠ ينج ، ت٠ كويلر ، الشرق الأدنى ، مجتمعه وثقافته ، القاهرة ، دار النشر المتحدة ، ص ٢٥٩ بارتولد٠ر، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ص ١١٠ ٠

(٨) محمد عبد المنعم السيد ، م٠ س٠ ذ٠ ص ١٩ ٠

لمن يموت فى ساحة القتال (٩) • أما فيما يتعلق بالطابع الدينى الاسلامى وتمسك العثمانيين به فيقول برنارد لويس : كانت الامبراطورية العثمانيه منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل تقدم شوكة الاسلام وحمايته ضد أى اعتداء خارجى ، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون تقريبا فى حرب مستمرة ضد الغرب المسيحى ، أولا لمحاولة فرض حكم اسلامى على جزء كبير من أوروبا وهى محاولة وافقها النجاح ، وثانيا لشن حرب دفاعية تأخيرية جديدة تقف فى وجه الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب.» (١٠) • ويضيف برنارد لويس عن تأثير قوة الاسلام على الدوله العثمانية قائلا : « كانت الامبراطورية العثمانية من وجهة نظر الانسان العثمانى التركى بمثابة الاسلام ذاته • وفى التواريخ العثمانية ، عندما يتكلم المؤرخون عن ولايات الامبراطورية يشيرون اليها بقولهم انها « دار الاسلام » وعندما يذكرون جيوشها يقولون عنها انها جيوش الاسلام ، ورئيسها الدينى « شيخ الاسلام » وكانت الشعوب التى تتألف فيها الامبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها أولا وأخيرا شعوبا اسلامية ، وكانت لفظة « عثمانية » تعنى اسم السلالة المالكة ، ولم تصطبغ لفظة « عثمانية » بصبغة قومية ذات مدلول قومى الا فى القرن التاسع عشر تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوروبية » •

وعن السمات الرئيسية للحكم العثمانى يقول فيشر فى وصفه للأتراك العثمانيين أن أخلاقهم قد اتسمت بشىء كبير من الهيبة الممتزجة بوقار الطلعة، وبأن تفكيرهم ينحصر فى أسس الحكم الامبراطورى من خلال مبادئه الأوليجاركية ، « وهى المبادىء التى تنظر الى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح الا للاسترقاق والعبودية » على حد تعبير هذا المؤرخ (١١) •

أما المؤرخ البريطانى الذائع الصيت أرنولد توينبى فيقول : « ان طاقة العثمانيين الرعوية قد انتقلت فجأة من رعاة لقطعان الى حكام لامبراطورية ، ومثل كل البشر فان الحلول التى استعانوا بها لمواجهة المشكلات التى استجدت عليهم كانت متأثرة بتجاربهم السابقة فما زال عالقا بتفكيرهم أنهم رعاة وكل

---

(٩) وهو ما دراه كاهون ، راجع :
Cahun, L'introduction à L'histoire de L'Asie, Paris 1896 pp 58 - 65.

(١٠) Bernard Lewis, Islamic Recical in turkey, in, International Affairs.

(١١) وهو فشر ، راجع فشر ، هـ٠ أ٠ ل ، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، القسم الثانى الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٥٧ ص ٤٦٠ ـ ٤٦٥ •

ما فى الأمر أن قطعانهم لم تعد من الماشية بل من البشر ، ولكى تظل هذه القطعان البشرية تحت سيطرتهم فقد أنفقوا ودربوا كلابا لحراستها هى الجيش العثمانى (١٢). فالسلطان العثمانى كان يمارس حكم الشعوب كما كان العثمانى يمارس على الماشية ، والسلطان هو المحور الرئيسى الذى ينظم التشكيلات المقاتلة ويدين له الجميع بالولاء التام جسما وعقلا وروحا .

أما المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى (١٣) وهو واحد من كبار المفكرين المسلمين فيصف فى اعجاب السلاطين العثمانيين مركزا على تمسكهم بالعقيدة الاسلامية منهجا وفكرا من حيث اقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية وتنظيم العلماء وعلماء الدين الاسلامى والتمسك فى الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع ، « فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم ، وهابتهم الملوك ، وأنقاد لهم المالك والمملوك » .

وهكذا صادف مطلع القرن السادس عشر شعبا متجانسا الى حد كبير ، وأصبحت أقاليم الأناضول التى كانت مهدا للحضارة البيزنطية — أصبحت مفتوحة أمام الدماء التركية الوافدة منذ نهاية القرن الحادى عشر مؤكدة سيادتها وسيطرتها وحكمها المطلق ، فى اطار الولاء الشديد لبيت آل عثمان من خلال شروط وراثة العرش التى انحصرت فى انتماء السلطان لبيت آل عثمان ، وعلى حد رأى أحد الباحثين (١٤) فقد عملت مراسيم الابادة عملها فى حل المتناقضات فى نطاق الأسرة الحاكمة حيث لا يوجد سوى سلطان أوحد يحكم شعبا كقطيع الغنم ويقود هذا السلطان نفسه جيشا مؤسسا على الولاء التام والاخلاص ، وفى هذا المعنى أيضا يقول الديرسون Alderson (١٥) توضيحا لمراسيم الابادة : « ان المعنى الحرفى لكلمة Fratricide هو ابادة الأخوة ، غير ان هذا اللفظ يحمل مدلولا أوسع اذا ما استخدم فى التحدث عن الظروف والأحداث التاريخية لآل بيت عثمان،

---

(١٢) Toynbee, Arnold, A study of history : The Osmanlis, London 1945, Vol 3 pp. 21 - 26.

(١٣) راجع الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، أربعة أجزاء ، الجزء الأول ص ٢١ .

(١٤) محمد عبد المنعم السيد ، م. س. ذ. ٢٢ .

(١٥) راجع فى تفصيل ذلك :
Alderson, A.D. The Structure of the Ottoman Dynasty, Oxford, the Clarendon Press, 1956 pp 22 - 28.

وفى هذا الصدد لمدلول الكلمة ، ويعنى ابادة كل فرد ذكر فى الأسرة الحاكمة يحتمل أن يشكل خطرا على السلطان الذى يمسك بزمام الحكم - وكان لجميع الذكور من العصب الحق فى وراثة العرش - وتأسيسا على ذلك فقد شملت الابادة الآباء والأعمام وأولاد العم والأخوة ، بل الأبناء والأحفاد ، وفى الحالتين الأخيرتين كان الاعدام نتيجة ثورة قام بها الأبناء على الآباء ٠٠ ، وان أغلب حالات الابادة ، قام بها سلاطين جدد لتدعيم قبضتهم على الحكم واقصاء أى تطلع الى العرش ٠٠ ، وقد وجدت حالات فردية من الابادة حيث كان الحق لأصحابها الحق فى العرش العثمانى فى خلال الخمسة عشر عاما الأولى فى تاريخ الامبراطورية العثمانية ، غير أن تلك العادة لم تمارس بصفة رسمية الا فى عهد محمد الثانى حيث أصبحت عقوبة الابادة رسميا وصدرت ضمن مجموعته القانونية الشهيرة « فانون نامة » الذى لقى تأبيد العلماء ٠

العثمانيون والشرق الأوسط :

عندما اعتلى السلطان سليم الأول عرش الامبراطورية العثمانية رجحت كفة العثمانيين فى ميزان القوى فى الشرق الأوسط ، واستحدثت العديد من العوامل الجيوبوليتيكية التى أدت الى نشوب الحرب مرارا بين الأتراك والفرس، لكن العوامل الدينية من حيث الصراع بين الشيعة والسنة كان لها هى الأخرى تأثيراتها ، فقد كانت ايران بلدا شيعيا ، وكان شاه اسماعيل الذى اتبع سياسة شيعية عنيفة قد جعل من المذهب الشيعى منهج الدولة الرسمى ، وعقد فى سنة ١٥١٤ معاهدة مع المماليك نتج عنها أن قطع المماليك علاقاتهم السياسية مع السلطان سليم ، الكن السلطان سليم كان يعتبر نفسه حامى السنة ، وأخذ يقتل من الشيعة الألوف فى جميع أنحاء الدولة العنمانية ، الى أن شن حملته العسكرية فى نفس العام ضد ايران وهزم الجيش الايرانى فى سهل جالديران Ghalderan الذى يقع بين بحيرة أورميا وتبريز ، ونتج هذا الانتصار العسكرى ضم أناطوليا الشرقية والجزء الشمالى من العراق بما فى ذلك كردستان الى الامبراطورية العتمانية ، ومع ذلك فان السلطان سليم عند انتصاره على اشاه اسماعيل الصفوى ودخوله عاصمة الدولة الصفوية تبريز واستيلائه على مناطق العراق الشمالية، فانه لم يشأ أن يستمر فى زحفه داخل ايران وعاد الى عاصمة ملكه لان « اختلاف المذهب بين العثمانيين السنيين والايرانيين الشيعة جعل العثمانيين لا يرحبون بالسيطرة على ايران خوفا من عدم إستتباب الأمور لهم فيها » وذلك على حد قول المؤرخ البريطانى

أرنولد توينبى (١٦) على نحو ما سيتم عرضه تفصيلا فى موضع لاحق .

وكانت دولة المماليك فى مصر وسوريا وتنافس كلا من الدولة العثمانية والدولة الايرانية بالسيطرة على منطقة الشرق الأوسط فى مطلع القرن السادس عشر ، غير ان الضعف أخذ يدب فى اوصال المماليك بسبب ضعف الجيش نتيجة الحروب التى خاضها ضد المغول فى حين أن قوة الجيش العثمانى كانت آخذة فى التزايد ، وكان هم السلطان سليم القضاء على المماليك فسار فى سنة ١٥١٦ على رأس جيش كبير نحو سوريا ، وفى ٢٤ أغسطس ١٥١٦ انتصر الجيش العثمانى على جيش المماليك بقيادة قنصوه الغورى وسقطت كافة المدن السورية (حماة - حمص - دمشق سنة ١٥١٧) . واجتاز الجيش العثمانى صحراء سيناء فى طريقه الى القاهرة واشتبك مع المماليك فى معركة الريدانية ووقعت القاهرة فى قبضة العثمانيين ، ولاقى طومان باى - آخر السلاطين المماليك - حتفه ، وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية . ويتضح من ذلك أن العثمانيين لم ينتزعوا البلاد العربية من السيطرة العربية وانما من سيطرة المماليك ، وان العرب وقتئذ كانوا فى حالة ضعف وتمزق وانحلال ، ونبع ذلك سيطرة السيادة العثمانية قرابة أربعمائة سنة ، وارتبطت البلاد العربية برابطة الخضوع والولاء للدولة العثمانية وأصبحت ولايات تابعة لها ، وترتب على هذا الوضع القانونى للولايات العربية حرمانها من ممارسة سيادتها فى الخارج بمعنى انها لم تعد تشغل مركزها فى الجماعة الدولية الا عن طريق الدولة العثمانية التى تولت تمثيلها وتصريف شئونها الخارجية ، والتزمت الولايات العربية بتنفيذ المعاهدات التى تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية .

وكان من المتوقع أن تكون معاهدات الامتيازات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية بمثابة نوافذ تطل منها الولايات العربية على أوروبا ، أو بمثابة قنوات يتم عن طريقها الاتصال المنشود ، وقضت الامتيازات الممنوحة للجاليات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر فى الدعاوى بين الرعايا الذين ينتمون الى هذه القنصلية أو تلك ،

---

(١٦) نقلا عن ، ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٠ ص ٤١ وراجع أيضا ، دكتور محمد عزت عبد الكريم وآخرون ، دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار - دكتور محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ١٩٦٦ .

ولم يخضع للقوانين العثمانية رعاية الدول الأجنبية من غير المسلمين المقيمون فى الامبراطورية العثمانية ، بل كانوا يتمتعون بأحكام خاصة بهم ، وكان القناصل هم القضاة فى المحاكم القنصلية يعاونهم مستشارون ، ويتم تنفيذ الأحكام الصادرة عن هذه المحاكم على الأرض التركية ذاتها ، وأدت معاهدات الامتيازات التى منحت الأجانب وخاصة من الدول العظمى — أدت الى زيادة حدة مشكلة القضاة والادارة حيث نالت الدول العظمى العديد من الامتيازات التى منحتها اياها الدولة العثمانية من خلال محاكم خاصة ودوائر بريد خاصة بها (١٧) ، ومع ذلك فان معاهدات الامتيازات لم تكن السبب فى تحديد حجم ونوعية اتصال الولايات العربية فأوروبا ، بل كانت هناك أسباب عامة وأسباب خاصة بكل ولاية عربية حددت حجم ونوعية هذا الاتصال ، ولعل من أهم هذه الأسـباب الأسباب السـياسية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

فالأسباب السياسية يرجع بعضها الى الدولة العثمانية والبعض الآخر يرجع الى الدول الأوروبية حيث أخذ نجم الدولة العثمانية يأفل فى الولايات العربية منذ أواخر القرن السابع عشر بسبب ضعف حكام الولايات العربية ، وكان تنفيذ معاهدات الامتيازات يخضع لأهواء أمراء المماليك فى مصر والعراق ورؤساء الطوائف فى الشام ، وكانت الرشاوى تقدم الى كبار رجال الدولة فى استنابول أو الولايات العربية لتنفيذ نصوص المعاهدات (١٨) ، واستفحل نفوذ الدول الأوروبية وازداد تدخلهـا فى الشـئون الخـارجية والـداخلية العثمانية ، واتخذت هذه الدول من معاهدات الامتيازات سندا لها فى هذا التغلغل ، وكانت الدولة العثمانية تتعرض لهزائم عسكرية أليمة من الجيوش الأوروبية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ووجدت الدول الأوروبية فى هذه الهزائم ما يشجعها على المزيد من التدخل أكثر مما نصت عليه معاهدات الامتيازات التى قامت أصلا على أساس تبادل الحقوق والواجبات بين الأوروبيين فى الدولة العثمانية والرعايا العثمانيين فى الدول الأوروبية بحيث أصبحت

---

(١٧) راجع فى تفصيل ذلك ، زين نور الدين زين . نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ، دار النهار للنشر ، بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ١٨٢ نقلا عن .

Secton, Watson, R.W., The Rise of Nationality in the Balkans (London, 1917) p. 161.

(١٨) راجع فى تفصيل ذلك ، دكتور عبد العزيز محمد الشناوى . الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، م. س. ذ ص ٧٢٦ — ٧٢٧ .

هذه المعاهدات فى غير صالح رعايا الدولة العثمانية فى أوروبا فى حين أنها أضفت مزيدا من الامتيازات للأوروبيين فى الدولة العثمانية والذين لم يقنعوا بالاعفاء الضريبى بل كانت لهم حصــانة منيعة تجاه الســلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية فى أقاليم الدولة ، والأسوأ من ذلك أن أصبحت الدولة العثمانية عاجزة عن التدخل لحفظ حقوق رعاياها المقيمين فى الدولة أمام استمرار الأجانب فى التمتع بالمزيد من الامتيازات مما أدى الى انتشار الفوضى فى الولايات العربية .

أما عن الأسباب الدينية التى حددت حجم ونوعية الاتصال بين الولايات العربية والدولة العثمانية وأوروبا ، فلعل من أهمها ان العالم الاسلامى كان منغلقا على نفسه ، ولم تكن العاطفة القومية على حد قول فيليب حتى (١٩) Hitti قد وجدت بعد لدى سكان الولايات العربية ، وجاءت الدولة العثمانية فوجدت هذه المفاهيم مستقرة فى أذهان الجماهير العربية . وكانت الدولة العثمانية نفسها قد أخذت بهذا النظام الذى عرف باسم « نظام الملل » .

والرأى العام الاسلامى كان يتوجس خوفا وحذرا من أوروبا بسبب رواسب الحروب الصليبية التى تعرضت لها أقاليم الشرق الاسلامى منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن الثالث عشر وما تخلل الحملات الصليبية من تحويل بعض السكان — وخاصة فى تونس — الى المسيحية وهو ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا خلال حملته على تونس عام ١٢٧٠ ليغطى فشله الذريع فى مصر حين وقع فى الأسر ، وقد علق بأذهان الأجيال الاسلامية المتعاقبة هذه الأحداث ، ثم سامعوا بأنباء حركة انتقال الحروب الصليبية الى أوروبا حيث واجهت الدولة العثمانية تكتلات دولة صــليبية نادت بها البابوية فى روما ووصف المؤرخون المحايدون (٢٠) ذلك بمثــابة حروب صليبية ، كذلك لم ينس عرب المشرق سقوط الحكم الاسلامى فى الأندلس وما سبق هذا السقوط ولحقه من اضطهاد دينى عنيف تعرض له المسلمون فى شبه جزيرة ايبريا والذين فضلوا الاحتفاظ بدينهم، ثم رأوا صراعا صليبيا فى الحوض الأوسط والحوض الغربى للبحر المتوسط وفى أقاليم شمالى أفريقيا

(١٩) دكتور فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢ جـ ٢ ترجمة دكتور كمال اليازجى ، ص ٢١٠ — ٢١٥ .
(٢٠) راجع فى تفصيل ذلك : دكتور عبد العزيز الشناوى ، م. س. ذ ص ٧٢٣ .

حين اندفعت أسبانيا والبرتغال فى حروب بحرية وبرية بهدف احتلال شمال أفريقيا وتحويل سكانها الى المسيحية وأقاموا لهم قواعد عسكرية كانت بمثابة جيوب صليبية متناثرة على الساحل الشمالى لافريقيا ، غير أن سكان شمال أفريقيا تصدوا لهذه الجيوب المسيحية بمفردهم أول الأمر ثم وجهوا الاستغاثات للدولة العثمانية يطلبون تدخلها عسكريا لانقاذهم وللحفاظ على اسـلامهم وعروبتهم ٠

وترتبط الأسباب السياسية والأسباب الدينية بالأسباب الثقافية التى حددت حجم ونوعية الاتصال بين الولايات العربية العثمانية وأوروبا حيث لم يكن يدور بالأذهان أن يوفد أحد من سكان الولايات العربية الى الجامعات الأوروبية فالبلاد العربية كانت حافلة بمراكز مرموقة للدراسات الاسلامية والعربية العليا من خلال الأزهر الشريف فى القاهرة والقيروان فى شمال أفريقية ودمشق فى الشام والكوفة والبصرة فى العراق فضلا عن مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وكانت الصلات الوثيقة تربط بين علماء الاسلام فى كافة أنحاء العالم الاسلامى واعتقد سكان الولايات العربية العثمانية بعدم جدوى تعليم أبنائهم فى الجامعات الأوروبية باعتبارها مهد الكفر ، ومنذ القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر سادت مثل هذه الأفكار وربما يمكن تلمس العذر للعرب بسبب خشيتهم من أن تفعل بهم أوروبا مثلما فعلت مع العرب المسلمين فى العصور الوسطى ٠

وفيما يتعلق بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى حددت حجم ونوعية الاتصـال بين الولايات العربية العثمـانية وأوروبا فالملاحـظ ان الأسـباب الاجتمـاعية قد عكست تأثيراتها على النواحى الاقتصـادية ، فأماكن اقامة الأوروبيين وتجارتهم ومعابدهم تحدد فى حى خاص بهم وحتى كنائسـهم وأماكن دفن موتاهم كانت فى مستعمرات خاصة بهم ، وكان الباب الحديدى للحى يغلق عليهم ليلا ولا يسمح لهم بالخروج من الحى أيام الجمع الا أن تنقضى شعائر صلاة الجمعة كاجراء وقائى (٢١) ، وهكذا عاش الأوروبيون فى معظم الولايات العربية على هامش المجتمعات الاسلامية ، وانعكس ذلك على النواحى الاقتصادية حيث اقتصرت عمليات الاستيراد على الأوروبيين والتجار العرب الأثرياء ، والسكك الحديدية التى أنشئت فى مصر عام ١٨٥٦ كان معظم ركابها

---

(٢١) ذلك خوفا على حريمهم ومتاجرهم فى أثناء انصرافهم الى المساجد ، راجع : دكتور عبد العزيز الشناوى ، م٠ س٠ ذ ص ٧٢٤ ٠

من الأجانب ، وكان سكان الولايات العربية يجهلون اللغات الأوروبية وهو ما أقام حاجزا يصعب اختراقه بين سكان الولايات العربية وأوروبا ، ويعنى ذلك من وجهة نظر أحد المؤرخين (٢٢) المعاصرين ان الدولة لم تكن مسئولة عن النظام الاقتصادى الذى كان بمثابة عازل للولايات العربية عن أوروبا ، وانه لم يكن بمقدور الدولة القيام بدور الوسيط لاكراه الجماهير العربية على التعامل مع الأوروبيين بسبب « العقد النفسية » لدى العرب •

سلطة الدولة :

كانت السياسة العليا للدولة العثمانية لا سيما فى مطلع القرن السادس عشر من وضع السلاطين العثمانيين ، فى اطار ممارسة الحكم المطلق (٢٣) ، وكان الحكم المطلق هو الخاصية الواضحة لمعظم الدول الأوروبية وخاصة فى الفترة التى تقع بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر ، ففرنسا كان ملوكها يمارسون الحكم استنادا الى مبدأ الحق الالهى ، وكان لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) يقول « أنا الدولة » وسار على نهجه حفيده لويس الخامس عشر (١٧١٥ ـ ١٧٧٤) وكان تمسك ملوك أوروبا بمبدأ الحق الالهى قد جعلهم فوق مستوى النقد •

واذا كان الحال كذلك بالنسبة لمعظم الدول الأوروبية فان الدولة العثمانية قد اتسعت رقعتها منذ مطلع القرن السادس عشر مما رفعها الى مصاف الامبراطوريات ، وضمت العديد من الشعوب والديانات والمذاهب واللغات والتقاليد والعادات فى ثلاث قارات : آسيا وأوروبا وأفريقيا وبالتالى فقد تعرضت لتكتلات دولية عدوانية وتحالفات صليبية ، بل ان الدول الأوروبية أدت دورا جوهريا ضد الدولة العثمانية حيث حركت العديد من الثورات عليها من جانب الشعوب المسيحية الخاضعة للسلطان •

وهكذا لم يخرج سلاطين الدولة العثمانية على الأعراف الأوروبية والنظم السائدة وقتذاك وأوحت تصرفاتهم بأن الدولة بما فيها ومن عليها ملكهم

---

(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٧٢٧ •

(٢٣) راجع فى تفصيل ذلك : بارتولد ، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ص ٢٧ ـ ٥٧ ، دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، م• س• ذ ١٩٨٠ ، ص ١٠٧ ـ ١١١ •

الخاص لهم مطلق التصرف فيهم جميعا على أية صورة دون أن يساورهم أدنى شك فى أن السيادة لهم وحدهم وهم مصدرها يتنازلون عن بعضها لمن يشاءون .

وعلى الرغم من الدولة العثمانية كانت تمارس الحكم المطلق ، الا أن هذا لا يعنى أن السلاطين ظلوا يمسكون بزمام السلطة وحدهم ، بل على العكس من ذلك فان نمو الدولة واتساعها قد فرض أوضاعا جديدة على السلطات العليا الحاكمة بما فيهم السلاطين ، الأمر الذى اضطرهم الى اعادة توزيع ما بيدهم من سلطات باعتبار ان الادارة الامبراطورية تعتبر أشد تعقيدا من ادارة دولة ذات رقعة محدودة ، ويتم عن المشكلات السياسية والادارية المتزايدة تحديات حتمت ضرورة تطوير جهاز الحكم واعادة توزيع السلطة بين التهيئات العليا الحاكمة وتنسبتها لضمان الحفاظ على وحدة الامبراطورية العثمانية .

وكانت السلطة موزعة بين العسكريين (٢٤) وعلماء الدين الاسلامى ، فمبادىء الشريعة الاسلامية كانت تمثل قيودا على السلطات المطلقة التى يمارسها السلطان ، وأدى ذلك الى كبح جماح اندفاعات السلاطين وسلطاتهم حيث كان بين أجهزة الدولة ما يسمى « الهيئة الاسلامية » التى ضمت شيخ الاسلام والقضاة والعلماء ، وحرصت الهيئة الاسلامية على أن تكون مبادىء الشريعة الاسلامية لها مكانتها المرموقة واحترامها وتطبيقها ، ولم يمس السلاطين العثمانيين المبادىء الاساسية للشريعة الاسلامية سواء بالحذف أو الاضافة أو التعديل ، وخشى السلاطين من العزل من العرش — ان لم يكن القتل — اذا هم أقدموا على اجراء تغيير جذرى يمس قواعد الشريعة الاسلامية . وتأسيسا على ذلك تمتعت الهيئة الاسلامية بحقوق وصلاحيات تداخلت مع اختصاصات السلاطين ، وسيطر علماء الدين الاسلامى على ناصية السلطة القضائية ، فى حين ان سلطة تنفيذ الأحكام القضائية قد أسندت الى العسكريين الذين كان فى يدهم القوة اللازمة لوضع هذه الأحكام موضع التنفيذ .

ولم يكن ذلك يعنى تطبيق مبدأ الفصل بين السلطات ، بل انه كان نتيجة لاتساع نطاق العمل المتعلق بالادارة الامبراطورية ، ولم يكن أى سابقة

---

(٢٤) راجع [illegible] ١٩٦٩ [illegible]
[illegible] ، ص ٧٥ — ٩٥ .

رقيبه على الأخرى . بل أنه لم يكن هناك ما يمنع من الجمع بين عناصر السلطة سواء كانت تنفيذية او قضائية ، وقد وصف أحد الباحثين الغربيين هذا النوع من أنواع الحكم النطاق الذى كان يمارسه السلاطين العثمانيين بأنه استبداد مقيد غير أن فريقا من المؤرخين العرب يرون ان سلطات هؤلاء السلاطين كانت مقيدة - نظريا - بأحكام الشريعة الاسلامية ، أما من الناحية العملية فان سلطتهم كانت مطلقة لانهم - اى السلاطين - كانوا يجدون استجابات قوية لرغباتهم من كبار علماء الدين الاسلامى الذين كانوا يصدرون فتاوى تحقق أغراضهم وتضفى على تصرفات السلاطين طابع الشرعية . ويعنى ذلك فى الحقيقة ان السلطان العثمانى كان بمثابة السلطة المهيمنة على السياسة والادارة والجيش . فالسلطة السياسية استمرت ممثلة فى السلطان ولم يخفف من غلوائها سوى تطور أجهزة الدولة وتعدد مشكلاتها الادارية بسبب توسعها المتزايد ، مما اضطر السلطان العثمانى الى التنازل عن بعض صلاحياته الى معاونين له فى شئون الحكم ، واختلف الحال عما كان عليه فى بداية عهد الدولة حيث لم يكن يعاون السلطان فى مهام الحكم سوى علماء الدين الاسلامى اى هيئة كبار العلماء وعلى رأسها شيخ الاسلام ، لكن استمرار اتساع رقعة الدولة جعل ممارسة السلطان لمسائل السياسة والادارة والحرب أمرا مستحيلا ، وعجز علماء الدين الاسلامى عن اسداء المشورة للسلطان بحكم هذه الظروف الجديدة . وهكذا أوجدت ما سمى بالديوان الذى أضحى قوة جديدة من وراء العرش بعد أن انتقلت اليه اختصاصات المحكمة العليا وهو ما يقتضى وقفة للتفسير .

الادارة العثمانية والديوان :

كان الديوان مجلسا عاما وبمثابة مجلس وزراء موسع يضم جميع رؤساء الدوائر فى الدولة ويجتمع لبحث القضايا العامة ولاتخاذ قرار الحرب، وفى زمن السلم كان الديوان يعقد جلسات مطولة أربعة أيام من كل أسبوع وكانت اجتماعاته تستغرق وقتا يتراوح بين سبع ساعات وثمانى ساعات ، وابان الحرب كان الديوان يعقد اجتماعاته فى خيمة الصدر الأعظم (٢٥) على مقربة من مخيم السلطان ، وكان كبار الموظفين فى الدولة يصحبون السلطان الى ساحات القتال وترتب على ذلك ان اجراءات عقد الديوان كانت مماثلة على وجه التقريب للنظام المتبع فى استانبول ، وفى حالة غياب السلطان

---

(٢٥) وهو الوزير الأول كما سيأتى تفصيل ذلك فى المتن . « الباحث » .

عن العاصمة ومعه الصدر الأعظم فان الديوان كان يحضر اجتماعاته عدد قليل من كبار الموظفين ، وتطورت مهام الديوان فى الفترة اللاحقة على حكم السلطان محمد الثانى حيث أسندت رئاسته فى أواخر عهده الى الصدر الأعظم وأصبح الديوان شكلا من أشكال المجالس الوزارية الحالية وان كان قد تأثر فى طريقه تشكيله وعمله ببعض المؤثرات الناتجة عن نظام الاقطاع الذى ساد مجتمع الدولة العثمانية وحتى السلطة المسندة الى الديوان قد تطورت هى الأخرى ، ففى بادىء الأمر كانت استشارية لأن السلطان وضع بين يديه كافة السلطات، أى أن سلطته كانت استشارية مطلقة وكان أعضاء الديوان مساعدين له وليس لهم الحق فى مشاركة السلطان سلطة اصدار القرارات المتعلقة بشئون الحكم ، حيث أنهم لا يعدون حكاما ، وانما هم موظفين تقتصر وظيفتهم على مجرد التحضير لتلك القرارات ثم تنفيذها ولا يشترط موافقتهم أو توقيعهم من أجل نفاذها .

غير أن السلطان قد اضطرته ظروف التوسع الامبراطورى الى أن يمنح سلطات الحكم الفعلية للديوان ولوزيره الأول ، وتأسيسا على ذلك أصبح منصب الوزير منصبا خطيرا ، حتى أن السلطان محمد الثانى جعله وصيا فعليا على الامبراطورية وذلك فى الفقرة الأولى من القانون الأولى من القانون الأساسى الذى وضعه للدولة ونصها « ليعلم أولا أن الصدر الأعظم هو رئيس الوزراء صاحب الصلاحية المطلقة فى شئون الدولة ، أما القيم على أملاكى فهو الدفتردار ، ولكن الصدر الأعظم هو رئيسه وللصدر الأعظم فى مكانته حق التقدم على جميع موظفى الدولة »(٢٦) .

كما كان للوزير الأول الصلاحيات المطلقة فى السيطرة على فروع الادارة برمتها ، وفى المراسيم والمناسبات والتشريعات كان الوزير الأول - شأنه شأن السلطان - يتقبل ولاء موظفى البلاط والدولة ، وكانت اجتماعاته تعقد فى مقره الرسمى « الباب العالى » حيث يحضر كبار مسئولى الدولة للتشاور فى الأمور الهامة واصدار القرارات الملزمة لأجهزة الدولة التنفيذية والادارية و، وعموما فقد كان الوزير الأول يقع على قمة الجهاز الادارى الحكومى نيابة عن السلطان ، وكان ضمن مسئولياته أيضا رئاسة الديوان أخذ يتوسع ويضم من القادة العسكريين وكبار موظفى الدولة

---

(٢٦) راجع تفصيل ذلك فى :
بروكلمان كارل ، الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، مرجع سابق ص ٩٠ - ٩٩ .

والدبلوماسيين وكبار العلماء ، وقد كان تشكيل الديوان من ممثلى الامبراطورية بشطريها دليلا على رغبة السلطات المركزية فى ربط الأجهزة الادارية المحلية فى الولايات بالتنظيم الادارى فى الدولة ممثلا فى الديوان ٠

وهكذا تغيرت صورة نظام الحكم التى كانت سائدة فى أوائل القرن السادس عشر ، صورة الحكم المطلق بدون برلمان وبدون سلطة تشريعية والتى كانت تعتمد على قضاة يفسرون الشريعة الاسلامية من أعلى مستوى فى الامبراطورية الى أصغر الوحدات الادارية فى الأقاليم ، حتى التقسيم الادارى للامبراطورية كان متمشيا مع النظامين الاجتماعى والاقتصادى اللذين قاما على نظام اقطاعى ومع أن الحكام ومساعديهم فى هذه الفترة كانوا انتهازيين الا أنهم قاموا بتطوير نظم الدولة لمواجهة احتياجاتها بالرغم من تظاهرهم بالحفاظ على الشكل الصارم للدولة العثمانية ، لكن الفترة التالية للقرن السادس عشر شهدت تغييرا جوهريا فى نظم الادارة وفى تشكيل الديوان(٢٧) واختصاصاته ودوره فى حكم الدولة وانتقال اختصاصات المحكمة العليا التى كان يرأسها السلطان من قبل الى الديوان ٠

الديوان والمحكمة العليا :

كان السلطان رئيسا للمحكمة العليا وفى نفس الوقت كان بمثابة « امام » للمسلمين ، وتأسيسا على هذا التفويض كان الوزير الأول « الصدر الأعظم » يتولى مهام القضاء بالمحكمة العليا بمساعدة أهل الحل والعقد وقضاة الشريعة الذين كانوا يعتبرون من أكبر العناصر القضائية التى تمثل الشريعة الاسلامية ، غير أنه من الناحية الشكلية كانت الأحكام تصدر عن الوزير الأول ، وبالتالى فقد ضم الى وظائف الديوان النظر فى المسائل القضائية ، بمعنى تطبيق القانون من ناحية والنظر فى المسائل الادارية من ناحية أخرى ٠ ويرى أحد المؤرخين(٢٨) الغربيين أنه طالما كان القانون فى الدولة العثمانية محددا ، وطالما أن أى تشريع يصدر عن الدولة يرتكز حول

---

(٢٧) كان يطلق على الديوان لفظ الديوان الهمايونى ، وهمايون كلمة فارسية معناها مبارك أو مقدس ، واصطلاح الديوان الهيمايونى يعنى الديوان السلطانى ٠

(٢٨) راجع :
Lyber, A.H.; The Government of the Ottoman Empire, in the time of Suleiman the Magnificent, Harvard Univ. Press 1913 p. 110.

السلطان ، فان المنافسات وتبادل الآراء قد اقتصر على المسائل الادارية والقضائية .

وقد جمع الديوان فى وظيفته بين سمات الوزارة وأعلى سلطة قضائية فى الدولة وهى المحكمة العليا ، ويرى أحد الباحثين(٢٩) ان الديوان فى علاقته بالمحكمة العليا كان بمثابة مجلس تناقش فيه المسائل السياسية الهامة بالدولة ، وفى نفس الوقت كان بمثابة محكمة عليا لها جميع الصلاحيات فى أن تنقل أمامها أى قضية تراها ، كما تنظر فى القضايا التى تقام بين العثمانيين والأجانب ، أما المؤرخ الامريكى ليبير فيقول « انه على الرغم من أن الديوان كان يجمع بين اختصاصات الوزارة والمحكمة العليا الا أنه لم تكن هناك أوجه للشبه بين الديوان والهيئات القضائية الأخرى ، فرئيس الديوان هو الصدر الأعظم الذى يتم تعيينه بفرمان سلطانى ، وموافقة السلطان على قرارات الديوان هى أمر ضرورى حتى تأخذ هذه القرارات الصيغة القانونية والتنفيذية ، وكان السلطان لا يحضر جلسات الديوان ومع ذلك فان أعضاء الديوان كانوا مسئولين أمام السلطان ، ولم تشمل المسئولية تصرفات العضو فحسب بل سلوكه أيضا ، وهكذا اعتبر الديوان بمثابة أعلى محكمة فى الامبراطورية العثمانية ، ومع ذلك فلا يدخل فى اختصاصاتها مناقشة شرعية القوانين ، والشىء المثير للجدل هو كون الديوان بمثابة محكمة تشمل ولايته القضائية جميع القضايا المدنية والجنائية التى ترفع اليه من أى جزء من أجزاء الامبراطورية(٣٠) .

ونتج عن ذلك أن الأحكام القضائية للديوان لا تصبح نهائية الا بعد موافقة السلطان عليها ، وبالرغم من هذه التباينات والتناقضات فى وظائف الديوان ونظامه فقد كان ذا فائدة كبرى للحكومة العثمانية ، فهو يعلو جميع

---

(٢٩) راجع :
Heidborn A.; Manuel de Droit Public et Administratif de L'Empire Ottoman, Vienne 1909 pp 140 - 145.

(٣٠) راجع فى تفصيل ذلك : اندريه جوسان ، تركيا بين جبارين ، سلسلة كتب ثقافية ، بيروت ، دار المكشوف ، بدون تاريخ اصدار ص ١٤ – ٣٢ .

– فيليب حتى ، تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة دار العالم العربى ، ١٩٥٣ ص ٧ – ١٨ .

– ومن الدراسات العربية الحديثة فيما يتعلق بالملامح الرئيسية للدولة العثمانية ، راجع دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، م . س . ذ ج ١ ص ٣٤٤ – ٣٩٥ .

الهيئات فى الدولة بما فيها الهيئة الاسلامية ، وشخص السلطان هو أعلى منه - أى الديوان - الذى اعتبر أيضا بمثابة مركز الدائرة الذى تدور حوله جميع تشكيلات الحكومة العثمانية ، وهذه الأخيرة تتسم بأنهـــا حكومة ذات حكم مطلق ولكن ذلك كله يتم فى إطار الديوان الذى كان يجمع أكثر رجال الدولة العثمانية كفاية وأعلاهم فى المناصب ، وعلى ذلك كان اختيار أعضائه يتم بدقة متناهية وعلى عدة مراحل ، ومنحتهم الدولة صـــلاحيات واسـعة مصحوبة بمسئوليات ضخمة ، والقرارات تصدر عن الديوان ولكن لابد من موافقة السلطان عليها ، واعتبر الديوان فى هذا المنطق بمثابة نموذج ممتاز للادارة المركزية فى الدولة العثمانية ، ومن خلاله وبفضله استطاع السلطان أن يبسط نفوذه على هذه الامبراطورية المترامية الأطراف ، وأعضاء الديوان والحكام كانت تربطهم بالسلطان روابط وثيقة ، ومزيج من المشاعر يلخصها أحد المؤرخين العرب(٣١) المعاصرين بأنها « عرفان بالجميل والمصلحة الذاتية والتطلع لمزيد من الترقيات وكذا الخوف من بطش السلطان » وفضلا عن ذلك كان الديوان بمثابة مدرسة يتدرب فيها القضاة ورجال الادارة ورجال الحكم ، والصدر الأعظم بصفته رئيس الديوان كان يتصل بالأعضاء اتصالا مباشرا ، والسلطان كان يتابع ذلك كله عن كثب ، والاثنان : السلطان والصدر الأعظم كان فى حوزتهما سلطة المزيد من الترقى للأعضاء وأيضا حق توقيع عقوبة الاعدام ، ومع ذلك فلم يكن الديوان مجردا من سلطة اصدار التشريعـــات والقوانين ، فالمواد القانونية الصادرة كان الأعضاء يشتركون فى اعـــدادها وصياغتها القانونية ، والخلاصة أن الديوان كان يراقب الادارة ويفصل فى القضايا الهامة ويحكم الدولة العثمانية نيابة عن السلطان ومن خلاله ومن أجله حيث الصلاحيات السياسية والادارية فى الدولة برمتها مركزة فى يد السلطان ، أما انشاء الديوان فقد كان ضرورة فرضتها التوسع الكبير فى الامبراطورية العثمانية بما عكسه ذلك من مشكلات وزيادة فى الهيئـــات الحكومية والموظفين والمناصب الجديدة ٠

دور الجيش فى الحكم :

كان العثمانيون يتسمون بمجموعة فريدة من الخصـــائص وانعكست هذه الخصائص على تكوين الدولة العثمانية ، وكانوا فى ســبيل التمسك بامبراطوريتهم على استعداد لأن يعملوا أى شىء وحكموا ممتلكاتهم عن طريق

---

(٣١) دكتور عبد العزيز الشناوى ، م٠ س٠ ذ ، ص ٣٩٤ ٠

نواب للسلطان يدعون بالباشوات وفى ظلهم تمكن الموظفون والجند من الأقاليم التى يحكمونها من أن يتطلعوا الى أعلى مناصب السلطة والمسئولية بما فيها منصب الوزير الأعظم(٣٢) ، وكانوا يضعون فى عاصمة كل اقليم وحدة رمزية لتكون نواة لقوات الدفاع والامن فيه ، غير ان اغلبية كل جيش اقليمى كانوا يجندون من أبناء الاقليم ذاته — البربر ، الاكراد ، اليونانيين ، الشراكسة ، العرب ، الالبان ، الايطاليين ، الأرمن — ممن كانوا يتلقون برامج عنيفة من التدريب والتوعية فى المدارس العسكرية التركية ويعتنقون الاسلام ، فالعسكرية الصارمة كانت الخاصية الأولى للدولة ، وطبعت بها أخلاق العثمانيين وسلوك الدولة وسياستها الخارجية .

واستمد العثمانيون النزعة الحربية الصارمة من بيئتهم الأولى فى أواسط آسيا قبل أن يتجهوا الى آسيا الصغرى وقد أكد هذه النزعة طبيعة الأوضاع الجيوبولتيكية لشبه جزيرة الاناضول حيث أحاطت بالعثمانيين كيانات سياسية متباينة بعضها مسيحيا وبعضها اسلاميا ، وساءت العلاقات بين هذه الكيانات وبين العثمانيين ويعزى ذلك الى صيغة التوسع الاقليمى التى اتسمت بها السياسة العامة للدولة العثمانية .

وفى هذا قال المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى : « ان العثمانيين قد استمدوا طريقهم فى حكم الشعوب التى دانت لهم من واقع البيئة الأولى التى نشأوا فيها وهى بيئة البرارى فى أواسط آسيا ، فالسلطان العثمانى كان يمارس حكم تلك الشعوب كما كان الانسان العثمانى يمارس رعى الماشية فى البرارى ، وممارسة الرعى لدى العثمانيين الأوائل كانت تتكون من ثلاثة عناصر الراعى والماشية وكلب الحراسة ، فالسلطان هو الراعى ، أما الماشية فهى الشعوب التى خصصت للدولة وكلب الحراسة هو الجيش العثمانى »(٣٣) وتفسير ذلك فى رأى توينبى أن السمة الرعوية للأتراك العثمانيين قد انتقلت نقلة فجائية من رعاة لقطعان الى حكم لامبراطورية ، ومثل كل البشر فان الحلول التى استعانوا بها لمواجهة المشكلات التى استجدت عليهم كانت متأثرة

---

(٣٢) وهو الصدر الأعظم او الوزير الأول ، راجع انتونى ناتنج ، العرب ، انتصاراتهم وأمجاد الاسلام ، ترجمة دكتور راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٣٣) راجع :

Toyenbee A J., A study of History, London, 1945, Vol. 111, pp. 22-26

بتجاربهم السابقة ، فما زال عالقا بتفكيرهم انهم رعاة ، ولكى تظل هـــذه القطعان البشرية تحت سيطرتهم فقـــد انتقوا ودربوا كلابا لحراســـتها ، وصادفوا متاعب أشد فى تربيتها وتدريبها عن تلك التى صادفها أســلافهم الرعاة(٣٤) . أما المؤرخ الامريكى ليبير فيقول : « ان الجيش العثمانى كان يجمع بين أفراده جميعا شعور الولاء العميق للسلطان ... فالسلطان هـــو المحور الرئيسى الذى ينظم عمليات التشكيلات المقاتلة ، والجميع يدينون له بالولاء التام جسما وعقلا وروحا (٣٥) . وكان الشعب العثمانى مدربا للدخول فى الحروب مطيعا للســـــلاطين الذين استأثر الجيش باهتمامهم وعنـــايتهم وانعكس ذلك على الجيش العثمانى الذى تميز بالتنظيم الصـــارم والتدريب الدقيق والعتاد الوفير وتنوع الأسلحة ، وكان المبدأ الأساسى للدولة العثمانية هو انها بدأت امارة غزاة محاربين لدرجة ان أحد الباحثين الغربيين أطلق على الأتراك العثمانيين بأنهم « نوع غريب من الامبرياليين » (٣٦) وكان للجيش العثمانى وظيفتان : الحرب والحكم ، وقيل بهذا الخصوص أن الجيش العثمانى كان بمثابة عملة نقود نقشت على أحد وجهيها كلمة الحرب ونقشت على الوجه الآخر كلمة الحكم ، وتأسيسا على ذلك شغل العسكريون المناصب العسكرية بالاضافة الى المناصب المدنية القيادية ما عـــدا مناصب القضـاء والوظائف الدينية ويعنى ذلك أن دراسة مراكز القوى فى الدولة العثمانية توضح ان قادة الهيئات الحاكمة العليا الذين بيدهم السلطة التنفيذية هم أنفسهم قادة الجيش العثمانى فالسلطان ووزراؤه وقادة الجهاز الادارى للدولة كانوا جنودا فى الجيش يخوضون بأنفسهم غمار الحروب(٣٧) ، وقد تعاظم دور الجيش فى الحكم بل وفى اعتلاء العرش نفسه نظرا لأن النظام العثمانى قرر حقا متساويا لأبناء السلطان جميعا فى وراثة العرش ، وكان الوريث لابد أن يحصل على معظم الأصوات والتى بدونها لا يصبح سلطانا ، وهذه الأصـوات فى معظم الأحوال كانت أصوات القوى الحقيقية التى بيـــدها أن تحسم الموقف وكان لذلك آثار وخيمة من حيث الصراع الدموى الرهيب ودور الجيش فيه وهو

---

(٣٤) Ibid, pp. 22 - 23.

وراجع أيضا :

Price, M. Philips, A History of Turkey from Empire to Republic, London, George Allen, Unwin, L.T.D. p 59.

(٣٥) Lyber, A.H., op. cit., pp 110 - 112.

(٣٦) Ibid.

(٣٧) Encyclopaedia Britannica, Vol 22, Art Turkey p. 602.

ما لم يحدث له مثيل فى تاريخ أية أسرة مالكة ، والباحثون فى تاريخ الدولة العثمانية ـ وهم قلائل(٣٨) ـ يلمسون حـالات انفرادية من الابادة لمن لهم الحق فى وراثة العرش وذلك خلال الخمس عشرة سـنة الأوائل من تاريخ الدولة ، ثم تفشت هذه الظاهرة الدموية حتى تم وضع قانون رسمى لها فى عهد محمد الثانى(٣٩) وكان ذلك سببا فى ادراك كل أمير فى قرارة نفسه بأن حياته متوقفة على استيلاء العرش لأن المنتصر فى الصراع يجعل حياة الذين كانوا منافسين له فى خطر ومن هنا زادت حدة الصراع حتى انه شمل الأمراء الذين لم يكن لهم أى طموح فى ارتقاء العرش وذلك حرصا على حياتهم فيما أعلنوا بأنهم عازفين عن اعتلاء العرش فمن الصعب أن يصدقهم أحد ، ونتج عن ذلك حروب داخلية كان من المحتم على السلطان الجديد مواجهتهـا لتدعيم حكمه ، وهو ما امتص جانبا كبيرا من جهود السلطان الجديد ، ويفسر هذا الدوافع التى جعلت السلطان الجديد يقتـل أى فرد من أفراد الأسرة المـالكة ممن يتراءى له خطورة ذلك التشخص على العرش باعتبار أن التضحية بأى أمير مهما كانت أهميته ، تهـون بجانب التضحية باقليم من أقاليم الامبراطورية(٤٠) •

وقد أثبتت التطورات اللاحقة فى تاريخ الدولة العثمانية ان القسـوة الرهيبة فى تنفيذ السلاطين العثمانيين لعمليات الابادة الجماعية للأفراد من الذكور أن تلاشت تماما الظاهرة التى صاحبت الأسر المـالكة وهى ظـاهرة تكون طبقة ارستقراطية متصارعة عـلى العرش من أمراء البيت الحـاكم • وبالرغم من بشاعة تلك الوسيلة ومخاطرها الداخلية الا انه نتج عنهـا أن الامبراطورية العثمانية لم تتعرض لأخطـار التقسيم بسبب قوانين الوراثة والتى أدت ـ من منظور تاريخى ـ الى انهيار الامبراطوريات الكاردلينجية ثم السلجوقية والبيزنطية(٤١) •

كذلك فان الصراع المرير الذى كان ينشب عـادة فى أعقـاب وفاة

---

(٣٨) أما فى الوطن العربى فنكاد نعدم وجود باحثين متخصصين فى الدولة العثمـانية باستثناء بعض المؤرخين والباحثين لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة •

(٣٩) راجع :

Alderson, A.D. The Structure of the Ottoman Empri,e Oxford, the Clarendon Press 1956, pp 24-26.

(٤٠) Ibid, pp 24-26.

(٤١) Ibid p 25.

السلطان جعل البقاء للاقوى والأكثر ذكاءا ودهاءا ومقدرة على استمالة رجال الحاشية ، كما ان بقاء الباب مفتوحا أمام الاخوة جميعـــا ، قد أدى بهم فى معظم الأحيان الى استمالة آبائهم بالولاء المطلق لهم والتفانى فيما يناط اليهم من مسئوليات ، وانعكس ذلك على الجيش وخاصه أثنـــاء الحروب حيث كان لشخصية السلطان تأثيرها البالغ واذا أخذنا مثالا لذلك سليم الأول حينما وقف فى وجه جنوده العصاه عندما رفضوا الاستمرار فى الحرب الفارسية مصمما على ضرورة مواصلة القتال مهما كانت المشاق فكان له ما أراد وتفسير هذه الحادثة أن تمرد الجنود وعصيانهم قد بلغ أشــده ابان الحملة الفارسية بأن أطلقوا النار على خيمة السلطان سليم ، ومع ذلك فقد استمر فى مواصلة القتال ، وقد حفظ له التاريخ هذا الموقف تجاه جنوده العصاه وهو يخاطبهم قائلا : « اذا شئتم الرجوع فلكم ذلك ، أما أنا فسأذهب بمفردى » (٤٢) ٠

وبالرغم من أن الشخصية القــويه لســـليم الاول لم تتوافر لـكافة السلاطين العثمانيين ، الا ان الجنود كانوا يتصرفون فى المعارك فى اطار الولاء المطلق للسلاطين وكان لذلك تأثيره المباشر على نتائج المعارك وهو ما أشــار اليه بوسبيك الســفير النمسوى فى اســـتانبول عام ١٥٥٤ حيث اعتريه الدهشة البالغة فى الفروق الهائلة وهو يعقد المقارنات بين الجيش العثمانى والقوات المسلحة للدولة الرومانية قائلا(٤٣) : « ان هاتين الدولتين كانتـــا دمعان فى مواجهه عسكرية ويقع الاشتباك المسلح بينهما ، وفى جانب توجد الدولة العثمانية ، وهى امبراطورية عظيمة قوية تحشد جيوشا كبيرة تسودها روح عسكرية عالية ، وأفراد هـــذه الجيوش مدربون عـلى الحرب ويتحلون بالصبر والنظام ، وفى الجانب الآخر توجـــد الدولة الرومانية « المقدسة » ويتصف جنـــودها بالاغراق فى الترف والاســـــتخفاف بالنظـــام وحب الشهوات ٠٠٠ » ، ان العثمانيين قد أعدوا للغزو وتحقيق الانتصارات فى حين أن جنود الامبراطورية الرومانية المقدسة قد أعدوا لتقبل الهزائم » ٠

فرق الانكشارية :

- يرى بعض المؤرخين أن الانتصارات الكبرى التى حصل عليها العثمانيون انما كانت بســـــواعد الينى شريه (٤٤) وهم عناصر صـــــقلية وألبانية

---

(٤٢) كمال نامى ، عهد الفتح ، بدون مكان وتاريخ اصدار ، ص ٤٠ — ٤٤ ٠

(٤٣) راجع : Hubarrd, G.E., The day of The Creacent p. 85.

(٤٤) التى تعريبه معربهـــا ينى شرى ويستخدم المؤرخون والباحثون العرب كلمـــة « الانكشارية » واللفظ المستخدم فى الفرنسية : Janissaries

وليست تركية ، فى حين وصف المؤرخ هـ ٠ أ ٠ ل ٠ فيشر (٤٥) الأتراك العثمانيين بأن تفكيرهم لا يتعدى فى أسس الحسم الامبراطورى المبادىء الأوليجاريكية الاستئثارية ، وانه من خلال نشأة وتكوين الينى شاريه « الانكشارية » كأرقاء أو أشباه أرقاء متجردين من جميع المؤثرات السلمية الانسانية التى تهذب الطباع محرومين من جميع الصفات المكتسبة التى تفتح العقول ، فقد ابتعدوا بذلك من جميع المثل العليا التى يحرك الارادة »(٤٦) ، ويرى أحد المؤرخين الغربيين أن أول ما يلفت الأنظار فى الأتراك روح الانتظام والتربية العسكرية الصارمة ، وقد حرصوا على ذلك حتى ان عقوبة الاعدام الرهيبة كانت جزاء من تسول له نفسه ارتكاب جريمة التآمر أو العصيان ، والقوة هى المعيار الأول لتقييم الفرد ، وانه بحسب قوته يحسب ما ينال من مكانة ونفوذ ، لا أهمية لسن ولا لنسب والفخر كله لمن يموت فى ساحة القتال(٤٧) ، وأدى الجيش العثمانى دورا كبيرا فى تدعيم هذه الأفكار التى وجدت مجالا واقعيا للتطبيق بواسطة فرقة الينى شاريه (الانكشارية) ، الذين كانوا أعد فرق الجيش نفرا وأقواها جذرا وأكثرها نفوذا ، وأفسحت الدولة لهم الطريق كى يقفزوا الى أعلى الرتب العسكرية والمدنية على حد سواء ، والمثير ان جند الانكشارية هؤلاء قد منحتهم الدولة أصلا عن طريق الفتوحات ثم بواسطة نظام « الدوشرهة » عملية جمع الشبان من رعايا الدولة المسيحية ، وكان يتم اختيار أحسن هؤلاء الشبان ويدربون تدريبا خاصا ويستخدمون فيما بعد فى قصر السلطان حيث يرتقون حسب كفاءاتهم الى

---

(٤٥) فيشر ، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص ٤٦ ، ويرى أحد المؤرخين المصريين أن الباحثين العرب يقعون فى خطأ لغوى واضح حيث يطلقون على هؤلاء الجنود المشاه اسم الانكشاريه ، ويضيف أن الدقة فى الصياغة اللفظية تتطلب استخدام اللفظ التركى وهو الينى شريه ، فى حين ان فريقا آخر من المؤرخين يرون أن اللفظة التركية الأصلية وهى ينى شريه Yeni Tcheri ، واللفظه المعربة او اللفظة التى تستخدم فى الكتب العربية وهى الانكشارية قريبتان بعضهما من بعض بحيث لا يستحق الأمر مثل هذا التغيير الشكلى الذى قد يؤدى الى بلبلة الأفكار حول مدلول ينى شريه ، أو الينى شريه ٠

راجع فى تفصيل ذلك دكتور عبد العزيز الشناوى ، م٠ س٠ ذ وراجع أيضا فشر ا٠هـ ، تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى ترجمه الدكتور محمد مصطفى زيادة ، دار المعارف ١٩٥٤ ، ص ٤٤٥ ٠

(٤٦) فشر ، هـ٠ أ٠ ل ، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، جـ ٢ م٠ س٠ ذ ، ص ٤٤٥ — ٤٥٠ ٠

(٤٧) Cahunl, L'introduction à L'histoire de L'Asie, Paris, 1896, pp 59 - 61.

أعلى مناصب الدولة ، فكانوا يدخلون الجيش الانكشارى ويعرفون « بقابى قولارى » أى عبيد الباب ، ومنهم عبيد السلطان ، وقد تمتع أغا الانكشارية بسلطات واسعة فى استانبول حيث تولى فيها قيادة الجيش ورئاسة الشرطة معا ، وبذلك كان من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية حيث ضمت الى سلطاته أيضا عضوية مجلس الدولة ، وطبقا للبروتوكول العثمانى كان رئيس الانكشارية فى درجة وزير وكان يتقدم على جميع القادة العسكريين وله مقر خاص فى عاصمة الدولة ومكاتب فى الجهات التى تعمل فيها قواته(٤٨) ، وترجع أهمية الانكشارية الى عدة عوامل ، من بينها كفايتهم القتالية وشجاعتهم المفرطة ووفرتهم العددية وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون عملا حربيا رهيبا لمصلحة الدولة فى الحروب التى تخوضها الجيوش العثمانية دفاعا وهجوما سواء فى آسيا ، أو فى أوروبا ، أو فى أفريقيا ، وكان الانكشارية أيضا يتبعون السلطان فى تنقلاته ، ويعزو بعض المؤرخين ذلك الى أنهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى ، ويقولون ان هذه المرافقة للسلطان كانت وظيفتهم الرئيسية . غير أن الأخذ بهذا الرأى يعتبر خطأ نظرا لأن البعض قد اعتقدوا أن هذا عمل الانكشارية الرئيسى ، بمعنى أنهم حرس للسلطان فقط ، فى حين انه كانت هناك فرق أخرى فى الحرس السلطانى كان أفرادها يحيطون بالسلطان فى المواكب الرسمية ، بينما كان البعض الآخر لا يتركون السلطان اطلاقا حين كان يذهب الى الحرب ، وكان البعض الآخر يتناوبون الحراسة فى القصر . وكان آخرون ملازمون للسلطان باستمرار ، أما الغالبية العظمى من أفراد هذه الفرق فكانوا لا يقومون بأى خدمة حربية الا فى تلك المناسبات (٤٩) .

ويسجل المفكر العربى(٥٠) ساطع الحصرى رأيه فى أهمية الفرق الانكشارية فى القوات المسلحة العثمانية مؤكدا أن هذه الفرق كانت محور قوة الدولة ، وبواسطة هذه الفرق المنظمة والمدربة تمكنت الدولة من توسيع

---

(٤٨) لمزيد من المعلومات حول مركز رئيس الانكشارية ، راجع :

Hasluok F.W., Christianity and Islam under the Saltans, Oxford 1929. Gibb Hamilton & oBwn Harold; Islam Socicty and the West, Vol. 1 part 2 Oxford 1917.

(٤٩) وقد لمس الباحث مدى ما كان يتمتع به الانكشاريه من نفوذ ومكانة سياسيه لدى السلاطين والشعب من خلال الاطلاع على محتويات المتحف الحربى فى استانبول .

(٥٠) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ ، ص ص ١٥ — ٢٠ .

حدودها بسرعة ، فمن ناحية فتحت بلادا فى أوروبا كانت فى ذلك الوقت خارج حوزة الاسلام ، ومن ناحية أخرى استولت على الامارات الاسلامية الصغيرة التى قامت فى الأناضول على أنقاض دولة الروم السلاجقة . أما المؤرخ الانجليزى فيشر فيذهب الى أبعد من ذلك قائلا : « ان الامبراطورية العثمانية قامت ، وظلت قائمة ، ليس بفضل رجال من العثمانيين فحسب - حيث لم يكن هؤلاء يشكلون أغلبية فى الجيوش العثمانية - بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل ، ولدتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جىء بهم الى مدارس الانكشارية حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكرى والعقيدة الاسلامية(٥١) ، والطريف انه كان يحرم على الانكشارية الزواج ، فكان الفرد منهم يعيش دون أمل فى أن تكون له زوجة أو أبناء ، فالاسلام عقيدته ، والقرآن الكريم كتابه المقدس ، والسلطان العثمانى والده ، والثكنة العسكرية مأواه ، والحرب مهنته ، والفوز باحدى الحسنيين مأربه ، ونظر الانكشارى لأعداء الدولة على انهم أعداء الله ، وليس أمامه الا أن يمضى فى قتالهم ، فاما النصر أو الشهادة(٥٢) ، ولذلك كان يخوض الحرب بروح دينية اسلامية عالية ، وكما حرم السلاطين على الانكشارية الزواج حرموا عليهم أيضا الاشتغال فى التجارة ، والصناعة خشية أن تخبو عسكريتهم الصارمة ويتحولوا الى أهل حرف(٥٣) ، ومن هنا كان الانكشارية أول جيش ثابت نظامى عرفته أوروبا منذ العصور الرومانية وذلك على حد رأى أحد المؤرخين الغربيين(٥٤) وبواسطتهم تمكنت الدولة العثمانية من المضى فى سياسة التوسع الاقليمى المرحلى ، لكنهم بعد ذلك أصبحوا مركز قوة فى حياة الدولة ، فعندما استشرى نفوذهم ، زجوا بأنفسهم فى السياسة العليا للدولة ، وهى مسائل ليست من اختصاصاتهم . فكانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة انه ليس له نشاط حربى ، ويتدخلون فى اختيار السلطان الجديد . ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أى البقشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليدا راسخا لا يستطيع سلطان مهما أوتى من قوة أو عزيمة أن

---

(٥١) فشر ، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، م. س. ذ .

(٥٢) فشر ، م. س. ذ .

(٥٣) Gibb Hamilton & Bowen Harold, op. cit., Vol. 1. Part 1. p 64.

(٥٤) Grand A.J.; A History of Europe 1494 — 1618. Vol. V. of "Methuen's History of Medievaland Modern Europe," Eleventh edition, 1967, p. 212.

يتجاهلها و'الا تعرض للمهانة على أيديهم ثم ألغيت هـــذه العطايا منذ عام ١٧٧٤ حين تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش الدولة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٧٣(٥٥). وكانت حجته فى الغاء هـــذا التقليد حجة قوية ٠

وقد بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية فى المسائل السياسية العليا منذ عهد السلطان « أبى يزيد الثانى » (١٤٨١ ـ ١٥١٢) ، ثم اشتدت هـــذه الظاهرة على عهود معظم خلفائه السلاطين ٠ حدث ان السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) ، وكان قد توغل فى أراضى الدولة الصفوية فى فارس وفجأة طلب الانكشارية من هـــذا السلطان وقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات واستيلاءات على أراضى العـــدو ٠ وخشى السلطان أن يعمدوا الى التمرد والعصيان وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يعرض الجيش العثمانى الى التمزق ٠ وكان تقدير السلطان للموقف الحربى أن الانسحاب هو أخف الضررين ٠ فرضخ لطلب الانكشارية ٠ وعاد أدراجه الى استانبول وازداد نفوذ الانكشارية بعد أن انتقلت قوات كثيفة العدد منهم الى عاصمة الدولة ، فكانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام و'لوزراء ومن اليهم من رجالات الدولة ٠ ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المناصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها ٠ وأصـــبح كبار موظفى الدولة يخشون الانكشارية ويتملقون رؤساءهم ٠

وكان الانكشارية فى أوقات الســلم يشقون عصـــا الطاعة ، ويلجأون الى ســـلاحهم التقليدى ، وهو القيام بحركات عصـــيان تحمل معنى التحدى للسلطان والحكومة المركزية فى العاصمة ٠ وانتهى بهم الأمر الى أن أصبحوا بمثابة عصابات عسكرية تهفو نفوسهم الى أعمال التمرد وخلع السلطان الحاكم والمناداة بتنصيب سلطان جديد يقع عليه اختيارهم وكانوا يلجأون الى وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكرى ٠ كانوا يعترضون الموكب السلطانى ويمنعون الســـــلطان من الوصول الى القصر ويهتفون فى وجهه هتافات غير كريمة ، مما يعد تحدياً صريحا للرئيس الأعلى للدولة وحكومته ٠

وازدادت مشكلة الانكشارية تفاقما عندما قررت الحكومة المركزية ،

---

(٥٥) يرى بعض المؤرخين والباحثين الماضى عن الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ١٧٧٢ ، ويجعلون عام ١٧٧٤ بداية حكم السلطان عبد الحميد الأول ٠

أو بعض عناصر هامة مستنيرة فيها ، تطوير الجيش بادخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوروبية فى جيوشها • وقد أطلق العثمانيون على مشروع تطوير الجيش « النظام الجديد » (٥٦) • وجاء قرار الحكومة فى هذا الصدد نتيجة لتعرض جيوش الدولة لهزائم أليمة متعاقبة من الدول الأوروبية • وبات واضحا عجز الدولة عسكريا عن الدفاع عن ممتلكاتها الأوروبية بوجه خاص • ونبتت الفكرة القائلة ان ضعف الدولة هو ضعف عسكرى قبل كل شىء ، ومن الثابت أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية عاشت أزهى عصورها على الأمجاد العسكرية التى حققها الجيش العثمانى • وكان هذا الجيش أداة للحرب أولا ، وأداة للحكم ثانيا •

وقد عارض الانكشارية معارضة شديدة ادخال النظام الجديد فى تشكيلاتهم العسكرية لانهم أدركوا أن تطبيقه سيؤدى الى ادماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة التى أنشأتها الدولة وفقا للنظام الجديد • وكانوا حريصين على امتيازاتهم الخاصة فى الجيش • ولذلك رفضوا العروض التى قدمها لهم بعض السلاطين ، مثل السماح لهم بالانضمام الى الفرق العسكرية الحديثة وقبول معاش تقرره الدولة واستهجنوا هذا النظام •

ولقد لجأ الانكشارية فى معارضتهم لتطبيق النظام الجديد الى تنظيم حركات التمرد أو العصيان فى وجود السلاطين معتمدين على قوتهم العسكرية ونجحوا فى اكراه عدد من السلاطين على الغاء النظام الجديد ، وهكذا أصبح الانكشارية بمضى الزمن عنصر فساد فى جسم الدولة ، يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة وتعددت حركات العصيان والبطش برجالات الدولة •

وامتدت شرور الانكشارية فى أوقات السلم الى المدنيين وكانوا يعمدون الى احراق أحد أحياء مدينة يبغون نهبها وكانوا يركزون هجومهم على محلات اليهود ويخطفون بضائعها واعتقدوا الى جميع الأفعال مباحة لهم حتى ولو كانت قوانين الدولة تمنعهم من ارتكابها ووصل بهم الأمر الى مهاجمة الدار المخصصه لسكنى الصدر الأعظم اذا تباطأ فى تنفيذ طلباتهم ، وقد وضع للسلطان سليم

---

(٥٦) كان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) هو الذى اطلق هذه التسمية على الفرق العسكرية التى بدأ فى انشائها ، وجعل مقرها ساحة لوند جفلك على مرتفعات اورته كوى ، وادراؤد كوى على الساحل الأوروبى للبوسفور • راجع :
Huart Cl, Encye — of Islam. Art. Janissaries

الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) نزعة الانكشارية نحو التمرد العسكرى ثم تدخلهم فى السياسة العليا للدولة • وقد وضحت هذه الملامح منذ الأيام الأولى لحكمه وفى أثناء الحرب التى نشبت بين الدولة والصفويين •

ولما استفحلت شرور الانكشارية عمد السلاطين الى وسائل أخرى بهدف الحد من طغيانهم ، كان من بينها توزيع الفيالق الانكشارية على حاميات الحدود ، وكان السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الانكشارية وكان يدرك تماما انهم تجاوزوا المدى وأصبحوا مركز قوة خطير فى الدولة أو كما يقول أحد المستشرقين انهم غدوا أصحاب الدولة الأقوياء حين أمر بالحاق عدد كبير من المجندين غير المدربين بفيالق الانكشارية مباشرة ولم يأبه السلطان بمعارضتهم ومضى وانتهز السلطان مراد الثالث فرصة تجدد الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية فوجه ضربة شديدة الى الانكشارية كتنظيم عسكرى اذ سمح بادخال أعداد وفيرة من المجندين المسلمين الأحرار الذين ولدوا من آباء مسلمين فى الفيالق الانكشارية بعد أن كانت هذه الفيالق مغلقة تماما فى وجه هؤلاء المجندين •

ثم خطت الدولة خطوة أخرى فى سبيل كسر شوكة الانكشارية فأذنت لهم فى ممارسة بعض الحرف أو الاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم فازدادوا ابتعاد عن الحياة العسكرية البحته ، وازداد مستواهم القتالى هبوطا ، وأصبح بعضهم لا يذهبون الى ثكناتهم الا لتسلم مرتباتهم وكانت الدولة لا تسمح لهم بحمل الأسلحة النارية فى أوقات السلم تجنبا لاستخدامها فى حركات العصيان العسكرى أو فى الفتك بالمدنيين •

العلماء وهيئة كبار العلماء :

كانت هيئة كبار العلماء وعلى رأسها مفتى الديار ، احدى الهيئات العليا التى أسهمت فى شئون الحكم فى الدولة العثمانية ، والأرجح ان سلطتها كانت سلطة تابعة فمع انها كانت تمتلك ناصية الفتوى والقضاء واصدار أحكامها فى المسائل الدينية والمدنية على السواء حيث لم يوجد تشريع وضعى الا فيما فى عهد سليمان الا أن هذه الأحكام لم تكن لتوضع موضع التنفيذ دون الاعتماد على الهيئات التنفيذية والتى تملك بيدها السلطات العسكرية أيضا ، أى جوهر السيادة فى الدولة العثمانية •

وحتى مطلع القرن السادس عشر لم تكن الدولة العثمانية تحكم بواسطة

سلطة تشريعية ولكنها حكمت حكما مطلقا ، الا أن سلطة العلماء خففت الى ما من غلواء النزعة المطلقة لدى السلاطين ومعاونيهم •

فكانت لكلمة رجال الدين أهمية وقوة ، كما أن أحكامهم كانت محل اعتبار كبير من الحاكمين وبما يدعم هذا الرأى أن السلطان محمد الثانى ثبت مركز المفتى على رأس الادارة برمتها (٥٧) وفى الحق ان السلاطين كانوا شديدى الحرص على تأبيد سلطته لانهم كثيرا ما شرعوا فى استغلالها والافادة منها كلما ألمت بهم أحوال سياسية عسيرة مثل الموقف الذى جابه سليم الاول حين شرع فى قتال المسلمين فاستصدر فتوى تبيح له حرب المسلمين فى مصر (٥٨) •

والملاحظ أن نظام الحكم كان بلا سلطة تشريعية ولكنها تعتمد على قضاة يفسرون قانونا سماويا سرى فى كل أجزاء الامبراطورية حتى وصل الى أصغر الوحدات الادارية فى الأقاليم (٥٩) • ولقد نشأ القانون العثمانى أول ما نشأ على أساس عسكرى شأن جهاز الادارة العامة ومن هنا كان قاض العسكر رأس الهيئة القضائية الى أن جاء سليم وأخضع الهيئات القضائية والدينية كلها لسلطة مفتى استانبول بوصفه شيخ الاسلام •

وكان يطلق على شيخ الاسلام أول الأمر مفتى العاصمة وأحيانا المفتى الأكبر • وكان يتمتع بمركز مرموق للغاية • كان الصدر الأعظم والوزراء وفى بعض الأحيان السلطان نفسه ، يلتمسون فى بعض المسائل الهامة ، كما كانوا يعرضون عليه مشروعات القوانين الوضعية قبل اقرارها بصفة نهائية ويطلبون منه الرأى فى مدى مطابقتها لمبادىء الشريعة الاسلامية ، وكان هناك آخر قدر من الاختصاصات على درجة قصوى من الأهمية يباشرها شيخ الاسلام باصدار فتاوى ذات طابع سياسى ، وتتناول موضوعات تتصل بالسياسة العليا للدولة • كان السلطان لا يقدم على حرب دون أن يستصدر من شيخ الاسلام فتوى يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لا تتعارض مع الدين، بل أن هذه الحرب لها أسبابها القومية من وجهة نظر الشريعة الاسلامية • باعتبار ان الحرب المقدمة عليها الدولة هى حرب دينية وان الجماهير يجب أن

---

(٥٧) بروكلمان ، كارل • الأتراك العثمانيون وحضارتهم ص ١٥١ •

(٥٨) نفس المرجع ص ١٠٢ •

(٥٩) المرجع السابق •

تقف صفا واحدا تؤيد قلبا وقالبا الجيش وهو يخوض الحرب . ومنها أيضا الفتاوى التى تجيز تنازل الدولة عن أقاليم عثمانية لصالح دولة أجنبية انتصرت عليها ، وكذلك الفتاوى التى تجيز عزل السلطان لسبب أو لآخر .

وتقديرا للمسئوليات الجسام التى كان يضطلع بها مفتى العاصمة ، رأت الدولة أن تميزه عن سائر زملائه رجال الافتاء الذين كانوا يعملون فى معظم الأقاليم والمدن الكبرى فى أنحاء الامبراطورية ، وكان عددهم يصل الى قرابة مائتى مفتيا . وأطلقت على مفتى العاصمة لقب « شيخ الاسلام » فاصبح هو الرئيس الفعلى للهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة de facto وان ظل السلطان هو الرئيس لهذه الهيئة من الناحية النظرية de jure (٦٠)

وكان شيخ الاسلام بحكم منصبه هو أكبر شخصية دينية اسلامية فى الدولة العثمانية ، فاذا أضيف الى منصبه هذا اللقب الجديد الذى حصل عليه وهو شيخ الاسلام فانه يعتبر رئيسا لهيئة كبار العلماء ، ويشملون القضاة ورجال الافتاء وأساتذة الشريعة وأصول الدين ومن اليهم من أصحاب المناصب الرفيعة وغيرها فى الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة ، وفى عهد السلطان سليمان المشرع فقد ازداد مركز شيخ الاسلام تألقا وأصبح ندا للصدر الأعظم . وكان دور شيخ الاسلام على عهد سليمان دورا بناء خلاقا ويلاحظ ان الفترة التى حكم فيها كل من السلطان محمد الثانى والسلطان سليمان المشرع بنوع خاص قد شهدت نشاطا ملحوظا وغير عادى فى وضع التشريعات العثمانية . وكان يطلق على هذه التشريعات التى تصدر فى حكم كل سلطان قانون نامه .

ولما كانت الدولة العثمانية دولة ثيوقراطية أى دولة دينية فقد جاءت سياستها وتشريعاتها ومعظم تصرفاتها تتسم بالطابع الدينى الاسلامى الذى كان من أبرز خصائص هذه الدولة ، ومن هنا فان اضفاء لقب شيخ الاسلام على مفتى العاصمة كان متمشيا مع السياسة العليا للدولة وتطبيقا عمليا لتلك الخصيصة الدينية القوية من خصائص الدولة . وكان الصدر الأعظم وشيخ الاسلام هما الموظفين الوحيدين فى الدولة اللذين يتسلمان فرمان تعيين كل منهما فى منصبه من يد السلطان . وكان من التقاليد المتبعة فى الاحتفالات الرسمية ألا يتقدم أحدهما على الآخر ، بل كانا يسيران جنبا الى جنب ،

---

(٦٠) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى . م . س . ذ . ص ص ٣٩٩ - ٤١٠ .

وان قام أحدهما بزيارة رسمية للآخر ، تتبع في استقباله وتوديعه مراسيم التكريم والتشريف التى تتبع فى استقبال وتوديع الآخر • فكان كل منهما يعتبر ندا للآخر •

واذا كان الصدر الأعظم يتمتع بسلطات أكثر ، فان شيخ الاسلام كان يظفر بمكانة أكبر • وكان من أسباب هذا التقدير العميق ان شيخ الاسلام كان يمارس سلطاته فى مجالات دينية لها وزنها وتقديرها فى نظر الجميع ، فضلا عن اختصاصات لا تسمو اليها اختصاصات الصدر الأعظم وتتصل اتصالا مباشرا بالسياسة العليا للدولة • فله وحده ودون سواه الحق فى اصدار فتاوى تجيز الحرب التى تخوضها الدولة ، أو فتاوى بتقرير الصلح ، أو ابرام المعاهدات ، أو عزل السلطان الحاكم ، كما لم يكن لشيخ الاسلام شأن مباشر بالخدمة الداخلية أو الخدمة الخارجية للسلطان ، واعتاد السلطان أبو زيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) أن يقف لاستقبال شيخ الاسلام ويمنحه مقعدا أعلى من مقعده • وكان على الصدر الأعظم أن يكون على اتصال مستمر بشيخ الاسلام لبحث المسائل الخاصة بشئون الدولة والتى تتطلب أخذ رأيه فيها من حيث مطابقتها لمبادىء الشريعة الاسلامية ولذلك كان الصدر الأعظم هو الذى يقوم بزيارات عديدة لشيخ الاسلام فى مقر منصبه على فترات متقاربة •

وقد حدد السلطان سليمان المشرع تحديدا نهائيا وقاطعا المركز الوظيفى والقانونى لشيخ الاسلام ، فجعله رئيس هيئة كبار العلماء وأكبر شخصية عاملة فى الهيئة الاسلامية • كما أضفى على شاغل هذا المنصب الكثير من مظاهر التكريم والنفوذ وكان شيخ الاسلام يتقدم على جميع موظفى الدولة • ثم غدا يتمتع فى البروتوكول العثمانى بمركز يمتاز عن مركز الصدر الأعظم أى رئيس الوزراء وعن الوزراء • فعند ذهاب شيخ الاسلام لمقابلة السلطان كان يخف هذا لاستقباله متقدما سبع خطوات ، بينما لم يكن السلطان يتقدم لاستقبال الوزراء أكثر من ثلاث خطوات ، وكان يسمح لشيخ الاسلام بتقبيل كتف السلطان ، بينما كان لا يسمح للصدر الأعظم الا بلثم ذيل ثوبه •

وكان هناك عددا آخر من كبار الموظفين ينتمون الى هيئة العلماء ويعملون على مقربة من السلطان وكانوا يمثلون الهيئة الاسلامية داخل القصور السلطانية وفى مقدمتهم خوجة السلطان ، والمعنى الحرفى لهذا المصطلح معلم السلطان وكان بمثابة مستشار السلطان فى المسائل الدينية وغيرها • ولذلك كان يظفر بتقدير عميق ومركز مرموق بين أفراد حاشية السلطان وفى دوائر الحكومة ، كما كان هناك امامان للسلطان ، يؤم كل منهما السلطان بالتناوب

فى صلاته سواء فى داخل القصر أو فى المساجد السلطانية التى يقع اختيار السلطان عليها لأداء صلاة الجمعة فيها ، وكان خوجة السلطان والامامان من الهيئة الاسلامية وتمتعوا بنفوذ كبير جدا فى الدولة ، لأن طبيعة وظائفهم كانت تتطلب أن يكونوا على اتصال مستمر بالسلطان . وكان لهم من ثقافتهم ومن الثقة الكبيرة التى أولاها اياهم السلطان ما جعل الأضواء تسلط عليهم ، وكان السلطان يقدر آراءهم على أساس أنها منزهة عن الأغراض والأهواء الشخصية ، ولذلك أطلق على هؤلاء الثلاثة : أذن السلطان L'oreille du Sultan. ولم يكن علماء الدين وحدهم الذين ينتمون الى هيئة العلماء ، بل كانت هذه الهيئة تتسع لتشمل الأطباء والجراحين والمنجمين (٦١) ومن اليهم من أصحاب التخصصات العلمية . ولعل مرد هذا الشمول الى ان فريقا من الاطباء كانوا يجمعون بين دراسة الطب والفقه وأصول الدين وعلوم البلاغة وغيرها . وكانت لكل منهم فى معظم هذه المجالات قدم راسخة .

وكانت الهيئة الاسلامية فى الدولة تضم أيضا الاشراف وهم الذين ينحدرون من أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه . وكان الأشراف يمثلون أحد نظامين وراثين وحيدين فى الدولة . فالنظام الوراثى هو وراثة العرش السلطانى . وكانت هذه الوراثة فى أسرة آل عثمان . وكان يطلق على الأشراف اسما آخر هو الأسياد ، فيذكر اسم الشريف مسبوقا بكلمة سيد . ولكنهم كانوا لا يعدون أعضاء فى هيئة العلماء الا اذا تلقوا فى المؤسسات التعليمية دراسات فى مستوى الدراسات التى يتعلمها العلماء . ونلحق بالهيئة الاسلامية أيضا طوائف الدراويش ، وكانوا كثرة عددية كبيرة ، ولكنهم لم يكونوا أعضاء فى هيئة العلماء لأنهم لم يتلقوا دراسات علمية منتظمة أو محترمة . وكان الدراويش ينتمون الى طرق كثيرة . وقد قرر المراقبون فى القرن السادس عشر أن عدد هذه الطرق كان يتراوح بين ثمان وعشر طرق ، وان كان أهمها أربعا فقط وقد ازداد عدد هذه الطوائف زيادة مطردة وضخمة فبلغت ستا وثلاثين فى أواخر القرن الثامن عشر . وان كان البعض الآخر يرى ان عددها تجاوز ضعف هذا العدد بينما يرى فريق آخر من المؤرخين ان عددها قفز الى أربعة أمثال هذا العدد (٦٢) وانتشرت هذه الطوائف فى أرجاء الدولة وشملت جميع الطبقات والأقاليم العثمانية(٦٣).

---

(٦١) Lyber, A.H., op. cit., pp 128-129 & 218-225

(٦٢) دكتور عبد العزيز الشناوى ، م. س. ذ. ص ٤٤١ نقلا عن الجبرتى ٢ جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٦٣) Lyber, A.H., op. cit. p. 207.

ومما هو جدير بالذكر ان عددها بلغ فى مصر أبان الحكم العثمانى زهاء ثمانين طريقة (٦٤) • والمعروف عن العثمانيين انهم يحبون التصوف والدروشة وقد سجل الجبرتى عليهم ميلهم الى الدراويش ، وعن طريق الدراويش انتشرت الخزعبلات بين الرعايا المسلمين فى الدولة ودبرت الفتن • وكانوا يشكلون بجموعهم وتأثيرهم فى الجماهير الاسلامية خطورة على سلطة الحكومة • وكانوا يتنادون الى اثارة الحروب الدينية •

وقد حرصت الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة وهى تباشر اختصاصاتها فى شتى مجالاتها على أن تكون مبادىء الشريعة الاسلامية موضع التنفيذ الدقيق والاحترام من جانب الحكام والمحكومين ، والدولة العثمانية دولة دينية واتسمت سياستها العليا ومعظم تصرفاتها بالطابع الدينى الاسلامى الذى كان من أبرز خصائصها وكانت الهيئة الدينية هى صمام الأمان للشعب والحكومة معا •

وكانت الوشيجة الدينية والولاء للدولة يربطان المسلمين رعايا الدولة والتفكير الدينى والسياسى لم يكن يغلب على جميع الرعايا المسلمين كما لم يكونوا جميعا من أتباع المذهب الحنفى وهو المذهب الرسمى للدولة ، ولكنهم كانوا جميعا مسلمين فخورين بدينهم ولديهم الرغبة للعمل من أجل تحقيق تفوق الاسلام فى أرجاء العالم • واذا كان بعض المسلمين نظروا الى نظام الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة على أنه نظام غير مثالى ، لأن الدولة أوجدت بجانبها طبقة العبيد — القولار — واصطنعتهم أدوات للحكم والحرب وأغدقت عليهم الامتيازات اغداقا ، فان نظام الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة كان يساعد على صمود الاسلام كدين عالمى أمام البابوية فى روما وأمام الدول الأوروبية المسيحية • وكانت هاتان القوتان المسيحيتان قد أظهرتا كثيرا من العداء للدولة العثمانية •

وجميع وظائف الهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة كانت متاحة لكل أفراد الهيئة الاسلامية أى المسلمين الأحرار طالما كانوا مؤهلين علميا لتولى مناصبهم ذات النفوذ الواسع والأهمية البالغة وكانت هيئة العلماء وهى تضم ثلاث فئات ، هم : الأساتذة والقضاة والمفتين حيث قد يتلقى أفرادها العلم وفقا لنظام

---

(٦٤) دكتور توفيق الطويل : التصوف فى مصر ابان الحكم العثمانى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٧٥ •

تعليمى واحد ، واستقوا المادة العلمية من نفس المصادر والمراجع ، والتحقوا بمدارس وكليات مفتوحة للجميع من أفراد الهيئة الاسلامية بمضى الطالب فى رحابها سنوات طوالا يتلقى الدراسات الى نهاية الشوط اذا كانت استعداداته العقلية تؤهله لاستكمال دراساته العليا ، وكلما مضت الحياة بهؤلاء العلماء تشعبت أمامهم المسالك الى وظائف القضاء والافتاء بل الى منصب شيخ الاسلام • وبذلك لم يظل أمر العلماء مقصورا على الأفراد فى مجالات التعليم بل امتد الى مستقبل الدولة نفسها •

وأضفت الدولة على العلماء بعض الامتيازات الهامة مثل الاعفاء الضريبى، وكانت ممتلكاتهم لا تخضع للمصادرة ، ولا تؤول ملكيتها على الاطلاق للسلطان• فكانت ممتلكاتهم تورث لأولادهم وذرياتهم حسب قواعد الشريعة الاسلامية • وقد زادت هذه الامتيازات من مكانة العلماء فى نظر الجماهير • ويلخص البرت حورانى الخطوط الرئيسية الدالة على اهتمام الدولة العميق بالهيئة الدينية الاسلامية الحاكمة وذلك فى شتى المجالات التى امتد اليها نشاط هذه الهيئة فيقول •• « كانت السلطنة دولة تحكم فى نطاق الشريعة الاسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الاسلام الكبرى • وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التى كانت شيعيه • وبفضل ما كان للعثمانيين من قريحه وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم هيئة العلماء على شكل سلسلة من الرتب المحددة والتعيينات الرسمية والمرتبات التى تجرى عليهم بصفة رتيبة ومنتظمة وكان رؤساء هذه الهيئة الدينية وهم شيخ الاسلام ، وكبار رجال القضاء والافتاء يستشارون فى الشئون العليا للدولة وكان القضاة فى الاقاليم هم السبيل الرئيسى الذى يتم عن طريقة الاتصال بين الحكومة المركزية والرأى العام الاسلامى فى المدن العربية ، وقامت هى من ناحيتها بانشاء مدارس جديدة فى استانبول لتعليم أولئك الذين سيشغلون أعلى المناصب فى الهيئة الاسلامية فى مقبل الأيام ، وبالطبع فقد كان العلماء يركزون على مفاهيم اهل السنة وهو ما جعل الدولة العثمانية تعارض بشدة انتشار أى أفكار للشيعة • وقد عرض المؤرخ أرنولد توينبى لذلك تفصيلا •

رؤى أرنولد توينبى :

« يرى توينبى فى هذا الصدد أن المجتمع الاسلامى انقسم فى أعقاب انهيار الخلافة الاسلامية وزوال الدولة العباسية على أيدى المغول الى مجتمعين متمايزين : المجتمع العربى والمجتمع الايرانى وظل هذان المجتمعان متمايزين

لما يقرب من قرنين ونصف من الزمان قبل أن يحدث الغزو الشامل الذى قام به العثمـانيون - وهم أحد فروع المجتمع الايرانى - للعـالم العربى ٠
ويمكن القول أن غزو العالم الغربى أمر فرض على العثمانيين كنتيجة لقيام دعوى الانشقاق الدينى الشيعية فى قلب العالم الايرانى الذى ينتمى اليه العثمانيون أنفسهم ، وان ذلك الاتفاق ثار خلال حركة انتعاش ثورية غير متوقعة للمذهب الشيعى وانبعاثها كقوة سياسية عسكرية على عهد اسماعيل الصفوى (١٥٠٠ - ١٥٢٤ م) » ٠

ففى عام ١٥٠٠ م أوضـح الاختلاف والتمـايز بين المجتمعين العربى والايرانى كل دلائل التصميم على تاكيد حقيقة كون كل منها وحدة مغايرة للاخرى ٠

فمن الوجهة الجغرافية نلمس حدا واضحا محددا يقوم بين العالمين وان هذا الحد يمتد بلا انقطاع من مياه المحيط الهندى فى الخليج العربى حتى مياه البحر المتوسـط فى الاسـكندرية ٠ وأن اقليم العراق الذى كان حاضرة للخلافة العباسية ظل كما مهملا منذ الدمار الذى حاق ببغداد على أيدى المغول عام ١٢٥٨ م ونتج عن ذلك أن جنوب الوادى لدجلة والفرات أضحى اقليما حاجزا بدلا من كونه حلقة اتصال للأقاليم التى تقع على ضفتيه (الأقاليم العربية والفارسية) ٠

وفى الشمال الغربى أضحى خط الفرات فى الاقليم الواقع بين شمالى الهضبة العربية وسلسلة طوروس ، مرة أخرى نطاقا حربيا فاصلا كما كان من قبل لمدة سبعة قرون فى العصر الرومانى ٠

وكان العـالم العربى بين الفرات والبحر المتوسـط - معزولا بالجزاء المكون من جبال طوروس من الأقاليم الايرانية الناشـئة التى استخلصـها المجتمع الايرانى من المسـيحيين الأرثوذكس فى الأناضـول ، بينما كانت الأناضول نفسها مرتبطة بأوثق رباط مع الاقليم الأم الا وهو العالم الايرانى وذلك عبر أزربيجان ٠

وهكذا فان الحدود الجغرافية بين هذين العالمين كانت محددة بوضوح ، وأن هذه العزلة الاقليمية بينها صاحبها تباعد فى التطور السياسى والثقافى لكلا المجتمعين ٠ فالمجتمع العربى يرجع بأصوله الى الخلافة العباسية بينما يرجع المجتمع الايرانى الى أمبراطورية الأوراسية الرعوية للجنكيز خان ٠

وفى مضمار الثقافة ظل العالم العربى أمينا على تراث اللغة العربية وعلى آدابها الكلاسيكية بينما شجبت اللغة الفارسية وآدابها اللغة العربية فى المجتمع الايرانى ٠

والحقيقة انه اعتبارا من بداية القرن السادس عشر بدأ بوضوح ، التمايز بين المجتمعين العربى والايرانى فى كل مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، وزيادة على ذلك فانه بالرغم من أنه قد اتسعت رقعة المجتمعين الجغرافيةاتساعا كبيرا فان أى منهما لم يظهر أى يظهر ميل لمهاجمة أراضى الطرف الآخر فلم تصل المناوشات التى وقعت بين الطرفين الى درجة الهجوم الخطير ٠

وقد اتجه المجتمع العربى بتوسعاته عبر الصحراء الى أفريقيا الاستوائية وعبر المحيط الهنـدى الى أندونيسـيا ٠ بينما امتد المجتمـع الايرانى عبر الأناضول الى جنوب شرق أوروبا وعبر هندستان الى الدكن وعبر بلاد ما وراء النهر الى الهضبة الأوراسية ، ولكن حتى انصرام القرن الخامس عشر وقف المجتمعان الايرانى والعربى ظهرا لظهرا ونادرا ما تصادم كل منهما بالآخر ٠ ولذلك فان غارات كليهما على الآخر حتى ذلك التاريخ يمكن أن تعد على أصـابع اليد الواحدة ٠ فغزوات المغول لسـوريا فى السنوات : ١١٦٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠٣ وأخيرا الغزو التيمورى فى عام ١٤٠٠ م يمكن أن نعتبرها غزوات ايرانية على الأراضى العربية ، وبالمثل يمكن أن يعد انتصار السلطان المملوكى بيبرس على المغول فى الابلستين أحد المعاقل فى طوروس واحتلاله قيسارية على الهضبة الأناضولية عام ١٢٧٧ م على أنه غزو عربى للمجتمع الايرانى ٠ ولكن تلك الغزوات لم تكن الا اسـتثناءات لأن القاعدة العامة أن المجتمعين تعايشا فى سلام منذ منتصف القرن السادس عشر ٠

والنقطة الأخرى الجديرة بالاعتبار أنه بالرغم من أن خلال تلك الفترة انعزل العالمان العربى والايرانى تقريبا كل منهما عن الآخر فان عوامل التفاعل والارتباط الداخلية كانت تعمل فى دأب بين أجزاء كل منهما ٠

ففى العالم العربى فى القرن الرابع عشر تنقل العلامة ابن خلدون من مسقط رأسه فى تونس الى القاهرة ودمشق وكان يبدو أنه وكأنه فى بلده أثناء اقامته فى تلك الوحدات الاقليمية التى كونت فى مجموعها وحدة الثقافة العربية ٠ وبالمثل فى المنطقة الايرانية فان الشاعر الفيلسوف محمد جلال الدين لم يجد أية صعوبة فى الهجرة من مسقط رأسه فى بلخ الى قونية

فى الأناضول حيث تأقلم تماما فى بيئته الجديدة حتى صار يذكر بالرومى لا البلخى ٠

وبنفس السهولة استطاع جندى محظوظ مثل أرطغل أن يعبر العالم الايرانى من السهول الأوراسية ببلاد ما وراء النهر الى المنحدرات الشمالية الغربية للهضبة الأناضولية ، كما اتجه مغامرون أوراسيون وجهة أخرى حيث أمكنهم بسهولة أن يعبروا أفغانستان ليدعموا كيانهم فى الهند مثل أيام محمد الغزنوى حتى بابر الفرغانى ٠ وفى الحقيقة أن عوامل الترابط والتفاعل بين الأجزاء المختلفة للعالم الايرانى استمرت حتى عهد بابر التيمورى واسماعيل الصفوى والسلطان سليم الأول ٠

وظلت هذه الدورة الدموية النقية تسرى فى جسد الحياة الاجتماعية للمجتمع الايرانى دون توقف أو انقطاع ٠

ومن الأقاليم البعيدة التى اقتطعها العثمانيون لأنفسهم من المجتمع الأرثوذكسى المسيحى ظلوا ينظرون الى قلب العالم الايرانى باعتباره منارا للهدى والفكر ، وعلى ضوء ما تقدم بأنه حتى مطلع القرن السادس عشر كان العالمان العربى والايرانى منعزلين تقريبا كل عن الآخر بينما نمت وتفاعلت عوامل الامتزاج والترابط الداخلية فى كل مجتمع على حدة ونتج عن ذلك أن كون كل منها وحدة مستقلة متميزة ومتكاملة ٠ ولكن توقف جريان الأمور على هذا النسق وانقلبت كل تلك الأوضاع رأسا على عقب على عهد الشاه اسماعيل الصفوى باعث الشيعة وقائدها كقوة حربية وسياسية حيث بدأ يلعب دوره على المسرح السياسى فى منطقة الشرق الأدنى منذ مطلع القرن السادس عشر ولحسن حظه أنه صادف فى الاثنى عشرة سنة الأولى من حكمه (١٥٠٠ — ١٥١٢ م) سلطانا عثمانيا متسامحا يعيش فى أواخر أيامه٠

وليس أدل على تسامح الدولة العثمانية التى كانت احدى الدعامات السنية آنذاك من أن الشاه قولى الذى كان من أنصار الشيعة وأحد دعاتها فى داخل أراضى الدولة العثمانية ، وممثلا سياسيا للقوى الصفوية كان يلقى المعونة من السلطان بايزيد الثانى كما كان صديقا لابنه قرقد الذى كان واليا على مانيزيا الى حين اندلاع أحداث الفتنة الكبرى سنة ١٥١١ — ١٥١٢ م حيث فكر شاه قولى فى القيام بانقلاب لاطاحة الحكم العثمانى السنى على أمل احلال الحكم الصفوى الشيعى محله ٠ وكانت تلك الحركة الثورية أول خروج على العرف الذى ساد بين المذهبين الشيعى والسنى طوال القرنين الماضيين

والذى جرى على أن تكون العلاقات قائمة على أساس « عش ودع غير غيرك يعيش » ·

هذه العلاقات الودية المعقودة بين المذهبين الاســـلاميين القديمين كان ينظر اليها بعين الأمل والتفاؤل بالنسبة للحضارة الايرانيه الناهضه · ولكن لسوء الحظ سرعان ما حلت المذابح محل التسامح والأحقاد محل اللامبالاه أو النوايا الطيبة عندما جمع التاريخ بين الشاه اسماعيل الصفوى والسلطان سليم الأول · ووجد اسماعيل ـ الذى تمت شخصيته عن عنف وحقد دفين ـ فى سليم عزيمة الذى عاش ينتظره ليثأر فى شخصه للتفكك الذى حاق بالمجتمع الايرانى والذى نتج عنه دولة العثمانيين ورجالها ·

ومن خلال القتال الدموى الوحشى الذى غير مجرى التاريخ الاسلامى حيث أعاد فتح الباب لنزاع كاد يندثر « النزاع بين السنة والشيعة » يمكن القول بأن زمام المبادرة كان بين اسماعيل الصفوى بل وظل ممسكا به حتى بعد اندحاره على يد السلطان سليم عام ١٥١٤ م ·

وعلى ذلك فان عصر اسماعيل وليس سليم هو أول الخيط الذى يجب أن نمسك به ونتتبعه والفترة التى ارتقى فيها اسماعيل الصفوى عرش الدولة الصفوية (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤ م) تثير تساؤلين : الأول كيف أنه تمكن أن يرث زمام نظام لم ينسب الى أتباعه سياسة العنف والآن يبرز اسماعيل للعالم كأحد الغزاة المحاربين ويصبح مؤسسا لنظام سياسى وحربى ·

والتساؤل الثانى : ماذا كان الهدف النهائى لسياسة اسماعيل الحربية والسياسية ؟ والاجابة على السؤال الأول أن تطور الصفوى (٦٥) من نظام

---

(٦٥) تم تطور النظام الصفوى من نظام شاذ يعمل على نشر دعوة بوسائل التبشير السلمية الى قوة سياسية تعمل على نشر عقيدتها بالوسائل الحربية فعلا على عهد جد اسماعيل الشيخ جنيد ١٤٤٧ ـ ١٤٥٦ م الذى كان معتمدا للشيخ جواجه على وترجع فى نسبه البعيد الى الشيخ صفى الدين ـ وبدا بوضوح أن المشيخ جنيد كان يرغب فى أن يترك مبادىء الامامه وأن يحدث انقلابا بخروج التعاليم الصفويه الشيعية الى حيز التنفيذ وأن يجرب حظه فى حلبة السياسة والحرب وقد شجعه على ذلك الفراغ الذى خيم على ايران والعراق بعد تفكك الامبراطوريه التيمورية بعد وفاة شاه رخ وقد حدث ذلك فى نفس العام الذى تولى فيه عرش الدولة الصفوية ·

وقد تمكن الشيخ جنيد من جمع عشرة آلاف من أتباعه المسلمين كما أن ابنه وخليفته

دينى يعمل على نشر دعواه بوسائل التبشير السلمية الى قوة سياسية تعمل على بسط نفوذها بالوسائل الحربية قد استغرق الفترة الواقعة بين ارتقاء جانيد فى عام ١٤٧٧ الى عهد اسماعيل عام ١٤٩٩/١٥٠٠ م .

وعندما نبحث الهدف النهائى لاسماعيل عند ارتقائه العرش عام ١٤٩٩/ ١٥٠٠ م فى سن الثالثة عشر نجد أنه قد بدأ يحور قوته الحربية لدرجة يحسب حسابها ولم يكن يهدف فى ذلك الوقت الا الغزو المسلح لكل أرجاء العالم الايرانى ، وأنه رأى أن يستخدم قوته لكى يفرض عقيدة الأقلية للمجتمع الايرانى على الأغلبية السنية بالقوة المحضة .

ولا بد من الفصل بين هاذين الهدفين لأنه وضع الهدف الثانى نهاية محزنة للعرف الذى ساد المجتمع الايرانى ألا وهو « عش ودع غيرك يعيش » فان الهدف الأول يعد انعكاسا طبيعيا للوحدة الاجتماعية للعالم الايرانى التى ظلت قائمة دون مساس حتى بداية عهد اسماعيل الصفوى .

ففيما بين عامى (١٥٠٠ - ١٥٠٨ م) أمكن لاسماعيل أن يخضع كل القوى والامارات كبيرها وصغيرها ولم يجد من يزاحمه على سيادة منطقة امتدت من اقليم شيراوان فى جنوب القوقاز حتى امارة قره مان عند الحد الجنوبى الغربى لصحراء داش لوط وبدأ اسماعيل على أنه الوريث الوحيد للدولة التيمورية التى انهارت وتفككت ومع ذلك لم تغر العثمانيين بالثأر لأنفسهم من الضربة القاصمة التى وجهها لهم تيمور لنك ولا بأن يطمحوا فى الفراغ المترامى فى آسيا وكل ما عاد عليهم من انهيار الدولة التيمورية أنها منحتهم فرصة للدعة والراحة .

وهكذا لم يجد شاه اسماعيل أية صعوبة فى اطلاق يديه تجاه الغرب اذا ما رغب فى أن يركز طاقته لتحقيق أهدافه فى أواسط آسيا لأن جيرانه

الشيخ حيدر وهو والد اسماعيل هو الذى قرر الزى الرسمي للقوات الصفوية « وهـو غطاء الرأس القرمزى الملون المزركش باثنى عشرة قطعة من القماش مثلثة الشكل » ومن هذا الزى اشتق اسمهم « القزل باش » أى أصحاب الرؤوس الحمر .

ولما كان كلا من الشيخ جانيد والشيخ حيدر قد خاض المعارك فانه يمكن أن نرى بوضوح أن اسماعيل قد ورث تقاليد الصفويين الحربيين ولم يكن هو الذى ابتدعها .

وعلى أى حال فان البيت الصفوى تحول الى القوة المسلحة فى دعوته فى الفترة الواقعة بين اعتلاء جانيد فى عام ١٤٤٧ م واسماعيل ١٤٩٩/١٥٠٠ م .

العثمانيين لم تعد لهم أية مطامع اقليمية بينما لم يفكر المماليك فى أى شىء من هذا القبيل على الاطلاق ولحسن حظ اسماعيل أنه عاصر فى خلال تلك الفترة الحاسمة من حكمه السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى عرفت عنه ميوله السامية وذاعت عنه طبيعته المتصوفة وكانت شخصيته مختلفة تماما عن شخصية سلفه وخلفه وربما وجد اسماعيل العنيد فى خصمه المتسامح اللين العريكة ما شجعه على تحطيم الجمود الذى ران على السياسة العثمانيه تجاه حدودها الشرقية فيعزى الى اسماعيل أنه ضده سواء عن قصد أم بغير قصد دعاية شيعية هدامة فى أملاك السلطان العثمانى فى الاناضول وفى فصل الغزو من عام ١٥١١ م عندما كان اسماعيل فى بلاد ما وراء النهر ثارت دعوة شيعية مفاجئة فى الأناضول وبسرعة تحركت حوادث العنف وبلغت الثورة ذروتها ·

ومهما كانت درجة الاتهام الموجهة لاسماعيل فى أشعال تلك الثورة ومهما كان الأمر من حيث أنها قامت بعلمه وتدبيره أم لا فان المؤكد أن ربيع عام ١٥١١ م شهد ثورة مسلحة قام بها تابعة الشاه قولى ضد الحكومة العثمانية فى اقليم الأناضول ، وان تلك الحركة التى سرعان ما استحالت الى ثورة شيعية عامة مثلت خطرا شديدا على الدولة التى لم يكن أمامها سوى أن تواجهها بحزم فأوفد السلطان العثمانى حملة عسكرية من قوات الينى شرية يقودها الصدر الأعظم بنفسه الا أنها هزمت وقتل قائدها فى المعركة قبل أن يتمكن العثمانيون من استعادة سيطرتهم على الموقف · واذا ما وضعنا فى الاعتبار أن نائب السلطان فى مانيزيا حين اندلعت الثورة كان فرقد ابن السلطان بايزيد وأنه كان على صلات طيبة مع الشاه قولى بينما ساد العداء والصراع على وراثة العرش بين أبناء السلطان الذى بات هرما وعاجزا على حسم المشاكل الخطيرة التى أصبحت تواجه الدولة العثمانية ·

وليس مستبعدا أنه اذا ما أمكن لشاه قولى أن يتلقى من الشاه اسماعيل مساعدة عسكرية على غرار مساعدته لبابر التيمورى أن تنجح الثورة الشيعية فى الأناضول وربما لكان قد نتج عنها تولى سلطان جديد عرش الدولةالعثمانية يدين بتولية العرش للشاه اسماعيل وتربطه به نفس الروابط السياسية والدينية التى أجبر تابعه بابر التيمورى على الارتباط بها ، ومثل هذه الحادثة لو تمت لربما غيرت مجرى التاريخ ·

ولكن نظرا لأن اسماعيل كان مشغولا فى الطرف الآخر من العالم الايرانى فانه لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا لأتباعه الذين أشعلوا الثورة

فى الأناضول ولذلك فان حركة الشساه قولى كانت ومضـة سرعان ما خبا بريقها • ويبدو أن الشاه قولى نفسـه فد قتل وأن كل ما اسـتطاع قائده استادجى أوجلو أن يفعله هو أن يشق طريقه الى تبريز مع من تبقى من أتباعه •

وقبل أن يختفى ستادجى أوجلو من على مسرح الأحداث فى الأناضول، ظهر الأمير سليم ابن السلطان بازيد الثانى • ووضح أنه الخصم اللدود للشاه اسماعيل الصفوى •

وكان الأمير العثمانى سليم قد تدبر الأمر مليا فوجد أن سياسة الدولة العثمانية التقليدية التى درجت على المهادنة فى آسيا لم تعد تتلاءم مع ظهور خطر الصفويين وتهديدهم للحدود الآسيوية للامبراطورية العثمانية بخططهم القائمة على التمهيد للغزو المسلح بنشرهم دعاية دينية وسياسية معادية • ويبدو أن أباه قد أحس بما يدور فى ذهنه وأنه أدرك خطورة الاتجاهات الحربية التى يفكر فيها ، فأبعده الى امارة طربزنده حيث جعله أميرا عليها • وفى نفس العام الذى قام فيه شاه قولى بثورته المسلحة ضد الدولة العثمانية فى الأناضول ، رأى سليم ألا يدع زمام المبادرة يفلت من يديه وقرر أن يتخذ موقفا حاسما تجاه سلبية أبيه وتساهل ، فأبحر من طربزنده الى كاف واخضع حامية الينى شرية هناك ، وأمكنه الحصول على قوات ومؤن من خان القرم •

ومن ثم سار سليم الى القسطنطينية تجاه الساحل الغربى للبحر الأسود ووصل الى كورلى ولكن جيوش والده هزمته ففر ثانية الى القرم عن طريق البحر الا أن سليم لم يلبث أن عاد فى شتاء عام ١٥١١ — ١٥١٢ م لا يرافقه جيشه •

وجرأة سليم تفسرها تطورات الأحداث لأنه فى ذلك الوقت شعرت الدولة العثمانية بالخطر الذى يواجهها نتيجة للصدمة التى تلقتها من ثورة شاه قولى والتى كشفت السـتار عن خطر داهم وشيك الوقوع بسبب سياسة القزل باش القائمة على التهديد المسـلح للأراضى العثمانية ويبدو أن ذلك التهديد أحدث رد فعل شديد فى الأوسـاط الادارية والعسـكرية المحيطة بسلطان الدولة العثمانية • ويبدو أنهم عندما تدبروا الأمر وجدوا أن سليم بطاقته الفذة وقسوته البالغة وعدائه الدينى للقزل باش هو رجل الساعة الحقيقى •

وهكذا تحركت قوات الينى شرية فى القسطنطينية لتضطر السـلطان

بايزيد الثاني ـ أن يتنازل عن العرش لابنه سليم الأول في ربيع عام ١٥١٢م• وعندئذ اضطر الشاه اسماعيل لأول مرة منذ اعتلائه العرش أن يصفى حروبه في الشرق ليتجه الى حدوده الغربية بعد أن تأكد له اعتلاء غريمه عرش الدولة العثمانية •

وكان وقوع الحرب بين الدولتين الصفوية والعثمانية ، أمرا محتما ولا يمكن تلافيه • وذلك ما حدث بالفعل في عام ١٥١٤ م حيث أخذ شاه اسماعيل موقف الهجوم لعله يستفيد من المبادرة في تحديد زمان ومكان المعركة • فأرسل ابن أخي سليم الملتجىء اليه على رأس حملة من الفرسان لغزو الأناضول وكان يرافقه في تلك الحملة قائد شاه قولي الأسبق استاجي أوجلو •

ولكن أهداف تلك المناورة لم تكن ميسورة التحقيق لأنها كانت تعتمد في نجاحها على قيام ثورة داخلية في الأناضول على غرار ثورات شاه قولي السابقة في الوقت الذي ما زال ماثلا فيه للاذهان فشلها حيث لم يمض على نجاح الدولة العثمانية في قمعها سوى ثلاث سنوات • وليضاعف سليم من تأكده إباد البقية الباقية من العناصر الشيعية القاطنة في الأناضول بأن ذبح بعضها ونفى البعض الآخر الى الولايات العثمانية في أوروبا • ولذلك لم تتمكن قوات استاجي أوجلو من التقدم حيث تصدت لها القوات العثمانية عند سيواس وأجبرتها على التقهقر ، بينما واصل سليم زحفه على رأس قوات جيشه النظامية وأضطر اسماعيل لأول مرة منذ اعتلائه العرش ـ أن يتخذ موقف الدفاع بعد أن دمر الاقاليم التي سيمر منها الجيش العثماني واحتفظ بقواته الرئيسية للدفاع عن تبريز عاصمة الدولة الصفوية • وعندما التقى الجيش العثماني عند جالديران بالجيش الصفوي في ٢٢ أغسطس سنة ١٥١٤ م كان النصر حليف العثمانيين بالرغم من أنهم كانوا منهوكي القوى لسيرهم الطويل في منطقة خربها ـ عن عمد ـ جيوش اسماعيل أثناء انسحابها الى تبريز وكان ذلك النصر بفضل استخدام سليم فرقا للمدفعية وحملة البنادق أمكنها أن تمحو فرسان القزل باش من طريق القوات العثمانية ، وفي أقل من أسبوعين بعد معركة جالديران واصل سليم الأول ـ تقدمه نحو العاصمة تبريز غازيا ومنتصرا •

ونتج عن هذه الهزيمة الساحقة للصفويين بأن أصبح العالم الايراني كله تحت أقدام السلطان سليم ، فلو تابع سيره شرقا فلن يلقى أية مقاومة معادية بل على العكس سيقابل بالترحيب على طول الطرق من تبريز الى مرور

نفس الطريق الذى سلكه اسماعيل من قبل ، ولو واصل تقدمه الى بلاد ما وراء النهر لاستقبله شعبها بالعناق وكأنه تيمور لنك جديد . لأن اجتماع المذهب السنى مع الثقافة الرفيعة والمقدرة الحربية فى شخصية السلطان سليم لا بد وأن تجعل من التفاهم حوله أمرا لا يتطرق اليه أدنى شك . ومع ذلك لم يكن من السهل على سليم أن يواصل زحفه شرقا لأن مطامح سليم الضخمة صدتها رغبات قواته التى لا تقاوم . فقد أعلنت قوات الينى شريه عصيانها عن مواصلة الغزو فى الميدان الآسيوى .

ويرى « توينبى » أن السبب فى عصيان الجيش أنه كان أوروبيا قلبا وقالبا ، فالجنود الينى شريه الذين تشكل جلهم من الفلاحين الصرب والبوشناق كانوا أوروبيين وكانت مياههم الاقليمية الأدرياتيك والدانوب لا البوسفور أو بحر ايجه وكان من العسير عليهم أن يستوطنوا أرضا آسيوية ، ولذلك عندما اتجهوا بغزواتهم صوب الشرق وراء الحدود القديمة للمجتمع الأرثوذكسى المسيحى فى الأناضول كانوا غرباء تماما عن تلك البلاد .

وهكذا منح حنين الينى شرية لأوطانهم هدنة للقزل باش — أمكنهم أن يحزموا أمرهم خلالها ، فأعلنوا تصميمهم على أن العمل الذى من أجله كرس الشاه اسماعيل حياته لا يمكن أن يكون مصيره التوقف أو تزول نتائجه .

وهذه النتائج التى ارتبطت بدورها بمصير العالم الايرانى لم تكن تهم فى قليل أو كبير قوات — الينى شرية لأن واجبهم كما أحسوه الدفاع عن حدود العالم الأرثوذكسى المسيحى لا نصرة السنة ضد الشيعة ، وذلك على حد قول توينبى .

وهكذا انتهت الجولة الأولى فى حلبة الصراع بين الصفويين والعثمانيين ولأن القتال المرير قد انتهى بهذه الكيفية فانه يبدو أن النضال بين القوتين الكبيرتين اللتين سادتا العالم الايرانى قد أرتبط بمرحلة تالية ، وهى غزو أراضى العالم العربى . وقد نبرز لنا النظرة الغير مدققة أن — هناك تناقضا ظاهريا ناتجا عن أنه فى نفس الوقت الذى اتسم فيه المجتمع الايرانى على نفسه — وهو انقسام أدى بوضوح الى انهاك قوى جسد المجتمع الايرانى وإلى امتصاص عصارة حياته — قام بمحاولة غزو متهورة لجيرانه المسالمين .
ولكن النظرة الفاحصة من اليسير عليها أن تكتشف حلا لذلك التناقض لأن تحول العداء نحو قوة تالية أمر بعيد كل البعد عن كونه مجهودا طائشا

ضائعا بل انه فى حقيقته تصرف حتمى لمحاولة قلب ميزان القوى لصالح أحد القوتين الايرانيتين الكبيرتين ٠

والحقيقة أن الصراع بين العثمانيين والصفويين لم تكن لتنهيه أية حملة هجومية أخرى تستهدف مباشرة أراضى أى من الطرفين ٠ ففى نهاية ١٥١٤ م ثبت — للقوتين بالمحاولة والخطأ — عجزهما عن احتلال أملاك الأخرى، لا الصفويين للاناضول ولا العثمانيين لايران ٠ وعلى هذا الأساس فانه لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة ، ألا وهى أن تحاول احدى القوتين الكبيرتين أن تقلب ميزان القوى لصالحها بالتوسع على حساب قوة ثالثة ضعيفة لدرجة لا يسمح لها بالوقوف فى وجه أى من تلك القوتين الايرانيتين المتحاربتين ٠ وكانتا أضعف دولتين تفعان على بعد متساو عن كلا من القسطنطينية وتبريز ، وهما تشكلان دولة « ذى الفادر » وهى دولة حاجزة واقعة على مرتفعات الاناضول الجنوبية الشرقية ودولة المماليك فى سوريا ومصر التى كانت تتصدر دول العالم العربى وقتئذ ٠

ونتيجة للنهاية المراوغة التى تمخضت عنها حرب عام ١٥١٤م بين العثمانيين والصفويين حيث لم تحقق الدولة العثمانية نصرا حاسما على الصفويين ، كان لا بد من قيام جولة أخرى بين القوتين المتصارعتين ارتبطت بسباق بينهما على الاقاليم العربية المجاورة ٠

وقد أدى التنافس بين الصفويين والعثمانيين الى أحد اختيارين ، فاما أن يمتد نفوذ الصفويين حتى يصل الى شـــواطىء البحر المتوسط ويحيط بالعثمانيين فيحصرهم فى شبه جزيرة الاناضول ، أو أن تمتد الدولة العثمانية حتى خط الفرات وتطوق الدولة الصفوية ، وفى اطار هذا التنافس شرع سليم فى تنفيذ أهدافه لانه كان يعلم تماما بأطماع اسماعيل فى الشام والتى اتضحت من احتواء قواته على فرقة أطلق عليها اسم (شاملوا)(٦٦) ٠ ولذلك لم يكد يحل عام ١٥١٥ م حتى استولى سليم على امارة ذى الغادر ووصلت حدود الدولة العثمانية الى خط الفرات ، ثم شرع بعد ذلك فى اعداد خططه لغزو الشام ومصر ليعزل الخطر الشيعى ويغلق الباب نهائيا فى وجـــه الصفويين(٦٧) ٠

النظام القضائى :

ينتمى القضاة الى هيئة كبار العلماء وقد نظرت الدولة العثمانية الى

---

(٦٦) شاملوا : سفره الى بلاد الشام ٠

(٦٧) راجع فى تفصيل ذلك :
Toyubee Arnold : A Study of History Annex 1, Vol., 1. pp 347-400.

مرفق القضاء نظرة موضوعية ، ولم تسمح لغير المؤهلين علميا بتقلد مناصبه . ووضعت نظاما دقيقا لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة أعمالهم . وكانت ولاية القضاء تشمل جميع انحاء الدولة فى القارات الثلاث : آسيا وأوربا وأفريقية ، والأمر الجدير بالذكر ان الولاية القضائية ظلت تمتد الى الأقاليم التى ضعف فيها النفوذ العثمانى سياسيا أو عسكريا أو اداريا مثل بلاد القرم وشمالى أفريقية . وعلى ذلك فالقضاء العثمانى كان أكثر نفاذا وبقاء واستقرار فى الولايات العثمانية من النفوذ العسكرى أو السياسى أو الادارى للدولة فى تلك الاقاليم وأمثالها . وكان جميع القضاة مسلمين ، ويفصلون فى القضايا فى ضوء مذهب الامام أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة . وقد اهتم السلاطين بتقرير هذا المذهب مذهبا رسميا فى الاقاليم الاسلامية التى فتحتها القوات العثمانية ، وكان هذا التغيير المذهبى هو أحد المتغيرات الرئيسية والقليلة التى ادخلتها الدولة فى اقاليم العالم الاسلامى التى فتحتها . وعلى سبيل المثال كان مذهب الامام الشافعى هو المذهب الرسمى فى مصر قبل الفتح العثمانى ، فلما تم الفتح استبدلت الدولة العثمانية المذهب الحنفى بالمذهب الشافعى . وكان لا بد أن يكون «حنفيا» كبير القضاة الذى توفده الحكومة العثمانية الى مصر ليشغل هذا المنصب القضائى الكبير . وكان يطلق على شاغله أيضا قاضى القضاة . ولكن لم تكن الولاية القضائية لتلك المحاكم تمتد الى جميع الاشخاص فى الدولة ، اذ كانت فى الدولة هيئات معترف بها وكانت لها محاكمها الخاصة تنظر فى قضايا أفرادها مثل القولار ، وهم العبيد أعضاء الهيئة الحاكمة ، ومثل الاشراف الذين هم من سلالة أسرة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، أما رعايا الدولة المسيحيون فيرأسهم رئيس « الملة » ، وله أن يستعين ببعض رجال الدين المسيحى . وكانت هناك قضايا خاصة بادارة أراض معينة من أراضى الاوقاف فكانت تنظر امام محاكم خاصة يرأسها عضو من الهيئة القضائية الاسلامية العادية ، وعلى العموم فان قضاة الهيئة الاسلامية كانوا ينظرون جميع القضايا التى تتعلق بالشريعة الاسلامية فى جميع انحاء الدولة سواء بين المسلمين بعضهم وبعض ، أو بين المسلمين والمسيحين ، الا اذا كان المسلم ينتمى الى طائفة لها نظام قضائى يختص بها مثل القولار والاشراف(٦٨) .

وكان يشمل اختصاص القضاة نسبة كبيرة من القضايا التى تمس موضوعات خارجة عن نطاق الشريعة الاسلامية .

---

(٦٨) ا. م .

Alderson, A.D. The Structure of the Ottoman Dynasty. Oxford, The Clarendon Press, 1959 pp 80-91.

وكان القضاة يندرجون تحت درجات أو فئات شتى : قاضى القضاة او رئيس القضاة وهيئات التدريس فى المعاهد والمدارس التى تعد العلماء والباحثين والمتخصصين فى الثقافة الاسلامية العليا واللغة التركية والادب التركى وشتى التخصصات فى نواحى المعرفة ، وكان الاسم العام للقاضى بصرف النظر عن درجته هو القاضى . وقد انشأت الدولة على رأس النظام القضائى منصب قاضى القضاة او رئيس القضاة ، وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة فى سائر انحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يتم اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ويراقب أعمالهم .

وكان قاضى القضاة بجانب اختصاصاته القضائية يتمتع بنفوذ أدبى كبير لم يظفر به من قبل قاضى القضاة فى أى بلد اسلامى ، وكان رؤساء القضاة أعضاء فى الديوان الامبراطورى ويشتركون اشتراكا فعليا مع رئيسه الصدر الأعظم فى نظر القضايا التى تعرض على محكمة الديوان . ومن بين الامتيازات التى تقررت لرئيس القضاء فى الدولة أن يقام حفل رسمى لكل منهما عند تعيينه فى منصبه . وكان على الصدر الأعظم ان يحضر هذا الحفل من باب التقدير والتكريم وكان لا يجوز للصدر الأعظم أن ينيب أحدا عنه فى حضور الحفل(٦٩) .

وهناك فئة المفتشين وكان المفتشون من رجال القضاء ، وان كان اسمهم لا ينم عن مهمتهم القضائية وكان عددهم قليلا ، ويختصون بالاشراف على الأوقاف السلطانية فينفقون من ايراداتها على المؤسسات الدينية والخيرية ، وكان بعضها تحت اشراف شيخ الاسلام ، والبعض الآخر تحت اشراف الصدر الأعظم .

وكان القضاة يتمتعون بعدة امتيازات فلكل منهم الحق فى ارتداء عباءة من فرو النمور فى الاحتفالات الرسمية من قبيل التكريم والتشريف . وكان هذا النوع من العباءات يرتديه الباشوات وحكام الولايات ومن اليهم من كبار موظفى الدولة . وكان من تقاليد الدولة العثمانية ان يقام حفل رسمى كبير — سواء فى عاصمة الدولة أو فى عواصم الولايات — لتقديم هذا الرداء للشخص أو للافراد الذين ينعم به عليهم ، ويحضر هذا الحفل كبار موظفى الدولة المدنيين والعسكريين .

---

(٦٩) لعل من افضل الدراسات العربية التى تعرضت للدولة العثمانية بفصلا وبظمها القضائى . دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، م. س. ذ. ص ص ٤٢١ — ٤٥٣ .

وهناك فئة النواب وكانت وظائف النواب تمثل أدنى درجات السلم الوظيفى القضائى وكانوا يباشرون اختصاصاتهم القضائية فى المدن الصغيرة أو فى القرى الكبيرة ، وكان النائب يشترى منصبه ولا يتقاضى مرتبا من الحكومة ، ولكنه كان يحصل على ايرادات ضخمة من حصيلة الغرامات المالية التى كان يحكم بها على المخالفين والذين يرتكبون أعمالا مخلة بالآداب العامة .وأخيرا كانت هناك فئة المفتين وكان المفتون يشكلون قطاعا هاما للغاية فى الهيئة الاسلامية الى جانب القضاة • وكان المفتون يعينون فى المدن الهامة ويقومون بمهام مناصبهم بجانب القضاة • ولكن كان مركزهم يأتى بعد مركز القضاة ، ويظلون فى مناصب الافتاء مدى الحياة •

وكانت مهمة المفتين اصدار الرأى القانونى فى المسائل التى يطلب منهم بحثها ، فيعكف الواحد منهم على دراستها فى ضوء مذهب الامام أبى حنيفة • ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل ، وتشبه الاستمارة وكان الرأى الذى ينتهى اليه المفتى يسمى فتوى • وكان عدد المفتين فى انحاء الامبراطورية يصل الى ما يقرب من المائتين ، غير أن مجالات العمل امام المفتين كانت محدودة وبالتالى ضيقة ، فقلما لجأ اليهم القضاة أو رجال الحكم المحلى لاصدار فتاوى لهم ، ولذلك نعتهم بعض الباحثين بأن نشاطهم الوظيفى كان يشوبه الخمول أو الركود ، ثم اتسعت أمامهم آفاق العمل حين سمح للافراد بالالتجاء الى المفتين لاصدار الرأى القانونى فى القضايا المطروحة امام المحاكم • فكان المفتى يصدر رأيه كتابة ومسجلا على ورقة رسمية على غرار الفتاوى التى يصدرها للجهات الحكومية ويأخذ المواطن هذه الفتوى ويقدمها للمحكمة كمستند يدعم موقفه فى القضية • وكانت مثل هذه الفتوى تحسم القضية فى العادة لصالحه • ويلاحظ انه لم يكن فى تلك العصور محامون محترفون يتولون المرافعة أمام المحاكم ، ولذلك كان المفتون عنصرا ضروريا وهاما ونافعا فى النظام القضائى(٧٠) •

وعموما فقد اسدى المفتون للدولة أجل الخدمات ، فقدموا لهم بصفتهم حراس الشريعة قوة الاسلام ، وهى أعظم قوة روحية عملت فى هدوء ومثابرة واستمرار على تماسك الدولة ومجتمعاتها الاسلامية دون أن تتعرض هذه القوة الروحية لهزات أو تغييرات ، بل مضت فى طريقها تطبع العثمانيين وحياتهم الخاصة والعامة بالطابع الاسلامى العميق •

---

(٧٠) د·جورج كيرك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر ، ترجمة عمر الاسكندرى ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ١٩٧٠ ص ص ١٤ - ٢٦ •

وأخيرا كان هناك قضاة الجيش ولم تكن سلطتهم مقصورة على الشئون العسكرية ، بل نقدتها الى القانون المدنى برمته ، فكانوا هم الذين يعينون جميع الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم ، بل كانوا يؤلفون محكمـــة للاستئناف العليا التى لم يكن ليحد من صلاحيتها غير سلطة الصدر الأعظم القضائية والسلطان نفسه ٠

وفى تقييم النظام القضائى للدولة العثمانية وعلاقته بالحكم ، ينبغى أن نشير فى عجالة الى تسلسل هؤلاء القضاة فى مكانتهم الاجتماعية فقضـــاة الجيش كان يتلوهم فى الترتيب العلماء الكبار وهم قضاة العاصمة وعواصم الولايات ٠ ثم العلماء الصغار الذين كانوا يتولون منصب القضاة فى مدن الامبراطورية الثانوية ٠ أما قضاة الدرجة الثانية فانقسموا الى طبقات ثلاث . المفتشين والقضاة ثم نواب القضاة ٠ وكان القاضى هو صاحب السلطـــه القضائية العليا فى منطقته ، فهو وحده الذى يقضى عند غياب المدعى العام فى القضـــايا المدنية والجنائية وفقـــا للمبـــادىء المســـــتمدة من القـــرآن والسنة ، وقد ضاعف ذلك على سرعة اجراءات التقاضى ، الا أن هذه الميزة قابلها فساد فى ضمائر معظم القضاة وترديهم فى مهاوى الرشوة وكان ذلك أمرا خطيرا لأن كلمتهم كانت قانونا ولا ينقصهـــــا الا أوامر صادرة من القسطنطينية حيث يقيم مفتى الديار ومكمن الخطورة من أن الانحراف قد يقع من الهيئة المنوط بها تحقيق العدل الا أن مما يهون من هذه الخطورة التزام القضاة بأحكام الشريعة الاسلامية وان خرج عنها فانما يحاول ان يلتمس لحكمه مخرجا أو تفسيرا وهذا فى حد ذاته أمر يدعو للارتياح اذا ما وضعنا فى الاعتبار طبيعة القيم التى كانت تحـــكم المجتمع الاقطـــاعى للدولة العثمانية(٧١) ٠

خاتمـــة :

يتضح اذن أن الهيئات العليا الحاكمة فى الدولة العثمانية فى مطلـع القرن السادس عشر تألفت من السلطان وجهازه التنفيذى يعاونه هيئة كبار العلماء وعلى رأسها مفتى الديار وان كانت تلك الهيئة قد استمدت سلطاتها ممن بيدهم جوهر السيادة فى الدولة أى من الهيئات القادرة على تحريك الجيش العثمانى وتوجيهه (٧٢) ٠

---

(٧١) دكتور عبد العزيز محمد الشناوى ، م٠ س٠ ذ٠ ص ص ٤٣٠ — ٤٥٠ ٠

(٧٢) فيليب خوزى حتى ، تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، مطبعة دار العالم العربى ، القاهرة ١٩٥٣ ص ص ١٧ — ٢٢ ٠

ومن كل ما سبق يتضح ان الدولة العثمانية فى مطلع القرن السادس عشر تمكنت من تكوين امبراطورية آسيوية أوربية بعد أن آتمت سيطرتها على الأناضول والبلقان . ونتج عن ذلك تدعيم لمواردها الاقتصادية وقوتها البشرية والعسكرية وفى نفس الوقت كان شعب الدولة العثمانية فى الأناضول قد قطع شوطا كبيرا فى تجانسه وبدأت السمة التركية تبرز الى حيز الوجود. وصاحب ذلك أيضا تطور فى أجهزة الدولة التنفيذية والادارية لمواجهة المشاكل الجديدة التى نجمت عن نمو الدولة نحو الامبراطورية - والواقع ان بداية القرن السادس عشر تمثل طورا جديدا فى حياة الدولة العثمانية لأنها فى ذلك وصلت فى توسعاتها الى مدى يمكن النظر اليه على اعتبار انه نهاية مرحلة أو بداية مد امبراطورى جديد . لكن ذلك قد تعرض لانتكاسات خطيرة بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون وأخذت معاول الهدم تضرب بشدة فى الجسد السياسى العثمانى وصولا الى حركة تحديث تركيا وارتباطها بالغرب .

الفصل الرابع

تحديث تركيا والارتباط بالغرب

حركة التحديث :

قامت الدول الغربية بمحاولات عدة بهدف ادخال بعض معالم الفكر الغربى الى تركيا أبان العهد العثمانى ، وقد انصبت أغلب هذه المحاولات فى تغيير نظام الحكم ، وادخال مجموعة من القوانين الغربية . وسلكت الدول الغربية لذلك عدة أساليب وقبل ذكر هذه الأساليب تجدر الاشارة بأن تركيا حاولت تقمص الحياة الغربية منذ القرن الثامن عشر . فبعد انتكاسات الجيوش العثمانية على جميع الجبهات بسبب عدم كفاية الوسائل الفنية والضعف المتزايد فى كيان الدولة اتجهت السلطات العثمانية وقتئذ نحو فرنسا وذلك بهدف تنفيذ الاصلاحات التى احتاجتها الدولة العثمانية . وتبعا لهذه المحاولات فقد دخلت التكنولوجيا الجديدة الى الدولة العثمانيـــة عن طريق المدربين العسكريين وكان معظمهم من الفرنسيين . ثم دخلت بعض هذه الاصلاحات الى حيز الوجود عن طريق تجديد بعض الأجهزة الادارية مثل الأنظمة الادارية للمحافظات والجمارك ، وكذلك بأحداث مؤسسات جديدة كمجلس الدولة ، وقد اقتبست هذه الاصلاحات الى حد كبير من النظام الفرنسى(١) .

والسبب فى التركيز على فرنسا من قبل العثمانيين فى هذه الحقبة الزمنية ان الاتراك كانوا يعتبرون الغرب هو فرنسا ويتبين من هذه التحولات ان العثمانيين فى البداية قد ركزوا اهتمامهم بالتكنولوجيا العسكرية للغرب . اذ شعر السلطان سليم الثالث وبكل مرارة خلال الحرب ضد روسيا تخلف الوسائل التقنية العسكرية العثمانية بالنسبة للتقنية الأوربية فقرر عند ذلك اصلاح الجيش العثمانى .

وقد بدأت حركة التحديث في تركيا العثمانية وبشكل ملموس على عهد السلطان سليم الثالث ، حيث قام الأخير بانشاء مجموعة من المدارس والمعاهد العسكرية ذات طابع غربى ، وقد تم على عهده التبادل الثقافى مع بعض الدول

---

(١) من محاضرة للسفير التركى فى باريس بعنوان مكانة تركيا فى العالم العربى ، خلال عام ١٩٧٧ .

الأوربية ، تم بموجبه تبادل الخبراء ، وارسال البعثات العسكرية الى الدول الأوربية لمسايرة التطور الذى وصلت اليه الجيوش الأوربية بالاضافة الى طبع الكتب بما فى ذلك ما يتعلق بالنواحى العسكرية وترجمتها الى اللغة التركية العثمانية . ويمكن القول ان هذا النوع من التبادل الثقافى بين تركيا العثمانية والدول الأوروبية يعتبر نقطة البداية للتماس العلمى والثقافى مع العالم الغربى ، وبالاضافة الى ذلك فان المدارس العسكرية التى انشئت فى هذه الفترة ، وتزايدت فى عهد السلطان محمود الثانى ، قدمت دراسة جيدة على النمط الغربى ، اذ ان المدارس والمعاهد فى هذه الفترة كانت تقوم أساسا على المدارس الدينية(٢) .

وقد برزت المدارس العلمانية الى الوجود على عهد السلطان محمود الثانى ، وأطلق على هذه المدارس اسم « المدارس الرشدية » وهى مدارس اختصت بالتعليم الابتدائى والثانوى . كما وجدت مدارس من نوع آخر ، تحددت وظيفتها على تدريب الجهاز الادارى الحكومى ، وقامت بعملية الترجمة على نطاق واسع . وظهور المدارس العلمانية ، وانتشار الطباعة والترجمة ساهم كثيرا على بروز طبقة جديدة سميت ب « النخبة الجديدة » ، وأصبحت هذه النخبة تضم فى عضويتها مجموعة من المفكرين والصحفيين ورجال القانون . وهذا يعنى من جانب آخر أن هذه الطبقة لم تكن تتكون من الضباط ، بل ضمت فى عضويتها طبقة من المثقفين بثقافة غربية .

وتبنى السياسة نفسها محمد الثانى ، وكان النجاح حليفه عندما استطاع عام ١٨٢٦ الغاء التنظيم العسكرى الذى أصبح باليا ، وذلك عند قيامه بالغاء الوحدات العسكرية المعروفة بوحدات الانكشارية . وفى هذه الفترة ظهرت بوادر « الحركة الوطنية التركية » التى أعلنت مبادئها السياسية وكان من أهمها العناية باللغة التركية فى اطار جمعية ذات أهداف سياسية ، ونظمت الجمعية نفسها منذ منتصف القرن التاسع عشر وجعلت هدفها الوصول الى تطبيق النظام الاوروبى « الليبرالى » فتنصلت — متعمدة — من الاتجاه الدينى واتخذت طريقها بعيدا عن الاسلام ، ثم حول زعماء هذه الحركة الوطنية الى « تركيا متطرفة » ، وانعكس ذلك على قول مدحت باشا — زعيم هذه الحركة — فى عام ١٨٦٧م : « لن تبنى الدولة التركية بعد أربعين أو خمسين سنة مساجد جديدة بل مدارس ومؤسسات اجتماعية » ، وربما كان هذا التصريح بمثابة مجازفة غير مأمونة العواقب فى ذلك الوقت ، لكنه من

(٢) لاجع فى تفصيل ذلك :
Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, Royal Institute of International Affairs 1968 pp 418 - 421.

ناحية أخرى كان بمثابة تنبؤ (٣) بالتحديث الذى شهدته تركيا فى عهد كمال اتاتورك منذ بداية الحرب العالمية الأولى ·

وعموما فان النصف الأول من القرن التاسع عشر يمثل ظهور ضباط الجيش العثمانى ، كطبقة تضم فى عضويته مجموعة من المثقفين على النمط الغربى الحديث ، بالاضافة الى بروز رجال الفكر والأدب ورجال الصحافة والقانون ، كما أن حركة الطباعة والترجمة فى هذه الفترة ، قد شجعت كثيرا على اضمحلال دور الدين الاسلامى ، وبالتالى ظهور فكرة العلمانية فى الامبراطورية العثمانية ·

وكان الغرب قد انتهج مجموعة من الأساليب بهدف ادخال المدنية الغربية الى تركيا · ففى عام ١٨٣٩ وصل الى عرش السلطنة عبد المجيد الأول ، وفى هذه الفترة كان رشيد باشا سفيرا فوق العادة للدولة العثمانية فى لندن ، فما كان من عبد المجيد الا أن عينه وزيرا للخارجية · وجدير بالذكر أن رشيد باشا كان من المنادين بالنظام الدستورى البرلمانى ، وعليه أعلن منذ البداية أنه يرتفع بالامبراطورية العثمانية الى مصاف الدول المتقدمة عن طريق دستور ينص على حقوق المواطنين · وقد استطاع فعلا اقناع السلطان عبد المجيد بخطته هذه ، واعداد وثيقة الدستور بكتمان كلى ·

وأصدر السلطان عبد المجيد هذا الدستور باسم « كلخانه » فى اليوم الثالث من شهر نوفمبر عام ١٨٣٩ ، وتضمن هذا الدستور أفكارا أوربية · وفى الحقيقة أن هذا الدستور يعتبر أول محاولة من نوعها لتبنى معالم النظام الدستورى الغربى فى الداخل · الا أن هذا الدستور لم يدخل الى حيز التنفيذ ، ومع ذلك فان الدول الغربية لم تيأس فى الضغط على السلطات بهدف اصدار وثيقة جديدة ، اذ أصدر السلطان تحت ضغط هذه الدول منشور اصلاح عرف باسم « خط همايون » وتبعا لذلك منحت حقوق معينة للاقليات المسيحية · ومنحت العديد من الامتيازات للدول الاجنبية ، وادى حرص كل دولة فى الحصول على امتياز الى نوع من التوازن فى الحفاظ على الوضع القائم للدولة العثمانية ومن الامتيازات التى منحتها الدولة السماح لكل المذاهب بحرية ممارسة طقوسها ، وأعلنت حرية الأديان ، وأعطى لكل طائفة الحق فى انشاء مدارس خاصة بها ، وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى الذى نبع من الغرب ، ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التى فتحتها أوروبا الى الشرق ، وبدأت حقبة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات التأثير الفعال الذى سيقرر مستقبل

---

(٣) راجع فى تفصيل ذلك : باول شمنز ، الاسلام قوة الغد العالمة ، نقله الى العربية الدكرر محمد شامة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ·

العالم الاسلامى الحديث من جهة الاستمرارية ، ولأول مرة يســوى بين المسيحى وبين المواطن المسلم فى قانون مدنى وفى دولة اسلامية ، وكان هدف الباب العالى بهذه التسوية التى نص عليها المرسوم السلطانى Hatti Humajun

« خط همايون ١٨٥٦م » ان يؤدى بها دورا سياسيا فى الصراع بين القوى الكبرى ، لكن ذلك من ناحيه أخرى قد انقص من السلطات المطلقه للسلطان وأضعف من هيبته داخل الدوله وخاصة بين اوساط الرأى العام الاسلامى والذى اندفع الى الانحراف ، غير ان ضغط القوى الغربية أحدث مزيدا من التجديد ، ففى أواخر العقد الخامس حدث المزيد من الاصلاحات فى النظام القضائى وفى أجهزة الدوله الماليه . وانضمت اداره أوروبية لديون الدولــه التركية ، والعقل الاوروبى الذى استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيــذ برامجها الاصلاحيه ، قد بات من الفرص ما جعله يثبت أقدامه ، وفى نهاية العقد السابع تمت صياغة القوانين على النمط الاوروبى ، وأحدثت مثل هذه التغييرات موجات معارضة شديدة من الرأى العام الذى ظن أنه سيقضى على الشعب بالفناء اذا تمت مثل هذه التغييرات فى القانون ٠

وفى هذه الفترة بالذات برز فى المسرح السياسى اسم مدحت باشــا وكان متأثرا بالافكار الغربية وكان حينئذ وزيرا للعدل فى وزارة محمد رشدى باشا فى عهد السلطان عبد العزيز ، وقدم مقترحات عدة للسلطان طلب فيها اصلاح الوضع فى الدولة بوضع دستور لها ، الا أن السلطان أمر بعزله فى الحال ٠ وهنا عمل مدحت باشا بالتعاون مع المعارضة السياسية فى الخفاء ضد السلطان ٠ واستطاع فعلا الاطاحة بالسلطان فى ٣٠ مايو عام ١٨٧٦ بالاتفاق مع انجلترا وألمانيا وفرنسا ٠ وفى تلك الليلة نفسها رفع مراد الخامس الى العرش(٥) ٠

وقد رقى بعد مراد الخامس الى عرش السلطنة أخوه عبد الحميد ، وفى عهد الأخير صار الباب العالى يتهرب من تنفيذ الدستور ، ومن تنفيذ مطالب الدول الكبرى ، اذ قام توا باقالة مدحت باشا كصــدر أعظم فى ٥ فبراير ١٨٧٢ بعد أن تبين للسلطان اتصال مدحت باشا مع انجلترا وعليه اتهم بالخيانة العظمى ٠

غير ان خصوم عبد الحميد الثانى كانوا يعملون فى الخفاء ولا سيما حزب الاتحاد والترقى ، اذ استطاع الأخير أن يثور على السلطان عام ١٩٠٨ حيث

---

(٤) عبد الفديم زلوم ، كيف هدمت الخلافة ، بدون مكان الاصدار ١٩٦٢ ص ٣٤ — ٣٦ ٠

(٥) الدكتور ارنست م٠ رامزور ، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ، بيروت ١٩٦٠ ص ص ١٢٤ — ١٢٦ ٠

قام باعلان الدستور فى ٢١ يوليو وبالتالى ان يرغم السلطان عبد الحميد الثانى على اقرار الدستور • وكانت الافكار السياسة المعارضة قد أنتشرت وأدت الى معارضة شديدة للسلطان عبد الحميد عشية اعلان الدستور ، وهذه الأفكار اجتاحت جهات عديدة فى الامبراطورية واتجه الثوار الى المقدونيين وقاموا بحملة دعائية واسعة النطاق بينهم شرحوا فيها الاخطار التى تهددهم من جراء سياسة الحكومة المركزية فى القسطنطينية ، وبذلك أثاروا الشعور الوطنى بشكل سافر لأول مرة • ويعتبر هذا منهجا جديدا فى اللغة السياسية(٦) للشرق ، وفى خلال اسبوعين من اعلان الثورة كانت مقدونيا فى يد الثوار الذين اغتالوا كبار الضباط الموالين للسلطان ، وحاول عبد الحميد قمع الثورة ، غير ان هذه المحاولة أوضحت تخلف سياسته وخلوها من مضمون تعتمد عليه ، لانه عندما أراد أن يقذف بقوات من داخل الاناضول ليكافحوا ضد الثوار فى الشمال ، أخذ الرأى العام ينظر الى ذلك بمنظور أن جيشا مسلما يزحف ضد مسلمين وان المسلمين يقاتل بعضهم بعضا الأمر الذى يحرمه الاسلام ، فجمع السلطان عبد الحميد علماء المسلمين لاستصدار فتوى تحل له ذلك ، فما كان من المجلس — الذى يعتبر أعلى مجلس شورى فى المسائل الدينية — الا أن أصدر فتوى تحرم على المسلم ان يشهر السلاح فى وجه أخيه المسلم •

وتحت هذه الظروف تبلورت فكرة القوميه لأول مرة فى السياسه العثمانيه ، وفى هذه الفترة بالذات أصبحت اللغة الفرنسية واضحة فى الثقافة التركية • ويتضح هذا الموضوع وهذا التأثير من مراجعة مذكرات خالدة أديب والتى جاء فيها « ان الدول الاوربية قد زودت تركيا بالأفكار الحديثة ، وأوجدت الروح الجديدة فى أدبيات الكتاب الاتراك(٧) » • أما التأثير البريطانى فيمكن متابعته عن طريق الأساليب الدبلوماسية وكذلك الأفكار السياسية • أما بالنسبه للتاثير الألمانى فنجده فى الحقول الاقتصادية والعسكرية والعلمية • أما التأثير الامريكى فى الثقافة التركية فكان عن طريق التنظيمات التربوية ، ويكفى ذكر فعالية كلية روبرت والتى أسست فى الاستانة منذ عام ١٨٦٣ •

---

(٦) دول شمنز ، م• س• ذ ص ٧٥ ـ ٨٠ •

(٧) وحص كاتبة تركيه عاصرت الحركه الكمالية فى بدايتها • راجع فى تفصيل ذلك أحمد نورى محمد النعيمى تركيا وحلف شمال الأطلسى • رساله دكتوراه فى العلوم السياسيه — جامعه القاهرة ١٩٧٧ ص ص ١٧ ـ ٢٤ •

ومن هذا العرض السريع يمكن القول انه كان هناك صراعا مريرا بين القديم والجديد وهذا يعنى بالتأكيد انه كان هناك اضطرابا فكريا ، هـذا

الاضطراب هو الذى أدى بدعاة التحديث الذين كانوا ينتمون الى تنظيمات سياسية معينة لنقل الدولة العثمانية الى حظيرة الدول الغربيـة ، وتبنى مفاهيم دستورية وسياسية واقتصادية لا مبرر لها ، وبمعنى آخر فـان الامبراطورية العثمانية قد فقدت حريتها وسلامتها ، حيث كانت عرضـة لتدخل الدول الأجنبية فى شئونها الداخلية ، وقد وضح ذلك فى ضغط هذه الدول بين فترة وأخرى لارغام السلطان على قبول الدستور ، وهذا يعنى من جانب آخر الارتباط العضوى لقادة الحركات السياسية فى الامبراطوريـة العثمانية بدوائر أجنبية ، ويقع على هؤلاء المسئولية العظمى فى ادخال الفساد والضعف فى كيان الامبراطورية • وجدير بالذكر أن هؤلاء الدعاة لم يطبقوا البته اى مبدأ من المبادىء الغربية ولا سيما فى مجال النظـام السياسى الديمقراطى النيابى ، مع أنه لم يكن فى التنظيمات السياسية العثمانيـة القديمة ما يستحيل انسجامه مع الديمقراطية أو التقدم أو العلوم التطبيقية •

مظاهر التحديث :

استندت مظاهر التحديث التركية على مبادىء ثلاثة وهى :

١ ـ البحث عن أمن تركيا ضمن نطاق توازن ثابت •

٢ ـ التنمية الاقتصادية

٣ ـ الاندماج فى المجموعة الغربية •

ان للموقع الجغرافى أهمية قصوى فى تحديد مركز تركيا فى العلاقات الدولية حيث أن الموقع الجغرافى لتركيا أجبرها كما هو الحال فى عهـد الامبراطورية العثمانية ـ على البحث من أجل ايجاد بعض المفاهيم المتعلقـة بالتوازن الدولى •فالامبراطورية العثمانية حاولت ايجاد هذا التوازن باتجاهها نحو انحيازات مختلفة • وهذا يعنى بالتأكيد أن الامبراطورية العثمانية سعت لمراحل طويلة من تاريخها لوضع حد للتذبذب والقلق السياسى(٨) •

---

(٨) أحمد نورى النعيمى ، م• س• ذ• ص ٢٣ •

ولا بد لهذا الميراث أن ينتقل الى العهد الجمهورى ، لأن الموقع الجغرافى هو نفسه سواء فى العهد العثمانى أو فى العهد الجمهورى لم يطرأ عليه أى تغير • وقد حاول الجمهوريون اقتداء سياسة سابقيهم مع فارق بسيط ان العهد العثمانى سعى لايجاد توازن لأن مقتضيات السياسة الدولية فى تلك الفترة هى التى أدت الى ذلك • أما فى العهد الجمهورى فانه على العكس من ذلك ، اذ أنه على الرغم من سعى القادة الجدد على وضع حد لهذا التذبذب والقلق السياسى ، الا أنه كان هناك ارتباط مصيرى من الجمهوريين مع المدنية والحضارة الغربية • وهذا يعنى أن تركيا فى العهد الجمهورى اختارت حلفاءها بصورة دقيقة ونهائية ، وان هذا الاختيار قد أنصب على نقطتين رئيسيتين هما : المصلحة الذاتية لتركيا ، اندماج تركيا فى الحضارة الغربية• هاتان النقطتان قد طبعتا حركة التحديث التركية بشكل نهائى •

ويركز الباحثون(٩) على النقطة الثانية وهى اندماج تركيا فى الحضارة الغربية فى العهد الجمهورى اذ ان مصطفى كمال الملقب باتاتورك(١٠) قد صرح فى عام ١٩٢٥ ان الهدف من التدابير النورية المتخذة ، وكذلك التدابير التى سيتخذها هو لرفع شعب الجمهورية التركية الى المستوى المعاصر للمدينة•

وقد عمل مصطفى كمال جاهدا فى فترة العهد العثمانى على الغـــاء الخلافة العثمانية والوصول الى الدولة العلمانية ، وبعد انتهاء الحرب العالميـــة الأولى ، اجتمع المؤتمرون فى لوزان فى ٢٠ نوفمبر ، وحضره عن الدولـــة العثمانية وفد حكومة أنقرة وحده ، واعتبر الممثل للدولة العثمانية المهزومة فى الحرب العالمية الأولى ، وخلال انعقاد جلسات المؤتمر ، قدم كرزون وزير خارجية بريطانيا اقتراحا يتضمن شروطا أربعة للاعتراف باستقلال تركيا ، وهى : الغاء الخلافة الغاءا تاما ، وترك الخليفة خارج الحدود ، ومصادرة أمواله ، واعلان علمانية الدولة • وقد مثل حكومة أنقرة فى هذا المؤتمر عصمت اينونو،

---

(٩) نفس المرجع السابق •

(١٠) ولد أتاتورك عات ١٨٧٨ وتوفى عام ١٩٣٧ وهو مؤسس الدولة التركية الحديثة فقد انتخب من قبل المجلس الوطنى التركى عام ١٩٢٣ رئيسا لأول جمهورية تركية بعد أن حارب الجيوش اليونانية والانجليزية والفرنسية فى الأناضول ، وأطاح بالخلافة العثمانية وكان متأثرا بشدة بمنهج الحياة والحضارة الغربية • وبالرغم من مرور حوالى خمسين عاما على وفاته الا أن الرأى العام التركى لا يزال يحتفل سنويا بذكرى ميلاده معتبرا اياه حبا فى عقله نظرا لتأثيره البالغ العمق على جميع نواحى الحياة فى تركيا وتحديثها وهو ما لمسه الباحث بنفسه من خلال المؤتمر الذى أقيم عام ١٩٨١ فى جامعة أنقرة احتفالا بذكرى أتاتورك •

الا أنه لم يسفر عن أى شيء يذكر فى هذا المجال . وقد انتقد النواب فى المجلس الوطنى انتقادا لاذعا وفد الحكومة فى المفاوضات ، واتهموه بالغباء ، وهاجموا ارساله دون موافقتهم ، ثم قرروا التصويت على تنحيته ، وارسال خلف يحل محله فى المفاوضات .

غير ان اتاتورك سعى حثيثا لتنفيذ الشروط الأربعة الوارد ذكرها ، وأعلن فى المجلس الوطنى قائلا : « اليس من أجل الخلافة والاسلام ورجال الدين قاتل القرويون الاتراك ، وماتوا طيلة خمسة قرون ؟ وقد آن الآون ان ننظر تركيا الى مصالحها وتتجاهل الهنود ، والعرب ، وتنقذ نفسها من تزعم الدول الاسلامية » .

ولا بد أن يستأنف المؤتمر مرة ثانية ، ويكلل بالنجاح ، الا أن بعض النواب فى مجلس العموم البريطانى قد انتقدوا نتائج مفاوضات مؤتمر لوزان، واعتبروها هزيمة سياسية للانجليز تجاه الاتراك ، وقد رد مستشار وزارة الخارجية البريطانية على أحد المعترضين قائلا : « عليك بوزن المسالة من حيث الفرق بين دولتى الترك القديمة والجديدة » . كما أن احد النواب احتج على كرزون فى مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا ، فاجابه كرزون قائلا : « القضية ان تركيا قد قضى عليها ، ولم تقوم لها قائمة ، لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها : الخلافة والاسلام : ومع ذلك فان القضاء على الخلافة فى تركيا لم يكن فى مبدأ أمره عملا موجها ضد الاسلام ، ولم يقصد مؤسسو الجمهورية التركية - بالغاء الخلافة الذى أعلنه كمال أتاتورك - العداء للاسلام، ولم يخطر ببال أحد من الأوساط الوطنية ان ذلك معناه الالحاد أو محو الاسلام من تركيا ، بل أنه اعتبر بمثابة أمر أملته الظروف وحاكه الدهاء السياسى فبعد أن أمن كمال أتاتورك قيام تركيا كدولة اعتقد القوميون الاتراك ان الاسرة العثمانية المالكة التى مازالت تحكم البلاد لم يعد لها الحق فى البقاء على رأس الدولة الجديدة ، ولهذا حصلوا على قرار من البرلمان التركى بفصل الخلافة عن السلطنة ، والغاء السلطنة بناء على فتوى صدرت من أعلى سلطة دينية فى البلاد ، وبهذه الوسيلة تفادى الوطنيون صراعا مع القوى الدينية - فالقرار موافق لفتوى أفتى بها شيخ الأزهر - وكذلك مع محمد السادس ، الذى رضى بوضعه الجديد بعد انتزاع السلطنة منه حيث من الناحية الظاهرية كان يحتفظ بالهيبة والشرف كخليفة ، غير أن معارضته للقوميين وهروبه الى معسكر الانجليز قد جعله عدوا للوطنيين ، وسرعان ما استصدرت فتوى بخلعه من الخلافة وتولية عبد المجيد مكانه مع انذار هذا الأخير بعدم التدخل فى شئون البلاد وانه ليس من حقه ابداء الرأى

فى المسائل التى تتعلق بالشئون الداخليه للدولة ، حيث تتعدى سلطة الخلافة حدود تركيا الجديدة ، غير ان المؤتمر القومى التركى رأى أنه من الضرورة بمكان والمسائل التى لا تحتمل التاجيل الوصول الى قرار حاسم للمشكلة المتعلقة بالدول التى تخلف تركيا فى المنطقة العربية بهدف الحفاظ على كيان الدولة التركية الجديدة وتأمينا لوجودها وكان اتجاه المؤتمر نابعا من حرصه على عدم اثقال كاهل الدولة بعوبها الجديد بالتورط فى مسائل عالمية •

ثم انتقال مصطفى كمال الى الخطوة الثانية من برنامجه بعد انتصاره على مناوئيه بالغاء الخلافة وهى اعلان مفهوم علمانية الدولة ، معلنا انه لا علاقة بين الدين والسياسة لأن الدين فى اعتقاده قضية تتعلق بالانسان ذاته • وهذا يعنى أن الفرد له الارادة الحرة فى اختيار الدين الذى يختاره ، ولا شأن له فى السياسة • وتبعا لهذه السياسة الغى المحاكم الشرعية ، والقوانين المتعلقة بالشريعة ، وتطبيق القوانين الأجنبية ، والغاء الحروف العربيـــــة وتبديلها بحروف لاتينية والزام الشعب بتغيير الزى الخاص بالمجتمع التركى ، وارتداء القبعة • وفى هذا الصدد خـــاطب مصطفى كمال الشعب التركى قائلا : « انه من الواجب علينا ارتداء ملابس الأمم المتمدينة الراقية ، كى نبرهن للعالم أجمع بأننا أمه راقية كبيرة ، لنا حضارة عريقة ، ولا نسمح للغير بأن يضحك علينا وعلى تقاليدنا القديمة البالية(١١) » •

وقد نجح اتاتورك فى تطبيق الأمور السالفة الذكر بعد أن تمكن من توحيد الشعب التركى باسم القومية التركية فى اطار حدود نشأت بموجب المعاهدة الوطنية تحت الظروف المروعة لحرب الاستقلال • ونادى أتاتورك بعد الحرب بمجموعة من المبادىء ، وكانت الغاية منها هى التقرب من المدنية الغربية ، وكان شعاره فى هذا الصدد : « رفع مستوى الدولة الى مصاف المدنية الحالية » •

وبرر أتاتورك هذه المفاهيم بأنها نتيجة طبيعية للتقييم الحقيقى للوضع السياسى والجيوبلوتيكى التركى فى مواجهة توازن القوى والقوى الاجتماعية السائدة فى تلك الفترة ، ولتحقيق ذلك فانه نادى بالمبادىء الست التالية : الجمهورية ، القومية ، الشعبية ، الدولية ، العلمانية ، والاصلاحية • وفى الحقيقة فان دستور ٥ فبراير سنة ١٩٣٧ كان يمثل أساسا هذه المبادىء فى السياسة الداخلية وقد أكد حزب الشعب الجمهورى — حزب أتاتورك —

(١١) راجع فى تفصيل ذلك أبو الحسن على الحسنى الندوى ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية ، دار الندوه ، لبنان ، ١٩٦٨ ص ص ٦٥ — ٦٩ •

على هذه المبادىء فى عام ١٩٣٥ ، حين جاء فى برنامجه : « ان أهداف الحزب تتركز فى الحفاظ على الصفة الخاصة والاستقلال المطلق للمجتمع التركى . وفى نفس الوقت يؤكد الحزب على البرامج والتطورات الجديدة فى العلاقات الدولية ، وعلى ذلك فان الحزب يتبع التوازن والانسجام مع جميع الشعوب المتمدينة .

وهكذا تطورت الأحداث فى تركيا متجهة وجهة غير اسلامية ودفعها الى ذلك عدد من المحاولات التى جانبها الحظ فتعثر قيام علاقة ودية بين القوى القومية ، والاتجاهات الدينية ، وفساد المناخ الذى يساعد على تبادل الآراء بينهما ، أصبح التحالف معه مستحيلا فى وقت انجز فيه هذا التحالف دورا حاسما فى العالم الاسلامى ، وبذلك انعزلت القومية التركية ، لان دعوتها الى التحرر من الدين كانت عنيفة عن باقى الحركات الوطنية التى قامت فى العالم الاسلامى ، وأصبحت فريدة فى منهجها وسياستها ، فخرجت عن أن تكون مثالا لتلك القوى التى يتكون منها البناء الجديد للشرق الاسلامى ، ورغم هذا المنهج لحركة التحديث التركية فلا تزال توجد فى تركيا قوى ذات نفل لدى الشعب ، تهتم بالدعوة الى عودة الدين الاسلامى الى الحياة السياسية(١٢)، مما يدل على أن القومية التركية بمفهومها هذا لم يخل لها الجو بعد — لاحظ أحداث الشغب التى تثيرها فئات أخرى من المجتمع التركى كالأرمن مثلا وهم يمتلون قوى معتد بها ويقومون بحركات عنف فى وجه الحكومة التركية من آن لآخر — وهو ما يمكن معه القول ان التطور التاريخى لم ينته فى هـذا المنعطف التاريخى ، فالمعارضة الداخلية — فى جزء منها — لم تزل أقوى مما قدر لها المراقبون ، وحين قرر المجلس الوطنى فى تركيا فى نوفمبر ١٩٢٤ فصل الخلافة عن السلطة فقد طبع الخلافة بطابع الروحانية وحصرها فى دائرة السلطة الفكرية الخالصة ، فأصبح مجالها قاصرا على الناحية الروحية ومسائل العبادة ، وهذه صورة لم تعرفها الخلافة من قبل ولم يعهدها المسلمون فى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وقد كرست حركة التحديث فى تركيا جهدها فى (فتكنة الخلافة) أى تحويلها الى فاتيكان . لكن المحاولة باءت بالفشل لعدم قبول الخلفية الجديد وهو ابن آخر سلطان لتركيا — « المعين » — لهذا التحديد للسلطة ومعارضته حركة التحديث مما أدى الى هروبه ، وهو ما أثار ردود فعل غاضبة فى العالم الاسلامى سرعان ما خفتت وانقطعت

(١٢) وهو ما لمسه الباحث بنفسه خلال التقائه بقطاعات عريضـــة من الشعب التركى بمختلف افكاره السياسية من وجود تيار اسلامى قوى تشهده تركيا حاليا .

الخطوط الأخيرة التى كانت تصل المسلمين بالفسطنطينية وانصرفت انظار العالم الاسلامى عنها ٠

ومما هو جدير بالذكر ، انه عندما ظهرت الجمهورية التركية ، ونتيجة قيام ثورة أكتوبر الروسية عام ١٩١٧ ، كان هناك فى تركيا نشاط شيوعى غير عادى وفى هذه الفترة بالذات كانت علاقة تركيا جيدة مع الاتحاد السوفيتى ، ولا سيما ان الدولتين كانتا متفقتان على بعض الأهداف فى السياسة الخارجية ٠ وتتركز هذه الأهداف ، على أن الدولتين اعتبرتا الدول الغربية عدوة مشتركه لهما ، ولا سيما أن الدول الاوربية قد هيمنت على الاراضى التركية بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ٠ كل هذه العوامل دعت مصطفى كمال الى حثه لبعض زملائه مثل رفيق قورالتان وذلك فى عام ١٩٢٢ بتأسيس حزب شيوعى محلى ، كموازنة للحركة الشيوعية فى تركيا ، هذا من جانب ، وتعزيز العلاقات بين تركيا والاتحاد السوفيتى من جانب آخر غير ان قورالتان أبى أن يقوم بهذا الدور ٠

ويضيف أحد الباحثين (١٣) عاملا آخر ، الى سبب تشجيع مصطفى كمال قيام حزب شيوعى محلى ، ويرجع السبب فى ذلك أن التنظيمات الدينيه فى تركيا كانت قوية جدا ، وهذه التنظيمات تعود أساسا الى عهد الامبراطورية العثمانية ، علاوة على ذلك أن الطابع الدينى فى تلك الفترة كان هو السائد من المدينة الى الريف ، كما أن بعض المثقفين فى البرلمان التركى أمثال رءوف بك وقفوا موقف المعارض من حركة التحديث فى تركيا ، والابتعاد من العالم العربى والاسلامى وكان قيام هذا الحزب - وان كان مصطفى كمال من المناهضين للحركة الشيوعية - كان يعنى تقوية الحركة الاسلامية فى تركيا ، والأخذ بمظاهر الفكر الغربى ، بأى وسيلة كانت ٠

ان مصطفى كمال كان يعتقد بأن أوربا الغربية قد اهملت الدين ، وبالتالى أعلنت مفهوم علمانية الدولة ، ومن الممكن مناقشة هذه الفكرة ، لأنها مرفوضة من الأساس لأن هذا المفهوم فى أوربا لم يكن يعنى أبعاد الدين عن السياسة ومادامت شعوب أوربا وأمريكا مسيحية فحكومات هاتين القارتين مسيحية أيضا والا فكيف يمكن أن نفسر توسع بعض الدول ولا سيما بريطانيا والولايات المتحدة باسم التنصير والاستعمار بعد الحربين العالميتين

---

(١٣) احمد نورى النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، م٠ س٠ ذ٠ ص ص ١٧ - ٢٨

الأولى والثانية . كما لا يخفى عن البال دور جماعات الضغط الدينية الكاثوليكية فى فوز كنيدى فى انتخابات الرئاسة الامريكية فى بداية الستينيات من هذا القرن ، ودور حركات التنصير الدينية فى أفريقيا بصورة عامة ، وجنوب السودان بصورة خاصة .

وهناك تناقض أكيد فى سياسة حكومة أتاتورك ، فهى من جهة تدعى بأنها تسير على طريق الشعوب الغربية الراقية فى فصل الدين عن السياسة ومن جهة أخرى تتدخل تدخلا مباشرا فى الشئون الدينية الصرفة ، فى الوقت الذى أكد فيه أتاتورك بأن هذا المفهوم كان يعنى عدم تدخل الدولة فى أمور الدين .

وصفوة القول ان أوربا وأمريكا لم تنبذ مسيحيتها ، لأن هذه الدول جميعا بقيت على مسيحيتها ، لم يتغير شىء فى هذه الصبغة بل لم يتغير شىء من عقائدها الكنيسية التى كانت عليها من قرون .

وعلى الرغم من هذه الملاحظة لاحد الباحثين على برنامج أتاتورك ، الا انه تجدر الاشارة من ناحية أخرى أن أتاتورك قد استطاع أن ينجح فى الحياة السياسية الى حد بعيد ، لأنه هو الذى استطاع أن ينقذ تركيا من خطر أكيد فى ظروف حالكة أملتها السياسة الدولية فى تلك الفترة على الامبراطورية العثمانية ، وتمكن بالتالى من خلق حكومة قوية أخذت على عاتقها الدفاع عن استقلال تركيا ؛ ولكن وطأة هذه الاجراءات جاءت بردود فعل معاكسة على صعيد الشعوب الاسلامية اذ أن كل الدوائر الاسلامية المعتدلة كانت ترى أن الاسلام فقد — بمحو الخلافة من تركيا — رمزا ذا أثر قوى فى الوحدة الدينية والادبية فى العالم الاسلامى ، واتجهت الأمال الى اعادة الخلافة بثوب مغاير للخلافة التركية وبصيغة غير خاضعة للاقليمية بحيث تكون فوق الارتباط بالمصالح القومية ، وامتزج ذلك بالعديد من العوامل التى أثرت فى تاريخ العالم الاسلامى الحديث والمعاصر .

عوامل مؤثرة فى قضايا العالم الاسلامى الحديث والمعاصر :

هناك أربعة عوامل بارزة واضحة فى قضايا العالم الاسلامى الحديث والمعاصر هى : الاسلام ، والاتراك ، وأثر الحضارة الغربية والقومية العربية . واذا كان الاتراك قد استطاعوا أن يحكموا هذه المنطقة مدة أربعمائة سنة ، واذا كان العرب قد خضعوا ، فى أكثر الأحيان ، لهذه السيطرة العثمانية ،

فان السبب يعود الى أن الاتراك مسلمون (١٤) ، فقد استمر السلاطين العثمانيون فى العمل على نشر الاسلام بعد آن كانت مقدرات الاسلام قد وصلت الى أدنى درجات الانحلال بعد خراب بغداد سنة ١٢٥٨ للميلاد ، على يد هولاكو وجيوشه المغوليه . نفد استطاع الاتراك آن يجتاحوا اقساما من اوربا ، مركز المسيحية ، وان يرفعوا رايات الاسلام عالية اينما وصلوا حتى عند مشارف فينا والشعوب المسيحية منذ ان احتل العرب اسبانيا ، ومنذ معركة بواتيه Poitiers فى سنة ٧٣٢ ميلادية ، لم تكن تشعر بقوة دولة اسلامية ، ولم تكن لتتخوف من قوة اسلامية كما كانت تشعر، وكما كانت تتخوف من قوة العثمانيين قرابة أربعمائة سنة . وهذا مما جعل العرب ، كمسلمين ، يفخرون بعظمة الاتراك ومكانتهم العالية . فقد كانت الامبراطورية العثمانية امبراطوريتهم تماما كما هى للعثمانيين والذين يريدون أن يتفهموا الشرق العربى فهما صحيحا يتحتم عليهم أن يدرسوا الاسلام ، والمؤسسات الاسلامية ، كما يجب ان يدرسوا مشاكل الاقليات وعلاقاتها مع الاكثرية الحاكمة فى هذه المنطقة .

والاسلام كان بمثابة القوة الروحية التى هى مصدر جميع الحوافز وجميع الأعمال التى تصدر عن غالبية سكان العرب فللاسلام ، كقوة روحيه وسياسية ، أثر عميق يفوق أثر القومية العلمانية وهذه حقيقة أساسية يجب على المؤرخ الا يتغاضى عنها ، والا يتجاهل خطورتها .

ومن الثابت أن الامبراطورية العثمانية كانت تتألف من اعراق بشرية مختلفة ، ومن قوميات متباينة ، ومن ديانات عديدة ، فى الوقت الذى لم يحاول الاتراك ، ان يوحدوا بينها بالقوة أو « بالتتريك » واكثرية العرب فى معظم الفترة التى كان الاتراك يحكمون بلدانهم ، لم يشعروا ان الحكم التركى كان حكما « أجنبيا » . وفضلا عن هذا فان لفظة « أجنبى » لم تكن تعنى سابقا ما أصبحت ترمز اليه فى القرن العشرين من ان « الاجنبى » ينتمى الى قومية أجنبية ، وأحيانا تعنى ، سياسيا ، شخصيات غير مرغوب فيه . ان العالم الذى عاش فيه العرب والاتراك معا قبل انصرام القرن التاسع عشر كان عالما لا تعرف فيه القومية بمعناها السياسى الحديث . فلم تبدر عن معظم

---

(١٤) اتفق فى هذا معظم الباحثين والمؤرخين العرب المعاصرين ، ترجع أيضا الى نور الدين زين ، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية فى العلاقات العربية التركية ، بيروت ، دار النهار للنشر ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ص ١٢٦ ـ ١٤٦ .

العرب المسلمين الذين كانوا مواطنين فى امبراطورية عثمانية اسلامية أى بادرة تدل على انهم يطالبون بالانفصال عن الاتراك الا بعد ١٩٠٨ وعندما حاول قادة الاتراك أنفسهم أن يؤكدوا قوميتهم التركية • وعندما ابتعدوا ، فى نظر العرب ، عن أن يكونوا مسلمين حقيقيين وأخوة للعرب فى الدين • فمن هذه الناحية ليس هناك ما يبرر القول بأن الاتراك اضطهدوا العرب الا فى السنوات الأخيرة من العهد التركى ، عندما كان الاتراك أنفسهم يقاسون ضروبا من البؤس والشقاء من جراء فساد الحكومة العثمانية (١٥) •

وفى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية العثمانية أخذة بالتقهقـــر والانحلال فى أثناء القرن التاسع عشر كان العالم الغربى على عتبة تغير كبير وازدياد عظيم فى قوته العسكرية والاقتصادية بسبب التطورات الجذريـــة التى أسفرت عنها الثورة الصناعية الرأسمالية والتقدم السريع فى التقنية • والى جانب هذا كان هناك اتجاه مستمر نحو علمنة المؤسسات الحكوميـــة والاجتماعية فى البلدان الغربية مما كان له أثر كبير فى ظهور القومية المتطرفة العنيفة ، أما عن تأثير الحضارة الغربية فالملاحظ أن معرفة العرب بالعـــالم الغربى كانت قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات عديدة ، مستمدة عن طريق التجارة مع الغرب وكانت معرفتهم هذه تقتصر على ما كانوا يسمعونه أو يقرأون عنه • وكان بعضهم يعرف الغرب عن كثب ، وذلك عن طريق السفن الى الغرب ، أو عن طريق الدراسة فى بلد أوربى • وكانت نظرة العرب الى الغرب بصورة عامة نظرة احترام لقوته العسكرية ، ونظرة اعجاب لتقدمه المادى وللمنجزات التى قام بها ، وكان الاوربى فى نظر الناس وبوجه عام ، رجلا متمدنا ومتفوقا • وقد كتب السير فلانتين شيرول Valentine Chirol يقول : « عندما زرت الشرق من قبل خمسين سنة شعرت ان تفوق الغرب على الشرق كان أمرا مسلما به لا يتجادل فيه اثنان • وهذا التفوق الذى يدعيه الغرب مرده الى تفوق حضارته ، والى أنه استطاع فرض سلطانه عن طريق التفوق المادى والاقتصادى(١٦) » ، والظروف التى تم فيها الاتصال بين العرب

(١٥) راجع فى تفصيل ذلك ، أحمد نورى النعيمى ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ١٩٧٥ - محمد على القيدى ، ثورات العرب فى سنة ١٩١٩ ، الجزء الأول ، القاهرة ، مطابع الدار القومية ، بدون تاريخ اصدار •

(١٦) زين نور الدين زين ، م• س• ذ• ،

والغرب فى القرن العشرين كانت ظروفا تختلف كثيرا عن ظروف القرن التاسع عشر ، والصدمة النفسية التى شعر بها العرب جاءت نتيجة تعرفهم الى الغرب الذى كان بحكم الظروف غربا يدين بالسياسة « الماكيافلية » التى تقوم على القوة وتخدم المصالح الامبريالية • وقد ابتهج العرب فى بادىء الأمر ابتهاجا عظيما لتحرير بلدانهم من ويلات الحرب وفظائعها ، لكن سرعان ما انقلب ذلك الابتهاج الى خيبة آمل مريرة ، فقد أدخل الغرب الى الشرق أنظمة سياسية جديدة باسم الديمقراطيه وحاول « تطعيم » مجتمع اقطاعى بطبيعته ودينى بروحه بهذه الأنظمة الغربية عنه • وكانت النتائج غير مرضى عنها ، وفى أحيان كثيرة مخيبة للآمال ، فتعرضت الديمقراطية لدى الكثيرين من سكان الشرق لكثير من الامتهان لأسباب عديدة منها التوتر النفسى الذى نجم عن عجز المجتمع لتكييف ذاته لينسجم مع هذه المؤسسات السياسية الجديدة أو لعجزه عن فهم روح الديمقراطية وتقديرها حق قدرها ، وفضلا عن هذا فان قادة العرب المسلمين والغالبية الساحقة من اتباعهم كانوا يؤمنون بأن الرجوع الى الاسلام الحقيقى والى المؤسسات الاسلامية هو الدواء الناجع ، وكان خطر الحضارة الغربية فى نظرهم خطرا مزدوجا على بلدانهم وعلى شعوبهم • فالخطر السياسى يتجسد فى الاستعمار الغربى للاقطار العربية والخطر الحضارى فى الفلسفة الغربية المادية العلمانية • وقد ظهرت ردة الفعل العربية ازاء تفوق الحضارة الغربية وازاء تقسيم الشرق الى مناطق انتداب ومناطق نفوذ ، فى أعنف قوة متفجرة برزت فى المنطقة وهى القومية العربية التى لم يكن أحد يتصور مداها ولا السرعة التى انتشرت بها بين الجماهير •

ومن الملاحظ أن معنى « القومية » تبدل مرارا وتكرارا فى غضون تاريخ نشوء القوميات عند مختلف الشعوب واذا اتخذنا بعين الاعتبار العناصر الاساسية التى تدخل فى تكوين القومية ، من عرقية وحضارية وروحية ، نجد أن القومية العربية ، من هذه الناحية ، هى من أقدم القوميات فى العالم • والمصادر الحقيقية للتاريخ العربى الاسلامى تجزم ان القومية العربية ولدت ونشأت يوم مولد الاسلام وظهور الاسلام عن طريق نبى عربى وبلسان عربى وفى الجزيرة العربية • وفى القرآن الكريم •

وهكذا نرى ان السبب الأساسى فى خلق الأمة العربية والشعور بالوحدة القومية بين المسلمين العرب يعود الى الاسلام وستظل هذه القومية المقترنة والممتزجة بالاسلام منذ تبلوها جزءا لا يتجزأ من نفوس العرب المسلمين ومن عقولهم • وعندما اعتنقت شعوب غير عربية كالفرس والهنود والترك الاسلام دينا ، ظل العرب يشعرون فى قرارة نفوسهم بتفوقهم على

غيرهم من الشعوب ، وظلوا يعتبرون أنفسهم أمة تمتاز على غيرها من الأمم التى انضوت تحت لواء الاسلام ، مع العلم أن الاسلام دين عالمى و « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » وفضلا عن ذلك فقد كان العرب المسلمون ، يعتقدون ان لهم فضلا عظيما على سائر المسلمين من الأعاجم لانهم « نجوهم من الشرك » وشعور العرب بقوميتهم لم يخب يوما طوال تاريخهم وذلك بفضل رابطتين تعتبران ، بصورة عامة ، من أقوى الروابط التى تربط أفراد الأمة فى قومية واحدة وهما اللغة العربية والدين · وقد برهنت الروابط الحضارية الفكرية الى جانب الرابطة الروحية الدينية ، عند العرب المسلمين على أنها اقوى من العوامل الجغرافية ·

وتأسيسا على ذلك ، انه اذا كانت « يقظة العرب » تعنى توق العرب للانفصال عن الدولة العثمانية ، وتأسيس دولة عربية مستقلة ذات سيادة على غرار الدول الغربية ، فان هذا المصطلح يحتاج الى تعديل فى مفهومه · فقد كانت يقظة العرب توقا لتقرير المصير والاستقلال السياسى · ان يقظة العرب المثقفين الواعين لم تكن يقظة « العروبة » فيهم ، فان عروبة العرب لم تقع يوما فى سبات ، اذ كانوا يشعرون دوما أنهم عرب ، وانما كانت اليقظة ، توقا لنيل الاستقلال السياسى ، وهذه اليقظة السياسية يمكن اعتبارها جزءا من يقظة سياسية عمت أوربا قبل يقظة العرب بمئتى سنة ، فقد كانت الدوافع والقوى المحركة تصدر عن رغبة العرب فى الاستقلال السياسى ، وفى نيل حقوقهم كاملة فى توفير العدالة الاجتماعية والحرية · وهذه « القومية السياسية » التى تتميز بها الحركات العربية السياسية فى الطور الثانى لنشوئها كانت فى جوهرا وليدة الظروف السياسية والاجتماعية التى كانت سائدة فى الحقبة الأخيرة من حكم الاتراك فى الولايات العربية · وفى هذه الأونة ، لم يكن الدين منفصلا عن القومية العربية · ذلك لأن العرب فى غالبيتهم كانوا مسلمين فالشريف حسين فى أثناء الحرب العالمية الأولى كان يتصور قيام دولة عربية على انقاض الدولة العثمانية بعد انهيارها ويكون على رأسها ملك عربى مسلم وتقوم على دعائم الاسلام ·

أما الاتفاقية المعروفة باتفاقية سيكس — بيكو ، والمعقودة فى ١٦ فبراير ١٩١٦ ، فقد استحالت بقرار من مجلس الحلفاء الأعلى فى جلسة تم عقدها فى سان ريمو بين ١٩ و ٢٥ أبريل ١٩٢٠ الى نظام الانتداب · وقد أسفر هذا الاجتماع عن الاعتراف بالعراق وسوريا « بلدين مستقلين » ، العراق تحت الانتداب البريطانى ، وسوريا تحت الانتداب الفرنسى والفترة التى

تلت الحرب العالمية الأولى فترة تتميز باليأس والقنوط وخيبة الأمل التى علقها زعماء العرب على الوعود التى قطعها الغرب على نفســه بأن يمنحهم الاستقلال كما تتميز هذه الفترة أيضا بفقدان ثقة العرب بالسياسه التى كانت تتبعها دول الغرب فى منطقة الشرق العربى • مما أدى الى العداء السافر فالثورات المتعاقبة ضد هذه السياسة ، وهكذا اتجهت مقاومة العرب ناحية الغرب ، أما فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية فقد راحت جذور القومية الاقليمية تتأصل وتترسخ فى دول عربية اخرى وبعض هذه الدول أصبحت تتبع أنظمة اشتراكية فى سياستها الاقتصادية ثم ان الاستقلال السياسى الذى كانت تمارسه الدول العربية ، والسيادة التامة وقيام الدولة بدوائرها الادارية المختلفة وبالشعارات الاقليمية المتعددة وكل ذلك كان من العوامل التى قوت روح القومية فى كل بلد عربى فهناك مثلا قومية عراقية متميزة عن القومية السعودية وهذا التمايز أو هذا التباين بين قومية عربية اقليمية وأخرى أصبح حاجزا يقف فى وجه الوحدة العربية السياسية وفى هذه الأثناء ظلت الوحدة العربية الهدف المثالى الذى يصبو اليه العرب بالرغم من أن جامعة الدول العربية عجزت عن خلق اتحاد يضم الدول الاعضاء فى الجامعة وبالرغم أيضا من ان محاولات مختلفة للاتحاد فشلت أو انها لم تدم طويلا • وفى هذه الفترة نفسها ، حاولت الحركة العربية جهدها أن تحــل فكرة القومية العربية محل فكرة الأمة الاسلامية العربية •

ان « القومية العربية » ، هذا المصطلح انما يرمز كذلك الى توق العرب للاتحاد ويعتبرها اصحابها درعا حصينا ضد الاستعمار ، وأداة صالحة تؤمن لهم النصر على اسرائيل ويعتبرونها كذلك حركة تهدف الى التحــرر — الى التحرر السياسى والاجتماعى حتى والدينى — من التدخل الذى تمارسه دول الغرب فى المنطقة ، سواء أكان التدخل سافرا أم خفيا مقنعا ، ومن روح الاقطاعية ومن القيود الدينية التى كانت دوما من العوامل الأساسية الفعالة فى كل تفكير سياسى فى الشرق الأدنى والقومية العربية فكرة تجمع العرب حول الوحدة وهذه الوحدة العربية الشاملة تستأنف الى قلوب العرب كما كانت تستأنف الجامعة السلافية الشاملة أو الجرمانية الشاملة الى قلــوب أصحابها فى القرن التاسع عشر • وفى هذه الأثناء أصبح اتجاه القوميــة العربية فى بعض البلدان العربية نحو الاشتراكية على أساس الاشتراكيــة هى أفضل دواء ناجع لمشاكلها الاقتصادية وتوق هذه الجماهير لتنعم « بحياة أفضل » ونقمتها على الطبقة الغنية الراسمالية بصفتها الاقلمية المميزة التى يحق لها وحدها ان تنعم بالحياة الطيبة ، جميع هذه العوامل حتمت عــلى الجماهير فى هذه البلدان أن تعتبر العدالة الاجتماعية مطلبا حقا من مطالبها •

ويظن بعضهم أن الاشتراكية (لا سيما الاشتراكية التى تدعمها التسيوعية) هى السبيل الوحيد ، فى الوقت الحاضر ، الذى تستطيع به العلمنة أن تغزو الاسلام ، ودعاة القومية العربية العلمانية ينظرون الى القومية على انها تجسيد لشعور العرب بأنهم أمة واحدة تربطها روابط طبيعية • وهم يركزون تركيزا شديدا على الناحية الانسانية للاشتراكية التى يدينون بها اقتصاديا على انها اشتراكية تهدف الى رفع مستوى العمال والفلاحين اقتصاديا واجتماعيا كما انها تهدف الى خلق انسان عربى جديد ذى شخصية جديدة متحررة دينيا واجتماعيا من قيود الماضى ، وسياسيا وعسكريا من ضغط الدول الغربية ، وتجعل هذا الانسان العربى الجديد يشعر انه مرتبط برباط قوى مع اخوانه العرب فى سائر اقطارهم •

وهذا الاتجاه الذى تتجهه القومية العربية نحو الاشتراكية فى بعض البلدان العربية يلقى تعضيدا شديدا من قبل الشباب المثقف وفى السنوات الأخيرة كان اليسار عندما نقع أزمة وطنية يستغل هذا الاتجاه نحو الاشتراكية لصالحه ليقوى مركزه وليظهر بمظهر الحارس الأمين للقومية العربية وكنتيجة لهذا الوضع أصبح الشعور الوطنى أكثر تصلبا وتطرفا مما جعل الحكومات المتعاقبة عاجزة عن وضع مخطط لسياسة قومية اذا لم تكن « اشتراكيــــة الجماهير » الى جانبها • وعموما فان الاطوار التى مرت فيها القومية العربية متداخلة متشابكة فدعاة القومية العلمانية لا يزالون فئة صغيرة تنتمى الى طبقة معينة ولا يزال الدين عاملا فعالا قويا • ولا يزال الاسلام كرابطة تجمع العرب المسلمين ، أقوى من أى نظام سياسى تأخذ به الدول العربية والواقع أن القومية العربية فى الوقت الراهن لا يمكن تحديدها تحديدا واضحا اذ ليس هناك من تحديد واحد يمكن أن يشمل جميع النواحى المتباينة ، والمتناقضات البارزة ، التى تتميز بها هذه القومية ، فهى حركة سياسية وهى نوع من الأحياء الدينى ، وهى فى الوقت ذاته حركة علمانية وثيوقراطية ، وقــوة ايجابية هدفها وغايتها القصوى توحيد العرب ، وسلبية فى موقفها ضــد الغرب ولو كان هناك اجماع فى الرأى واتفاق فى وجهات النظر فى العالم العربى بصدد محتوى القومية العربية ومضمونهـــا لزال كثير من الغموض والابهام والفوضى الضاربة فى التفكير حول هذه القضية •

غير أن سياسة التحديث التى اتبعت فى تركيا منذ عهد أتاتورك لم تستطع من جهة أخرى أن تحل المشـكلات الأمنية لتركيا ، حيث أن معظم الازمات الاقتصادية فى تركيا فى الوقت الحاضر تعود أساسا الى السياسة الاقتصادية التى اتبعت فى تركيا منذ ارتباطها بالغرب وعلى الرغم من دور القطاع الخاص فى تركيا فى التنمية الاقتصادية ، الا اننا نجد أن هناك غيابا

للقطاع العام ، ولا سيما اذا عرفنا أن أتاتورك قد أكد على أهمية القطاع الأخير فى التحول الاجتماعى والصناعى عن طريق مفهوم « الدولانية » ، كل ذلك يفسر على انتشار البيروقراطية فى الجهاز الادارى التركى ٠

وبالاضافة الى ذلك أن الرأى العام التركى فى بداية الخمسينات كان يؤكد على تبنى الأفكار الغربية بعد انضمام تركيا الى حلف شمال الاطلسى ، نرى بأن هذا الرأى فقد أهميته فى الوقت الحاضر ، بامكاننا ان نقول ان ذلك يعود الى الازمات بين تركيا وحلف شمال الاطلسى ، حيث لم يستطع الأخير أن يحقق مآرب تركيا فى السياســـة الخارجية نتيجة لظهور مفهوم الوفاق الدولى فى العلاقات الدولية ، والموقف السلبى لبعض الأعضاء من تركيا أزاء القضية القبرصية وأزمة بحر ايجة ٠ وقد أخذ الغرب يولى الاهتمام الكبير بمستقبل تركيا فى حلف شمال الاطلسى بعد التطورات التى حصلت فى ايران ، اذ أخذ يرسم توازنا بين تركيا وجارتها ايران ويسود هناك اعتقاد من آن تركيا سوف تسقط كما سقطت ايران ٠

ويزداد اهتمام الغرب بتركيا بازدياد نشاط الجماعات الاسلامية فيها ، اذ يخشى الغرب من عودة الاسلام الى تركيا بعد أحداث ايران والتطــورات السياسية فى أفغانستان وبعد حوالى ٦٠ سنة استطاع اتاتورك خلال هذه الفترة ترسيخ معالم الفكر العلمانى وطرد السلطان من استانبول ٠ وعلى الرغم من تبنى العلمانية فى تركيا منذ الغاء الخلافة العثمانية استطاع حزب الانقاذ الوطنى والذى هو حزب اسلامى أن يغزو الريف التركى ، ويستقطب فى عضويته مجموعة كبيرة من الشباب فى أوساط الجامعات التركيـــة والمؤسسات الأخرى ، ويسود تركيا فى الوقت الحاضر تيار اسلامى قوى رغم الغاء جميع الأحزاب السياسية وسيطرة الحكم العسكرى وشدة قبضته على المجتمع التركى المعاصر ، ويرتبط ذلك بمشروع الدستور الجديد وهو فى طريقه الآن الى التنفيذ ، ويتسم هذا الدستور بتشدده ، ولعل سبب ذلك الخوف من عودة الارهاب والفوضى التى عمت البلاد قبل الانقلاب العسكرى فى سبتمبر عام ١٩٨٠ وكاد أن يؤدى الى حرب أهلية ، وبالموافقة على الدستور الجديد ، فان طبيعة مركز رئيس الجمهورية سوف تتغير ، فبعد أن كان مركزا صوريا فان الدستور الجديد يخول رئيس الجمهورية صلاحيات واسعة حيث بامكانه ان يحل البرلمان بقرار ، ويعلن الانتخابات العامة ، وله الحق فى اصدار القرارات الملزمة دون أن يكون مضطرا للاجابة عن سبب اصدارها ، وتأسيسا على ذلك يمكن القول ان مجلس الوزراء والبرلمان سوف يكونان رهن اشارة الرئيس المنتخب ، ومن أهم ملامح الدستور التركى الجديد حظر تشكيـل الاحزاب الشيوعية والفاشية أو تلك التى تؤيد الفكر الاسلامى وهو ما يثير ردود فعل واسعة ومعارضة لدى قطاعات عريضة من الرأى العام التركى ٠

القسم الثانى

فى المشكلات السياسية للعالم الإسلامى الحديث والمعاصر

الباب الثالث

في آسيا

الفصل الخامس

مشكلة أفغانستان ـ دراسة وثائقية

أفغانستان : بعض الملاحظات الجيوبوليتكية :

أفغانستان دولة داخلية وليست لها منافذ أو حدود بحرية ، يحدها الاتحاد السوفيتى من الشمال ، والصين فى قطاع محدود من الشرق بينما تشترك معها باكستان فى حدود طويلة من الشرق والجنوب ، وتعتبر ايران الجار الغربى لأفغانستان · وتشكل الطبيعة الجبليـــة الوعرة والصحراوية حوالى ٨٠٪ من مساحة أفغانستان ، أما تعداد السكان فيصل الى حوالى ١٩ مليون نسمة ينتمون الى قبائل متعددة ولغاتهم متعددة ويعانون من التخلف الشديد فى المجالات الاقتصادية والثقافية وتعتبر أفغانستان واحدة من أفقر خمس دول فى العالم حيث لا يتعدى دخل الفرد فيها ١٦٠ دولار سنويا ، وقد كان لكبر نسبة الأمية فيها (٩٠٪) أثره هو الآخر عـــلى التخلف السياسى الشديد للسكان ، ومعنى هذا أن المسلمين فى أفغانستان بالاضافة الى مسلمى ايران وباكستان ـ وبالرغم من اختلاف مذاهبهم ـ فانهم يشكلون جميعا أكبر تجمع اسلامى غير عربى فى قارة آسيا ·

وهذا التجمع السكانى الاســـلامى قد عكس تأثيره على عـــديد من الملاحظات ، فعلماء الدين الاسلامى يقاومون الاتجاهات الماركسية ويعتبرونها خروجا على الدين الاســلامى وتعاليمه ، بينمـا نجد أن تصـــاعد الأجنحة المـاركسية ـ نظرا للفقر الشديد هناك ـ قد أدى الى انعاش المعارضـــــة الاسلامية وظهور اتجاهات ثورية يتسع نشاطها وتهدف الى اسـقاط النظام المـاركسى واستبداله بنظام حكم يعيد الى أفغانستان شخصيتها الاسـلامية ويحررها من السيطرة السوفيتية ، ولـــكن العقبات التى تحول دون ذلك هو ما تعانيه الجماعات الثورية الأفغانية فى التسليح والتنظيم وقلة الامدادات وهو مايجعلها لا تتمكن من الاحتفاظ بالسيطرة على المناطق الهامة والاستراتيجية الا لبعض الوقت · وبالاضافة الى ذلك فان تعدد فصائل المقاومة وعدم وجود

تنسيق كبير بينها وافتقارها الى القيادة الموحدة القوية - كل هذه العوامل قد أضعفت فاعلية الثوار الأفغان خاصة وأن الطبيعة الجغرافية لأفغانستان تجعلهم يقللون من عملياتهم ٠

ومن الطبيعى أن تتأثر الأوضاع فى أفغانستان بالظروف الاقليمية المحيطة بها ، حيث حاجتها الى أن تكون على علاقة طيبة مع جيرانها وخاصة ايران وباكستان اللتين تتمكن من خلالهما الوصول الى بحر العرب والمحيط الهندى ، كذلك فان نجاح الثورة الايرانية قد أعطى دفعة للثوار المسلمين فى أفغانستان وزاد من أملهم فى أن يحققوا أهدافهم لا سيما أن الثورة الايرانية لم تتردد فى تقديم العون لهم ، ومن ناحية ثانية فان رغبة نظام الحكم السائد فى باكستان فى احلال الدولة الاسلامية محل الدولة العلمانية القائمة - هذه التوصيات جعلت أفغانستان محاطة من الشرق والجنوب والغرب بحكومات وشعوب اسلامية متحمسة تمل تأييدا للثوار الأفغان بشكل أو بآخر ، يرتبط ذلك أيضا وعلى الصعيد الجيوبولتيكى الاقليمى بتزايد الاتجاه الحيادى فى السياسة الخارجية من قبل كل من باكستان وايران ٠ وكانت الحكومات الأفغانية قبل عقد مضى تحاول ابعاد البلاد عن دوائر الصراع الحاد بين القوى الكبرى خاصة وأن التجاور الجغرافى بين أفغانستان والاتحاد السوفيتى - حدود تصل الى حوالى ٤٠٠ ميل - قد لعب دوره فى زيادة توثق العلاقات الأفغانية السوفيتية ، فالقبائل على جانبى الحدود واحدة وكثيرا ما تعبر الحدود من جانب لآخر ، كما يمد الاتحاد السوفيتى أفغانستان بالبترول ويقوم بتمويل بعض المشروعات الهامة ، وقد توثقت العلاقات السوفيتية الأفغانية أكثر وأكثر منذ تبنى دالاس وزير الخارجية الامريكى الأسبق نظرية دول الاطار الشمالى التى ظهر على أساسها حلف بغداد - السنتو فيما بعد - وبانضمام باكستان وايران وتركيا اليه ومنذ منتصف الستينات حاولت أفغانستان الاتجاه أكثر الى الغرب طمعا فى المساعدات الاقتصادية ، وقد أدى انهيار الحلف المركزى - السنتو - وتفكك دول الاطار الشمالى بانسحاب ايران وباكستان وتركيا فى النصف الأول من شهر مارس ١٩٧٩ ، وقد أدى هذا الى حدوث تغير جوهرى على الأوضاع فى وسط آسيا وغربها نظرا لفقدان الغرب لقواعد هامة ٠ وفى نفس الوقت كان ذلك فى صالح الاتحاد السوفيتى الذى زاد نفوذه وخاصة فى أفغانستان بعد انقلاب تراقى عام ١٩٧٨ ، ثم تأكد هذا النفوذ بتوقيع معاهدة تعاون وصداقة

وحسن جوار مع موسكو فى ديسمبر ١٩٧٨(١) • وكان طبيعيا أن تحاول الولايات المتحدة مواجهة هذا الاحتلال - من وجهة نظرها - ولذلك راحت تحاول تدعيم وجودها فى المحيط الهندى وأعلنت عن عزمها على انشاء أسطول جديد فى بحر العرب ، وبدأ الحديث عن الحاجة الى حماية طرق نقل البترول فى الخليج العربى • والى جانب ذلك فقد زاد اهتمام الولايات المتحدة بالوضع فى أفغانستان فى محاولة لتحجيم الدور السوفيتى فيها ، حيث دعا بريجنسكى مستشار الرئيس الامريكى السابق كارتر للأمن القومى - دعا الاتحاد السوفيتى فى أول أغسطس ١٩٧٩ الى عدم التدخل فى الشئون الداخلية فى أفغانستان ، وقال بريجنسكى : « ان الولايات المتحدة اعتمدت موقفا حذرا من الثورات فى الخارج ، ونحن نأمل أن يمتنع الآخرون عن التدخل ، ومحاولة فرض عقائد أجنبية على شعوب عميقة التدين والوطنية »• ثم صرح هودنج كارتر المتحدث باسم الخارجية الامريكية بعد ذلك بيومين : « بأن واشنطن تعتبر أى تدخل فى شئون أفغانستان الداخلية ، قضية خطيرة » •

وعلى الصعيد الاقليمى حاولت حكومة أفغانستان وقتئذ أن تخفف من حدة التوتر فى العلاقات مع كل من باكستان وايران ، ومن واقع تتبع تطورات الموقف الباكستانى من أحداث أفغانستان فى هذه الفترة والفترة اللاحقة ، فقد اتضح التعاطف الباكستانى مع الثوار الأفغان من خلال ايوائهم وتدريبهم • أما على الصعيد الأفغانى الايرانى • فهناك حقيقة أن

---

(١) راجع نص الوثيقه الأولى فى نهاية الدراسة وهى مكونه من ١٥ ماده وقد تم تجميع سبع وثائق تتناول ردود فعل الرأى العام العالمى على أحداث مشكله أفغانستان بدءا بالجمعية العامة للأمم المتحدة ولجانها ومرورا بأوروبا الغربيه والدول الاسلامية وانتهاء بدول جنوب شرق اسيا •

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على المصادر الغربية وأهمها الدوريات الأمريكية والأوروبية التى تناولت أحداث أفغانستان نظرا لأن المصادر السوفيتية تعبر فقط عن وجهة النظر الرسمية ومن أمثلتها ما تنشره وكالتى تاس ونوفوستى للأنباء أو الصحف الرسمية السوفيتية ومن المعروف أن للسوفييت سياسة أخرى غير معلنة • راجع .

GRBIS : Spring 1930 Foreign Affairs-Spring 1980 Vol. 58. No. 4.
The Journal of Palitics, Volume 42, November 1, February, 1980.

- وكالة الاتصال الدولى للولايات المتحدة الأمريكية ، المغزى العالمى لاحتلال الاتحاد السوفييتى لأفغانستان - بدون مكان وتاريخ اصدار •

- السياسة الدولية - القاهرة - العدد ٦٠ ابريل ١٩٨٠ •

البلدين هما جزءان من تكامل اقليمي واحد يضمهما فى منطقة جنوب غربى آسيا ، فضلا عن أن اهتمام الاتحاد السوفيتى قد تصاعد أكثر بعد الثورة الايرانية وهو ما انعكس فيما بعد على نفجر الوضع فى أفغانستان ففى ديسمبر ١٩٧٩ حيث غزت القوات السوفيتية المسلحة أفغانستان وقادت انقلابا ضد الحكومة وقد قتل الرئيس الأفغانى فى هجوم قامت به القوات السوفييتية على قصره ، وهكذا بدأ جهد لكبت حرية أفغانستان وفرض سيطرة سوفيينية على الدولة التى كانت مستقلة ومن مجموعة دول عدم الانحياز .

لقد عمل العالم ولمدة ثلاثة عقود على ازالة النظام الاستبدادى القديم وايجاد نظام عالمى أكثر انصافا . وتجرى الآن صياغة تاريخية للعلاقات الدولية والاحتلال السوفييتى لأفغانسنان ينتهك اعادة السياغة تلك فضلا عن انتهاكه حقوق الانسان للشعب الأفغانى .

هل يمكن أن يصرف النظر عن غزو أفغانستان واحتلالها من قبل الاتحاد السوفيتى على أنها نصرف غير سوى ، أم أنهما مجرد حدث آخر من أحداث النزاع بين الشرق والغرب ؟ هل للمجتمع الدولى مصلحة فى استعادة استقلال أفغانستان وعدم انحيازها ؟ .

ان مصالح الدول الأخرى لن تخدم اذا انتقل الاحتلال السوفييتى لافغانستان الى دائرة « التنافس بين الشرق والغرب » أو « سياسات الحرب الباردة » . والتفحص الدقيق للمتشكلة يوحى بأن المجتمع الدولى بأكمله لديه حاجة ماسة لاسنعادة اسنقلال أفغانسنان وعدم انحيازها . وهناك عدة أسئلة يتوجب على المجتمع الدولى أن يواجهها :

- كيف سيؤثر الغزو والاحتلال على الاستقرار فى آسيا الوسطى ؟ كيف تستطيع دول فى أواسط وجنوب آسيا أن نحول دون تحول تلك المنطقة الى منطقة تنافس خارجى ؟ .

- ما هى الأخطار التى يتعرض لها استقرار الامدادات النفطية من منطقة الخليج ؟ .

- هل سيؤدى هذا الغزو لمجتمع اسلامى من قبل قوات معادية للدين جهارا الى تفتت الاسلام فى أفغانستان وأماكن أخرى ؟ .

- كيف يستطيع المجتمع الدولى أن يعزز احتمالات الوفاق الطويلة

الأمد التى أضر بهـــا الغزو السوفييتى العســـكرى لافغانستان والحشـــد السوفييتى العسكرى المستمر ؟ ٠

- كيف تستطيع دول لدبها معاهدات صداقة وعلاقات مساعدة مـــع الاتحاد السوفييتى أن تحافظ على استقلالها الذاتى ؟ هل ستطيع دولة غير منحازة أن تعتبر الاتحاد السوفييتى بصورة واقعية أنه « حليف طبيعى » ؟٠

- كيف يستطيع المجتمع الدولى أن يضمن الاســتقلال الوطنى وحقوق الانسان ؟ ٠ **هذه بعض التساؤلات التى تجيب عليها هذه الدراسة :**

١ - لمحة تاريخية : العلاقات بين أفغانستان والاتحاد السوفييتى :

العلاقات السوفييتية - الأفغانية قبل الحرب العالمية الثانية :

فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت أفغانستان واقعة بين الاحتواء البريطانى والامبراطورية القيصرية المتوسعة ٠ وفى اتفاق لا ريندون - فورتشيكوف لعام ١٩٧٣ رضيت روسيا القيصرية بأفغانستان على أنها واقعة خارج دائرة نفوذها ٠ وبعد عدة نزاعات خططت أفغانستان وروسيا حدودهما خلال ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ٠

وخلال معظم السنوات الأولى من القرن العشرين كانت العـــلاقات بين الاتحاد السوفييتى وأفغانستان وديه ولكن غير وثيقة ٠ وقد سويت مشاكل الحدود بالمنطقة باتفاقية عام ١٩٢٦ ٠ ووقفت أفغانســـتان الحريصـــة على استقلالها موقفا حذرا فى الشئون الخارجية ٠

العلاقات السوفييتية - الأفغانية بعد الحرب العالمية الثانية :

بعد الحرب العالمية الثانية وخصوصا بعد تقسيم الهند ، لجأت حكومة افغانستان الى الاتحاد السوفييتى لمساعدتها فى المجال العسكرى وفى التنمية الاقتصادية ٠ وكانت حكومة أفغانستان قد عجزت عن الحصول على مساعدة عسكرية غربية واسعة النطاق ٠ فقد خشيت بنوع خاص الولايات المتحـدة أن تستخدم مثل هذه المساعدة لملاحقـة مطالب افغانستان فى بوشتانستان وهى منطقة فى باكستان تطالب بها افغانستان منذ زمن بعيد ٠

وفى يوليو ١٩٥٠ وقعت أفغانستان والاتحـــاد السوفييتى اتفـــاقية تجارية ٠ ومع الوقت أصبحت أفغانستان أكثر اعتمادا على الاتحاد السوفييتى للحصول على سلع كثيرة كانت تبتاعها سابقا من مصادر أخرى ٠ وبصـــورة تاريخية تولى السوفييتى مسئولية التنقيب عن النفط فى شمال أفغانستان٠

وفى عام ١٩٥٦ وقع الأفغانيون والسوفييت اتفاقا شترى بموجبه أفغانستان ما قيمته ٢٥ مليون دولار من المعدات العسكرية من الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية . ثم ساعد السوفييت الأفغانيين على بناء وتوسيع منشآتهم العسكرية وتدريب أفراد القوات الأفغانية المسلحة .

وبحلول عام ١٩٧٨ كان مجموع المساعدات والقروض السوفييتية لأفغانستان قد بلغ حوالى ١٣٠٠ مليون دولار . وعن طريق هذه الجهود الانمائية أصبح للاتحاد السوفييتى اتصال أوثق بموارد أفغانستان الطبيعية . وقد وجه ضغطا شديدا الى الحكومة الأفغانية على أعلى مستوياتها كى تمنح الاتحاد السوفيتى حقوقا كلية لتطوير الموارد المعدنية والهيدروكروبونية رغم جهود بذلتها دول أخرى بما فى ذلك تقديم اعطاءات أفضل .

وساعدت دول عديدة أخرى الأفغانيين فى التنمية واحترمت وضع أفغانستان كدولة غير منحازة وحتى بعد سقوط الملكية فى يوليو ١٩٧٣ ، بقيت المساعدات تتدفق على أفغانستان من الشرق والغرب معا . ورغم علاقة افغانستان الوثيقة مع الاتحاد السوفييتى فقد بقيت غير منحازة وحافظت على ثقافتها الاسلامية التقليدية .

التدخل السوفييتى فى أفغانستان منذ انقلاب عام ١٩٧٨ :

ازداد التدخل السوفييتى فى شئون أفغانستان الداخلية بعد انقلاب وقع ضد حكومة محمد داود فى ٢٧ ابريل ١٩٧٨ . وقد قامت بالانقلاب جماعتان سياسيتان ماركسيتان هما جماعة « خلق » أو الجماهير بقيادة نور محمد تاراكى وحفيظ الله أمين ، وجماعة « بآرتشام » أو الراية بقيادة بايراك كارمال . وليست هناك أدلة واضحة على أن الاتحاد السوفييتى دبر الانقلاب الا أنه ربما كان قد تلقى اشعارا مسبقا له .

ورغم أن أفغانستان فى عهد حكومة داود كانت دولة اسلامية وغير منحازة ، الا أن النظامين اللذين أعقباها اتبعا سياسات دولية يتعذر تمييزها عن سياسات الاتحاد السوفييتى ، ونظر اليها الشعب الأفغانى فى صورة متنامية على أنهما معاديان للاسلام وخاضعان للسيطرة السوفييتية . واذ أخذ النظامان الماركسيان غير الشعبيين وغير الكفؤين ينفران الشعب الأفغانى منهما ، وزاد السوفييت من وجودهم العسكرى ونفوذهم فى الحكومة .

ولجأت حكومة تاراكى الى الاتحاد السوفييتى طلبا للمساعدة بعد استيلائها على الحكم بوقت قصير • وبحلول شهر يوليو ١٩٧٨ وقع النظام الجديد حوالى ٦٠ عقدا مع الاتحاد السوفييتى بلغت قيمتها ٢٠٠ مليون دولار وسمح النظام بانتهاء أجل العقود الموقعة مع الحكومات والوكالات غير الشرعية •

وفى يوليو ١٩٧٨ ، وقعت الدولتان اتفاقية مساعدة عسكرية قيمتها ٢٥٠ مليون دولار • وبين ابريل ، أغسطس ١٩٧٨ تضاعف عدد المستشارين العسكريين السوفييت فى أفغانستان ، من ٣٥٠ الى ٧٠٠ • وساعد هؤلاء المستشارون الجدد على ادارة وزارة الدفاع وتدريب مجندى الجيش •

وخلال عام ١٩٧٨ أيضا ، وقع نظام تاراكى اتفاقيات متعددة مع دول أوروبا الشرقية ، وعددا ضئيلا من الاتفاقيات مع الحكومات الغربية مشيرا بذلك الى عزمه على الاتجاه نحو علاقة أوثق مع الاتحاد السوفييتى •

وانهار ائتلاف جماعتى خلق وبارتشام بعد تسلمهما الحكم بوقت قصير • ونفى الخلقيون الشخصيات البارتشامية البارزة ومن ضمنها كارمال بتعيينها فى مناصب دبلوماسية ثم طرد الخلقيون جميع البارتشاميين تقريبا من المناصب الحكومية •

وفى أواخر عام ١٩٧٨ أخذت تظهر معارضة عنيفة لحكومة « خلق » • وبطلب من الحكومة كان أكثر من ألف مستشار سوفييتى قد وصل الى كابول بحلول ديسمبر • وقرر نظام « خلق » الانحياز الى السوفييت بصورة أوثق من ذى قبل • وفى ديسمبر وقع معاهدة صداقة جديدة فى موسكو •

وكانت مقاطعة نورستان من أوائل المناطق التى ثارت فى صيف ١٩٧٨ ، واستمرت المقاومة فى الانتشار فى الشهور التالية : وفى مارس ١٩٧٩ نشبت ثورة عسكرية ومدنية فى مدينة حيرات • وفى ابريل قدم السوفييت للأفغانيين ١٨ من طائرات الهليكوبتر الهجومية الجديد الم• أى- ٢٤ وقد قادها فيما بعد كما ذكر طيارون سوفييت فى عمليات جوية ضد معارضى نظام تاراكى •

وأحبط معارضو الحكومة محاولة حكومة تاراكى القيام باصلاحات فى الأراضى واصلاحات اجتماعية فى الريف وركز النظام الجديد سريعا نشاطه على محاربة معارضيه •

وأدت حركة عصيان عسكرية جرت فى كابول فى الخامس من أغسطس ضد حكومة ناراكى الى حدوث زيادة فى التدخل السوفييتى والزيارة التى قام بها فى منتصف أغسطس الى منتصف أكتوبر وفد سوفييتى عسكرى بقيادة قائد القوات البرية السوفييتية الجنرال بافولوفسكى . وبحلول نهاية سبتمبر كان أكثر من ٣٠٠ عسكرى سوفييتى قد وصلوا الى أفغانستان كمستشارين وكجنود مقاتلين .

وكلما ازداد تاراكى الماركسى ضعفا كلما لجأ الى الاعتقالات لسحق حركة العصيان الوطنية التى قام بها مجتمع مسلم بصورة تقليدية . وقد أعلنت مؤسسة العفو الدولية فى سبتمبر عام ١٩٧٩ ان حكومة تاراكى زجت بأكثر من ٤٠٠٠ شخص فى السجون خلال الشهور الستة الأولى من تسلمها الحكم . وقدر مراقبون دوليون آخرون موثوقون أن هناك أكثر من ١٢٠٠٠ سجين فى سجون بول أى تشاركى فى كابول .

وفى سبتمبر ، زار أنور محمد تاراكى موسكو بعد مؤتمر دول عدم الانحياز الذى عقد فى هافانا وأشاد فيه بالاتحاد السوفييتى ومساعدته لبلاده . وقيل ان تاراكى بحث مع الزعماء السوفييت استبدال رئيس الوزراء أمين . ولكن بين ١٣ و ١٤ سبتمبر قاد أمين حركة ضد تاراكى الذى قتل أثناء تبادل اطلاق النار فى قصر الشعب . وأعلنت « استقالة » تاراكى وتعيين أمين رئيسا فى ١٦ سبتمبر . ولم تعلن وفاة تاراكى قبل ٩ أكتوبر ١٩٧٩ .

ويبدو أن استيلاء أمين على الحكومة الأفغانية أخذ الاتحاد السوفييتى على حين غرة ، وبعث السوفييت برسالة تهنئة فاترة ولكنهم بعد ذلك ساعدوا القوات الأفغانية الموالية لأمين على قمع تمرد حصل فى كابول فى ١٥ أكتوبر .

وزود السوفييت الجيش الأفغانى بالمواد والتموينات اللازمة للقيام بحملة كبيرة ضد الثوار فى مقاطعة باكتيا . ولكن حالما انسحب المستشارون السوفييت والجنود الأفغانيون من المقاطعة ، احتلها الثوار مجددا .

وفى ديسمبر ١٩٧٩ اكتسبت قوات الثوار المسلمين الوطنيين فى العاصمة وحولها ، زخما جديدا وبدأت حملة اغتيالات ضد النظام وضد

السوفييت . واستمر وضع الحكومة العسكرى فى التدهور وأحضر السوفييت كتيبة مورعة لحماية قاعدة باغرام الجوية .

وبين ١١ و ١٥ ديسبمر ، بدأ السوفييت فى حشد جنود من المشاة وجنود المظليين فى المناقق السوفيتية القريبة من الحدود الأفغانية .

وعندما سئل السوفييت لم يعطوا دلائل على عزمهم غزو أفغانستان وفى ٢٤ ديسمبر بدأوا عملية نقل جوى ضخمة الى البلاد .

وفى ٢٧ ديسبمر قاد الجنود المظليون السوفييت هجوما على قصر دار الأمان ومحطة اذاعة كابول . وقد قتل أمين وجرد الجنود والمستشارون السوفييت بعض وحدات الجيش الأفغانى من السلاح . وأعلنت محطة اذاعة سوفيتية من تبرميز فى الاتحاد السوفييتى ادعت أنها « راديو كابول » ، أن انقلابا قد أطاح بأمين .

الاحتلال السوفييتى :

حاول السوفييت تبرير غزوهم بادعائهم أن الحكومة الأفغانية طلبت مساعدتهم ، غير أن هذا القول لم يساعد كثيرا على توضيح سبب اقالة مضيفهم حفيظ الله أمين من منصبه واعدامه فى ديسمبر .

وقد بعث ليونيد بريجنيف برسالة تهنئة الى بايراك كارمال على « انتخابه » رئيسا جديدا لأفغانستان . ولم يذكر الروس أنهم نقلوه جوا الى أفغانستان من منفاه فى أوروبا الشرقية بعد الانقلاب الذى أطاح بأمين ووضعوه فى الحكم وقدموا له حكومة من اختيارهم .

وبحلول يناير ١٩٨٠ ، كان أكثر من ٤٠٫٠٠٠ جندى سوفييتى مقاتل قد وصلوا الى أفغانستان . وفى ٢ يناير أمر السوفييت ، حرصا منهم كما يبدو على حياة جنودهم ، حكومة كارمال بتجريد وحدات الجيش الأفغانى الموجودة فى كابول من السلاح . ثم تولى السوفييت عمليات الدوريات فى الشوارع . وسرعان ما أصبحت دورياتهم هدفا لهجمات القناصة . .

وفى ٣ يناير وقعت اضطرابات مدنية كبيرة فى مدينة حيرات وحصلت عمليات فرار من صفوف الجيش الأفغانى على نطاق واسع فى كاندارها . ودخل المستشارون السوفييت ووحدات الجيش الأفغانى كانداهار لاستعادة السيطرة .

وفى حين سعى نظام بايراك الى التنصـــل من تجاوزات حـكومة أمين فان ذلك النظام قام هو نفسه بتجاوزات • وقد اشتدت المعارضة المسلحة وشنت عمليات عسـكرية سوفيتية / أفغانية مشتركة ضـد قوات المقاومة الأفطانية • وعملت برودة الطقس ووعورة الأرض على ابطاء العمليات فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ولكن دون أن توقفها •

ومن ٢١ الى ٢٥ فبراير قام اضراب عام العاصـمة كابول • وفى ٢٦ فبراير فر عبد الرحيم غفورزاى الذى أوفده النظام الأفغانى الى الأمم المتحدة للدفاع عن التصرفات السوفيتية •

وقد قال :

« •• لقد أعربت أغلبية سـاحقة من الشعب الأفغانى عن سـخطها وأعربت عن احتجاجها على مثل هذا الوضـع الذى جرى فيه غزو واحتلال أرض أفغانستان التى يبلغ عدد سكانها ١٧ مليونا من قبل القوات السوفيتية بحجة دعوة مزعومة أرسلت من الجانب الأفغانى للعون والمساعدة •

وأضاف السيد غفرزاى قائلا : « ان حياة شخص معين أو أسرة معينة أو حتى حياة جيل ليست مهمة عندما تكون حياة أمة فى خطر » •

تأثير ونتائج الاحتلال السوفييتى :

لمدة ألفى سنة حارب شعب أفغانستان الغزاة ولكن اليوم هناك ١٧ مليون أفغانى مهددون من قبل جيش أجنبى مسلح بأسلحة عصرية • ويقوم أكثر من ٨٥٫٠٠٠ جندى سـوفييتى باحتلال أفغانسـتان بينما يتمركز ٣٠٫٠٠٠ جندى آخر فى معسكرات سوفييتية قرب الحدود • ويقول المراقبون أن من الممكن أن يحتاج السوفييت الى عدد آخر من الجنود لمواصلة احتلالهم لافغانستان •

وفى وجه الأسـلحة الخفيفة والبنادق والرشاشات وبعض الأسـلحة المضادة للدبابات • وقد جلب جزءا كبيرا منها جنود أفغانيون فروا من صفوف الجيش تقف دبابات عصرية من طراز تى ـ ٥٤ وتى ـ ٦٢ وطائرات نفاثة وصواريخ أرض ـ جو وطائرات هليكوبتر حربية طراز ا • أى ـ ٢٤ مزودة بصواريخ أرض ـ جو ومدافع رشاشة تطلق ٦٠٠٠ رصاصة فى الدقيقة •

وخلال الفترة الماضية انتشر السوفييت فى الوديان الرئيسية فى مناطق

الريف الجبلية الوعرة فى محـاولة للسـيطرة على المدن الرئيســية وخطوط المواصلات والمناطق الاستراتيجيه • ويتمركز عشرون ألف جندى سوفييتى فى كابول أو حولها • وكلما قامت احتجاجات أمثال الاضراب العام الذى جرى فى أواخر فبراير وأقفلت أثناءه جميع حوانيت كابول ، حل الجنود السوفييت محل قوات الشرطة والامن الأفغـانية فى الدوريات المحلية • وفى الحالات الأخرى يحاول السوفييت الحد من ظهور جنودهم علنا فى المدينة •

وتركز الاســتراتيجية الســـوفيتية أيضـا على الوديان الواقعة على امتداد الحدود مع باكستان ووفق ما جاء فى أحد التقارير فان « هدف موسكو هو اقفال الحدود عن طريق ايجاد منطقة عازلة عرضها ٢٥ كيلو مترا لا يسمح بأن يعيش فيها شىء كما استنتج عقيد فى الجيش الباكستانى فى بيشاور » •

ويقدر بأن هناك ما يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ مدنى ســـــوفييتى يعملون على شـكل « مستشـارين » فى الحكومة الأفغانية وهم اسـما تحت اشراف الموظفين المدنيين الأفغان ولكنهم فى الواقع يرسمون الســـياسة ويتخذون قرارات تنفيذية •

لقد تعرض شعب أفغانســتان للهلاك والتعذيب والاصـابات والاذلال وفقدان أحيائه وتدمير منازله ومجتمعاته وأرضـــه • ولســـوء الحظ فان الاحصاءات والأمثلة الضئيلة لا تستطيع أن تنقل صورة حقيقية عن محنة الشعب • وليس هناك من ريبورتاج اعلامى ينقل بصـورة يومية العذاب الانسانى الى بيوتنا وضمائرنا • وذلك على حد قول مسئول أفغانى مؤخرا •

ــ اعتبارا من أوائل عام ١٩٨٠ كان أكثر من٧٠٠ر٠٠٠لاجىء أفغانى قد اجتازوا الحدود الى باكستان وايران ويستمر تدفقهم بمعدل عدة آلاف كل أسبوع •

ــ يقدر بأن ٣٠ر٠٠٠ ثائر أفغانى قد لاقوا حتفهم على أيدى القوات السوفيتية •

ــ محت القوات والطائرات والمدفعية وطائرات الهليكوبتر السوفيتية عشرات القرى •

ــ فى وادى كونار قرب باكســـتان كان الدمـار الذى تسبب فيه السوفييت جسيما بنوع خاص وتؤكد تقارير عديدة استخدام الروس للمواد

الكيماوية التى تشل الحركة • وقد توصل مراسل صحيفة واشنطن ستار الى نتيجة أن :

« أكثر غاز يخشاه المجاهدون هو مادة شبيهة بالنابالم مصنوعة على شكل كرات صغيرة وهذه الكرات الصغيرة عندما تطلق من صواريخ تحملها طائرات الهليكوبتر تلتصق بالحيوانات وبلحى الفلاحى وبالمناديل التى تحتمى بها الفلاحات • ويلتقطها الأطفال ببراءة فتلتصق بأصابعهم وتتعذر ازالتها • وخلال دقائق تبدأ عملية التأكسد وتنفجر الكرات التى تبدو بريئة وتشتعل نارا » •

ـ وقع هجوم فظيع فى مدينة كيرالا على مسافة غير بعيدة عن ممر خيبر فى أبريل ١٩٧٩ • وبعد ذلك بشهور استطاع صحفيون من وكالة الأنباء الفرنسية وصحيفة كريتشن ساينس مونيتور الأمريكية جمع أجزاء الرواية من اللاجئين • فتحت اشراف ضباط سوفييت اغتالت قوات الحكومة الأفغانية ١٫١٧٠ رجلا وفتى رفضوا اعلان تأييدهم للنظام الماركسى ورددوا عوضا عن ذلك هتافات اسلامية • ثم استخدم الجنود جرافة لدفن الجثث وكان البعض لا يزال حيا •

ـ أفاد أيضا تحقيق قام به الاتحاد الدولى لحقوق الانسان ومقره باريس فى ٢٢ أبريل ١٩٧٩ أن قوى الامن الأفغانية قامت فى حضور ١٢ مسئولا سوفيتيا باغراق ١٫٥٠٠ شاب من قبيلة هازارا فى مقاطعة سامان غان القريبة من الحدود السوفيتية بعد أن وضعتهم فى أقفاص خشبية •

ـ أشارت افادات اللاجئين الى استجوابات وحشية جرت فى سجن بول أى تشاركى بما فى ذلك التعذيب • وقد قذف بالسجناء داخل مجرور خارج البناء حيث ماتوا غرقا •

ـ روى أيضا السجناء الذين أفرج عنهم واللاجئون قصصا عن دفن أشخاص وهم أحياء قرب كابول وفى مقاطعتى باكتيا وناغاهار •

ورغم العوامل السلبية ضد قوات المقاومة الأفغانية فانها تستمر فى مقاتلة السوفييت وبقايا الجيش الأفغانى التى تستمر عناصره فى الفرار •

ويقدر المحللون بأن ٨٠٠٠ اصابة وقعت فى صفوف القوات السوفيتية

بحلول أوائل ربيع عام ١٩٨٠ وأن عدد الاصابات بينها يبلغ حوالى ٥٠٠ كل أسبوع ٠

ورغم الرقابة على الصحف أخذ الرأى العام السافييتى يفع تدريجا عدد الاصابات التى تقع بصورة مستمرة ٠ فالمسافرون الروس وغيرهم الذين يعودون الى موسكو من طشقند وفيرغانا فى أويكستان يحملون معهم روايات عن مستشفيات تضيق بالجنود والمدنيين الذين يندبون قتلاهم ٠

ويصب الصمت الرسمى ازاء القتال ، وقودا على الشائعات ٠ وكما أشار أحد الأنباء فان « السبب فى الجهل والضعف هو الصمت الذى تلتزمه الصحافة الرسمية ازاء الاصابات فى أفغانستان » ٠ وفى بلد يخفى عادة أنباء تحطم طائرات الركاب فان هذا قد لا يكون مدهشا ٠

وقد امتدت الرقابة السوفيتية على الأنباء الخاصة بأفغانستان الى كبت المنشقين ٠ وأبرز ما حدث فى هذا الصدد كان نفى العالم السوفييتى الفيزيائى الشهير أندريه ساخاروف وزوجته من موسكو الى مدينة غوركى داخل الاتحاد السوفييتى ٠ وتبع ذلك جهد منتظم لتجريده من القابه وامتيازاته وحقوقه ٠

رد الفعل العالمى على الاحتلال السوفييتى :

باستثناء عدد ضئيل من الدول المنحازه الى الاتحاد السوفيينى ، انتقد المجتمع الدولى بأكمله تقريبا النصرفات السوفيتية فى افغانستان ٠

وقد عكس سفير بنجلاديش خواجا محمد قيصر ، الرد العالمى بوضوح أثناء مناقشة مجلس الامن عندما قال :

« ان وجود قوات سوفيتية فى أفغانستان هو خرق فاضح لمبادىء أساسية كما أنه لا يتمشى مع مقاصد وغايات ميثاق الأمم المتحدة ٠

« وأن الأحداث الجارية فى ذلك البلد وتاثيراتها المباشرة والطويلة الأمد على العلاقات الدولية المعاصرة يجب أن تجعلنا نتوقف قليلا لنفكر مليا بمستقبل مؤسساتنا العالمية ٠ ان ما هو معرض للخطر هو نسيج المجتمع الدولى والسلام والقانون الدوليان ، اللذان بنيناهما بذلك الجهد المضنى » ٠

- بأكثرية ١٣ صوتا مقابل صوتين ، اعرب مجلس الأمن الدولى ، فى

تصويت جرى فى ٧ يناير ١٩٨٠ ، عن أسفه الشديد للتدخل السوفييتى المسلح فى أفغانستان (نقض الاتحاد السوفييتى ذلك التصويت) ٠

- بأكثرية ١٠٤ أصوات مقابل ١٨ صوتا ، نددت الجمعيه العمومية فى يناير ١٩٨٠ بالغزو والاحتلال المسلح السوفييتى ، ودعت الى انسحاب جميع القوات الخارجية ٠ وصوتت دول عدم الانحياز بـ ٥٦ صوتا مقابل ٩ أصوات مؤيدة قرار الأمم المتحدة ٠

- نددت لجنة حقوق الانسان الدولية فى جنيف فى ١٤ فبراير ١٩٨٠، بالتصرفات السوفيتية ٠

فى اجتماع عقد فى اسلام أباد خلال المدة من ٢٧ - ٢٨ يناير ، ندد المؤتمر الاسلامى الذى اشتركت فيه ٣٦ دولة اسلامية بـ « الاعتداء العسكرى السوفييتى على الشعب الأفغانى » ودعت الى الانسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات السوفيتية من أفغانستان .ومن القرن الأفريقى ٠ وبالاضافة الى ذلك ، دعا المؤتمر الى مؤازرة عالمية للاجئين الأفغان ، وحث الدول الاسلامية الأعضاء على تأييد الدول الاسلامية المجاورة لأفغانستان ٠ واقترحت المجموعة أن تعيد الدول الأعضاء النظر فى الاشتراك بدورة الألعاب الأولمبية فى موسكو اذا لم يسحب السوفييت قواتهم من أفغانستان ٠

- فى اجتماع عقده وزراء خارجية المجتمع الأوروبى فى ٢٠ فبراير فى روما ، دعا الوزراء الى انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان ٠ وأيد وزراء خارجية المجتمع الأوروبى اقتراح وزير الخارجية البريطانية كارينجتون بتحييد أفغانستان ٠

الغى المجتمع الأوروبى برنامجه الخاص بالمساعدة الغذائية لأفغانستان عام ١٩٧٩ وتعهد بتقديم مساعدة طارئة للاجئين الأفغان عن طريق لجنة حقوق الانسان الدولية ٠ وتبنى المجتمع المبدأ القائل أن تموينات المجتمع الأوروبى الزراعية يجب ألا تحل فى صورة مباشرة أو غير مباشرة محل تموينات الولايات المتحدة فى السوق السوفيتية ٠ وأوقف المجتمع الأوروبى أيضا اعانات كان يدفعها لبعض الصادرات الزراعية الى الاتحاد السوفييتى ٠

- فى بلاغ صدر فى مارس انتقد وزراء خارجية مجموعة دول شرق آسيا الغزو السوفييتى ٠ وكانت ماليزيا أول دولة آسيوية تعلن عزمها على مقاطعة الألعاب الأولمبية ٠

- اتخذت دول متعددة من العالم اجراءات اقتصادية ضد الاتحاد السوفييتى من جانب واحد .

- أعلنت المملكة المتحدة تخفيضا فى اعانات التصدير الى الاتحاد السوفييتى وأيدت الحكومه والبرلمان البريطانيان بقوة دعوة الولايات المتحدة لمقاطعة ألعاب موسكو الأولمبية .

- فرضت استراليا ونيوزيلندا عقوبات اقتصادية وخفضت اتصالاتها مع السوفييت وأيدت المقاطعة المقترحة للألعاب الأولمبية .

- نددت حكومة اليابان علنا بالغزو السوفييتى ، وهى تتعاون فى مقاطعة تصدير التكنولوجيا المتقدمة وتسليفات جديدة للتصدير . وعرضت اليابان أن ترفع مساعدتها الى باكستان ثلاثة أضعاف ، وألغت مساعدتها لأفغانستان، وأيدت الحكومة مقاطعة الألعاب الأولمبية .

- أعربت الهند عن قلقها من أن تؤدى الأزمة الأفغانية الى الاخلال باستقرار العلاقات الهندية - الباكستانية وتهديد الاستقرار فى منطقة الخليج ، وفى حين امتنع الزعماء الهنود عن التنديد علنا بالسوفييت الا أنهم حثوا على انسحابات عسكرية سوفيتية .

- باستثناء كوبا وجراندا ونيكارجوا ، نددت دول أمريكا اللاتينية جميعها بالأعمال السوفيتية .

- صوتت أربع وعشرون دولة أفريقية الى جانب قرار الجمعية العمومية، بينما امتنعت ثمانى دول عن التصويت أو لم تشترك به ، وصوتت ضد القرار ثلاث دول فقط (هى موزامبيق وأنجولا وأثيوبيا حيث توجد قوات عسكرية ومستشارون مدنيون سوفييت) . وتظهر بيانات علنية للزعماء أن معظم الدول الأفريقية يعتبر الاحتلال السوفييتى لأفغانستان على أنه عمل عدوانى .

- فى أوروبا الشرقية ، أعربت بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية عن تأييد قوى لموقف الاتحاد السوفييتى ، بينما انتقدت رومانيا ويوغوسلافيا وألبانيا التدخل السوفييتى أو نددت به . وأيدت المجر وبولندا السوفييت بتحفظ :

- رغم أن دول فيتنام ومونغوليا ولاوس ونظام هينج سامرين

فى فيـو مبينه أيدت السوفييت علنا . الا أن كوريا الشمالية أعربت عن قلقها بشأن الخطوات السوفيتية فى أفغانستان • ففى مؤتمر للبرلمانيين من ١٢ دولة شيوعية عقد فى أوائل فبراير ، رفض وفد كوريا الشمالية تاييد قرار يعرب عن التضامن مع نظام كارمال •

- نددت الصين تكرارا بالغزو السوفييتى ، وطالبت بانسحاب القوات السوفييتية • وصرح الزعماء الصينيون بأن جمهورية الصين الشعبية ستشارك فى مقاطعة دورة الالعاب بموسكو الأولمبية •

- ثبت أن الاحتلال السوفييتى لأفغانستان محرج بوجه خاص لكوبا حليفة الاتحاد السوفييتى ، وهى الآن رئيســة حركة عدم الانحياز • وقد انفلت كوبا التى اتخذت بادىء الأمر موقفا علنيا متضــاربا من الغزو ، الى الدفاع عن التصرفات السوفيتية بصورة أكثر تكرارا • وكانت كوبا تجادل فى السابق بقولها ان الاتحاد السوفييتى هو « الحليف الطبيعى » للعالم الثالث • على أن كوبا بدفاعها المستمر عن المواقف السوفيتية عرضت للخطر قيادتها لحركة عدم الانحياز •

وقد اتخذت الولايات المتحدة عدة خطوات :

بغية الاعراب بصورة شديدة عن مقت الولايات المتحدة للعذاب الذى سببته القوات الســوفيتية للشعب الأفغانى وللمساعدة على ردع أعمال مماثلة فى أماكن أخرى ، قامت الولايات المتحدة بـ :

- الحد من بيع الحبوب الى الاتحاد السوفييتى •

- اجراء تخفيض شديد فى نقل التكنولوجيا التى يحتاج اليها الاتحاد السوفييتى بشدة • ولكنه يستعملها أحيانا لغايات عسكرية •

- سحب الحقوق الممنوحة للسوفييت لصيد الأسماك فى مياه الولايات المتحدة القريبة من الشاطىء •

وأعلنت الولايات المتحدة أن العقوبات ستبقى سارية المفعول الى أن تنسحب القوات السوفيتية بأكملها من أفغانستان •

وأوضح الرئيس السابق كارتر بأن الولايات المتحدة ستؤيد جهودا يبذلها المجتمع الدولى لاستعادة حكومة أفغانية محايدة وغير منحازة تتجاوب

مع الشعب الأفغانى • وأعلنت الولايات المتحدة أنها ستكون مستعدة عند انسحاب السوفييت من أفغانستان للاشتراك مع جارات أفغانستان فى ضمان حياد أفغانستان الحقيقى وتعزيز عدم التدخل فى شئونها الداخلية •

كذلك حملت الأزمة الأفغانية الولايات المتحدة على زيادة وجودها العسكرى فى المنطقة وتعزيز جهودها للتعاون مع دول جنوب غرب آسيا وغهلجا على تقوية أمنها واستقرارها السياسى والاقتصادى •

المصالح الدولية فى استعادة استقلال أفغانستان :

ان استمرار الاحتلال السوفييتى لأفغانستان هو اعتمادا على مبادىء عدم التدخل وحرمة حقوق الانسان فالأمن الاقليمى والعائلى ومستقبل الوفاق وسلامة الدول الأقل قوة معرضة للخطر •

استقلال أفغانستان ومبدأ عدم التدخل :

فى تحد للقانون والرأى العام الدوليين ، تستمر القوات العسكرية السوفيتية فى جهودها لهدم حرية أفغانستان • ورغم البيانات السوفيتية والأفغانية بأن القوات السوفيتية ستبقى فى أفغانستان لمدة محدودة فقط فان جميع الدلائل تشير الى أنه سيكون هناك احتلال طويل • ان أفغانستان هى بلاد جميلة وعرة وشعبها يقف بعناد فى وجه الاخضاع وستؤدى جهود السوفييت لاسكات هذه المقاومة الى القضاء على كثير من السكان وتخريب كثير من المتلكات فقد أظهر الشعب الأفغانى تصميمه على مقاومة الاحتلال السوفييتى ولكن هل يستطيع المجتمع الدولى أن يشجع الشعب الأفغانى على مقاومة السيطرة السوفيتية دون أن يسعى هو نفسه وراء طرق لاستعادة استقلال أفغانستان ؟ لقد رفض المجتمع الدولى تصرف السوفييت ودعا الى انسحاب القوات السوفيتية • الا أن المجتمع الدولى يتحمل وفق ميثاق الأمم المتحدة ، مسئولية متابعة لومه السابق للغزو السوفييتى باجراءات قوية •

الأمن والاستقرار الاقليميين :

لقد زعزعت الأحداث فى أفغانستان الاستقرار الاقليمى ويمكن أن تشكل أخطارا أعظم لأمن الدول فى أواسط وجنوب آسيا والشرق الأوسط ؛ فمع ازدياد عدد اللاجئين يمكن أن يزداد الضغط الداخلى فى باكستان وايران ذلك أن جيران ايران يمكن أن يتأثروا بالتوترات • ورغم أن دوافع السوفييت

ليست واضحة الا أن تصرفاتهم فى أفغانستان يمكن أن تكون جزءا من جهد أكبر لزيادة النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط وأواسط آسيا وكما كتب أحد المحللين بقول :

« ان الاحتلال السوفييتى لأفغانستان •• زاد زيادة عظيمة من التأثير السوفييتى على الحكومة النورية فى ايران والحكومة الضعيفة نسبيا فى باكستان• وفى البلدين توجد أعداد كبيرة من السكان • الذين لديهم نفور من الحكومة المركزية ويمكن كسب تأييدهم لقضية الاستقلال • والى مسافة أبعد الى الشرق يمكن أن يجتذب التشجيع السوفييتى لـ « بوشتانستان مستقلة » البارثانيين الذين يعيشون فى المنطقة الباكستانية الواقعة جنوبى أفغانستان وهم من نفس الجماعة الاثنية التى تتكلم الباشتو وينتمى اليها كثير من الأفغان • ورغم أن الوقت لا يزال مبكرا جدا لتحليل النوايا السوفيتية تجاه ايران ودول الخليج الأخرى فان تقطيع أوصال ايران وباكستان كلتيهما ليس مستحيلا • ولا يستطيع المرء أن ينفى كذلك امكانية وصول روسيا الى شواطىء خليج عمان وبروزها كقوة ذات شأن فى المحيط الهندى » •

استقرار الامدادات النفطية :

أن دولا عديدة لديها مصلحة كبيرة فى اتخاذ خطوات وقائية ضد مثل هذا الاخلال بالاستقرار الاقليمى •

إن دولا صناعية ودولا نامية عديدة لديها مصلحة حيوية فى تدفق النفط بصورة ثابتة من منطقة الخليج ذلك أن ٦٧ بالمئة من امدادات أوروبا النفطية وحوالى ٧٥ بالمئة من امدادات اليابان تأتى من هذه المنطقة وللدول المنتجة للنفط فى المنطقة مصلحة حيوية مماثلة فى استمرار انتاج وتسويق نفطها حيث أنه المصدر الرئيسى للدخل الذى يدعم وينمى اقتصادها • ومع هذا فان تدفق النفط يمكن أن يتأثر بالضغوط أو السيطرة السوفيتية المتنامية فى المنطقة أو بعدم الاستقرار فيها •

ونظرا الى سرعة تأثر الامدادات النفطية واعتماد ذلك العدد الكبير من الدول على نفط الخليج فان الدول المستهلكة تكون غير حكيمة اذا هى انتظرت الى أن يصبح التهديد أكثر خطورة قبل أن تنمى بصورة فعالة الاستقرار والأمن الاقليميين •

المحـافظة على الوفاق :

وجميع الدول لديها مصلحة فى توفر علاقه مستقرة بين الدول العظمى أما المجابهة والحرب الباردة فليستا فى مصـلحة أحد . والرد الحازم على الاحتلال السوفييتى لأفغانستان ضرورى لرعاية ظروف ضبط النفس اللازمة لتقدم مقبل فى الوفاق . ان الدول الأخرى ليست متفرجة فقط ، والأسرة الدولية باتخاذها خطوات ملموسة لاستعادة استقلال أفغانستان ستساهم فى توفير الظروف اللازمة للوفاق . فحالما يتم انهاء الاحتلال السوفييتى وحالما سمح السياسات السوفيتية يصبح التحرك ممكنا من قبل الدول الكبرى نحو علاقة أكثر استقرارا قائمة على ضبط النفس والاعتبار لمصلحة بعضها البعض ولمصالح الدول الأخرى .

حماية الاستقلال الذاتى الوطنى :

ان سابقة أفغانستان يجب أن تكون عبرة لدول قد تجد نفسها بسبب معاهدات الصداقة أو العلاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفييتى عرضة لامتداد مبدأ بريجنيف . وكان مبدأ بريجنيف فى الأصـل محاولة لتبرير القمع العسكرى السوفييتى لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ . وقد حاول بريجنيف أن يلوم ما أسماها ب «قوى الامبريالية الرجعية» للمعارضة التشيكوسلوفاكية الوطنية للسيطرة السوفيتية . والى أن تم غزو أفغانستان كان يعتقد بأن الاتحاد السوفييتى عزم على تطبيق مبدأ بريجنيف على دول أوروبا الشرقية الخاضعة للنفوذ السوفييتى وحدها . غير أن بيانا ظهر فى مجلة توفويافريميا السـوفيتية الأسبوعية فى موسـكو فى ١٦ يناير ١٩٨٠ أوحى بأن مبدأ بريجنيف سيطبق الآن على جميع الدول التى يعتبرها الاتحاد السوفييتى « اشتراكية » .

« ما هو التضـامن الدولى للثوريين ؟ هل يتألف فقط من دعم أدبى ودبلوماسى .. أم يتألف أيضـا فى ظروف فوق العـادة لها ما يبررها ، من تقديم مساعدة مادية بما فى ذلك المساعدة العسكرية ، خصوصا عندما تكون هناك حالة فى التدخل الخارجى الضخم والصارخ ؟

« ان تاريخ الحركة الثورية يثبت الصـواب الأدبى والسـياسى لهذا الشكل من أشكال المساعدة والتأييد . اما وقد أصبح نظام الدول الاشتراكية قائما فان انكار حق مثل هذه المساعدة سيكون ببساطة مستغربا » .

ان دولا عدة لديها مصـلحة واضـحة فى رؤية أن أفغانسـتان لا تصبح

سابقة للتدخل السوفييتى فى شئونها الداخلية ٠ وعن طريق اجراءات قوية تتخذ لمصلحة استقلال أفغانستان تستطيع دول أخرى أن تقنع الزعامة السوفينية بأن اى شكل من أشكال التدخل هو غير مقبول ٠ والتخلف عن اتخاذ خطوات سيجعل السابقة الأفغانية تبقى دون تحد ٠

ان ردا حازما من قبل المجتمع الدولى هو وحده الذى سيحل الأزمة الافغانية والردود الضعيفة ستلغى الادانة الدولية للتدخل السوفييتى ٠ فزعماء الاتحاد السوفييتى سيمكنهم تفسير الردود الضعيفة على أنها دليل على أن المجتمع الدولى يقبل تصرفاتهم وأنه سيتغاضى عن اعتداءات أخرى او أنواع من التدخل أقل وضوحا ٠

قليلة هو الكوابح الداخلية فى الاتحاد السوفييتى ٠ هذا اذا وجد أى شيء منها اطلاقا ، التى يمكن أن تحمل الزعالة السوفيتية على سحب قواتها العسكرية من أفغانستان وبدون رد دولى حازم يستطيع الزعماء السوفييت المجادلة بأن احتلال افغانستان لن يؤثر على مصالح سوفيتية أخرى تأثيرا سلبيا ، ولكن فى المدى الطويل يمكن أن يعيد الاتحاد السوفييتى النظر فى أسلوبه فى العمل اذا أصبحت تكاليف باهظة واذا احبطت جهوده فى أفغانستان بمقاومة وطنية ٠ على أن « المدى البعيد » قد يعنى سنوات من الماضى للشعب الأفغانى فضلا عن عدم استقرار اقليمى ودولى ٠

هل الزعامة السوفيتية غافلة عن الضغوط العالمية ؟ أن ضخامة عدد التصريحات السوفيتية العالمية تكشف عن حساسية ازاء الانتقادات والعقوبات الدولية ٠ ويجب أن لا تستنتج دول أخرى أن الاتحاد السوفييتى لن يعدل من سياسته أو يغيرها تحت ضغط دولى وقوى ٠

ما هى الاجراءات القومية التى يستطيع المجتمع الدولى اتخاذها ؟ ان الدول تستطيع فى صورة مباشرة جدا أن تعرب عن معارضتها للاحتلال السوفييتى لأفغانستان عندما أعلنت عدم اشتراكها فى دورة الألعاب الأولمبية الصيفية فى موسكو ٠ وقد أثيرت الحجة القائلة ان الرياضة هى خارج السياسة لا يجد تأييدا فى الاتحاد السوفييتى وكلما قال أحدهم ان الرياضة تقع خارج اطار العلاقات السياسية ، شعرنا أن ملاحظته لا يمكن أن تكون جدية » ٠ أنه اذا رأى عدد كاف من الدول أن يمتنع عن الاشتراك فان رسالة مهمة تكون قد نقلت الى الزعالة السوفيتية والشعب السوفييتى اللذين يهتمان اهتماما شديدا بالرياضة وبالقبول الدولى للاتحاد السوفييتى ٠

هناك مجموعة مختلفة من العقوبات الاقتصـادية الممكنة أن التقييدات الأخرى التى ستعطى الزعامة السـوفيتية دليلا ملموسا على سخط المجتمع الدولى على احتلال أفغانسـتان • وهذه لا تتطلب اقترانا بمبادرات أمريكية أو غربية • بل تسـتطيع الدول اذا تصرفت بصـورة فردية أو عن طريق منظمات اقليمية - كالمجتمع الأوروبى ، والمؤتمر الاسلامى ، ومجموعة دول جنوب شرق آسيا ، ومنظمه الوحدة الأفريقية ، ومنظمة الدول الأمريكية - أن توضح للاتحاد السوفييتى بأن الانسحاب السوفييتى واستعادة استقلال أفغانسـتان وحيادها وعدم انحيازها هى أهداف عالمية مهمة • وفى غضون ذلك يشارك المجتمع العالمى فى عدة غايات مستمرة مهمة :

- أن يتدبر العلاقات بين الشرق والغرب بطرق تصون الاطار الضرورى للتعاون البناء فى ضبط التسلح والاستقرار فى أوروبا والتقدم فى الوفاق •

- أن يرعى التنمية الوطنية والعدالة بين الدول •

- أن يرعى استقرار الدول وأمنها الوطنى •

- أن يعزز مبادىء حقوق لانسان التى تتبناها الأمم المتحدة •

- أن يحـل النزاعات الاقليمية كنزاعات الشرق الأوسـط وجنوب أفريقيا •

وهذه الأهداف تشترك بها مجموعة كبيرة من الدول ، وأن ردا عالميا حازما على الاحتلال السوفييتى لأفغانستان لا يناقض هذه الغايات الأخرى المشتركة بل أنه يجعل من الممكن التحرك نحو تحقيقها • ان تصرفات عالمية حازمة ومستمرة لاستعادة استقلال أفغانستان الآن ستساعد على تعزيز السلام والنمو والعدالة فى جميع أنحا العالم فى المستقبل •

أهم الوثائق المتعلقة بمشكلة أفغانستان

الوثيقة الأولى

معاهدة صداقة وحسن جوار وتعاون بين اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وجمهوريه افغانستان الديمقراطيه (وقعت فى ٥ ديسمبر ١٩٧٨) :

ان اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وجمهورية أفغانستان الديمقراطية اذ يعيدان تأكيد التزامهما بمقاصد ومبادىء المعاهدتين السوفيتين - الأفغانيتين لعامى ١٩٢١ و ١٩٣١ · اللتين وضعتا الأساس لعلاقات صداقة وحسن جوار بين الشعبين السوفييتى والأفغانى واللتين تلبيان مصالحهما الوطنية الأساسية ·

واذ يرغبان فى أن يعززا بكل طريقة الصداقة والتعاون الشامل بين البلدين ·

واذ يصممان على تطوير الانجازات الاجتماعية والاقتصادية للشعبين السوفييتى والأفغانى وصيانة أمنهما واستقلالهما والعمل بتصميم من أجل تلاحم جميع القوى المحاربة من أجل السلام والاستقلال الوطنى والديمقراطى والتقدم الاجتماعى ·

واذ يعربان عن تصميمهما الراسخ على تسهيل تقوية السلام والأمن فى آسيا والعالم أجمع ومساهمتهما فى تطوير علاقات بين الدول وتقوية التعاون المثمر والنافع بصورة متبادلة فى آسيا · معلقين أهمية عظمى على زيادة تماسك الأساس التعاقدى القانونى لعلاقتهما ·

واذ يعيدان تأكيد تفانيهما بمقاصد ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، قررا عقد معاهدة الصداقة وحسن الجوار والتعاون الحالية واتفقا على ما يلى :

مادة (١)

يعلن الفريقان المتعاقدان الساميان بجدية قصوى تصميمهما على تقوية وتعميق الصداقة المتينة القائمة بين البلدين وتطوير تعاون شامل

بينهما على أساس المساواة واحترام السيادة الوطنية والسلامة الاقليمية وعدم تدخل الواحدة منهما فى الشئون الداخلية للأخرى ·

مادة (٢)

يبذل الفريقان المتعاقدان الساميان جهودا لتقوية وتوسيع التعاون الاقتصادى والعلمى والتقنى والمفيد لهما بصورة متبادلة · وتوخيا لهذه المقاصد سينميان ويعمقان التعاون فى ميادين الصناعة والنقل والاتصالات والزراعة واستخدام الموارد الوطنية وتطوير الصناعة المولدة للطاقة وفروع الاقتصاد الأخرى ويقدمان المساعدة فى تدريب موظفين وطنين وفى تخطيط تنمية الاقتصاد القومى · وسيوسع الجانبان التجارة على أساس مبادىء المساواة والمنفعة المتبادلة ومعاملة الدولة الأكثر رعاية ·

مادة (٣)

سيعزز الفريقان المتعاقدان الساميان تنمية التعاون وتبادل الخبرة فى حقول العلم والثقافة والفن والأدب والتعليم والخدمات الصحية والصحافة والراديو والتليفزيون والسينما والسياحة والرياضة والحقول الأخرى ·

وسيسهل الجانبان توسيع التعاون بين أجهزة سلطة الدولة والمنظمات العامة والهيئات التجارية والمؤسسات الثقافية والعلمية بغية التعرف بصورة أعمق على حياة شعبى البلدين وخبرتهما فى العمل وانجازاتهما ·

مادة (٤)

ان الطرفين المتعاقدين الساميين عملا منهما بروح تقاليد الصداقة وحسن الجوار فضلا عن ميثاق الأمم المتحدة ، سيستشيران بعضهما ويتخذان بموافقة الجانبين اجراءات مناسبة لضمان أمن واستقلال البلدين وسلامة أراضيهما ·

وفى مصلحة تقوية القدرة الدفاعية للفريقين المتعاقدين الساميين سيستمران فى تطوير التعاون فى الحقل العسكرى على أساس اتفاقات ملائمة معقودة بينهما ·

مادة (٥)

يحترم اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية سياسة عدم الانحياز

التى تتبعها جمهورية أفغانستان الديمقراطية والتى هى عامل مهم للحفاظ على السلام والامن الدوليين ٠

وتحترم جمهورية أفغانستان الديمقراطية سياسة السلام التى يتبعها اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وتستهدف تقوية الصداقة والتعاون مع جميع الدول والشعوب ٠

مادة (٦)

يعلن كل واحد من الفريقين المتعاقدين الساميين بجدية قصوى أنه لن ينضم الى أحلاف عسكرية أو سواها أو يشترك فى أية تكتلات من الدول أو فى أية أعمال أو اجراءات موجهة ضد الفريق المتعاقد السامى الآخر ٠

مادة (٧)

سيستمر الفريقان المتعاقدان الساميان فى بذل كل جهد للدفاع عن سلام الشعوب وأمنها وتعميق عملية تخفيف حدة التوتر الدولى ونشرها فى جميع أنحاء العالم بما فى ذلك آسيا وترجمتها الى أشكال متماسكة من التعاون المفيد بصورة متبادلة بين الدول وتسوية القضايا الدولية موضع النزاع بالوسائل السلمية ٠

وسيعمل الجانبان بنشاط من أجل تحقيق نزع شامل وكامل للسلاح بما فى ذلك نزع السلاح النووى تحت رقابة دولية فعالة ٠

مادة (٨)

يسهل الفريقان المتعاقدان الساميان تنمية التعاون بين الدول الآسيوية وانشاء علاقات سلام وحسن جوار وثقة متبادلة بينهما وخلق نظام أمنى فعال فى آسيا على أساس جهود مشتركة تبذلها جميع دول القارة ٠

مادة (٩)

يواصل الفريقان المتعاقدان الساميان كفاحهما الثابت ضد كيد قوى العدوان من أجل القضاء نهائيا على الاستعمار والعنصرية بجميع أشكالها ومظاهرها ٠

وسيتعاون الجانبان مع بعضهما ومع دول أخرى محبة للسلام في تفييد الكفاح العادل للشعوب من أجل حريتها واستقلالها وسيادتها وتقدمها الاجتماعي .

مـادة (١٠)

يتشاور الفريقان المتعاقدان الساميان مع بعضهما حول جميع القضايا الدوليه الكبرى التي تؤثر على مصالح البلدين .

مـادة (١١)

يعلن الفريقان المتعاقدان الساميان التزامهما بموجب المعاهدات الدولية

يعلن الفريقان المتعاقدان الساميان التزامهما بموجب المعاهدات الدولية القائمة بألا يناقضا أحكام المعاهدة الحالية ويتعهدان بألا يعقد أية اتفاقات دولية لا تتفق معها .

مـادة (١٢)

تسوى المسائل التي يمكن أن تنجم بين الفريقين المتعاقدين الساميين حول تفسير أو تطبيق أى نص من نصوص المعاهدة الحالية ثنائيا بروح الصداقة والتفاهم والاحترام المتبادلين .

مـادة (١٣)

تبقى المعاهدة الحالية سارية المفعو لمدة عشرين سنة اعتبارا من اليوم الذى تصبح فيه نافذة . وما لم يعلن أحد الفريقين المتعاقدين الساميين قبل انتهاء هذه المدة بستة أشهر رغبته في انهاء المعاهدة . فانها تبقى سارية المفعول للسنوات الخمس التالية وهكذا دواليك الى أن يعطى أحد الفريقين المتعاقدين الساميين اشعارا خطيا قبل انقضاء المدة الخمسية الراهنة بعزمه على انهاء المعاهدة .

مـادة (١٤)

اذا أعرب أحد الفريقين المتعاقدين الساميين عن رغبته في سـياق العشرين عاما من سريان المعاهدة بانهائها قبل انقضاء مدتها فانه سيشعر

خطيا الفريق المتعاقد الآخر قبل ستة أشهر من التاريخ المئوى لانهاء المعاهدة · برغبته فى انهاء المعاهدة قبل انتهاء مدتها ويجوز له اعتبار المعاهدة منتهية اعتبارا من التاريخ المحدد بذلك الشكل ·

مــادة (١٥)

تبرغ المعاهدة الحالية وتصبح سارية المفعول فى يوم تبادل وثائق الابرام الذى سيتم فى كابول ·

جعلت المعاهدة الحالية فى نسختين كل منهما باللغتين الروسية والدارية والنسختان موثقتان بصورة متماثلة ·

أنجزت فى موسكو بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٨ ·

عن اتحاد الجمهوزيات
السوفيتية الاشتراكية
ليونيــد بريجنيف

عن جمهورية
.....تان الديمقراطية
حمد تاراكى

الوثيقــة الثانيــة

الادانة العالمية للتدخل السوفيتى فى افغانستان ـ نص مشروع قرار مجلس الأمن حول أفغانستان (الذى جرى نقضه من قبل الاتحاد السوفيتى فى ٧ يناير ١٩٨٠) :

الأمم المتحدة ـ فيما يلى نص قرار مجلس الأمن الدولى حول أفغانستان الداعى الى انسحاب القوات الأجنبية والذى نقضه الاتحاد السوفيتى بتاريخ السابع من يناير ١٩٨٠ ·

ان مجلس الأمن

بعد أن نظر فى الرسالة المؤرخة الثالثة من يناير ١٩٨٠ الموجهــة الى رئيس مجلس الأمن (س / ١٣٧٢٤ والاضافتين ١ و ٢) ·

واذ يعيد تأكيد حق الشعوب بتقرير مستقبلها بصورة متحــررة من على السلام والأمن الدوليين ·

واذ يشعر بقلق شديد ازاء التطورات الأخيرة فى أفغانستان وتأثيرها التدخل الخارجى • بما فى ذلك الحق باختيار شكل الحكم الخاص بها •

واذ يعى التزامات الدول الأعضاء بالامتناع فى علاقاتها الدولية عن التهديد بالقوة واستخدامها ضد السلامة الاقليمية والاستقلال السياسى لأية دولة • أو أية صورة أخرى لا تتمشى مع غايات الأمم المتحدة •

١ - يعيد مجددا تأكيد قناعته بأن صيانة سيادة كل دولة وسلامة أراضيها واستقلالها السياسى هو مبدأ أساسى من مبادىء ميثاق الأمم المتحدة الذى سيكون ، أى انتهاك له لأى عذر كان منافضا لغاياته وأهدافه •

٢ - يتأسى بشدة للتدخل المسلح الأخير فى أفغانستان الذى لا يتمشى مع ذلك المبدأ •

٣ - يؤكد أن سيادة أفغانستان وسلامة أراضيها واستقلالها السياسى ووضعها كدولة غير منحازة يجب أن تحترم احتراما كاملا •

٤ - يدعو الى الانسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات الأجنبية من أفغانستان لتمكين شعبها من تقرير شكل الحكم الخاص به واختيار أنظمته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هو متحرر من التدخل أو الاكراه والتقييدات الخارجية من أى نوع كان •

٥ - يطلب من الأمين العام أن يقدم تقريرا عن التقدم نحو تنفيذ هذا فى غضون أسبوعين •

٦ - يقرر البقاء فى حالة متابعة لهذه القضية •

الوثيقة الثالثة

نص قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ ١٤ يناير ١٩٨٠ :

ان الجمعية العمومية ••

اذ تحيط علما بقرار الأمن ٤٦٢ (١٩٨٠) المؤرخ فى ٩ يناير ١٩٨٠ الذى يدعو الى عقد دورة استثنائية طارئة للجمعية العامة لبحث المسألة الواردة فى الوثيقة (   ) •

واذ يساورها شديد القلق ازاء التطورات الأخيرة فى أفغانستان وما يترتب عليها من آثار على السلم والأمن الدوليين •

وإذ تؤكد من جديد حق جميع الشعوب غير القابل للتصرف فيه بتقرير مستقبلها واختيار شكل حكمها دون تدخل خارجي ٠

وإذ تضع فى اعتبارها التزام جميع الدول بالامتناع فى علاقتها الدولية عن التهديد بالقوة أو استعمالها ضد سيادة اى دولة وسلامتها الاقليميـــة واستقلالها السياسى أو بأى طريقة أخرى لا تتفق مع مقاصد ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة ٠

وإذ تدرك الحاجة الملحة الى الانهاء الفورى للتدخل الأجنبى المسلح فى أفغانستان حتى يتسنى لشعبها أن يقرر مصيره دون تدخل أو قسر خارجيين ٠

وإذ تلاحظ مع بالغ القلق تدفق اللاجئين الكبير من أفغانستان ٠

وإذ تشير الى قراراتها بشأن تعزيز الأمن الدولى ٠ وعدم جواز التدخل فى الشئون الداخلية للدول وحماية استقلالها وسيادتها ٠ وبشأن مبادىء القانون الدولى فيما يتعلق ويتصل بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقا لميثاق الأمم المتحدة ٠

وإذ تعرب عن بالغ قلقها ازاء التصاعد الخطـــير فى التوتر واشتداد التنافس ، وزيادة اللجوء الى التدخل العسكرى والتدخل فى الشئون الداخلية للدول ٠ مما يضر بمصالح جميع الدول ، ولا سيما بلدان عدم الانحياز ٠

وإذ تضع فى اعتبارها مقاصد ومبادىء الميثاق والمسئولية الملقاة على عاتق الجمعية العامة بموجب الأحكام ذات الصلة بالميثاق وبقرار الجمعيـــة العامة ٣٧٧ ألف (د - ٥) المؤرخ ٣ نوفمبر ١٩٥٠ ٠

١ - **تؤكد من جديد** أن احترام سيادة كل دولة وسلامتها الاقليميـــة واستقلالها السياسى هو مبدأ أساسى من مبادىء ميثاق الأمم المتحدة يتنافى أى انتهاك له ، بأية ذريعة على الاطلاق مع أهداف الميثاق ومقاصده ٠

٢ - **تشجب بقوة** التدخل المسلح الذى حدث مؤخرا فى أفغانستان ، والذى يتنافى مع ذلك المبدأ ٠

٣ - **تناشد** جميع الدول أن تحترم سيادة أفغانستان وسلامتها الاقليمية

واستقلالها السياسى وطابع عدم الانحياز الذى تتصف به ، وان تمتنع عن أى تدخل فى الشئون الداخلية لذلك البلد ٠

٤ ـ **تدعو** الى الانسحاب الفورى غير المشروط والكامل للقوات الأجنبيه من أفغانستان من أجل تمكين شعبها من تقرير شكل حكمه واختيار نظمه الاقتصادية والسياسية والاجتماعيه دون أى تدخل أو تخريب أو قصر أو ضغط خارجى من أى نوع من الأنواع ٠

٥ ـ **تحث** جميع الأطراف المعنية على أن تسهم بسرعة ووفقا لمقاصد ومبادىء الميثاق ٠ فى تهيئة الظروف اللازمة لعودة اللاجئين الأفغان طوعا الى ديارهم ٠

٦ ـ **تناشد** جميع الدول والمنظمات الوطنية والدولية أن تقدم مساعدات الاغاثة الانسانية بغية التخفيف من محنة اللاجئين الافغان ٠ وذلك بالتنسيق مع مفوض الأمم المتحدة السامى **لشئون اللاجئين** ٠

٧ ـ **ترجو** الأمين العام أن يبقى الدول الاعضاء ومجلس الامن على علم ، بصورة فورية متزامنة ، بالتقدم المحرر صوب تنفيذ هذا القرار ٠

٨ ـ **تطلب** الى مجلس الأمن أن ينظر فى الطريق والوسائل التى يمكن أن تساعد فى تنفيذ هذا القرار ٠

التصويت على القرار ١٤ يناير ١٩٨٠ :

من أصل ١٥٢ دولة عضو فى الأمم المتحدة ، اشتركت ١٤٠ دولة فى التصويت الذى جرى فى الدورة الخاصة على مشروع قرار الجمعية العمومية بتاريخ ١٤ يناير على النحو التالى :

تأييد (١٠٤) :

البانيا ، أرجنتينا ، استراليا ، النمسا ، باهاماس ، البحرين ، بانجلاديش ، باربدوس ، بلجيكا ، بوليفيا ، بوتسوانا ، البرازيل ، بورما ، الكمرون ، كندا ، تشيلى ، الصين ، كولومبيا ، كوستاريكا ، الدانمارك ، جيبوتى ، جمهورية الدومنيكان ، ايكوادور ، مصر ، السلفادور ، فيجى ، فرنسا ، جابون ، جامبيا ، جمهورية المانيا الفيدرالية ، غانا ، اليونان ، غواتيمالا ، غيانا ، هايتى ، هندوراس ، ايسلنده ،

أندونسيا ، ايران ، العراق ، ايلنده ، اسرائيل ، ايطاليا ، ساحل العاج ، جامايكا ، اليابان ، الاردن ، كامبوتشيا ، كينيا ، الكويت ، لبنان ، ليموتو ، ليبريا ، لوكسمبورج ، ملاوى ، ماليزيا ، مالديفز ، مالطة ، موريتانيا ، مورينيوس ، المكسيك ، المغرب ، نيبال ، هولنده ، نيوزيلند ، نيجر ، نيجيريا ، النرويج ، عمان ، باكستان ، بناما ، بابوا ، غينيا الجديدة ، باراغواى ، بيرو ، الفلبين ، البرتغال ، قطر ، رواندا ، سانت لوسيا ، ساموا ، العربية السعودية ، السنغال ، سيراليون ، سنغافورة ، الصومال ، أسبانيا ، سيرى لانكا ، سورينام ، سوازيلاند ، السويد ، تانزانيا ، تايلاند ، توغو ، ترينيداد وتوغابو ، تونس ، تركيا ، الامارات العربية المتحدة ، المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة ، فولتا العليا ، أوروغواى ، فنزويلا ، يوغسلافيا ، زائير ٠

معارضة (١٨) :

أفغانستان ، أنجولا ، بلغاريا ، روسيا البيضاء ، كوبا ، تشيكوسلوفاكيا ، أثيوبيا ، جمهورية المانيا الديمقراطية ، غريتادا ، منغاريا ، لاوس ، مونغوليا ، موزامبيق ، بولنده ، أوكرانيا ، الاتحاد السوفيتى ، فيتنام ، اليمن الجنوبية ٠

امتناع عن التصويت (١٨) :

الجزائر ، بنين ، بوروندى ، الكونغو ، قبرص ، غينيا الاستوائية ، فنلنده ، غينيا ،غينيا بيساو ، الهند ، مدغشقر ، مالى ، نيكاراجوا ، ساوتومى وبرينيسيب ، سوريا ، أوغندا ، اليمن الشمالية ، زامبيا ٠

تغيب (١٢) :

بهوتان ، كاب فبردى ، جمهورية أفريقيا الوسطى ، تشاد ، كومووروس ، دومنيكا ، ليبيا ، رومانيا ، سيشل ، جزر سليمان ، جنوب أفريقيا ، السودان ٠

الوثيقة الرابعة

تصريح وزراء دول المجتمع الاوروبى بتاريخ ١٥ يناير ١٩٨٠ :

ركزت الدول التسع الأعضاء فى المجتمع الأوروبى اهتمامها على الازمة

الافغانية وفي ضوء تطورها الدرامتايكي والمناقشة التي جرت في مجلس الأمن والقرار الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة • أعاد الوزراء التسعة تأكيد قلقهغ الشديد بالنسبة الى الازمة التى أوجدها تدخل الاتحاد السوفيتى العسكرى فى أفغانستان والذى يشكل انتهاكا خطيرا لمبدأ العلاقات الدوليه المصانة حرمته فى ميثاق الأمم المتحدة ، وقد شددوا على أن التفسير الذى أعطاه الاتحاد السوفيتى لتبرير تدخله هو غير مقبول • وهم يرون أن التدخل السوفيتى يشكل تدخلا صارخا فى الشئون الداخلية لدولة غير منحازة تنتمى الى العالم الاسلامى ويشكل كذلك تهديدا للسلام والأمن والاستقرار فى المنطقة بما فى ذلك شبه القارة الهندية والشرق الأوسط والعالم العربى • وقد كان فى قلق بالغ أن لاحظ وزراء خارجية دول المجتمع الاوروبى التسع أنه على الرغم الاحتجاج العالمي تقريبا على التدخل العسكرى السوفيتى فان الاتحاد السوفيتى قد نقض قرارا حول الازمة الافغانية تبنته دول عدم الانحياز وأيدته أغلبية كبيرة من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن •

وهم يحثون الاتحاد السوفيتى على العمل بصورة تنسجم مع القرار الخاص بالازمة الأفغانية الذي اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة باغلبية ساحقة والذى يدعو الى الانسحاب الفورى غير المشروط لجميع القوات الأجنبية من أفغانستان وقد كرست دول المجتمع الاوروبى التسع جهودا متواصلة لقضية الوفاق وهى لا تزال مقتنعة بأن هذه العملية هى فى مصلحة جميع أعضاء المجتمع الدولى ، وهى مقتنعة على أى حال • بأن الوفاق لا يتجزأ وله بعد عالمى • وهى لذلك تحث الاتحاد السوفيتى بصورة تنسجم مع مقاييس ومبادىء ميثاق الأمم المتحدة على السماح للشعب الافغانى بأن يقرر مستقبله بدون تدخل أجنبى •

وان وزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الأوروبى لدى تحديدهم لموقفهم من هذه القضية المهمة يدركون ادراكا عميقا أيضا العذاب الذى قاساه الشعب الافغانى بوجه عام نتيجة الازمة بمن فيهم أولئك الافغانيون الذين أجبروا على مغادرة بلادهم •

الوثيقة الخامسة

نص القرار الاجماعى الذى إتخذه المؤتمر الاسلامى لوزراء الخارجية فى اسلام أباد باكستان فى ٢٩ يناير ١٩٨٠ :

فيما يلى نص القرار الذى اتخذه مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية

فى اسلام أباد فى ٢٩ يناير والذى أدان الغزو السوفيتى لافغانستان وحث جميع الحكومات الأخرى على ادانته كما طلب بالانسحاب الفورى غير المشروط للسوفيت من أفغانستان .

ان مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية المنعقــد فى دورته الأولى الاستثنائية فى اسلام أباد من السابع من ربيع الأول حتى التاسع منــه الموافق السابع والعشرين حتى التاسع والعشرين من يناير ١٩٨٠ .

تمشيا مع مبادىء وأهداف منظمة المؤتمر الاسلامى وأحكام القرارات التى اتخذها مؤتمر القمة الاسلامى وتأكيدا للاهداف المشتركة لشعوب الأمة الاسلامية ومصيرها المشترك .

واذ يعيد الى الذاكرة على الأخص المبادىء الأساسية لحركـــة عــدم الانحياز وأفغانستان عضو مؤسس فيها .

واذ يعرب عن قلقه الشديد ازاء التصاعد الخـــطير للتوتر واشتداد التنافس واللجوء المتزايد الى التدخل لعسكرى والتدخل فى الشئون الداخلية لدول أخرى وعلى الأخص الدول الاسلامية .

واذ يعرب عن تصميم حكومات وشعوب الدول الأعضـاء عـلى رفض جميع أنواع وأشكال الاحتلال والتوسع الأجنبى والسباق فى سبيل مناطق النفوذ . مقوية بذلك سيادة الشعوب واستقلال الدول .

واذ يشعر بقلق شديد من جراء التدخل السوفيتى المسلح فى أفغانستان وتأثير هذا التدخل على رادة شعب أفغانستان المسلم فى ممارسة حقـه فى تقرير مستقبله السياسى .

واذ يعتبر ان استمرار وجود القوات السوفيتية فى أفغانستان ومحاولتها فرض الأمر الواقع والعمليات العسكرية التى تقوم بها هذه القوات ضـــد الشعب الافغانى بأنها تهزأ من المواثيق والاعراف الدولية وتنتهـــك حقوق الانسان بصورة فاضحة .

واذ يعيد تأكيد تصميم الدول الاسلامية على اتباع سياسة غير منحازة بالنسبة الى الدولتين العظميين وحماية الشعب المسلم من التأثير السىء للحرب الباردة بين هتين الدولتين .

واذ يدرك ادراكا تاما العبء المالى الضخم الذى تتحمله دول مجاورة لأفغانستان وعلى الأخص جمهورية باكستان الاسلامية · نتيجة للملجأ الذى توفره لمئات الألوف من الشعب الافغاني من شيوخ ونساء وأطفال نزحوا بفعل الاحتلال العسكرى السوفيتى ·

واذ يؤكد أن الاحتلال السوفيتي لافغانستان هو انتهاك لاستقلالها واعتداء على حرية شعبها وخرق فاضح لجميع المواثيق والاعراف الدولية كما أنه تهديد خطير للسلام والأمن فى المنطقة وفى جميع أنحاء العالم ·

فهـــو :

١ ـ يدين العدوان العسكرى السوفيتى الافغانى ويشجبه ويتأسف له بشدة كونه خرقا فاضحا للقوانين والمواثيق والاعراف الدولية وبالدرجة الأولى ميثاق الأمم المتحدة التى دانت هذا العدوان فى قرارها رقم ى س ٢/٦ الصادر فى ١٤ يناير ١٩٨٠ وميثاق منظمة المؤتمر الاسلامى ويدعو جميع الشعوب والحكومات فى جميع أنحاء العالم الى مواصلة ادانتها لهذا العدوان وشجبه كونه عدوانا على حقوق الانسان وانتهاكا لحريات الشعوب لا يمكن تجاهله ·

٢ ـ يطلب بالانسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات السوفيتية المتمركزة فوق أراض أفغانية ويكرر موقفه من أن على القوات السوفيتية أن تمتنع من القيام بأعمال الظلم والطغيان ضد الشعب الأفغانى وأبنائه المناضلين حتى رحيل آخر جندى سوفيتى عن أراضى أفغانستان · ويحث جميع الدول والشعوب على تأمين الانسحاب السوفيتى بجميع الوسائل الممكنة ·

٣ ـ يدعو الدول الأعضاء الى عدم الاعتراف بالنظام الافغانى غير الشرعى والى قطع العلاقات الدبلوماسية مع تلك البلاد الى أن يتم الانسحاب التام للقوات السوفيتية من أفغانستان ·

٤ ـ يدعو جميع الدول الاعضاء الى وقف جميع المعونات وجميع أشكال المساعدة الممنوحة للنظام الأفغانى الحالى من قبل الدول الأعضاء ·

٥ ـ يحث جميع الدول والشعوب فى جميع أنحاء العالم على دعم الشعب الأفغانى وتقديم المعونة له واسعاف اللاجئين الذين أبعدهم العدوان عن بيوتهم ·

٦ - يوصى جميع الدول الأعضاء بأن تؤكد تضامنها مع الشعب الأفغاني في نضاله العادل من أجل صون دينه واستقلاله الوطني وسلامة أراضيه واستعادة حقه في تقرير مصيره ·

٧ - يعلن بجدية تضامنه التام مع الدول الاسلامية المجاورة لأفغانستان ضد أى تهديد لأمنها ورفاهيتها ويدعو دول المؤتمر الاسلامى الى أن تدعم بصورة جازمة وتقدم كل تعاون ممكن لهذه الدول فى جهودها الرامية الى صون سيادتها واستقلالها الوطنى وسلامة أراضيها صيانة كاملة ·

٨ - يفوض الأمين بتسليغ تبرعات للسلطات من الدول الأعضاء والمنظمات والأفراد ودفع الأموال للسلطات المعنية بناء على توصية لجنة من ثلاث من الدول الأعضاء يشكلها هو نفسه بالتشاور مع الدول المعنية ·

٩ - يدعو الدول الأعضاء الى أن تدرس عن طريق الهيئات المناسبة عدم الاشتراك فى الالعاب الاولمبية التى ستجرى فى موسكو فى يوليو ١٩٨٠ حتى يذعن الاتحاد السوفيتى لدعوة الجمعية العمومية للأمم المتحدة وكذلك (دعوة) المؤتمر الاسلامى ويسحب جميع قواته فورا من أفغانستان ·

١٠ - يفوض الأمين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامى بأن يتابع تنفيذ هذه القرارات وأن يرفع تقريرا حول ذلك الى الدورة الحادية عشرة لمؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية ·

الوثيقة السادسة

نص قرار لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة حول أفغانستان بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٨٠ :

جنيف - اتخذت لجنة حقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة بـ ٢٧ صوتا مقابل ٨ أصوات وامتناع ستة أعضاء عن التصويت ، قرارا يدين الاعتداء السوفيتى العسكرى على أفغانستان باعتباره « انتهاكا فاضحا لجميع القوانين والمواثيق والاعراف الدولية » ·

ويطالب القرار ، المتخذ فى ١٤ فبراير ، ١٩٨٠ بـ « الانسحاب العاجل

وغير المشروط لجميع القوات السوفيتية المتمركزة فوق الاراضى الافغانية » ٠

وفيما يلى نص القرار :

ان اللجنـــة ٠٠٠

اذ تعيد الى الذاكرة أن احدى الغايات الأساسية فى ميثاق الامم المتحدة هى « تطوير علاقات ودية بين الدول ترتكز على احترام لمبدأ الحقوق المتساوية وتقرير مصير للشعوب » ٠

واذ تشير الى أن ممارسة حق تقرير المصير قد مكنت الغالبية العظمى من الشعوب فى عهد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والاحتلال الأجنبى مـــن تحقيق استقلالها الوطنى ٠

واذ تكرر تصميم الدول الأعضاء على رفض جميع أشكال وأنــــواع الاحتلال والتوسع الأجنبى والسباق فى سبيل مناطق نفوذ ٠ مقوية بذلــك سيادة واستقلال الدول وممارسة الشعوب لحقها بتقرير المصير ٠

واذ تعرب عن قلقها العميق للتصاعد الخطر فى التوتر واشتداد التنافس واللجوء المتزايد الى التدخل العسكرى والتدخل فى الشئون الداخلية للدول مما يضر بمصالح جميع الدول ٠

واذ تشعر بقلق خطير ازاء التدخل السوفيتى العسكرى فى أفغانستان وتأثير هذا التدخل على حق شعب أفغانستان المسلم فى ممارسة حقه بتقرير مستقبله السياسى ٠

واذ تؤكد أن الاحتلال السوفيتى لأفغانستان يشكل انتهاكا لاستقلال تلك البلاد واعتداء على حرية شعبها وانتهاكا فاضحا لجميع القوانين والمواثيق والاعراف الدولية ٠ فضلا عن كونه تهديدا خطيرا للسلام والأمن فى المنطقه وفى جميع أنحاء العالم ٠

واذ تعتبر أن استمرار وجود قوات الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان ومحاولتها فرض الأمر الواقع والعمليات العسكرية التى تقوم بها هذه القوات ضد الشعب الافغانى يهزأ من المواثيق والاعراف الدولية وينتهك حقـــوق الانسان بصورة فاضحة ٠

واذ ندرك ادراكا تاما العبء المالى الضخم الذى تتحمله دول مجاورة لافغانستان • وعلى الأخص جمهورية باكستان الاسلامية التى قدمت ملجـأ لمئات الألوف من الشعب الافغانى من كهول ونساء وأطفال نزحوا بفعـــل الاحتلال العسكرى السوفيتى •

واذ تعيد الى الذاكرة القرار رقم س ـ ٦/٢ الصادر فى ١٤ يناير ، ١٩٨٠ عن الجلسة الطارئة الخاصة السادسة للجمعية العمومية التى أعربت عن أسفها البالغ للتدخل العسكرى فى أفغانستان ودعت الى إنسحاب القوات الأجنبية من تلك البلاد •

واذ تشير الى القرار الذى اتخذته الجلسة الاستثنائية الأولى للمؤتمـر الاسلامى لوزراء الخارجية حول التدخل السوفيتى لعسكرى فى أفغانستان :

١ ـ تدين العدوان العسكرى السوفيتى على الشعب الافغـانى وتشجبه وتتأسف له بشدة كونه خرقا فاضحا للقوانين والمواثيق والاعراف الدولية وبالدرجة الأولى ميناق الأمم المتحدة وتدعو جميع الشعوب والحكومات فى جميع أنحاء العالم الى مواصلة أدانتها لهذا العدوان وشجبه كونه عدوانـا على حقوق الانسان وانتهاكا لحريات الشعوب •

٢ ـ تطالب بالانسحاب العاجل وغير المشروط لجميع القوات السوفيتية المتمركزة فوق أراض أفغانية ••

٣ ـ تكرر القول بأن على القوات السوفيتية أن تمتنع عن القيـــام بأعمال لظلم والطغيان ضد الشعب الافغانى حتى يتم الرحيل التا للقوات السوفيتية عن أراضى أفغانستان •

٤ ـ تدعو جميع الدول الأعضاء الى الامتناع عن تقدي أية مساعـدة الى النظام لافغانى لحالى لمفروض فرضا •

٥ ـ تحث جميع لدول والشعوب فى جميع أنحاء العالم على تقـــدي مساعدة سخية وعون الى اللاجئين من أفغانستان الذين أقصوا عن بيوتهم •

٦ ـ توصى بأن تؤكد جميع الدول الأعضاء تضامنها مع الشـعب الافغانى فى نضاله العادل من أجل دينه واستقلاله الوطنى وسلامة أراضيه واستعادة حقه فى تقرير مصيره وان تقدم كل مساعدة ممكنة له من أجل هذه الغـــاية •

٧ - تعلن بجدية تضامنها التام مع الدول المجاورة لافغانستان ضد أى تهديد لأمنها ورفاهيتها وتدعو جميع الدول بقوة لتأييد هذه الدول وتقديم كل تعاون ممكن معها فى جهودها الرامية الى صون سيادتها واستقلالها وسلامة أراضيها صيانة كاملة ٠

الوثيقة السابعة

مقتطفات من البيان المشترك للمجتمع الاوروبى ورابطة دول جنوب شرق آسيا - حول قضايا سياسيه بتاريخ ٨ مارس ١٩٨٠ :

١ - بمناسبة الاجتماع الوزارى الثانى للمجتمع الأوروبى ورابطة دول جنوب شرق آسيا فى كوالا لامبور فى ٧ و ٨ مارس ١٩٨٠ ، عقد وزراء خارجية الدول الأعضاء فى رابطة دول جنوب شرق آسيا ووزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الاوروبى اجتماعات رسمية أجريا خلالها تبدلا مكثفا فى وجهات النظر حول المشاكل الاقليمية والدولية والتطورات التى حصلت منذ اجتماعهم فى بروكسل فى تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٧٨ وقد أعادوا تاكيد التزامهم بالعمل تجاه سلام عالمى وتعاون وتفاهم دوليين ونمو اقتصادى وعدالة اجتماعية وحقوق الانسان ٠ وشددوا أيضا على الحاجة لأن تتقيد جميع الدول تقيدا كليا بالمبادىء التالية : احترام سيادة واستقلال وسلامة أراضى جميع الدول وعدم اللجوء الى القوة أو التهديد باستعمال القوة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى ٠ واتفقوا على أن هذه المبادىء هى ذات أهمية حيوية للعلاقات بين الدول ٠ وقد جرت المناقشات فى روح من الود البالغ والصداقة المتبادلة ٠

٢ - ان وزراء خارجية الدول الأعضاء فى رابطة دول جنوب شرق آسيا ووزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الأوروبى ٠ بعد أن حللوا التطورات الدولية الراهنة أعربوا عن قلقهم البالغ لنشوء مصادر جديدة وخطرة للتوتر فى وقت لم يتم فيه ايجاد حلول لمصاعب أخرى خطيرة تؤلف مشاكل بالغة الصعوبة ٠ وقد لاحظوا أن التوتر والصعوبات كامنة فى صور رئيسية فى مناطق العالم الثالث حيث توفر مناخ من السلام والتعاون الدولى هو أمر لا مفر منه لانجازات التقدم فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية ٠ وقد حثوا المجتمع الدولى وخصوصا الأمم المتحدة وأمينها العام على العمل بنشاط من أجل حل المشاكل بمقتضى مبادىء ميثاق الأمم المتحدة ٠

٣ - أعرب وزراء خارجية الدول الأعضاء فى رابطة دول جنوب شرقى

آسيا ، ووزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الأوروبى عن قلق بالـغ لتدخلين مسلحين سافرين من قبل دولتين أجنبيتين ضد دولتين من دول عدم الانحياز فى آسيا هما التدخل الفيتنامى المستمر فى كابموتشيا والتدخـل السوفيتى المسلح فى أفغانستان ٠ وقد تأسوا بشدة للتدخلين المسلحين ضد هذين البلدين وكان القاسم المشترك بين التدخلين فرض الارادة على دولتين صغيرتين مستقلتين من قبل دولتين أجنبيتين عن طريق استخدام القـوة فى انتهاك سافر للقانون الدولى مهددتين بذلك الأمن والسلام الدوليين ٠ وقـد دعيا الى تنفيذ مبكر لقرارى الجمعية العامة للأمم المتحدة رقمى ٢٢/٣٤ وأى ا س - ٢/٦ الصادرين فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٩ و ١٤ يناير ١٩٨٠ على التوالى بما فى ذلك الانسحاب التام للقوات الأجنبية من كامبونسيا وأفغانستان ٠

٤ - أعرب وزراء خارجية الدول الأعضاء فى رابطة دول جنوب شرق آسيا ووزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الأوروبى عن أسفهم البالغ لحجب تقرير المصير عن شعبى كامبوتشيا وأفغانستان الذين يجب أن يسمح لهما بتقرير مستقبلهما السياسى دون تدخل أجنبى أو اكراه أو اخافة ٠ وأعربوا أيضا عن قلقهم البالغ لمعاناة شعبى كامبوتشيا وأفغانستان اللذين أجبروا على ترك بلدبهما بسبب اعتداء خارجى واللذين نعتبر المساعدة المادية الآن ضرورية لكليهما ٠

٥ - ان وزراء خارجية الدول الأعضاء فى رابطة دول جنوب شرق آسيا ووزراء خارجية الدول الأعضاء فى المجتمع الاوروبى اذ آخذوا بعين الاعتبار نتائج اجتماع الدول التسع فى روما فى ١٩ فبراير ١٩٨٠ والمؤتمـــر الاسلامى لوزراء الخارجية فى اسلام أباد من ٢٧ الى ٢٩ يناير ١٩٨٠ ، ناشدوا جميع الدول أن تحترم سيادة أفغانستان واستقلالها السياسى وسلامـــة أراضيها وطابع عدم الانحياز الذى تتصف به ٠ وفى هذا السياق اتخذوا وجهة النظر القائلة أن الازمة يمكن التغلب عليهـا بصورة بناءة عن طريق بروز أفغانستان محايدة وغير منحازة خارج نطاق المنافسة بين الدول ٠

الباب الرابع

في أفريقيا

الفصل السادس

السودان ومشكلة الجنوب

١ ـ الاطار التاريخى السوسيولوجى :

عبر المؤرخ البريطانى الذائع الصيت ارنولد توينبى Tonybee أوضح تعبير عن قضية السودان قائلا(١) : « أنها قضية أفريقيا المنقسمة الى قسمين ، مجسدة فى نطاق محدود • ولذا فان السودان اذ يحمل مصيره بين يديه يحمل مصير أفريقيا فى الوقت نفسه • فاذا نجح السودان فى التوفيق بين العنصرين اللذين يتالف منهما أبناؤه سيكون قد قام بعمل انشائى رائد للقارة بأسرها ، أما اذا احتدم الصراع فى السودان وأزمن فسوف يؤدى ذلك الى زيادة التوتر بين قسمى أفريقيا فى كل مكان وسيتحول جنوب السودان ـ سواء طال الزمن أم قصر ـ الى بؤرة تتجمع فيها عناصر البغضاء من جانب أفريقيا الزنجية ضد أفريقيا الشمالية • واذا وصلت الامور الى هذا الحد فان انشطار القارة الافريقية قد يصبح نهائيا • لقد ألقى القدر على عاتق أبناء الشمال عبئا جسيما » •

وقد تحمل أبناء شمال السودان الأعباء المرهقة فى خوض معركة السلام مع الجنوب من أجل اقامة الوحدة الوطنية فى السودان واقامة نظا اداري خاص بالجنوب لحل مشاكله الخاصة مع التسليم بوجود فوارق بين الشمال والجنوب وخاصة فى الناحية الديموغرافية حيث يوجد نوعان رئيسيان للسكان فى السودان : النوع الذى يسمى بالأسمر والنوع الأسود • ويرى أحد المؤرخين المعاصرين(٢) أنه « فى أغلب الظن أن النوع الأول جاء أصلا من بلاد العرب عندما خرجت موجات متعاقبة من شبه الجزيرة العربية فى أوقات مختلفة متأثرة قبل كل شيء بالتغييرات المناخية والجفاف الدورى الذى كان يحتم على السكان أن يهاجروا » •

أما النوع الأسود وهم سكان جنوب السودان فهم ينتمون الى افريقيا الاستوائية وغيرها من مناطق العالم مثل جنوب الجزيرة العربية والهند واستراليا أيضا • لكن هذه التقسيمات التى ترجع جذورها الى الماضى البعيد

لا يمكن أن تكون اليوم تقسيمات كاملة ، فكثير ممن يتسمون بالغرب لهم قسمات الزنوج ، وبعض من يطلق عليهم وصف الزنوج ليست لهم قسمات زنجية .

وهناك رأى آخر(٣) يقول أنه من المشكوك فيه أن يكون فى السودان أناس يمكن أعتبارهم زنوجا حقيقيين حيث طباع سكان السودان غير زنجية وممارستهم للرعى بل وتركيب لغتهم الى حد ما انما ترجع الى عوامل الاختلاط والهجرة . وهذا الرأى لا يميل الى استخدام كلمة « العرب » للدلالة على مميزات عنصرية ، وأن علماء السلالات لا يستخدمون هذه الكلمة الا بمعنى تاريخى فحسب للدلالة على أولئك الذين هاجروا من بلاد العرب الى السودان وأبنائهم وعلى الجماعات غير المتجانسة التى أحتوتها القبائل العربية والتى أقتبست حضارتها .

أما العرب فلم يكن عددهم كبيرا فى السودان فى أى وقت من الأوقات وقد اختلطوا حيث أقاموا وتزاوجوا مع السكان المحليين سواء كانوا من أهل النوبة أو من الزنوج ، وترتب على ذلك أن أصبح فى السودان اليوم جميع درجات الامتزاج بين سمر الشمال وزنوج الجنوب ، كما لم تنشأ ثقافة خاصة يمكن أن توصف بأنها ثقافة عربية واسلامية تماما(٤) ، ويستدل على ذلك من نتائج الاحصاء السكاني الذى أجرى عام ١٩٥٦ اذ بلغ مجموع سكان السودان ١٠٫٢٦٣٫٠٠٠ نسمة من بينهم ٢٫٧٩٣٫٠٠٠ يعيشون فى المديريات الجنوبية الثلاث وهو رقم يوازى ربع السكان . وقد أورد الاحصاء اسماء ٥٧٢ قبيلة أو عشيرة يتراوح عدد المنتمين اليها بين المليون - مثل قبيلة الدنكا - حتى يصل الى بضع عشرات من الأفراد فى بعض المجموعات ، ورغم ان ٣٩٪ من السكان ينحدرون من أصل عربى فقد أثبتت نتائج هذا الاحصاء أن من يتكلمون العربية كلغة أصلية يتجاوزون ٥٠٪ أما الآخرون فيستخدمون لغات صنفها الاحصاء الى اللغات النيلية والنيلية الحامية والفورادية والافريقية .

أما عن الفوارق الحضارية بين شمال السودن وجنوبه فالملاحظ ان جنوب السودان لا تسود بين سكانه حضارة متجانسة وقد قام علماء الأنتروبولوجيا بتصنيف سكان جنوب السودان تبعا للأصل التاريخى والتكوين العرقى واللغة والبيئة الجغرافية الى ثلاث مجموعات : « فالنيليون يتألفون من الدنكا والنوير والشلوك والانواك وهم يعيشون فى الأغلب فى مديريتى بحر الغزال وأعالى النيل ، وتضم كل واحدة منها عدة قبائل ، والبيئة الجغرافية للنيليين تجعلهم يعتمدون على الزراعة وتربية الماشية والتى تعتبر أيضا - أى الماشية -

الأداة التى تيسر لهم الزواج كما أنها بمثابة الوسيط الذى يتصلون عن طريقه بالأشباح وبأرواح الأسلاف » • أما المجموعة الثانية فهى النيليون الحاميون ويتألفون من المورلى والديدينجا والبويا والتوپوسا واللاتوكا ويقيم معظمهم فى المديرية الاستوائية كما تعيش أقسام منهم فى أوغندا وكينيا ، وأخيرا تأتى القبائل السودانية وهى التى تشكل المجموعة الثالثة فى سكان جنوب السودان وتتألف من القبائل العديدة والصغيرة الحجم التى تسكن المناطق الغربية والجنوبية الغربية من جنوب السكان وأهم قبائل هذه المجموعة هى الأزاندى(٥) •

وهذه القبائل وغيرها لم تنشأ كلها فى جنوب السودان ، والقبائل الأخرى المتناثرة — بخلاف المجموعات الثلاثة السابقة — ليس بينها قبيلة لها من القوة ما يجعلها نواة تتجمع حولها القبائل الأخرى أو ما يمكنها من السيطرة عليها واحتوائها • وقد أدت الاختلافات العرقية والسلالية بين القبائل الى استخدام لغات مختلفة فضلا عن التباين الواضح فى المؤسسات السياسية والدينية • والمجموعات اللغوية الرئيسية هى اللغات النيلية واللهجات المتفرعة عنها ومن بينها لهجة الدنكا والنوير والشلوك والاكولى والبورون ، وهناك أيضا مجموعة اللغات البادية ومجموعة اللغات الديدنجية ومجموعة اللغات الازندية وما يتفرع عن هذه المجموعات من لهات مرتبطة بها • وفى عام ١٩٥٦ بلغ مجموع اللغات المستخدمة فى جنوب السودان ١٢ لغة لكن اللغة التى أخذت فى الانتشار والسائدة اليوم فى جنوب السودان هى اللغة العربية •

وبخصوص الناحية الدينية فما زالت الوثنية منتشرة بين معظم سكان جنوب السودان وينقسم عدد السكان غير الوثنيين حسب التقديرات التى أجريت فى منتصف الخمسينات الى المجموعات التالية :

المسلمون من أبناء الجنوب	١٢ر٠٠٠	—	٢٢ر٠٠٠
البروتستانت « »	٢٥ر٠٠٠	—	٢٠ر٠٠٠
الروم الكاثوليك من أبناء الجنوب	١٨٠ر٠٠٠	—	٢٠٠ر٠٠٠
المجموع	٢٢٧ر٥٠٠٠	—	٢٥٣ر٠٠٠(*)

(*) المصدر :
Sudan Government, Report of the Commission of Enquiry on the Southern Sudan Disturbances, Khartoum, 1956, pp 5-8.

وسكان جنوب السودان يمثلون ١٠٪ من مجموع السكان • والأغلبية الوثنية منهم يؤمنون بوجه عوم بوجود آله قدير يطلق عليه الدنكا غير أن هذه القبائل تعتقد أن أرواح السلف تلعب دورا فى حياة القبائل اليومية أكبر من دور الآلهة نفسها لأن أرواح أسلافهم تتجسد فى الأجيال المتعاقبة من صانعى الامطار والرؤساء الروحيين ، وهم أشخاص يجيون بين السلطتين الروحية والدينية ، وعموما فان هذه الآديان الوثنية هى أديان قبلية بحته ولا تصلح لأن تكون أساسا لنشاط مشترك بين القبائل •

أما عن التنظيمات السياسية فى الجنوب فانها تختلف من قبيلة الى أخرى ، فلدى الشلوك نظام مركزى يقو على رأسه ملك يحظى بالقداسة بين أتباعه • أما الدنكا والبارى فتضع السلطة العليا بين يدى الرئيس الروحى وهو فى نفس الوقت صانع الامطار • وعند قبائل النوير يمارس السلطة فيها أشخاص يستندون الى أساس دينى أكثر مما يستندون الى أساس سياسى(٦) •

أما المسيحية ومدى انتشارها فى الجنوب فان هذه النقطة نحتاج الى وقفة لتحليل وتفسير الدور الذى لعبته مدارس التنصير منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر حينما شرعت جمعيات التنصير المسيحية فى انشاء المدارس والكنائس معا • ويرى الاستاذ محمد عمر بشير(٧) وهو من كبار رجال الخارجية السودانية - يرى فى دراسة له أن تقدم جمعيات التنصير المسيحية جاء بطيئا نظرا لصعوبة المواصلات بسبب اتساع المساحات وانتشار المستنقعات بالاضافة الى نقص الموارد المالية اذ كان الجنوب أشد تخلفا من الناحية الاقتصادية عن الشمال ، وقد جاء تعدد اللغات والافتقار الى لغة محلية كبرى عاملا أدى الى تأخر النهوض بالتعليم فضلا عن قسوة الظروف المناخية وانتشار الامراض والهجرة المتصلة التى تطلبتها طبيعة الترحل التى تغلب على بعض القبائل •

وبالأضافة الى العوامل السابقة جاءت الشكوك والعداء من جانب القبائل وندرة المدرسين وخوف شيوخ القبائل من أن يؤدى التعليم المسيحى الى تنشئة جيل يبتعد عن حياة القبيلة أو الأسرة ويؤدى الى حرمان القبيلة من أبنائها ، وقد أنعكس ذلك على نوعية الذين تلقوا التعليم فى هذه المدارس حيث كانت أغلبيتهم من أبناء العبيد الذين أعتقوا أو من أبناء رؤساء القبائل الذين أرسلتهم الحكومة الى مدارس بعثات التنصير كرهائن(٨) •

كانت الأغلبية الساحقة من رجال بعثات التنصير من الروم الكاثوليك وكانت ارسالياتهم أكبر الارساليات فى الجنوب وكان أكثر العاملين فيهـا من الايطاليين والألمان ممن « لا يصلحون لتدريس اللغة الانجليزية » . وفى عام ١٩١٠ دارت مشاورات بين رجال الارسالية الكاثوليكية وجمعيـة مبشرى الكنيسة بشأن اعطاء الأفضلية فى تولى الوظائف لمن يتكلمون اللغة الانجليزيه ولا بد من أن تبذل الحكومة جهدها لتشجيع استخدام اللغة الانجليزية كأداة يمكن من خلالها اتمام الأعمال والصفقات مع أبناء الجنوب .

وكان رجال بعثات التنصير يخافون من انتشار الاسلام فى السودان والتى أنشأها الجيش ، واستمرت اللغة العربية أداة للاتصال بين المستويات غير أن أبناء الجنوب قد ترددوا على المدارس التى تقوم بتعليم اللغة العربيه الجنوبى كذلك فقد وضعوا القيود على تعلم اللغة العربية بغرض اختفائها تماما الدنيا من رجال الادارة التجار . وعموما فقد أصبحت اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية للجنوب ، وكان الانفصال فى اللغة بين الجنوب والشمال هو النتيجة الطبيعية لاحتكار الارساليات المسيحية الأوربية أمور التعليم ووضع ادارة الجنوب فى أيدى الموظفين البريطانيين . ومع استقرار سلطة الحكومة والأوضاع السلمية فى الجنوب ازداد الاهتمام بقضية التعليم ، وفى عـام ١٩١٨ كتب أحد المسئولين قائلا(٩) : « أنه ليس فى الوسع تحقيق مزيد من التقدم فى الادارة أو التجارة فى الجنوب ما لم يتلق السكان المحليون قدرا من التعليم ، فالادارة تتطلب طبقة من الموظفين المحليين القادرين عـلى القراءة والكتابة بلغتهم الخاصة وعلى انجاز الاعمال المكتبية لرؤسائهم والعمل لتنمية بلادهم على أساس مدروس وتقدمى » . وحذر التقرير من استمرار التعليم الدينى من جانب مدارس المبشرين لأنها لا توضح لأبناء البلاد أن الحكومة هى العامل الجوهرى المسيطر على حياتها بينما ينبغى أن تكون هذه الفكرة هى النقطة الجوهرية فى التعليم . وطالب التقرير بانشاء مدرستين حكوميتين لكن هذه الاقتراحات قد رفضت فى حين نجحت جمعيات رجال التنصير فى أرساء خدمة ونشر المسيحية ومنع انتشار الاسلام فى الجنوب ، وساعد عـلى ذلك أيضا حماس رجال التنصير الدينى ورؤيتهم بضرورة السعى لتنصير جميع سكان البلاد مسلمين ووثنيين ، جنوبيين وشماليين أيضا . وقد وصف اللورد كرومر - قنصل بريطانيا ومندوبها السامى فى القاهرة والحاكم الفعلى لمصر والسودان حتى تقاعده سنة ١٩١٠ - وصف كرومر الضغوط الشديدة التى تعرض لها للنزول على وجهة نظر رجال التنصير فى خطاب أرسله الى لورد لانز داون جاء فيه : « أننى مازلت أحاصر حصارا عنيفا يحيط بى من كل الجهات لكى أوافق على التنصير فى السودان ، فالكاثوليـك ومن خلفهم

الحكومة النمساوية والكنيسة الانجليزية يدعمها عدد من الآباء ذوى الجاه والنفوذ والجمعية المسيحية وغيرها من الجمعيات التبشيرية لهم جميعا نفس الشعار » .

غير أن نشاط الجمعيات التنصيرية(١٠) لم يمتد الى شمال السودان أثناء السنوات الأولى من الحكم الانجليزى المصرى للسودان الا فيما يتعلق بفتح المدارس وبناء كنيسة انجيلية فى الخرطوم .

وقد قسمت المديريات الجنوبية الى اقاليم لكل واحد منها سيطرة من جانب احدى الكنائس أو المذاهب المسيحية المختلفة والتى تمارس فيها نشاطها بحرية كاملة بهدف تنصير السكان وباعتبارهم « همجا متوحشين ليست لديهم مبادىء التفكير السليم أو حسن السلوك » - وهو ما جاء فى التقرير السنوى لعام ١٩٠٥ . وعموما فقد مضت الجمعيات التنصيرية فى مزاولة نشاطها فى جنوب السودان تحت سمع وبصر وحماية الحكومة ورعايتها وهو ما كان له

السودان . وحتى عندما أنشىء جيش محلى من أبناء جنوب السودان فان السياسة البريطانية استمرت تشجع نشاط رجال التنصير المسيحيين بهدف اخضاع السكان لسلطان الحكومة واتخذت تحقيق هذا الهدف وسائل عديدة وهو ما يستدل عليه فى تقرير كتبه ر. س. أوين حاكم مديرية مونجالا فى عام ١٩١٠ قائلا : « أنه نظرا لما للجيش من أثر حضارى عظيم ونظرا لحرص العسكريين السودانيين على أن يكون كل المجندين من المسلمين وان يقوم الاماء بالقاء تعاليمه عليهم من القرآن ، فانه يقترح « تشكيل فرقة استوائية للخدمة فى الجنوب يكون جميع أفرادها من أبناء جنوب السودان وتلقى فيها الأوامر باللغة الانجليزية وتقام فيها الشعائر المسيحية » .

وقد أقر ونجت - حاكم السودان العام آنئذ - هذا الاقتراح وبدأ تنفيذه واستمر تجنيد أبناء السودان الجنوبى لهذه الفرقة حتى عام ١٩١٨ . ورأى ونجت فى « الفرقة الاستوائية » قوة أفريقية تستطيع الوقوف فى وجه الثورة العربية فى السودان ، وكان قد أتيح له أثناء عمله كمدير للمخابرات العسكرية فى الجيش المصرى ثم كحاكم عام للسودان أن يدرك عمق المشاعر الدينية لدى السودانيين وهى المشاعر التى أنفجرت خلال السنوات الأولى من الحكم الثنائى فى شكل مظاهرات محلية عديدة ضد الغزاة . وكان المسئولون عن الأمن فى السودان هم الجنود السودانيون المسلمون الذين لا يمكن الاطمئنان دائما الى ولائهم اذا طلب منهم قمع حركات أخوانهم فى الدين .

وكان انشاء جيش محلي في الجنوب تحت قيادة ضباط من الانجليز أمرا في غاية الأهمية وخاصة في الحد من انتشار الاسلام في جنوب السودان حيث كان أبناء الجنوب الوثنيين من رجال القبائل يعدون - في نظر رجال التنصير والادارة على السواء - عناصر صالحة لاعتناق دين جديد . ومن هنا كانت أهمية اتخاذ خطوات من جانب السياسة البريطانية تجاه الجنوب تتلخص في أن تتجمع في الجنوب طائفة مسيحية كبيرة ترتبط فيما بعد بأوغندا وتشكل حاجزا متينا يقف في وجه انتشار الاسلام .

وتجدر الاشارة الى أن انفجار الثورة المصريـــة عام ١٩١٩(١١) كشف مخاطر استمرار السياسة البريطانية على نفس النهج السابق خاصة وقد غدا من المحتمل أن تسرى روح الثورة الوطنية في مصر الى شمال السودان وبالتالي الى المديريات الجنوبية ومن بعدها الى الممتلكات البريطانية في أواسط وشرق أفريقيا مما يهدد مصالح الامبراطورية في تلك الجهات ، ومن ثم فقد سعت الحكومة البريطانية منذ ذلك الحين لفصل السودان عن مصر اداريا وماليـــا وسياسيا أيضا ، كما سعت في نفس الوقت ولنفس السبب لتعميق الخلافات الكائنة بين شمال السودان وجنوبه بهدف فصل الجنوب عن بقية أجزاء السودان وعزل مديريات جنوب السودان عن المؤثرات الاسلامية ، فلا يستخدم فيها من المآمير - جمع كلمة مأمور - غير السود الا اذا دعت الضرورة القصوى لذلك وفي الحالات النادرة التي كانت تحتم استخدم مآمير مصريين في الجنوب فان الادارة تتحرى أن يكونوا من الاقباط ما أمكن ، يضاف الى ذلك أن الأحد قد جعل يوم العطلة الاسبوعية بدلا من يوم الجمعة كما هو الحال في المديريات الشمالية ، وان الجمعيات رجال التنصير المسيحية كانت تلقى كل تشجيع ممكن من قبل الادارة وعموما فقد استمر اهتمام المسئولين منذ ذلك الوقت يدور حول فصل الجزء الجنوبي (الأسود) عن الاقليم الشمالي (العربي) من السودان وضمه آخر الأمر الى ادارة أخرى تنشأ في أواسط أفريقيا .

وقد شهدت هذه الفترة أيضا عديدا من المذكرات(١٢) التي قدمت للجنة سياسة حكومة السودان في المديريات الجنوبية . وجميع هذه المذكرات تحوى التوصيات التي على أساسها تصاغ السياسة البريطانية ، وتحبذ سياسة فصل جنوب السودان عن شماله . وتتناول احدى هذه المذكرات موضوع الفصل بلهجة حاسمة فتقول : « انه لابد من دمج الاقاليم الزنجية من السودان في ادارة « ممتلكاتنا الأخرى » مثل اوغندا وشرق أفريقيا . أما المديريات العربية فتتطلب نوعا آخر من الترتيبات الادارية . ولذلك فلابد من بحث امكان انشاء اتحاد فيدرالي في أفريقيا الوسطى يكون تحت الادارة البريطانية ويضاف اليه السودان الزنجي في الوقت المناسب طبعا » .

وبناء على هذه لسياسة فقد تقرر ألا يشترك مديرو المديريات الجنوبية في اجتماعات المديرين التى كانت تعقد سنويا فى الخرطوم الا اذا طلب اليهم ذلك ، بل أن يجتمعوا وحدهم فى الجنوب وان يكونوا على صلة دائمة بأقرانهم ونظرائهم من مديرى المديريات فى كينيا وأوغندا • ويرى أحد الباحثين أن الطريقة التى تعرض بها الحاكم لهذا الموضوع فى تقريره السنوى لعام ١٩٢٠ كانت مثلا آخر من أمثلة التضليل الرسمى بشأن سياسة الجنوب ، فقد جاء فى أحد التقارير بهذا الخصوص : « ان فرقا طبيعيا قد برز تلقـــائيا بين المديريات التى يسهل الاتصال بها وتلك التى يصعب الوصول اليها : اذ لم يتمكن من حضور الاجتماع فى الخرطوم سوى مديرى المجموعة الأولى من المديريات ، وقد اتضح فيما بعد أن الفرق المشار اليه بين هاتين المجموعتين من المديريات انما يطابق الفروق القائمة بين الأجزاء العربية والأجزاء الزنجية من السودان مطابقة تامة ، فجميع المديريات السابقة ـ حلفا ، ودنقلا ، وبربر والبحر الأحمر ، والنيل الازرق ، والنيل الأبيض (باستثناء كسلا وحدها) موصولة بالخرطوم بالسكك الحديدية ، بينما يستحيل الوصـــول الى أقرب المديريات الزنجية الا بالسفر النهرى مدة لا تقل عن خمسة أيام ، ولذلك فان مديرى هذه المديريات يجتمعون وحدهم فى أى مكان يختارونه جنـــوب الخرطوم(١٣) •

٢ ـ **الاستعمار ومحاربة الاسلام واللغة العربية :**

صدرت فى عام ١٩٢٢ لائحة جوازات السفر وتصاريح المرور وقد نصت على حق الحاكم العام فى اعتبار أى جزء من السودان « منطقة مغلقة » اذ جاء فى المادة (٢٢) من اللائحة « •• من حق الحاكم العام أن يعتبر أى اقليم منطقة مغلقة أغلاقا كاملا أو جزئيا بالنسبة للسودانيين أو غير السودانيين » كما منحت هذه المادة الحاكم أن يضع القيود على دخول الأشخاص الى تلك المناطق وتحديد الشروط للسماح لهم بدخولها • ومنحت المادة (٢٣) الحاكم العام حق « اغلاق أى منطقة من السودان فى وجه التجارة التى يقوم بها أى أشخاص من غير القاطنين بتلك المنطقة » •

وفى نفس الوقت فقد صدر مرسوم بالمناطق المغلقة (عام ١٩٢٢) فأعلن اعتبار مديريات دار فور والاستوائية وأعالى النيل بكاملها مناطق مغلقة كما اعتبر أجزاء من مديرية كردفان الشمالية والجزيرة وكسلا من المناطـق المغلقة التى لا يجوز لأى شخص من غير أبناء السودان أن يدخلها أو يقيم بها الا اذا حصل على تصريح بذلك من وزير الداخلية أو من حاكم المديرية التى

تضع المنطقة المغلقة فى دائرتها ، كما أنه من حق وزير الداخلية أو حـــاكم المديرية أن يمنع أى شخص من أبناء السودان من دخول هذه المناطق أو الاقامة بها » .

وقد اعتبر هذا القانون(١٤) من أكثر الوسائل التى اتخذتها الادارة البريطانية فعالية فى ابعاد العرب والمسلمين - مصريين كانوا أم سودانيين شماليين أم نيجيريين أم غيرهم من المسلمين الافريقيين - عن المديريات الجنوبية وفى تمكين الادارة والمبشرين من صبغ تلك المديريات بألوان مختلفـــه من الديانات والثقافات غير الاسلامية والعربية فقد أدخل بمقتضى ذلك القانون نظام تصاريح جديد وخول الحاكم العام سلطة اعلان أى جزء من السودان منطقة مغلقة وهذه المناطق المغلقة قسمان : قسم منها سمى مناطق مغلقة تماما وقد حرم على الأجانب والسودانيين تحريما تاما ، والقسم الثانى مناطق مغلقــة عادية ان شاء الاداريون منحو التراخيص لدخولها وان شـــاءوا منعوها أو سحبوها منهم بعد منحها دون ابداء أى سبب .

أما مغزى هذا القانون والقيود الواردة فيه فقد ظهرت عند التطبيـــق بصورة جلية بعد أن كشف النقاب عن منشور سرى(١٥) أعده السكرتير الادارى ، السير هارولد ماكمايكل فى يناير ١٩٣٠ والذى اصبح محور سياسة الفصل البريطانى تجاه جنوب السودان الى أن الغيت هذه السياسة عـــام ١٩٤٦ . فقد جاء فى ذلك المنشور « أن الهدف الذى ترمى اليه الحكومة هو تشجيع التجار الاغريق والسوريين (المسيحيين) بدلا من الجلابة (وهم العرب المسلمون من السودانيين الشماليين) ، بمعنى تقليل تصـــاريح الدخول الممنوحة لهؤلاء باستمرار . ولكن فى دهاء وحكمة ودون اثارة ، والذين يبقى على تصاريحهم من الجلابة يجب أن يكونوا منتقين ممن ليست لهم أى اهتمامات أو نشاط خارج ميدان المعاملات التجارية وأن يكون الجلابـــة محصورين فى المدن والطرق الرئيسية فقط .

ولم يستهدف قانون الجوازات لعام ١٩٢٢ ابعاد الشماليين عن الجنوب فحسب بل كان يهدف أيضا الى ايقاف هجرة الجنوبيين الى الشمال حيث كانوا يطلبون العمل ومستوى معيشة أعلى مما هو متاح لهم فى الجنوب . ولذلك فقد حرم القانون المذكور تشغيل أى شخص (جنوبى) فى أى جزء من القطر السودانى الا بعد الحصول على ترخيص خاص ودفع مبلغ جنيه سودانى واحد عن كل عامل يسمح بتشغيله بموجب الترخيص الممنوح لهذا الغرض ، على ألا يزيد عدد العمال الذين يستخدمهم صاحب أى رخصة عن مائة وخمسين .

وقد أضاف هذا القانون الى هذه العراقيل معوقات أخرى منها أن الاخلال بأى شرط من الشروط التى تمنح الرخصة بناء عليها تكون عاقبته فقدان المبلغ المدفوع عند صدور الرخصة زائدا السجن لمدة قد تبلغ الستة أشهر أو دفع غرامة لا تزيد على المائة جنيه أو العقوبتان معا · كذلك خول قانون الجوازات المسئولين الاداريين سلطة طرد الشخص من المنطقة المغلقة التى كان قد سمح له بدخولها ثم مصادرة أملاكه كلها أو بعضها ؛

وبالرغم من هذه القيود الصارمة فان العلاقات بين سكان الشمال وسكان الجنوب لم تكن قاصرة على نطاق المعاملات التجارية من بيع وشراء أو اجارة واستئجار بل كانت انسانية واجتماعية أيضا وتحدث بالتزاوج أحيانا أو من العمل معا فى دواوين الحكومة · غير أن فرص التزاوج بين الشماليين والجنوبيين قد ضاقت فى الفترة اللاحقة نتيجة لتطبيق قانون الجوازات كما ضعفت حوافزه بسبب منع الازواج الشماليين من أصطحاب أولادهم وأمهاتهم الجنوبيات الى الشمال · أما الموظفون الشماليون فى الجنوب فقد أمر السكرتير الادارى فى منشور أصدره بالاستغناء عنهم والتخلص منهم ، وبرر ذلك بعجز « الاولاد المحليين » — كما أسماهم — عن ملء الوظائف العليا فى دواوين الحكومة ، كما عبر عن قلقه لاعتماد الحكومة على الارساليات فى تأهيلهم بأعداد لا تتناسب بالضرورة مع حاجة الحكومة ودواوينها · بل أنه وجد ضرورة اقصاء الشماليين عن مراكز السلطة والنفوذ الادارية والاجتماعيـــة فى الجنوب ، واستبدالهم ما أمكن بأشخاص جنوبيين ·

ونظرا لحساسية الموضوع فقد وجه ماكمايكل الموظفين البريطانيين فى الجنوب الى ضرورة التزام الحيطة والحذر وتخير الوسائل المناسبة للوصول الى الغاية المطلوبة ··· « يجب ألا يفكر أحد فى طرد هؤلاء الناس بالجملة · بل ينبغى أن يكون الابعاد فرديا وأن تلتمس له أسباب كافية فى كل حالة بحيث يكون فى امكاننا متى ما دعت الضرورة تقديم تفسير كامل أو اجابة مقنعة أو شكوى ينقدم بها أحد ··· »(١٦) ·

وبخصوص الصعاب المتعلقة بتدريب الموظفين الجنوبيين واعدادهم فقد رأى ماكمايكل أن التغلب على هذه المشكلة يكون بتشجيع الارساليات على زيادة تعاونها مع الحكومة وتجاوبها مع السياسة التى اختطتها لادارة الجنوب · كذلك فقد تنبه ماكمايكل الى موضوع اللغة فى الجنوب فقرر « أنه من المعلوم والمسلم به أن اللغة العربية قد أصبحت هى اللغة السائدة فى كثير من أجزاء الجنوب بما فى ذلك مدينة واو نفسها وان اللهجات المحلية قد أندثرت أو

كادت » ولكنه مضى يقول بأنه : « على الرغم من ذلك .. فلابد من بذل كل جهد ممكن لزحزحة اللغة العربية من مكانتها تلك واقامة اللغة الانجليزية مكانها حتى تصير هى لغة التفاهم المعتادة . وبناء عليه فانه يجب على كل موظف لا يتحدث اللهجة المحلية أن يستعمل اللغة الانجليزية فى المخاطبة فاذا لم يكن ذلك ممكنا فان يتعين استخدام مترجم يساعد الموظفين على التفاهم وان ذلك خير من استعمال اللغة العربية حتى يحسن الموظف التحدث باللهجة المحلية ، وعموما فقد كانت السياسة البريطانية تجاه الجنوب مصممة تماما على زحزحة اللغة العربية عن مكانتها والتى كانت تعتبر اللغة الرسمية بل واللغة الحضارية عند كثير من الجنوبيين(١٧) .

أما عن التعليم فانه تجدر الاشارة الى أن اللجنة الاستشارية لشئون التعليم فى المستعمرات كانت قد دعت حكومات المستعمرات الى استخـــدام معلمين من الاقباط من أبناء الشمال وبذل جهد أكبر فى مجـــال الخدمات التعليمية وخاصة بعد أن أدت الحرب العالمية الأولى الى اضعاف ثقة كثير من الأوربيين بحضاراتهم بل والى اضعاف ايمانهم بالقيم المسيحية ، وازاء محاربة اللغة العربية فقد زادت المشكلات فى التعليم فى الجنوب وأصبحت اللغـة الانجليزية قاصرة على خريجى مدارس المبشرين بالرغم من القرار الذى كان قد اتخذ بشأن استخدام الانجليزية كلغة رسمية . وقد درست هذه المسالة بعناية فى مؤتمر الرجاف لشئون اللغة فى عام ١٩٢٨ وقد انعقد هذا المؤتمر تحت رعاية الحكومة وحضره ممثلون لجمعيات التنصير فى أوغندا والكونغو والمعهد الدولى للغات والثقافات الأفريقية ووضع هذا المؤتمر الأسس الضرورية لتنمية اللهجات المحلية واللغة الانجليزية فى الجنوب واقامة كافة العراقيل فى وجه اللغة العربية بدعوى أنها ستفتح الباب أمام انتشار الاسلام وأمام تعريب الجنوب « كما أنها ستحمل معها النظرة السودانية الشمالية »(١٨) .

وكان التقدم الاقتصادى فى جنوب السودان يسير فى الفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ بخطوات بطيئة للغاية اذا ما قورن بشمال السودان(١٩) ولم يكن مرجع هذا البطء الى نقص الموارد المالية وحدها بل كان سببه المغالاة فى تطبيق سياسة الحكم غير المباشر وفلسفة حماية المجتمعات البدائية من التاثيرات الخارجية . وقد أدى هذا الى أن خطوات فصل جنوب السودان عن شماله أخذت تسير بخطى واسعة الى الامام وعبر مسالك متعددة منذ عام ١٩٢٨ . ولم تكن هناك فى الواقع سياسة محددة ينفذها القائمون على الأمور ، والدليل على ذلك أننا تناولنا الجانب التعليمى سنجد أن المفتش المقيم للتعليم يحذر من ترك مهمة تعليم الأحداث الذين يجرى أعدادهم لشغل المناصب الحكومية

للروم الكاثوليك(٢٠) بينما يشفق غيره من أن التلاميذ الذين يتلقون العلم فى المدارس لن يرضوا بالعودة الى ديارهم ومواصلة حياة القبيلة المألوفة . كما كان المسئول المحلى يرى أن رجال بعثات التنصير يعملون على تدمير التقاليد المحلية والعادات الموروثة وان كل من يمر بين أيديهم يفقد صلته بقبيلته ويتحول الى مسيحى يقلد الأوروبيين تقليداً أعمى أو يتحول الى واحد من طبقة الأفندية التى تحتقر مواطنيها(٢١) .

وفى عام ١٩٣٠ تولى سير هارولد ماكمايكل مهمة وضع سياسة محدودة للحد من المخاوف التى ساورت بعض رجال الادارة ، وكانت المبادىء الأساسية التى تحكم السياسة تجاه الجنوب كما وردت فى المذكرة التى وضعها ماكمايكل كما يلى : ـ

(أ) أن تقام فى جنوب السودان سلسلة من الوحدات القبلية أو العنصرية لكل منها اكتفاؤه الذاتى ويستند كيانها وتنظيمها الى العادات والتقاليد الموروثة .

(ب) العمل بالتدريج على استبعاد رجال الادارة والفنيين من أبناء الشمال من مناطق الجنوب واحلال أبناء الجنوب محلهم(٢٢) .

(جـ) استخدام اللغة الانجليزية عندما يتعذر استخدام اللغة المحلية .

وقد شهدت السنوات التالية تنفيذ هذه المبادىء تنفيذاً دقيقاً وبداية للسير فى طريق الانفصال فى صورة عدم تشجيع الاتصال بين القبائل الجنوبية والقبائل العربية المجاورة لها أيضا ، حتى أنه قد جرى ترحيل قبائل مثل باندا ودونجو وكريش وفروج والتى تأثرت كبيرا بالاسلام وبالحضارة العربية والتى كانت على اتصال مستمر بالقبائل العربية فى دارفور وكردفان ، وقد رحلت هذه القبائل من المناطق التى كانت تقطنها واسكنت فى مناطق أخرى بعيدة عن تأثير جيرانها من العرب الشماليين .

وتأسيسا على ذلك أيضا سارت عملية التخلص من التجار الشماليين بسرعة ، فحرم الكثير منهم من تصاريح العمل ورحل بعضهم الى الشمال ولم يحل عام ١٩٣١ حتى كان العدد الباقى فى الاقليم الشمالى من بحر الغزال - على سبيل المثال - لا يتجاوز أربعة تجار بينما كان عددهم فى العام السابق ٢٣ تاجرا « وحتى هذا العدد الضئيل من التجار الشماليين لم يبق طويلا فى الجنوب اذ لم يبق به منذ عام ١٩٢٢ غير اليونانيين والسوريين واليهود »(٢٣) .

وتطبيقا لسياسة الانفصال أيضا فقد منع كافة أبناء دارفور وكردفان

من دخول بحر الغزال ، كما لم يسمح لأبناء بحر الغزال بدخول كردفان أو دارفور . كما طبق نظام لتصاريح المرور أشبه بالنظام المطبق فى جنوب أفريقيا يرمى الى السيطرة على الاتصالات بين الشمال والجنوب . كذلك فقد وجهت النصيحة الى زعماء القبائل وأتباعهم بأن يتخلوا عن أسمائهم العربية ولباسهم العربى ، وصدرت التعليمات الى التجار بعدم بيع أنماط الملابس المستخدمة فى الشمال . كما سارت سياسة مقاومة الاسلام جنبا الى جنب مع سياسة مقاومة اللغة العربية فلم يكن يسمح للمسلمين من أبناء الجنوب بممارسة شعائر دينهم علنا . وكان رجال بعثات التنصير الذين « ينظرون بقلق الى ازدياد قوة الاسلام فى المناطق الوثنية » ويلحون فى العمل لتحويل أبناء هذه القبائل الى المسيحية خوفا من اعتناقهم الاسلام يبدون كل معاونة فى تطبيق السياسة المقررة فى الجنوب ، وبرز دورهم على الأخص فى مجال التعليم والتدريب المهنى . وقد عقدت اجتماعات عديدة بين جمعيات التنصير وممثلى مصلحة التعليم خلال الفترة بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٨ لزيادة التسهيلات التى تمنح للجمعيات وتعديل نظام التعليم بحيث يتلاءم مع السياسة المتبعة فى الجنوب(٢٤) .

وابتداء من سنة ١٩٤١ تحولت السياسة تجاه الجنوب ، فبعد أن كانت تهدف الى ايجاد وحدات قبلية تتمتع بالاكتفاء الذاتى أصبحت ترمى الى فصل الجنوب عن الشمال . وقد زادت هذه السياسة من مخاوف أبناء الشمال الذين انتقدوا فى كافة المؤتمرات آنئذ السياسة الموضوعة للتعليم فى الجنوب ، وطالبوا بالتخلى عن القيود المفروضة على التجار الشماليين ودعوا الى التوسع فى الخدمات التعليمية فى الجنوب والى ايجاد نظام موحد للتعليم فى السودان كله وايقاف المساعدات التى تمنح لمدارس بعثات التنصير .

وهكذا نرى أن السياسة المقررة للجنوب والتى وضعت فى عام ١٩٣٠ نفذت بصورة ايجابية عن طريق اتخاذ مجموعة من التدابير الاقتصادية والسياسية والادارية . ومنذ عام ١٩٤٥ وهذه السياسة تأخذ شكلا أكثر خطورة حيث كتب الحاكم العام الى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة يقول : « ان السياسة المقررة هى مراعاة أن الشعوب القاطنة جنوب السودان هى بغير شك شعوب أفريقية وزنجية وان واجبنا الأسمى هو العمل بأسرع ما نستطيع لاتمام التنمية الاقتصادية والتعليمية بين هذه الشعوب على أسس افريقية وزنجية وليس على أسس عربية أو منتمية الى منطقة الشرق الأوسط »(٢٥) .

وفى عام ١٩٤٤ أنشئت لجنة « السودنة » — الدلالة على عملية تعيين

موظفين سودانيين مكان الموظفين البريطانيين والأجانب المستخدمين فى أجهزة الدولة المختلفة وفقا للسياسة الفاضية بتقدم السودان فى سبيل الحكم الذاتى - وكان انشاء لجنة السودنة هذه دافعا جديدا لاعادة النظر فى سياسة الجنوب وسودنه الخدمة المدنيه فيه ، وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى ماكتبه السكرتير الادارى الى مدير المديرية الاستوائية آنئذ قائلا : « ان الاسراع بسودنة أجهزتنا الادارية قد أصبح اليوم أمرا هاما وبالغ الحيوية من وجهتى النظر السياسيه والادارية » ، غير أن التقرير الذى تمخضت عنه دراسات اللجنة لم يقف عند حد التوصية بضرورة انهاء النظام القائم عندئذ والذى كان يقضى بمنح الجنوبيين أجورا أقل كثيرا من أجور زملائهم من الشماليين وهو ما كان يعد ادانة قوية لسياسة الجنوب حسب ما يراه أحد الباحثين السودانيين ومن هنا فقد رفض السكرتير الادارى أن ينشر هذا التقرير(٢٦) ، لكن عدم نشر التقرير لم يكن فى حد ذاته خاتمة البحث فى الموضوع ، بل كان بمثابة دلالة أخرى على ضرورة التعجيل باعادة النظر فيه وصياغة سياسة جديدة للجنوب ، وقد أكد ذلك فى نظر الحكومة أزدياد ضغط الحركة الوطنية لالغاء السياسة القديمة الرامية الى فصل الجنوب واستبدالها بسياسة تستهدف دعم الوحدة الوطنية للسودان ثم ما انتهى الى علم الحكومة من ان « خطط شرق افريقيا الخاصة بتقوية سبل الاتصال بجنوب السودان قد تكشفت عن ضعف وعدم وضوح »(٢٧) • واعترف السكرتير الادارى آنئذ السير جيمس روبر تسون بان صفات سكان جنوب السودان الأساسية أنهم زنوج أفريقيين الا أن العوامل الجغرافية والاقتصادية قد قضت بربطهم بالمستعربين من أهل السودان الشمالى •

٣ - مؤتمر جوبا والتطورات اللاحقة :

وبناء على الاقتراح الذى تلقاه السكرتير الادارى من ١٤ موظفا من البريطانيين تم عقد مؤتمر آخر(٢٨) فى الجنوب على غرار المؤتمر الادارى الذى عقد فى سنة ١٩٤٦ ، وقد قدم هذا المؤتمر توصيات من أهمها الغاء المجلس الاستشارى لشمال السودان وانشاء جمعية تشريعية بدلا منه تمثل فيها المديريات الجنوبية الى جانب الشمالية ، وقد أعلن جميع ممثلى الجنوب باستثناء واحد أو أثنين من زعماء المديرية الاستوائية ضرورة قيام الوحدة السياسية بين الشمال والجنوب وأن الجنوب لا يمكن أن يبقى مستقلا أو أن يضم فى اتحاد مع أوغندا ، وان انفصال الجنوب عن الشمال ليس فى مصلحة الجنوب اقتصاديا أو سياسيا نظرا لتخلف مناطق الجنوب •

واذا كان مؤتمر جوبا قد قضى لفترة من الزمن على الاتجاهات الاقليمية وعلى الدعوة الى اقامة نظام اتحادى أو الى تشكيل مجلس استشارى مستقل لجنوب السودان فقد كشف من ناحية أخرى عن المخاوف العديدة التى تصاور أبناء الجنوب ، وبالتالى فقد عزز مؤتمر جوبا من آراء الاداريين الانجليز المطالبين بالضمانات ، وبالرغم من ذلك فقد شهد جنوب السودان فى هذه الفترة تقدما يعزى فى الجانب الأكبر منه الى الأموال التى قدمها دافعوا الضرائب فى الشمال ذ دفع لشمال فى عـــام ١٩٤٧ ما يقرب من مليون جنيه(٢٩) لسد العجز فى موارد الجنوب .

وعموما فقد طبق نظام الحكم الذاتى فى كل من الشمال والجنوب ابتداء من عام ١٩٥٧ ، ولم يكن قادة الجنوب يطلبون شيئا أكثر من التقدم الاقتصادى والاجتماعى والمشاركة مع الشمال على أساس يضمن للطرفين ان يكـــون بقاؤهما معا فى مصلحتهم جميعا ، وان تجرى الادارة فى الاقليمين كما لو كانا وحدة ادارية واحدة . ومن الثابت أن قيادة الجنوب كانت اقل تدريبا من قيادة الشمال كما كانت أقل استعدادا للنهوض بالمهام الجديدة للحكم الذاتى. وكان السودان الجنوبى كله غير مهيأ للتطورات السياسية الجديدة ، فلم تكن هناك أحزاب سياسية منظمة ولا وعى قومى يربط قبائله المختلفة حيث كان ولاء سكانه للقبائل وحدها ، وليس للسودان بأسره بل وليس للجنوب ذاته . وكان تمرد عام ١٩٥٥ نتيجة لما شعر به الجنوبيون من خيبة أمل(٣٠) ولما اتصفت به الأحزاب السياسية فى الشمال أيضا من قلة خبرة وضيق أفق . ورغم تعدد الخطوات التى اتخذت فى المجـــالات الاقتصاديـــه والتعليميه والاجتماعية فان المسألة السياسية بقيت بغير حل ورغم أن الجنوب كان متحدا مع الشمال من الناحيه الشكلية وممثلا فى نفس الهيئات السياسية ، فقد بقى فى عزلته متمسكا بكيانه المستقل . ولم يكن متيسرا القضاء خلال بضع سنوات من الديموقراطية البرلمانية على آثر ما تم خلال خمسين عاما وأكثر . وكانت أحزاب الشمال تركز اهتمامها على شخص الحاكم(٣١) اكثر مما تهتم بدراسة المشاكل القائمة فى الشمال والجنوب ، وكان لهذا كله آثاره الضارة فى الجنوب فقد استخدم رجال جمعيات التنصير ودعاة الانفصال من أبنـــاء الجنوب هذه الأحداث لزيادة نشاطهم وتوسيع دعايتهم ضد الشمال . وكان فوز الحزب الاتحادى فى الانتخابات البرلمانية فى عام ١٩٥٨ تعبيرا واضحا عن تغلب وجهات النظر المتطرفة ، ووجد المتمردون الذين أفلتوا من قبضة القانون فى عام ١٩٥٥ ولجأوا منذ ذلك الحين الى الغابات كما وجدوا فى السخط السائد فرصتهم للظهور من جديد واستئناف نشاطهم . وخلال هذه الفترة من السخط فى الشمال والجنوب ونتيجة لتدهـــور الأوضاع الاقتصاديـة

والأضطراب السياسى تقدم الجيش فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ واستولى على السلطة ودخلت قضية جنوب السودان منذ ذلك الحين مرحلة جديدة ، حيث جاء استيلاء الجيش على السلطة دليلا على فشل الاحزاب السياسية فى أن تقدم للشعب السودانى فى مجموعة حكومة قادرة على حل المشاكل الاقتصادية وقضية الوحدة الوطنية . وحتى التغيير الذى طرأ على شكل الحكم الجديد لم يكن له تأثير مباشر على الجنوب اذ لم يكن الدكتاتورية العسكرية برئاسة اللواء عبود - شأنها شأن النظام البرلمانى السابق - أى مشاريع أو برامج محددة لحل قضية الجنوب ، وقد ركز النظام العسكرى اهتمامه خلال العامين الأولين على معالجة الوضع الاقتصادى وابعاد المجموعات الساخطة والأفراد المتذمرين من صفوف ايش وقمع المعارضة التى تتخذ صورة نشاط سياسى للاحزاب او للنقابات أو لتنظيمات الطلاب ، ولم يوجه هذا النظام أى اهتمام يذكر لمسألة الجنوب بالرغم مما قد تحققه الحكم العسكرى من استقرار فى الشمال لكن هذا الاستقرار السياسى كان استقرارا سطحيا ، ودفعت المعارضة السياسية الثمن غاليا وانعكس ذلك على لزج بكثير من لساسة والنقابيين و لطلاب والشيوعيين فى السجون .

وفى الجنوب عمل الحكم العسكرى على قمع المعارضة كما فعل فى الشمال ، وكان متعجلا فى نشر اللغة العربية وبسط القواعد الاسلامية(٣٢) اعتقادا منه بأن هذا هو السبيل الوحيد الى تحقيق لوحدة فى المستقبل ، كما اهتم بانشاء عدد من مدارس تحفيظ القرآن فى مختلف المراكز الجنوبية وقد انعكس ذلك أيضا على تقليص دور رجال بعثات التنصير ثم طردهم ، ففى عام ١٩٦١ حرم عقد أى اجتماع دينى للصلاة خارج الكنائس ومنع عدد من رجال التنصير من العودة الى السودان بعد انتهاء أجازاتهم وفى عام ١٩٦٢ أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة مرسوما جديدا بشأن جمعيات المبشرين ثم أعلنت وزارة الداخلية فى ٢٧ فبراير ١٩٦٢ طرد جميع رجال بعثات التنصير من جنوب السودان وكان عدد العاملين منهم فى السودان فى ذلك الحين ٦١٧ رجلا من رجال التنصير .

وقد اشتركت صحافة الغرب فى انتقاد خطوة طرد رجال التنصير على اختلاف اتجاهاتهم ودون تمييز كما انتقدته دوائر الفاتيكان غير أن طرد رجال التنصير على هذه الصورة كان نتيجة منطقية لموقف العداء الذى اتخذه رجال التنصير من ناحية ولطبيعة الدكتاتورية العسكرية من ناحية أخرى .

وكانت الأحداث السياسية فى جنوب السودان تسير فى ذلك الوقت

فى اتجاه جديد ، اذ أدت اجراءات القمع التى اتخذها الجيش فى لجنوب الى انتقال آلاف من الجنوبيين لى خارج السودان الى أوغندا وكينيا وأثيوبيا ، وشكلوا تنظيمات معارضة مثل « رابطة السودان المسيحية » و « الاتحاد الوطنى للمناطق المغلقة بالسودان الافريقى والمعروف باسم « ساكدنو » الذى وجه فى عام ١٩٦٣ مذكرة الى الأمم المتحدة أعلن فيها أنه يطلب الاستقلال لجنوب السودان لأنه لم يستطع الحصول على الاتحاد الفيدرالى · ثم غير « ساكدنو » اسمه فى عام ١٩٦٣ فأصبح « سانو » ولكن ذلك لم يستتبع تغييرا فى أهدافه ، وقد اتخذ مقره الرئيسى فى ليوبولدفيل بالكونغو وتركز نشاطه أساسا فى توجيه المذكرات الى الأمم المتحدة والى منظمة الوحدة الافريقية(٣٤) ·

أما فى داخل الجنوب نفسه فقد اشتعلت الاضطرابات فى أنحائه على أثر صدور المرسوم الخاص برجال التنصير ، وشهد عام ١٩٦٣ ظهور جمعية « آنيانيا » على مسرح الأحداث · وتألفت هذه الجمعية فى بدايتها من أشخاص كانوا من قبل جنودا فى الفرقة الاستوائية أو من الجنوبيين الذين خرجوا من السجون بعد قضاء مدة العقوبة أو ممن أفرج عنهم الحكم العسكرى فى مناسبات مختلفة ، وكان تشكيل هذه الجمعية يعد أثرا من آثار السخط على « المحاولات السلمية التى بذلها قادة الاتحاد الوطنى الأفريقى السودانى للوصول الى تسوية » وقد حددت الجمعية أهدافها عند الاعلان عن تشكيلها بقولها : « لقد بلغ الصبر مداه وفى يقيننا أننا لن نصل الى شىء الا باستخدام القوة وسنقوم من الآن فصاعدا بتحرير أنفسنا ··· اننا لا نطلب الرحمة من أحد ولن نمنح رحمتنا لأحد » · ولم تتردد « آنيانيا » فى تدمير الكبارى واغلاق الطرق واطلاق الرصاص على الجنود وعلى الشماليين وعلى الجنوبيين فى تعاونهم مع الحكومة ، وبدأت بذلك حرب العصابات · وفى يناير سنة ١٩٦٤ قامت آنيانيا بمحاولة جريئة للاستيلاء على مدينة واو فى مديرية بحر الغزال غير أن الحكومة قامت باجراءات مضادة تجاه آنيانيا ومنها منع كافة أشكال النشاط السياسى فى الجنوب ، وقد تركت آنيانيا المسرح السياسى بعد الاجراءات الحكومية الصارمة تجاهها ومضت فى تكوين جيش يتهيأ لمواجهة جيش الشمال ، وأدى ازدياد نشاط آنيانيا الى اجراءات مضادة من جانب الجيش أيضا فزاد عدد القتلى من الجانبين وزاد اللاجئين من السودان الى أوغندا وبلغ ١٢ ألفا — ويقدره البعض بخمسين ألفا — · وهكذا نجد أنه بعد انقضاء ثمانى سنوات على استقلال السودان زادت الأوضاع سوءا ولم تتقدم مشكلة الجنوبيين خطوة واحدة فى طريق الحل ، وكانت العمليات العسكرية فى الجنوب باهظة التكاليف وأخذ الموقف

الاقتصادى فى السودان برمتها يتدهور من سىء الى أسوأ • وازداد الرأى العام العالمى قلقا بسبب تدهور الأوضاع لدى الجنوبيين ، وكانت الأحزاب السياسية فى الشمال تركز اهتمامهم فى البحث عن وسيلة لانهاء الحكم العسكرى ولم تعبأ بمسألة الوصول الى حل سياسى لمشكلة الجنوب • ولم يشذ عن هذا الموقف سوى الحزب الشيوعى السودانى الذى كان يمارس نشاطه بشكل غير قانونى ، اذ كان هذا الحزب يعترف دائما بالفوارق بين الشماليين والجنوبيين ويدعو الى حكم ذاتى محلى لمديريات الجنوب الثلاث ضمن اطار السودان المتحد •

أما الدكتاتورية العسكرية التى كانت ترفض حتى ذلك الحين الاعتراف بوجود مشكلة الجنوب فقد استمرت فى تنديدها بالاستعمار رجال التنصير على أنهم أصل المشكلة • بيد أن الحكم العسكرى لم يلبث أن واجه الاختيار بين الاستمرار فى حرب باهظة التكاليف تؤدى الى مزيد من التدهور وبين البحث عن حل سلمى ، ثم اختار هذا الحل الأخير • ففى سبتمبر ١٩٦٤ شكلت لجنة تحقيق تضم ١٩ من الجنوبيين و ١٣ من الشماليين لدراسة أسباب القلق والاضطرابات فى الجنوب وخلق الاستقرار الداخلى دون مساس بالكيان الدستورى أو بمبدأ الحكومة الموحدة • وقد ثبت فيما بعد أن تشكيل هذه اللجنة كان بداية النهاية للحكم العسكرى ، فلم تكد اللجنة تبدأ أعمالها حتى سقطت الدكتاتورية العسكرية وأعيدت الحكومة المدنية •

وقد جاءت أحداث ثورة أكتوبر ١٩٦٤ لتشكل هى الأخرى تطورا جديدا فى مسألة الجنوب ، حيث دعت حكومة الثورة جماهير شعب السودان الى المشاركة بالرأى لايجاد حل سياسى ، وقد تقدم حزب سانو باقتراح يدعو فيه الى عقد مؤتمر مائدة مستديرة — وقد نشط حزب سانو فى هذه الفترة نظرا للدعوة التى وجهت بعودة القادة السياسيين الجنوبيين الموجودين فى الخارج الى السودان — وازاء هذا الأمر الواقع قرر زعماء « سانو » حضور المؤتمر وأرسلوا وفدا لتمثيلهم •

وقد انعقد المؤتمر فى ١٦ مارس ١٩٦٥ وتقدم كل من ممثلى أحزاب الشمال والجنوب بمقترحاتهم والتى يرون فيها حلا لمشكلة الجنوب ، فأشارت أحزاب الشمال أن يتم حل هذه المشكلة فى اطار السودان الموحد وأن يقوم فى الجنوب حكم اقليمى ، على أساس أن يكون للجنوب مجلس تشريعى ومجلس تنفيذى ، وعلى أن تعين الحكومة المركزية أحد أبناء الجنوب حاكما ورئيسا للمجلس التنفيذى ، وأن يكون هناك أيضا منصب لنائب رئيس

الجمهورية من الجنوبيين · والملاحظ أن هـــذه المقترحات من جانب أحزاب الشمال قد ذهبت أبعد بكثير مما كان يطالب به أكثر الجنـــوبيين تطرفا فى عام ١٩٥٨ ·

أما مقترحات أحزاب الجنوب فقد بدا أنها غير مترابطة ولم يكن بينهـا أى تنسيق · وقد انعكس ذلك على الانشقاق فى صفوف حزب ســانو حيث كان هناك جناح معتدل يتزعمه « وليم دينبننج » يرى الحل فى اتحاد فيدرالى بين الجنوب والشمال وفى تعيين نائب لرئيس الجمهورية من الجنوبيين على أن تشكل حكومة الاقليم الجنوبى لشئون الادارة المحلية وتكون اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية للجنوب · أما الجناح المتطرف فكان يطالب بالانفصـال ولا سبيل أمامه لحل وسط · ومما تجدر الاشارة اليـــه أن منظمة الانيانيا رفضت حضور مؤتمر المـائدة المستديرة ، وقد أدى هذا الى فشل هـــذا المؤتمر لعدم وجود حد أدنى من الاتفـــاق بين ممثلى الجنوب · وقـد اتفق المؤتمرون على تكوين لجنة من اثنتى عشر عضوا من أبناء الشمال والجنوب ، وبعد ذلك تعرض هذه الحلول فى الاجتماع التالى للمؤتمر ، غير أنّ الأحداث وتطورها فى الجنوب وزيادة هجمات المتمردين على مدن الجنـــوب قد اضطر الوزارة التى تولت مقاليد الأمور فى عام ١٩٦٥ الى استخدام القوة والعنف ، والى تصفية المنظمات الارهابية فى جنوب السودان وتجريدها من أسلحتهـا وعلى أثر ذلك انسحب الحزب الشيوعى من لجنة الاثنى عشر وتبعـــه حزب الشعب الديموقراطى ، وفشلت اللجنـــه كما فشل قبلها مؤتمر المـــائدة المستديرة ·

وفى مارس ١٩٦٨ شكلت حكومة انفصاليه تزعمهـــا أكرى جادين ، أعلن عن خطته التى تتلخص فى اســـتبعاد الحل السلمى لمشكلة الجنـــوب وتشجيع الكفاح فى الجنوب من أجل التحرر من الشـــمال واعتبار حكومة السودان الجنوبية الانتقالية فى حالة حرب بين الجنوب والشمال ووضـــع دستور خاص للجنوب · وفى بداية عام ١٩٦٩ زاد الانشقاق فى صـــفوف الانفصاليين الى حد أصبح يشكل خطرا على كيان الحركة والحكومة الانفصالية مما أدى الى اقصاء جادين من رئاسة الحكومة ثم حل الحكومة برمتهـا ، وقد شكل جودرين الذى كان وزيرا للخارجية حكومة انفصالية جـديدة تحت اسم « حكومة النيل الانتقالية » التى أصدرت ميثاق عملها وحاولت الحصول على دعم من الدول التى تؤيد مواقفها الانفصالية . وظلت هـــذه الحـكومة تمارس نشاطها الى أن قام اللواء جعفر نميرى بثورته فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ ثم تولى الرئاسة ·

.. وفي يونيو ١٩٦٩ صرح الرئيس نميرى بأن الثورة السودانية تدرك الأبعاد الحقيقية لمشكلة الجنـــوب ، وأن حكومته تعترف بواقـــع الفـــوارق التاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين الشمال والجنوب ، ولذلك هذا التصريح اتخاذ اجراءات هامة لتنفيذه ومنها اعلان العفو العام عن جميـــع قررت منح الجنوب الحكم الذاتى الاقليمى فى نطاق السودان الموحد • وتلى المنفيين الجنوبيين وانشاء وزارة سودانية لشئون الجنوب يرأســها وزير من أصل جنوبى وقد بدأت هذه الوزارة مباشرة مهامهـــا بالفعـل فى فبراير ١٩٧٠ • كذلك فقد شكلت الحكومه لجان للأمن فى مديريات الجنوب تعمـل بمعاونة الجيش والشرطة على اعادة تعمير القرى ، ونجحت هذه اللجان فى اعادة الحياة الى ٤٠ قرية من قرى الجنوب ، كما وضعت الحكومة خطة للتنمية وركزت جهودها على الجنوب وبذلت محاولات لاعادة الحركة التجـــارية التى كانت قائمة بين سكان الجنوب والكونغو ، أما فى بحـــر الغزال فقد أقامت مشروعا لزراعة الارز على مساحة ٨٠٠ فدان ، كما راعت الحـكومة المركزية ربط الجنوب بالشمال عن طريق النقابات ، فقامت وفود عمالية من الشمال بجولة فى الجنوب بهدف انشاء نقابات فى المديريات الثلاث كما قامت بعدة اتصالات مع الزعماء الجنوبيين فى الخارج • وكان من نتائج هذه الجهود أن تقبل البعض منهم فكرة الحكم الذاتى مع التحفظات • وبالرغم من ذلك فان منظمة آنيانيا العسكرية بقيت معتصمة فى أوغندا ، وقامت بينهـــا وبين القوات المسلحة السودانية بعض الاشتباكات ، وكان لعدم وجود قيـــادة موحدة لمنظمة آنيانيا أثره فى صعوبة التفاوض مع الحكومة المركزية •

وقد أجرت الحكومة المركزية عديدا من الاتصالات بعد استقرار حكمها نتيجة لفشل محاولة قلب نظام الحكم فى يوليو ١٩٧١ والفترة اللاحقة • ومن جهود الحكومة أيضا فى هذا الصدد قيامها باتصالات مع الفاتيكان الذى له نفوذ كبير فى الجنوب لحث الجنوبيين على قبول فكرة الحـــكم الذاتى المحلى ، كذلك جهود الحكومة فى عقد اتفاقية أديس أبابا فى فبراير ١٩٧٢ • وقـد حدد الرئيس نميرى فى عرضه أن تمنح المديريات الثلاث الجنوبية الحـــكم الذاتى الاقليمى ، وأن تختص الحكومة المركزية بالدفاع والشئون الخارجيـة ويعنى هذا أن يبقى الجنوب جزء لا يتجزأ من السودان الموحد • كذلك فقد تعهدت الحكومة المركزية فى نطاق الحكم الذاتى المحلى لسكان الجنوب الذى يبلغ عددهم ٣ ملايين نسمة معظمهم يدينون بالمسيحية والاســـلام والأديان الافريقية — تعهدت الحكومة بالعمـــــل على النهوض بالتنمية الاقتصــــادية للمديريات الثلاث •

أما الوفد الذى مثل الجنوب فى أديس أبابا فقد جاء الى المفاوضات وفى جعبته مقترحات أخرى مضمونها اقامة نظام فيدرالى للسودان يشمل الجزئين الجنوبى والشمالى ويكون لكل منهما حكومة اقليمية مستقلة بما فيها جيش خاص ، على أن ترأس الادارة الفيدرالية فى الخرطوم هذه الفيدرالية ، ولا يتولى رئيس الجمهورية رئاسة الجيش الجنوبى والشمالى الا فى حالة حدوث عدوان خارجى . وبعد مباحثات دامت أسبوعين توصل الفريقان فى ٢٨ فبراير ١٩٧٢ الى ابرام اتفاقية تضمنت وضع قانون تنظيمى لاقامة مؤسسات تشريعية وتنفيذية للجنوب ، ودمج المديريات الثلاث فى الجنوب فى اقليم واحد له مجلس شعبى واحد ومجلس تنفيذى يعينه الرئيس السودانى على أن يحظى بتأييد المجلس الشعبى ، ويمارس المجلس التنفيذى اختصاصات وسلطات ميزانية التنمية فى جميع القطاعات كما يتولى مسئولية الشرطة والأمن فى الجنوب ، وتعتبر اللغة الانجليزية هى اللغة المستخدمة فى الجنوب ولكن تظل اللغة العربية هى اللغة القومية للسودان ، ويخصص فى مجلس الشعب السودانى عدد من المقاعد لسكان الجنوب يتناسب مع تعدادهم .

كما تضمنت الاتفاقية أيضا ضرورة أن تلحق قوات أنيانيا بالجيش السودانى خلال فترة انتقالية تصل الى خمس سنوات . وعقد بروتوكول خاص باللاجئين لتنظيم عودتهم الى الحياة العادية فى السودان .

وعموما يمكن القول أن رغبة سكان جنوب السودان الذين لديهم الرغبة الملحة فى أن يديروا شئونهم بأنفسهم وكانت سياسات الحكومات السابقة فى السودان تتصف بالجمود والمركزية تجاه الجنوب ، لأنها جاءت فى الفترة التى تلت استقلال السودان والتى أقسمت بضرورة دعم الوحدة القومية السودانية فى حين كانت السياسة البريطانية تريد ربط الجنوب بأوغندا ، وهو ما أثار مخاوف الحكومة المركزية فى فترة ما بعد الاستقلال . وفى تقييم مؤتمر أديس أبابا الخاص بجنوب السودان عام ١٩٧٢ يمكن القول أن البيان المشترك الذى صدر عن المؤتمر قد أكد انتصار المفهوم الافريقى لحق تقرير المصير بمعنى حق الدول الافريقية فى تقرير مصيرها دون اجراء أى تعديل فى الحدود الدولية التى وجدت عليها وقت اعلان استقلالها . والجدير بالذكر أن منظمة الوحدة الافريقية قد اعتمدت هذا المفهوم فى النزاعات العديدة التى طرحت أمامها .

وبالرغم من كافة الجهود التى بذلتها الحكومة المركزية تجاه الجنوب

فلا تزال مشكلة الجنوب تبرز الى السطح من وقت لآخر ، وهناك عامل ومشكلات سياسية واقتصادية ينبغى مواجهتها فضلا عن أن الخلافات بين الشمال والجنوب هى خلافات بعضها من صنع الطبيعة والبعض الآخر من صنع الانسان ، وقد كان للتاريخ والفوارق الاقتصادية ولأخطاء الساسة وجمعيات المبشرين ٠٠ كان لكل منها دوره فى زيادة حدة هذه المشكلة ٠

والصورة السائدة فى جنوب السودان اليوم لا تزال هى النزعة القبلية واستمرار الترحال وتعدد اللغات وضعف الامكانيات الادارية والتنظيمية بما لا يسمح بقيام حكومة فى جنوب السودان لها صفة الاستمرار والاستقرار ، وتأسيسا على ذلك فان سكان جنوب السودان من الأفضل لهم أن يبقوا فى اطار السودان المتحد ٠٠ ذلك أجدى لهم اقتصاديا واجتماعيا خاصة وأن الحكومة المركزية تمنحهم دعما ربما أكثر مما يمنح الشمال ٠

الهوامش :

(1) Toynbee, A.J., Between Niger and Nile. London, 1965 p. 95.

(2) Arkell, A.J., A History of the Sudan. London, 1961. pp. 20-23.

(3) Hamilton, J., The Anglo Egyptian Sudan from within. London, 1935. p. 29.

(4) Hamilton; J. op. cit., pp. 81 - 87.

(6) Ibid pp. 220 - 223.

(7) Beshir, M.O., The Southern Sudan, Background to Conflict. London C. Hurst, 1970 pp. 51 - 60.

(8) Ibid p. 70.

(9) Letter from E. Grove to the Director of Intelligence, Khartoum, Sep. 17; 1918, SGA - CIVSCE - File - 7 A, 216.
— Sanderson, Lilian, Educational Development in the Southern Sudan, 1900 - 1948, Sudan Notes and Records XL. III, 1962, pp. 105 - 117.

(١٠) التقرير السنوى لعام ١٩١٠ رقم (1911) Egypt No. 1 (10)
وقد سبق ذلك ايضا التقرير السنوى لعام ١٩٠٥ رقم (1906) ويرجع ايضا الى حطاب كرومر الى سولزبرى Salisbury بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٠٠ وهو محفوظ فى دار الوثائق العامة P.R.O. فى لندن برقم F.O. 633 — Vol. 6.

(١١) دكتور مدثر عبـــد الرحيم الطيب · مشكلة جنوب السودان · الخرطـوم · الدار السودانيه ١٩٧٠ · ص ٣١ ـ ٤١ ·

(١٢) المذكرات الخاصة بالسودان من أوراق اللورد ملز المحفوظه فى مكتبه نيو كولدج باكسفورد ، المذكره المؤرخة الخرطوم ١٤ مارس ١٩٢٠ ·

(١٣) التقرير السنوى لعام ١٩٢٠ رقم (Egypt No. 2, 1921) ص ١٢٥ ·

(١٤) دكتور مدثر عبد الرحيم الطيب ، مشكله جنوب الســـــودان ، مرجـــع ســـابق ص ٤١ ـ ٤٦ ·

(١٥) المرجع السابق ·

(١٦) خطاب ماكمايكل الى مدير بحر الغزال بتاريخ ١١ مايو ١٩٣٠ · والخطاب محفوظ بدار الوثائق المركزية بالخرطوم ·

(١٧) دكتور مدثر عبد الرحيم الطيب · مشكلة جنوب السودان · مرجع سابق ص ٤٣ ·

(١٨) مذكره فى تأييد استخدام اللهجات المحلية . فى · حكومة السودان ، النشرة السودانية ١٩٤١ · ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ·

(19) Sudan Government, Reports of Governors of Provinces; 1925, Khartoum p. 9.

(20) Letter from N.P. Hunter, Director of Education, 12 November 1925.

(21) Report by Governor, Upper Nile Province, June 1925.

(٢٢) مذكرة عام ١٩٣٠ بشأن السياسة تجاه الجنوب الصادرة من مكتب مدير الداخلية في ٢٥ يناير ١٩٣٠ . في : محمد عمر بشير : جنوب السودان • مرجع سابق ص ١٨٣ •

(23) Collins, The Sudan, Link with the North, London p. 2.

(24) Cash, W., The Changing Sudan, London, 1930, p. 54.

(25) Letter from Acting Governor General of the Sudan to the High Commissioner in Cairo, No. 89 — ICI, Khartoum; August 4, 1945.

(٢٦) يروى الأستاذ الدرديرى محمد عثمان أحد أعضاء اللجنة قصة التقرير وكيف أنهم بعد أن زاروا الجنوب وطافوا به ثم وصفوا واقع الجنوب بصدق وبالأخص أعمـــال المبشرين ثم قدموا التقرير لمكتب السكرتير الادارى فلم يشأ نشره قائلا « أنه ورقة اتهام للحكومة وليس بتقرير » •

(٢٧) خطاب السكرتير الادارى الى السكرتير المـالى والسكرتير القضائي والقائد العـــام ومديرى المصالح ومديرى المديريات الجنوبية بتـــاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٤٦ • دار الوثائق ، الخرطوم نقلا عن دكتور مدثر عبد الرحيم الطيب ، مشكلة جنوب السودان ، مرجع ســـابق ، الملحق الخامس ، ص ١١٠ — ١١٦ •

(٢٨) يرجع فى تفصيل ذلك الى ابراهيم محمد حاج موسى : التجربة الديموقراطية وتطور نظام الحكم فى السودان ، الخرطوم ١٩٦٨ ، ص ٥٩١ •

(29) Letter from Civil Secretary to Governor, Equatoria, August 21, 1947.

(30) Bashir, M.O., The Southern Sudan, op. cit. p. 164.

(31) Ibid.

(32) Republic of the Sudan : Basic Facts about the Southern Sudan, Khartoum, 1964 p. 78.

(33) "The Universe" London, December 16, 1960.

(34) Letter from SANU to OAU, December 16, 1963.

(35) Collins, The Sudan, op. cti., p. 67.

(36) Evidence before the OAU Committee for Refugees, p. 9.

(٣٧) يرجع فى تفصيل ذلك الى :

— ابراهيم محمد حاج موسى : التجربة الديموقراطية فى السودان • بدون مكان اصدار ١٩٧٣ ، ص ٦٠ •

— نبيه الأصفهانى : التصالح الوطنى ووحدة التراب السودانى فى : مجلة السياســة الدولية العدد ٢٧ المجلد الثانى ١٩٧٢ ، ص ٣٨٤ — ٣٨٩ •

الفصل السابع

النزاع الأثيوبى الصومالى
في القرن الافريقى

١ ـ منطقة القرن الافريقى : بعض الملاحظات الجيوبوليتكية :

تعتبر منطقة القرن الافريقى حلقة الاتصال بين أجزاء الوطن العربى فى قارتى آسيا وأفريقيا ، وقد سميت المنطقة بالقرن الافريقى لأنهـــا تشكل ذلك النتوء البارز فى الجانب الشرقى من وسط القارة الافريقية ، كما تطل المنطقة على بحر العرب شمال غرب المحيط الهندى ، وتشكل مع جمهـــورية اليمن الشعبية الجنوبية ومع الصومال وجيبوتى وأثيوبيا واريتريا المدخـــل الجنوبى للبحر الأحمر الذى يقف عند مدخله باب المندوب • ويحد جغرافيا من الغرب بخط وهمى يمتد من خط الحدود السياسية بين كينيا والصومال الى حدود جيبوتى الغربية • وقد برزت الأهمية الاستراتيجية لمنطقة القرن الافريقى باعتبارها تتحكم فى طريق البترول بين منطقة الخليج ودول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية (١) ، كما تتحكم هذه المنطقة فى الطرق الدولية للتجارة العالمية الى المحيط الهندى أو عبر البحرين الأحمر والمتوسط عن طريق باب المندب والبحر الاحمر وقناة السويس ثم البحر المتوســـط ومضيق جبل طارق ، وكذا مضيق موزمبيق ورأس الرجاء الصالح ثم المحيط الأطلنطى •

وترتب على تلك الأهمية للقرن الافريقى أن أصبح منطقة صراع بـــين القوى العظمى فالكل يتسابق على فرض نفوذه عليهـــا للاستئثار بمزاياها

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك :
John H. Spencer, Ethiopia, The Horn of Africa and U.S. Policy (Cambridge : Institute for Foreign Policy Analyssi, Inc.) September 1977 pp 17 - 33.

الجغرافية والاستراتيجية دون غيره وذلك لتحقيق أحد الاهداف الاستراتيجية الكبرى بتأمين السيطرة على طرق الامداد بالبترول ٠

وتشمل منطقة القرن الافريقى من الناحية السياسية على الدول والمناطق التالية :

الصومال :

ومساحتها حوالى ٦٢٠ ألف كيلو متر مربع ، وتقع الصومال عند منطقة القرن الافريقى وقد حصلت الصومال على استقلالها عام ١٩٦٠(٢) وكانت قبل ذلك مقسمة الى الصومال الايطالى ويمتد من حدود كينيا ويشتمل على جنوب الصومال ، والصومال البريطانى ويمتد من حدود جيبوتى الى رأس الاحتراس (جاردافوى) ويشتمل على المنطقة الشمالية من الصومال المشرفة على خليج عدن ويبلغ تعداد سكان الصومال حوالى ٣ ملايين نسمة معظمهم بدو رحل ونسبة التعليم قليلة ، والجزء الشمالى من الصومال يعتبر من أهم مناطقه الحيوية فهو يضم محور بربرة - هارجيسا ويشرف بساحله الشمالى على خليج عدن ويؤثر بحكم موقعه على مضيق باب المندوب ومن أهم بلدانه : مقديشو العاصمة وبربرة وهى ميناء هام على خليج عدن وموقعه مؤثر بالنسبة لمضيق باب المندب وهناك أيضا قسمايو وهارجيا فى زيلع والجزء الشمالى من الصومال يعتبر من أهم مناطقه الحيوية فهو يضم محور بربرة - هارجيسا ويشرف بساحله الشمالى على خليج عدن ٠

جيبوتى :

مساحتها حوالى ٢٢٠٠٠ر٢٢ كيلو متر مربع ، وتقع جيبوتى على الشاطىء الافريقى عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر جنوب غرب باب المندب ويحيط بها الصومال وأثيوبيا (الحبشة وأريتريا) ، وقد حصلت على استقلالها فى ٨ مايو ١٩٧٧ بعد أن استمرت خاضعة للاحتلال الفرنسى لمدة ١١٥ عاما وبعد استقلالها أصبحت الدولة العربية رقم ٢٢ بجامعة الدول العربية ، ويبلغ تعداد سكان جيبوتى حوالى مائة الف يعملون فى صيد

---

(٢) راجع فى تفصيل ذلك :

John Drysdale. The Somali Dispute (New York, Praager, 1964), pp. 21-28.

السمك والخدمة فى الميناء وهم ينتمون الى قبيلتى العفر ذات الأصول الأثيوبية والعيسى ذات الأصول الصومالية ويعتبر ميناء جيبوتى الهدف الحيوى الهام الموجود على خليج تاجورا ٠

جنوب شرق أثيوبيا (غرب الصومال) :

ويطلق على هذه المنطقة اسم أوجادين وترتبط أثيوبيا كلها (بما فى ذلك اريتريا) ارتباطا سياسيا وعسكريا بالقرن الافريقى أكثر من ارتباطها به جغرافيا ٠

- وأخيرا فان منطقة القرن الافريقى تشتمل من الناحية السياسية أيضا على منطقة شمال شرق كينيا وجدير بالذكر أيضا أن منطقة القرن الافريقى تشمل بعض الموانى وأهمها :

- جيبوتى وهى ميناء كبير على خليج تاجورا أحد الخلجان الفرعية لخليج عدن ٠

- زيلع ميناء صغير شرق جيبوتى ٠

- بربرة ميناء كبير على خليج عدن وبها قاعدة بحرية ٠

- مقديشيو (مقديشو) العاصمة وهى ميناء على المحيط الهندى ٠

- قسمايو ميناء على المحيط الهندى ٠

أما من الناحية الطبوغرافية الجيوبوليتكية فان منطقة القرن الافريقى تمتد شمالا الى أريتريا وغربا الى أثيوبيا على النحو التالى :

تقع أثيوبيا فى شرق افريقيا ولها ساحل يمتد على البحر الأحمر من الحدود مع السودان الى حدودها مع جيبوتى ويحيط بها السودان من الغرب وكينيا من الجنوب والصومال من الجنوب الشرقى ، وهى احدى الدول التى تشرف بشكل مباشر على مضيق باب المندب ، وتعتبر أثيوبيا المدخل الشرقى لافريقيا بسبب موقعها ولوجود موانىء ٠ اريتريا (مصوع وعصب) على ساحل البحر والتى تربط الساحل مع المناطق الأخرى فى أثيوبيا بواسطة الطرق وخطوط السكك الحديدية وتتكون أثيوبيا من هضبة الحبشة وسهول أريتريا ، وبعد خروج ايطاليا من تلك المناطق بعد الحرب العالمية الثانية صدر قرار من الأمم المتحدة عام ١٩٥٢ بمنح الحكم الذاتى لاريتريا واقامة اتحاد فيدرالى بينهما وبين الحبشة على أن يكون امبراطور الحبشة هو رئيس هذا الاتحاد ٠ وعلى الرغم من أن سكان أريتريا قد عارضوا فى صدور هذا القرار

الا أن الامبراطور هيلاسلاسى أصدر قرارا بتحويل أريتريا الى مقاطعة تتبع أثيوبيا وذلك لتأمين المنافذ التى تربطها بالعالم الخارجى ٠

وهضبة الحبشة عبارة عن سلاسل جبلية مرتفعة يصل ارتفاع بعضها الى أكثر من ٤٠٠٠ مترا فوق سطح البحر وتنحدر جبال الهضبة تجاه البحر الأحمر والصومال والسودان ٠ وتقسم الخوانق العميقة جبال الهضبة الى كتل جبلية منفصلة ويصل عمق بعض هذه الخوانق الى ١٫٥ كيلو مترا ٠ ويبدأ الأخدود الشرقى من باب المندب وينتهى عند بحيرة رودلف وهو بذلك يشطر الهضبة الحبشية الى شطرين كبيرين ، وينبع النيل الأزرق من بحيرة تانا باسم نهر آباى ويمر النهر فى أخدود عميق وشديد الانحدار ٠

أما ساحل اريتريا فانه ذو طبيعة رملية وشديد الحرارة والرطوبه ، وتصل الحرارة فى ساحل اريتريا الى ٤٠ درجة مئويه والرطوبة عالية والمطر قليل نسبيا ويسقط شتاء بمتوسط ١٩٠ مم على مصوع والمنطقة الساحلية ويزداد الى ٣٢٠ مم على المناطق الجبلية غرب اريتريا ٠

ويبلغ عدد سكان أثيوبيا حوالى ٢٥ مليونا منهم حوالى مليون ونصف فى اريتريا ونسبة المتعلمين قليلة والتدريب المهنى غير منظور ٠ ومن أهم مدن أثيوبيا أديس أبابا العاصمة وجندار العاصمة الروحية للامهريين ومصوع الميناء الرئيسى على ساحل البحر الأحمر وعصب وهى مرفا طبيعى هام وبها معمل لتكرير البترول وأسمرة المدينة الرئيسية فى اريتريا وهرر وهى مركز تجمع ثم دير داوه وتقع على الخط الحديدى الذى يربط بين جيبوتى وأديس أبابا ٠

وتنعكس الأوضاع الجغرافية السابقة على استراتيجية القرن الافريقى فى اعتباره أيضا محورا عبريا هاما حيث تقع على ساحل ميناء عصب وميناء مصوع فضلا عن الأهداف الحيوية لهـذه المنطقة التى تشمل أديس أبابا باعتبارها المركز السياسى والادارى للدولة ، كما أن اريتريا تعتبر ، بالنسبة لموقعها على ساحل البحر الأحمر وبما يتوفر فيها من موانىء هامة وموارد اقتصادية هى المنطقة الحيوية فى أثيوبيا ، كما أن هذه المنطقة ــ تشرف على حوالى ٩٠ فى المائة من طول الساحل الغربى للبحر الأحمر حيث تقع عليه بعض الموانى مثل القصير وبورسودان ومصوع وعصب وجيبوتى ، كما تقع الحديدة على جنوب الساحل الشرقى ٠ ويشرف الصومال على الساحل الجنوبى لخليج عدن حيث تقع ميناء بربرة كما تسيطر على جزء من الساحل الشرقى لافريقيا حيث تقع مقديشو عاصمة الصومال وتقع عدن على الساحل الشمالى

لخليج عدن فى مواجهة بربرة • ويعنى ذلك أن تلك الدول بحكم موقعهـــا تستطيع التحكم فى خطوط الملاحة التى تمر فى البحر الأحمر من خـــلال باب المندب •

وقد تغيرت الأدوات الدولية فى تلك المنطقة مـــع تعاقب الزمن بين القوى الكبرى ، وهذه الظاهرة تكاد تكون ملموسة بالنسبة لدول افريقيـــا عامة وبالنسبة لأثيوبيا والصومال ـ وهما من دول القرن الافريقى ـ بصفة خاصة • واذا تتبعنا أحداث التاريخ المعاصر فى تلك المنطقة نجد أن الاتحاد السوفيتى وهو قوة عظمى منذ الحرب العالمية الثانية ، فانه كان يقوم بدور القوة المؤثرة فى الصـــومال فى الســـتينات وبداية الســـبعينات ، ودرب السوفييت القوات المسلحة الصومالية وأمدوها بالأسلحة والمعدات فى مقابل تسهيلات بحرية قدمتها الصومال للسوفييت فى ميناء بربرة الذى يقع على خليج عدن وهو ميناء له أهميته الاستراتيجية الكبيرة لقربه من باب المندب ، غير أن الانقلاب العسكرى فى أثيوبيا الذى وقع فى سبتمبر ١٩٧٤ وما نتج عنه من نجـــاح مانجستو فى الاســـتيلاء على السلطة وخلع الامبراطـــور هيلاسلاسى ثم ما أعقب ذلك من تصفية دموية لعناصر الجناح الصينى فى الثورة ، هذه التطورات جعلت الاتحاد السوفيتى يدعم من علاقاته بأثيوبيا على حساب الصومال ، وفى نفس الوقت فان الولايات المتحدة التى كانت تتمتع بمركز قوى فى أثيوبيا الى ما قبل حدوث الانقلاب العسكرى بها ، قد فقدت هذا المركز بعد أن طرد الكولونيل مانجستو بعثتهـــا الدبلوماســـية وخبرائها العسكريين واقتضت طبيعة الأمور أن تسارع الولايات المتحدة الى تحسين علاقاتها بالصومال وتقـــديم المساعدات لها بطريق مبـاشر أو غير مباشر وذلك فى محاولة تهـــدف الى ابعاد الصـــومال من دائرة النفـــوذ السوفيتى ، ونفس الشىء بالنسبة لفرنسا فقد كانت تتعاون مع أثيوبيا خلال حكم الامبراطور هيلاسلاسى خلال استعمارها لجيبوتى وكانت تشجع سيطرة العفر فى جيبوتى ـ وهى الأقلية ذات الأصول الأثيوبية ضـــد الأغلبية من العيسى ذات الأصول الصومالية ، وفرنسا ـ بهذا الأسلوب ـ كانت تعمل فى الاتجاهات المضادة للصومال لأن هـــذه الأخيرة كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى وتمنحه تســـهيلات بحرية فى بربرة • وعنـــدما كانت الصومال تطالب باســـتعادة اقليم أوجادين ـ الذى يقع فى جنـوب شرق أثيوبيا ـ وبعض الأراضى فى شمال شرق كينيا اقتضت متطلبات التوازن الدولى أن تقف بريطانيا ومعها الولايات المتحدة الامريكية وراء تدعيم كينيا فى مواجهة مطالب الصومال وقتئذ ، ولكن الأدوار الدولية بدأت فى التغير مع تغير الموقف الداخلى بين دول القرن الافريقى فعادت فرنســـا الى تدعيم

علاقاتها مع الصومال ومساعدة الأغلبية من قبائل العيسى على الوصول الى السلطة فى جيبوتى المستقلة بعد أن كانت تقف ضد رغباتها فى الوقت الذى بدأت فيه علاقاتها تفتر مع أثيوبيا نتيجة لتحولها الى الخط الماركسى ٠

٣ – القوى العظمى والصراع على مدخل البحر الأحمر :

شكل المدخلان الشمالى والجنوبى للبحر الأحمر مطمعا للدول الكبرى بصفة عامة على طول التاريخ الحديث والمعاصر ، غير أن المدخل الجنوبى قد شكل أهمية استراتيجية فى الوقت الحالى ويمكن القول أن أطراف الصراع الدولى الحالى على البحر الأحمر هم الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى والصين وبريطانيا وفرنسا ٠ وقد احتدم الصراع الدولى البحرى بصفة خاصة على شواطىء المحيط الهندى بين القوتين العظميين فى السنوات الاخيرة ، ويفسر دارسو الصراع الدولى محاولات سيطرة القوتين العظميين على اليمن الشمالية واليمن الجنوبية والمدخل الجنوبى للبحر الأحمر يشكل جزءا من اهتمام العملاقين ، فالسياسة الامريكية ترتكز على نظرية « جوام » التى أفصح عنها الرئيس الامريكى الأسبق « نيكسون » فى يوليو ١٩٦٩ وهى ترتكز على التمسك بالمراكز التى حصلت عليها الولايات المتحدة فى الدول التى تطل على المحيط الهندى والتى تشكل العناصر الأساسية للاستراتيجية الامريكية الجديدة ، تلك الاستراتيجية التى تنتج للولايات المتحدة الحفاظ على اشرافها على الانتاج البترولى فى الجزيرة العربية والخليج العربى وتعريفه عبر قناة السويس ورأس الرجاء الصالح واليابان والدفاع عن أفريقيا وخاصة شرق القارة فى مواجهة التسلل الشيوعى السوفيتى والصينى على السواء ، ومن بين وسائل التحرك الامريكى الاعتماد على الدول الصديقة ومحاولة الاتفاق مع السوفييت لضمان استقرار الأوضاع الراهنة فى الجزيرة العربية بهدف تحييد البحر الأحمر واخراجه من دائرة الصراع الجارى فى المحيط الهندى ٠

أما السياسة السوفيتية فقد سارت منذ سنة ١٩٥٦ على التوغل البطىء والمنتظم فى المحيط الهندى حيث يتيح الوجود السوفيتى العسكرى البحرى ابرام اتفاقيات جديدة تشمل برامج عمل وتعاون والحصول على تسهيلات ملاحية عسكرية وتحويل البحر الأحمر بالتالى الى طريق مرور خاضع للسيطرة السوفيتية أو على الأقل جعله طريقا دوليا مفتوحا للجميع ، ويعتبر السوفيت البحر الأحمر بمثابة عامل اساسى لتقدمهم فى اتجاه المحيط الهندى كما يتيح لهم احكام احتوائهم على الجزيرة العربية والتحرك فى اتجاه الخليج العربى ٠ ويعنى موقف الدولتين العظميين انهما تتخذان

اتجاها متشابها من حيث الجوهر فكل منهما تفضل حرية الملاحة فى مضيق باب المندب نظرا لما للمضيق من أهمية استراتيجية رئيسية مرتبطة بقدرة العملاقين على تحريك أساطيلهما على امتداد البحر المتوسط والمحيط الهندى وفقا لما تمليه مصالحهما الاستراتيجية ٠

أما الوجود الصينى فى المنطقة فانه رغم محدوديته الا أنه قائم على بذل المعونات بهدف محاربة الوجود السوفيتى وقد تركزت المساعدات الصينية لليمن مثلا فى مجال انشاء الطرق وبناء مصانع النسيج ، فى حين لم يعد لبريطانيا سوى قاعدة بحرية جوية أقامتها فى « مصيرة » وتشرف بها على طريق خليج عدن والبحر الأحمر وطريق السويس ، وهذه القاعدة العسكرية البريطانية هى القاعدة الوحيدة لها منذ انسحابها من عدن ٠ وتبقى السياسة الفرنسية وهى تعد سياسة نشطة فى المنطقة فقد وافق الرئيس الفرنسى ديستان على استقلال جيبوتى الذى تم بالفعل فى عام ١٩٧٧ ولكن مع استمرار الوجود العسكرى واستمرار المعونة الاقتصادية لجيبوتى والتى تصل الى حوالى ٧٠ مليون دولار سنويا ، لذلك تعتبر فرنسا هى الدولة الأوربية الوحيدة التى تتواجد قواتها على سواحل مضيق باب المندب ، وتنظر فرنسا نظرة تتسم بالواقعية بشأن مضيق باب المندب حيث يركز المسئولون الفرنسيون على ضرورة التوفيق بين المصالح الأجنبية المشروعة للدول الساحلية المطلة على المضيق ومصالح المجتمع الدولى التى تتمثل فى حرية الملاحة ٠

ومرة أخرى تتضح أهمية تنافس القوتين العظميين على المنطقة — نظرا لأن التواجد الصينى أو البريطانى أو الفرنسى هو تواجد محدود — فى حين أن العملاقين الكبيرين يتنافسان على المنطقة وأيضا على المحيط الهندى منذ بداية الستينات تقريبا فى اطار المواجهة النووية بينهما ، وقد تأكدت أهمية المحيط الهندى فى هذا التنافس الجديد استنادا الى التطور الهائل الذى حدث فى أسلحة الصواريخ الموجهة التى ينطلق بعضها من قواعد ثابتة ويحتاج الى قواعد أرضية عسكرية ثابتة أو من غواصات تنتقل بحرية ومرونة داخل مياه المحيط وقد وصلت هذه الأسلحة من التطور الى الحد الذى أصبح فى امكان الولايات المتحدة مثلا أن توجه صواريخها العابرة للقارات من غواصاتها فى المحيط الهندى الى قلب آسيا ومراكز الصناعة السوفيتية فى وسط آسيا ، وفى هذا الصدد تتيح مياه المحيط مزايا هامة لهذا النوع من المواجهة بسبب عدم وجود كثافة سكانية فى القواعد التى يتم اختيارها لهذا الغرض وهو ما يفسر التكالب الامريكى السوفيتى على القواعد العسكرية التى تركها الاستعمار البريطانى مثل قاعدة ديجو جارسيا والجفير فى البحرين

ومسيرة فى عمان ، وقد ركز الاتحاد السوفيتى استراتيجيته حول الاقتراب من المواقع الامريكية فى المحيط الهندى وذلك بغرض اجهاض التهـديدات الامريكية ، وهذا بدوره جعل الولايات المتحدة تكثف من وجودها العسكرى فى المنطقة ٠

ان هذه السلسلة من التواجد العسكرى والاقتراب من المواقع الامريكية من جانب الاتحاد السوفيتى ـ هذه السلسلة من التواجد العسكرى والاقتراب المضاد من التواجد العسـكرى ـ يعنى أيضا عنصر ضغط على الأطراف الاقليمية المناوئة كما أنه فى نفس الوقت يعنى عنصر دعم للعناصر الصديقة مما شكل صورة جديدة للاستعمار والتبعية فالدول التى تقبل حماية أجنبية من المفترض ضمنا أنها سوف تدفع ثمن تقبلها لهذه الحماية والذى يعنى فى الحقيقة مزيد من التبعية وتهديد الاستقلال الوطنى يضـاف الى أن البحر الأحمر يعتبر الطريق الرئيسى للغواصات والقطـع البحرية للدول الكبرى التى تأتى من البحر المتوسط الى المحيط الهندى فضلا عن المزايا التى تتيحها مناطق معينة يتجه اليها التنافس الدولى وتقع ضمن منطقة البحر الأحمر مثل قناة السويس وباب المندب أو على الساحل الشرقى الافريقى أو على الجزيرة العربية والخليج العربى باعتبار أن هـذه المناطق برمتها تشكل أهميـة استراتيجية كبيرة ٠ ومن الثابت أن استمرار الصراعات الاقليميـة التى تتعدد وتختلف أسبابها مع تصاعد درجة التنافس الدولى على ميـاه البحر الأحمر والمحيط الهندى ـ سيؤدى ذلك الى أن تتحمل الدول الاقليمية الجانب الأكبر من الآثار السلبية لهذا الصراع الدولى خاصة ان القدرات العسكرية البحرية لهذه الدول لا ترقى الى حد التصدى لغواصات وأسـاطيل الدول الكبرى ، واذا أخذنا فى الاعتبار أن الدول الاقليمية متجهة الى تغيير بعض الأسس التى اعتمدها القـانون الدولى بخصوص تحديد الميـاه الاقليمية وحقوق استخدام أعالى البحار والجرف القارى وذلك بهدف الاسـتفادة من الثروات البترولية أو المعدنية أو السـمكية فى المستقبل ، وبالتـالى فان استمرار الصراع الدولى وتهديدات الدول الكبرى ومحاولاتها السيطرة على المياه الدولية فان ذلك سوف يشكل عقبات أمام الدول الاقليمية وطموحاتها فى تحقيق الرفاهة لشعوبها ٠

مشـكلات الحـدود

عكست المشكلات الناجمة عن الحدود السياسة لمنطقة القرن الافريقى ـ عكست اهمية استراتيجية دولية لهذه المنطقة وخاصـة من جانب دارسى السياسة والمهتمين بالصراع الدولى الذين يقصدون بالقرن الافريقى أساسا

الصومال وأثيوبيا وجيبوتى كوحدات سياسية قائمة تشكل رقعة استراتيجية على خريطة القارة تهددها صراعات الحدود · وقد بدأت أثيوبيا تنمو بالتوسع على حساب السلطنات والامارات والشعوب الاسلامية والوثنية فى الجنوب والجنوب الشرقى خلال حكم الامبراطور « منليك » ١٨٨٩ - ١٩١٣ حيث اكتملت صورة الخريطة السياسية لاثيوبيا المعاصرة باستثناء الوضع الخاص بأريتريا(٣) التى ضمت لأثيوبيا فيدراليا عام ١٩٥٢ ثم اتحدت معها عام ١٩٦٢ · والمناطق المتنازع عليها حاليا هى وليدة أحداث التنافس الاستعمارى فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى وهى الأحداث التى سبق شرحها تفصيلا ، الأمر الذى دفع أثيوبيا أن تصطدم اصطداما مباشرا مع القوى الأوروبية المتنافسة على منطقة القرن الافريقى ومع الدول والشعوب المجاورة لها ، وقد تمكنت أثيوبيا بالفعل من أن تتقاسم السلطة والسيطرة معهم وأن تشارك فى رسم الحدود السياسية التى أهملت بالطبع مبدأ القوميات أو حق تقرير المصير ، الأمر الذى جعل أثيوبيا لا تخطى حدودها بالاعتراف الكامل والتبادل بينها وبين جيرانها باستثناء حدودها مع السودان وكينيا وجيبوتى ·

وسوف تستعرض الظروف التى أحاطت بالاتفاقيات التى طرأت على هذه الحدود وصولا الى التعرف على تطور مشكلة القرن الأفريقى وخاصة فيما يتعلق بالصراع الأثيوبى الصومالى الذى يشكل تهديدا مباشرا لمستقبل المنطقة برمتها ·

١ - حدود اثيوبيا مع السودان وكينيا وجيبوتى :

كانت الحدود بين السودان واثيوبيا غير محددة حتى ١٩٠٢ عندما وقعت معاهدة بين البلدين أقامت حدا مشتركا معترفا به يبلغ طوله ١٥٠٠ ميل باعتباره أكبر خط للحدود فى أفريقيا ، وكان لدى أثيوبيا شعور بالتخوف من جيرانها فى الشمال وهم مسلمون حتى أن محاولات اثيوبيا لتحديد تدفق مياه النيل الأزرق قد شاعت وتدخلت فيها بالطبع الأغراض السياسية ، وكان الشك المتبادل بين اثيوبيا والصومال عاملا سائدا فى تطور العلاقات الثنائية والاقليمية بين البلدين منذ التاريخ الوسيط حتى

---

(٣) راجع فى تفصيل تاريخ اريتريا قبل الحرب العالمية الثانية :
Stephen, A. Longrigg : A Short History of Eritrea (Oxford : Clarendon Press, 1945).

استقر الأمن نسبيا عبر الحدود منذ توقيع اتفاقية سنة ١٩٠٢ . أما الحدود السـودانية الاثيوبية عند ارتيريا فقـد تعرضـت هي الأخـرى لحوادث عديدة (٤) ، فالسودان أيد حق تقرير المصير لشعب أريتريا وقد لجأ أفراد من هذا الشعب الى الأراضي السودانية ثم جاء تصاعد الاشتباكات على الحدود فى الفترة الأخيرة لكى يجمد من العلاقات الدبلوماسية بين البلدين والذى انعكس على استدعاء السفير السودانى من أديس أبابا فى أوائل يناير ١٩٧٧ . وفيمـا يتعلق بالحدود الـكينية الأثيوبية فهى بالفعـل من رواسب الفترة الاستعمارية ، وقبل استقلال كينيا عام ١٩٦٤ قامت بريطانيا وأثيوبيا بتعيين الحدود التى أثارت خلافات مضطردة على الجانب الأثيوبى حتى توقيع معاهدة الدفاع المشترك عام ١٩٦٣ التى لم يتم التصديق عليها الا فى عام ١٩٧٠ خلال الزيارة التى قام بها الامبراطور هيلاسلاسى لكينيا .

وخلافا لأراضى الصوماليين الأخرى فقد اتسم التاريخ الحديث والمعاصر لاقليم جيبوتى باستقرار أكثر عبر الحدود لأثيوبية الجيبوتية ، وكانت فرنسا قد ابتاعت منطقة على تاجورا ، وقامت بتطوير تلك المنطقة بما فيها مدينة جيبوتى بهدف ممارسـة دور كالذى تلعبه بريطانيا فى عدن ، وقد رسمت الحدود الحديثة بين اثيوبيا وجيبوتى عام ١٨٩٧ ثم أعلن تأكيدها عام ١٩٤٥ ثم فى بروتوكول ١٦ يناير ١٩٥٤ ، وفى عام ١٩٧٧ تأكدت هذه الحدود باستقلال جيبوتى وأعتراف دول المنطقة بهذا الاستقلال .

٢ - الحدود الأثيوبية الصومالية :

تشكل قضية الحدود الأثيوبية الصومالية ومشكلة اريتريا أعقد مشاكل الحدود فى منطقة القرن الأفريقى ، ويمكن القول ان بريطانيا الدولة المستعمرة (بكسر الميم) كانت هى المحرك الأول لهذه المشكلات فى حين أدت كل من ايطاليا وأثيوبيا دورا هامشيا ، أما فرنسا فقد اتخذت موقف الحذر بينما قنعت مصر بالانسحاب من هذه المناطق نظرا لأوضاعها السياسية ويمكن التمييز بين عدة مراحل شهدت تغييرات فى الحدود ، وسوف تتعرض فى عجالة لهذه المراحل :

المرحلة الأولى :

وقد شهدتها الفترة ١٨٨٢ - ١٩١٣ التى بدأت مع بداية التوسع

---

(٤) Ibid. p. 27.

الايطالى فى اريتريا (٥) عام ١٨٨٢ وانتهت بوفاة منليك الثانى الذى أكتملت فى عهده صورة الحدود السياسية لأثيوبيا المعاصرة باستثناء الوضع الخاص بأريتريا • وقد شهدت هذه الفترة الأحداث التالية :

١ ــ فرض الحماية البريطانية على الصومال عام ١٨٨٤ •
٢ ــ انسحاب مصر من المنطقة وقيال الصومال الايطالى عام ١٨٨٩ •
٣ ــ أعلان أريتريا كمستعمرة ايطالية عام ١٨٩٠ •
٤ ــ قيام الصومال البريطانى عام ١٨٩٧ والصراع حول الأوجادين بين كل من ايطاليا وأثيوبيا •

وتجدر الاشارة الى أن التوسع الايطالى فى اريتريا قد بدأ منذ يوليو ١٨٨٣ رغم أن بريطانيا كانت قد عقدت مع مصر فى سبتمبر ١٨٧٧ معاهدة أعترفت فيها بسيادة مصر على كل سواحل الصومال حتى رأس جافون ، وبدأت ايطاليا أولا بوضع يدها على عصب ثم أسرعت ببسط نفوذها شمالا وجنوبا فاحتلت « بيلول » فى ٢٥ يناير ١٨٨٥ بعد انسحاب المصريين منها ثم أحتلت مصوع فى ٢٥ يوليو من نفس العام وتوغلت القوات الايطالية الى مصوع غربا ثم شمالا حتى وصلت الى مائة ميل جنوبى شرق سواكن • أما فى الجنوب فقد تجاوز المناطق الايطالية مع الممتلكات الفرنسية فى أوبوك ومقابلة لباب المندب ، وتمكن الايطاليون بذلك من تكوين مستعمرة لهم فى اريتريا بمساعدة بريطانيا •

أما اثيوبيا فقد توسعت جهة الشرق (٦) حيث استولى الملك « منليك الثانى » على أمارة هرر بعد غزوها فى ٢٦ يناير عام ١٨٨٧ بمساعدة الايطاليين ، كما ضمت ــ أى اثيوبيا ــ منطقة الأجادين عام ١٨٨٩ بعد أن اشتركت مع القوات البريطانية فى قمع الثورة المهدية فى السودان ، وتجدر الاشارة أيضا الى أن اثيوبيا أغمضت عينيها عن التوسع الايطالى فى اريتريا نظرا لتحديات الانقسام الداخلى بين الأمراء فضلا عن تحديات الأسلام المجاور لاثيوبيا • وأمام انشغال السلطة المركزية فى اثيوبيا بهذه التحديات الداخلية والخارجية أخذ الايطاليون يتحركون جنوب اثيوبيا نفسها عام ١٨٨٩ ، وعلى أثر الضغوط الايطالية هذه تم توقيع معاهدة « أوتشيالى »

---

(٥) Stephen A. Longrigg, A Short History of Eritrea, op. cit. pp. 17-28.

(٦) راجع فى تفصيل ذلك :
Richard Greenfield, Ethiopia : A New Political History (New York : Praoger; 1965).

فى عام ١٨٨٩ • وفى نفس الشهر قامت ايطاليا ببسط نفوذها على بلاد الصومال ثم أعلنت فى ١٥ نوفمبر ١٨٨٩ حمايتها على الساحل الشرقى لأفريقيا وكونت عام ١٨٩٠ الشركة الايطالية لشرق افريقيا لادارة المناطق الداخلية للساحل الافريقى وفى ٢٤ مارس ١٨٩١ تم توقيع اتفاقية ايطاليا بريطانية تحدد مناطق النفوذ الايطالى فيها من النيل الأزرق حتى سواحل البحر الأحمر •

وفى عام ١٨٩٤ توصلت بريطانيا وايطاليا الى اتفاق مشترك بشأن الحدود بين أراضى الصومال الخاضعة لهما فسيطرت بريطانيا على هود وايطاليا على الأوجادين ، وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن أنتقد الامبراطور « منليك الثانى » ما جاء فى معاهدة أوتشيالى بهدف توحيد اثيوبيا ، وشهد عام ١٨٩٥ انهيار العلاقات الاثيوبية الايطالية ونشوب المواجهة المسلحة فى موقعة عدوة الشهيرة وهزيمة القوات الايطالية على أيدى اثيوبيا •

وقد كانت موقعة عدوة بمثابة كارثة عسكرية ، فقد نبذت ايطاليا فى الفترة اللاحقة سياسة التوسع الاستعمارى ، وذلك حتى قيام موسولينى بغزو اثيوبيا عام ١٩٣٥ ثم شهدت السنوات التالية لموقعة عدوة اتفاقيات بين القوى المتصارعة على الحدود فى القرن الأفريقى • ففى ديسمبر ١٩٠٦ عقد الاتفاق الثلاثى (الايطالى ـ الفرنسى ـ الانجليزى) بهدف المحافظة على الوضع الراهن فى أثيوبيا من الناحيتين السياسية والاقليمية ، وأنه اذا ما طرأ أى اخلال بالوضع القائم فان الدول الموقعة تتعهد بأن تبذل جهدها للمحافظة على المصالح الاثيوبية بالاضافة الى مصالح كل من بريطانيا وفرنسا، وكذا مصالح ايطاليا فيما يتعلق باريتريا والصومال ، وفى ١٦ مايو ١٩٠٨ أبرمت معاهدة اثيوبية ايطالية وبمقتضاها ضمت منطقة الأوجادين لحدود اثيوبيا ولكن الطرفين لم يتمكنا من الاتفاق على الحدود لصعوبة تحديد الخط الذى يفصل بين اثيوبيا عن الأراضى الساحلية (والتى تسمى بأراضى

المرحلة الثانية :

وقد شهدتها الفترة ١٩١٤ ـ ١٩٥٤ ، فعندما مات منليك الثانى عام ١٩١٣ ونشبت الحرب العالمية الأولى فى العام التالى ـ بدأت المرحلة الثانية من التغييرات التى شهدتها الحدود فى منطقة القرن الأفريقى والتى أمتدت حتى منتصف الخمسينات من القرن الحالى وأبرز هذه التغييرات هو توقيع معاهدة الصداقة بين ايطاليا واثيوبيا عام ١٩٢٨ ثم الغزو والاحتلال الايطالى لأثيوبيا بين عامى ١٩٣٥ ـ ١٩٤١ ثم سيطرة بريطانيا تماما على الأقاليم الصومالية التى كانت مطمعا بين القوى الاستعمارية المتنافسة والمتصارعة ،

وهذه الأقاليم تشكل ٩٠٪ من الأقاليم التى يقطنها الصوماليون فى القرن الأفريقى فيما عدا جيبوتى وكان هذا يعنى انكماش اثيوبيا (٧) مرة أخرى طوال السنوات (١٩٣٥ - ١٩٥٤) بعد التوسع الذى تحقق فى عهد منليك الثانى .

واذا انتقلنا الى أحداث الحرب العالمية الثانية وتأثيرها على التغيرات فى الحدود فقد سارت أحداث هذه الفترة على النحو التالى : هزيمة ايطاليا فى هذه الحرب ثم دخول بريطانيا أديس أبابا فى عام ١٩٤١ ثم وضع الأوجادين تحت الادارة العسكرية البريطانية وسرعان ما خضعت أراضى الصوماليين - ما عدا جيبوتى - لنظام حكم واحد هو الاحتلال العسكرى البريطانى ، وكان هذا من العوامل التى أيقظت الشعور القومى لدى الصوماليين جميعا بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية الى دول عديدة فى المنطقة . كذلك فان المفاوضات البريطانية الأثيوبية أثناء الحرب كانت قد أسفرت عن عقد اتفاقية ٣١ يناير ١٩٤٣ التى نصت على اعتبار منطقة الأوجادين جزءا منفصلا عن أثيوبيا تتولى القوات العسكرية البريطانية ادارتها . وحاولت بريطانيا أن تستغل فكرة الصومال الكبير (٨) لكى تبسط نفوذها عليه ، ومن هنا جاء اقتراح ارنست بيفن وزير خارجية بريطانيا عام ١٩٤٦ بتجميع كل الأقاليم التى يسكنها صوماليون ووضعها تحت الحماية البريطانية غير أن هذا الاقتراح واجه معارضة شديدة من القوى العظمى والصغرى على حد سواء وتراوحت المعارضة بين اقتراح فرنسا بعودة الحكم الايطالى الى الصومال الايطالى وبين اقتراحات الولايات المتحدة الأمريكية بوضع الصومال تحت الادارة الدولية . واستمر خضوع الصومال الايطالى للادارة العسكرية البريطانية حتى ١٩٤٩ حين خولت الجمعية العامة للأمم المتحدة ايطاليا الوصاية على المنطقة لمدة عشر سنوات ابتداءا من ٢ ديسمبر ١٩٥٠ ، وكانت مهمة ايطاليا التمهيد لاستقلال المنطقة تحت اشراف مجلس استشارى تابع للأمم المتحدة ، ونظرا لامتناع أثيوبيا عن التعاون مع ايطاليا فى تعيين الحدود بينها وبين الصومال ، فقد قامت بريطانيا باتفاق مع أثيوبيا برسم خط الحدود بين الصومال وأثيوبيا وأسمته بالخط الادارى المؤقت ، ويلتقى بحدود الصومال البريطانى سابقا عند خط طول ٤٨° شرقا وخط عرض ٨° شمالا وعلى بعد ١٨٠ ميلا نحو الداخل من المحيط الهندى ، وبينما قبلت بريطانيا هذا الخط بتحفظات فان أثيوبيا لم تعترف

---

(٧) Richard Greenfield, Ethiopia, op. cit, p. 77.

(٨) راجع فى تفصيل ذلك :
Saadia Touval, Somali Nationalism (Cambridge; Harvard University Press 1963).

به فيما بين ١٩٥٠ ـ ١٩٥٦٠ ، وذلك كحدود سياسية دائمة بينها وبين الاقليم الصومالى •

أما الصوماليون فقد تمسكوا (٩) بخط طولى ٥٤٧ شرقا وخط العرض ٥٨ شمالا لأن الخط الادارى المؤقت هو جزء من أرض الصومال الذى قسمها الى قسمين وأرغم الكثير من الصوماليين ممن كانوا من الصومال الايطالى السابق على الخضوع الى الادارة الأثيوبية •

وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٥٤ وقعت السلطات البريطانية مع أثيوبيا اتفاقية فى صالح أثيوبيا تعهدت فيها بريطانيا بسحب حكمها العسكرى من منطقة هود وجزء من منطقة أوجادين على أن تتولى الحكومة الأثيوبية ادارتها اعتبارا من ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ورغم ما أكدته الاتفاقية من حق القبائل فى المراعى على جانبى الحدود فقد نار الصوماليون وأحتجوا على وضع جزء من أراضى الصومال تحت سيطرة أثيوبيا ودون موافقة أصحابها الشرعيين •

المرحلة الثالثة :

وتمتد من الفترة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٢ ، فقبل أن تستعيد أثيوبيا مناطق توسعها السابقة فى هود وأوجادين فى منتصف الخمسينات ـ تمكنت الدبلوماسية الأثيوبية من الحاق اريتريا كاقليم ادارى لأثيوبيا فيدراليا عام ١٩٥٢ ثم بالوحدة معها عام ١٩٦٢ ، وهكذا تمكنت أثيوبيا ـ باعتبارها دولة داخلية ـ أن تطل على السواحل للمرة الأولى فى تاريخها الوسيط والحديث كله ، وتحولت بذلك الى دولة مختلطة الأجناس وأصبح التنافر العرقى واللغوى والدينى من السمات الرئيسية فى كيان الدولة وتشكلت بذلك حدود جديدة لمنطقة القرن الأفريقى برمتها ، غير أن أثيوبيا قد قبلت فى نفس الوقت الخط الادارى المؤقت الذى كانت بريطانيا قد وضعته سنة ١٩٥٠ للفصل بين حدود أثيوبيا وأراضى الصومال التى تحت الوصاية الى أن تسوى مشكلة الحدود بعد ذلك وباستقلال الصومال (البريطانى ـ الايطالى) سنة ١٩٦٠ ، اعتبرت الدولة الجديدة أن واجبها القومى يقتضيها مساعدة الصوماليين عبر الحدود بالتأييد المادى والمعنوى ، فى حين أعتبرت أثيوبيا وكينيا وفرنسا هذه السياسة من جانب الصومال عملا عدائيا وتدخلا فى الشئون الداخلية لجاراتها ضد وحدتها الأقليمية بالرغم من أن هذه الحدود هى فى الواقع حدود غير طبيعية ، وغير بشرية ، أنها حدود هندسية فى معظمها يتخطاها الرعاة الصوماليون داخل جمهورية الصومال لأغراض الرعى الأمر الذى جعل منطقة الحدود هذه تشهد تصعيدا فى الحوادث والمواجهات المسلحة بين الصومال وأثيوبيا •

---

(٦) Saadia Touval, Somali Nationalism, op. cit. pp. 18-25.

حوادث الحدود وأطراف الصراع

١ - حوادث الحدود منذ الخمسينات :

شهدت الخمسينات أكثر من نزاع على الحدود وذلك لأن الخط الفاصل المؤقت الذى أتفقت عليه كل من بريطانيا وأثيوبيا سنة ١٩٥٠ لم يكن يخص سوى جزء من الأراضى التى كان يطالب بها الوطنيون الصوماليون . وفى عام ١٩٥٥ استفادت أثيوبيا منطقتى هرو وأوجادين من بريطانيا ، وقد زادت مدة المشكلة فى مؤتمر شعوب أفريقيا الذى انعقد بأكرا عاصمة غانا فى النصف الأول من ديسمبر ١٩٥٨ بسبب القرار الذى اتخذه والذى ينص على التنديد بالحدود التى حلقها الاستعمار فى أفريقيا وعلى المطالبة بتعديلها على نحو يتواقف مع وحدة الشعوب والسلالات الأفريقية ، وفى مؤتمر الشعوب الافريقية الذى أنعقد عام ١٩٦٠ صدر قرار يعترف بحق الصومال (المقسم صناعيا) فى الاستقلال والوحدة لكى تخرج الصومال الكبرى الى حيز الوجود .

وكان من الطبيعى عندما حصل الصومال على استقلاله السياسى فى يوليو ١٩٦٠ أن يتطلع الى استكمال وحدة ترابه ، ولهذا نصت المادة السادسة من دستور الدولة الجديدة على « تحقيق وحدة الأراضى الصومالية » وكان هذا يعنى مطالبة أثيوبيا بأقليم أوجادين ومطالبة كينيا بالأقليم الشمالى الشرقى ومطالبة فرنسا بأقليم عفر وعيسى على أساس ان المناطق التلاث تسكنها قبائل صومالية . وفى الوقت الذى تكون فيه ضرب صومالى فى الأقليم الشمالى الشرقى من كينيا يطالب بالأقليم وانفصاله عن كينيا وانضمامه لجمهورية الصومال فى هذا الوقت كانت العلاقات بين الصومال وأثيوبيا آخذة فى التدهور السريع وخاصة فى المناطق المتنازع عليها ، ووضعت القوات الأثيوبية فى حالة الاستعداد القصوى نتيجة لتحرشات جرت على الحدود ، وطوال العامين التاليين ١٩٦١ ، ١٩٦٢ كانت المشكلة تزداد حدة وسط تصاعد حملات الاذاعة والصحافة من الجانبين غير أن الدول الأفريقية بدأت منذ أوائل عام ١٩٦٣ تتلمس مدى التعقيدات الناجمة عن مشاكل الحدود ، ولهذا عندما انعقد المؤتمر الأول لمنظمة الوحدة الأفريقية فى ٢٦ مايو ١٩٦٣ بأديس أبابا وطرحت أمامه مشكلة النزاع على الحدود بين الصومال من جهة وأثيوبيا وكينيا من جهة أخرى - لم يأخذ المؤتمر بوجهة نظر الصومال القائمة على حق تقرير المصير للمقاطعات الصومالية المتاخمة للصومال ،

ولم يمضى عام واحد حتى أصدر مؤتمر القمة الأفريقى فى القاهرة قرارا نص صراحة على مبدأ عدم المساس بالحدود الأفريقية الراهنة وبذلك فشلت جهود الصومال السلمية فى تحقيق مطالبها الاقليمية .

وأخذت الصومال تشكو من هذه الأوضاع التى قسمت الأراضى الصومالية وانها تتسم بقومية تكاد تكون موحدة ، وان منظمة الوحدة الأفريقية لم تحسم هذه الخلافات . ووسط حملات الهجوم الاعلامية من الجانبين قامت الحرب على الحدود الصومالية الأثيوبية فى يناير ، فبراير ١٩٦٤ وسط اتهامات من الطرفين المتنازعين بأن الآخر هو البادىء بالهجوم فبينما أفادت البيانات الاثيوبية أن القوات الصومالية الجوية قد اخترقت المجال الجوى الأثيوبى (١٤ - ١٦ يناير) كما جرت اشتباكات فى جيججا وبان القوات الصومالية قد شنت هجوما (٧ - ١٠ فبراير) على مدينة توجه وأهالى وديرا جوريالى على الحدود - نجد أن حكومة مقديشيو تتهم أثيوبيا بشن هجوم برى على المدن الصومالية وبالدخول الى مدينة فرفر وباحتلال فرى قبل أن تصدهم القوات الصومالية . ولم تدم هذه الحرب أكثر من شهرين ، وسرى قرار وقف اطلاق النار باستثناء بعض الانتهاكات على الحدود . وطلب وزراء الخارجية الأفارقة عقد مؤتمر فى دار السلام فى النصف الأول من فبراير ١٩٦٤ بين الحكومتين الصومالية والأثيوبية والشروع فى اجراء مفاوضات من أجل تسوية سلمية للنزاع ولم تمضى أيام حتى تم توقيع اتفاقية الخرطوم بفضل وساطة السودان، ونصت الاتفاقية على انسحاب القوات من الجانبين وعلى بعد ١٠ - ١٥ كيلومتر من الحدود ، ومنذ ذلك التاريخ آتخذ الصومال أسلوب التفاوض لتحقيق مطالبه الاقليمية .

وفى فبراير ١٩٦٨ تكونت لجنة أثيوبية صومالية مشتركة تجتمع كل ثلاثة شهور للعمل على حل مشاكل الحدود بين الجانبين ، وقد تمكنت منظمة الوحدة الأفريقية فى هذه الفترة من احتواء هذه الأزمة جزئيا على الأقل بالرغم من ان بقاء الصومال متمسكا بحق تقرير المصير للسكان الصوماليين فى منطقة القرن الأفريقى ، كذلك فقد كانت هناك عوامل خارجية ساعدت منظمة الوحدة الأفريقية على احتواء الصراع لفترة ومن أهم هذه العوامل ان التغيرات الدولية التى سادت فى الستينات لم تكن تسمح بشن أى صراع حول حدود من هذا النوع ، فقد جرت حرب الأوجادين الأولى فى الوقت الذى أصبحت فيه القوتان العظميان تتطلعان الى كيفية ما للحد من الحرب الباردة القائمة فى أوروبا ، ولهذا فعندما تقدم الصومال فى فبراير ١٩٤٦ بشكوى ضد أثيوبيا بعقد جلسة طارئة لمجلس الأمن ، رد الأمين العام للأمم المتحدة فى رسالة موجهة

الى الطرفين المعنيين يطلب منهما العمل على تســوية الخلافات حول الحدود بالوسائل السلمية وفى اطار منظمة الوحدة الأفريقية • كذلك فقد وجهت الولايات المتحدة الأمريكية نداء الى كل من أثيوبيا والصومال بوضع حد للحرب بينهما ، كما طالب الاتحاد الســوفييتى الطرفين باتخاذ الاجراءات اللازمة لاقرار وقف اطلاق النار فورا مؤكدا أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فى العصر الحالى أى صراع اقليمى أو نزاع على حدود قائمة بين الدول تستوجب تسويته الالتجاء الى القوة المسلحة •

وهناك عامل آخر يمكن أن يضاف الى عدم تقبل المناخ الدولى لتفشى أى صراع حول الحدود بين دولتين وقتئذ وخاصة فى أفريقيا ـ وينحصر هذا العامل فى أن الوضع العسكرى للصــومال نفسه لم يكن يسمح بمواصلة الحرب اذ أبرزت ساحة القتال مدى تفوق الجيش الامبراطورى من حيث التدريب والتسليح وبفضل المعونة الأمريكية له • وقد دفعت هذه العوامل مجتمع الصومال الى انتهاج سياسة المصالحة مع الدولتين المعاديتين لفكرة الصومال الكبرى ـ وبحلول عام ١٩٦٧ وتفشى ظاهرة الركود فى الاقتصاد الصومالى بسبب اعلان قناة السويس ـ فقد أدى هذا الى نقص صادرات الموز الايطالى لأوروبا ، وكانت أول خطوة لدى تغيير الحكومة الصومالية وقتئذ هو اقامة علاقات مع كل من أثيوبيا وكينيا والتى نجح فى انجازها رئيس زامبيا كيفيت كاوندا حيث أسفرت المحادثات الصومالية الكينية عن عقد اتفاقية أروشا ، أما على صعيد أثيوبيا فقد جرت أيضا محادثات مماثلة أدت الى قيام علاقات اقتصادية وتجارية بين الدولتين •

٢ ـ تأثير تغيير النظام الســياسى فى الصومال (١٩٦٩) وأثيوبيا (١٩٧٤) على حوادث الحدود :

جرى فى ٣ نوفمبر ١٩٦٩ انقلاب عســكرى صــومالى أطاح بالرئيس شرمارك الذى أغتيل ، وتلى ذلك اعلان نظام حكم جديد على أساس «الاشتراكية العلمية » ويقوم على تعبئة جماهيرية عالية ، وقام الاتحاد السوفييتى بمساعدة النظام الجديد فى الصومال وتدريب وتجهيز الجيش هناك ، وسرعان ما طرأت تغييرات فى توازن القوى أدت الى تصاعد الصراع فى منطقة القرن الأفريقى • ففى عام ١٩٧٤ أصبحت القوات الجوية الصومالية تمتلك أعلى قدرة قتالية بين دول أفريقيا السوداء ، كذلك امتلكت الصــومال قوات مدرعة مجهزة تجهيزا ممتازا ، وكان من نتائج هذا التعاظم فى القوة العسكرية الصومالية

أن اختل التوازن العسكرى فى المنطقة وفى نفس الوقت اكتسب الصومال مكانة دبلوماسية هامة بين الدول الأفريقية ٠

أما على الصعيد الأثيوبى فقد تصاعدت عمليات القتال فى أريتريا وافتقدت الحكومة الأثيوبية القدرة العسكرية على قمع الحركة الانفصالية الاريترية ، ثم جاء تعاقب الأحداث لتقليب الصورة تماما بالانقلاب العسكرى الأثيوبى فى ١٢ سبتمبر ١٩٧٤ والذى أدى الى عزل الامبراطور ، وتولى مانجستو ماريام زمام الأمور فى البلاد ٠

وكانت هناك نقطة أخرى ساعدت على تصعيد حدة مشكلة الحدود ، وهى النقطة المتعلقة بالبترول ، فمنذ فبراير ١٩٧٢ شرعت شركة بترول أمريكية فى أعمال حفر على الجانب الأثيوبى من الحدود فى أقليم أوجادين ، وقد أسفر اكتشاف النفط بكميات هائلة فى « احدى المدن » التى تقع على بعد ٣٠ ميلا من الحدود الصومالية وضمانا لأمن هذه المنطقة حشدت الحكومة الأثيوبية قوات لها على الحدود وردت الصومال بالمثل ولم تنجح محادثات ديسمبر ١٩٧٣ ويناير ١٩٧٤ فى تهدئة الموقف بين البلدين خاصة وأن القوات الأثيوبية كانت قد حرمت البدو الرحل الصوماليين من التزود بالمياه فى الاقليم ٠ وكان الامبراطور هيلاسلاسى لم يزل فى الحكم وقتئذ ، فلجأ الى الحليف الأمريكى لمساعدته ، لكن الولايات المتحدة لم تحرك ساكنا حيث كانت لدى الصوماليين القدرة على تخطى الحدود وامتلاك شريط من الأرض فى اقليم أوجادين — ومن ناحية أخرى فان الأثيوبيين أيضا كانت لديهم القدرة على حشد قواتهم فى الجنوب وبالتالى فانهم يتمكنون من طرد القوات الصومالية خارج الحدود ، وعندئذ لن يتوقفوا بل انهم سيواصلون قهر القوات الصومالية حتى تصل الى البحر ، وهكذا كان للولايات المتحدة حججها القانونية لكلا الطرفين ، والتى كان لهما ما يبررها من الجانبين المتنازعين ، أى أن الحرب لم تندلع فى ذلك الوقت ، وفى فبراير ١٩٧٤ كانت حركة التمرد العسكرى التى اجتاحت أثيوبيا ، وفتح ذلك المجال أمام حكام الصومال لكى يطرقوا آفاقا جديدة حول امكانية تسوية النزاع القائم بالوسائل السلمية ٠

هناك عامل آخر يضاف الى العوامل السابقة وهو المقاطعة البترولية العربية التى حدثت خلال حرب أكتوبر ١٩٣٧ ، فقد أبرزت أهمية ضمان طريق البترول وبالتالى اكتسب اقليم اريتريا الذى لا يبعد عن ميناء مصوع وعن مضيق باب المندب بأكثر من ٢٠ ميلا اكتسب أهمية استراتيجية جديدة، ثم ان جزر دهلك التى تمتلكها أثيوبيا شكلت هى الأخرى حجر الزاوية فى

الاشراف الدولى على طريق البحر الأحمر وباب المندب وسواحل المحيط الهندى التى تربط الدول الغربية بالخليج العربى • ومنذ عام ١٩٧٧ أدى انتصار التيار الراديكالى داخل الحكم العسكرى الأثيوبى الى تراجع النفوذ الأمريكى فى أثيوبيا والى دعم جديد للوجود السوفييتى فى المنطقة الذى كان قاصرا حتى الآن على اليمن الجنوبى والصومال • وهكذا نجح السوفييت فى الوصول الى أثيوبيا التى ظلوا يتطلعون اليها طويلا باعتبارها تشكل حليفا أفضل بكثير من غيرها من أقاليم المنطقة حيث كنافتها السكانية كبيرة ، مساحتها واسعة ، وهذان العاملان لهما أثرهما الاستراتيجى ، وقد حانت الفرصة للسوفييت فعلا بانتهاء حكم الامبراطور هيلاسلاسى واستيلاء القوات العسكرية الأثيوبية على زمام الأمور ، ومن ثم فقد ساند السوفييت النظام الجديد وأعلنوا استعدادهم لاعادة تجهيز الجيش الأثيوبى بالسلاح السوفييتى بعد أن تعثرت اتفاقيات السلاح المبرمة من قبل مع الولايات المتحدة بسبب الاتجاه اليسارى المتشدد لنظام الحكم الجديد فى أثيوبيا • ومع هذا ، وبالرغم من الخلاف على الحدود بين كل من الصومال وأثيوبيا فقد حاول السوفييت أن يقيموا علاقات طيبة بين كل من أثيوبيا والصومال ، فقام الرئيس السوفييتى بودجورنى فى مارس ١٩٧٧ بزيارة الى مقديشيو وأديس أبابا وحاول التنسيق بين الطرفين بأن طالب الصوماليين بتجميد طلباتهم على الصومال الغربى وخاصة منطقة أوجادين وأن يقيموا اتحادا فيدراليا يضم كلا من أثيوبيا والصومال وعدن ، وبذلك يتم انهاء صراع الحدود بين دول المنطقة من وجهة نظر الاتحاد السوفييتى ، وقد تكرر هذا الطلب مرة أخرى فى اجتماع ضم مانجستو ماريام وسياد برى وسالم ربيع على مع فيدل كاسترو فى عدن ، غير أن المؤتمر لم يصل الى أية نتائج ايجابية بشأن خلافات الحدود ، ثم بدأ الصومال يطالب بحق تقرير المصير للصومال الغربى واتجه الرئيس الصومالى سياد برى عدة مرات الى الاتحاد السوفييتى طالبا تأييده ومساندته ، غير أن سياد برى لم يلق استجابة لمطالبه بالرغم من اشتعال الموقف على الحدود •

وقد أقام الاتحاد السوفييتى جسرا جويا وآخر بحريا من ليبيا لتزويد أثيوبيا بالأسلحة ، لما أقام جسرا بحريا آخر لنقل القوات والمعدات والأسلحة الكوبية وكذا قوات من دول حلف وارسو واليمن الجنوبية ، ونتيجة لذلك قرر الصومال فى ١٣ نوفمبر ١٩٧٧ طرد الخبراء السوفييت والغاء معاهدة الصداقة الصومالية السوفيتية ، وهكذا وضعت هذه الخطوة طرفى الصراع على الصعيد الاقليمى وهما أثيوبيا والصومال — وضعتهما وجها لوجه وكشف القناع عن الوجه السوفييتى فى تأييده ومساندته الفعالة لأثيوبيا •

٣ - الأطراف الاقليمية للصراع :

تشتبك الأطراف التالية فى لعبة المواجهة التى تدور فى منطقة القرن الأفريقى ، فهناك أثيوبيا يساندها الاتحاد السوفييتى وكوبا ومعهما دول المعسكر الشيوعى ، أما الطرف الثانى فى المشكلة منهم حركات التحرير الاريترية وجبهة تحرير الصومال الغربى التى يساندهم بعض الدول الأفريقية والعربية ، وعلى الرغم من الهدوء النسبى الذى يسود مسرح الصراع الا أن كافة التوقعات تشير الى احتمال حدوث الانفجار فى أى وقت لأن بذور الصراع لا تزال كامنة فى منطقة القرن الأفريقى ٠

وعلى الصعيد الاقليمى ، فان الصراعات الكائنة فى المنطقة يكن اجمالها فيما يأتى فى شمال المنطقة الى جنوبها ٠

أولا : الصراع بين اريتريا وأثيوبيا :

وقد نجحت هذه الشعلة من رغبة اريتريا فى الانفصال عن أثيوبيا ، والملاحظ ان لاريتريا منطقة ساحل البحر الأحمر الممتدة من جيبوتى الى الحدود بين أيثوبيا والسودان ، كما ان لاريتريا موانىء على هذا الساحل أهمها مصوع وعصب وأهم مدنها أسمره ، وترتبط مصوع مع كسلا بخط حديدى يمر بأسمره وببلدة أجوردات ٠ وترتبط عصب بأديس أبابا بطريق ممهد يمر ببلدة ديسبى ، ومن ذلك يتضح ان مينائى مصوع وعصب يعتبران من المنافذ التجارية الحيوية لأثيوبيا ، وقد ظلت اريتريا خاضعة للاستعمار الايطالى لمدة خمسين عاما ، وانعكست آثار هذا الاستعمار على تطوير مشروعات الطرق والسكر الحديدية وميناء مصوع ٠

ثانيا : الصراع الصومالى - الأثيوبى حول جيبوتى :

استقلت جيبوتى فى يونيو ١٩٧٧ ، وقد أدت بوادر هذا النزاع الى موافقة معظم الأحزاب السياسية فى جيبوتى على بقاء قاعدة عسكرية فرنسية فى الاقليم بعد استقلاله ضمانا لاستقراره وحتى لا يترتب على اغلاق ميناء جيبوتى - الذى يرتبط بأديس أبابا بخط حديدى - فى وجه الصادرات والواردات الأثيوبية حدوث شلل للاقتصاد الأثيوبى والحركة الاقتصادية فى جيبوتى ٠

ثالثا : الصراع الصومالى - الأثيوبى حول منطقة أوجادين التى تقع غرب الصومال (وجنوب شرق أثيوبيا) ٠ ولهذا النزاع جذور تاريخية

قديمة ، فعقب تقسيم دول القارة الأفريقية بين الامبراطوريات الاستعمارية بعد مؤتمر برلين الشهير الذى عقد فى الفترة ما بين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ كانت الاتجاهات السياسية لهذه الدول تتسبب فى بلورة التفرق Crystallization of disunity بين دول القارة ، وعلى سبيل المثال ساعدت ايطاليا اثيوبيا على احتلال هرر عاصمة الصومال الغربى عام ١٨٨٧ (١٠) واتخذت أثيوبيا من هرر رأس جسر تنفذ منه الى داخل الصومال الغربى ـ وهو ما يسمى بأقليم أوجادين ـ وانتهى الأمر الى تقسيم الصومال الى صومال بريطانى وآخر ايطالى بعد انتزاع كل أقاليمها الغربية • وبعد أن استقل الصومال فى يوليو ١٩٦٠ أخذ يطالب « بالصومال الكبير » وعلى مدى ستة عشر عاما لم تتطور الأمور الى مرحلة الاشتباك المسلح ، غير أن قيام جبهه تحرير الصومال الغربى قد ينمى هذا الموضوع ، وبالرغم من ذلك فان الغارات الأثيوبية تتجدد بصفة دوريه تقريبا على هذه المنطقة ولا تكف الصومال عن بذل كافة المحاولات لاسترداد هذا الاقليم باعتباره أحد الاقالم الخمسة التى يتكون منها الصومال الكبير والتى تمثلها النجوم الخمسة التى يزدان بها علمه •

رابعا : الصراع الصومالى ـ الكينى حول المنطقة الجنوبية الغربية من الصومال ـ الشمالية الشرقية فى كينيا ـ وتطالب الصومال بضم هذه المنطقة الى الصومال الكبير ، والملاحظ أن لعبة التوازن الدولى قد ساعدت فيما بعد على احلال الهدوء النسبى بالنسبة لهذه المشكلة ويمكن اضافة عامل خامس يذكى من الصراع الاقليمى فى هذه المنطقة وهو الحرب الكلامية المتبادلة بين أثيوبيا والسودان ، فمع نهاية شهر يناير ١٩٧٧ ، وشن جنرال « تفرى بنستى » الرئيس السابق للمجلس العسكرى الحاكم فى أثيوبيا ـ مرحلة جديدة فى المواجهة بين البلدين ، وهذه الحرب الكلامية بدأت شفوية من جانب أثيوبيا حيث « سحب الدسائس التخريبية التى تحركها حكومة الخرطوم » ثم جاء الرد السودانى على لسان الرئيس نميرى بتقديمه المساعدات للاتحاد الديموقراطى الأثيوبى والسماح له بالعمل من أراضى السودان ضد حكومة أديس أبابا ، كما بدأت السودان تؤكد علنا استعدادها لبذل قصارى جهدها لمساندة الجبهات التى تناضل من أجل استقلال اريتريا (١١) •

---

(١٠) راجع فى تفصيل ذلك ص ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ من هذه الدراسة •

(١١) دكتور عبد العزيز الرفاعى ، الصراع الدولى فى القرن الأفريقى واستراتيجية البحر الأحمر فى ندوه البحر الأحمر فى التاريخ • سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بالاشتراك مع جامعة الدول العربية ١٩٧٨ ص ص ١٥٠ ـ ١٦٠ •

وعلى الرغم من أن هذه الصراعات ظلت تغلى تحت السطح لعدة سنوات الا أنها وصلت الى هذا المستوى الحاد نتيجة للعوامل الآتية :

أولا : التطورات اللاحقة للثورة الأثيوبية بعد استيلاء الكولونيل مانجستو على السلطة ، ومن أبرز هذه التطورات اعلانه طرد البعثة العسكرية الأمريكية من أثيوبيا فى أبريل ١٩٧٧ ووقف صفقات السلاح الأمريكى اليها الأمر الذى أكد من عملية اعادة التحالف التى أخذت تحدث فى منطقة القرن الأفريقى ، ذلك أن أثيوبيا التى ظلت تابعة للمعسكر الغربى لمدة تزيد عن الثلاثين عاما ، انتقلت سريعا الى دائرة العلاقات الوثيقة مع الاتحاد السوفيتى ، وقد اقترن بذلك اتجاه مجموعة أخرى من دول المنطقة الى الارتباط بالغرب ٠

ثانيا : اتجاهات الاستراتيجية السوفيتية فى افريقيا وبصفة خاصة الاستراتيجية البحرية ومتطلبات السيطرة على الممرات المائية الدولية ، حيث يرغب الاتحاد السوفيتى فى تعويض هزيمة سياسته فى الشرق الأوسط وتدعيم الوجود السوفيتى فى مناطق افريقية أخرى ، ويفسر هذا العامل سعى الاتحاد السوفيتى الى تشكيل كتلة من الدول التى تتبنى الاتجاه الاشتراكى عند مدخل البحر الأحمر باعتباره يشكل طريق البترول الى أوروبا وفى نفس الوقت يشكل الطريق العكسى منه مدخلا الى المحيط الهندى – وقد كانت لدى الاتحاد السوفيتى بالفعل علاقات وثيقة مع الصومال واليمن الجنوبى ، وبدأت أثيوبيا هى الأخرى فى الاتجاه نحو السوفيت يتطلعون الى تحييد أو احتواء الخلافات الوطنية والعنصرية لأصدقائهم القدامى والجدد فى نطاق وحدة ايديولوجية يساندها الدعم العسكرى ٠

وقد بدا أن الاتحاد السوفيتى(١٢) يضع فى اعتباره العلاقات المميزة بينه وبين الصومال بهدف تعزيز سياسته فى المنطقة ، وجاء ذلك بنتيجة عكسية – أى على حساب الصومال – فما أن انطلقت قوة أثيوبيا العسكرية حتى سارع السوفيت بتأييد أثيوبيا ونظامها الجديد ظنا منهم أنها أرض أخصب لانتشار الشيوعية بعد فشلهم فى الصومال ، ويفسر هذا سبب التصادم بين الاتحاد السوفيتى والصومال ٠ وهكذا انطلقت قوات جبهة تحرير الصومال فى تصعيد الصراع المسلح مع القوات الأثيوبية ، وأعلنت

---

(١٢) راجع :

Colin Legum "The U.S.S.R. and Africa : The African Environment." Problems of Commiunism vol. XXVII, No. 1 January - February 1978, pp. 10 - 12.

الصومال معارضتها لسياسة السوفيت وأن أمن الصومال جزء من أمن الأمة العربية ولم تخف المصادر المسئولة أن الاتحـــاد السوفيتى كان قد بدأ فى التفكير فى التحكم فى البحر الاحمر والمحيط الهنـــــدى لامرين أساسيين : الانطلاق بالنفوذ السوفيتى الى قلب أفريقيا — ثم مراقبة الممرات المائية التى تسلكها ناقلات البترول بهدف السيطرة على المنطقة العربية وخاصـــة مصر والسودان ، وقد جرت بالفعل محـــاولات لجعل الصـــومال ادارة للتخطيط السوفيتى كان من أبرزها تلك الزيارة التى قام بها بودجورين ورئيس كوبا للصومال فى وقت واحد لاقناع سياد برى بانضمام الصومال الى اتحــــاد فيدرالى يضم أثيوبيا وأريتريا واليمن الديموقراطية ، وكان قد عقد لهـــذا الغرض اجتماع سرى فى عدن حضره سياد برى ومانجستو وسالم ربيـــع وفيدل كاسترو ، وقد رفض فيه سياد برى مشروع الاتحاد لأنه بانضمامه اليه مع أثيوبيا انما يفوز الاستعمار الأثيوبى لمنطقة القرن الافريقى كلها ٠

ثالثا : وهكذا أصبح الاتحاد السوفيتى(١٣) المؤيد الرئيسى لأثيوبيـــا بينما بدا وكأن الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة هى التى ستصبح المؤيد الرئيسى للصومال ٠٠٠ وتوزع الأدوار على هذا النحو جعل منطقـــة القرن الافريقى تشهد صراعات اقليمية حادة فى النصف النـــانى عام ١٩٧٧ من خلال المعارك الطاحنة التى دارت رحاها فى اقليم أوجادين طوال شـــهر أغسطس بين ثوار « جبهة تحرير الصومال الغربى » من ناحية والقـــوات المسلحة الأثيوبية من ناحية أخرى ، والتى كانت على وشك أن تصـــل الى مرحلة الحرب النظامية بين الصومال وأثيوبيا ٠

وقد تجسدت المفارقة بين المساعدة العسكرية للدولتين العظميين لـكل من الصومال وأثيوبيا فى أن السلاح الصومالى هو سلاح سوفيتى فى الأساس موجه للدولة التى تساندها موسكو — وهى أثيوبيا — بينما السلاح الأثيوبى وهو سلاح أمريكى فى الأساس موجه ضد الدولة التى تساندها واشنطن ٠ وهناك دلالة أخرى أكثر خطورة وهى أن الاتحاد الســـوفيتى يؤيد « المنطق المحافظ » الذى نادت به أثيوبيا بخصوص تنازع المبادىء التى تقوم عليهـــا منظمة الوحدة الأفريقية وخاصة التنازع بين مبدأ قدسية الحـــدود القائمة ومبدأ حق تقرير المصير ، فى حين وقفت الولايات المتحدة الامريكية الى جانب « المنطق الثورى » الذى نادت به الصومال ، وبالطبع كان هدف السياســـة الامريكية فى حقيقته هو التشجيع على تفتيت هذه المنطقة و « بلقنتها » بحيث يتسنى تجزئة السودان من ناحية وفك أثيوبيا من ناحية أخرى ٠

---

(١٣) Ibid.

تطور المشكلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

الصـــومال

١ ـ الصومال منذ نهاية الحرب العالمية الثانية :

شهد القرن التاسع عشر فترة تمزيق أوصال القارة الافريقية وتفسيمها بين الدول الاستعمارية فى أوروبا ٠ وكان من الطبيعى أن تدخل الصـومال فى عملية التمزيق التى اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، ولم يقف الأمر عند حد هذه الدول الثلاث بل دخلت هى الأخرى فى الميدان ، فتمكنت فى عام ١٨٩٥ من الاستيلاء على هرر وشجعتها فرنسا كى تقطع الطريق على كل من انجلترا أو ايطاليا ٠ ولما قامت انجلترا بالاستيلاء على السـودان تحت ستار استرجاعه ، وأرادت أن تضمن حيـاد الحبشة فسمحت لهـا بالاستيلاء على اقليم أوجادين الصومالى ٠

وهكذا أصبحت بلاد الصومالين وهم شعب متجانس ذو عقيـدة دينية مشتركة ويتكلم لغة مشتركة وله تاريخ مشترك وثقافة مشتركة وقد مزقت بطريقة تعسفية الى مجموعات منفصلة تخضع لحكم أجنبى وأصبحت هـذه المنطقة الشاسعة ــ وهى بمثابة جزيرة متلنة الشكل فى شرقى افريقيا كان المستكشفون الأوروبيون يسمونها قرن افريقيا الشرقى وما زالت تعرف باسم منطقة القرن الافريقى الى اليوم ــ ما زالت هذه المنطقة الشاسعة تضم الشعب الصومالى ولكنه موزع بين مختلف الأقسام السياسية فى المنطقـة وكانت تشمل الصومال الفرنسى والصومال البريطانى وصوماليا والصومال الكينى والصومال الذى يسميه الصوماليون منطقة الأوجادين ــ وهى المنطقة الممتدة بين حدود صوماليا وبين الحبشة(١) وتسكنها جماعات من الصوماليين الرعاة يبلغ عددهم حـوالى نصف مليون نسمة ــ وقد ظلت منطقـة الأوجادين باستمرار مصدر نزاع بين الحبشة والصومال ٠ والواقع أنها مشكلة قديمـة

(١) Trimingham, J. Spencer : Islam in Ethiopia London, 1952. p. 210.

وراجع ايضا :
John Drysdale, The Somali Dispute (New York, Praeger, 1964).

عام ١٨٩٧ عندما ضمت للحبشة بمقتضى معاهدة عقدت فى هذه السنة
و بين ايطاليا والحبشة سنة ١٩٠٨ نص على أن يكون خط الحدود بين
ـة والصومال الايطالى موازيا لساحل المحيط الهندى ويبعد عنه بمسافة
ميلا .

وقبل أن يخرج الانجليز من الصومال الايطالى سنة ١٩٥٠ رسموا خطا
ـد أسموه « الخط الادارى المؤقت » وهو يجعل منطقة الأوجادين داخل
الحبشة ، وقد طالب شعب الصومال فيما بعد بضم منطقة الأوجادين الى
م وتنحصر وجهة نظرهم فى ذلك أن جميع سكان منطقة الأوجادين من
ماليين فضلا عن أنه لا يوجد بهذه المنطقة أقلية حبشية وأنها كانت
من بلادهم ولم يكن لهم يد فى فصلها عنها لانهم لم يمثلوا فى الاتفاقات
ـسلختها من بلادهم ، فى حين تمسكت الحبشة بمنطقة الأوجادين
ـة الى هذه الاتفاقات ، وقد استفحلت هذه المشكلة ولم يوجد حل فيما
غم توصيات الامم المتحدة(٢) وجهودها بهذا الخصوص وهو ما يقتضى
لتفسير وتعليل ذلك .

فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة دول المحور وتعين على الدول
ة الكبرى المنتصرة وهى الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى
ـانيا وفرنسا أن تحدد مصير المستعمرات الايطالية فى افريقيا . وعقدت
ـات المتوالية لهذا الغرض دون أن تسفر عن نتيجة ، وظهرت تيارات
متعارضة كما برزت أطماع سافرة ومستترة ، فاذا ببريطانيا تطمع فى
ـ على الصومال الايطالى واذا بايطاليا تسعى الى استعادة مركزها
ـعا فرنسا ، بل ان أثيوبيا نفسها راحت تطالب بضم هذا الاقليم الى
ـها . وازاء هذه المناورات أعلن نادى الشباب الصومالى (الذى ظهر الى
ـ لأول مرة فى ابريل ١٩٤٣) رسميا فى ابريل من عام ١٩٤٧ تحوله
ـب سياسى باسم « حزب وحدة الشباب الصومالى » اذا به يعارض
ايطاليا بأى حال من الأحوال . وكان ذلك الحادث نقطة تحول بالغة
ـة فى تاريخ الصومال المعاصر ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ الحزب الجديد
مركز الأولوية فى النشاط السياسى وينتزع الحركة القومية من أجل

(2) United Nations, Rapport du Government Italien à L'Asse
Generale des Nations Unies sur L'Administration de Tutelle
Somalie, (8 Vols.) 1950 — 1957, Rome.

الاستقلال والوحدة • وتعرض الحزب للكثير من الاتهامات ، غير أن قيام الحزب قد شجع انشاء عدد من الأحزاب والجماعات السياسية الأخرى وبعضها تسانده المصالح القبلية أو الايطالية • ولم تستطع الدول الكبرى الأربعة أن تصل الى اتفاق بشأن مستعمرات ايطاليا فقررت احالة المسألة كلها الى الجمعية العامة للأمم المتحدة التى أصدرت قرارا خاصا بالصومال ينص على ما يأتى :

أولا : يصبح الصومال دولة مستقلة ذات سيادة ويصبح هذا الاستقلال نافذا فى نهاية عشر سنوات من موافقة الجمعية العامة على اتفاقية الوصاية •

ثانيا : خلال الفترة المذكورة يوضع الصومال تحت الوصاية الدولية وتكون ايطاليا السلطة القائمة بالادارة •

وقد أحدث هذا القرار ردود فعل مختلفة على الصعيد المحلى ، فالأحزاب الوطنية ساءها الأخذ بنظام الوصاية الفردية كما تملكها السخط بسبب اختيار ايطاليا لتتولى الادارة ولكنها اضطرت الى قبول هذا الوضع لأنه مؤقت لن يتجاوز عشر سنوات ، فكأنه بمثابة مرحلة انتقالية يتم خلالها اقامة الهيئات التمثيلية فى المستويات المختلفة (طبقا للقرار) و « صوملة » الادارة ونقل السلطة بالتدريج الى أيدى أبناء البلاد • هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان هناك مبرر بالطبع للأوضاع السابقة وهو أنها انتزعت الاعتراف باستقلال البلاد الذى أصبح حقيقة واقعة ، فاذا انتقلنا الى الصومال البريطانى نلاحظ أنه صدر فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٩ أمر « الملك فى المجلس » ويقضى بأن يتولى الادارة فى المحمية حاكم عسكرى فى يد السلطات التشريعية والتنفيذية •

وفى ظل التطور الدستورى الذى بدأ بطيئا ثم سار بخطى سريعة ومفاجئة نجد أن بريطانيا قررت فى عام ١٩٥٩ تكوين مجلس تشريعى ووزارة وطنية وأجريت الانتخابات فى فبراير سنة ١٩٦٠ وأعقبتها تشكيل أول وزارة صومالية فى الاقليم • وفى الوقت نفسه أيدت بريطانيا عزمها على الانسحاب ، كما أعلنت أنها لن تعارض فى الوضع الذى يراه أهل الاقليم لهم الانضمام الى أشقائهم ، وكلما اقترب موعد اعلان استقلال الاقليم الأول بالنسبة الى الصومال (الايطالى) ، وفى ابريل من السنة ذاتها صوت المجلس على الاتحاد مع صوماليا بمجرد حصولها على الاستقلال • هذا التحول من جانب بريطانيا والذى بدأ مفاجئا للكثيرين يفسره أحد الباحثين كما يلى : كانت بريطانيا فى الأصل تسعى الى أن تتولى الوصاية على الصومال الايطالى

وبذلك يتسنى اقامة وحدة سياسية منه ومن صوماليا والأوجادين تحت اشرافها ويمكن أن تنضم الى الكومنولث لكن هذه السياسة لم تلق أى تأييد ، فأهل الصومال الايطالى لا يريدون استعمارا جديدا ، ونظرت ايطاليا وفرنسا بعين الشك الى محاولات بريطانيا السيطرة على القرن الأفريقى وعارضت اثيوبيا خوفا على أوجادين من جهة ولأنها كانت تريد أن ينضم اليها الصومال الايطالى من جهة أخرى • ويفسر هذا كله الأسباب التى جعلت بريطانيا توافق على الوصاية المؤقتة (على الصومال الايطالى) وتسليم منطقة أوجادين من جديد الى اثيوبيا (٢) •

وكان القرار الخاص باستقلال الصومال (الايطالى) بعد عشر سنوات حافزا قويا لأهل الصومال البريطانى على المطالبة بوضع مماثل حتى يتسنى أدركت بريطانيا صعوبة البقاء فى منطقتها فبدأت أن تكون هى البادئة فى كسب ود الصوماليين : ولكن أهمية الصومال (البريطانى) قد تضاءلت فى الواقع بعد استقلال الهند وباكستان ، كما رأت بريطانيا أن احتفاظها بعدن فيه ضمان كاف لمواصلاتها البحرية • وفى النهاية ينبغى عدم اغفال الاتجاه العام فى افريقيا وخاصة بعد عام ١٩٥٨ مما وضح فى استقلال ممتلكات فرنسا فى افريقيا الغربية والاستوائية ومدغشقر وما تقرر من اعلان الكونغو والكاميرون ونيجيريا •

وعموما فقد حققت القومية الصومالية أول هدف كبير لها ـ وهو الخلاص من السيطرة الأجنبية ـ فى ٢٦ يونيو ١٩٦٠ باعلان استقلال القسم الخاضع لبريطانيا • وفى أول الشهر التالى أعلن انتهاء التفويض الذى سبق أن عهد به الى ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية واتحد الاقليمان لتكوين جمهورية صومالية مستقلة ذات سيادة ما لبثت أن احتلت مكانها فى الأسرة الدولية بعد انضمامها الى الأمم المتحدة ثم فى منظمة الوحدة الافريقية عند قيامها • وتشكلت أول وزارة صومالية فى ١٢ يوليو ١٩٦٠ غير أن هذا الاستقلال ـ شأنه شأن استقلال دول العالم الثالث عن الدول المستعمرة (بكسر الميم) بعد الحرب العالمية الثانية ـ هذا الاستقلال لم يكن قائما على أسس اقتصادية واجتماعية راسخة بسبب افتقار نصفى الدولة الى الصلابة التى توفرها الوحدة الاقتصادية بمعنى أن التفاوت كان صارخا والهوة كبيرة بين نصفى

---

(٢) دكتور راشد البراوى ، الصومال الجديد ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ ، ص ص ٢٣ ـ ٢٩ •

الصــومال ، فالعهد الاســـتعمارى خلف وراءه الكثير من معوقات التقــدم وفى مقدمهتا محاولته القضاء على القبلية التى كانت ولا تزال آفة العديد من المجتمعات الافريقية ، كما سعى الاستعمار للحيلولة دون تكوين شخصية صومالية واعية برغم توافر أركانها ومقوماتها فحرم الشعب الصومالى من لغة نظامية مكتوبة وأخضع التعليم لما يخدم مصالح الاستعمار واهدافه وأبقى على العناصر التى كانت تؤازره ابان سيطرته لتظل تتطلع اليه بعد خروجه فيتخذ منها سند للحفاظ على ما كان له من مصالح متنوعة (٣) .

كما تضمنت التركة التى ورثها الاستقلال مشكلة بالغة الخطورة تتمثل فى أجزاء من التراب اقتطعت قسرا وضد رغبة السكان الوطنيين وأدمجت فى بلاد أخرى مجاوره فكان الجسم السياسى الذى ولد فى عام ١٩٦٠ مشــوها وانعــكس ذلك على التطورات الــلاحقة . ففى يونيو ١٩٦١ تم التصــديق فى استفتاء شعبى على أول دستور للبلاد يضمن الأمل فى تحقيق « الصومال الكبير » ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الخلافات مع كل من أثيوبيا وكينيا تتخذ مظهرا عنيفا ، ففى أوائل عام ١٩٦٤ تطورت الأمور الى نزاع مســلح على أثيوبيا وتدخلت منظمة الوحدة الافريقية داعية الطرفين الى التفاوض ، لكن هذه المفاوضات قد تحطمت لأن أثيوبيا افترض اغلاق الحدود أمام البدو الصوماليين وأن تقوم أية مفاوضات يراد اجراؤها فى المستقبل على أساس معاهدة عام ١٩٠٨ التى عقدت بين ايطاليا وأثيوبيا وأن يتخلى الجانبان عن أية مطالب أو دعاوى اقليمية . وكان طبيعية أن يرفض الصومال مطالب أثيوبيا مما دعى الى تجدد القتال ، وظلت العلاقات يشوبها التوتر حتى بعد أن بدأ فى الأفق حلالها فى مباحثات الخرطوم آنئذ .

والصومال الفرنسى هو الآخر كان باعثا على الاختلاف والاحتكاك بين البلدين لأنه — من جهة — جزء من الأمة الصومالية ، ولكنه من جهة ثانية — وهذا هو الأهم — يضم ميناء جيبوتى الذى يشكل منفذا بحريا هاما بالنسبة الى أثيوبيا . وحتى عندما تمت زيارة الرئيس ديجول الى الاقليم فى أغسطس ١٩٦٦ فقد نشبت الاضطرابات فى جيبوتى وكان من نتيجة ذلك أن طرد عدد من الصــوماليين ، غير أن التطور الأشــد خطورة كان عندما أعلنت أثيوبيا فى سبتمبر ١٩٦٦ أن الصومال الفرنسى جزء لا يتجزأ منها وهنا تقدمت جمهورية الصومال بدعوى مماثلة .

---

(٣) المرجع السابق ص ٢٧ — وراجع أيضا :
Saadia Touval, Somali Nationalism, op. cit. pp. 32 - 45.

أما عن العلاقات مع كينيا فانها تأزمت هي الأخرى بعد أن أن والاتصالات مع عمدت هذه الأخيرة فى يونيو من عام ١٩٦٦ الى قطع العلاقات التجارية والاتصالات مع الصومال — وكانت كينيا وأثيوبيا قد عقدتا دفاع بينهما منذ سنوات ، وهكذا جاءت كل هذه التطورات فى غير صالح الصومال فضلا عن أنه لم يكن الصومال يستطيع تفاديها (٤) ، وبالاضافة الى هذه العلل والعقبات فقد واجه الصومال ما هو أشد خطورة على الصعيد الداخلى ومنها تحديات تذويب الفوارق الطبقية وتحقيق أى حدة الوطنيه وخلق التكامل الثقافى والاجتماعى والسكانى (٥) .

٢ — من استقلال الصومال الى التوجهات القومية :

سبق ايضاح أن الصومال ظهرت كدولة عام ١٩٦٠ وذلك عقب عمليات كفاح طويلة (٦) . وعلى مدى التاريخ نلاحظ أن الشعوب التى تتحدث الصومالية فى الأفريقى وجدوا أنفسهم مشتتين . كما أن الأراضى التى يشغلونها كانت محتلة فى البداية من سلاطين متعددين ثم تلا ذلك قدوم قوى أوروبية استعمارية مختلفة (٧) . ولم يبدأ الوعى الوطنى فى الظهور الا فى مطلع القرن العشرين ولم يأخذ الشكل الحقيقى الواقعى الا فى الحرب العالمية الثانية ففى عام ١٩٤٣ ظهرت فى اقليم أوجادين — وكانت تقع تحت الاحتلال العسكرى آنذاك — ظهرت حركة كرست جهودها لتوحيد الصوماليين تحت حكومة واحدة . ومثل هذا الهدف يعنى عمليا قيام دولة تضم الصومال كله . سواء منه الواقع تحت الاحتلال البريطانى والفرنسى أو الايطالى هذا مع ملاحظة أطماع أثيوبيا فى اقليم أوجادين والأجزاء الشمالية من كينيا ، ولكن هذا المخطط كان يسير ضد أطماع عدد من القوى الأوروبية كما أنه أثار معارضة شديدة من أثيوبيا . غير أن القوى الأوروبية قررت — بعد سنوات عديدة من الصراع وعدم الاتفاق — ، ورغما عن أثيوبيا — أن تفى بمطالب الصوماليين ولو جزئيا وذلك بادماج الصومال البريطانى والصومال الواقع

---

(٤) راجع فى تفصيل ذلك :
Irving, Kaplan, Area Handbook for Somalia (Washington, D.C. : U.S. Government Printig Office, 1977.

(٥) Ibid, p. 28.

(٦) Spencer, op. cit , pp. 17-22. & 25-6.

(٧) راجع فى تفصيل ذلك : الجزء الأول من الدراسة .

نحو الوصاية (والصومال الايطالى سابقا) واعطائه كيانا جديدا مستقلا ، وبهذا قامت جمهورية الصومال ٠

ومع ذلك فان التوحيد الجزئى للشعب الصومالى لم يرض القوى الوطنية التى سيطرت على الحكومة الصومالية الجديد ٠ وفى ٣٠ اغسطس عام ١٩٥٩ — قبل قيام دولة الصومال رسميا وحصولها على — أصدرت هذه القوى الوطنية — بيانا مرسوما — يدعو الى قيام دولة الصومال الكبرى وصدور دستور جديد يضم فى مواده ضرورة استعاد « الأراضى السليبة » أى أوجادين واقليم الحدود الشمالى فى كينيا وجيبوتى (الصومال الفرنسى) (٨) ٠

ولتنفيذ هذه الغاية وجهت حكومة الصومال نظرها الى القوى الغربية على الرغم من تقوية الصومال روابطها مع مصر التى تتصف بعدم الانحياز ، كما أن الصومال قبلت قروضا من الاتحاد السوفييتى تبلغ ٦٣ مليون دولار لبناء الاقتصاد الصومالى (٩) ، ومع ذلك فان خيبة الأمل فى الغرب ظهرت بسرعة فمنحت بريطانيا كينيا الاستقلال عام ١٩٦٣ دون الموافقة على أى تعديل فى الحدود ٠ ولكن الولايات المتحدة تدخلت فى أول عام ١٩٦٤ بعد حدوث اشتباكات الحدود منذ ١٩٦١ فنشب قتال على نطاق واسع بين الصومال واثيوبيا أدى الى هزيمة قاسية للجيش الصومالى ٠ وفرنسا من ناحيتها أوضحت موقفها من بقائها فى جيبوتى ، ويلاحظ أن الجميع أصموا آذانهم لمطالب مقديشيو فى المساعدات العسكرية لبناء جيش حديث قوامه عشرون ألف جندى ٠

ونتيجة لذلك حدث تحول فى سياسة الصومال فى منتصف الستينات واتخذ هذا التحول اتجاهين رئيسيين : أولهما اتجاه مقديشو الى الاتحاد السوفييتى طلبا للمعونة العسكرية ، وفى عام ١٩٦٣ تلقت الحكومة الصومالية بعض المساعدات العسكرية من موسكو التى كانت حريصة على أن تجد لها وجودا فى القرن الأفريقى وفقدت الأمل فى الحصول على ذلك فى أثيوبيا ٠ وقويت العلاقة بين الصومال وموسكو بدرجة كبيرة منذ عام ١٩٤٧ على الرغم

---

(٨) Spencer, op. cit., pp 27 - 30.

(٩) Donald N. Levine, Greater Ethiopia, Chicago. University of Chicago Press, 1975 pp. 77 - 80.

من احتفاظ الصومال ببعض الروابط العسكرية مع الغرب حتى عام ١٩٦٧ ٠ وفى عام ١٩٧٠ مكنت المساعدة السوفيتية مقديشيو فى زيادة حجم جيشها من أربعة آلاف الى عشرين ألفا وزودته بالدبابات وأسراب من مقاتلات الميج ٠

وبعد الانقلاب العسكرى الذى حدث فى أكتوبر ١٩٦٩ الذى أتى بالعقيد (اللواء فيما بعد) محمد سياد برى الى السلطة ، ظل النفوذ السوفييتى قويا ٠ وأول علامة على الطريق حدثت فى فبراير ١٩٧٢ وذلك بزيارة وزير الدفاع السوفييتى أندريه جريتشكو لمقديشيو ، وقد التزم الاتحاد السوفييتى فى هذه الفترة بمساعدة الصومال فى بناء جيش قوى واشتمل ذلك على التسهيلات الجوية والبحرية القائمة ، وكان المقابل هو حصول السوفييت على تسهيلات بحرية فى بربرة التى تقع على خليج عدن بالقرب من مضيق باب المندب مما يتيح فرصة الوصول الى المحيط الهندى وكذلك استخدام المطارات الصومالية فى أغراض الاستطلاع البحرى ٠ ونتيجة لهذه الترتيبات وفد الى الصومال ٣٦٠٠ مستشار سوفييتى يبلغ العسكريين منهم ١٢٠٠ الى ١٤٠٠ وذلك فى يوليو ١٩٧٤ ٠

وقد شهد شهر يوليو ١٩٧٤ أكبر تصعيد تالى فى التورط السوفييتى فى الصومال ٠ ففى أثناء زيارة الرئيس السوفييتى بودجورنى وقعت الدولتان معاهدة صداقة وتعاون والتى تعنى فى جوهرها المزيد من التعاون العسكرى القائم على أساس اتفاقيات غير محددة بين الطرفين خاصة فيما يتعلق بالتدريب الاضافى وتجهيز القوات الصومالية ، ووافق الاتحاد السوفييتى ظاهريا على شطب الديون العسكرية والاقتصادية المتراكمة على الصومال والتى قاربت ١٢٥ مليون دولار ٠

أما اتجاه الثانى أو المظهر الثانى : فى مراجعه الصومالية ، فقد بدأ فى منتصف الستينات وذلك بتزايد الاهتمام بالدول العربية ، ووجدت مقديشيو أن معارضة العرب لاسرائيل ومن خلفها أمريكا كقوة عدمى يمكن استغلالها ضد أثيوبيا عدو الصومال الاقليمى الى جانب عمالتها لامريكا ٠ وبصرف النظر عن منازلة الصومال للعرب فقد انضمت فى النهاية الى جامعة الدول العربية فى فبراير ١٩٧٤ ، باعتبار أن الشعب الصومالى شعب عربى

ومسلم رغم أن البعض يشكك فى عروبة هذا الشعب (١٠) . وفى أوائل الستينات - كما سبقت الاشارة - وطدت الصومال من علاقاتها مع مصر ثم استطاعت بعد ذلك أن تجذب اليها دولا عربية تقدمية أخرى وعلى وجه التحديد سوريا والعراق . وفى المؤتمر الاسلامى العالمى الذى عقد فى مقديشيو فى ديسمبر ١٩٦٤ حث ممثل سوريا فى المؤتمر جميع المسلمين على تأييد حركة تحرير الصومال الكبرى ولكن المساعدة التى قدمتها تلك الدول كانت محدودة للغاية خاصة بعد حرب ١٩٦٧ العربيه - الاسرائيلية .

وما أن وصل سياد برى الى السلطة حاول أن يجعل الدول العربية الغنية بالبترول سنده بالمساعدة بالرغم من اختلاف أنظمتها الاجتماعية عن تلك الدول العربية التقدمية ، وقد أثمرت جهود سياد برى فى هذا الشأن عن نتائج ايجابية ملموسة اذ قدمت السعودية ١٠ مليون دولار كمعونة اقتصادية ووعدت بتقديم عشرين مليون أخرى أو أكثر فيما بعد . وأبدت الكويت هى الأخرى اهتمامها . وبعد وصول القذافى الى السلطة فى ليبيا عام ١٩٦٩ ، أبدت طرابلس استعدادها لبعض الالتزامات الاقتصادية ولكن سياسة ليبيا تجاه الصومال تغيرت فيما بعد حتى اتخذت صورة « زئبقية » ، ويرجع ذلك لأسباب ليست واضحة تماما ولكنها فى معظمها تعود الى روابط الصومال القوية مع الاتحاد السوفييتى وقتئذ . فنجد أن طرابلس قد علقت مساعدتها عام ١٩٧٢ التى كانت قد وعدت بها من قبل . وفى مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٧٣ أدان القذافى أثيوبيا نظرا لمعارضتها لآمال الصوماليين فى اقامة الصومال الكبرى ، وفى أثناء زيارته للصومال فى العام التالى وافق القذافى على مناقشة موضوع المساعدات المعلقة وعرض تقديم قرض قيمته ثلاثة ملايين دولار لبناء مطار تجارى فى قسمايو وأن تشارك ليبيا فى بناء التنمية الليبى - الصومالى ، وأن تقيم ليبيا مشروعات مشتركة فى الزراعة والنقل البحرى . ومع ذلك فان كل هذه الحالات أظهرت استياءا بسبب تزايد الروابط مع الاتحاد السوفييتى وهو اتجاه كانت تفرزه مصر . وأبدى الملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية عدم رضاه عن تقوية

---

(١٠) يرى أحد الباحثين الامريكيين ان الشعب الصومالى مع اسلامه فانه ليس عربيا .

راجع :

David, E. Albright : The Horn of Africa and the Arab - Israeli Conflict, in : World Politics and the Arab - Israeli Conflict, Edited by Robert O Freedman, New York 1979, pp. 147 - 177.

الروابط بين الصومال والاتحاد السوفيتي وذلك باستدعاء سفيره في مقديشيو في أواخر ربيع ١٩٧٤ ، ونتيجة لذلك فان جميع وعود المساعدات من الدول العربية البترولية قد وصلت الى لا شيء في ذلك الوقت .

وهكذا فان محاولات سياد برى في تنويع مصادر المساعدة جعلت الصومال في ظل حكمه يرتبط بأقوى الروابط مع بلدين تقدميين هما العراق وجمهورية اليمن الديموقراطية ، وساعدت العراق والصومال في بناء معمل تكرير صغير تبلغ طاقته ٥٠٠ر٠٠٠ طن في حين ركزت جمهورية اليمن الديموقراطية على تنسيق المسائل الدفاعية والأمنية ، وكلا البلدين كانتا تشكلان في ذلك الحين أقوى حلفاء الاتحاد السوفييتي في العالم العربي .

اريتريا .

١ ــ الجذور المعاصرة للثورة الاريترية :

تزايد عوامل الثورة الاريترية بعد الاجراءات التعسفية من جانب الامبراطور السابق هيلاسلاسي في ظل الدستور الامبراطوري الأثيوبي (١١) الذي كان يقوم على السلطة والكنيسة بنفسه (أي امبراطورا) ولم يكن متوقعا أن ينطور الاتجاه الفيدرالي الا سلبيا ، فالمجتمع الأثيوبي آنئذ كان في اطار الكيان الامبراطوري القائم على الغزو والضم بدءا بيوهانس ومرورا بمنيلك ووصولا بهيلاسلاسي بمضمونه الاقطاعي وواقعة الاقتصادي المتخلف، ولم يتم ذلك لأي حركة وطنية أو ثورية أن تتبلور في أثيوبيا لتشكل مركز حوار ديموقراطي .

وبالرغم من ذلك فقد تعاملت القوى الاجتماعية الأريترية المختلفة مع قضية الاستقلال حتى وصل بعضها الى قرار الثورة عام ١٩٦١ فالبرجوازية الاريترية التي مثلت الشخصية الوطنية مبكرا قبلت نفوذ التطور الاريترى

---

(١١) راجع على سبيل المثال :

Green Field, R. Ethiopia, A New Political History, New York : Pracger, 1965.

Fred Halliday "The Fighting in Eritres," New Left Review (May - June 1977) pp. 57 - 67.

لبعض الوقت فى ظل الاتحـاد الفيدرالى وبقـائه على قمة الهرم الاجتمـاعى فى اريتريا وهو موقف له أصوله القديمة حينما قبلت « الوطنية الاريترية » أن تتعامل مع الانجليز أو مع ايطاليا أو مقابل أجنحة منها مع أثيوبيا ما دامت تضمن المصالح ورغم الدور السـياسى النشـط لهذه القيادات فانها قبلت بالتسليم فى قضية الاستقلال الكامل عندما ضمنت البقاء على قمة المجتمع بشروط جديدة هى شروط الديموقراطية الليبرالية التى كفلها دستور الأمم المتحـدة عام ١٩٥٢ لاريتريا ، لقد كانت الفئـات البيروقراطية المسـيحية - مثلا - ترى أن (سوق العمل) سوف يمتد أمامها فى اريتريا ليشـمل أثيوبيا ادارة وجيشا وأن يجمعها بالتالى جهاز الكنيسة الدينى فى أثيوبيا واريتريا على السواء • أما البورجوازية الاسلامية فكانت ترى أن « سوق التجارة » يمتد عبر حدود آمنة من أتيوبيا الى السودان تحت رعاية الادارة الامبراطورية المتخلفة التى تقف على رأسها فئة ذات تركيب اقطاعى عسكرى لا تشغلها ولا تنافسها التجارة وكان ذلك فى الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية (١٢) التى دمرت الاقتصاد الاريترى حيث تدهورت أحوال العمال والفنيين والمثقفين وفقراء الفلاحين وتوقفت الاستثمارات والمشروعات التى كانت تقوم بها ايطاليا للتوسع فى اريتريا الأمر الذى يفهم منه مدى سوء الأوضـاع الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية فى اريتريا عشـية الادارة الأثيوبية ثم ازداد الوضع سوءا بعد تدخل أثيوبيا فى مصالح اريتريا •

وقد حاولت العناصر البورجوازية الشكوى من الاجراءات التعسـفية لهيلاسلاسى ورفع الأمر الى الأمم المتحدة ، ولكن المنظمة الدولية لم تكن قادرة على اتخاذ أى موقف جديد ، وعندما تجرأ أحد الوفود الاريترية سنة ١٩٥٧ بعرض الأمر مباشرة على الأمم المتحدة أعتقلت السلطات الأثيوبية أعضاء الوفد لدى عودتهم ، وتلى ذلك هروب عدد من الشخصـيات الوطنية الاريترية الى القاهرة وحصلوا على حق اللجوء السياسى عام ١٩٥٩ ، وبذلك لم يجد الشعب الاريترى فائدة من هذا الأسلوب ، فتقدم وفد من أسـمرة يفاوض الادارة الأثيوبية كى تصدر قوانين جديدة لاصلاح الأوضاع فى اريتريا ، ولما كان هذا الوفد لا يمثل الطبقة العاملة فى اريتريا فقد أدى هذا الى حدوث

---

(١٢) Green Field R, Ethiopia op. cit. p. 80

وراجع أيضا :

Pank Hurst, E.S. & Pank Hurst, R : Ethiopia and Eritrea, The Last Phase of the Reunion Struggle 1941 - 1952.

اضطرابات عمالية فى مارس ١٩٥٨ فى أسـمرة ومصـوع وتكررت هذه الاضطرابات فيما بعد وطرحت لدى الجماهير امكانات العمل الثورى ولم يكن هناك أى ثقافة سياسية منظمة طوال فترة الاضطرابات ، ومع ذلك كانت الظروف الخارجية حول اريتريا تتيح لهذه القوى الشعبية أن تنطلق الى الثورة من أجل تحررها الوطنى ، وكانت ثورة ٢٣ يوليو فى مصر تصعد موقفها وتنادى بحق تقرير مصير شعب السـودان المجاور لاريتريا حتى حصـل على استقلاله فى عام ١٩٥٦ والثورة الجزائرية هى الأخرى ألهبت حماس شـباب اريتريا ، وكانت الصـومال شريكة اريتريا فى الخضـوع الى الادارة الاستعمارية تؤهل للحكم الذاتى لتحقيق الاستقلال عام ١٩٦٠ ٠

وكل هذه المؤثرات الخـارجية دعمت قوة الرفض الاريترية (١٣) للاجراءات التعسفية من جانب أثيوبيا ووضعت شعب اريتريا وجها لوجه أمام مطالب الثورة ليس فى مواجهة الامبراطور هيلاسلاسى فحسب بل فى مواجهة البورجوازية التعسـفية ، وقد حاولت بعض قطـاعات البورجوازية الصغيرة أن تلعب دورا معتدلا فى هذا الشأن فقامت بعض عناصرها التى هاجرت للعمل فى السودان بالعمل على تنظيم حركة معارضة لاريتريا فى عام ١٩٥٨ وكان هذا التنظيم السرى يقوم على أساس الخلايا التى تنظم العمال والموظفين الاريتريين فى السودان متأثرين بالسياسة والاتجاهات اليسارية المتطرفة التى سادت السودان فى هذه الفترة ثم انتقلت الى داخل اريتريا

---

(١٣) Ibid.

ومن الثابت ان اريتريا قد شهدت طوال تاريخها تنوعا بشريا واجتماعيا وقد حدثت العديد من الهجرات والحركات البشرية المختلفة من أهالى النيل وشرق افريقيا وجنوب مصر والسودان والجزيره العربية وتجمعت كلها فى الأراضى الاريترية ٠ وقد جعل الموقع الاستراتيجى لاريتريا على مدخل البحر الأحمر ــ جعل لها دافعا تاريخيا واجتماعيا متميزا ٠ فاثيوبيا نفسها لم تشهد هذا النوع العريض فبقيت حبيسة المرتفعات وأسيرة للصراعات القبلية ٠ ولا يوجد احصاء شامل حتى الآن عن عدد السكان فى اريتريا ، وطبقا لتقديرات الادارة البريطانية كان عدد الشعب الاريترى عام ١٩٥٢ بلغ ٣١٠٠٠ر نسمة منهم ٥١٤ر٠٠٠ مسلمون ، ٥١٠ر٠٠٠ مسيحيون ، ٧ر٠٠٠ وثنيون وذلك بالاضافة الى ٣٢٠ر٠٠٠ من الأجانب ، أما الآن فمن الأرجح ان عدد السكان قد بلغ ٣ مليون نسمة تقريبا وهذه الأرقام التقديرية غير دقيقة لعدم اجراء احصاء شامل ودقيق نظرا لصعوبة الحصول على ارقام حقيقية على افراد القبائل الرحل ٠

راجع :

Richard Green Field, Ethiopia : A New Political History (New York, Pracger, 1965). op. cit. pp. 30 - 37.

وقامت بعدة إنقلابات فيما ثم تأثرت ثقافة. تلك التنظيمات بالتعقيدات القائمة في الواقع الاريتري حول وضع المسيحيين والمسلمين والخصائص الأفريقية والعروبة ، الأمر الذي ترتب عليه عدم الإستجابة الصحيحة لهذه الحركة من جانب الشعب الاريتري وبالتالى عدم تحقيق مطالبه .

٢ - جبهة تحرير اريتريا وتطورها :

ظهرت حركة تحرير اريتريا رسميا فى عام ١٩٦١ ، وذلك بقيام جبهة تحرير فى القاهرة ، ولكن جذورها السياسية ترجع الى تلك السنوات هى التى أعقبت الحرب العالمية الثانية (١٤) ، اذ كانت تلك السنوات هى التى تمثل توزيع ووضع المستعمرات الايطاليه وما أثير حولها من جدل . وبينما نجد أن الأراضى التى تعرف الآن باسم اريتريا كانت تقع اسميا ضمن امبراطورية الحبشة قبل القرن التاسع عشر فانها لم تسلم كذلك من التجار والمستكشفين فى امبراطوريات مثل المصرية والأغريقية والفارسية والعرب والأتراك ، ثم أتت ايطاليا فى نهاية القرن التامن عشر وتغلبت على اريتريا وأقامت نظاما استعماريا هناك . وبهزيمة ايطاليا فى الحرب العالمية الثانية ، أصبح مستقبل اريتريا قضية يشوبها النزاع ، فنرى بريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتى الوقت ما يتطلعون اليها ، وطلبت ايطاليا فى بادىء الأمر بعودة اريتريا الى سيطرة روما ولكنها مع ذلك تمت نموها بأسلوب الاستقلال أما الحبشة (أثيوبيا) فقد ادعت بان اريتريا جزء منها وطالبت بعودتها اليها . ومصر هى الأخرى طالبت بذلك معتمدة على الروابط التاريخية مع اريتريا قبل استيلاء ايطاليا عليها هذا الى جانب العدد الكبير من السكان المسلمين الذي شجع مصر (١٥) على تاكيد سيادتها على المنطقة .

أما الوضع بالنسبة للاريتريين أنفسهم فقد أبدوا وجهات نظر متباينة حول هذه المشكلة - مشكلة اقليمهم - بدءا من الاستقلال التام الى الاتحاد مع أثيوبيا . فالمسلمون كانوا يميلون عموما الى الحلول التى تضع مسافة ما بين اريتريا وأثيوبيا . أما المسيحيون فقد كانوا يؤيدون الحلول التى تقوى الروابط مع الحبشة . وفى عام ١٩٥١ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة

---

(١٤) راجع :
Robert L. Hess, Ethiopia : The Modernization of Autocracy (Ithaca : Cornell University Press 1970).

(١٥) Ibid

اتحاد اريتريا مع الحبشة اتحادا فيدراليا مع احتفاظها بحكم شبه ذاتى وكيان مستقل ، وحتى ذلك الحين نجد أن بعض الأحزاب كانت تلتزم بالاستقلال ولذلك عارضت الانتخابات الأولى التى أجريت عام ١٩٥٢ تحت ابراف الأمم المتحدة .

وما أن وصل ممثلو أديس أبابا الى المستعمرة الايطالية السابقة حتى بدأوا فى قمع القوات الانفصالية ، وقد وجد كثير من الزعماء الانفصاليين أنفسهم يتعرضون للمضايقات ويقبض عليهم ويرسلون الى المنفى ، وردا على هذه الجملة تبنت جمعية اريتريا قرار اتهم فيه الحبشة بخرق الحقوق السياسية والمدنية فى الاقليم (١٦) ، وقد جعل هذا الاجراء الامبراطور هيلاسيلاسى يستبدل الحاكم العام ، ثم تلا ذلك قيام الحاكم العام الجديد بحظر قيام جميع الأحزاب السياسية التى تعارض الاتحاد مع الحبشة ، وبدأ الحاكم الجديد فى بناء مرحلة اعادة تكامل اريتريا ضمن امبراطورية الحبشة ، وقد حدثت هذه الخطوة فى سبتمبر عام ١٩٦٢ .

ونظرا لعدم قدرة الأمم المتحدة أو القوى العظمى التدخل لايقاف مناورات حكومة أثيوبيا المركزية ، فقد قامت جماعة من الزعماء الانفصاليين بتأسيس جبهة تحرير اريتريا فى القاهرة بهدف أن تشن الجبهة نضالا مسلحا من أجل الاستقلال . وقبل أن ينقضى عام ١٩٦١ بدأت هذه الجماعة أولى عملياتها العسكرية ضد السلطات الأثيوبية على الأراضى الاريترية (١٧) .

وفى البداية نجد أن جبهة تحرير اريتريا كانت ترتكز على خلفية اسلامية كبيرة يساعدها فى ذلك توجيه عربى — اسلامى ، ولكن شيئا فشيئا انضم كثير من المسيحيين الى هذا النضال المسلح وأصبحت الصورة أكثر تشابكا وأن شابها شىء من الماركسية . ونظرا لتجمع وتراكم الصراعات الأيديولوجية الدينية والشخصية فقد أثر ذلك فى النهاية ، الأمر الذى أدى الى حدوث تصدع فى الحركة عام ١٩٦٩ . وبسبب هذا التصدع والانشقاق نشأ المجلس الدورى لجبهة تحرير اريتريا الى جانب جبهة تحرير شعب اريتريا . وكانت الجبهة الأولى تتكون من المحاربين القدامى فى النضال من أجل

---

(١٦) Robert L. Hoss, op. cit. pp 85 - 7.

(١٧) حول الأنشطة العسكرية لحركة التحرير الاريترية فيما بين ١٩٦٠ — ١٩٧٠ راجع : Hess, op. cit., pp 186 - 191.

التحرير كما كانوا يتمتعون بتأييد عربى أكثر منه ماركسى فى حين كانت الجبهة الثانية تتسم بالماركسية الصريحة ٠

وتمشيا مع التوجيه العام وجهت جبهة تحرير اريتريا وجهتها صوب الدول العربية للمساعدة والتأييد وكانت هذه الدول تمثل العمود الفقرى لحركة تحرير اريتريا كعون خارجى لها وذلك حتى انهيار حكومة هيلاسلاسى فى أثيوبيا خلال عام ١٩٧٤ ٠ غير أن درجة التأييد قد تفاوتت من قطر الى قطر ، ومن الأهمية بمكان فى هذا الشأن الاشارة الى أن درجة تأييد الدول العربية لحركة تحرير اريتريا قد مر بمنحنى متفاوت من السطوع والأقوال العربية لحركة تحرير اريتريا قد مر بمنحنى متفاوت من السطوع والأفول طوال تلك السنين ٠ ففى خلال أوائل الستينات حصلت الحركة على مساعدة قوية قدمها عبد النـــــاصر اذ أنه رأى فيها مطية ممكنة للارتقـاء بنظرته العربية الشاملة ، وسمح المصرية لجبهة تحرير اريتريا بانشاء معسكر تدريب قرب الاسكندرية ، كما كانت مصر هى التى تشرف فعلا على تدريب أعضاء الجبهة فى الاتحاد السوفييتى ، وعند تأسيس منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٦١ أقام هيلاسلاسى صداقة مع عبد النـــاصر ٠ وقد أقنع الامبراطور هيلاسلاسى الزعيم المصرى بأن يخفف من تأييده والتزاماته تجاه الاريتريين٠ ومنذ عام ١٩٦٥ فصاعدا هبطت المساعدة المصرية لحركة التحرير لدرجة كبيرة وخاصة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ حيث انشغلت مصر أكثر فأكثر بالمعركة ضد اسرائيل ٠

أما السودان فقد أسرع كذلك فى تبنى قضية جبهة تحرير اريتريا ولكنه بعد ذلك حاول الحـد من تورطه فى مجازفات الجبهــة ٠ وفى أوائل الستينات سمحت حكومة الخرطوم لجبهة تحرير اريتريا بانشاء قيادة ميدانية لها فى كسلا على طول الحدود السودانية — الاريترية فى أراضى قبائل بنى عامر وكانت الجبهة فى الأصل تستمد منهم عونا كبيرا ٠ هذا بالاضافة الى مدينة كسلا تصلح كنقطة عبور للأسلحة المتجهة الى جبهة التحرير ٠ الا أن هذه المساعدة قد عرضت السودان لهجوم محتمل من جانب أديس أبابا خاصة وأن السودان كانت تواجه حركة تمرد فى أقاليمها الجنوبية حيث السكان من السودا وفيهم أغلبية مسيحية ، وازاء حدة الصراع فى جنوب السودان رأت الخرطوم أنه من الحكمة لها أن تضع جبهة تحرير اريتريا تحت سيطرتها ، بل أنه حدث فى فترة أواخر الستينات أن حاولت حكومة السودان ايقاف التسهيلات التى تقدمها للجبهة فى كسلا ، وعلاوة على ذلك فقد حاول السودان

أن يلعب دور الوساطة بين أديس أبابا وجبهة تحرير اريتريا (١٨) وذلك بتشجيع قيام ترتيبات فدرالية جديدة تعطى اريتريا على الأقل معيارا للحكم الذاتي . ولم تقدم الخرطوم أى دور نشيط فى اقرار أو حل الموقف منذ أوائل السبعينات .

وقد ظهرت سوريا والعراق فى منتصف الستينات كأبطال لجبهة تحرير اريتريا وظلوا كذلك حتى عام ١٩٧٤، ويمكن تفسير هذا التأييد تفسيرا جزئيا بسبب وصول حزب البعث الى السلطة فى كلا البلدين اذ أن دستور حزب البعث ينص على أن أرض الوطن العربى تمتد من « خلف ... جبال الحبشة » اى بما فى ذلك اريتريا . وبسبب التصدع الذى حدث فى جبهة تحرير اريتريا عام ١٩٦٩ وتشكيل مجموعتى تحرير منفصلتين عام ١٩٧٠ فقد قامت سوريا والعراق بادخال التغييرات فى سياسات تلك الجبهات ، بل وفى تأييدها لهما ، فبينما احتفظت سوريا بروابط قوية مع جبهة تحرير شعب اريتريا . نجد أن العراق قد احتفظت بروابط قوية مع جبهة تحرير شعب اريتريا ويلاحظ ان العداء بين نظام حزب البعث فى كلا البلدين هو الذى شجع على قيام هذه الاختلافات .

وفى أوائل ومنتصف الستينات أثارت جبهة تحرير اريتريا - على الأقل - اهتماما بسيطا بقضيتها فى عدد آخر قليل فى الدول العربية ، والفوائد الملموسة التى استمدتها من هذا الاهتمام كانت محدودة ، وطبقا لما ذكره الاريتريون أنهم حصلوا على وعد المساعدة من المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٢ ، ومع ذلك فقد غير الزعماء السعوديون رأيهم ازاء هذا الموضوع عندما بدأ كثير من المسيحيين فى الانضمام الى الحركة ، هذا الى جانب انشغال السعودية فى الحرب الأهلية فى اليمن . وعلى الرغم من أن المسلمين العرب فى لبنان أظهروا شيئا من التعاطف تجاه جبهة تحرير اريتريا الا أن هذا التعاطف لم يسفر الا عن فتح مكتب للجبهة فى بيروت . وفى عام ١٩٦٣ قدمت الجزائر مساعدة رسمية لحركة التحرير وسمحت بانشاء مكتب للمنظمة فى الجزائر . ومع ذلك فان مساهمة الجزائر فى جهود حركة التحرير لم تخرج عن حدود متواضعة أى كانت فى مستوى متواضع بسيط .

---

(١٨) Robert O. Freedman, World Politics and the Arab-Israeli Conflict, Pergamon Press, New York 1979 pp. 150 - 160.

وقد حصل الاريتريون على بطلين جديدين فى نهاية الستينات فبعد وصول معمر القذافى الى السلطة فى ليبيا عام ١٩٦٩ أصبحت طرابلس مركز إهتمام ، بل أن طرابلس هى التى تزعمت القضية الاريترية باعتبارها قضية عربية ومن هنا أسرعت ليبيا تورد السلاح لحركة التحرير فى اريتريا ، كما ان مجيء الراديكاليين العرب الى السلطة فى اليمن الجنوبى وبعد حصولها على الاستقلال عام ١٩٦٧ قد قدم تعزيزا جديدا للاريتريين ونتج عن ذلك أن أصبحت عدن نقطة عبور شحنات السلاح والمؤن المتجهة الى اريتريا ٠

وعلى الرغم من أن الدول العربية كانت المطمـــح الرئيسى للمعونات الاريترية الا أنهم لم يكونوا المطمح أو الهدف الوحيد ، اذ على الرغم من أن الولايات المتحدة كانت قد استولت على قاعدة هامة فى « كاجينو » خلال الحرب العالمية الثانية واحتفظت بالسيطرة عليها وبالتسهيلات فيها بعد عام ١٩٥٢ فى مقابل التزامها بتقديم السلاح لأديس أبابا الا أن الثوار الاريتريين اعتبروا اندفاعهم نحو الاستقلال جزءا من « كفاح عالمى ضد الامبريالية » ومن ثم وجهوا أنظارهم نحو القوى الشيوعية طلبا لمساعدتهم فى جهود التحرير ٠ وحيث أن وجهات نظر زعماء الحركة قد اتسمت بصبغه شيوعية صريحة فان الاستمرار فى هذا الاتجاه قد تزايد ، فنجد مثلا أن جبهة تحرير شعب اريتريا على وجه التحديد قد مالت ميلا شـديدا طلبا للتأييد الشيـــوعى وذلك بعد انفصالها عن جبهة تحرير اريتريا فى نهاية الستينات ٠

وقد تفاوتت ردود الفعل لدى القوتين الشيوعيتين الكبيرتين ازاء مطالب الاريتريين فى المساعدة خلال عدة سنوات ٠ فنجد الصين تقدم بعض المساعدة لوقت ما خاصة فى نهاية الستينات ، ولكن عندما وافق هيلاسلاسى على اقامة علاقات سياسية مع الصين عام ١٩٧١ وجدت بكين نفسها فى موقف حرج اذ بدأت تقلل تأييدها الفعال للاريتريين ٠ ومن ناحية أخرى نجد ان الاتحاد السوفيتى كان يقوم بتدريب الكوادر العسكرية لجبهة تحرير اريتريا منذ أوائل الستينات ، الا أن موقف موسكو تجاه المنظمة كان محددا خلال السنوات الأولى من قيام تلك المنظمة ٠ ويرجع هذا التردد السوفيتى وعدم تورطه بشدة فى القضية الاريترية الى أمل السوفيت فى ابعاد اثيوبيا عن الغرب وأضعاف روابطها معه ٠ وقد عارض هيلاسلاسى — كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من هـــذه الدراسة — عارض بشدة الاتفاقية البريطانية — الامريكية لعام ١٩٥٩ التى ينص على ضم الصومال البريطانى والصومال الابطالى الواقع تحت وصايـــة الأمم المتحدة فى دولة مستقلة وبذلك حاول أن يمد جسورا مع الاتحـــاد السوفيتى ، ولكن فى منتصف الستينات أصبح من أواضح عدم وجود ما يبرر

اعادة توجيه فى سياسات الامبراطور • وبعد ذلك خففت موسكو اتجاهات الحظر حول مساعدة الاريتريين • وفى الواقع كان الاتحاد السوفيتى عادة يستخدم الراديكاليين العرب كوسطاء وبالتالى فان كم السلاح الكبير المتجه الى الاريتريين كان يأتى بهذا الأسلوب •

وعلى الصعيد المحلى أى الثورة الاريترية وفصائلها يمكن تقسيم تطورها الى مراحل زمنية كالآتى :

اولا : الفترة من ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ وتتسم هذه الفترة بقيام حركة تحرير اريتريا بتعبئة الاريتريين فى الخارج وجمع التبرعات منهم لشراء الأسلحة •

ثانيا : الفترة من ١٩٦٥ ـ ١٩٦٩ حيث اجتازت الثورة الاريترية مرحلة التعبئة العضوية الى مرحلة الثورة المسلحة الشاملة وهى المرحله التى شهدت انتقال الثورة من جرب العصابات المحددة الى الكفاح الجماهيرى المسلحة مع تعبئه العناصر العمالية والمثقفة فى الخارج وضم جميع الطوائف مسلمة ومسيحية ومحاولة استخدام تقسيم الولايات الى مناطق عسكرية ذات قيادات وأنشطة مستقلة وقد سبق ايضاح أن هذه الفترة قد اتسمت بتأكيد الثورة الاريترية لوجودها على الساحة الدولية بالاتصال بالدول الاشتراكية ودول العالم الثالث •

ثالثا : وهى الفترة من ١٩٦٩ ـ ١٩٧١ حيث أخذت الإنقسامات تظهر بين فصائل الثورة واستعدادا للمؤتمر الوطنى العام ، وقد بدأت القوى الثورية بالتخلص من القوى المعارضة فى المجلس الأعلى للثورة التى يقودها من الخرج واختارت قيادة عامة فى الميدان تأكيدا لفكرة الوحدة وكانت المنطقتان الأولى والثانية فى غرب اريتريا لهما نفوذ أكبر ، وفى المقابل كانت هناك « القيادات الثلاثية » التى احتفظت بنفسها حتى انشقت باسم « قوات التحرير الشعبية » ، وتجدر الاشارة الى أن الصراع فى الجبهة وداخل جناحيها بين الوطنيين من جهة والديموقراطيين اليساريين من جهة أخرى ، وهذا الصراع قد عطل انعقاد المؤتمر الوطنى حتى آخر ١٩٧١ ، كما أن هذه الفترة قد تبلورت فيها الانقسامات ، وبالرغم من ذلك فقد تجسدت الثورة الاريترية وسط جماهيرها وحصلت على مساعدات خارجية كبيرة وتوفرت لها قوة عسكرية مدربة وبدأت تهتم بالتثقيف السياسى والايديولوجى وأسهمت الحركة الطلابية فى هذه الفترة بجهد ملحوظ •

رابعا : الفترة من ١٩٧١ ـ ١٩٧٥ وتتسم هذه الفترة بالصراعات

الداخلية بين فئات وفصائل الثورة وسادت القطيعة بين جناحيها وأصبحت الثورة الارتيرية ممثلة فى تنظيمين ، أما المجلس الثورى للجبهة فقد تمسك بقرارات مؤتمراتها فى حين أن قوات التحرير الشعبية لم تقبل هذا المفهوم أو تلتزم به ، وشهدت هذه الفترة أيضا اقتتالا وطنيا ودمويا تحت شعار تصفية الثورة المضادة ، وقد تمسكت قوات التحرير الشعبية بموقفهـــا الرافض للمجلس الثورى ، وهذه التناقضات بين قوى الثورة الاريترية قد أثرت على قدرتها فى مواجهة التحدى التاريخى لها بسقوط الامبراطور هيلاسلاسى دون قدرة على حسم الموقف ، الأمر الذى اضطر جناحى الثورة الى المغامرة فى هجوم مشترك على أسمرة ، ورغم أن هذا الهجوم قد حقق أهدافا اعلامية الا أنه لم يحقق أبعاده المرجوة على الصعيد الداخلى ٠

خامسا : الفترة من ١٩٧٥ – ١٩٧٧ ٠ وقد ظهرت فى هـــذه الفترة محاولات لحسم الخلاف الناشب بين أطراف الثورة ، وبدلا من أن يؤدى الحوار الديموقراطى بين فصائل الثورة الاريترية الى حل الخلافات فقد أدى الى مزيد من الانقسامات ، وقد ذهبت بعض قوات التحرير الشعبية الى حد بذل محاولات مع المجلس الثورى فى السودان لتحقيق الوحدة ، ولكن قيادات التحرير بالداخل أعتبرت هذا الحوار لا يمثل وجهة نظرها ، وتتسم هـــذه الفترة أيضا بضغط نظام الحكم الجديد فى اثيوبيا لطرح القضية كمشكلة قومية داخلية وتزايد الصراع الدولى حول اثيوبيا نفسها وتعقد الموقف بالتالى أمام الثورة الاريترية وتعرضها للخطر ٠ وبالرغم من هذه المعوقات فقد حققت الثورة الاريترية فى هذه الفترة انجازات هامة ، فالمجلس الثورى ضاعف من عمليات الميليشيا الشعبية ودعم التنظيم الجماهيرى ودفع بقواته لتحتـــل « تسينى » بمشروعاتها الزراعية وتكسر معسكر « على قدر » الحصين فى غرب اريتريا ، ثم تقوت الجبهة الشعبية الى « نفقة » فى مديرية الساحل ثم الى كرن ووسط البلاد ، ثم تحرك قوات التحرير الشعبية هى الأخرى « كقـــوة ثالثة » بما لديها من سلاح ٠

سادسا : أما فى الفترة اللاحقة على عام ١٩٧٧ والفترة الحالية أيضا فان القوة الأساسية للثورة الاريترية تتمثل فى جبهة معركة تحرير اريتريا بقيادة المجلس الثورى ثم الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا أو جبهة تحرير شـــعب أريتريا ، والجبهتان يتعرفان لبعضهما بهـــذا الوضـــع ، أما قوات التحرير الشعبية فلا تزال تمثل « القوة الثالثة » ،ومن أهم نقاط الاختلاف بين فصائل الثورة الثلاث أن جبهة تحرير اريتريا – المجلس الثورى تقوم بتنشط المنظمات الجماهيرية ولذا فان قواها تستقطب معظم أنحاء اريتريا كما يسودها

التيار الاشتراكى ، أما الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا أو جبهة تحرير شعب اريتريا فقد حملت اسم قوات التحرير الشعبية فانها تضم قوى متنوعة خارج جبهة اريتريا مما جعل سلوكها الداخلى يتسم بالعسكرية فقط ، ويقوم برنامجها الاجتماعى على توفير الخدمات للمناطق المحررة وكـــذا للاجئين الاريتريين .

« اثيــــوبيا »

١ ـ اثيوبيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية :

خلال السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية نجح هيلاسلاسى فى صد ما عتبره مخططات القوى الأوربية حول أراضى اثيوبيا وخاصة منطقتى اريتريا وأوجادين . وتمسكت اثيوبيا من الحصول على السيادة على هذين الاقليمين والتى كانت تعتبرهما جزءا أساسيا من ميراثهـــا الشرعى(١٩) وبالاضافة الى ذلك فعندما أوضحت الحكومة البريطانية عام ١٩٥٢ أنها لن تستطيع أن تقدم السلاح أو البعثات العسكرية الى اثيوبيا ، بدأت أديس أبابا التعامل مع الولايات المتحدة كى تحصل على احتياجاتها فى هذا المجال . فقد حصلت على مساعدة عسكرية وأسلحة لمدة ٢٥ عاما من خلال اتفاقية تنص على ذلك فى مقابل حصول الولايات المتحدة على تسهيلات فى ميناء كاجينـو الهام فى اريتريا والذى كانت تستخدمه الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية(٢٠) . ومن هنا فقد كان لهيلاسلاسى ما يبرره من الشعور بالأمن بعيدا عن أى تهديدات خلال معظم الخمسينات .

ومع ذلك فان قرار القوى الغربية بضرورة تشكيل جمهورية الصومال على الرغم من مطالب الصومال فى أوجادين ، كل هذا حفز أديس أبابا كى تعيد تقييم الموقف . وقد سبب تأييد الولايات المتحدة لهذا الاقتراح غضب حكومة اثيوبيا . مما حد بهيلاسلاسى ان يطلب السلاح من كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وذلك بهدف زيادة القوات المسلحة الاثيوبية من ٣٢٫٠٠٠

---

(١٩) حول علاقات اثيوبيا بالقوى الخارجية بالقرن الافريقى قبل عام ١٩٧٤ ، راجع :
Bel,, The Horn of Africa : Strategic Magnet in the Seventies; Abir, cit : Conflict in Africa.

(٢٠) Donald N. Levine, Greater Ethiopia, op. cit. p p80 - 5.

الى ٤٠٫٠٠٠ مقاتل كى يستطيع ان يواجه ما اعتبره تهديدا بسبب قيام دولة الصومال ، ولم تلتزم الولايات المتحدة بتقديم العون العسكرى والسلاح فحسب بل أنها قدمت تأكيدا سريا بأنها لها مصالح دائمة فى أمن اثيوبيا .كما أنها تعارض أى نشاط يهدد تكامل اثيوبيا الاقليمى ، وقبل موته بقليل كان هيلاسلاسى مقتنعا بهذا التأكيد .

وعلى الرغم من رضاء الامبراطور عموما عن الروابط الامريكية - الاثيوبية ، الا انه كان يشعر فعلا بضرورة زيادة المساعدة عندما زحفت الستينات ، وكان الدافع لذلك خشيته من انفصال اريتريا(٢١) وضرورة اعداد جيش قوى لمثل هذا الاحتمال . ولتحقيق ذلك اتجه .عمدا الى قوة صغيرة ولكن ذات أهمية فى المجال العسكرى الا وهى اسرائيل . ولقد إستجاب له الاسرائيليون بسرعة . ثم حدث هذا التعاون العسكرى عدة أعراض منها اعطاء فرصة لاسرائيل للعمل داخل دولة كبرى وان تقوى مركزها فى المنطقة الواقعة تحت الصحراء الكبرى الى جانب تعزيز روابطها مع الولايات المتحدة من خلال الالتزام العسكرى كما أن هذا التعاون كان يسمح لهم بالعمل على عدم « تعريب » Arabizarion بلد غير عربى على البحر الأحمر ، ولقد أكتسب الاعتبار الأخير مغزى كبير وذلك عندما حاولت مصر غلق مضايق تيران فى حرب ١٩٦٧ الى جانب غلق العرب لمضيق باب المندب فى حرب ١٩٧٣ .

واذا لم يحدث الانقلاب العسكرى فى اثيوبيا عام ١٩٧٤ فمن الجائز ان يكون هيلاسلاسى قد اختط له سياسة تختلف عن السياسة السائدة هناك الآن ، ففى رحلته الى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ اكتشف هيلاسلاسى ان صانعى السياسة الامريكية غير راغبين فى تزويده بالمزيد من السلاح الذى يريده ، خاصة وأن الموقف كان يتدهور فى اريتريا بصورة رهيبة ويمكن أيضا ملاحظة أن الولايات المتحدة كانت تعكس رغبة فى عدم انقلاب الميزان العسكرى الهش بين اثيوبيا والصومال ، ومن ناحية أخرى فقد بدأت الولايات

---

(٢١) حول علاقة اثيوبيا باريتريا وتطورها وخاصة فى الفترة السابقة واللاحقة للحرب العالمية الثانية - راجع :

E. Sylvia Pankhurst & Richard K. P. Pankhurst, Ethiopia and Eritrea. The Last Phase of Reunion Struggle 1941 - 1952 (Woodford Green Essex England Lalidela House, 1953).

المتحدة تقلل من أهمية ميناء كاجينو — ولقد أطاح العسكريون بالامبراطور هيلاسلاسي قبل أن يتمكن من التعامل مع هذه الظروف .

٢ — من حكم هيلاسلاسى الى الحكم الماركسى

وعموما فقد غيرت الأحداث في اثيوبيا من أوضاع منطقة القرن الأفريقى بصفة عامة ، ففى أوئل عام ١٩٧٤ أرغمت حركات التمرد داخل القــوات المسلحة الأثيوبية ، أرغمت هيلاسلاسى على تغيير مجلس الوزراء وأن يعلق مراجعة الدستور جاعلا رئيس الوزراء ومجلس الورزاء مسئولون(٢٢) أمام البرلمان مباشرة — ومن هنا بدأ الإنقلاب العسكرى يزحف جيشا وأدى فى النهاية بالاطاحة بالامبراطور ووصول القوة العسكرية الى السلطة فى سبتمبر ١٩٧٤ . وفى خلال شهور قليلة من قيام المجلس العسكرى المؤقت فانه قد سيطر تماما وأكد عزمه على بناء الاشتراكية فى أثيوبيا وقام بتأميم جزء كبير من الشركات الخاصة العاملة فى أثيوبيا كما أصدر مشروع اصلاح زراعى كبير والتزام بالمحافظة على الوحدة الوطنية وهذه السياسات — مع وجــود الخلافات بين العسكريين أنفسهم — أدت بسرعة الى انفصام فى السلطــة المركزية ثم أعقب ذلك قيام الثورات فى عدد من الاقاليم المجاورة لاريتريا .

وبدأ فى الأفق أن فرص المصلحة مع حركة تحرير اريتريا أصبحت فرصا قائمة ومعتمة ، كما خشى الاريتريون من أن تقوم أديس أبابا بعمــل عسكرى لسحق الحركة ، ولهذا نجد أن جبهة تحرير اريتريا وجبهة تحرير شعب اريتريا قد عقدا اتفاقا للتعاون معا فى يناير ١٩٧٥ ، وبعد وقت قصير شنت الحركتان هجوما كبيرا على العاصمة الاريترية أسمره ، وقد أوشك المجهود العسكرى الكبير على طرد الاثيوبيين من المدينة ، وتفاديا لهذه الكارثة كان على المجلس العسكرى ان يتنازل عن معظم المناطق الريفية والمدن الصغيرة والكبيرة للاريتريين ، بل أن الأهم من ذلك هو أن هذا القتال قد أدى الى هروب ١٠٠ر٠٠٠ اريترى الى السودان للاجئين ، كما أن القوات العسكرية الاثيوبية تمكنت من تشريد معظم المدنيين الباقين وذلك بقطع الطعام والمؤن الأخرى عنهم ، الأمر الذى جعل حركة تحرير اريتريا تبحث عن التأييــد والمساعدات المادية بين الدول العربية(٢٣) ، غير ان الانقسام المستمر داخل

---

(٢٢) Blair Thompson, Ethiopia : The Country that cut off its Head, London : Robson Books 1945 p. 45.

الحركة قد ازعج الدول العربية وبالرغم من ذلك فقد استجاب الكثير من الدول العربية لنداء الحركة(٢٤) ففى مارس ١٩٧٧ ذكرت المصـــادر الاريترية أن العراق وسوريا والكويت وقطر وأبو ظبى من الدول التى تقدم مساعدات ملموسة ، كما ذكرت هذه المصادر أن السعودية قد وعدت بالمساعدة وان ليبيا قدمت مساعدة عسكرية من قبل ولكنها توقفت مؤخرا ، وفى الشهور الأولى من عام ١٩٧٧ قررت السودان تقديم المساعدة والتأييد للحركة ، أما الجزائر وتونس واليمن الجنوبى فقد قدمت تأييدا معنويا قويا .

ان السبب فى اقبال الدول العربية على تقديم مساعداتها وتأييدهـــا لحركة تحرير اريتريا وقتئذ - يرجع فى معظمه على حد قول أحد الباحثين(٢٥) - الى منازلة السوفيت للنظام العسكرى فى أديس أبابا على حساب الاريتريين، ففى ١٤ يونيو ١٩٧٦ مثلا أذاع راديو موسكو باللغة الامهرية اقتراحـــات ابداها المجلس العسكرى الاثيوبى من أجل التسوية فى اريتريا وهى «خطوة خاصة لايجاد حل سلمى للمشكلة فى اقليم اريتريا »(٢٦) . ويرجع التأييد الاضافى أيضا والى حد ما - الى ما يعكسه من اتجاه عام لتقديم المساعـدة للقوى المناهضة للحكم العسكرى الاثيوبى ، ويكفى أن نسوق مثلين : أولها سياسة المجلس العسكرى الاثيوبى ازاء تأميم الأرض الزراعية الأمر الذى أثار التمرد فى شعب عفار الذى يقطن الجزر المنخفضة بين هضبة أثيوبيا والبحر الأحمر ،وأدى هذا التمرد الى قيام الحكم العسكرى بهجوم تأديبى على أسايتا ومستعمرات عفار الأخرى فى مايو ويونيو ١٩٧٥ مما نتج عنه خسائر كبيرة فى الأرواح فى كلا الجانبين ، غير أن نصيب عفار من الخسائر كان أكبر ، وقد قام سلطان عوسا Aussa على ميراهانفير وولد الذى تلقى تعليما أمريكيا بطلب المساعدة الخارجية من أجل أنفصال اقليث عفار ، وقد هرب السلطان الى السعودية فى حين هرب أبنه الى الصومال ، ونجح كل منهما فى الحصول على العطف والتأييد الذى يريدونه .

---

(٢٣) راجع فى تفصيل ذلك :
The New York Times (November 2, 1975. June 26, 1977) and Le Monde (March 16, 1977).

(٢٤) The Washington Post (August 6, 1977).

(٢٥) David, E. Aldright : op. cit. p 156.

(٢٦) Dailg Report : Soviet Union, Hereafter FBIS Sov. (June 16 1976); Hi 5. (Emphasis added).

أما المثال الثانى على مدى تقديم المساعدة لحركة تحرير أريتريا باعتبارها مناهضة للحكم العسكرى الاثيوبى فانه يتلخص فى تجمع جماعات فدائيين فى تايجر وولو وباجمندر وجوجام خلال ١٩٧٥ — ١٩٧٦ لمناوئة الحكومة الجديدة فى أديس أبابا وتنصيب الشخصيات الليبرالية فى النظام القديم والذين كانوا فى المنفى(٢٧). وقد سبق ايضاح ان المجلس العسكرى الاثيوبى استبعد فكرة التفاوض من أجل التسوية فى اريتريا ، كما أنه ركز اهتمامه على اتخاذ اتجاه عسكرى ازاء المشكلة خلال الشهور الأولى من عام ١٩٧٥ ، وأدى هذا الى حرب طويلة كانت تستنزف الموارد المتواضعة فى أديس أبابا بمعدل ٣٥٠٫٠٠٠ دولار يوميا • ومع ازدياد الانقسام فى السلطة المركزية فى أجزاء أخرى من اثيوبيا وجدت الحكومة العسكرية نفسها فى وضع يستلزم دمج الاسلحة والمستشارين كى تقوم بتدريب قوات اضافية لمعالجة الموقف •

وفى البداية رأى المجلس العسكرى الأثيوبى ضرورة النظر فى المصادر القائمة وموضوع الاستشارات • ولوقت ما كانت الولايات المتحدة هى المستشار العسكرى الرئيسى لحكومة هيلاسلاسى واستمرت فى لعب نفس الدور مع خلفائه النوريين ، ولكن عندما ظهر عدم استقرار النظام العسكرى الى جانب اتباعه اساليب القمع والتوجيه الماركسى ، أصبحت واشنطن مترددة أكثر وأكثر فى مسألة تقديم أسلحة اضافية خاصة اذا استخدمت تلك الاسلحة فى قمع الاريتريين ، وفى البداية حاولت الولايات المتحدة ان تجعل تدفق السلاح يصل الى الحد الأدنى بحيث تستطيع أن تمارس ضغطا على النظام العسكرى وسياساته(٢٨) •

وعلى الرغم من انكار الرسميين الاثيوبيين اتصالاتهم باسرائيل الا ان التعاون الفعلى الذى كان سائدا على عهد هيلاسلاسى استمر فى ظل النظام العسكرى • ومع تزايد الاهتمام العربى بمنطقة البحر الأحمر بصفة عامة وجدت اسرائيل أنه من الحكمة أن تقدم المساعدة العظمى لدولة تربطها بها روابط قوية فى الماضى • وعلى أية حال فقد قام المستشارين الاسرائيليون عامى ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ بتدريب القوات التى خدمت فيما بعد كحراس طانجسنى هايلى ماريام الذى ظهر كشخصية مسيطرة على المجلس العسكرى فى فبراير ١٩٧٧ • هذا بالاضافة الى وجود حوالى ١٢ معلما يعملون بالفرقة الخامسة

---

(٢٧) Spencer, op. cit., pp 35 - 7.

(٢٨) Washington Post (March 5, 1978)

حتى عام ١٩٧٦ . وخلال النصف الأول من عام ١٩٧٧ عاد الى اثيوبيا ما بين ٢٠ الى ٣٠ اسرائيلى لتدريب الاثيوبيين على حرب العصابات ، وعلى مدى سنوات أيضا كانت هناك تقارير بأن الطائرات الاسرائيلية كانت تصل الى أديس أبابا حاملة قطع غيار للمعدات الامريكية الصنع التى لدى أثيوبيا الى جانب حملها معدات سوفيتية الصنع حصلت عليها اسرائيل خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، كما أن الوحدات البحرية الاسرائيلية كانت تقوم بزيارات دورية لمينائى أساب وماساوا(٢٩) .

ومع توافر الاعتبارات السابقة فانها – بالرغم من ذلك – لم تفِ بمطالب النظام العسكرى الاثيوبى واحتياجاته المتصاعدة – ومن ثم فان أديس أبابا بدأت فى البحث عن المساعدات فى مكان آخر ، وحيث أن سياسات الحكومة العسكرية أتسمت شيئا فشيئا بالطابع الراديكالى التقدمى ، وجد العسكريون الاثيوبيون ضالتهم فى الاتحاد السوفيتى كبديل منطقى – وبالنسبة لموسكو فقد كانت اثيوبيا تحظى بكثير من المميزات الى جانب تاريخها الطويل فى مقاومة الاستعمار الغربى مما أعطاها وزنا كبيرا فى المؤتمرات الأفريقية(٣٠) ومن الناحية الاستراتيجية فهى تتمتع أيضا بكثير من الجاذبية فاذا استطاعت أن تسيطر تماما على اريتريا ، فان هذا يمكن السوفيت من الوصول الى البحر مع استخدام القوات البحرية السوفيتية لتلك الموانى ، ومثل هذا الظرف قد يخلق بعض المتاعب للدول العربية وخاصة المملكة العربية السعودية .

ومع ذلك فان تورط الاتحاد السوفيتى مع الاريتريين بالاضافة الى مركزه القوى فى الصومال أدى الى تردد القيادة السوفيتية لفترة من الوقت . وطبقا لما تسرب من معلومات كان رأى موسكو أن أفضل وسيلة لقيام السلام فى القرن الافريقى تكمن فى الغاء اتفاقية السلاح المبرمة بين أثيوبيا والولايات المتحدة وأن يحل محلها معاهدة مع الاتحاد السوفيتى، وبهذه الطريقة تستطيع موسكو ان تضمن تعاون جميع الأطراف المتورطين فى الصراع(٣١) .

وفى النهاية قررت القيادة السوفيتية – وخاصة مع ملاحظته من تعليمات اثيوبيا – قررت ان تتخذ موقفا من جانبها . وطبقا للتقارير الغربية

---

(٢٩) Spencer op. cit., pp. 63 - 4.

(٣٠) The Washington post (February, 1978)

(٣١) The Washington Post (February 14, 1978)

فقد توصل الاتحاد السوفيتى واثيوبيا الى اتفاقية سرية فى ديسمبر ١٩٧٦ تسمح بوصول شحنات الاسلحة الى اثيوبيا وتتراوح قيمتها بين ١٠٠ - ٢٠٠ مليون دولار(٣٢). وكما هو معروف لم يلتزم المجلس العسكرى بقطع علاقاته العسكرية مع الولايات المتحدة ولكن القضية أصبحت قضية أكاديمية وقد نصب مانجستو نفسه فى فبراير ١٩٧٧ كأقوى رجل فى النظام العسكرى وذلك خلال مواجهة دموية مع زعماء المجلس الآخرين . وازاء هذا الموقف وجدت أمريكا أن هناك اعتداء على حقوق الانسان فما كان مانجستو ماريام الا ان أمر البعثة العسكرية الامريكية بالرحيل كما أغلق القنصلية الامريكية فى أسمرة وأوقف ماكانت تقوم به الولايات المتحدة الامريكيـــة من أعمال وانجازات فى كاجينو . وقد أدت هذه الخطوة الى أن تجمد الولايات المتحدة جميع الروابط العسكرية مع أديس أبابا(٣٣) - وقد سافر مانجستو الى موسكو فى أول مايو ١٩٧٧ فى محاولة للتفاوض من أجل اتفاق تسليح سرى آخر يفوق كثيرا الاتفاق السابق ويقدر المحللون الغربيون أن هذه الامدادات قد بلغت ٤٠٠ مليون دولار(٣٤) .

ومع ذلك فان المجلس العسكرى الاثيوبى لم يضع كل بيضه فى سلة السوفيت ونظرا لحسيته من اخطار التضامن العربى ضد اثيوبيا نجده يحاول ان يكسر هذا التضامن ، فوجد فى ليبيا والسودان اللتان ساءت علاقتهما بمصر - فرصة سانحة للمغازلة ويبدو أنه منذ منتصف عام ١٩٧٦ أخذت أديس أبابا تقوى من علاقاتها بليبيا حيث هناك من الشواهد ما يدل على تقديم اثيوبيا العون للثوار المهديين الذين تشرف عليهم ليبيا بقصد الاطاحة بحكم الرئيس نميرى فى يولية ١٩٧٦(٣٥) وبعد شهور قلائل انتشرت الشائعات بأن مانجستو قام بزيارة سرية الى ليبيا فى يناير ١٩٧٧ وعقد محادثات مع القذافى(٣٦) ، وكما سبقت والاشارة فان ليبيا أوقفت مساعداتها لاريتريا فى أوائل ١٩٧٧ ، وفى خلال عودته من موسكو الى الحبشة توقف مانجستو فى طرابلس ، ومن الواضح أن هدفه كان طلب المعونة المالية للمحافظة على نظامه.

---

(٣٢) The Washington post (April 16 and May 7, 1977).

(٣٣) The Washington Post (May 7, 1977 and March. 5, 1978)

(٣٤) Ibid (March 5, 1978)

(٣٥) Te New York Times (July 7, August 5, and 8, 1976 and January 2: 1977)

(٣٦) The Washington Post (April 16, 1977)

وفى أقل من شهرين عقب هذا التاريخ وصل وفد ليبى الى أديس أبابا ووقع ستة اتفاقيات اقتصادية وفنية وبروتوكول للتعاون التجارى وقد أتاحت هذه الاتفاقيات قيام شركة نقل بحرى مشتركة ثم كررت ليبيا وعودها بتقديم ٤٢٥ مليون دولار ، كما ضمنت تزويد اثيوبيا بالبترول ـ وقد تكون ليبيا قد وافقت على تمويل شحنات السلاح السوفيتية الى الحبشة •

وبالمثل حاولت أديس أبابا التقرب الى اليمن الجنوبى وقد حصلت على شيء من النجاح • وعلى الرغم من أن اليمن الجنوبى كان من أشد أنصار الاريتريين ، الا أنه بدأ يسهل وصول شحنات السلاح الى اثيوبيا فى ربيع ١٩٧٧ • وفى التاسع من يونيو ١٩٧٧ وصل وفد النوايا الحسنة الذى يضم ٢٢ فردا الى أديس أبابا للزيارة • وعلى الرغ من هذه الاعتبارات الا أن السلطات اليمنية لازالت تسمح للاريتريين بالاحتفاظ بفتح مكتبهم فى عدن •

وقد أدت جميع التطورات السابقة والتى طرأت على المسرح الدولى الى قلب المعطيات التقليدية فى اللعبة التى قامت بها الدول العظمى فى منطقة القرن الافريقى • وقد أنعكس هذا التغيير على الصراع القائم فى المنطقة على نحو سرعان ما أدى الى اندلاع الحرب بين الجانبين • ففى بداية عام ١٩٧٧ أعلنت عن استعدادها منح الاستقلال لاقليم عفر وعيسى ، وأعربت حكومة أديس أبابا عن تخوفها من أن يغزو الصومال الاقلم بعد الانسحاب الفرنسى وكان هذا يعنى اغلاق منفذ هام على البحر لاثيوبيا ممثلا فى ميناء جيبوتى ، وقدرت حكومة مقديشيو بأنها ستحترم ارادة شعب الاقليم ، ومن جهة أخرى فقد تصاعد القتال فى اقليم اريتريا اذ أصبح الثوار يسيطرون على جزء كبير من الاقليم وتأكد مرة أخرى عجز حكومة أديس أبابا عن قمع الثورة الاريترية وفى مايو ١٩٧٧ عند عقد مؤتمر وزراء الخارجية للدول الاسلامية فى طرابلس، طالب الوفد الصومالى بضم اقليم اريتريا الى الصومال ويلاحظ أن وفد جبهة تحرير اريتريا لم يحضر المؤتمر •

وفى الأوجادين أتسع نشاط رجال العصابات المنتمين الى جبهة تحرير غرب الصومال مما دفع حكومة اثيوبيا الى اتهام الصومال بتحويل الحركات الانفصالية فى الاقليم ، وفى نفس الوقت ووسط هذا التصاعد من الاندفاع نحو الحرب ـ كان الخبراء الكوبيون قد بدأوا يتوافدون على أديس أبابا بحجة تدريب القوات الاثيوبية ، وفى يوليو قرر الاتحاد السوفيتى وقف امداداته العسكرية للصومال •

وعلى صعيد آخر فان تصاعد الحرب فى المنطقة قد جرى فى ظل عاملين أستجدا فى القرن الافريقى وهما : الاختيار السوفيتى للورقة الاثيوبية على حساب الصداقة مع الصومال من جهة ثم التقارب الذى جرى بين الصومال العربية من جهة أخرى وهذان العاملان قد أضفيا سمات مميزة على الحرب وجعلا من ساحة القتال لأول مرة فى تاريخ منطقة القرن الافريقى مسرحا للتنافس بين الدولتين العظميين ، وقد أنتقل هذا الصراع حتى الى منظمة الوحدة الافريقية ذاتها بسبب التدخل الأجنبى من القوى العظمى ٠

التقارب السوفيتى الأثيوبى

١ - عملية التقارب :

أن تحرك الاتحاد السوفيتى بصفته المورد الرئيسى للسلاح لاثيوبيا قد ترتب عليه أن أمسك السوفيت بخطوط العلاقات بينهم وبين الاريتريين والصومال ، ولكن السوفيت وصلوا الى حد ضمان حصولهم على الكعكة وأكلها فى نفس الوقت على حد تعبير أحد الباحثين(٣٧) حيث قدم السوفيت صنيأه لحل الصراعات فى منطقة القرن الافريقى من خلال الاعتبارات الرئيسية الآتية :

١ - قيام اتحاد فيدرالى بين اثيوبيا الماركسية يضم اريتريا واقليم أوجادين .

٢ - أو قيام اتحاد فيدرالى أكبر يضم الدول الماركسية بحيث يشمل أثيوبيا والصومال واليمن الجنوبى وحتى جيبوتى (تلك المستعمرة الصغيرة على البحر الأحمر بين الصومال واثيوبيا والتى كان مقدرا لها الحصول على الاستقلال فى صيف ١٩٧٧ وقد تحقق ذلك بالفعل) .

وعندما بدأت الاسلحة تتدفق على اثيوبيا بدا أن الاتحاد السوفيتى حاول أن يخفف من كم وكيف هذا السلاح بحيث لا يشكل هذا السلاح تهديدا للصومال . وبعد أن طرد المجلس العسكرى الاثيوبى أعضاء السفارة الامريكية فى أديس أبابا وما ترتب عليه من منع وتوقف شحنات الاسلحة فى أبريل وقد وجد السوفيت الفرصة سانحة لأعضاء وأضفاء الصفة الرسمية على العلاقات السوفيتية الاثيوبية وذلك من خلال الزيارة التى قام بها مانجستو الى موسكو فى مايو ولكن تلك المفاوضات أسفرت عن اصدار بيان بدلا من عقد اتفاقية ومن ثم فقد حاول السوفيت التلميح للصومال الذين تربطهم بهم اتفاقية صداقة وتعاون أنهم لازالوا يخطون بهذا التقدير السوفيتى . بل أن السوفيت تجاوزا حد التلميح اذ أن التقارير الصادرة عن الصومال فى أواخر مايو أوضحت أن الاتحاد السوفيتى عرض زيادة المساعدات الاقتصادية وان

---

(٣٧) David E Albright, op cit. pp 162 - 163.

يبدأ فورا فى العمل بذلك فى عدة مشروعات كان مقررا تنفيذها فى الخطة الخمسية الصومالية(٣٨) .

غير أن الاريتريين أو الصاماليين لم يكونوا راضين بتاتا من تلك الحالة الجديدة من الظروف ، وجميع أفرع حركة تحرير اريتريا مثلا رفضوا المخطط السوفيتى من اجل استعادة الوضع الفيدرالى لاريتريا مع اثيوبيا ، وعلاوة على ذلك فقد أبرمت جبهة تحرير اريتريا وجبهة تحرير شعب اريتريا فى ٣١ مايو ١٩٧٧ اتفاقا يقضى بتوحيد حركة التحرير وان يعملا معا لرد العدوان الاثيوبى المرتقب . بل أن جبهة تحرير اثيوبيا قد تعهدت بادخال عثمان صالح صابى والقوة التى يتزعمها ضمن الحركة(٣٩) .

وعلى صعيد الجهود الدبلوماسية بدأ الاريتريون من جديد يطلبون زيادة المساعدة والتأييد من الدول العربيه خاصة تلك الدول التى يزعجها الوجود السوفيتى(٤٠) . ويبدو أن الانطباع الذى تركوه كان قويا فى كل من مصر والسعودية والسودان . وكان رد الفعل لدى الصومال يتسم بالحذر وليس التصميم ، فنجد سياد برى يرفض أى فكرة تجعل أوجـــادين فى أيدى الاثيوبيين(٤١) . ففى منتصف مايو ١٩٧٧ تحرك سياد برى أبعد من ذلك ــ فصرح علنا بان امدادات السلاح السوفيتى الى اثيوبيا تشكل « خطرا » لا يمكن لحكومته أن تقف أمامه موقف اللامبالاة ، كما ألمح الى أن ذلك قد يؤثر فى النهاية على العلاقات الصومالية ــ السوفيتية . علاوة على ذلك فقد بــدأ سياد برى فى البحث عن امكانيات التأييد عن بدائل جديدة سواء فى الدول العربية أو الغربية(٤٢) .

وبالنسبة لتأييد الدول العربية . فان ذلك له الأهمية القصوى ، حيث يأتى على القمة الدول الغنية بالبترول وعلى الأخص السعودية التى كانت فى مركز يسمح لها بتقديم مساعدة كبيرة وخاصة فى مجال التسليح . وازاء الاهتمام السوفيتى المتزايد باثيوبيا فى عامى ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ حاولت الرياض أن تبعد مقديشيو عن موسكو فى مقابل عروض بالمساعدة . وقد زودت

---

(٣٨) The Washington Post (May 26, 1977).
(٣٩) Ibid (June 9, 1977)
(٤٠) Ibid
(٤١) FBIS — MEA (May 27, 1977) CI
(٤٢) The Washington Post (May 17, 1977), Ibid.

السعودية الصومال بمعونة اقتصادية تقدر بحوالى ٢٨ مليون دولار عـــام ١٩٧٦ الى جانب مساعدة أخرى تراوحت بين ١٦ — ١٨ مليون دولار خلال الشهور الأولى من عام ١٩٧٧(٤٣) . وفى نهاية مارس ١٩٧٧ اشترك سياد برى فى اجتماع دعى اليه الرئيس السودانى جعفر نميرى وحضره زعماء شمال وجنوب اليمن وكان السعوديون يرقبون عن كثب . وأسفر هـــذا الاجتماع عن الدعوة لجعل البحر الأحمر « منطقة سلام » وذلك من خلال تعاون جميع الاطراف المعنية . وعموما فان هذا الاقتراح كان يشير الى قيام تحالف يمنع الدول الكبرى واسرائيل من التغلغل فى المنطقة . فلو كانت الصومال قد انضمت لمثل هذا التحالف فان السعودية قد وعدتها بمعونة تصل الى ٣٠٠ — ٣٥٠ مليون دولار ، هذا الى جانب الاعتمادات المخصصة لشراء السلاح من الغرب . وفى شهر مايو يبدو أن السعوديين قد أعادوا تأكيد هـــذا العرض(٤٤) .

ان الأمر الذى أثار الاهتمام لدى الصومال هو ضرورة الحصول عـــلى مصدر أكيد للسلاح ، وان الدول الغربية هى الهدف فى هذا الشأن وبدأت فى الاتصال بالولايات المتحدة مبعوثا الى الصومال يؤيد رغبة الصومال فى السلاح بشرط أن تتخلى الصومال عن مطالبها على حدود كينيا وجيبوتى . وأصدرت وزارة الخارجية الامريكية بيانا بهذا المعنى دون ذكر الشروط المسبقة أو المفروضة على الطلب الصومالى ، وفى نفس الوقت أشارت بريطانيا وفرنسا الى رغبتهما فى تزويد الصومال بالاسلحة(٤٥) .

ونتيجة لهذه التحركات التى قام بها سياد برى دون مساعدة موسكو ، فقد قرر فى منتصف يوليو تحقيق أهداف الصومال فى أوجادين وذلك قبل أن تتدفق الأســلحة الســوفيتية على اثيوبيا . ومنذ عام ١٩٦١ نلاحظ أن جبهة تحرير الصومال الغربى التى تكونت من أفراد ولدوا فى أثيوبيا ولكنهم يتلقون العون والمساعدة من أثيوبيا قد قاموا بحرب العصابات فى اقليم أوجادين .وقد صعدوا نشاطهم بصورة جوهرية فى عامى ١٩٧٦ — ١٩٧٧(٤٦) وفى نهاية يوليو ١٩٧٧ صعد سياد برى من الصراع وذلك بدفع وحدات

---

(٤٣) The Washington Post (April 16, and May 21, 1977).
(٤٤) Ibid (May 24 and 26, 1977).
(٤٥) The New York Times (July 27 1977).
(٤٦) The ashington Post (May 24 and July 20, 1977).

عسكرية صومالية نظامية الى جانب جبهة تحرير الصومال الغربي(٤٧) ٠ وقد أدى هذا الاجراء الى أن تقطع اثيوبيا علاقاتها مع مقديشيو في أول سبتمبر ، كذلك فقد استمر الهجوم الصومالي ، وفي نهاية سبتمبر سيطر الصوماليون على كل اقليم أوجادين فيما عدا مدينتي هرر وديرى داوا(٤٨) ٠

ان نشوب الحرب على نطاق واسع بين الصومال وأثيوبيا جعل من التأكيدات الخارجية أمرا حيويا لكلا الطرفين المتحاربين ٠ وكان كل طرف يضغط على الاتحاد السوفيتي حتى ينحاز الى جانبه في الصراع(٤٩) ٠ ونفس الوقت أهابت مقديشيو بالولايات المتحدة والدول الغربية الكبرى بأن تفي بوعودها بشأن امدادات السلاح كما أن أديس أبابا على الطرف الآخر بذلت جهودا كي تقلل التوترات القائمة بينها وبين الولايات المتحدة وان تجعل نفسها صورة من دول عدم الانحياز وذلك بهدف استعادة تدفق السلاح الامريكي على الأقل(٥٠) ٠ كما طلبت نفس الشيء من اسرائيل بل وحتى طلبت قوات مدربة من كوبا(٥١) وقد وجه كل من الطرفين اهتمامه الى الدول العربية ، وخاصة تلك الدول التي كانت تبدى شيئا من الود في الماضي القريب ، فقد أرسلت اثيوبيا - على سبيل المثال - وفدا اقتصاديا الى اليمن الجنوبي في منتصف سبتمبر لمناقشة وسائل تقوية العلاقات بين البلدين(٥٢) وفي نفس السياق سافر سياد برى الى سوريا ومصر والامارات العربية وقطر والسعودية للتباحث مع زعماء تلك الدول(٥٣)، هذا الى جانب اجتماع السفير الصومالي في الخرطوم بالرئيس جعفر نميرى أثناء جولة سياد برى وحتى بعد عودته الى مقديشيو حيث بعث برسالة شخصية الى جعفر نميرى(٥٤) ٠

وقد أدت جهود كلا الطرفين الى نتائج مختلطة متشابكة ، فالاتحاد السوفيتي من جانبه حاول أن يستقطب أطراف المحنة التي تواجهه هو بالدرجة الأولى ٠ وبعد تزايد حدة القتال في يوليو سحبت روسيا مستشاريها

---

(٤٧) News Week (September 26, 1977).
(٤٨) FBIS — SSA (September 8, 1977).
(٤٩) The Washington Post (September 20, 27, 1977).
(٥٠)
(٥١) Ibid (August 12, 1977).
(٥٢) FBIS — SOV (September 19, 1977).
(٥٣) FBIS — MEA (September 15, 1977)
(٥٤) Ibid (October 4, 1977).

العسكريين العاملين فى الواحدات العسكرية الصومالية · وفى نفس الوقت بدأت ترسل أسلحة ثقيلة الى أثيوبيا ، وعلى الصعيد الدبلومـــاسى كانت روسيا تأسف للقتال وحاولت الوصول الى وقف اطلاق النار وبدأ المفاوضات بين الطرفين المتحاربين(٥٥) · وعلى الجانب الآخر أخبرت الولايات المتحـــدة والقوى الغربية الكبرى ـ أخبرت الصومال بأنها لن تقدم لها الاسلحة نظرا للنشاط الذى تقوم به فى أوجادين(٥٦)، وأما الوضع بالنسبة للمساعدة من اسرائيل وكوبا ، فلم تترددا عن تقديم المساعدة لاتيوبيا(٥٧) أما عن وضع الدول العربية فقد تلقت الصومال عبارات التأييد وخاصة من تلك الدول التى تباحثت معها بشأن الوضع فى أوجادين وقدمت مصر والسعودية والمغــرب والعراق وسوريا صورا ملموسة من المساعدة · وكان السودان هو البلــد العربى الوحيد الذى أبدى تحفظا واضحا ، لأن السودان لم يكن متورطا فى الصراع الصومالى للاستيلاء على أوجادين خشية أن تفتح عليه مثل هذه الخطوة محاولات تمرد وعصيان فى الاقاليم المسيحية الجنوبية من السودان ·

ونجحت أثيوبيا أيضا فى جذب اليمن الجنوبى الى جانبها ، ولكنها لم تنجح بنفس القدر مع ليبيا ، وبينما كانت ليبيا تساعد على تدفق السلاح الى الحبشة خلال الصيف ولكن على أساس « ان الطرفين أصدقاء » · فانها كانت تهدف فى الواقع الى انهاء الصراع(٥٨) علاوة على ذلك فقد أشار القذافى الى أنه لا يؤمن بمسألة التعديل التى أعقبت الاستعمار « الا أن هناك حــالات خاصة » يجب تعديلها واذا كان النزاع الصومالى ـ الاثيوبى أحدها « فاننى على اقتناع ·· بضرورة الوصول الى حل وسط بين الصومال وأثيوبيا »(٥٩) ·

٢ ـ النتائج على الصومال :

غير أن رصد التطورات المختلفة على مستوى الاطـــراف المباشرين فى الصراع فى منطقة القرن الافريقى وهما اثيوبيا والصومال ـ أوضح رصـــد تطور الأحداث صعوبة الموقف الذى تواجهه الصومال حيث وجدت الصومال

---

(٥٥) The Washington Post (August 15, 1977).

(٥٦) Ibid (September 1, 1977).

(٥٧) راجع فى تفصيل ذلك خطاب موشى ديان وزير خارجية اسرائيل بتاريخ ٥ فبراير ١٩٧٨ ·

(٥٨) The Washington Post (September 1, 1977).

(٥٩) Le Monde (September 25, 26, 1977).

نفسها فى مأزق حقيقى من جميع الوجوه خلافا لما أقتنع به الرئيس الليبى . فالصومال وجدت نفسها بدون حليف قوى يستند اليه فى الصراع سياسيا وعسكريا ، كما أن الاطراف الاقليمية قدرتها على المساعدة محدودة خاصة اذا وضع فى الاعتبار أن الدولتين العظميين تعارضان صراحة منطق الصومال وحركتها فى الصراع حيث تقف كلتاهما - كما سبق ايضاح ذلك - بجانب مبدأ قدسية الحدود الافريقية الموروثة عن المرحله الاستعماريه وهو المبدأ الذى تؤيده فى نفس الوقت البية الدول الافريقية .

من ناحية أخرى فان جهد الصومال الذى يهدف الى توحيد كل الشعب الصومالى تحت علم واحد مع مشروعية هذا الجهد هو الذى فتح الباب لتدويل الصراع فى المنطقة فى حين أن قدرات الصومال وحساباتها لم تكن كافية لحسم الأمر قبل استفحاله ويفسر هذا سبب اعلان الصومال عن سحب قواتها من اقليم أوجادين بعد الضربة القاصمة التى تلقتها على أيدى اثيوبيا بالمساعدة الفعالة التى تلقتها من موسكو وهافانا .

وفيما يتعلق بأثيوبيا فان المساعدات التى حصلت عليها من الاتحاد السوفيتى وكوبا واليمن الجنوبية قد جعلتها قادرة على استعادة زمام المبادرة فى أوجادين كما سيأتى تفصيل ذلك ، ولكن اريتريا بالطبع وأحداثها تأتى فى المقدمة وقد تنبأ النظام العسكرى الاثيوبى أن بامكانه بالتالى كسب الصراع عسكريا ضد الصومال والاريتريين بمساعدة السوفيت والكوبيين وعموما فقد تحول المدفعين ضد الصومال والاريتريين وكانت مراحل هذه الفترة تاريخيا كالآتى : فى نهاية أكتوبر كان من الواضح أن التقدم الصومالى فى أوجادين قد توقف ، هذا الى جانب توقف الاتحاد السوفيتى عن امداد الصومال بالسلاح ، ويضاف الى ذلك ارسال السوفيت لبعثة عسكرية على مستوى عالى الى اثيوبيا لوضع خطة للمزيد من السلاح السوفيتى لاثيوبيا(٦٠) وعلى ضوء هذه الظروف ، وفى محاولة ضمان فرص الحصول على الامدادات العسكرية من القوى الغربية ، فقد طردت مقديشيو فى منتصف نوفمبر جميع المستشارين السوفيت فى الصومال بما فى ذلك التسهيلات فى ميناء بربرة(٦١) وقد كان لهذا التصرف تأثيره النسبى على الصومال حيث رفضت الولايات المتحدة والقوى الغربية ، حتى مجرد التفكير فى تزويد الصومال

---

(٦٠) The Washington Post (November 18, 1977).

(٦١) News Week (February 13, 1978).

بالسلاح طالما بقيت قواتها المسلحة فى أوجادين • وعلى الرغم من استعداد كثير من الدول العربية ـ خاصة مصر والسعودية ـ لتقديم بعض المعونة ، الا أن الجميع وضعوا فى اعتبارهم مشاعر الدول الافريقية التى تقع وراء الصحراء الكبرى واحتمال أن ينطبق عليهم موضوع تعديل الحدود الموروثة عقب الاستعمار • هذا الى جانب وجود قيود عسكرية وسياسية واضحة على قدرة العمل العربى • وبينما كانت مصر نقدت بعض السلاح السوفيتى الا انها كانت تدخر لنفسها كميات كبيرة نظرا لصراعهما المزدوج ضد كل من اسرائيل وليبيا ، أما السعودية فقد استطاعت شراء دبابات فرنسية ولكنها وجدت نفسها مقيدة بسبب قانون الولايات المتحدة الذى يمنع انتقال أى أسلحة مأريكية الى طرف ثالث • ومن ثم فقد اتسمت المساعدة العربيـــــة بالطابع المالى(٦٢) •

وكانت النتائج السلبية لهذه الخطوة بالنسبة للصومال نتائج وخيمة لأن هذا المناخ أتاح للاتحاد السوفيتى أن يتحرر من القيود التى تحملها من قبل ازاء مقديشيو ، وحيث أن موسكو قد شعرت بأن نظام مانجستو نظاما هشا وان هذا النظام العسكرى لا بد من بقائه فالذى حدث هو أن موسكو اشتركت مع هافانا (كوبا) فى اقامة بناء عسكرى قوى فى اثيوبيا(٦٣) •

وفى نوفمبر ١٩٧٧ أقام الزعماء السوفيت جسرا جويا يحمل امدادات السلاح والمعدات الى اثيوبيا لدرجة أن طائراتها كانت تخترق المجال الجــوى لبعض الدول دون تصريح • وسار ذلك جنبا الى جنب مـــع قدوم القوات السوفيتية الكوبية(٦٤) • وفى أول مارس ١٩٧٨ قدم السوفيت ما يعادل بليون دولار من الاسلحة للحبشة وقدرت المخابرات الامريكية عدد الكوبيين ١١٠٠٠ وعدد السوفيت ١٠٠٠ رجل بالاضافة الى الكوبيين الآخرين القادمين فى الطريق(٦٥) • وكان الاثيوبيون قد شنوا فى فبراير ١٩٧٨ هجوما كبيرا تحت قيادة الفريق فاسيلى ايفانوفيتش بتروف نائب القائد العام للقــوات المسلحة السوفيتية الى جانب القوات الكوبية بقيادة الفريق أرنالدوا اتشــو نائب وزير الدفاع الكوبى على أن تكون القوات الكوبية هى رأس الحربة فى

---

(٦٢) The Washington Post (November 18, 1977).
(٦٣) FBIS — SOV (November 18, 1977).
(٦٤) The New York Times (December 14, 1977).
(٦٥) Ibid.

هذا الهجوم(٦٦) • وقد برهن هذا الهجوم على الكثير بالنسبة للصومال فعقب الهزيمة القاسية فى ججحى أصبحت القوة الصومالية غير فعالة وأعلن سياد برى فى ٩ مارس ١٩٧٨ أنه سوف يسحب كل قواته النظامية من أوجادين(٦٧) •

وعلى الرغم من الانسحاب الا أن الصومال صرحت بأن الكفاح من أجل التحرير سوف يستمر • وهكذا ألقى سياد برى العبء برمته عن هامله(٦٨) ، اذا فى أبريل بدأ نشاط حرب العصابات فى أوجادين وكان رد اثيوبيا بالتهديد باحتلال الصومال ان لم يتوقف هذا النشاط(٦٩) •

ولقد شعرت الصومال بشيء من خيبة الأمل تجاه الدول العربية بسبب الفجوة الكبيرة بين وعودهم وبين ما يقدمونه فعلا • فركزت مقديشيو على الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين(٧٠) • ولقد شعرت الصومال على الفور بأن الصين لن تستطيع أن تفى بمطالبها وهذا يعنى أن السوفيت والامريكيين هم البديل المتاح(٧١) • وكلا الطرفين وضع شروطا مسبقة كى يستجيب لمطالب الصومال • فطلبت أمريكا تأكيدات بأن الصومال لن تخرق الحدود مع كينيا أو اثيوبيا(٧٢) • أما الشروط الدقيقة التى وضعها السوفيت فلم يعلن عنها ولكن يبدو أنها كانت قاسية ، (٧٣)ير أنها لم تكن ذات طبيعة محيطة وبالتأكيد كانت تلك الشروط تشتمل على احترام سيادة « اثيوبيا الوطنية »(٧٤) وفى النهاية رأى سياد برى أن شروط الولايات المتحدة أخف من شروط السوفيت لأوت فى بداية يونيو ١٩٧٨ استجابت واشنطن لطلب مقديشو وأعلنت الأولى أنها سوف ترسل بعثة عسكرية مأريكية الى الصومال كخطوة أولى فى سبيل تقديم أسلحة « دفاعية » تقدر بحوالى ١٥ مليون دولار •

---

(٦٦) Newsweek (February 13, 1978).

(٦٧) FBIS — SSA (March 10, 1978).

(٦٨) Washington Post (March 17, 1978).

(٦٩) The Washington Post (April 15, 1978).

(٧٠) Ibid (April 18, March 15, 1978).

(٧١) FBIS — SSA (May 3, 1978).

(٧٢) The Washington Post (March 30, 1978).

(٧٣) FBIS — SOV (February 6, 1978).

٢ ـ النتائج على اريتريا:

وبالتخلص من التهديد الخطير في أوجــادين في مارس ١٩٧٨ وجهت اديس أبابا اهتمامها الى ساحة الصراع الأخرى في اريتريا . ولقــد ألح مانجستو مرارا بان تعترف اريتريا بالسيادة الاثيوبية عليها كجزء في أي تسوية للقضية الاريترية وكرر نفس الشيء عقب النصر في أوجادين . ومع ذلك فقد لاقى صعوبات شتى كي يرغم الاريتريين على قبول شروطه . وعلى الرغم من المساعدة السوفيتية له عام ١٩٧٧ لفرض سيطرته على الاقليم الا أن السوفيت تراجعوا عن هذا الموقف وقد يرجع هذا التحول في السوفيتي الى رأى الكوبيين في هذا الموضوع إذ أن هافانا كانت تعارض مخططات مانجستو في سحق الثوار(٧٤) . وقد تراوح عدد القوات الكوبية في اثيوبيا بين ١٦ ألف الى ١٧ ألف ، الا أنهم لم يتورطوا بصــورة مباشرة في القتــال في اريتريا(٧٥) . هذا الى جانب أن فيدل كاسترو كثيرا ما حث الطرفين الى التفاوض لحل الصراع(٧٦) .

وعلى الرغم من تعدد المصادر ، الا أنها لم تكف مانجستو لقمع الثوار الاريتريين ، بل أنه لم يعد يستطيع أن يحصل على أكثر مما حصل عليه من تلك المصادر . وتدل بعض الشواهد على أن اليمن الجنوبي قد أرسل في وقت ما عددا صغيرا من الطيارين وربما عدد من القوات البرية لمساعدة أثيوبيا في اريتريا غير أن ذلك كله قد توقف فيما بعد بسبب رغبة الرئيس اليمني وقتئذ(٧٧) في تحسين علاقاته مع الدول العربية المحافظة . وبالتأكيد فان الحكومات اليمنية الجنوبية التي جاءت في الفترة اللاحقة وضعت في إعتبارها موقف مانجستو المتصلب تجاه الاريتريين .

اما ليبيا فقد رأت ضرورة ايجاد حل من خلال التفاوض وذلك في نهاية عام ١٩٧٧(٧٨) ـ واسرائيل هي الأخــرى كان من المــمكن أن تقدم بعض

---

(٧٤) The Observer, London (February 26, 1978).

(٧٥) Ibid

(٧٦) The Washington Post (March 20, 1978).

(٧٧) وكان وقتئذ سالم ربيع على وربما كان ذلك من الأسباب التي أطاحت به في الفترة اللاحقة وصرعه بواسطة الماركسيين المتشددين والجماعات المؤيدة للسوفيت وعلى رأسها عبد الفتاح اسماعيل الذي اطيح به هو الآخر واعفي من مناصبه فيما بعد .

(٧٨) Le Monde (September 25 - 26 March 1977).

المستشارين ومساعدات متواضعة أخرى من أجل العمليات ومع ذلك فان الأحداث خلال أوائل عام ١٩٧٨ جعلت من الصعوبة بمكان بالنسبة لمانجستو أن يطلب هذه المساعدة ٠ ففى أوائل فبراير صرح وزير الدفاع موشى ديان علنا بأن اسرائيل تتعاون مع اثيوبيا فى الميدان العسكرى وأدى هذا التصريح الى استياء السوفيت الى الحد الذى اضطر معه مانجستو الى طرد المستشارين الاسرائيليين على الرغم من أنه لم يقطع علاقاته السياسية كلية مع اسرائيل ٠

وعلى الرغم من صعوبة المشكلة فقــد قام المجلس العسكرى الأثيوبى بحركات استطلاع عسكرية و « جس نبض » متفاوته الشدة فى اريتريا خلال ربيع ١٩٧٨ ٠ وفى يونيو شنت أثيوبيا هجوما شاملا عى الثوار الاريتريين ٠ ولم تحصل اديس ابابا على أى نصر جوهرى الا فى أواخر يوليو ٠ ومع ذلك فان تلك الانتصارات كانت متواضعة فى طبيعتها(٧٩) ٠ وقد أثارت هــذه الاحداث عدة تساؤلات خطيرة حول قدرة مانجستو على فرض ارادته عــلى الاريتريين بدون مساعدة عسكرية من قوى خارجية ٠

وبالرغم من أن الاريتريين لا يزالون يخشــون اشتراك الكــوبيين والسوفيت فى الوقت الحالى مع اثيوبيا بهــدف سحقهم ، الا أنهم — اى الاريتريون — وجدوا أن موسكو وهافانا تؤيدان الحل السلمى للصراع ، ولكنهم فى نفس الوقت يرون أن استقلالهم لن يكون تحت السيادة الاثيوبية كما انهم لا يحبذون ما تراه موسكو وهافانا بقيام اتحاد فيدرالى(٨٠) ٠ ونتيجة لذلك بدأ الاريتريون فى اعادة تنظيم أنفسهم كاختبار للقوة ونبذوا الفرقة فيما بينهم ٠ وفى نهاية(٨١) ابريل ١٩٧٨ كونت جبهة تحرير اريتريا وجبهة تحرير شعب اريتريا قيادة موحدة سياسية وتعاهدوا أنه ازاء الخطر الذى يواجهث فانهم سوف يعملون من الآن فصاعدا على شن هجوم عسكرى مشترك ٠ وقد تلى ذلك محاولة الاريتريين التأكد من وجود موافقة قــوى خارجية وضماناتها وفى هذا الخصوص ركزوا على الدول العربية حيث أنهم وجدوا أنه لا السوفيت ولا الكوبيين يؤيدون وجهة نظرهم على الاستمرار فى شن الهجوم على القوات الاثيوبية ومن ثم فقد ألقى الاريتريون باللوم على القوى الغربية وخاصة الولايات المتحدة على حد ما تراه أحد الباحثين(٨٢) ٠

---

(٧٩) The Washington Post (April 27, 1978).

(٨٠) The Observer, London (June 11, 1978).

(٨١) FBIS — SSA (July 3, 1978).

(٨٢) David E. Albright, op. cit. pp 169 - 170

ان ما كان يطلبه الثوار الاريتريون من الدول العربية منذ هزيمـــة الصوماليين فى أوجادين يختلف عما كانوا يطلبونه عام ١٩٧٧ . ومن الواضح انهم بدأوا بعد ذلك فى أن يقرنوا للقول بالفعل وان يوفـوا بالفعـــل بوعودهم(٨٣) ، غير أن هذا الاتجاه اتسم بالتنوع ، فنجد السودان مثلا بعد اعلانها تأييدها لاريتريا فى القتال من أجل الاستقلال فى أوائل عام ١٩٧٧ تراجعت عن هذا الموقف وطالبت بوجود وسيط أو مصالحة خاصة عندمـــا تفاقمت الحدود مع الحبشة(٨٤) وعلى نطاق أوسع فقد قدم متحـــدث رسمى اريترى التماسا الى جامعة الدول العربية طالبا اعتماد مبلغ ٣٠ مليون دولار فى سبتمبر ١٩٧٧ بصورة عاجلة لشراء أسلحة خفيفة ومتوسطة لتسليح ٢٠ر٠٠٠ مقاتل ولكن الاستجابة المتواضعة التى تلقاها جعلته يجوب الدول العربية فى مارس ١٩٧٨ للبحث وراء تلك بالرغم من « حملات الدعاية التى تطلقها تلك الدول » .

وعموما فقد أسفرت هذه المحاولات عن بعض النتـــائج حيث أجيب الاريتريون جزئيا الى طلبهم بالحصول على تلك المعونة ولكن على شكل أقساط. ففى أوائل أبريل ١٩٧٨ مثلا أكدت الجازئر الليبرالية تأييدها لاريتريا على الرغم من زيادة المعونة السوفيتية لاثيوبيا كما ربط عدد من الدول العربية بالقضية الاريترية(٨٥) ، فقد حرض مصادر كويتية بأن الانتقادات الاريترية للعرب ترجع الى العرب أنفسهم وما قدموه(٨٧) ، كما أدانت السعودية بشدة اثيوبيا لمحاولتها قمع الحركة الاريتريا عسكريا(٨٧) . وعلى الرغم من اتباع السودان دون الوسيط ، الا أنها أيدت مناقشة القضية الاريترية فى منظمة الوحدة الافريقية فى مؤتمر القمة الذى عقد فى الخرطوم فى شهر يوليـــو ١٩٧٨(٨٨) .

---

(٨٣) FBIS — SSA (March 17, 1978).

(٨٤) The Washington Post (April 9, 1978).

(٨٥) FBIS — MEA (September 7, 1977)

(٨٦) الرأى العام – الكويت ١٤ مارس ١٩٧٨ .

(٨٧) FBIS — SSA (April 10, 1978).

(٨٨) Ibid (July 25, 1978).

مواقف الدول الكبرى ومنظمة الوحدة الافريقية وتفسير عوامل التغير

الموقف السوفيتى وتفسير عوامل التغير

مع بداية عام ١٩٧٥ أنفصل محور الصراعات الدولية وما رافقها من حرب باردة وساخنة الى افريقيا والشرق الأوسط حيث تركزت فى هـــذه المرحلة أهمية طرق المواصلات فى القرن الأفريقى بصفة خاصـــة والموارد الاقتصادية والبترول وفوائض رءوس الأموال والكثير من المواد الاستراتيجية فى الشرق الأوسط وافريقيا ، وبات واضحا أن من يمكنه السيطرة على هذه المناطق الفنية سوف يتحكم أيضا فى طرق الملاحة الدولية وبالتالى يؤدى دورا أساسيا فى صياغة جانب هام من التطورات السياسية العالمية ، وتمثلت الاتجاهات الرئيسية للتدخل السوفيتى فى افريقيا بصفة عامة فى أن الاتحاد السوفيتى يهدف الى تحقيق مصالحه القومية وأمنه القومى ، وأدخل السوفيت فى حساباتهم عاملين رئيسيين : أولا : أنهم يواجهون دولا رأسمالية ربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ، ثانيا : هناك الصين أيضا . وهكذا تحرك الدور السوفيتى فى اطار استراتيجية عالمية تماما مثل الدور الامريكى حيث اعتبرت القارة الافريقية بمثابة وحدة واحدة متكاملة بصرف النظر عن الاهتمام بمنطقة معينة ، ولكن الاهتمام السوفيتى بمنطقة القرن الافريقى أخذ يتصاعد وخاصة فى أوائل عام ١٩٧٨ عندما وصلت الاشتباكات بين الصومال واثيوبيا الى ذروتها فى اقليم الاوجادين .

ان تحليل الدور السوفيتى فى الصراع الدائر فى القرن الافريقى يمكن تتبعه فى اطار الصراع بين الدول الكبرى وأيضا فى اطار تغير وتبادل الادوار الدولية التى سادت المنطقة منذ عام ١٩٦٩ عندما نجحت الانقلابات العسكرية فى كل من السودان والصومال ، وهكذا بدأ الوجود السوفيتى يتخذ شكلا سافرا وبدعوة من القيادات العسكرية الجديدة فى البلدين ، فمنذ ذلك الحين ركز السوفيت علاقتهم فى المرحلة الأولى من تطور الصراع عـــلى الصومال وانعكس ذلك على عقد اتفاقية عسكرية معها فى بداية عام ١٩٧٠ لتدريب وتجهيز القوات الصومالية . غير أن هذا الموقف قد أنقلب رأسا على

عقب بعد الانقلاب العسكرى فى اثيوبيا عام ١٩٧٤ حين بدأ السوفيت فى تحسين علاقاتهم مع الحكام العسكريين الجدد ، وهكذا تولدت بذور التوتر فى العلاقات السوفيتية الصومالية ٠ وفي ضوء ذلك وجد السوفيت أنفسهم فى مأزق حقيقى فقد كانت المساعدات العسكرية السوفيتية للصومال لها قيمتها الاستراتيجية فى المنطقة فضلا عن المنشآت السوفيتية هنـــاك ، وأدرك السوفيت آن مساعداتهم الآنية والكثيفة لاثيوبيا تنطوى على مخاطرة ، ومع ذلك فقد تعمد السوفيت تقديم المساعدات لاثيوبيا بدءا بتقليص اعداد قواتهم فى الصومال وتكنيفها فى نفس الوقت فى اثيوبيا وامدادها أيضا بالاسلحة والمساعدات الاقتصادية ٠ وكان الدافع السوفيتى لذلك هو الخوف من أن تقدم الصين على ملأ الفراغ الامريكى فى اثيوبيا ثم أن يحصل السوفيت على قصب السبق قبل أن يتقارب الغرب مع الصومال ، ومن هذه الناحية كانت السياسة السوفيتية تجاه افريقيا تهدف الى اكراه الدول الغربيـــة لزيادة أحساسنها بالخطر تجاه القوة السوفيتية المتصاعدة فى المنطقة والتى فى امكانها أن تمنع أو تفرض حظرا على الموارد البترولية للغرب مما يخلق اضطرابا حادا فى المعسكر الغربى مما يقوض من دعائم القوة الاقتصادية الغربية ، وبالرغم من ذلك فان الدوافع الاستراتيجة والسياسية للاتحاد السوفيتى كانت أقوى، فالممرات البحرية الافريقية بما لها من أهمية استراتيجية تتمثل فى أن ٧٠٪ من المواد الاستراتيجية التى تحتاجها دول حلف شمال الاطلنطى ، ٨٠٪ من امدادات هذه الدول بالبترول ــ هذه الامدادات تصل الى الغرب عبر الممرات البحرية الافريقية ، وهكذا وضع السوفيت فى اعتبارهم أهمية وجودهـــم المكثف فى اثيوبيا حيث يقوى مركزهم فى المحيط الهندى كما يهيىء لهم أحكام سيطرتهم على مداخل البحر الأحمر ٠

أما عن الخوف السوفيتى من التدخل الصينى فى المنطقة فقد كان له هو الآخر ما يبرره لآن الصين أصبحت موضع ثقة حركات التحرير الأساسية فى افريقيا بدرجة أكبر من السوفيت ، لأن هذه الحركات من السهل تعاملها مع بكين أكثر من موسكو ٠

وهكذا وجد الاتحاد السوفيتى نفسه فى مأزق حقيقى يتمثل فى كيفية الاحتفاظ بنفوذه ووجوده فى كل من اتيوبيا والصومال ٠ وأخذ السوفيت يوسعون من نطاق نفوذهم فى اثيوبيا ، وبدأ أن التحليل السوفيتى يضع فى اعتباره عدم رغبته فى فقد مركزه فى الصومال أيضا ، وأنه عـــلى أسوأ الاحتمالات سيكون السوفيت قادرين على مساعدة اثيوبيا فى قمـــع ثورة اريتريا ، وفى كلتا الحالتين سيكون وصول السوفيت الى البحر الأحمـــر

تعويضا كافيا عن فقد الصومال شريطة أن يظل له موطىء قدم فى اليمن الجنوبية .

غير أن تفاعلات الأحداث قد بلغت مرحلة حرجة ليس بعدها سوى الانفجار ، ودليل ذلك تلك الاستعدادات الجارية فى الوقت الحالى لبدء محاولة جديدة لضرب ثورتين يتوقف على بقائهما أو سحقهما الاستقرار للاتحاد السوفيتى فى أثيوبيا ، حتى يتمكن من التفرغ لتنفيذ خطط السيطرة على البحر الأحمر وبالتالى الاقتراب من منابع البترول . هاتان الثورتان هما حركة تحرير الصومال الغربى وثورة الشهداء المائة ألف فى اريتريا . ذلك ان استمرار الثورتين قد أشرق الاتحاد السوفيتى الى أذنيه فى صراع القوميات المشتعل داخل الامبراطورية المتداعية التى ورثها نظام الحكم القائم فى اثيوبيا .

ولم يدر بخلد مانجستو ماريام رئيس النظام الحاكم فى اثيوبيا أنه من أجل استمرار استعمار اريتريا قد أوقع اثيوبيا تحت الاستعمار الكامل ، كذلك لم يدر بخلد موسكو ان الوجود السوفيتى فى القرن الافريقى سوف يكون سببا للمواجهة بين الشرق والغرب بعد أن وجدت أمريكا المبرر الأكبر لاستعادة وجودها فى نفس المنطقة .

ويبدو أنه من أجل التفرغ لهذه المواجهة التى قد تسفر فى النهاية عن أحباط خطط موسكو البعيدة المدى يستعد الاتحاد السوفيتى لعملية عسكرية كبيرة فى القرن الافريقى لا تقل شأنا عن عملية غزوه لافغانستان ، وقد أقام لها جسرا جويا خاصا يستجلب عن طريقه المزيد من الأسلحة والطائرات والفنيين ، الأمر(١) الذى يوضح اصرار السوفيت على محاولة ضرب الثورتين اللتين تشكلان بالفعل تهديدا قويا للكيان الاثيوبى .

ان تداعى الأحداث يدل على أن أثيوبيا - رغم انزالها ضربة قاصمة باريتريا فى عام ١٩٧٨ كما سبق ايضاح ذلك تفصيلا فان الثوار الاريتريين لا يزالون يسيطرون على المناطق الريفية بالاضافة الى أن الوضع فى المناطق العربية للصومال قد عاد الى ما كان عليه فى عام ١٩٧٧ . وبذلك لم يتح للنظام الحاكم فى اثيوبيا التقاط أنفاسه ، بل على العكس جعله يواجه

---

(١) الأهرام ١٩٨٠/٦/١٩ .

مضاعفات خطيرة تهدد بتقويضه . فقد أصبحت ثورة اريتريا بمثابة استنزاف لموارد اثيوبيا وامكانياتها المحدودة ، كما أعطت هذه الثورة الى جانب حركة تحرير الصومال الغربى — أعطت المثل لبقية القوميات التى هبت تطالب بحقوقها ، وهكذا تدفع أثيوبيا — الامبراطورية السابقة — التى اعتقدت أن بامكانها فرض ارادتها على الشعب الاريترى ، واقدام الامبراطور الراحل هيلاسلاسى على الغاء الاتحاد الفيدرالى الذى أعتبره آخر مسمار فى نعش شخصية اريتريا ، أصبح ذلك بمثابة مسمار فى نعش نظات الحكم العسكرى فى أثيوبيا .

ان أكثر ما يخشاه الحكم العسكرى فى أثيوبيا الآن هو اتصال حركات المقاومة ببعضها ، وكذلك انهيار الروح المعنوية فى صفوف الميليشيا التى يجندها للعمل فى اريتريا وفى المناطق الغربية للصومال دون رغبة منها فى القتال الى حد أن الكثير من أفرادها قد فروا ذعرا الى المناطق المحررة فى اريتريا أو اندفعوا خارج الحدود صوب أراضى السودان ، وقد لجأ النظام الاثيوبى من أجل تلافى هذه الظاهرة الى نقل رجال القبائل من أثيوبيا الى مدن اريتريا المهجورة ظنا منه أن الاستيطان سيحل المشكلة .

غير أن الاتحاد السوفيتى ينظر الى مشكلتى اريتريا والصومال الغربى بمنظورين مختلفين : **الأول** : أن حركة المناطق الغربية للصومال يمكن أن تستمر لمدة طويلة ، فطبيعة المناطق التى تجرى فيها عمليات الحركة وطبيعة قتال العصابات من الأمور التى لا يمكن التحكم فيها أو وضع حد نهائى لها حتى لو أمكن ضربها بشدة بين وقت وآخر . يضاف الى ذلك أن أثيوبيا ليس لها من وجود على الاطلاق فى هذه المناطق غير الوحدات العسكرية التى تقع تحت الحصار ويتم التنقل اليها بالطائرات بسبب سيطرة الثوار على الطرق الرئيسية ومعظم المناطق الريفية وثمة عامل آخر يحيط بالمشكلة وهو أن حركة الصومال الغربى لا تلقى تأييدا عالميا وتعالجها معظم الدول الافريقية بحساسية شديدة وينظر اليها الجميع على انها مشكلة حدود سيؤدى تغييرها الى نزعات كبيرة فى القارة الافريقية وذلك رغم أنها هى الأخرى قضية تقرير مصير من الدرجة الأولى . **والأمر الثانى** : هو أن ثورة اريتريا التى تتمتع بكيان الدولة بالفعل — تمتلك قوة ذاتية تكفل لها البقاء من أجل استعادة سيطرتها على الموقف ولا تزال المراكز الريفية فى أيدى رجالها .

وتلعب طبيعة الأرض ومعظمها جبلية دورا كبيرا فى قدرة الثورة الاريترية على توجيه الضربات المتواصلة للقوات الاثيوبية ، يساعد على ذلك أن

كل مرافق الحياة داخل اريتريا أصبحت مدمرة باستثناء ميناء عصب على البحر الأحمر الذى تحول الى قاعدة عسكرية سوفيتية • وفيما يتعلق بمركز الثورة الاريترية ، فالملاحظ أنها تلقى عطفا عالميا وتفهما متزايدا من دول افريقية - كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من هذه الدراسة - ؛ ان البعض ينظر اليها على أنها قضية تقرير مصير شعب يريد الاستقلال مع النظر بعين الرعاية لصالح الشعب الاثيوبى الذى لا يكن له أى عداء • كذلك فان حجم التضحيات التى بذلتها على مدى عشرين عاما ربما تدفع بها الى المركز الأول بين كل الثورات التى اندلعت فى افريقيا فى الجيل الحالى من أجل تصفية جيوب الاستعمار البرتغالى فى المناطق الجنوبية على الساحلين الشرقى والغربى للقارة الافريقية •

وهكذا تتضح الأسباب(١) التى من أجلها قرر الاتحاد السوفيتى أخيرا مواجهة الثورة الاريترية ، ويبدو أن السوفيت يستهدفون بالاستعدادات العسكرية فى منطقة القرن الافريقى محاولة فرض الحل العسكرى اذا لم يتم التوصل الى حل سياسى ، والواضح حتى الآن أن محاولات التوصل الى حل سياسى لم يكتب لها النجاح وكان من بين هذه المحاولات التجاء مانجستو الى وساطة السودان الذى كان حتى عام ١٩٧٨ يؤيد استقلال اريتريا ثم تحول الى تأييد فكرة الحكم الذاتى ، ويعزى ذلك الى عجز ثورة اريتريا فى توحيد فصائلها ، وقد سعت موسكو الى محاولة استقطاب بعض قادة فصائل الثورة الماركسيين من خلال ما يسمى بالحل الاشتراكى لقضية اريتريا على أمل أن تتوصل فى النهاية الى صيغة تعطى لاريتريا حكما ذاتيا داخل اطار الوطن الاثيوبى • غير أن محاولات موسكو هذه لم تلق استجابة من معظم فصائل الثورة الاريترية رغم التناقضات الفكرية بينها ، وقد كان منطق « تقدمية النظام فى اثيوبيا » سببا فى ذلك الخلاف القائم بين ثوار اريتريا والماركسيين العرب ، ذلك أن الثورة بدأت فى عهد الامبراطور هيلاسلاسى من أجل تقرير المصير ، وعلى هذا الأساس فان الثورة الاريترية - فى رأى معظم قادتها - لم يتغير فيها شىء ، وانما الذى تغير هو اثيوبيا ، ولا يكون مجرد تحول

---

(١) ومن الثابت أن للاتحاد السوفيتى مواقفه تجاه المشكلات الافريقية عموما ونشر الشيوعية كحفاظ على الأيدءولوجية السوفيتية - راحم فى تفصيل ذلك :
Colin Legum, "The U.S.S.R. and Africa : The African Environment," Problems of Communism Vol. XXVII, No. 1 (january - February 1978). pp. 3 - 5.

النظام من رجعى الى يسارى مبررا لالقاء السلاح والتنازل عن حق تقرير المصير .

هناك حجة أخرى يسوقها قادة ثورة اريتريا وهى أن الاتحاد السوفيتى نفسه كان صاحب المشروع الذى تضمن « قرار الاستقلال التام الناجز لاريتريا » عام ١٩٥٠ . وقد وصف مشروع الاتحاد الفيدرالى أو الحكم الذاتى بأنه زواج كاثوليكى بارادة طرف واحد وضد ارادة الطرف الآخر - وكان صاحب مشروع الاتحاد الفيدرالى الذى أقرته الأمم المتحدة وقتها هو الولايات المتحدة الامريكية . لكن المصالح من الدول العظمى جعلت المواقف تنقلب والاتحاد السوفيتى صاحب مصلحة(١) الآن فى محاولة حمل قادة الثورة الاريترية على قبول حكم ذاتى داخل اطار الوطن الاثيوبى ، فهو يأمل فى احداث تغييرات جوهرية بحل مشكلة اريتريا بما يخدم أهدافه وبينها محاولة تغيير الوضع فى السودان .

وعموما يمكن بلورة الأساس الذى يتحرك فى الاتحاد السوفيتى فى عدة محاور :

باسم شعب اريتريا .

أولا : تعزيز حزب العمل الاريترى وتقويته لكى ينفرد بالساحة وحيدا

ثانيا : جمع المنظمات اليسارية الاتيوبية المعارضة لحك اللجنة العسكرية فى تنظيم واحد تحت اسم الجيش الثورى لشعوب اثيوبيا .

ثالثا : تشديد القبضة على نظام مانجستو بدفع العناصر الأكثر ولاء الى مواقع السلطة .

وبهذه المواقف ترتد القضية الى الساحة الاريترية ثم الساحة الافريقية التى يسودها القلق من جراء الخطط السوفيتية التى تستهدف الصومال والسودان ومصر ، ومن نتائج المواجهة المتوقعة فى القرن الافريقى والبحر الأحمر زيادة المخاوف لدى معظم الدول الافريقية من أن أثيوبيا قد أجتازت طريق اللاعودة وأصبحت تدور فى الفلك السوفيتى .

---

(١) وحول علاقات الاتحاد السوفيتى بالأوضاع فى افريقيا عموما قبل هذه الفترة - راجع .

Edward T. Wilson, Russia and Black Africa Before World War II (New York Holmes and Meier, 1974).

موقف الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية

١ – الموقف الامريكى

بداية يجب ايضاح أنه بالرغم من أن دولا كثيرة لم تحدد علنا موقفها عن مشكلة اريتريا ، الا أن معظمها يرى انها قضية تقرير مصير ، كما ان دول الغرب الكبرى ترددان القضية ذات طبيعة خاصة(١) ، وأغلب الظن ان بعضها يؤيد اقامة اتحاد فيدرالى بين اريتريا واثيوبيا يختلف فى كيانه عن الاتحاد الوهمى الذى أطاح به الامبراطور الراحل هيلاسلاسى عام ١٩٦٢ ٠

أما عن الموقف الامريكى وتطوره فى منطقة القرن الافريقى فالملاحظ أن الولايات المتحدة الامريكية ظلت بعيدة عن منطقة القرن الافريقى منذ أن فقدت قاعدتها فى اثيوبيا – وقد اكتفت أمريكا فيما يبدو(٢) وبمراقبة الأوضاع من القاعدة الانجلو – امريكية الكبيرة فى جزيرة دييجو جارسيا بالمحيط الهندى وذلك بالرغم من الفرصة التى اتيحت لها عندما قررت جمهورية الصومال يوم ١٣ نوفمبر ١٩٧٧ الغاء معاهدة الصداقة والتحالف بين مقديشيو وموسكو واخراج الخبراء السوفيت ووقف التسهيلات الحربية التى كانت تمنح للاتحاد السوفيتى فى موانى ومطارات الصومال ٠ كذلك امتنعت أمريكا عن تسليح الصومال فى ذلك الوقت – وسحبت موافقتها السابقة على ذلك – لعدة أسباب منها :

أولا : ان أمريكا كانت تأمل فى استعادة اثيوبيا الى فلكها بالرغم من الغاء أديس أبابا لمعاهدتها مع واشنطن واغلاق القواعد الامريكية ٠

ثانيا : ان أمريكا لا تؤيد تجزئة الامبراطوريةالاثيوبية السابقة وقصرها على النهضة الحبشية التى كانت تقف عندها حدود الدولة قبل ان يضم اليها الامبراطور منليك بالقوة بقية الأراضى التى تنتمى الى قوميات أخرى بمساعدة الدول الاوربية التى كانت تحتل القارة الافريقية فى آواخر القرن التاسع

---

(١) الأهرام – القاهرة ٣ ابريل ١٩٨٠ ٠

Blair, Thompson, Ethiopia : The Country That Cut Its Head, London : Rodson Books, 1975.

عشر ، وهذا يمثل حتى الآن موقفا ثابتا فى أمريكا ودول الغرب التى تتذرع بان التسليم بمطالب الصومال سوف يخلق سابقة خطيرة تترتب عليهـا نزاعات كبيرة فى كثير من مقاطف القارة ·

غير ان النظرة الامريكية للوضع قد تغيرت بالأحداث التى وقعت فى القارة الافريقية وافغانستان وان كانت قد ظلت على ما هى عليه بالنسبة للوضع فى الصومال الغربى كما أنها تختلف بدرجة قليلة بالنسبة للوضع فى اريتريا · فقد استقر الوضع للاتحاد السوفيتى فى اثيوبيا وأصبح هو الموجه لسياستها ، كما أنه قد تكفل بدور ضرب حركات التحرير والعمل على اعادة تخطيط شرق افريقيا على النحو الذى يتفق مع أهدافه · ويدخل فى ذلك محاولات تجرى فى اريتريا لاعادة التوطين والتوزيع الجغرافى للسكان الذين فروا من المدن للانضمام الى الثوار فى الريف ، ومحاولات تفريغ منطقة الصومال الغربى من سكانها وطردهم بعيدا الى أراضى جمهورية الصومال التى تعانى من مشكلات اللاجئين ، يضاف الى ذلك ما بدا من محاولة السوفيت بسط نفوذهم من اثيوبيا حتى مشارف موريتانيا · وقد تجلى ذلك فى عمليات اثارة عدم الاستقرار السياسى فى المنطقة الشمـالية والوسطى للقـارة بالامدادات الحربية التى تقدم لجبهة البوليزاريو ودعم القتال فى تشاد الى جانب أحداث الخلل فى توازن القوى بشبه الجزيرة العربية ويدخل فى هذا الاطار تطور العلاقات بين دولتى اليمن فى الشمال والجنوب ·

وهكذا وجدت الولايات المتحدة الامريكية مبررا لاستعادة وجودها فى المنطقة بعد تورط موسكو كطرف مبـاشر فى الصراع الذى أمتد لدائرة استقطاب دولى أشمل بين القوى العالمية ذات المصالح المختلفة فى البحـر الأحمر ، ومع تعدد التطورات المرتبطة بصراع القوى الكبرى فى منطقة القرن الافريقى الا أن ابرز هذه التطورات قد تمثل فى التساؤلات التى أحيطت بالموقف الامريكى فبعد تصريحات متعددة من الرئيس الامريكى والمستويات السياسية الامريكية التالية ، بخصوص مساعدة الصومال وامكانية اعدادها بالمساعدات العسكرية ، وقد سبق ايضاح قيام الرئيس الصومالى سياد برى بالغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى وطرد من ينتمون اليه من الخبراء والمستشارين العسكريين فضلا عن قطع العلاقات السياسية مع كوبا وطرد خبرائها من البلاد ، غير أن الادارة الامريكية قد اتخذت مواقف علنية تختلف عن مواقفها السابقة مع الصومال ، وقد تمثل ذلك فى رفض الولايات المتحدة أمداد الصومال **بأية أنواع من الأسلحـة - من ناحية** . والاشارة الى ما يحدث فى جبهة أوجادين على أنه عدوان صومالى على حدود

اثيوبيا يستوجب أولا سحب القوات الصومالية من ناحية أخرى فقد حذر الامريكيون السوفيت بعدم اختراق حدود الصومال الدولية من قبل اثيوبيا ٠

ان هذا الموقف الامريكى يستحق وقفة للتفسير والتعليل نظرا لما أثاره هذا الموقف من غموض وحيرة وعلاقات تعجب تجاه الصومال التى كانت تصبو الى المساعدة الامريكية الصريحة وبدلا من ذلك جاء الموقف الامريكى متناقضا وربما يفسر ذلك بالاعتبارات التى أملتها سياسة الوفاق حيث حدث تبادل للمواقع بين موسكو وواشنطن فى كل من اثيوبيا والصــــومال ليس هذا فحسب ، بل ان الولايات المتحدة قد حلت محل الاتحاد السوفيتى فى المواقع المؤثرة فى الشرق الأوسط ، وعلى صعيد القرن الافريقى فانه فى حين تم فصم عرى العلاقات الصومالية السوفيتية الا أن السياسة الامريكية قــد استمرت فى التطلع الى استعادة اثيوبيا ، كذلك فقد رفضت الولايــات المتحدة تماما خطط الصومال التحررية الوحدوية الرامية الى توحيد القطاعات الطبيعية من الاراضى المتحدة عرقيا وتاريخيا ولكنها تنتمى اليوم الى وحدات سياسية مختلفة ، ويمكن القول ان هذا الموقف الامريكى المعادى لحق تقرير المصير ولتصحيح المظالم التاريخية الاستعمارية قد استند الى مفهوم أنه فى حالة وجود صومال متحدة قوية ومنتصرة بتحرير اقليم أوجادين الذى يعتبر انتصارا لمنطق الصومال بشأن حق تقرير المصير فى مواجهة مبدأ قدسية الحدود الافريقية وان الخطوة التالية ستكون جيبوتى وكينيا فان ذلك سيمثل خطورة على المنطقة برمتها لانتقاء ذلك مع التوارث الاستعمارى بشأن قدسية الحدود الافريقية وعدث المساس بها ٠ ولقد ضاعف من أهمية هذه الاعتبارات أمام عملية صياغة السياسة الامريكية أن الصومال تريد السلاح لكى تحارب به من أجل مصلحتها الخاصة بها قبل أى اعتبار آخر أى أنها تريد سلاحا تشتريه وتستخدمه وليس سلاحا يشتريها ويستخدمها وبمعنى آخـــر فان السلاح المطلوب لـ يكن فى جوهره ضد الشيوعية لأن الحـــرب الدائرة فى جوهرها هى حرب من أجل الوحدة ٠ وبهذا المعنى فقـــد تبين ان موقف الولايات المتحدة الامريكية لم يكن فى رأى البعض سلبيا بالقدر الذى تصوره بعضهم وقد وجدت الولايات المتحدة فى تبرير تدخلها غير المعاش فى الصومال بديلا يكفل للصومال متطلبات الدفاع عن النفس ٠ وهكذا يفسر ما سبق أن موقف الولايات المتحدة تجاه الصومال فى نزاعها مع اثيوبيا الأسلوب الذى تنظر به الولايات المتحدة فى احلال الهدوء فى المنطقة سواء فى نزاع الصومال مع اثيوبيا حول اقليم الاوجادين أو فى المنطقة المتنازع عليها مع كينيا حيث توصل الطرفان الى عقد اتفاقية فى يوليو ١٩٧٧ ٠

من ناحية أخرى فقد تمت أيضا اتفاقية مع سلطنة عمان تم بمقتضاها حصول الولايات المتحدة على تسهيلات عسكرية فى عمان حيث يتحكم مضيق هرمز فى الملاحة عبر الخليج وبحر العرب ، كذلك حصلت أمريكـــا على تسهيلات عسكرية على سواحل الصومال المطلة على خليج عدن والمحيط الهندى وحيث يواجه ميناء بربرة ميناء عدن تماما وكذلك فى ميناء ممباسا على ساحل كينيا المطل على المحيط الهندى حيث تتجه خطوط المواصلات الحديديـــة والبرية الى أعماق الساحل الشرقى للقارة الافريقية وجنوب السودان ٠

٢ ــ تقييم الموقف الامريكى :

يمكن القول ان الموقف الامريكى من أحداث القرن الافريقى ومن قارة امريقيا عموما ــ لم يحظ باهتمام السياسة الخارجية للولايات المتحـــدة الامريكية والتى كانت راغبة فى الابتعاد عن التورط فى منطقة القرن الافريقى لأنها تدخل فى نطاق اهتمام حلفائها فى حلف شمال الاطلنطى ، وقد كان لهذا الموقف الذى اتسم فى البداية باللامبالاة من جانب الولايات المتحدة ما يبرره فى الماضى ، فقد ظلت قارة افريقيا خلال الخمسينات والستينات بمنأى عن تدخل القوى العظمى great power Intervention باستثناء عدد من الدول الكبرى وأهمها فرنسا وانجلترا التى كانت لها اهتماماتهـــا بالطبع بأحداث القارة الافريقية ، والدول الافريقية هى الأخرى كانت غارقة فى مشاكلها المتعلقة بتصفية الاستعمار والكفاح من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومنظمة الوحدة الافريقية أيضا حاولت منذ أنشائها التغلب على كل ما من شأنه أن يهدد الأوضاع القائمة أو يثير مشاكل الحدود الاقليمية ، بل أن المنظمة قد اعتبرت الحدود القائمة أمرا منتهيا وغير قابل للمناقشة ، لكن هذا الاستقرار الظاهرى كان يخفى تحت السطح عوامل انفجار ثارت أخيرا وفرضت نفسها على الرأى العام العالمى ٠

وتقييم الموقف الامريكى من أحداث القرن الافريقى لا بد وان يأخذ فى الاعتبار النزاع الصومالى الاثيوبى الذى كان يشكل من وجهة النظر الامريكية فى وقت ما الخطورة الكبيرة على اثيوبيا وأنه من غير المنطقى ان تهدد دولة تعدادها ثلاثة ملايين نسمة دولة مثل اثيوبيا تعدادها أكثر من ثلاثين مليون نسمة مهما بلغت الاستعدادات الصـــومالية العســـكرية ، غير أن الخبراء الامريكيين قد تنبهوا الى ضعف النظام الامبراطورى وفشله فى احراز أى تقدم اقتصادى أو اجتماعى ، وتبلورت المخاوف الامريكية من سوء الأوضاع فى اثيوبيا فى القرار الذى اتخذته بشأن الاقلال من حجم مساعداتها العسكرية

لاثيوبيا واستمر ذلك حتى قام الانقلاب العسكرى فى اثيوبيا ، وحتى بعد ذلك استمرت السياسة الخارجية الامريكية على تحفظها وتجاهلها للمخاوف الاثيوبية من الغزو الصومالى وهو ما أدى الى قيام مانجستو فيما بعد بالغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع أمريكا وعقد اتفاقا جديدا للتعاون مع الاتحاد السوفيتى • وفى النزاع الصومالى الاثيوبى حول الاوجادين وقفت الولايات المتحدة موقفا محايدا من النزاع وهو ما جعل الصومال تشعر بخيبة أمل عميقة من جراء هذا الموقف وربما كان للموقف الامريكى بهذا الخصوص ما يبرره حيث لم تكن الولايات المتحدة تستطيع ان تساعد دولة تعد عدنها من أجل انتهاك واحد من المبادىء الأساسية شبه المقدسة فى ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، كما أنها ـ أى الولايات المتحدة لم تتخذ موقفا حازما من أدانة الصومال عندما أحتلت معظم أراضى الاوجادين •

كذلك فان تقييم الموقف الامريكى من أحداث منطقة القرن الافريقى لابد وان يأخذ فى الاعتبار اتجاهات السياسة الامريكية فى هذه المنطقة والتى مرت بمراحل عديدة بدءا بمرحلة الحياد ومرور بمرحلة محاولة أمريكا حل الازمة دبلوماسيا عن طريق منظمة الوحدة الافريقية ثم الحد من الخسائر بعد فشلها فى احتواء الازمة ، وانتهاءا بالتهديد الامريكى للسوفيت والكوبيين لتدخلهم فى افريقيا عموما •

ففى مرحلة الحياد من النزاع الصومالى الاثيوبى اعتمدت السياسة الامريكية على الافتراض الذى يعتبر أن لاتحاد السوفيتى يزج بنفسه فيما لا طاقة له به وان كوبا ستغوص فى المستنقع الافريقى تدريجيا ، وان النظام العسكرى فى اثيوبيا الحليف للسوفيت سينهار حتما ، وغاب عن السياسة الامريكية تقدير أن تدفق القوات الكوبية بهذه الاعداد الهائلة والمعدات العسكرية السوفيتية الضخمة سوف يشد من أزر النظام القائم فى اثيوبيا • أما فى المرحلة الثانية فقد حاولت الولايات المتحدة أن تحل الازمة دبلوماسيا فى اطار منظمة الوحدة الافريقية ، غير أن الموقف الامريكى قد وجه اعتراضات قوية من الرأى العام الامريكى وخاصة امام اصرار الاتحاد السوفيتى وكوبا فى المضى فى مغامرتهما فى القرن الافريقى وتزايد الوجود الكوبى بصفة خاصة فى اثيوبيا ومن ثم تدفقت الامدادات السوفيتية عن طريق الجسر الجوى السوفيتى الى اثيوبيا وهنا ارتفعت أصوات أمريكية كثيرة تطالب الولايات المتحدة بوضع حد لهذا التغلغل الكوبى السوفيتى • وقد فشلت الولايات المتحدة فى احتواء الازمة فى المرحلة التالية اثر تفاقم عمليات الهجوم الاثيوبى المضاد فقامت الولايات المتحدة بتحركات دبلوماسية واسعة وهددت

اثيوبيا باعادة تقييم الموقف اذا ما وسعت اثيوبيا من هجومها المضاد واجتازت الحدود الدولية الصومالية • وفي المرحلة الأخيرة فان الولايات المتحدة قد انتقلت فى نهاية فبراير ١٩٧٨ الى تهديد السوفيت بالربط بين التدخل السوفيتى الكوبى فى افريقيا وبين سياسة الوفاق الدولى واستمرار محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وقد رأى البعض فى هذا الضغط الامريكى أن هذا التهديد انما يصدر فقط عن الكونجرس وأن للحكومة الامريكية لها وجهة نظر أخرى ، وان الولايات المتحدة قد تستطيع أن ننسب الفضل فى وضع حد للمواصلات العسكرية بين الصومال واثيوبيا ، وان الصومال قد أستسلمت الى الضغط الامريكى وافقت على سحب قواتها • وتداعى الاحداث على الشكل السابق والتحليلات أيضا جعلت فريقا آخرا من الباحثين يتخيلون لفترة وجيزة أن المرحلة الحرجة من الازمة قد شارفت على الانتهاء ، وهو ما كذبته أثيوبيا بعد ذلك حيث هددت بشن حرب داخل الاراضى الصومالية لتأديب الصاماليين اذا هم لم يكفوا عن مطالبهم الاقليمية فى الأوجادين وجيبوتى هذا بالاضافة الى التطورات اللاحقة والتى انعكست - ولا تزال - على حرب الابادة الشاملة التى تمارسها اثيوبيا ضد الاريتريين وهو ما لم يعرف التاريخ الحديث والمعاصر أمرا مشابها له •

ان السيطرة الامريكية على الموقف فى القرن الافريقى كانت أمرا مؤقتا فى حين أن الصورة السياسية فى القرن الافريقى قد تغيرت تماما فأصبح الاتحاد السوفيتى وكأنه هو الدولة الأقوى فضلا عن تمتع السوفيت بوجود عسكرى هائل فى منطقة من أكثر مناطق العالم حيوية وتحقق بذلك حلم طالما داعب الخيال السوفيتى منذ عهد القياصرة وهو السيطرة على مداخل المياه الدافئة فى المحيط الهندى وذلك دون مقاومة تذكر من جانب الولايات المتحدة ، وعموما فقد أثارت هذه المواقف من جانب الولايات المتحدة كثيرا من التساؤلات بسبب ما اكتنفت السياسة الامريكية فى القرن الافريقى من تخبط وتناقض حتى أن بعض المراقبين السياسيين وصلوا فى ظنونهم الى حد اتهام الدولتين العظميين بالتواطؤ لتنفيذ خطة سياسية معنية ولتحقيق هدف متفق عليه ، وقد ثارت التساؤلات الآتية التى لم تجد اجابات من جانب الفريق من المراقبين تذليلا على ظنونهم : كيف ولماذا تقف الولايات المتحدة هذا الموقف السلبى من مشكلة القرن الافريقى والتى تعتبر من أهم المشكلات الدولية المعاصرة ، ولها تأثير كبير على ميزان القوى الدولى ؟ وكيف ولماذا تمهد الولايات المتحدة بهذه المواقف السلبية الطريق أمام التغلغل السوفيتى الكوبى فى منطقة القرن الافريقى دون أن تتحرك بفعالية وتدافع عن مصالحها ومصالح الغرب الاستراتيجية فى هذه المنطقة ؟ ثم كيف انتقلت الصومال من الضد الى

الضد وكذلك اثيوبيا - بمعنى أن الصومال كانت حتى وقت قريب كانت بمثابة قاعدة سوفيتية واثيوبيا كانت قاعدة امريكية ، فكيف انتقلت الآية ، فاذا باثيوبيا شيوعية والصومال تطرد السوفيت وتتجه الى الغرب طلبا للمساعدة ثم كيف يتفق هذا كله مع محاولات الولايات المتحدة من أجل استرجاع اثيوبيا الى الحظيرة الامريكية •

ان علامات التعجب والاستفسار أيضا قد أحاطت بموقف الدول الغربيه من مشكلة القرن الافريقى حيث وقفت الدول الغربية لا تحرك ساكنا لمساعدة الصومال التى طردت السوفيت وهل يرتبط هذا ارتباطا مباشرا أم غير مباشر بالموقف الامريكى •

وأخيرا فان الأمور التى أثارت الدهشة والتعجب فى السياسة الخارجية الامريكية تجاه القرن الافريقى هو تلك التصريحات من وقت لآخر من جانب الرئيس الامريكى محذرا السوفيت من استمرار تورطهم فى افريقيا بصفة عامة ونتائج ذلك على صعيد العلاقات الامريكية السوفيتية ث ما هو تفسير وزارة الخارجية الامريكية التى لا تلبث أن تردد النغمة السياسية القديمة مؤكدة على بقاء افريقيا بعيدة عن حلبة الصراع بين الشرق والغرب وان الامريكيين لا ينبغى لهم تقليد السوفيت وأن أفضل الوسائل هو حل المشاكل الافريقية بعيدا عن التدخل الاجنبى من جانب القوى العظمى • ولنا أن نتساءل بدورنا بصدد تقييم الموقف الامريكى : هل أصبح للامريكيين سياسة آخرى غير معلنة مثل السوفيت حول علاجهم لهذه المشكلة والمشكلات الدولية المعاصرة الأخرى •

٣ - مواقف دول أوروبا الغربية

ينبع اهتمام دول أوروبا الغربية بمنطقة القرن الافريقى من أن هذه المنطقة تشرف على البحر الأحمر ومضيق باب المندب فضلا عن قربها من الخليج العربى والمحيط الهندى وهى المسارات التى يتدفق من خلالها البترول العربى الى أوروبا الغربية عبر البحر المتوسط ، وبالرغم من ذلك فان اهتمام أوروبا ل يزل محدودا بالنسبة للاهمية التى تمثلها هذه المنطقة للمصالح الغربية • وتجدر الاشارة الى أن النزاع الصومالى الاثيوبى فى الأوجادين قد استقطب الجزء الأكبر من اهتمام أوروبا الغربية باعتباره يمثل الحلقة الأكثر اشتعالا فى المنطقة فى حين لم يستأثر النزاع فى اريتريا بالقدر المماثل من اهتمام دول أوروبا الغربية •

واذا تتبعنا موقف أوروبا الغربية منذ تصاعد الاخطار فى المنطقــة بسقوط الحكم الامبراطورى فى اثيوبيا واستيلاء مانجستو والنظام العسكرى الجديد على زمام الأمور حين أخذ الغرب يفقد مركزه القوى هناك تدريجيا وخاصة حين تشدد مانجستو فى مواجهة المصالح الغربية فى المنطقة واخذ فى توطيد علاقاته مع الاتحاد السوفيتى وأدى ذلك بالمقابل فى سعى الغرب الى تحسين علاقاته علاقاته مع الصومال مستفيدا من الاثار السلبية للموقف السوفيتى وذلك بهدف انتزاع الصومال من دائرة العلاقات مع السوفيت بل وخد سادت الاحداث سريعة فى هذا الاتجاه وصلت المواجهة الصوماليـــة السوفيتية الى درجة حادة مع الغاء الصومال معاهدة الصداقة وطرد الخبراء السوفيت من الصومال • وازاء ذلك لم يكن أمام الصومال سوى اللجوء الى الغرب فى الوقت الذى تصاعدت فيه حدة النزاع الصومالى الاثيوبى فى منطقة الاوجادين وانجهت الحكومة الصومالية الى طلب دعم عسكرى من الغرب والالحاح فى ذلك لمواجهة تدفق المساعدات العسكرية السوفيتية على اثيوبيا ، غير أن موقف دول أوروبا الغربية لم يكن ايجابيا تجـــاه المطالب الصومالية حيث اتسم الموقف الاوروبى بالحذر والخوف من التورط فى النزاع وانعكس ذلك فى تردد كل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية فى امداد الصومال بالاسلحة • بل أن دول أوروبا الغربية قد قامت فى نهاية عام ١٩٧٧ بتأييد الولايات المتحدة ومشاركتها فى تجميد ارسال الاسلحة الى الصومال ، وتأكد هذا الموقف فى اجتماع الدول الغربية فى واشنطن فى يناير ١٩٧٨ والذى صدر فى نهايته بيان يعبر بوضوح عن حرص الدول الغربية على عدم التورط فى النزاع وتفضيل نقل القضية برمتها الى منظمة الوحدة الافريقية لتتولى معالجتها ، وظلت هذه هى الملامح العامة للموقف الغربى والتى تبلورت بوضوح فى مؤتمر القمة لرؤساء دول وحـــكومات السوق الاوروبية المشتركة المنعقد فى ابريل ١٩٧٨ حيث كان الاتجاه العام لموقف الدول الغربية يتحدد باعتماد استراتيجية التهدئة للتخفيف من حدة هذا النزاع ومحاولة الوصول الى حل دائم عن طريق الوساطة ، وكان تبرير هذا الموقف السلبى لدول أوروبا الغربية من جانب المراقبين ، أن مسألة الحدود الموروثة منذ الاستعمار يجب أن لا تتغير ، ويعنى ذلك استجابة دول أوروبا الغربية للموقف الامريكى المتحفظ من دعم الصومال عسكريا خشية حدوث مواجهة حادة مع السوفيت •

غير أن الموقف الغربى لم يكن كله على وتيرة واحدة ، حيث خرجت فرنسا على هذا الموقف باعتبار أن المصالح الاستراتيجية الفرنسية فى منطقة القرن الافريقى ترتب نوعا من الخصوصية لأن فرنسا هى الدولة الاوروبية

الغربية الوحيدة التى تملك وجودا بحريا فعاليا فى المنطقة فضلا عن وجودها العسكرى الرمزى فى جيبوتى ، وبالاضافة الى ذلك فقد لعبت فرنسا دورا مباشرا فى معظم الازمات والصراعات الافريقية ، وكان ذلك واضحا فى زائير وتشاد . أما فيما يتعلق بالنزاع فى القرن الافريقى فيبدو أن فرنسا آثرت دورا جماعيا فى اطار الموقف الاوروبى الغربى العام بقيادة الولايات المتحدة ، ومع ذلك فقد تمايز الموقف الفرنسى فى مؤتمر قمة باريس الافريقية الغربية الذى عقد فى يونيو ١٩٧٨ بمبادرة فرنسية ، وفى المؤتمر أكدت فرنسا أن فشل سياسة كيسنجر الافريقية ثم تردد حكومة كارتر قد أدى الى خلق مواجهة مع السوفيت والكوبيين ، كذلك فقد تبلورت الخلافات فى وجهات النظر بين فرنسا والدول الغربية الأخرى بشأن تركيز هذه الدول على الحاجة الى تناول التهديد السوفيتى الكوبى بشكل اجمالى بدلا من التعامل مع كل قضية على حدة .

موقف منظمة الوحدة الافريقية

١ - موقف المنظمة :

أما عن المنظمات الاقليمية فقد أهتمت منظمة الوحدة الافريقية بصفة خاصة بمشاكل الحدود بين اثيوبيا والصومال منذ اللحظة الأولى لانشاء المنظمة ، بل أن البلدين حاولا فى المؤتمر التأسيسى للمنظمة فى أديس أبابا فى أواخر مايو ١٩٦٣ حاولا اقناع الدول الأخرى بحقوق كل منهما فى نزاع الحدود • ووضعت المنظمة من جانبها عدة مبادىء تعمل على تشكيل الاطار العام للعلاقات بين الدول الافريقية ومنها مبدأ المساواة المطلقة فى السيادة بين جميع الدول الافريقية ومبدأ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الاخرى ومبدأ احترام الحدود السياسية القائمة ، وهذا المبدأ الأخير كان يعنى التمسك بالحدود الموروثة من عهد الاستعمار والابقاء عليها كما هى ، ورغم عدم عدالتها فان الدول الافريقية الثلاثين فى المؤتمر التأسيسى رأت معظمها ان ذلك يحقق وحدة التراب الافريقى ويجنب الدول الافريقية صراعات ونزاعات يمكن أن تؤدى بها مجتمعة الى التفتت والانقسام ، وكان تقدير الدول الافريقية للابقاء على الحدود الموروثة مبنيا على أسس عرقية ودينية وقبلية فضلا عن تداخل التكوينات الاجتماعية وكلها عوامل تجعل من الصعب تغيير الحدود التى وضعتها الدول الاستعمارية • غير أن الصومال اعترضت على مبدأ الحدود القائمة ووصفته بأنه انهزامى يقتصر الى الشجاعة فى مواجهة المشكلات الافريقية •

وقد سبق ايضاح ان الرئيس السودانى ابراهيم عبود قد أجرى مصالحة بين أثيوبيا والصومال فى الخرطوم ، ودعت السودان الى انشاء منطقة منزوعة السلاح بين الدولتين ، وفى الفترة ١٧ - ٢١ يوليو ١٩٦٤ أصدر رؤساء الدول والحكومات الافريقية قرارا بشأن نزاعات الحدود وأعلن فيه ضرورة حل هذه النزاعات على أساس مبدأ احترام الحدود القائمة فى وقت اعلان الاستقلال وبعد خمسة عشر عاما واجهت منظمة الوحدة الافريقية فى الفترة ما بين ١٨ - ٢١ يونيو ١٩٧٨ - واجهت نفس المشكلة وناشدت كلا من أثيوبيا والصومال سرعة انهاء الصراع فى الاوجادين بالطرق السلمية واحترام الدول لوحدة أراضى الدول الاخرى نفقد ساد مؤتمر القمة الافريقى الذى عقد فى الخرطوم سنة ١٩٧٨ وجهات نظر متباينة حول التدخل الأجنبى ، وكانت وجهة النظر الأولى موالية للغرب وعبرت عنها زائير

ونيجيريا ، أما وجهة النظر الثانية فقد عبرت عنها انجولا وموزمبيق وأثيوبيا وكانت موالية للسوفيت ، أما الثالثة فكانت أكثر واقعية وتكاد تعبر عن الحد الأدنى المشترك بين غالبية الدول الافريقية وقد وردت وجهة النظر هذه على لسان الرئيس التنزانى جوليوس نيريرى فى يونيو ١٩٧٨ حيث نصح بضرورة تفهم موقف الدول الافريقية التى لجأت الى القوى الأجنبية واستدعتها طلبا للمساعدة وفى نفس الوقت يجب ألا تفهم الدول الأجنبية التى استجابت للطلبات المحلية بالاستعمار الجديد • هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن ميثاق أديس أبابا لم يضع تعريفا للاستعمار الجديد ورغ الاختلاف الايديولوجى بين دول المنظمة وحملات الدعاية المضادة بينها ، الا أن دول المنظمة انتهوا - بشأن موضوع التدخل الأجنبى - الى صيغة توفيقية تعكس المصالح المختلفة والاوضاع الواقعية ، فلقد أصدر مؤتمر قمة الخرطوم عام ١٩٧٨ عددا من القرارات حول مسائل التدخل الأجنبى العسكرى فى دول القارة الافريقية ، غير انه أمتنع عن الاشارة الى دولة بعينها كما ان المنظمة لم تنجح فى استصدار وأمنها هو قضية افريقية ، ولكن الى جانب ذلك فان لكل دولة الحق فى لتحقيق أهدافها الوطنية أى أن المنظمة - من ناحية - عجزت عن أن تجد حلا استدعاء دول أجنبية ترى أنها يمكن أن تقدم المساعدة اللازمة والضرورية قرار يطالب بانسحاب القوات الأجنبية ، وأكد المؤتمر أن الدفاع عن افريقيا للتدخل العسكرى الأجنبى - والمقصود به هنا الوجود السوفيتى والكوبى فى أثيوبيا - ومن ناحية أخرى فان هذا يعتبر تراجعا عن الاتجاه العام الذى ساد فى العام السابق فى ليبرفيل بجابون والذى أتجه الى التخلى عن القوى الأجنبية •

وكانت منظمة الوحدة الافريقية قد حاولت فى ليبرفيل عام ١٩٧٧ خلال الاجتماع الوزارى بجابون أن تتوسط فى النزاع الصومالى الأثيوبى بناء على دعوة أثيوبيا وذلك من خلال لجنة تكونت من اعضاء ثمانى دول لمناقشة النزاع ، وقد طالب وزير خارجية أثيوبيا المنظمة بأن تقنع الصومال بسحب قواتها النظامية التى دخلت آنذاك الأوجادين ، غير أن الصومال انسحبت من الاجتماع وخاصة عندما طالبت باشتراك جبهة الصومال الغربى كشرط أساسى لايجاد حل للنزاع ولم تكن الصومال الى طلبها وفشلت

المنظمة في أن توفق بين البلدين ، ورغم أن البـــاب ترك مفتوحا للجهـــود الثنـــائية حيث طار جوليوس نيريرى الى أديس آبابا للتوسط ومقـــابلة مانجستو فان نتائج زيارته كانت سلبية تماما على صعيد العلاقات الصومالية الاثيوبية ٠

بقيت نقطة أخيرة في جهود منظمة الوحدة الأفريقية لتسوية النزاع الصومالى الأثيوبى من ناحية ومشكلات الحدود بين الدول الافريقية من ناحية أخرى ، وهذه النقطة تتمثل فى انشاء قوة أمن أفريقية ، وكانت هذه الفكرة قد أثيرت بشكل حاد وازدادت أهميتها من خلال استمرار الصراع المسلح فى القرن الافريقى ٠ ومما ساعد على تبلور هذه الفكرة أن هنـــاك نصوصا فى ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، هذه النصوص تقدم الاسس الموضـــوعيه لانشاء قوة أمن افريقية ٠ وقد نصت الفقرة الثالثة من المادة الثانية على أن من أهداف دول المنظمة الدفاع عن سيادتها وسلامة أراضيها واســـتقلالها واقامة قوة أمن افريقية للدفاع عن القارة بما يحقق سلامة الدول ويحافظ على عوامل الوحدة الافريقية ، ولكن الفكرة من زاوية أخرى أثارت تحفظات بعض الدول ومخاوفها ، فهناك حرص شديد على أن يتم تشكيل هذه القوة من خلال منظمة الوحدة الافريقية ذاتهـــا وليس من خارجهـــا ورفض كافة المحـــاولات التى يمكن أن تعبر عن شكل أو آخر من أشـــكال السيطرة الاستعمارية على القارة وهو ما يستند الى مبادىء ميثاق المنظمة ذاتها ٠

غير أن التحفظات قد ثارت بشأن قوة الأمن الافريقية والتى كانت قد تشكلت بالفعل عام ١٩٧٧ نظرا لاحداث شابا فى زائير ، وجاءت فكرتهـــا وقتئذ من خلال المؤتمر الذى انعقد فى باريس وحضرته ٢١ دولة أفريقيـــة ناطقة بالفرنسية وقد أسهمت فى قوة الامن الافريقية حينذاك قوات فرنسية وبلجيكية ورأت غالبية الدول فى المنظمة أن هذه القوة تعيد شبح الاستعمار الجديد مرة أخرى كما أنها تعد تحديا لوجود المنظمة ذاتها ، حتى أن مندوب الكونغو فى المؤتمر الوزارى للمنظمة الذى عقـــد فى الخرطوم وقتئذ وصف هذه القوة بأنها أداة للتخريب وعدم الاستقرار للنظم السياسية الافريقية عن طريق نظم افريقية أخرى ٠ وفى مؤتمر القمة الافريقى أضـــاف جوليوس نيريرى قائلا : « ان معقد الآمال لكل افريقى هو أن توجد قوة أمن «افريقية» وبشرط أن لا تقسم افريقيا بين هؤلاء الذين سينحازون للغرب عسكريا ، كما ذكر أنه لا يمكن ايجاد قوة أمن افريقية خالصة الا اذا وافقت منظمـــة الوحدة على ذلك كمجموعة ٠

ولم توحد المنظمة كلمتها بعد على انشاء هذه القوة الافريقية الخالصة ، الا أن النية متجهة إلى اقامة نوع ما من القوة الافريقية على غرار قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة وانها لن تستخدم في القتال في حروب الدول الافريقية أو القتال الى جانب حركات التحرير ولكنها تحافظ على السلام من الأجنحة المتحاربة ٠

وفى تقييم جهود منظمة الوحدة الافريقية تجاه تسوية النزاع الصومالي الاثيوبي — يمكن القول أن المنظمة لم تستطع أن توقف أحداث الحدود والنزاع المسلح كما أن عدم اقتناع الصومال بمبدأ وحدة الأراضى وقدسية الحدود كان من شأنه انسحاب الصومال وتضامن العديد من الدول الاسلامية فى الموقف الصومالى فضلا عن أن استمرار تدخل القوى العظمى great power intervention فى منطقة القرن الافريقى قد أضعف تماسك المنظمة وهدد بالفعل من وحدتها ٠

٢ — جهود منظمة الوحدة الافريقية لتسوية الخلاف الأثيوبى الصومالى : تسلسل تاريخى :

مايو ١٩٦٣ : عقد فى أديس أبابا مؤتمر رؤساء الدول والحكومات الافريقية وأوضح كل من الصومال وأثيوبيا موقفهما من الخلافات على الحدود٠ واقترح المؤتمر اجراء محادثات تسوية سلمية لهذا الخلاف ٠

يونيو ١٩٦٣ : جرت محادثات رسمية فى أديس أبابا بين ممثلى أثيوبيا والصومال ٠ .

يوليو ١٩٦٣ : فشلت المحادثات بين بريطانيا والصومال بشأن الخلاف حول الحدود الشمالية ٠٠

٨ فبراير ١٩٦٤ : سلمت كل من الصومال وأثيوبيا مذكرة الى الأمين العام لمنظمة الوحدة الأفريقية فور الاشتباكات العسكرية بين الطرفين على الحدود ٠

١٢ فبراير ١٩٦٤ : بعث الرئيس جمال عبد الناصر الى كل من الامبراطور هيلاسلاسى وآدن عبد الله عثمان رئيس جمهورية الصومال ،

ناشدهما وقف المعارك وحقن الدماء . هـــذا وقد بعث كل من الامبراطور هيلاسلاسى والرئيس الصومالى بالرد على برقية الرئيس جمال الى كل منهما .

١٢ — ١٥ فبراير ١٩٦٤ : ناقش مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى دار السلام النزاع الصومالى الأثيوبى ، ودعا الأطراف المعنية الى الدخول فى محادثات للوصول الى حل سلمى .

٢٤ — ٢٩ فبراير ١٩٦٤ : نوقش الخلاف الصومالى الأثيوبى فى الدورة العادية الثانية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية فى لاجوس .

٢٤ — ٣١ مارس ١٩٦٤ : عقد فى الخرطوم اجتمـــاع صومالى أثيوبى وصدر بيان مشترك عن محادثاتهما .

أول ابريل ١٩٦٤ : استمر القتال على الحدود الأثيوبية الصـــومالية بالرغم من اعلان اتفاقهما على وقف القتال .

١٢ ابريل ١٩٦٤ : انتهت من مهمتها اللجنة الصومالية الأثيوبيـــة المشتركة المكلفة بمراقبة تنفيذ اتفاقية الخرطوم الخاصة بانشاء منطقة منزوعة السلاح على طول منطقة الحدود بين البلدين وتم توقيع اتفاقية مشتركة بذلك فى مدينة « فرفر » .

١١ يوليو ١٩٦٤ : اجتمع فى القاهرة وزير خارجية كل من أثيوبيـــا والصومال لبحث تسوية نزاع الحدود بين البلدين وقد قرر الوزيران احـــالة المشكلة الى مؤتمر رؤساء الدول الافريقية المقرر عقده فى القاهرة .

٢٤ — ٢٩ فبراير ١٩٦٥ : عقد فى لاجوس مؤتمر وزراء منظمة الوحدة الأفريقية دعا المؤتمر الصومال وأثيوبيا الى اتفاق وقف اطلاق النـــار والى الشروع فى مباحثات تؤدى الى السلام .

١٢ يونيو ١٩٦٥ : بعثت الحكومة الصومالية بمذكرة الى لجنة تصفية الاستعمار التابعة الى الأمم المتحدة تطلب فيها بأن تتولى الأمم المتحدة ادارة الحكم فى الصومال الفرنسى بدلا من فرنسا لمدة عامين قبل الدعوة الى اجراء استفتاء شعبى فيه لتقرير المصير . وتضيف المذكرة بأن الصومال الفرنسى يعد — جغرافيا وتاريخيا — جزءا من الصومال وأن مصالح أثيوبيا الاقتصادية

فى الصومال الفرنسى وبوجه خاص فى جيبوتى من الممكن حمايتها عن طريق التفاوض مع أثيوبيا .

١١ يوليو ١٩٦٥ : طالبت الصومال الأمم المتحدة على وقف الدعاية العدائية المتبادلة .

١٦ سبتمبر ١٩٦٦ : أعلن الامبراطور هيلاسلاسى فى أديس أبابا مطالبة أثيوبيا بالصومال الفرنسى على اعتبار أنه جزء من أثيوبيا .

١٨ سبتمبر ١٩٦٦ : طردت السلطات الفرنسية ما يقرب من ١٫٠٠٠ مواطن من الصومال الفرنسى .

يوليو ١٩٦٧ : أعلن عن فشل اللجنة الصومالية الأثيوبية المشتركة فى الوصول الى اتفاق بشأن الحدود بين البلدين مما حدا منظمة الوحدة الافريقية الى التعرض لهذا الخلاف خلال مؤتمر القمة الرابع فى كينشاسا حيث أعلن عن بوادر تحسن فى العلاقات الصومالية الأثيوبية واتفق الامبراطور هيلاسلاسى ومحمد ابراهيم عجال رئيس وزراء الصومال على وضع أسس لتسوية النزاع .

٥ - ٨ فبراير ١٩٦٨ : قام وفد أثيوبى بزيارة الصومال وجرت محادثات بين الحكومتين وصدر بيان مشترك عن المحادثات .

٢ - ٥ سبتمبر ١٩٦٨ : قام محمد ابراهيم عجال بزيارة الى أثيوبيا وصدر بيان مشترك عن محادثاته مع المسئولين فى أديس أبابا جاء فيه أن الجانبين اتفقا معا على منح الطيران الصومالى حق المرور فى سماء أثيوبيا وتنمية التعاون الثقافى والفنى بين البلدين وتسوية مشاكل الممتلكات العامة والخاصة على الحدود التى كانت معلقة منذ احتدام نزاع الحدود بين البلدين عام ١٩٦٤ ووافقت حكومة أثيوبيا على رفع حالة الطوارىء فى الأقاليم المجاورة للحدود مع الصومال .

أول ابريل ١٩٦٩ : تم توقيع اتفاقية تجارية بين الصومال وأثيوبيا .

١٥ اكتوبر ١٩٦٩ : أغتيل الدكتور على شرماركى رئيس جمهورية الصومال وأعقب ذلك بفترة حدوث انقلاب عسكرى .

١٩٧٧ : الاجتماع الوزارى لمنظمة الوحدة الافريقية فى جابون يتوسط فى النزاع الصومالى الأثيوبى بدناء على دعوة أثيوبيا وذلك من خلال لجنة تكونت من ثمانى دول لمناقشة النزاع وقد طالبت أثيوبيا عن طريق المنظمة بأن تسحب الصومال قواتها النظامية من الأوجادين ٠

١٩٧٧ : فشل المنظمة فى التوفيق بين أثيوبيا والصومال الا أنها تركت الباب مفتوحا للجهود الثنائية الدبلوماسية ، وبالفعل قام جوليوس نيريرى بزيارة أديس أبابا ومقابلة مانجستو ماريام الا أن نتائج زيارة نيريرى كانت سلبية ٠

١٩٧٧ : التحفظات على قوة الأمن الافريقية التابعة للمنظمة لأنها مشكلة أصلا من قوات فرنسية وبلجيكية ـ وفشل تشكيل قوة أفريقية خالصة ٠

١٩٧٨ : الخلافات تسود مؤتمر القمة الأفريقى الذى عقد بالخرطوم بشأن التدخل الأجنبى فى أفريقيا وصدور عدد من القرارات وفشل المنظمة فى استصدار قرار بمنع التدخل العسكرى الأجنبى فى أفريقيا ٠

القرن الافريقى والصراع العربى الاسرائيلى

موقف مصر والسعودية

دراســة ومقــارنة

بعد أن تتبعنا تطور المشكلة فى الفترة المعاصرة والتورط من جانب القوى الكبرى والاقليميه فى القرن الافريقى فسوف نحاول الان أن نلخص دور الدول العربية وخاصة مصر والسعودية ومدى عمق هذا التورط فى الفترة اللاحقة ـ وقبل التعرض لمواقف كل من مصر والسعودية ينبغى أن نلقى الضوء فى عجالة على موقف القوى العظمى : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ٠

لقد أصبح الاتحاد السوفيتى مفتاح بطولة مانجستو ٠ وقد التزم الاتحاد السوفيتى فى الواقع بالشىء الكثير تجاه اثيوبيا وبقدر كبير جدا ، بل أكبر مما يتوقع الجميع واكثر مما فعل فى حالتى الصومال واريتريا ٠ فى أوائل عام ١٩٧٠ وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن ضعفت علاقات الاتحاد السوفيتى بالصومال واريتريا ٠ ومع ذلك لم يغلق الاتحاد السوفيتى الباب نماما أمام أى منهما (أى الصومال واريتريا) ٠ هذا الى جانب مساعدة اليمن الجنوبى وليبيا لاتيوبيا ولكن مستوى التأييد والمساعدة يختلف فيما بينهما وعلى الرغم من عدم معرفة مدى المساعدة الجوهريه التى يقدمها اليمن الجنوبى فى صيف عام ١٩٧٨ الا أن الزعامة الجديدة فى اليمن الجنوبى تقدم تلك المســـــاعدة بلا تحفظ ٠ .أما طرابلس فمن الواضح أنها قد سعت للوصول الى حل وسط حول القضية الاريترية بل أيضا حول اقليم أوجادين ٠ وقد ساعدت اسرائيل انيوبيا أيضا ، ولكن تلك المساعدة قد قلت عقب انسحاب البعثة العسكرية الاستشارية الاسرائيلية الصغيرة فى أوائل عام ١٩٧٨ ٠

أما الولايات المتحدة فقد ظهرت كناقد شـديد لنظام حكم مانجســتو فى اثيوبيا ومع ذلك فلم تحاول أمريكا أن تربط نفسها بأى من مشكلتى الصومال أو أريتريا ولكنها ركزت اهتمامها على مسألة حقوق الانســـان فى أريتريا وعدم قمع الثورة ٠ وأما بالنسبة للصومال فقد وافقت الولايات المتحدة على تقديم معونه اقتصادية ومساعدة عسكرية دفاعية فى مقابل أن تتعهد الصومال بعدم استخدام قواتها المسلحة لخرق الحدود سواء تعلق الأمر بحدود كينيا أو أثيوبيا ٠

واذا كان هذا هو موقف كل من القوتين العظميين على الصعيد الدولى فى الفترة من ١٩٧٤ - ١٩٧٨ من أحداث النزاع الأثيوبى - الصومالى فان القوتين اللتين لهما تأثيرهما على الصعيد الاقليمى هما كل من مصر والسعودية وهو ما يقتضى وقفة لتفسير وتعليل مواقفهما من النزاع فى منطقة القرن الأفريقى ٠

١ - يمكن تفسير الموقف المصرى من النزاع فى منطقة القرن الأفريقى بعدة مبادىء صاغها الوفد المصرى فى مؤتمر وزراء خارجية منظمة الوحدة الأفريقية سنة ١٩٧٨ بالخرطوم من أن موقف مصر هو أدانة التدخل الأجنبى بكافة أشكاله وصوره وأنه لا بد من حل المنازعات بالطرق السلمية وأدانة أى وجود للمرتزقة وعدم طلب تدخل أى من المنظمات الدولية الأخرى فى المنازعات الأفريقية عموما غير أن هذه المبادىء التى عبر بها الوفد المصرى فى المؤتمر عن السياسة المصرية من أحداث منطقة القرن الأفريقى - كانت على مستوى الشعارات السياسية وربما تختلف على صعيد الهدف السياسى الذى ترسمه وتصنعه المبادىء الخاصة لصانعى القرار السياسى المصرى ، من ذلك على سبيل المنال التصورات والتوقعات المصرية لسلوك الاتحاد السوفيتى الذى يعتبره صانع القرار المصرى سلوكا عدائيا وما يترتب على ذلك من دائرة الاستجابات لهذه التصرفات العدائية من جانب السوفيت ومن وجهة نظر صانع القرار المصرى ٠

٢ - هناك أيضا الادراك المعين للفرق بين المساندة العربية والتدخل الأجنبى ويطرح هذا الادراك مسألتين أولاهما استحالة قيام تناقض حقيقى بين شعبين افريقيين لأن مصلحتهما هى بالضرورة مصلحة واحدة وان ما يبدو من تناقض بين هذه المصالح يرجع فى معظمه اما الى خطأ فى تصور المصلحة وأما الى عيب فى رسم صورة الأحداث ، وثانيهما المزج بين الأمن الوطنى وأمن النظام حيث يسود الاعتقاد لدى صانع القرار المصرى بأن الأمن الوطنى لدولة افريقية ما يصبح مهددا عندما يهدد أمن النظام لهذه الدولة وأن تهديد الأمن الوطنى لدولة ما فى افريقيا هو مدخل لتهديد الأمن القارى لافريقيا ، هناك أيضا ما يتعلق بمدلول الأمن الوطنى المصرى حيث يعتبر من صلب موضوع الأمن المصرى هو المشاركة فى استخدام مياه النيل وحماية مصالحها الأخرى الاستراتيجية والاقتصادية وهو ما جعل قضايا تلويح اثيوبيا باستخدام هذه الورقة ذات تأثير شديد على السياسة والمصالح المصرية ٠

٣ وفيما يتعلق بالنزاع الصومالى - الاثيوبى فالملاحظ أن مصر طوال

العقود الثلاثة الماضيــية تقريبا اختــارت موقفا توفيقيا يســعى للمصــالحة بين الأطراف المتنازعة ، غير أن موقف مصر قد اختلف منذ اندلاع الصراع المسلح فى أواخر عام ١٩٧٥ حيث انحازت لمبدأ حق تقرير المصير مفضلة اياه على مبدأ قدسية الحدود فى اطار الاعتقاد بالقدرة الصومالية على حسم النزاع من أجل العمل على اســتتباب الســلام فى المنطقة ، وعندما ظهر عجز القوة الصومالية على حسم النزاع اتجهت مصر — بعكس ما كانت تفعله ســابقا — الى مبدأ قدســية الحدود ، وكان لهذا الموقف ما يبرره وهو عدم اســتطاعة الأطراف المتصارعة لتحقيق ما يمكن تسميته بتسوية عادلة ٠

لقد كان الموقف المصرى طوال مراحل الصراع مؤيدا للجانب الصومالى اســتنادا الى الاعتبارات المتعلقة بالمبادىء الخاصــة لصــانع القرار ودفع هذا الموقف بكثير من التصــورات حول المســاندة العســكرية المصرية للصــومال فى مواجهة اثيوبيا ، غير أنه قد صدر فى ١١ فبراير ١٩٧٨ بيان رسمى مصرى يوضح المبادىء الأساسية المصرية ومنها أن مصر ليست لها قوات فى الصومال ولكنها على استعداد دائم لمســاعدتها للدفاع عن حقوقها المشروعة وحدودها الدولية ، كما أن مصر مستعدة للمساعدة فى عملية الوصول الى حل سلمى بين الأطراف المتنازعة وهى لا توافق على مبدأ احتلال الأراضى بالقوة وتوافق على حتمية حق الأقاليم المتنازع عليها فى تقرير مصيرها ٠

ومن ذلك يتضح أن مصر قد اتخذت موقفا وسطا بهدف المحافظة على الحدود الصومالية الدولية ، وأن منطق الأمن القومى المصرى قد اعتبر بمثابة مبدأ استراتيجى ، وفى هذا الاطار قام وزير الدفاع المصرى بزيارة الصومال فى أغسطس ١٩٧٨ وكان ذلك بمثابة اعطاء مؤشر على أن الاستراتيجية المصرية أصبحت لديها تصورات ثابتة عن موضوعات أمنية تشكل سلسلة متصــلة الحلقات : أمن البحر الأحمر ، أمن وادى النيل ، أمن منظمة الوحدة الأفريقية، وأمن الطرق البحرية للبترول حول افريقيا وأخيرا تأمين استقرار النظم القائمة من ناحية والابتعاد من ناحية أخرى عن النزاعات والصراعات الدولية ٠

٤ — أما تفســير الموقف الســعودى من النزاع الصــومالى — الأثيوبى فيمكن رده هو الآخر الى اعتبارات الأمن القومى السعودى كما تفرضه ظروف الواقع الموضوعية ليس فى القرن الأفريقى فقط وانما فى منطقة الخليج العربى برمتها ، وتنطلق السياسة السعودية طبقا لهذه الاعتبارات فى ثلاثة أهداف أولها : توفير الاستقرار لنظم الحكم المعتدلة فى منطقة الخليج وذلك بمحاربة الحركات التى تهدف الى قلب هذه النظم وابعاد التيار الشيوعى عن المنطقة ،

والهدف الثانى للسياسة الخارجية السعودية هو أن السعودية تعتبر نفسها احدى دول المنطقة المؤثرة والتى لها مصالحها وتحركاتها على أسس العلاقات الدولية من ناحية والدفاع عن الاسلام ونشره باعتباره أساس الحكم الداخلى من ناحية أخرى وهى تسعى بكل الوسائل من أجل تحقيق الاستقرار فى المنطقة .

٥ - يتسق هذا الموقف السعودى مع السياسة الأمريكية التى تؤيد هى الأخرى ضرورة استقرار الأوضاع فى الخليج ولكن لأسباب مختلفة من أهمها الرغبة فى عدم المساس بمصالح الغرب ، كما أن الولايات المتحدة تستجيب بصورة أو بأخرى لتطلعات الطبقة السعودية الوسطى الصاعدة ذات التعليم والميول الغربية والتى سترث السلطة وتلقى عليها المسئولية فى الحكم فى المستقبل القريب ، كذلك فان الأرصدة المالية السعودية معظمها يعمل فى البنوك الأجنبية ، ومن ناحية ثالثة فان الثروة البترولية السعودية لها اثر كبير فى خلق دور هام ونشط للسياسة الخارجية السعودية ، فالمعونات والقروض المالية هى أحد الأدوات الهامة فى تنفيذ السياسة السعودية على الصعيد الاقليمى المحيط بها ، وهو ما يؤثر على منطقة القرن الافريقى بالطبع كما أن الأمن السعودى فى الخليج العربى يتأثر هو الآخر بأحداث القرن الأفريقى ، ومع اشتداد المعارك العسكرية فى صيف عام ٩١٧٧ فقد كيفت السعودية هذه الاوضاع بما يتواءم ومصلحتها الوطنية واعتبرت أن هذا التصاعد فى الأخطار يؤثر سلبيا على الاستقرار فى الخليج ويمثل تهديدا شيوعيا ضد دولة عربية اسلامية هى الصومال وحركة تحرر اسلامية فى أريتريا من ناحية أخرى كما أنه يهدد من ناحية ثالثة منابع البترول وطرقه فى البحر الأحمر ، وقد ظهر التخوف السعودى هذا بعد الوجود السوفيتى المكثف فى باب المندب وتم النظر للصراع بين اثيوبيا واريتريا على أنه صراع يتعلق بالاستراتيجية العربية فى البحر الاحمر ، فاريتريا بسواحلها الممتدة على البحر الأحمر وتحكمها فى أرخبيل دهلك وجزرها المتناثرة فى مياه البحر الأحمر الذى هو طريق خروج البترول من الخليج العربى الى دول أوروبا الغربية ، وتستند السعودية الى العلاقات القديمة بين شعب الجزيرة العربية وشعوب منطقة القرن الافريقى ذات الأصول العربية والتى لعب الاسلام دورا جوهريا فى تكوينها ، وبالتالى فان نظما سياسية معتدلة وموالية للسعودية هو أمر ضرورى وهدف من أهداف السياسة الخارجية السعودية لتحقيق حد كبير من الاستقرار لنظم الحكم القائمة فى الخليج وابعاد شبح الثورات والحركات العنيفة التى يمكن أن تطيح أو حتى تؤثر على الوحدة والتجانس المطلوبين .

٦ - يرجع التصور السعودى لخطورة الأوضاع فى منطقة القرن الأفريقى الى ما يجرى حاليا على سواحل البحر الأحمر حول ميناء ينبع من محاولة خليجية عربية - وسعودية أيضا - لتحويل مسار نقل البترول لدول الخليج العربية والسعودية من مضيق هرمز فى الخليج الى ينبع على البحر الاحمر ، وهذا الاقتراح يعكس التخوف السعودى من تصاعد السيطرة غير العربية على مضيق هرمز نظرا لحساسية الوضع فى المنطقة .

هناك أيضا التخوف السعودى من الوجود الاسرائيلى فى منطقة باب المندب وفى بعض دول القرن الافريقى ذاتها مثل اثيوبيا حيث ثبت أن اسرائيل قدمت مساعدات عسكريه لاثيوبيا وكانت التقارير تشير أيضا الى وجود بعض الوحدات البحرية الاسرائيليه فى جزر مضيق باب المندب وقد بات الخطر الاسرائيلى يشكل تهديدا متزايدا على السعودية وخاصة بعد دورها الملحوظ فى حل النزاع العربى - الاسرائلى وفى ضوء ذلك تزايدت القوة العسكرية الجويه للسعوديه بالاضافة الى الاسلحة وقامت السعودية بانشاء قاعدة عسكريه فى تبوك بالقرب من اسرائيل .

٧ - يعيد هذا الموقف السعودى للاذهان دور المملكة العربيهالسعودية فى حرب اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) ماليا وعسكريا لتأمين حدودها ، اى ان هذه ليست هى المرة الاولى التى تقوم فيها السعودية بدور خارجى لتأمين استقرار المنطقه . غير ان المحاولة الجديدة هى الآن خارج الجزيرة العربية ، وفى منطقة القرن الافريقى التى لها طبيعتها الخاصه لانها تعكس دور السعودية فى الدور السعودى المتصاعد فى الشرق الاوسط بصفة خاصة ومن ثم فهى اختبار لقوة هذا الدور . وفى هذا الاطار قدمت السعودية أنواعا مختلفة من الدعم السياسى والمالى للصومال واريتريا . والملاحظ عدم استخدام الأداة العسكرية فى تنفيذ الاهداف السعودية فى القرن الافريقى لأسباب بعضها عام يعود الى انه قلما تستخدم السعودية التلويح بالسلاح فى سياستها الخارجيه ، وبعض هذه الاسباب خاص يتعلق بامكانية استخدام القوة المسلحة السعودية فى صراع عسكرى على غرار ما هو كائن فى القرن الأفريقى ، فالقوة العسكريه السعودية لم تصل حتى الآن الى القدر الذى يجعل الدولة تستخدمها على الصعيد الاقليمى وخاصة فى صراع القرن الأفريقى الذى يتطلب قدرا مكثفا من السلاح بأنواعه المختلفة ، وتأسيسا على ذلك فقد اتبعت السعودية استخدام المساعدات المالية والجهود الدبلوماسية فى اطار الوساطة بين ثوار اريتريا وأثيوبيا سواء على المستوى الرسمى أو فى اطار السرية وانعكس ذلك على الدعم المالى للدول الأفريقية عموما فى اطار المؤسسات المالية

المشتركة التى أنشئت لهذا الغرض ومثال ذلك البنك السـعودى للتنمية الاقتصادية العربية والنفقات الخاصة بتغطية شراء الأسلحة والمعدات بالنسبة للأطراف العربية فى صراع القرن الأفريقى ٠

٨ ـ هناك أيضا التخوف السعودى من الوجود الاسرائيلى فى منطقة باب المندب وفى بعض دول وأقاليم القرن الأفريقى متل أثيوبيا حيث قدمت اسرائيل مساعدات عسكرية لأثيوبيا ، وقد أشار المراقبون الى وجود بعض الوحدات البحرية الاسرائيلية فى جزر مضيق باب المندب ، وقد أصبح الخطر الاسرائيلى يمثل تهديدا متزايدا على السـعودية وخاصة بعد دورها الملموس فى ايجاد حل للصراع العربى الاسرائيلى ٠

والخلاصة أنه وفيما يتعلق بمصر والسعودية ـ فقد كانتا من أوائل المؤيدين لكل من الصـومال وأريتريا أما بقيـة الدول العربية فقـد تفاوتت مواقفها على النحو التالى فعلى الرغم من نهج السـودان نفس النهج المصرى السعودى لفترة ما ، الا أنها تراجعت عن هذا النهج واتخذت موقف الاعتدال بين الطرفين ، هذا الى جانب مساعدة العراق وسوريا واليمن الشمالى والكويت ودول الخليج للصومال وأريتريا ، الا أنها كانت أقل تركيز عمـا كانت تقدمه مصر والسعودية ٠ هذا بالاضافة الى تحيز بعض هذه الدول الى جانب أريتريا أكثر من تحيزها للصومال ٠ كما قدمت الجزائر وتونس تأييدا معنويا لحركة تحرير أريتريا فى حين قدمت المغرب مساعدة هامشية للصومال ٠ ويجب أن نضع فى الاعتبار أن الدول العربية برمتها لم تقدم سوى كميات أو مقادير محدودة من المساندة سواء للاريتريين أو الصوماليين ٠

تأثير القرن الأفريقى
على الصراع العربى الاسرائيلى

١ ـ الفعل ورد الفعل :

استأثرت منطقة القرن الأفريقى باهتمام الدبلوماسية الاسرائيلية خاصة منذ أواخر الخمسينيات . فقبل ذلك حالت عقبات عديدة دون اتخاذ الجهود الاسرائيلية شكلا جديا واضحا فمعظم دول القارة كانت واقعة تحت سيطرة الاستعمار المباشر للدول الغربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ، وبعد حملة سيناء عام ١٩٥٦ وما أدت اليه من وجود صلات جغرافية مباشرة بين اسرائيل والدول الأفريقية عن طريق البحر الأحمرواستيلاء اسرائيل على مواقع فى خليج العقبة . ومنذ ذلك الحين والأهداف الاسرائيلية تتبلور تجاه أفريقيا عموما فى اطار ثلاثة اتجاهات . سياسيا حيث سعت اسرائيل لكسر الحصار العربى حولها وتدعيم وضعها الدولى واكتساب تأييد الرأى العام ومحاولات اسرائيل فى استغلال وجودها فى قارة أفريقيا بغرض قبول عربى بها ، أما الاتجاه الثانى فهو اقتصادى تمثل فى فتح الأسواق الأفريقية أمام الاقتصاد الاسرائيلى ما دامت قد عجزت عن التغلغل فى الأسواق العربية فضلا عن سعى اسرائيل لاستيراد المواد الخام الرخيصة الثمن والسهلة النقل عبر البحر الأحمر ، وتمثل الاتجاه الثالث فى الأهمية الاستراتيجية لمنطقة القرن الأفريقى لاسرائيل فهى من خلال خلق وجود قوى راسخ لها فى هذه المنطقة تستطيع تحقيق هدفين أساسيين هما أن النفاذ الى هذه المنطقة التى تعتبر بمثابة موقع استراتيجى للدول العربيةسوف يسبب متاعب للعرب ويشتت جهودهم، والهدف الثانى يكمن فى تحقيق وجود عسكرى فعال فى البحر الأحمر نظرا لأهميته الحيوية للأمن الاسرائيلى .

وهكذا اعتبرت منطقة القرن الأفريقى بمثابة ميدان أساسى للمواجهة الاسرائيلية العربية غير المباشرة وهو ما جعل اسرائيل تمارس دورا نشطا فى المنطقة . وقد تمكنت الدبلوماسية الاسرائيلية خلال سنوات قصيرة من خلق روابط حقيقية مع غالبية الدول الأفريقية واحتل القرن الأفريقى موقع الصدارة ـ باستثناء الصومال والسودان فقد أسهمت اسرائيل فى مجالات النشاط الاقتصادى فى كينيا وأوغندا وتنزانيا بالاضافة الى علاقاتها الحيوية مع اثيوبيا

وحتى مع قطع الدول الأفريقية علاقاتها مع اسرائيل بعد عام ١٩٧٣ فقد استمرت العلاقات الاسرائيلية الكينية والاثيوبية في النمو والتصاعد ٠

وفيما يتعلق بأثيوبيا بصفة خاصة فان اسرائيل وجدت فيها حليفا استراتيجيا يجب المحافظة عليه بأى ثمن وفي ظل أى ظرف ولعل العنصر الأساسى في الاختيار الأثيوبى بالنسبة لاسرائيل هو ما وجدته هذه الأخيرة من عناصر تجعل من اثيوبيا أكثر دول المنطقة عداءا للعرب ، فأثيوبيا هى الدولة الوحيدة غير الاسلامية التى تطل على البحر الاحمر ومن ثم فان خلق علاقة خاصة وقوية معها يشكل الضمان الوحيد دون تحول البحر الأحمر الى بحيرة عربيه تهدد النفوذ الاسرائيلي ٠ ومن ناحية أخرى فان الحركة التحررية فى اريتريا والتى تخوض منذ سنين طويلة حربا مسلحة ضد اثيوبيا تشكل تهديدا مباشرا على التحالف الأثيوبى الاسرائيلى ، والعوامل السابقة مجتمعة تفسر لماذا تحتل اثيوبيا مكان الصدارة فى اهتمام الدبلوماسية الاسرائيلية انعكست على التطور السريع فى العلاقات بين البلدين فنشأت عدة مشروعات مشتركة بينهما كما حدث تعاون فى مجالات التجارة والمشروعات الزراعية والتعاونية والتدريب غير أن الميدان الأكثر أهمية هو التنسيق بين اثيوبيا واسرائيل تجاه ثوار اريتريا حيث أقامت اسرائيل مراكز للتدريب على مقاومة حرب العصابات فى اثيوبيا كما قامت بتدريب كثير من الكوادر العسكرية فى أراضيها ، وكانت تزود اثيوبيا أيضا بكميات كبيرة من الأسلحة الخفيفة ثم انتقلت الى مرحلة تالية من التعاون بوجود عسكرى حقيقى فى المنطقة منذ عام ١٩٧١ حين قام بارليف رئيس الأركان الاسرائيلى وقتئذ بزيارة سرية لأثيوبيا أجرى خلالها محادثات عسكرية وعرض تزويد اثيوبيا بشبكة رادار تقام على شواطىء اريتريا لمراقبة عمليات تهريب السلاح للثوار وأيضا تزويد البحرية الأثيوبية بعدد من زوارق الطوربيد والصواريخ على أن يقوم ضباط وجنود اسرائيليون بتشغيل محطات الرادار والزوارق لحين اتمام تدريب الأثيوبيين عليها ٠

والملاحظ أن قطع العلاقات الدبلوماسية بين اثيوبيا واسرائيل عام ١٩٧٣ لم يؤثر كثيرا فى الروابط بين البلدين غير أن الأمر الذى أثار الدهشة هو استمرار هذه العلاقات بعد تحويل اثيوبيا من التحالف مع الغرب الى علاقة وثيقة بالاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية ٠ وقد قدمت تفسيرات مختلفة لهذا الموقف منها أن ذلك قد تم بالتنسيق مع الولايات المتحدة وذلك بهدف جمع المعلومات عما يحدث فى اثيوبيا وكذلك فان الحيلولة دون نجاح الثورة الاريترية تحتل قمة الأولويات فى المنطقة ٠ فهى تفضل اثيوبيا موالية

للسوفيت ولكنها تسيطر على اريتريا على اثيوبيا باعتبارها موالية للغرب، ولكنها تفقد السيطرة على منفذها الوحيد على البحر الأحمر ، كذلك يسود الاسرائيليين الشعور بأن التحالف الأثيوبي مع الكتلة الشرقية لن يدوم طويلا ، ولعل ذلك يفسر ما ذكرته بعض المصادر من أن اسرائيل حاولت اقناع الادارة الامريكية خلال عام ١٩٧٧ بوجود رغبة اثيوبية فى جعل الأبواب غير مغلقة أمام العلاقات الأثيوبية الأمريكية غير أن تأثير الثورة الأثيوبية على الصراع العربى الاسرائيلى عموما يحتاج الى وقفة خاصة لشرح وجهات النظر المتباينه والمتصارعة أيضا على الصعيد الاقليمى .

٢ - الثورة الأثيوبية والصراع العربى الاسرائيلى :

فاذا رجعنا الى الصورة الأكبر نلاحظ أن نمط التورط فى القرن الأفريقى وظروف الصراع العربى الاسرائيلى ، كل ذلك قد أكد بشكل عام أن توازى القوى فى الشرق الأوسط قد سار على النحو التالى : وجود الدول العربية والاتحاد السوفيتى فى جانب ثم الولايات المتحدة مع اسرائيل فى الجانب الآخر ، وبالرغم من ذلك فان تورط الكثيرين كان تورطا نسبيا ، بل انه قل عن سابقه ، فمثلا نجد أن دور الدول العربية المحافظة لا زال متواضعا . ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الدول العربية التقدمية مثل الجزائر وسوريا ، وبعد فترة الاهتمام الأولية بتطورات القرن الأفريقى خلال الستينات نجد أن مصر قد ركزت على المشاكل الملحة عن ذلك ، كذلك تجدر الاشارة الى مساهمة كل من العراق والسودان وليبيا واليمن الجنوبى فى المشكلة ، والذى يثير الدهشة أن الاتحاد السوفيتى بصفته وصيا على الدول العربية وقتئذ كان هو الطرف الأكثر تورطا فى منطقة القرن الأفريقى ، وعلى الجانب الآخر نلاحظ أن الولايات المتحدة كانت تقلل من التزاماتها تجاه منطقة القرن الأفريقى ، أما اسرائيل - وعلى العكس من أمريكا - فقد كان لها تأثير على اثيوبيا على الرغم من الآثار الوخيمة لحرب ١٩٧٣ وتأثيرها على الأوضاع الجيوبولتيكية الشاملة ، بل أن مطالب كل من اسرائيل واثيوبيا متوافقة وخاصة تجاه البحر الأحمر وكانت هذه المطالب قد بدأت تلتقى وتتطابق منذ أن ظهرت الدعوة الى جعل البحر الأحمر بحيرة عربية كجزء من استراتيجية عربية لوقف نشاط اسرائيل فى البحر الأحمر (١) ، حينئذ بات واضحا

---

(١) David E. Elbright. The Horn of Africa and the Arab Israeli Confliction : World Politics and the Arab Israeli Cnoflict Edited by Robert O. Freedman, Pergamon Press, New York 1979 pp. 147 - 177.

لدى كل من اسرائيل واثيوبيا ـ وهما الدولتان الوحيدتان فى البحر الأحمر غير العربيتين ـ أن هذه الدعوة تمثل تهديدا مباشرا لمصالحهما القومية ٠

أما بالنسبة لاسرائيل ، فهى من أن ساحلها لا يزيد طوله على سبعة أميالا الا أنها ترتبط بالبحر الأحمر ارتباطا قويا وذلك لأنه يمثل بالنسبة لها منفذا تتنفس من خلاله باعتبارها دولة محاصرة تماما ، خاصة وأن مسألة فرض حصار بحرى جزئى أو كلى على منفذها الجنوبى على البحر الأحمر يشكل فى نظر صانع القرار الاسرائيلى ، حالة ترقى الى مستوى التهديد بالحرب ، فالبحر الأحمر بالنسبة لاسرائيل ، يعنى امكانية القفز فوق سور الحصار العربى السياسى ٠ والوصول الى أفريقيا وآسيا لتحقيق التوازن الدبلوماسى ٠ والوصول الى الأسواق الأفروآسيوية ومصادر المواد الخام ، وبالطبع فان اسرائيل بعد سيطرتها على مضايق تيران ، وبعد السماح لها بالمرور عبر قناة السويس (٢) ، أصبحت مشكلة اسرائيل الرئيسية بالنسبة للبحر الأحمر تنحصر فى مضيق باب المندب باعتباره البوابة الرئيسية لطريق البحر الأحمر ٠

أما اثيوبيا ، فان البحر الأحمر بالنسبة لها هو المنفذ الوحيد الذى يربطها بالعالم الخارجى ، ويتمثل هذا المنفذ البحرى ـ كما سبق ايضاح ذلك ـ فى موانى ساحل اريتريا متمثلة فى مصوع وعصب ، ويكمن الخطر الذى يتهدد اثيوبيا فى مطالبة السكان الذين يستقرون على هذا الساحل ، باستقلالهم ويعنى انفصال الاقليم الساحلى عن جسم دولة اثيوبيا ، أن تعود هذه الدولة ، فوق هضبة الحبشة ، بعيدا عن العالم الخارجى كدولة مغلقة داخلية ٠ وتلتقى مصالح اسرائيل بمصالح اثيوبيا حين يصبح العرب هم العدو المشترك لكل منهما ، فالعرب فى صراع تقليدى مع اسرائيل حول فلسطين ،

— Legum, G. The Middle East and the Horn of Africa : in International politics in the Red Sea area- "Middle Contemporary Survey, 1976-1977" N.Y. London, p. 57.

(٢) راجع : محمود توفيق ـ الجغرافيا السياسية لاسرائيل ـ القاهرة ٠ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٧ ص ص ١٧٥ ـ ١٨٠ وحول علاقات اثيوبيا بالقوى الخارجية قبل عام ١٩٧٤ راجع :

— Bell, The Horn of Africa Strategic Magnet in the Seventies, op. cit.

— John, F, Rumblings along the Red Sea : The Eritrean Question in; Foreign Affairs Vol. 48, No. 3, April, 1970, pp. 537-548.

والعرب أيضا هم الذين يساندون الشعب الاريترى فى قضيته بحكم صلة الدم واللغة والدين وكجزء من الدعوة الى جعل البحر الأحمر بحيرة عربية خالصة ·

وقد اتخذ التلاقى الاستراتيجى بين اسرائيل واثيوبيا صورا مختلفة من التنسيق والتعاون ، فانفصال أريتريا وتوجهها صوب العرب يعنى احكام العرب قبضتهم على مضيق باب المندب ، لذلك تقوم اسرائيل بدعم اثيوبيا فى مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية ـ خاصة بعد توقف شحنات السلاح الأمريكية لأثيوبيا منذ أبريل ١٩٧٧ · وفى مقابل ذلك حصلت اسرائيل على امتيازات استراتيجية واضحة ، شملت استخدام موانى اريتريا مع الدول الداخلية مثل الكنغو وأفريقيا الوسطى وجنوب السودان ، وانشاء قواعد عسكرية بحرية فى جزيرتى فاطمة وحالب ، بالاضافة الى قاعدتين جويتين فى شمال غرب اريتريا · على الحدود السودانية مباشرة بحيث تتمكن الطائرات الاسرائيلية من الانطلاق منها مباشرة الى اسرائيل · كما تستخدم اسرائيل جزيرة « دوميرا » فى المراقبة والاستطلاع · اذ تقع هذه الجزيرة ، على بعد لا يزيد على ٢٠ ميلا من جزيرة بريم ، بالاضافة الى ذلك ، قامت اسرائيل بالاستيلاء على جزيرة ذقر اليمنية التى تقع فى مدخل باب المندب وأقامت بها محطة للاتصالات ·

ومن الثابت ان موقع اريتريا ذا الثقل الاستراتيجى أدى الى تعقيد المواقف الجيوبوليتكية فى جنوب البحر الأحمر ، ذلك ان موقع اريتريا الاستراتيجى الحاكم قد جعل مصالح ومواقف اسرائيل ـ وهى الحليف الأمريكى القوى ـ تتفق ومواقف كل من الاتحاد السوفيتى وكوبا ازاء أديس أبابا · كما أن موقع اريتريا الهام بالنسبة للولايات المتحدة أجبر واشنطن على التمسك باثيوبيا رغم تحولها اليسارى ورغم اتخاذ موقف معاد صريح منها ، فضلا عن عدم تلبية الولايات المتحدة لطلبات الصومال من الأسلحة الهجومية · أما فيما يتعلق باتفاق موقف كل من اليمن الجنوبية وليبيا من أديس أبابا مع موقف موسكو (٣) وتل أبيب فقد سبق ايضاح ذلك تفصيلا،ولكن من الأهمية

---

(٣) راجع فى تفصيل موقف الاتحاد السوفيتى من افريقيا عموما :
Colin Legum, "The U.S.S.R and Africa, The African Environment," Problems of Communism, Vol XXVII, no. 1 (January - February 1978) pp. 5 - 9.

ايضاح أن الاتحاد السوفيتي لكى يحقق سيطرته على المحيط الهندى - لأن ذلك يدعم وجوده بالقرب من نقـط الاختناق الاسـتراتيجية التى تكتنف النطاق المائى (٤) ومنها باب المندب ، وواضح أن البحر الأحمر له أهمية خاصة كخانق استراتيجى (٥) طويل تكتنفه نقط اختناق رئيسية ، تتمثل فى قناة السويس وباب المندب • ومن هنا جاء حرص الاتحاد السوفيتي على ضرورة توطيد أقدامه بالقرب من هذه الممرات الاستراتيجية ، وقد نجح الاتحاد السوفيتي فى استغلال الصراع العربى - الاسرائيلى لتدعيم وجوده فى مصر التى تتحكم فى قناة السويس • وبالرغم من تراجع النفوذ السوفيتي حاليا عن مصر وتدهور العلاقات بينهما بعد جنوح مصر نجاه الغرب ، الا أن الاتحاد السوفيتي حريص على استمرار العلاقات مع مصر ، لضمان استخدامه لقناة السويس ، وموقف الاتحاد السـوفيتي من مصر يذكرنا على الفور بموقف الولايات المتحـدة من أثيوبيا تجاه اليسـار • أما بالنسـبة للمدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، فان الاتحاد السـوفيتي استطاع أن يشـغل الفراغ الذى تركه البريطانيون فى عدن ، وتحويلها الى قاعدة سوفيتية رئيسية فى المنطقة ، وأمند نشـاط الاتحاد السوفيتي بعد ذلك الى الساحل الجنوبى لخليج عدن ، حينما عقدت معاهدة صداقة وتعاون مع الصـومال عام ١٩٧٤ مسـتغلا فى ذلك حاجتها الى الدعم العسكرى فى صراعها مع اثيوبيا حول اقليم أوجادين ، وقد استطاع الاتحاد السوفيتي ، من خلال هذه الصداقة أن يقيم قاعدة بحرية فى بربرة مع حصوله على تسهيلات بحرية وجوية فى مقديشيو العاصمة •

وبمجىء نظام يسارى فى أديس أبابا عام ١٩٧٤ أكتمل للسوفيت تحقيق السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وبناء حائط يسارى يتكون من عدن ومقديشيو وأديس أبابا • وقد حاول السوفيت تدعيم هذا الحائط باعطائه شكل تحالف اشتراكى اقليمى فيما يسمى بالسلام السوفيتي ، غير أن الجانب الصومالى سرعان ما سقط من هذا الحائط ، بعد اكتشاف حقيقة الدور المزدوج الذى قام به السوفيت فى المنطقة وكان السـودان هو صاحب الدور الأكبر فى ذلك حينما اكتشف وجود ثغرة متعمدة فى شـبكة الرادار التى أقامها السوفيت فى الصومال • وهذه الثغرة أتاحت لطائرات النقل السـوفيتية

---

(٤) ومن نقاط الاختناق الاستراتيجية أيضا المضايق التركية - قناة السويس - مضيق ملقا ثم باب المندب •

(٥) راجع : محمود توفيق محمود ، البحر الأحمر فى الاستراتيجية الدولية فى السياسة الدولية - العدد ٥٧ يوليو ١٩٧٩ ص ص ٢٤ - ٤١ نقلا :
Legum, G. op. cit. pp 2-9.

فى التحليق فى الأجواء الســودانية محملة بالســلاح والذخيرة من ليبيا الى اثيوبيا وفقا لمعاهدة سرية بين أديس أبابا وموسكو ، أى أن السوفيت هم الذين قاموا بتزويد أثيوبيا بالأسـلحة والخبراء فى حربها مع الصـومال ، ومن الثابت أن سقوط الصومال من التحالف السوفيتى قد أضعف سيطرة السوفيت على هذه المنطقة الاسـتراتيجية ، ومن الثابت أيضـا أنه لو كان للاتحاد السوفيتى أن يختار بين الصومال وأثيوبيا فانه سيختار حتما أثيوبيا لأنها تفضل الصومال كموقع استراتيجى حاكم بالنسبة لمضيق باب المندب ٠

كذلك تجدر الاشارة الى أن السوفيت يحتفظون حاليا بعدد من القواعد العسكرية التى تقوم على خدمة أهدافه ومصالحه فى المنطقة ولعل أهم هذه القواعد ، هى تلك التى يحتفظ بها فى اليمن الجنوبية ٠ والتى تتمثل فى قاعدة (بين الجبلين) الجوية ، وقاعدة (التواهى) البحرية ٠ كما يستخدم السوفيت عددا من المطارات الحربية الفرعية فى جزيرة سوقطرة ، التى تعتبر المحافظة السادسة من محافظات اليمن الجنوبية ، وتحتفظ كوبا أيضا بقاعدة عسكرية تضم مطارا حربيا ومركزا لتدريب القوات الخاصة بمنطقة يافع السفلى بالرميله كما تردد مؤخرا أن السوفيت قد استأجروا احدى جزر أرخبيل دهلك أمام سواحل اريتريا وأقام بها قاعدة بحرية ٠

ولكى نقيم الاعتبارات السابقة على الصراع العربى الاسرائيلى يجب أن نضع فى الاعتبار الموازنات بين العلاقات السائدة حاليا فى الشرق الأوسط ، ويمكن ملاحظة أن العلاقات الدولية فى الشرق قد تغيرت بشكل درامى منذ عام ١٩٧٠ ، ولا زالت الولايات المتحدة هى الحليف الرئيسى والوحيد لاسرائيل فى المنطقة ولكن واشنطن بدأت فى تبنى سياسة تحسين العلاقات مع مصر والسودان والسعودية والأردن ودول الخليج وتونس والمغرب ، وقد أدى هذا التطور الى نشأة بعض التوترات بين تل أبيب وواشنطن ٠

ويمكن أيضا ملاحظة أن الدول العربية لم تعد تعمل بشكل جماعى مثلما حدث خلال حرب ١٩٧٣ والفترة التى تلتها مباشرة ٠ فقد شنت مصر حملة دبلوماسية لايجاد تسوية للصراع العربى ـ الاسرائيلى ٠ ومع تفاوت درجات حماس الدول العربية فقد أختلفت ردود الفعل فى السودان والسعودية ودول الخليج وتونس والمغرب أما الأردن فعلى الرغم من تعـاطفها مع هذه المجازفة فانها لم ترغب فى أن تربط نفسها بها الا اذا حصلت على تأكيدات بنجاحها ٠ أما سوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن الجنوبى وبالطبع منظمة التحرير الفلسطينية فقد كانت ضد المبادرة المصرية ، هذا مع تفاوت شدة المعارضة

فى كل منها ، أضف الى ذلك أن الشقاق بين طرفى حزب البعث فى سوريا والعراق جعل من المستحيل تنسيق العمل بينهما لتحدى المبادرة · ولبنان أيضا رفضت المبادرة المصرية غير أن فرصتها فى الاختيار محدودة نظرا لاحتلال القوات السورية للأراضى اللبنانية منذ اندلاع الحرب الأهلية فيها فى منتصف عام ١٩٧٠ ، وأخيرا فقد أيد الاتحاد السوفيتى بشدة موقف الرافضين ·

الآثار المحتملة للقرن الأفريقى على الشرق الأوسط

ان ظروف القرن الافريقى يمكن أن تؤثر بالطبع على الشرق الأوسط بصور عديدة وبشرط اذا لم تتغير مستويات التورط والانحياز فى المنطقتين فى المستقبل القريب •

أولا : فلقد نجح الاتحاد السوفيتى بالفعل فى تقوية القوات الأثيوبية كما أنه أرغم الصومال على الانسحاب من أوجادين خاصة فى مواجهة ادانة الولايات المتحدة للوجود العسكرى السوفيتى والكوبى الأمر الذى قد يجعل موسكو تتجرأ على اختيار ما تتمتع به الولايات المتحدة من نفوذ فى الشرق الأوسط • وأن هذا النوع من « جس النبض » قد يشتمل على استخدام المواجهة المسلحة مما قد يترتب عليه تصعيد عسكرى • ومثل هذا التحدى لا يبدو محتملا على الاطلاق ، اذ يتطلب تصعيده أن يجد الاتحاد السوفيتى شريكا عربيا مناسبا ، ومع ان منظمة التحرير الفلسطينية قد تستطيع أن تلعب دورا فى ذلك الا أنها ليست كافية بمفردها • كما أن دول المواجهة العربية لا تستطيع فى الوقت الحالى أن تقامر بالدخول فى صراع مسلح مع اسرائيل • ولقد أدركت موسكو ان واشنطن قد أصبحت لها اهتمامات مصالح أكبر فى الشرق الأوسط أكثر من اهتمامها بمصالحها فى أثيوبيا ، وعلى ضوء التوترات الزائدة فى العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية بسبب التدخل العسكرى السوفيتى ـ الكوبى فى أثيوبيا فان أى مقامرة عسكرية فى الشرق الأوسط قد تطيح بجميع فرص التصديق على معاهدة سولت الثانية الى جانب المشروعات السوفيتية ذات الأولوية •

ثانيا : من الممكن أن يضع الوجود السوفيتى فى أثيوبيا أسفينا بين الاتحاد السوفيتى وبعض الدول العربية والتى تتخذ موقف « الرفض » وتمثل سوريا والعراق النموذجين الأساسيين لذلك ، ومما اذا كان فى الامكان أيضا أن تكون اليمن الجنوبية الى جانب سوريا والعراق (١) ، أن مثل هذا

---

(١) ان هذا التساؤل لا يزال يفرض نفسه بشدة وخاصة من خلال التطورات السياسة الخطيرة التى شهدتها اليمن الجنوبية فى الفترة الماضية فقبل الاطاحة بحكم سالم ربيع على فى أواخر يونيو ١٩٧٨ كان من الممكن أن تكون اليمن الجنوبى فى جانب سوريا والعراق ولكن القيادة التى أعقبت ذلك والتى أيدت أثيوبيا قد استبدلت هذا الاحتمال . وهذه القيادة الجديدة قد تغيرت هى الأخرى مؤخرا ولا زال السؤال السابق معروضا •

التطور قد يكون له تأثيرين ، فمن ناحية قد يؤدى الى ابعاد دمشق وبغداد عن موسكو ، ومن ناحية أخرى فان ذلك قد يقلل من موقفهم الرافض كما يقلل من اعتراضاتهم على الجهود الأمريكية لتسهيل حل الصراع العربى — الاسرائيلى .

ومن الثابت ان أحداث عام ١٩٧٨ قد أوضحت عدم احتمال قيام التأثير سالف الذكر ، ففى هذه الفترة نلاحظ ان سياسة السوفيت فى أثيوبيا قد ساهمت فى تدهور العلاقات السوفيتية مع العراق . ولم يحل ذلك دون تأكيد معاهدة الصداقة والتعاون بينهما .

ثالثا : من الممكن أن تزيد الصلة بين اسرائيل وأثيوبيا من حدة التوتر بين تل أبيب وواشنطن ، وهذه التوترات قد تفوق التقدم نحو تسوية الصراع العربى وذلك بأن تقل ثقة اسرائيل فى الالتزامات الأمريكية .

ويعيد هذا للأذهان ما تركه الماضى القريب من شك خطير حول تطور العلاقات الاسرائيلية — الاثيوبية ، فالتعاون الاسرائيلى — الأثيوبى لم يسفر عن مشاكل ملحوظة بين اسرائيل والولايات المتحدة حتى بعد أن قطعت هذه الأخيرة علاقاتها مع أثيوبيا فى أبريل ١٩٧٧ وعلاوة على ذلك فان انسحاب المستشارين الاسرائيليين من أثيوبيا فى فبراير ١٩٧٨ جعل التعاون بين البلدين يهبط بدرجة كبيرة ، وقد أصبحت العلاقات الاسرائيلية — الأثيوبية تمر بمنحنى هابط ، بل ان وصلت الى أدنى درجاتها وأصبحت لا تشكل خطورة على العلاقات الاسرائيلية — الأمريكية .

رابعا : أن تعاون اسرائيل مع أثيوبيا قد يقلل ثقة العرب فى اسرائيل خاصة تلك الدول التى ترى فى الوجود السوفيتى فى أثيوبيا تهديدا لها ومن أمثلة تلك الدول مصر والسودان والسعودية . ومثل هذا الموقف قد يزيد من تعقيد الجهود لحل المشكلات القائمة بين اسرائيل والدول العربية . أن مصر هى الدولة العربية الأولى التى أقامت علاقات مع اسرائيل وقد أيدتها فى ذلك — جزئيا — السودان والسعودية .

ومثل هذا الانطباع لم يظهر فى الافق منذ مغادرة البعثة الاسرائيلية أرض أثيوبيا .

خامسا : ان تورط اسرائيل مع أثيوبيا من الممكن أن يزيد من مشاعر

الكراهية العربية لاسرائيل وخاصة من جانب تلك الدول العربية - مثل سوريا والعراق - والتى تؤيد القضية الأريترية ·

ولدرجة ما فقد اعتمد هـــذا التطور على مدى كفاح الأريتريين وحتى لو نجح المجلس العسكرى الأثيوبى فى قمع الحركة ، فان تأثير ذلك على العلاقات السورية أو العراقية تجاه اسرائيل يبدو بعيدا ، فلم يعد لاسرائيل فى أثيوبيا ما يساعد على مناهضة الكفاح الأريترى ·

سادسا : ان تأكيد كل من ليبيا واليمن الجنوبى لمساندة أثيوبيا يؤدى الى الانشـــقاق بين الدول العربية التى تؤيد المواجهة مع اسرائيـــل وليس الوصول الى حل وسط · وان ازدياد عدم الانسجام بين هذه المجموعة سوف يخلق عقبات جديدة فى سبيل الوصول الى تسوية ومن ثم يميل الى أن يقلل من التحدى الذى تمثله هذه الدول ضد اسرائيل · ولا شك ان فرص تأييد طرابلس وعون لنظام مانجستو سوف يقلل هذا التأثير ، ومع ذلك فان هذه المسألة ليس لها دلالة على العلاقات بين الدول المعنية · فنجد ليبيا مثلا وهى أشـد دول الرفض قد أوضحت أنها تزيد مسالة الحل الوسـط فى اريتريا كما انها أمتنعت عن التورط العسكرى فى المنطقة · وعلى الرغم من ان اليمن الجنوبى قد أبدى حـذرا أقل الا أنها تلعب دورا أقل ضـمن دول الرفض · وفى الواقعة قد يتم هذا الدور بزيادة هامشـية نتيجة لسـيطرة مجموعة عسكرية ماركسية مؤيدة للسوفيت على الحكم فيه ·

سابعا : ان الصلة بين كل من ليبيا واليمن الجنوبى من ناحية وأثيوبيا من ناحية أخرى قد تؤدى الى زيادة العداء بين تلك الدول العربية التى ترى فى الاتحاد السوفيتى تهديدا مباشرا لأمنهم ومنها على سـبيل المثال مصر والسودان والسعودية · ثم ان الاستمرار فى مثل هذا الموضوع سوف يقلل حتما من قدرة الدول العربية ووصولها الى عمل مشترك فى الصراع العربى الاسرائيلى لدرجة ان الدول العربية المعتدلة قد ساءت علاقاتها باليمن الجنوبى فى صيف ١٩٧٨ · وقد نشأت الصعوبات عن عاملين : أولها تأييد بعض العناصر فى اليمن الجنوبى لمقتل رئيس الدولة فى أواخر يونيو · أما العامل الثانى فيكمن فى ان الانقلاب الذى حدث فى عدن عقب مصرع رئيس الدولة سالم ربيع على - الذى يرى ضرورة التقارب مع الدول العربية المعتدلة قد أصبح يتصف بالماركسية وانحيازه الشديد للسوفيت ·

وعلى ضوء مستوى العداء السائد بين اليمن الجنوبى والدول العربية ،

فانه من الصعب أن نتخيل أن سياسات عدن تجاه أثيوبيا قد تزيد من اعاقة التعاون العربى فى الصراع العربى - الاسرائيلى ، أضف الى ذلك أن تورط ليبيا مع أثيوبيا فانه من الممكن أن تزداد حالتى الغضب والاسقياء بين الدول العربية المعتدلة أكثر مما يشكله اليمن الجنوبى وذلك من واقع ما يتمتع به نظام العقيد القذافى من امكانيات هائلة ، هذا الى جانب عمليات التخريب الدولى التى يثيرها من وقت لآخر وهو الأمر الذى لا يتوفر لليمن الجنوبى .

السؤال هو : ما هى الفرص التى يحتمل أن تزيد من قيام احتمالات جديدة ؟ بصفة عامة يمكن القول ان الأحداث فى القرن الأفريقى لن تؤثر على الموقف فى الشرق الاوسط طالما ظلت الظروف فى كلتا المنطقتين على ما هى عليه منذ صيف ١٩٧٨ . وأذن يمكن أن نستنتج ان تغير الظروف فى أى من المنطقتين يمكن أن يؤثر على الأخرى . ولا يمكننا أن نتصور مثل هذه التغييرات فى الوقت الحاضر ، ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار الافتراضات الآتية مهما كانت بعيدة عن الواقع فى الظروف الراهنة وهى :

أولا : من الجائز أن تعترف مصر عن مبادرة السلام واتفاقيات كامب ديفيد وبالتالى يصل العرب الى حالة من الاتفاق فيما بينهم حول كيفية التعامل مع اسرائيل . وفى هذه الحالة تؤدى العلاقات القائمة بين كل من ليبيا واليمن الجنوبى من ناحية وأثيوبيا من ناحية أخرى الى اعاقة الوصول الى موقف عربى موحد تجاه الصراع العربى - الاسرائيلى .

ثانيا : الفرض التانى هو أن يقوى الاتحاد السوفيتى مركزه فى أثيوبيا بصورة أكبر بكثير مما هو عليه الآن ، وفى هذه الحالة سوف يتمكن السوفيت من الوصول الى الموانىء الأريترية من ماساوا وعصب وكذا المطارات الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، وبالتالى يمكن أن يجعل نفسه قوة عظمى لها حسابها فى البحر الأحمر بل أنه يستطيع - اذا ما تحقق هذا الافتراض - أن يفرض ويتحكم فى حركة المرور من والى البحر الأحمر عن طريق باب المندب ، وفى هذه الظروف سوف تجد اسرائيل نفسها وكذلك الدول العربية المعتدلة لهم جميعا مصالح مشتركة مما قد يدفعها الى التوصل الى تقارب محدود على الأقل .

وبمعنى آخر فان احتمال حدوث ذلك يعتمد على مدى صمود أريتريا أمام موجات الهجوم الحادة التى تجرى بين وقت وآخر من جانب أثيوبيا ، فلو استطاعت أريتريا ايقاف هذا الهجوم فان فرصتها فى أن تحصل على

الاستقلال تكون فرصة كبيرة ، ولو حدث أن تمكن المجلس العسكرى الأثيوبى من قمع الثوار أو على الأقل أن يخفف من درجة انفصالهم فسوف يطلب السوفيت تسهيلات كبيرة فى أريتريا كثمن جزئى عن مساعدتها العسكرية الهائلة لأثيوبيا وحكومة مانجستو ٠ ويجب أن لا نغفل ان قرار أديس أبابا حيال هذه المسألة سوف يعتمد على مدى تورط السوفيت الى جانبهم فى الحرب الأريترية ، فاذا وقف السوفيت موقف المتفرج أثناء الصراع أو اذا طالبوا بحل وسط فمن الجائز ألا يلقى المجلس العسكرى الأثيوبى بالا لمطالبهم فى أريتريا ٠

ثالثا : الافتراض الثالث هو أن يجد مانجستو نفسه غير سعيد اذا طلب اليه السوفيت والكوبيون الاستعانة بمستشارين اسرائيليين لتحقيق أهدافه فى أريتريا بدلا منهم ، واذا وافقت اسرائيل على ذلك فان وجود مثل هؤلاء المستشارين العسكريين الاسرائيليين سوف يخلق مشاكل مع الدول العربية ، بل قد يدفع تلك الدول والاتحاد السوفيتى الى الانخراط فى جبهة واحدة ٠

وعلى ضوء رفض موسكو وهافانا مساعدة القوات الأثيوبية فى أريتريا بشكل مباشر ، فان دعوة أثيوبيا للاسرائيليين تكون محتملة ، ولكن استجابة اسرائيل لذلك سوف يؤدى الى مشكلات كثيرة ٠ ويعتمد هذا الافتراض على تقييم اسرائيل لمدى الاستياء والغضب ورد الفعل لدى الولايات المتحدة ، وحتى اذا قررت اسرائيل اعادة تورطها فى الصراع الأريترى فليس من المحتمل أن يؤدى ذلك الى استياء شديد فى العالم العربى بحيث يؤدى الى قيام جبهة عربية ـ سوفيتية نظرا لأن هناك عدد من الدول العربية فى حالة شجار مع السوفيت حول مسائل تهم العرب أكثر من مصير أريتريا ٠

رابعا : الافتراض الرابع هو أن تقدم مصر والسعودية والسودان معونة شاملة بحيث تدفع الأريتريين للاستقلال ٠ ومثل هذا الاجراء سوف يضعهم وجها لوجه مع السوفيت وربما مع اسرائيل والتى لا ترغب فى أن يصير البحر الأحمر بحيرة عربية ٠

ان سلوك الدول الثلاث منذ الهجوم الأثيوبى يوحى بأنها سوف تعتمد على الجهود الدبلوماسية والمنابر الدولية أكثر من التجائها الى المخططات العسكرية الصريحة ، ولكن المرء لا يستطيع الالتجاء الى الاختيار الأخير اذا أصيب الأريتريون بانتكاسات شديدة على أرض المعركة ، وعما اذا كانت اسرائيل والاتحاد السوفيتى سيختاران التدخل فى حالة ما اذا تعاظم الدور

العربى فى الصراع ، وبالطبع فأن ذلك يعتمد على مدى التهديد الذى سوف يشكله هذا التطور على الوجود المستمر لنظام صديق فى أديس أبابا ٠

خامساً : الافتراض الخامس هو أن توقف كل من ليبيا واليمن الجنوبى مساعدتهما الى المجلس العسكرى الأثيوبى - واذا ما ساعدت الدولتان أريتريا أو الصـومال ، فسوف يجد السوفيت أنفسـهم فى حالة تناقض مع العالم كله حول القرن الأفريقى ، ومثل هذه الظروف قد تمحو النفوذ السوفيتى فى الشرق الأوسط ومن الجائز كذلك أن تخرج ليبيا عن صف المؤيدين لأثيوبيا اذا أصر المجلس العسكرى الأثيوبى واستمر فى حل المشكلة عسكريا كما أن ظروف الحكم الجديد فى اليمن الجنوبى قد ينهج نفس النهج ٠

والخلاصة أن احتمالات ظهور أو قيام أحداث تكون فى اتجاه معاكس لهذه الافتراضات هى احتمالات ضئيلة ٠

الفصل الثامن

النزاع المغـــربى ـ الجـــزائرى
والمشـــكلة الصـــحراوية

أبعـــاد المشـــكلة

١ - الصحراء : بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية :

تقع الصحراء المغربية فى الشمال الغربى لافريقيا ، يحدها شـــمالا المغرب ، وغربا المحيط الأطلسى ، وجنوبا موريتانيا ، وشرقا الجزائر ٠ وتبلغ مساحتها حوالى ٢٦٦ ألف كيلو متر مربع ، وعدد سكانها ٧٦ ألف نسمة وهو التقدير الدولى الذى تعترف به المغرب ، أما جبهة البوليزاريو فتقـــدر عدد السكان بحوالى ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة جميعهم من العرب المسلمين ، وأهم مدن الصحراء : العيون (العاصمة) ، ودخلة ، وسمارة ، والقويرة ، بـــير الحلو ، ومحبس ، وقلته ، وأم غالا ، وبو كراع ٠ وأهم ثرواتها الفوسفات الذى يقدر احتياطيه بمليارى طن ، وهو الذى فجر الصراع حول الصحراء فى الفترة المعاصرة حيث أكبر مناجمه فى منطقة « بو كراع » التى تبعـــد مائة كيلو متر عن العيون العاصمة ، ودرجة جودته تصل الى ٣١ فى المائة وهى أعلى نسبة فى العالم ، ويتكون اقليم الصحراء من سهول ساحلية ٠ ترتفع تدريجيا كلما توغلنا فى الداخل الى هضاب يصل متوسط ارتفاعهـــا ألف قدم فوق سطح البحر ، ويزداد الارتفـــاع الى سلاسل جبلية يصـــل ارتفاعها الى ألفى قدم عند الحدود الموريتانية ٠

وعلى الرغم من أن المناخ الصحراوى يسود المنطقة ، الا أن تيار كنارى البارد الذى يهب من الشمال يساعد كثيرا على تلطيف درجة حرارة الصيف وخاصة أن تأثيره يمتد الى المناطق الداخلية - والأمطار فى اقليم الصحراء من النوع الطارىء ، ولا تزيد نسبة أو معدل الأمطار الســـنوية عن أربع بوصات ولذلك فالزراعة هى من النوع البسيط الذى يسد حاجة الاستهلاك المحلى ، على أنه منذ عام ١٩٦٤ تم اكتشاف بعض مصادر للمياه العـــذبة على

بعد ستين ميلا من مدينة فيلا شيفيروس من الممكن لها أن تغير طبيعة الحياة الزراعية السائدة فى المنطقة .

وتنقسم الصحراء الى قسمين متمايزين . الساقية الحمراء وهى وادى هام يمتد فى أقصى الطرف الشمالى من حدود الاقليم ، وينحدر الى ساحل الأطلنطى حتى شمال رأس برمبادور وتبلغ مساحته ٨٢٫٠٠٠ كم مربع أما القسم الآخر فيعرف بوادى الذهب ومساحته ١٨٤٫٠٠٠ كم مربع .

وقد أثرت طبيعة السكان وحياتهم الرعوية ، وتنقلاتهم الموسمية فى منطقة الى أخرى ، بالاضافة الى قلة عددهم عموما على امكانية تنظيم حركات سياسية شعبية اذ لم تظهر هذه الحركات الى الوجود الا فى فترة متأخرة ، أما قبل ذلك ، فكان الأمر يقتصر على تغيير بعض الشخصيات القبلية عن ولائها بالانضمام الى المغرب ، بينما كانت بعض القبائل الأخرى تطالب بالانضمام الى موريتانيا ، ويلاحظ أن العناصر المكونة لسكان الصحراء هى من نفس العناصر السائدة فى موريتانيا والمغرب ، أى من العرب والبربر مع وجود اختلاط وتزاوج واضح فيما بينهما ، الى جانب نسبة بسيطة من العناصر الزنجية الخالصة التى تسكن حوض السنغال ، ويجمع بين هذه العناصر الدين الاسلامى ، كما تسود اللغة العربية بلهجة الحسانية ، وهى احدى اللهجات المحلية الشائعة فى شمال افريقيا ، ولكن المدارس التى كانت أسبانيا قد أقامتها فى الصحراء ، ومعظمها لم تتجاوز المرحلة الابتدائية ، قد نشرت اللغة الاسبانية بين المتعلمين وهو ما ترك تأثيره على ثقافة القيادات السياسية التى تستخدم اللغة الاسبانية فى تعاملها مع العالم الخارجى .

وقد أدى اكتشاف موارد اقتصادية فى الصحراء الى زيادة حدة النزاع بين الأطراف المعنية بالمنطقة سواء بالنسبة لاسبانيا قبل مغادرتها للصحراء فى عام ١٩٧٦ أو بالنسبة للأطراف الاقليمية الأخرى وهى المغرب وموريتانيا والجزائر .

وبالاضافة الى هذه الأهمية الاقتصادية ، فان لاقليم الصحراء أهمية جيوبوليتيكية متميزة ترتبط أساسا بأنها تعتبر بمثابة مدخل أمن لثلاث دول تحيط بها هى المغرب والجزائر وموريتانيا ، فاذا كانت تمثل امتدادا طبيعيا للمغرب وموريتانيا فهى تمثل للجزائر واجهة على المحيط الأطلسى غربا تريد أن تطل عبرها على المحيط وتنقل اليه حديد « تندوف » الشهير ، وكذلك

عازها الطبيعي وبترولها الذى يباع لأوروبا وأمريكا .

وقد كانت هذه الصحراء كما مهملا عبر قرون تاريخية طويلة منذ أن تحدث عنهـــا المؤرخ الاغريقى هيرودوت ، ثم المؤرخ العربى الرحـــالة ابن بطوطة ، ولم يتردد اسمها فى التاريخ كثيرا الا عندما فتحها عقبــة بن نافع ، الذى وصل الى الساقية الحمراء وظلت عربية المسكن والسلطة ، حتى سيطر عليها العرش الاســـبانى بعد أن تناوب عليهـــا العرب المسلمون والقرطاجنيون والبرتغال .

وكان البرتغاليون هم أول شعب أوروبى يصل الى سواحل الصحراء وذلك أثناء حركة الكشوف الجغرافية فى القرن الخامس عشر الميلادى حينمـا كانوا يزحفون شيئا فشيئا نحو الجنوب ، حتى توصلوا الى الصحراء فى عام ١٤٣٦ حيث أطلقوا على المنطقـــة اســـم وادى الذهب

وثبت وجود عدة مراكز برتغالية متناثرة أقامها البرتغاليون ، واتخذوا فيها نقاط وثوب للتغلغل فى الداخـــل من أجل تجارة الرقيق ، حيث نقـــل البرتغاليون أعـــداد ضخمة من رقيق صنهاجة . وقد شارك الأســـبان البرتغاليون أعـداد ضخمة من رقيق صنهاجة . وقد شــارك الأســبان اندثرت عندما ظهرت مواقع أخـــرى أكثر ملاءمة للاقامة والاستقرار قرب الأماكن التى تصب فيها الأنهار فى غرب افريقيا ، ولذلك لم تجتذب المنطقة انتباه الاستعمار الأوروبى الا فى نهاية القرن التاسع عشر ، أثناء التسابق بين الدول الأوروبية للسيطرة على القارة الأفريقية .

وفى عام ١٨٨٤ قامت أسبانيا باحتلال وادى الذهب ، حيث أقامت فيه فيما بعد مدينة فيلاشيسنيروس ، واتخذت منها عاصمة للمنطقة ، وقد يكون من المناسب ونحن بصـــدد عرض أهم الملاحظات الجيوبوليتيكية لمنطقـــة الصحراء ، أن نشير الى أن المحارى المـائية التى تجرى فى هـــذا القســـم لا تحمل رواسب من الذهب من أى نوع كان ، ولـــكن يظهر أن احتفاظ أسبانيا بالتسمية البرتغالية القديمة - كما يرى بعض المؤرخين(*) - كانت من قبيل السلوى لأسبانيا لحصولها على أرض مجدبة قاحلة ، تمثل الفتـات الذى تخلف عن موائد الاستعمار ، ومن منطقة وادى الذهب تطلعت أسبانيا الى ضم المنطقة الواقعة فيما بين رأس بوجادور ، حتى الرأس الأبيض ، وهى تشتمل على الســـاقية الحمراء التى نسبت الى خور صغير ينتهى الى المحيط الأطلنطى .

(*) دكتور جمال زكريا قاسم ، دكتور صلاح العقاد ، مسألة الصحراء (الصحراء الأسبانية سابقا) ، فى الدراسات الخاصة رقم (١) اصدار معهد البحوث والدراسات العربية ، جامعة الدول العربية - القاهرة ١٩٧٦ ص ص ٣٦١ - ٣٨٤ .

وخلال انعقـــاد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ أبلغت أســـبانيا الدول الأوروبية ، بأنها اقتطعت لنفسها منطقة من ساحل المحيط تقـــع بين خط عرض ٥١/٢٠° - ١٨/٢٦° شمالا ، وان كان الامتداد الداخلى لهذه المنطقة لم يحدد تماما ، مما أحـــدث صراعا بين القوتين الاستعماريتين الفرنسية والأسبانية حول المنطقة ، ولم يهـــدأ هذا الصراع الا بعقـد سلسلة من الاتفاقيات الفرنسية الأسبانية حددت فبها المنطقة الأسبانية من الصـــحراء الـكبرى .

وقد بدأت هذه السلسلة باتفاقية وقعت بين فرنسا وأسبانيا فى ٢٧ يونيو ١٩٠٠ خاصة بتحديد الممتلكات الفرنســـية والأسبانية فى افريقيـا الغربية ، وقد تضمنت هذه الاتفاقية تحديدا خاصا لاقليم الصـحراء اذ تم الانفاق على أن يكون الحد الجنوبى للاراضى الأسبانية مسايرا لكيب بلانكو (الرأس البيضاء) بحيث يقســمها الى قسمين ، ويسير مـــع خط عرض ٢٠/٢١° حتى تقاطع هذا الخط مع خط طول ١٣° غربا ، بحيث تدخـــل مناجم الملح المعروفة بمناجم عجيل فى الأراضى الفرنسية بالصحراء .

وفى عام ١٩٠٢ ضمت منطقة أخرى الى الأراضى الأسبانية تقع بـــين رأس بوجادور ورأس جوبر ، وتمتد فى الداخل حتى تقاطع خط طول ١٢ غربا ، مع خط عرض ٢٦ شمالا ، لكى تدخل فى الأراضى الأسبانية الجديدة كل المنطقة الواقعة جنوب غرب مراكش . وتعتبر اتفـاقية عام ١٩٠٢ آخر مدى وصلت اليه مناطق النفوذ الأسبانى .

وفى أكتوبر ١٩٠٤ أبرمت اتفاقبة ثانية بين فرنسا وأسبانيا أعيـــد بمقتضاها التقسيم لصالح فرنسا الى تدعيم مركزها فى الاتفاقية الجـــديدة نتيجة عقدها الاتفاق الودى بينها وبين بريطانيا ، وقد حددت اتفاقية ١٩٠٤ وضع الأسبان فى ممتلكاتهم المغربية ، وفى هذه الاتفاقية تعهدت كـــل من أسبانيا وفرنسا بالانضمام الى التصريح العلنى الانجليزى الفرنسى الخـاص بمراكش ، كما تضمن التصريح العلنى الخاص بذلك الاتفاق وعد الحكومتين الفرنسية والأسبانية بأن تحترما وتحافظا على وحدة الأراضى المغربية فى ظل سيادة السلطان .

وتجدر الاشارة الى أن هـــذا الاتفاق كان يتضمن كثـيرا من الفقرات السرية التى لم تعرف نصوصها الا بعد ذلك بسنوات ، وعلى وجه التحديد فى ٨ نوفمبر ١٩١١ عندما نشرتها جريدة المـاتان الفرنسية ، وكانت هذه الفقرات تتكون من احدى عشر فقرة سرية يمكن ايجازها على النحو التالى :

أولا : توسيع حدود ردودى أورو السابق تحديدها فى معاهدة ســنة ١٩٠٠ ، بحيث تمتد الى الشـــمال حتى نهر دراع والسوس فى جنـوب مراكش .

ثانيا : تعهدت أسبانيا أن تتخلى جزئيا أو كليا عن سيطرتها على المناطق الخاضعة لها ، كما تعهدت بالتعاون فيما بينها وبين فرنسا فى بعض المشروعات التجارية والتعليمية ٠

ثالثا : يكون من حق الدولتين - فرنسا وأسبانيا - التمتع بحرية العمل فى نطاق الأراضى التى خصصت لنفوذ كل منهما فى حالة اذا لم يعد بالامكان محافظة المغرب على الحالة الراهنة بسبب ضعف الحكومة أو عجزها عن فرض النظام أو لأى سبب آخر يقبله الطرفان ٠

ولعل ذلك يوضح أنه على الرغم مما نص عليه اتفاق ١٩٠٤ من الاحتفاظ بوحدة المغرب ، الا أن المواد السرية من الاتفاق كانت تطلق يد كل من أسبانيا وفرنسا فى نطاق الأراضى التى تحددت لمنطقة نفوذهما ٠

وفى عام ١٩١٢ جرت مفاوضات جديدة بين الحكومتين الفرنسية والاسبانية أسفرت عن عقد اتفاقية بين الدولتين ، جعلت بمقتضاها حدود الصحراء الأسبانية الشمالية منسقة دراع ، كما أصبحت الحدود الشرقية متمشية مع خط طول ٤٠ر٥٨ غربا ، بحيث تتقاطع فى الركن الشمالى الشرقى من المستعمرة مع وادى دراع ٠ أما القسم الجنوبى فتسير حدوده مع الحدود التى تم الاتفاق عليها من قبل ٠

وعموما فان التعديلات التى طرأت على مناطق النفوذ الاسبانى جعلت هذا النفوذ يتعاظم خلال الفترة من مؤتمر برلين ١٨٨٥ حتى اتفاقية ١٩٠٣ بين فرنسا وأسبانيا ، ثم بدأت مناطق النفوذ الاسبانى فى التقلص التدريجى بعد عام ١٩٠٣ ، وان كان تشبث أسبانيا قد ظهر واضحا فى المناطق الساحلية ، كما أن فرنسا استطاعت أن تحصل على أكثر المناطق ثروة وسكانا ، بعكس أسبانيا التى استحوذت على المناطق الفقيرة خاصة وأن الصحراء « الأسبانية » لم يكن قد تم اكتشافها ، مما يعطى دلالة على ترجيح كفة فرنسا الاستعمارية بعد أن تدعم مركزها بتوقيع الاتفاق الودى بينها وبين انجلترا فى عام ١٩٠٤ ٠

٢ - وادى الذهب وساقية الحمراء تحت الادارة الأسبانية :

سيطرت أسبانيا على كل من وادى الذهب وساقية الحمراء بالاضافة الى المناطق الأخرى التى خضعت لها بمقتضى الاتفاقيات التى وقعتها مع فرنسا فى كل من منطقة وادى دراع وطرفاية ، وفى عام ١٩٣٤ احتلت أسبانيا مقاطعة سمارة ، ومنذ ذلك العام بدأت أسبانيا تعمل على تنظيم ادارة تجمع بين مناطق نفوذها ، وفى الفترة فيما بين ١٩٣٤ ، ١٩٥٨ ، كونت كل من ساقية الحمراء وريودى أورو وطرفاية وايفنى ادارة واحدة تحت قيادة حاكم عسكرى أسبانى يكون مركزه سيدى ايفنى وينوب عنه ثلاثة ممثلين فى كل

من ساقية الحمراء وريودى أورو وطرفاية ، كما أنيطت الادارة المحلية بحكام عسكريين Inventor ، على أنه فى عام ١٩٥٨ ، أدخلت بعض التعديلات الادارية بسبب تقلص منطقـــة النفوذ الأسبانية التى اقتصرت عـــلى ايفنى والصحراء « الاسبانية » بقسميها ســـاقية الحمراء ووادى الذهب (ريودى أورو) ، وذلك بسبب تنازل أسبانيا للمغرب بعد استقلاله فى مارس ١٩٥٦ عن منطقة طرفاية التى ضمت للمغرب ٠

وفى عام ١٩٦٩ تنازلت أسبانيا للمغرب عن منطقة سيدى ايفنى التى نقع على ساحل المحيط الأطلنطى ، وعلى شكل جيب Enclave يحـــاط من الداخل بالأراضى المغربية ، وهى تشكل مقاطعة لا تزيد مســـاحتها عن ألف ميل مربع ، ولا يتعدى سكانها الثلاثين ألفا ، وكانت مقاطعة ايفنى قد ضمت الى أسبانيا بمقتضى اتفاقية أسبانية مراكشية وقعت فى عام ١٩٦٠ ، كان هدفها اقامة مركز لصيد الأسماك على الساحل ، ثم أدخلت مقـاطعة ايفنى ضمن المساحة الكبيرة التى أضيفت الى الصحراء الأسبانية فى ١٩٠٣ وهى التى تمتد من رأس بوجاردو حتى رأس جوبر ٠

وهكذا تقلصت مناطق النفوذ الاسبانية جنوب المغرب بعد عام ١٩٦٩ وصارت مقصورة على اقليم الصحراء ، الذى فرضت عليـــه أسبانيا ادارة عسكرية ، وقسمته اداريا الى ساقية الحمراء ووادى الذهب ، كما خضعت المنطقة فى مجموعها للحاكم العام للمقاطعات الافريقية ومركزه فى مدريد ، بينما تخضع المنطقة عسكريا للقائد العسكرى العام لجزر كنارى ، الذى يعين له ممثلا أو حاكما عسكريا فى العاصمة « العيون » ، وتعاونه جمعيـــة من السكان المحليين (الاسبانيين والوطنيين) لادارة شئون الصحراء ٠ والجدير بالذكر أن اسبانيا كانت تدير المنطقة باعتبارها جزءا من الأراضى الاسبانية من حيث تطبيق القوانين والتنظيمات الادارية والاقتصادية التى كانت سائدة فى الأراضى الاسبانية ذاتها . بعد أن قسمت اسبانيا بالاتفاق مع مشـــايخ قبائل الصحراء ــ الصحراء الى أقسام ثلاثة هى :

(١) محمية طرفاية ٠
(٢) مستعمرة ساقية الحمراء ٠
(٣) منطقة وادى الذهب ٠

وهكذا دخلت فى اطار الصراع بين حـــركة السيطرة الاســـتعمارية الاسبانية الفرنسية وبين حـــركة التحرر الوطنى المغربيـــة حسب الرؤية المغربية ٠ كما أصبحت الصحراء المترامية الأطراف (٣٠ ألف كيلو متر مربع) والمعدمة بين يوم وليلة محط أنظار القوى الاقليمية والدولية ، على السواء ٠ ودخلت فى اطار الصراع البارد أحيانا والمسلح أحيانا أخرى ، حيث فرضت المغرب بالأمر الواقع بمشاركة موريتانيا ــ حكمهما ، والجزائر حاولت هى الأخرى تحت شعار حق تقرير المصير ولكن من خلف ستار جبهـــة تحرير

البوليزاريو ، التى أعلنت من الجزائر العاصمة قيام « الجمهورية الصحراوية » فى ٢٧ فبراير ١٩٧٦ .

والولايات المتحدة وفرنسا واسبانيا من المعسكر الغربى نظرت هى الأخرى بغزل شديد الى ثروات المنطقة ، فهى تشترى فوسفات المغرب ، تمتلك المغرب ٧٥ فى المائة من فوسفات العالم والولايات المتحدة ١٥ فى المائة فقط منه ، وتشترى غاز وبترول الجزائر ، وتسلح المغرب وتساندها سياسيا ، أما الاتحاد السوفيتى فهو القوة العظمى الأخرى التى تساند الجزائر سياسيا وعقائديا ويقوم الاتحاد السوفيتى بتسليح الجزائر ، وبالرغم من ذلك فان السوفيت عقدوا خلال عام ١٩٧٨ صفقة القرن مع المغرب لشراء الفوسفات ببلايين الدولارات على مدى عشرين عاما مقابل صفقة الغاز الطبيعى من الجزائر الى الولايات المتحدة الامريكية على مدى خمسة وعشرين عاما .

٣ ـ الأبعاد الأساسية للنزاع :

هناك أربعة أبعاد أساسية فى النزاع الدائر حول قضية الصحراء :

(١) البعد التاريخى للنزاع والذى يدخل ضمن اطار تصفية الاستعمار ، فقد كانت هذه المنطقة مستعمرة أسبانية منذ العقد الأول للقرن الحالى وحتى عام ١٩٧٦ عندما جلت عنها أسبانيا بموجب الاتفاق الثلاثى الذى تم بين أسبانيا والمغرب وموريتانيا فى عام ١٩٧٥ . وطبقا للاتفاق ضمت موريتانيا اقليم وادى الذهب ، وضم المغاربة اقليم الساقية الحمراء ، وفى عام ١٩٧٩ عاد المغرب فضم اقليم وادى الذهب بعد أن تخلت عنه موريتانيا ، وقد برز أيضا ـ منذ الاتفاق الثلاثى ـ اتجاه آخر هو اتجاه البوليساريو يطالب بالاستقلال التام .

(٢) البعد الاقتصادى وخاصة بعد أن اكتشفت أسبانيا ، خام الفوسفات فى بو كراع عام ١٩٧٠ بالاضافة الى وجود خام الحديد والزنك والرصاص والغاز الطبيعى والبترول أيضا ، ولكن الثروة الحالية الضخمة تتمثل فى ثروات شواطىء الأطلسى التى تعتبر من أغنى المناطق بالأسماك ، ومن الطبيعى أن يؤدى اكتشاف موارد اقتصادية الى زيادة حدة النزاع بين فى الماضى هامشية الأهمية من الناحية الاقتصادية ، غير أن الموارد الاقتصادية الهامة التى اكتشفت هى التى دعت أسبانيا ـ وكانت هى الأخرى الأطراف المعنية (المغرب ـ الجزائر ـ موريتانيا) ، لقد كانت منطقة الصحراء طرفا فى هذا النزاع قبل جلائها عام ١٩٧٦ ـ دعت أسبانيا نفسها الى التشبث بالبقاء فيها من ناحية ، وفى الفترة اللاحقة على جلاء أسبانيا ، جاء التصاعد فى المطالبة بالصحراء من قبل المغرب وموريتانيا من ناحية أخرى .

لذلك قد يكون من المفيد تفسير حقيقة الموارد والثروات الاقتصادية بمنطقة الصحراء .

فالفوسفات يعتبر المورد الرئيسى لمنطقة الصحراء ، حتى أنها تشتهر فى بعض الدوائر الاقتصادية باسم كويت الفوسفات ، مما يؤكد أن الفوسفات هو العامل الرئيسى فى البعد الاقتصادى للنزاع .

وكانت موارد الفوسفات قد اكتشفت فى عام ١٩٦٣ ، ومنذ ذلك العام ، تطلعت كثير من الشركات الأجنبية لعمليات الاستغلال خاصة وأنه ينتج بكميات تجارية ضخمة ، وبالتالى فان من يسيطر على فوسفات الصحراء ، يصبح هو المتحكم فى الانتاج والتصدير العالمى معا ، وفى حالة قيام دولة مستقلة بالصحراء ، فان ذلك يهدد بظهور منافس قد يتفوق على المغرب من حيث انتاج وتصدير الفوسفات ، اذ من المعروف أن المغرب تنتج هى الأخرى كميات كبيرة منه ، وقد عانت المغرب من الآثار السيئة للمنافسة على التصدير لهذا المعدن ، الأمر الذى أدى الى تخفيض سعره فى الأسواق العالمية . وكانت الحكومة الأسبانية(١) قد منحت امتيازا لاستغلال الفوسفات فى عام ١٩٦٧ الى كونسرتيوم يتألف من بعض الشركات الفرنسية والامريكية والألمانية والأسبانية بنسبة ٢٥٪ للمصالح الامريكية ، ٢٠٪ للمصالح الفرنسية والألمانية ، ٥٥٪ للحكومة الأسبانية ، غير أن الحكومة الأسبانية لم تلبث أن تخلصت من ذلك الامتياز ، وبدأت تنفرد بعمليات الاستغلال ، وحلت محل الشركة العالمية شركة أسبانية تحت ادارة الحكومة الأسبانية وقامت الحكومة الأسبانية بتوقيع عدة عقود مع بعض الشركات الأوروبية لمساعدتها فى استخراج وتسويق الفوسفات كما قامت بتعبيد بعض الطرق الصحراوية ، وساعد ذلك على ظهور بعض المراكز العمرانية بسبب التقدم فى عمليات الاستغلال ، ومن أشهر تلك المراكز مدينة أبو كراع ، التى تعتبر المركز الرئيسى لانتاج الفوسفات .

وقبل أن يتركز الاهتمام على فوسفات الصحراء فى عام ١٩٦٧ ، كانت هناك عدة احتمالات بوجود آثار بترولية فى المنطقة ، وبالفعل قامت بعض الشركات العالمية بعمليات الاستكشاف ، والتنقيب ، واستطاعت هذه الشركات أن تغطى نفقات عملياتها الكشفية والتنقيبية ، وكانت نسع شركات أمريكية قد قامت فى عام ١٩٦١. بمشاركة ثلاث شركات أسبانية بأعمال

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الادارة الأسبانية يرجع الى :

— Middle East & North Africa, ef. Spanish Sahara p. 387.

— The Middle East no. 14 Dec. 1975, ef. Fiaenkel, What Next

— in Spanish Sahara ? and Holley Charles, Military Situation in Spanish Sahara.

الكشف والتنقيب على النفط ، وساعدها على ذلك تشجيع الحكومة الأسبانية، وتخفيضها من بعض القيود الاقتصادية التى تعترض توظيف رؤوس الأموال الأجنبية ، وعلى أن الفئات الكبيرة التى اعترضت عمليات التنقيب عن النفط والتى قدرت بخمسة آلاف مليون بيزيتا ، دفعت كثـــيرا من الشركات الى التحول عن هذه المنطقة ، ولو بصفة مؤقتة ، يضاف الى ذلك ، أن اكتشاف الفوسفات فى عام ١٩٦٣ صرف اهتمام الشركات الى استغلال ذلك المورد الجديد بحيث لم يبق من الشركات العالمية فى الصحراء ســـوى شركة نفط الخليج ، بالاضافة الى بعض الشركات الأسبانية الأهلية والحكومية ٠

ومن النقاط التى شملها البعد الاقتصادى فى أبعاد النزاع على الصحراء — وجعل أسبانيا تتشبث باقليم الصحراء وقتئذ — من هذه النقاط أن الثروة السمكية لسواحل الصحراء ، وصـــناعة الأســـماك ، كانت تعتبر من أهم الصناعات المحلية حيث قدر الثروة السمكية عائدا ضخما ، وبحكم سيطرة أسبانيا على الصحراء ، فانها هى المستفيدة بطبيعة الحال من الموارد الاقتصادية للاقليم ، خاصة وأنها لم تنفق كثيرا على مشروعات التنمية الاقتصادية ، كما أن الخدمات التعليمية والاجتماعية والصحية لسكان الصحراء كانت محـــدودة للغاية ، ومعظم خطط التنمية تدور ابان فترة السيطرة الأسبانية — حول حفر آبار جديدة أو تعمير بعض الطرق أو بناء المدارس التى لم تتعدى اثنين وسبعين مدرسة ابتـــدائية الى جانب مدرستين ثانويتين ، وقـــد لوحظ أن ما أنفقته أسبانيا فى خطط التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية لم يتعدى ٥٠٠ مليون بيزيتا ســـنويا ، وهو مبلغ زهيـــد اذا ما قورن بالموارد المـــالية الضخمة(٢) ، التى أخذتها أسبانيا من الثروة المعـــدنية للصحراء ٠ وهكذا كان البعد الاقتصادى ســـببا — من ناحية — فى تمسك أســـبانيا باقليم الصحراء ، ومن ناحية أخرى فان هذا العامل نفسه قد أثر على كل من المغرب وموريتانيا والجزائر فيما بعد على استقطاب الصحراء الى صفها وان فضلت المغرب الاستناد الى العوامل التاريخية والجغرافية والبشرية والعلاقة الخاصـــة التى تربط الصحراء بالمغرب ٠

(٣) البعد الاستراتيجى : ويتمثل أساسا فى موقع الصحراء الحاكمـــة لجنوب المغرب والجزائر ولشمال وغرب موريتانيا ، والتى تطل بساحل طويل على المحيط الأطلسى ، ورغبة المغرب والجزائر فى السيطرة تنبـــع من صراع السيادة والهيمنة أساسا على بناء القوة الذاتية الكفيلة بالسيطرة على شمال أفريقيا ، حيث تشكل هذه الصحراء مجالا حيويا لكل منهمـــا يدعم العمق

---

(٢) Middle East and North Africa, Europa Publications p. 399

الاستراتيجى للمغرب عند الجنوب ، والجزائر عند المغرب للوصول الى المحيط الأطلسى من أقرب طريق ٠

(٤) البعد « العرقى » race لسكان الصحراء ، فقد كانوا عند جلاء الأسبان حوالى ٧٥ ألفا ـ كما يقول المغاربة ـ وهم الآن أكثر من مليون نسمة ـ كما تقول البوليزاريو ـ وهم يشكلون ١٧ قبيلة وكلها قبائل عربية صرفة تتحدث باللهجة الحسانية وهى أقرب الى اللغة العربية الفصحى ٠

وكانت السبب فى تقليل تعدد سكان الصحراء من وجهة نظر أسبانيا هو وضعها العقبات أمام منحهم الاستقلال بحجة قلة عددهم وبالتالى فقد كانت أسبانيا تؤجل البت فى المشكلة ٠ كذلك يتضح البعد العرقى لسكان الصحراء من استعراض أوضاعهم الاكولوجية ، حيث عدم استقرارهم وتنقلهم المستمر وراء المراعى بين الصحراء والأقطار المجاورة لها ، خاصة وأن الحياة الرعوية لا تعترف بالحدود الفاصلة كما تقدم الحياة الاجتماعية فى الصحراء على النظام القبلى من أهم القبائل تكنة والرقيبات وأولاد دليم ٠

٤ ـ الصحراء بين أسبانيا والمغرب :

ربما كانت أسبانيا تنظر بحسد الى نفوذ فرنسا فى شمال المغرب فى الفترة اللاحقة على الحرب العالمية الثانية ، ولكن أسبانيا من ناحية أخرى لم تكن تعارض فى اسقاط حمايتها عن منطقة نفوذها فى هذه المنطقة ، وكانت تنتظر فقط أن تسبقها فرنسا باعتبارها الدولة الرئيسية الحامية للمغرب ، بل ان أسبانيا كانت تشجع سرا الوطنيين المغاربة ، كما اعترضت على خلع فرنسا للسلطان محمد الخامس ٠ ومع ذلك فان أسبانيا كانت تميز بين أمرين : المحمية التى تستمد وجودها فيها قبل اتفاقية التقسيم مع فرنسا فى عام ١٩١٢ وقد تركتها للمغرب بمجرد اعلان استقلاله فى مارس ١٩٥٦ وبين مناطق كانت تستعمرها منذ زمن أبعد وهى سبتة ومليلة فى شمال المغرب وسيدى ايفنى وسط الساحل الجنوبى المغربى ثم طرفاية واقليم الصحراء فى الجنوب حيث تمسكت أسبانيا بهذه المناطق ٠

ثم شهدت السنوات الأولى من عهد الاستقلال تعاون القصر الملكى فى المغرب مع حزب الاستقلال الذى كان برنامجه يدور حول المغرب التاريخى أو المغرب الكبير ، وكان هذا الحزب يرى أن المغرب الكبير كان يمتد الى حوض السنغال وبالتالى يجب أن تعود هذه المناطق الى أصحاب السيادة الشرعيين ، ولنشر دعوته أصدر الحزب مجلة خاصة أسماها الصحراء نشرت العديد من الأبحاث التى تثبت صلات هذه المناطق بالمغرب اجتماعيا وتاريخيا وثقافيا ، وقد وصلت هذه المطالبات الى صدام مسلح حينما بدأت بعض القوات المغربية غير النظامية بمهاجمة سيدى ايفنى فى ديسمبر ١٩٥٧ ، وكذلك قامت

باغارات على طرفاية وساقية الحمراء ووادى الذهب والمنـــاطق الشمالية من موريتانيا ، وقد انضمت الى هذه العمليات قبيلة الرقيبات أعظم القبائل قوة فى اقليم الصحراء ومن أكثرها ولاء للمغرب ٠ وكانت قوات فرنسية قـــد اشتركت مع قوات أسبانية لقمع هذه الحركات وذلك عندما تحركت فى يناير ١٩٥٨ قوات فرنسية من كل من الجزائر وموريتانيا لمعاونة القوى الأسبانية فى طرد القوات المغربية غير النظامية خارج ريو دى أورو وغيرها من المقاطعات التى كانت لا تزال تحت الادارة الأسبانية ، ومع ذلك فقد وجدت الحكومة الأسبانية أنه من الحكمة عدم تصعيد النزاع بينها وبين المغرب حرصـا على علاقاتها مع الدول العربية الاخرى ، وترتب على ذلك أن أضافت أسبانيا الى تنازلاتها للمغرب لبعض المناطق جنوب المغرب وقد تم ذلك بالفعل فى ابريل ١٩٥٨ حيث تنازلت عن منطقة طرفاية على أثر المحـــادثات التى جرت بين المغرب وأسبانيا فى البرتغال ، وبقيت المناطق الآخرى جنـــوب المغرب فى سيدى ايفنى والصحراء الأسبانية موضوعا لمطالبات الحكومة المغربية ٠

وكانت أسبانيا تميل الى التنـــازل عن المقاطعات الفقيرة من منـاطق نفوذها للحكومة المغربية فى مقابل تقـــاضى المغرب عن مطالبته بالمقاطعات الغنية الأخرى ، وقد سبق أيضا أن أسبانيا تنـــازلت عن طرفاية فى عام ١٩٥٨ ، وفى عام ١٩٦٩ تنازلت أيضا عن سيدى ايفنى ، ومن ناحية أخرى فان المغرب كان مشغولا فى الستينات بمطالبته بموريتانيـــا وكانت الرؤية المغربية بهذا الخصوص تتلخص فى أنه فى حالة ضمها ، فان ذلك سيمهد الطريق تلقائيا لضم الصحراء تبعا لذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الصراع الذى نشب بين المغرب والجزائر حول الحدود كان يستهدف ايجـــاد حلقة اتصال جغرافية بين المغرب وموريتانيا طالمـا أن اقليم الصحراء يصـل بين حدود الاقليمين ، ومن المعروف أن النزاع على الحدود قد تمت تسويته عـــلى أساس استمرار الوضع القائم منذ العهد الاستعمارى ، أى استمرار اتصال الحدود الجزائرية بالصحراء ٠

وعلى الرغم من أن أسبانيا كانت قد تخلت للمغرب عن بعض منـــاطق نفوذها ، الا أنها عمدت الى اتخاذ خطوات تدعم فصـل الصحراء عن المغرب وذلك بمنحها شخصية محليـــة عن طريق تكوين مجلس عمومى يتكون من اثنين وأربعين عضوا ، وعلى الرغم من أن ذلك المجلس لم يكن يتمتع بسلطات كافية ، ومع ذلك فقد أبدى بعض الأعضاء اتجاهات معينة ، فتبنى البعض فكرة الاتحاد مع المغرب بينما تبنى الآخرون فكرة الاســتقلال ٠ وفى يوليو ١٩٧٣ توجه هؤلاء بعدة مطالب الى الحكومة الأسبانية جاء فيها ضرورة ايجاد

جهاز ادارى من أبناء الصحراء وتهيئة الظروف المناسبة ليتقلد ذلك الجهاز الادارة الذاتية كمرحلة أولى نحو الاستقلال ·

وعموما فقد كانت خطة أسبانيا فى هذه الفترة ، هى أن تطور نوعا من الحكم المحلى ، على أن تحتفظ هى بالسيادة العليا ، وبالفعل أسست مجلسا محليا ، وظلت تعارض حق تقرير المصير حتى صيف عام ١٩٧٤ ، ويرجح أن من بين العوامل التى غيرت من سياسة أسبانيا تجاه الصحراء ، عدم قدرة فرانكو فى سنه المتقدمة على المجابهة الدولية وخاصة بعد تغيير البرتغال لسياستها الاستعمارية ، ويمكن أن نضيف الى ذلك نشأة حركة مقاومة مسلحة حينما أعلنت فى ١٧ نوفمبر ١٩٧٥ اثنتا وعشرين شخصية صحراوية فى نواكشوط ، عن ميلاد جبهة لتحرير الصحراء ، وضمها الى موريتانيا ، وقد قامت جبهة البوليزاريو بعمليات ضد أسبانيا ذاتها من موريتانيا ·

وتلى ذلك اعلان الحكومة الأسبانية حق تقرير المصير فى يوليو(٣) ١٩٧٤ ، حيث وجه الجنرال فرانكو بيانا الى سكان الصحراء جاء فيه :

أولا : تأكيد أن الشعب الصحراوى هو وحده الذى يملك ارادته ، ولذلك فان أسبانيا ستدافع عن تلك الارادة ·

ثانيا : تضمن أسبانيا وحدة اقليم الصحراء وتنص فى تحقيق التطور الاقتصادى والاجتماعى وازدهار الدين الاسلامى ، وتعلن بأن ثروات الصحراء هى من حق أبنائها ·

ثالثا : يتم تطبيق تقرير المصير حينما يكون شعب الصحراء فى وضعية تمكنه من تحمل تبعاته والتزاماته ، وتمهيدا لذلك ستقيم أسبانيا نظاما خاصا بالصحراء يضمن مشاركتهم تدريجيا فى تسيير شئونهم ويفضى بهم الى تحمل مسئولياتهم فى نطاق من التكافل ·

ومع تأكيد هذه الحقوق فقد تضمن البيان ما يفيد استمرار السيادة الأسبانية ، من ذلك أن أسبانيا هى التى تمثل اقليم الصحراء فى الشئون الخارجية وتتولى شئون الدفاع ·

---

(٣) Cour Internationale de Justice Sahara Occidental Expose ecrit du Gouvernment Espagnal Mars, 1975 pp. 111 354.

ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلاف يظهر بين الدول الثلاث المغرب - موريتانيا - الجزائر والتى عرفت بكونها الدول المعنية حيث سبق لها أن عقدت اتفاقا عام ١٩٧٠ ينص على أن تنسق جهودها لتصفية الوجود الأسبانى ، وكان ذلك فى مؤتمر قمة ثلاثى ، عقده رؤساء تلك الدول ، ثم تلاه مؤتمر قمة آخر فى يونيو ١٩٧٣ فى أغادير ، وفى هذين المؤتمرين قرر رؤساء الدول الثلاثة تقرير تعاونهم من أجل سرعة تحرير هذه المنطقة ، وكلفت لجنة ثلاثية ، من وزراء خارجية الدول المعنية منذ مؤتمر عام ١٩٧٠ فى نواذيبو ، كى تتم متابعة عملية تحرير الصحراء سياسيا ودبلوماسيا .

وقد ظهرت عقبات للتوفيق فى وجهات النظر ، حتى أن اللجنة لم تستطع أن تستأنف عملها ، فلم تعقد سوى اجتماع واحد فى يناير ١٩٧٢ ، ولكن يبدو أن الحسن الثانى الذى لم يوفق فى نزاع الحدود مع الجزائر ، مواجه مشكلات حجة فى دعاويه على موريتانيا بشأن اقتسام الصحراء واستبعاد الجزائر ، قد تم تحقيق الجزء الأول فى خلال انعقاد مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الافريقية بالرباط فى ١٩٧٢ ، حين اتفقت موريتانيا والمغرب على تحديد منطقتى نفوذ احداهما لموريتانيا ، والأخرى للمغرب ، واشترك الرئيس الراحل هوارى بومدين فى هذا الاتفاق ، بل وأعرب عن موافقته عليه وتأييده له .

التطـــور التـــاريخي للمشـــكلة

١ - مشكلة الصحراء (١٩٥٦ - ١٩٦٣) :

يعتبر « المغرب الكبير » مطلبا اقليميا مغربيا ، ومن المعروف أن المغرب قد حصل على استقلاله الوطنى بعد مفاوضات أجراها حزب الاستقلال مـــع فرنسا في مارس ١٩٥٦ ، وفى ابريل من نفس العام جرت مفاوضـــات بين المغرب وأسبانيا ، أسفرت عن اعلان الأخيرة التخلى عن حقوقها فى المنطقـــة الشمالية من المغرب باستثناء سبته ومليلية وكما رفضت أسبانيا التخلى عن المنطقة الجنوبية وهى الصحراء الأسبانية والتى تواجه جزر كانارى فى المحيط الأطلسى ظلت المغرب تنادى باعادة النظر فى حدوده بناء على مبررات تاريخية تعتبر الصحراء جزءا من التراب المغربى ، وقام الجيش المغربى بعدة عمليات عسكرية ضد القوات الأسبانية فى الصحراء أدت الى اجبار هذه الأخيرة على التراجع عن عدة مدن ساحلية هى « طرفاية » و« العيون» و«فيللاسيمنيروس» وقد تجددت هذه الاشتباكات بالقرب من مدينة « العيون » ونتج عنها التجاء الكثير من سكان الصحراء الى طرفاية والى اقليم أغادير والى موريتانيـــا . واضطر الأسبان الى التقهقر مرة أخرى عقب اشتباكات نوفمبر ١٩٥٧ حين قام جيش التحرير المغربى بهجومه العنيف على الأسبان فى اقليم « ويفنى » وهو ما جعل الأسبان يتراجعون الى عاصمة الاقليم « سيدى ايفنى » .

وفى يناير ١٩٥٨ صدر قانون أسبانى بانشاء « اقليم الصحراء » وهو منفصل عن اقليم « ايفنى » ، وبمقتضى هذا القانون فقد تولى الادارة « المقيم العام التابع لرئاسة الحكومة » كما أصبح الاقليم ممثلا فى البرلمـــان الأسبانى « الكورتيس » بثلاثة نواب وبذا أدمجت أسبانيا الصحراء ضمن أقاليمها . وكان رد فعل هذه الأحداث على الصعيد المغربى هو الخطاب الذى ألقاه الملك محمد الخامس فى « محميد » بوادى دراع فى ٢٥ يناير ١٩٥٨ - وفى هـــذا الخطاب أكد الملك محمد الخامس رغبته فى مواصلة الجهود لاستعادة الصحراء وطلب من القبائل الصحراوية تجديد ولائها له ومؤزرته بشأن هذه استعادة الصحراء . وقد جاء الخطاب الملكى بمثابة تحذير مغربى موجه لفرنسا والتى كانت قد شرعت فى انشاء ما سمى بالمنظمة المشتركة للأقاليم الصحراوية ، غير أن كل من المغرب وأسبانيا أنهيا القتال بينهما بشـــأن الصحراء وذلك بتوقيع الطرفين لمعاهدة « سينترا » فى مارس ١٩٥٨ حين قررت أســـبانيا التخلى عن اقليم « طرفاية » وتسليمه للمغرب .

وقد اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال دورتها الخامسة عشرة ، القرار رقم ١٥١٤ الذى يتضمن الاعلان عن منح الاستقلال للبلاد والشعوب المستعمرة ، وفى ابريل ١٩٦١ أصدرت الحكومة الأسبانية قانونا ينص على أن مدينة « العيون » فى اقليم الساقية الحمراء قد أصبحت عاصمة الاقليم ، وأقامت أسبانيا فى العاصمة الجديدة مجلسا اقليميا يمثل السكان • أما دخول الجزائر كطرف فى مشكلة الصحراء المعاصرة فقد أخذ يظهر هو الآخر فى الأسبوع الأول من يوليو ١٩٦١ حين وقعت الحكومة المغربية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بروتوكولا سريا ينص على أن تتم تسوية مشكلة الحدود بين الجزائر والمغرب من خلال مفاوضات تجرى بين حكومة المملكة المغربية وحكومة الجزائر المستقلة • أما على صعيد علاقة أسبانيا بمشكلة الصحراء وقتئذ ، فقد أصدر رئيس المجلس الأسبانى مرسوما ينص على انشاء ادارة خاصة باقليم الصحراء ، يتولى بمقتضاه المجلس البلدى فى الاقليم الشئون الادارية ، أما فيما يتعلق بالكيانات المحلية والقبائل ، فقد تركت اداراتها لمجلس محلى ، وكان يقف على قمة ادارة الاقليم « المحافظ الاقليمى » الأسبانى ، وفى يناير ١٩٦٣ جرى لقاء فى مدريد بين الملك الحسن والجنرال فرانكو تناول فيه الجانبان مشكلة « ايفنى » • وتجدر الاشارة أن هذه الفترة قد شهدت ميلاد منظمة الوحدة الافريقيه وصدور ميثاقها الذى نص على مبدأ احترام الوحدة الاقليمية لجميع الدول الأعضاء فى المنظمة وعلى تسوية النزاعات بين هذه الدول بالمسائل السلمية •

وقد وقع المغرب على ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، ولكنه أبدى تحفظا يتعلق بمشكلة حدوده وأوضح أن توقيع الميثاق لا يمكن أن يفسر على أنه اعتراف علنى أو ضمنى بالأمر الواقع الذى يرفضه المغرب ، أو أنه تخلى عن مواصلة تحقيق حقوقه بالوسائل الشرعية التى يملكها ، اشارة منه الى الصراع المسلح مع الجزائر ، وبالفعل قام نزاع مسلح بين المغرب والجزائر فى منطقة « حسى بيضه » و « تنجوب » ثم امتد الى « فيجيج » ، وفى اطار منظمة الوحدة الافريقية تم وقتئذ - جزئيا على الأقل - التوقيع فى باماكو على اتفاقية بين الجزائر(١) والمغرب ، تنص على تشكيل لجنة للتحكيم تابعة

---

(١) كانت الجزائر قد حصلت على استقلالها الوطنى بعد اجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية ، أسفرت عن اتفاقيات « ايفيان » ، وفى حين أن الجزائر كانت قد وقعت فى عام ١٩٦١ عن طريق حكومتها المؤقتة ، بروتوكولا سريا بشأن تسوية الحدود مع المغرب ، فقد وقعت اتفاقية باماكو بين البلدين وبعد حصول الجزائر على استقلالها •

لمنظمة الوحدة الافريقيـــة لتحديد مسئوليات الأطراف فى النزاع وعـــلى انسحاب القوات على الجنبين ، مع تولى عسكريين أثيوبيين وعسكريين من مالى للمحافظة على الأمن والحياد داخل المنطقة الفاصلة ٠

٢ - مشكلة الصحراء أمام الأمم المتحدة :

كانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد أصدرت فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠ قرارا يتضمن الاعلان عن منح الاستقلال للبلاد والشعوب المستعمرة ٠ وفيما يتعلق بالصحراء الأسبانية ٠ فقد وضع هذا القرار موضع التنفيذ عام ١٩٦٤ حين شرعت لجنة تصفية الاستعمار التابعة للجمعية العامة فى تطبيق مبادىء القرار المذكور وفى ١٦ ديسمبر ١٩٦٥ اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالاجماع - مع استثناء أسبانيا والبرتغال - القرار رقم ٢٠٧٢ الذى يطالب الحكومة الأسبانية بصفتها الدولة الحاكمة ، باتخـاذ الاجراءات اللازمة فورا لتحرير اقليمى « ايفنى » و « الصحراء الأسبانية » من السيطرة الاستعمارية، وبالبدء فى اجراء مفاوضات حول المســائل التى تتعلق بالسيادة لهـذين الاقليمين ٠ وجاء هذا القرار(٢) من جانب الجمعية العامة بشأن اقليمى ايفنى والصحراء الأسبانية استنادا الى تقريرى اللجنة الخاصة المعنية بحالة تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة ، كما جاء فى ديباجة هذا القرار : أن الجمعية العامة « اذ تشير الى اعـــلان منح الاســتقلال للبلدان والشعوب المستعمرة الوارد فى قرارها ١٥١٤ ، الدورة ١٥ ، المتخذ فى ١٤ ديسمبر عام ١٩٦٠ ، واذ تذكر أن الاعلان مستوحى من رغبة المجتمع الدولى القوية فى انهاء الاستعمار بكافة صوره وحيثما وجد :

١ - تقرر أحكام القرار المتعلقة بايفنى والصحراء الأسبانية والمتخذ فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ من اللجنة الخاصة المعنية بحالة تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة ٠

٢ - وترجو بالحاح من حكومة أســبانيا ، بوصفها الدولة القــائمة بالادارة ، القيام فورا باتخاذ جميـــع التدابير اللازمة لتحديد اقليمى ايفنى والصحراء الأسبانية من السيطرة الاستعمارية ، والدخول ، لهذا الغرض ، فى مفاوضات بشأن مشاكل السيادة التى يثيرها هذان الاقليمان ٠

---

(٢) راجع نص هذا القرار وكافة قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٦٥ - ١٩٧٤

٣ — وتدعو اللجنة الخاصة الى اعلام الجمعية العامة للأمم المتحـــدة فى دورتها الحادية والعشرين بشأن تنفيذ هذا القرار ٠

٤ — وترجو من الأمين العام انهاء هـــذا القرار الى الدولة القـــائمة بالادارة » ٠

وفى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٦ اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، القرار رقم ٢٢٢٩ الذى أشار الى أن أسبانيا لم تطبق المبادىء التى تضمنها القرار رقم ١٥١٤ فى ديسمبر ١٩٦٠ فيمـــا يتعلق باقليمى ايفنى والصـــحراء « الأسبانية » ، وطالب القرار الحكومة الأسبانية بالتشاور مع حكومتى المغرب وموريتانيا وأى طرف يعنى بهذه المشكلة بوضـــع الترتيبات اللازمة لاجراء استفتاء يتم باشراف الأمم المتحـــدة لاتاحة فرصه للســـكان فى الصحراء الأسبانيه بممارسة حقهم فى تقرير المصير ٠ وقد جاء هذا القرار قاطعا بشأن حق شعبى ايفنى والصحراء الأسبانية ٠ غير قابل للتصرف فى تقرير المصير، كذلك فقد أقر القرار الفصل المتعلق بالاقليمين من تقرير اللجنة الخاصـــة بحالة تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشـــعوب المستعمرة ، وتأييد القرار الذى اتخذته اللجنة الخاصة فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٦ ، وطلب القرار الى الدولة القائمة بالادارة — أى أســـبانيا — أن تتخذ فورا الخطوات الـــلازمة للتعجيل بانهاء الاستعمار فى ايفنى وأن تقرر مع حكومة المغرب — ومع مراعاة أمانى السكان الوطنيين — الاجـــراءات اللازمة لنقل السلطات الى الســـكان الوطنيين ، كما دعا القرار أسبانيا بصفتها الدولة القائمة بالادارة أن تتشاور مع حكومتى موريتانيا والمغرب وأى طرف معنى آخر بتقرير الاجراءات اللازمة لعقد استفتاء برعاية الأمم المتحدة بهدف تمكين سكان الاقليم من استعمال حقهم فى تقرير المصير بحرية ، وذلك بتهيئة الجو الملائم لاجراء الاستفتاء على أساس حر ديموقراطى نزيه تماما ، وبالسماح بعودة المنفيين بصفة خاصـــة الى الاقليم ، وعدم اجراء أى عمل من شأنه تأخير عملية انهاء الاستعمار فى الصحراء الأسبانية مع توفير كل التســـهيلات اللازمة لبعثة الأمم المتحـــدة وتمكينها من الاشتراك الايجابى فى تنظيم الاستفتاء ٠

وفى ١١ مايو ١٩٦٧ أصدرت أسبانيا مرسوما بانشاء « الجمعية العامة للصحراء » وهى تضم رؤساء القبائل ، بهدف تولى الشئون الخاصة بالاقليم٠ وفى ١٩ ديسمبر ١٩٦٧ اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحـــــدة القرار رقم ٢٣٥٤ الذى يلح على الحكومة الأسبانية بتطبيق مبادىء حق تقرير المصير على سكان « الصحراء الأسبانية » ، كذلك فقـــد كررت الأمم المتحدة مطالبـــة

الحكومة الأسبانية بتطبيق مبادىء حق تقرير المصير على سكان الصحراء الأسبانية وذلك فى القرار رقم ٢٤٢٨ بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩٦٨ ، وقد أعرب هذا القرار عن أسف الجمعية العامة للأمم المتحدة بسبب عدم انمام المشاورات بين الدولة القائمة بالادارة والحكومات المعتنية بموضوع تنظيم الاستفتاء ، كذلك أعرب القرار رقم ٢٧١١ فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٠ عن أسف الجمعية العامة للأمم المتحدة للأحداث الدموية التى وقعت فى الاقليم فى يونيو ١٩٧٠ ، وطالب القرار من الحكومة الأسبانية بصفتها الدولة القائمة بالادارة فى الاقليم ــ اتخاذ الاجراءات الفعالة الكفيلة بخلق جو من الوفاق الضرورى لحسن سير عمليات الاستفتاء كما حددتها القرارات الأصلية للجمعية العامة ، وقد كرر هذا القرار دعوة الدولة القائمة بالادارة الى الاضطلاع بالتشاور مع حكومتى المغرب وموريتانيا وأى طرف آخر معنى بالأمر ، بتقرير الاجراءات اللازمة لعقد استفتاء برعاية الأمم المتحدة ، وقد أكد هذا القرار على ضرورة تنفيذ كافة البنود الواردة بالقرار رقم ٢٤٢٨ فى ١٨ ديسمبر ١٩٦٨ والذى سبقت الاشارة اليه .

وتجدر الاشارة الى أن عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ قد شهدا تطورات هامة على صعيد الأطراف الاقليميين لمشكلة الصحراء ففى ٤ ينـاير ١٩٦٩ وقعت أسبانيا والمغرب معاهدة « فاس » التى تنص على تخلى أسبانيا عن « ايفنى » للمغرب الذى تسلم رسميا الاقليم فى ٣٠ يونيو من نفس العام ، كذلك فقد تم فى ١٠ يناير توقيع معاهدة « ايفران » بين المغرب والجزائر . وقد نصت المعاهدة على « علاقات الأخوة والصداقة وحسن الجوار » بين الدولتين ، كذلك فقد عقد لقاء فى الدار البيضاء بين الملك الحسن الثانى والرئيس ولد داده فى ٨ يونيو ١٩٦٩ ، وأسفر هذا اللقاء عن ابرام معاهدة بين البلدين (المغرب وموريتانيا) على غرار معاهدة « ايفران » المغربية الجزائرية ، وأهم ما جاء فى هذه المعاهدة هو أن يتبع البلدان سلوكا سياسيا موحدا من أجل الاسراع بتحرير الصحراء الواقعة تحت السيطرة الأسبانية .

وشهد شهر ديسمبر من هذا العام ــ ١٩٦٩ ــ حدثين هامين على صعيد حق تقرير المصير فى الصحراء ، ففى ١٦ ديسمبر اعتمدت الجمعية العـامة للأمم المتحدة فى الدورة الرابعة والعشرين ، قرارا يكرر مرة أخرى مطالبة أسبانيا بتطبيق مبادىء تقرير المصير على سكان « الصحراء الأسبانية » ، أما الحادث الثانى فجاء من جانب الحكومة الأسـبانية التى أنشأت فى ٢٠ ديسمبر ، الادارة العامة للنهوض بالصحراء وذلك فى العاصمة الأسـبانية مدريد لكى تحل محل « ادارة الممتلكات وأقاليم افريقية الأسبانية » ، ويعنى

ذلك أن الحكومة الأسبانية لم تستجب الى قرار الأمم المتحدة سالف الذكر بشأن حق تقرير المصير لسكان الصحراء .

وكان لذلك انعكاساته على صعيد الدول العربية المجاورة للصحراء ، ففى خلال شهر يونيو ١٩٧٠ وقع كل من المغرب وموريتانيا معاهدة الدار البيضاء ، وقد نصت هذه المعاهدة على تخلى المغرب عن مطالبه الخاصة باقامة « المغرب الكبير » الذى تمتد حدوده حتى السنغال ، وبهـذا انتهى الخلاف القديم بين البلدين . أما على صعيد سكان الصحراء ، فقد حدثت اضطرابات فى مدينة العيون خلال نفس الشهر ، قام بها السكان احتجاجا على ابقـاء النظام الاستعمارى الأسبانى فى « الصحراء » ، وقد ردت السلطات الأسبانية على ذلك بعمليات قمع واعتقالات وطرد للسكان ، ولم يحل ذلك دون مطالبة الدول العربية المجاورة بتصفية الاستعمار فى منطقـة الصحراء ، ففى ١٤ سبتمبر ١٩٧٠ انعقد لقاء ثلاثى للقمة فى نواديبو بموريتانيا ، بين الرئيس مختار ولد داده والملك الحسن الثانى والرئيس هوارى بو مدين ، وصـدر بيان ثلاثى يؤيد « نية الرؤساء الثلاثة ، على تنمية التعاون الوثيق بين الدول الثلاثة للتعجيل بتصفية الاستعمار فى الصحراء الأسبانية ، وفقـا لقرارات الأمم المتحدة ، كذلك أدى هذا اللقاء الى اعتراف جـديد للمغرب باستقلال موريتانيا كما صدر فى ٢٠ سبتمبر ، بيان جزائرى موريتانى جاء فيـه : « فيما يتعلق بمسألة تحرير الصحراء الواقعة تحت السيطرة الأسبانية ، أعرب الرئيسان عن ارتياحهمـا العميق للنتائج الايجـابية لقمة نواديبو الثلاثية ، والتى تقرر أثناءها تدعيم التعاون الوثيق بين البلدان الثلاثة ، من أجل التعجيل بتحرير هذه الأراضى من الاستعمار ، وذلك وفقا لقرار منظمة الأمم المتحدة ... » .

أما الجزائر ، فقد أيدت ومنذ تلك الفترة قضية سكان الصحراء ولكن دون ما تراه المغرب ، ففى ديسمبر ١٩٧٠ تكونت فى الجزائر ، « حـركة مقاومة للرجال الزرق » « مورحوب » ، يتزعمها « ادوار موحى » أشـم حركى ، الذى ينتمى الى قبائل « الرقيبات » وهى حركة تطالب باقامة دولة مستقلة فى الصحراء الغربية ، كما ترفض أى تعـاون مـع أسبانيا ، وأى صيغة للتقارب مع المغرب أو موريتانيا ، كذلك فقد نادت الحركة باقامة نظام ديموقراطى شعبى فى الصحراء الأسبانية ، وأشيع أن لهذه الحركة علاقات مع الحزب الشيوعى الأسبانى ، وأيضا مع الحركة لتقرير مصير واستقلال جزر كانارى التى مقرها فى الجزائر .

وشهدت الفترة التالية سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حول مطالبة الأمم المتحدة لأسبانيا بتطبيق حق تقرير المصير على سكان الصحراء وما أثاره ذلك من ردود فعل مختلفة • ففى ١٤ ديسمبر ١٩٧٠ ، اعتمدت الجمعية العامة للامم المتحدة فى دورتها الخامسة والعشرين القرار رقم ٢٧١١ الذى يطالب أسبانيا بتطبيق حق تقرير المصير على سكان الصحراء الأسبانية وفقا للقرار ١٥١٤ الذى كان قد صدر فى ١٢ ديسمبر ١٩٦٠ ، وكان رد الفعل المناوىء من جانب أسبانيا ، هو اعلان السلطات الأسبانية فى ٧ مارس ١٩٧٢ حالة الطوارىء فى الصحراء ، على اثر مظاهرات عنيفة قامت فى فيلاسنسيروس وداخلة والعيون •

وعلى صعيد كل من المغرب والجزائر ، فقد تم فى الرباط فى ١٥ يونيو ١٩٧٢ توقيع اتفاقية بين البلدين تخلى المغرب بمقتضاها عن المطالبة بالصحراء الجزائرية ، وخاصة « تندوف » موضع النزاع المسلح الذى قام فى أكتوبر ١٩٦٣ ، كما اعترف بأن « وادى دراع » يشكل الحدود الطبيعية الفاصلة بين الدولتين ، أما الجزائر فقد تعهدت من جانبها باشراك المغرب فى عملية استغلال الحديد المستخرج من « كاره جبيلات » بتندوف ، وكذا بالمساندة الدبلوماسية للمغرب فى مطالبته بالصحراء الأسبانية ، والمعروف أن هذه الاتفاقيات قد تم التصديق عليها من قبل الجزائر ، فى حين أن المغرب لم يصدق عليها ، ويتبع ذلك تكوين الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء وساحل الذهب المعروفة بالبوليساريو •

وفى ٢٦ فبراير ١٩٧٣ قام الرئيس الموريتانى المختار ولد داده بزيارة للجزائر ، أدت الى اصدار بيان مشترك جزائرى موريتانى ، جاء فيه أن الطرفين « يجددان تضامنهما للقرارات التى اتخذتها منظمة الأمم المتحدة ، ومنظمة الوحدة الافريقية ودول عدم الانحياز ، فيما يتعلق بالوضع فى الصحراء المسماة بالأسبانية • كما قرر الطرفان الاستمرار فى النظر فى هذه القضية ، وفى تنسيق جهودهما للاسراع بحركة اقلاع الاستعمار من هذه الأرض ، ومن أجل نصرة حق تقرير المصير » • وشهدت الفترة التالية تعدد اللقاءات والزيارات بين المسئولين فى كل من المغرب وموريتانيا والجزائر ، ففى الفترة من ١ — ٤ يوليو ١٩٧٣ قام وزير الخارجية الجزائرى بزيارة للرباط ، أدت الى اصدار بيان مشترك جزائرى مغربى جاء فيه : « أن الجانبين المغربى والجزائرى ، قد أعربا عن اقتناعهما بضرورة احكام وسائل التنسيق بينهما لوضع حد عاجل للاحتلال الأسبانى • ولمحاولات الحكومة

الأسبانية للابقاء بصورة أو بأخرى على نفوذها فى الصحراء ٠٠٠ » ، كذلك جرى لقاء جديد بين رؤساء المغرب والجزائر وموريتانيا فى آجادير بالمغرب ، وقد التقى الرؤساء الثلاثة بتأكد ضرورة « تصفية الاستعمار فى الصحراء الأسبانية » ، وذلك دون ذكر أى شيء عن مستقبل الاقليم ٠

أما الجنرال فرانكو فى أسبانيا فقد انعكس رد فعله على هذه الأحداث فى الخطاب الذى وجهه الى الجمعية العامة للصحراء ، أكد فيه تعهد حكومته بضمان ممارسة شعب الصحراء لحقه فى تقرير مصيره ، كما عرض على سكان الاقليم وضعا جديدا ، يؤدى فى المستقبل الى استقلال ذاتى — من وجهة نظره — ثم بعدها يتم اجراء استفتاء لتقرير مصير الشعب الصحراوى ، وقد أدت هذه التصريحات ، الى قيام مظاهرات فى « العيون » والى عمليات قمع شديدة تجاه سكان الصحراء من جانب السلطات الأسبانية ، فكان أن اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ فى دورتها الثامنة والعشرين ، قرارا جاء بمثابة محصلة للقرارات السابقة المتعلقة بالصحراء المسماة بالأسبانية ، ويعلن بأن الابقاء على الوضع الاستعمارى فى الاقليم ، يهدد الاستقرار فى منطقة شمال غرب افريقيا ، ويكرر شرعية النضال الذى تقوده الشعوب المستعمرة ، كما عبر هذا القرار عن تضامنه التام مع سكان الصحراء الخاضعة للسيطرة الأسبانية ٠

٣ — تطور النزاع (١٩٧٤ — ١٩٧٥) :

فى ١٨ يونيو ١٩٧٤ تلقى الأمين العام للأمم المتحدة ، تقريرا من الحكومة الأسبانية ، تناول الوضع الراهن فى الصحراء الغربية ، وقد جاء فى هذا التقرير أن الشعب الصحراوى هو صاحب الثروة التى تحتوى عليها أرضه ، وأنه ستكون « للصحراويين » جميع الحقوق التى يتمتع بها المواطن الأسبانى ، وأن أسبانيا ستعمل على تأمين وحدة تراب الصحراء الغربية ، كما ستمثله فى العلاقات الدولية ، وجاء أيضا فى التقرير ، أن هذا الوضع الجديد ، لن يمس بشيء ، حق تقرير المصير الذى تملكه السكان ، وأنه لا يشكل سوى مرحلة انتقالية لحين ممارسة هذا الحق ٠ وقد بادرت أسبانيا بوضع ذلك التقرير موضع التنفيذ فى ٣ يوليو ١٩٧٤ حين أبلغ وزير الخارجية الأسبانى ، سفراء المغرب وموريتانيا والجزائر فى مدريد ، بقرب الاعلان عن « الصحراء الأسبانية الجديدة » الذى يهدف الى تحقيق تقرير المصير » ٠

وكان أول وأقوى رد فعل للتقرير الأسبانى سالف الذكر هو رد الفعل المغربى ، ففى اليوم التالى مباشرة ، رد الملك الحسن الثانى ، برسالة بعث بها الى الجنرال فرانكو ، ذكر فيها التدهور الشديد فى العلاقات ، بين المغرب وأسبانيا ، نتيجة المبادرة من طرف واحد ، التى قامت بها أسبانيا فى الاقليم الصحراوى ، والتى تضع المغرب أمام الضرورة فى الدفاع عن حقوقه « الشرعية » . وفى ٨ يوليو ١٩٧٤ ألقى الملك الحسن الثانى خطابا ، بمناسبة احتفالات الشباب فى مدينة « فاس » تناول فيه التطورات الجارية فى الصحراء الغربية ، كما أوضح موقفه من الاستفتاء الذى تريده أسبانيا قالائلا : « ان السؤال الذى يجب أن يستفتى عليه السكان ، هو : هل ترغبون فى البقاء تحت وصاية الدولة التى تحتلكم ، أم العودة الى الوطن ـ الأم ؟ » ، وأضاف الملك الحسن الثانى أن مصالح أسبانيا الاستراتيجية ، يمكن أن يضمنها لها المغرب ، بمنحه أسبانيا ، قواعد عسكرية لمدة محدودة ، وذلك مقابل الاعتراف الأسبانى بالسيادة المغربية على الاقليم . كذلك أعرب الملك الحسن الثانى ، عن استعداده لتوقيع اتفاقية أسبانية مغربية ، تنص على الاستغلال المشترك بين البلدين للثروات المائية والبرية ، التى يحتوى عليها اقليم الصحراء .

وتبع ذلك أيضا ، قيام المغرب بحملة صحفية تهاجم فيها « نوايا الجزائر » من جراء عدم مساندتها للمطالب المغربية على الاقليم الصحراوى . وقد ردت الجزائر هى الأخرى بحملة مضادة عنيفة ، تؤكد وقوفها « بجانب تحرير الصحراء المسماة بالاسبانية » ، وفى ٢٠ أغسطس ١٩٧٤ ، أعلن الملك الحسن الثانى ، أن حكومته قد شرعت فى حملة دبلوماسية مكثفة ، لصالح الاعتراف بحقوق المغرب على الصحراء الأسبانية ، كما صرح الملك عن عدم تردده فى ادارة حرب ، اذا اقتضى الأمر ذلك ، لانتزاع هذا الاعتراف . وفيما نص الاستفتاء الأسبانى ، طالب الملك الحسن ، بأن يتم هذا الاستفتاء ، بضمانات داخلية وتحت اشراف دولى ، وبعد انسحاب القوات والادارة الأسبانية من الاقليم » . أما موريتانيا فجاء رد فعلها فى اليوم فى المذكرة التى سلمتها الحكومة الموريتانية الى الأمم المتحدة ، تؤكد فيها أن الصحراء الخاضعة للادارة الأسبانية ، جزء لا يتجزأ من موريتانيا . وأن الحكومة الموريتانية لن تكلف أى أحد مهمة التفاوض نيابة عنها مع الدولة التى تدير الاقليم لتقرير مستقبله ، لهذا طالبت المذكرة الموريتانية ، باضافة سؤال آخر فى الاستفتاء الذى سينظم فى الاقليم ، وهو سؤال يتعلق بضم الاقليم الى الجمهورية الاسلامية الموريتانية .

وفى ٢١ أغسطس ١٩٧٤ أبلغت الحكومة الأسبانية ، الأمين العام للأمم المتحدة ، عن نيتها فى الشروع فى اجراء استفتاء لتقرير المصير فى الصحراء خلال النصف الأول من عام ١٩٧٥ ، وذلك بضمان من المنظمة الدوليــة ، ومرة أخرى يأتى رد الفعل المغربى مناهضا لذلك حين ألقى الملك الحسن كلمة فى مدينة أجادير فى ٢ سبتمبر ١٩٧٤ يعلن فيها عن سروعه فى تنفيــذ « خطة عاجله على الصعيدين الاقليمى والمحلى لتنمية اقليم طرفاية » نظرا لأن هذا الاقليم قادر على القيام بدور الرابطة بين الوطن ـ الأم والصحراء بعـد استعادتها . وذلك لتمكين سكان الساقية الحمراء ووادى الذهب بكسر العزلة التى تحيط بهم ، والتى فرضت عليهم ، وأقصدتهم عن اقواتهم . ونتيجـة لهذه العوامل مجتمعة ـ الرفض المغربى ، ودخول موريتانيا كطرف له مطالب فى الصحراء ـ تأيد الجزائر البوليساريو ـ نتيجة لذلك ، عشلت الاتصالات التى أجرتها الحكومة الاسبانية مع هذه الدول فى الوصول الى اتفاق وصرحت « الادارة العامة للنهوض بالصحراء » فى بيان لها ، بأن السكان الصحراويين هم وحدهم الذين يملكون الحق الشرعى فى تقرير مصيرهم وقد عقــد الملك الحسن مؤتمرا صحفيا ، أكد فيه أن الصحراء الأسبانية أرض مغربية ، وأنها يجب أن تعود الى المملكة المغربية . ولكنه أضاف أنه يأمل فى أن يتحقق ذلك عن طريق التفاوض كما ن المغرب سيطلب رأى محكمة العدل الدولية ، لمعرفة ما اذا كانت للمغرب حقوق تاريخية على الاقليم ، أما موريتانيا ، فان المحكمة الدولية ستحدد لها اذا كانت معنية بالأمر أيضا ، ولكن بأى حال من الأحوال كما أضاف العاهل المغربى ـ فان الجزائر لم تكن أبدا معنية بالصحراء ، وأنها أعلنت ذلك رسميا .

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٧٤ شرعت السلطات الأسبانية فى اجراء تعـداد لســكان « الاقليم الصحراوى » ، وذلك دون الســماح بعودة « المنفيين السياسيين » ، واكتفت باعتبار الـ ٦٠ ألفا من الأشخاص الذين بقوا فى الاقليم ، حم الشعب الصحراوى . وكانت الأمم المتحدة قد عقدت دورتهـا التاسعة والعشرين حيث طرح الوفد الغربى التساؤلات الآتية أمام الجمعية العامة : هل الاقليمين الصحراويين كانا فى الأصـــل ، وكما تدعى الحكومة الأسبانية خاليين من السكان ، وأقاليم دون صاحب ؟ « أم هل كانا وقت أن أحتلتهما أسبانيا ، تابعين لسيادة وادارة الحكومة المغربية » ، ودعا الممثل المغربى « الحــكومة الموريتانية الشــقيقة » الى المطـــالبة مع المغرب بالرأى الاستشارى الذى ستدلى به محكمة العدل الدولية ، وقد قامت موريتانيا بذلك أما الوفد الأسبانى ، فقد أبدى احترامه لقرارات الجمعية العامة ، وأعرب عن

رغبة بلاده ، فى تطبيق آخر قرار — أى قرار ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ — ، باجراء استفتاء يتفق مع ما نص عليه هذا القرار . وقد وافق الممثل الجزائرى أيضا ، على عرض القضية على محكمة العدل الدولية لتوضيح الجوانب القانونية والتاريخية للمشكلة ، وأن أضاف أن « رأى السكان المعنيين مباشرة ، سيشكل دائما العنصر الأساسى والحاسم فى أية تسوية وعلى هذا ، شرعت ٣٥ دولة أفريقية وعربية ، بما فيها المغرب وموريتانيا ، — فى وضع مشروع قرار ، يطلب الرأى الاستشارى من محكمة العدل الدولية .

وقد أدلى الملك الحسن الثانى فى ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣ بتصريح جاء فيه أن « المغرب وموريتانيا قد اتفقا على عدم اتاحة الفرصة لأى أحد فى القول بأننا غير متفقين ، حول الصحراء الأسبانية » ، وكان من جراء توالى الاشتباكات بين الجنود الأسبان ، وسكان الصحراء فى جديرة ثم بالقرب من تيفاريتى — كان من جراء هذين الحديثين — اتفاق المغرب وموريتانيا والاجراءاتالأسبانية القمعية تجاه سكان الصحراء — أن اعتمدت لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة ، مشروع القرار الذى تقدمت به ٣٥ دولة ، الى الجمعية العامة ، والذى يطرح على محكمة العدل الدولية لابداء رأى استشارى » السؤالين الآتيين : (١) هل كانت الصحراء الغربية « وادى الذهب والساقية الحمراء » أرضا دون صاحب عندما احتلتها أسبانيا ؟ فاذا كان الرد على ذلك بالنفى ، يأتى السؤال الثانى . ، (٢) ماذا تكون عليه العلاقات القانونية القادمة بين هذا الاقليم من جهة ، والمملكة المغربية وجمهورية موريتانيا ؟ . وعموما فقد حصل المشروع على ٨٠ صوتا ضد لا شىء ، وامتنعت ٤٣ دولة عن التصويت .

وفى ١٣ ديسمبر ١٩٧٤ ، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، القرار رقم ٢٢٩٢ الذى وافقت عليه لجنة تصفية الاستعمار بأغلبية ٨٨ صوتا مقابل ٤٣ دولة وامتنعت عن التصويت ٧ دول — لم تحضر من بينها الصين ومن بين الدول التى أيدت القرار : الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفيتى ومعظم دول العالم الثالث والكتلة الاشتراكية ، أما الدول التى امتنعت عن التصويت ، فقد كان من بينها : أسبانيا وألمانيا الاتحادية وبلجيكا وفنلندا وهولندا ومعظم دول أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية ، ونظرا لاهمية هذا القرار فسوف نورد هنا موجزا له فقد جاء فى ديباجة القرار ما يلى :

« أن الجمعية العامة .... اذ تعتبر أن استمرار قيام حالة استعمارية فى الاقليم ، يعرض الاستقرار والوئام فى افريقيا الشمالية الغربية للخطر ،

واذ تأخذ بعين الاعتبـار ، البيانات الصـادرة أمام الجمعية العـامة يومى ٣٠ سبتمبر ، ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٤ ، من قبل وزراء خارجية كل من المملكة المغربية ، وجمهورية موريتانيا الاسلامية ، واذ تسجل البيانات الصادرة أمام اللجنة الرابعة من قبل مندوبى المغرب وموريتانيا ، والتى بمقتضاها اعترف كل منهما بالاهتمام المتبادل بينهما بشأن مستقبل الاقليم · وقد استمعت الى بيانات مندوب الجزائر ، ومندوب أسبانيا ··· واذ تبينت أن خلافا قانونيا، قد برز من خلال المناقشات بشأن المركز القانونى للاقليم محل البحث وقت استعمار أسبانيا ··· واذ تعتبر والحال هذه ، أن من المرجو بشدة ، أن تحصل الجمعية العامة فى دورتها الثلاثين ، ومن أجل مواصلة دراسة هذه المســـألة ، على رأى استشـارى حول بعض الجوانب القـانونية المهمـة للمشكلة ، ··· واذ تشير الى المادة ٩٦ من ميثاق الأمم المتحدة ، والمادة ٦٥ من النظام الأساسى لمحكمة العدل الدولية تقرر : (١)، تقديم طلب الى محكمة العدل الدولية ، بدون التقيد المسبق بتطبيق المبادىء المتضمنة فى القرار ١٥١٤ (الدورة ١٥) للجمعية العامة لتقدم رأيها الاستشارى ، فى ميعاد قريب ، بشأن السؤالين التاليين ·

ثم أوردت الجمعية العامة السؤالين السابق الاشارة اليهما وأضافت ، تطلب من أسبانيا ، بصفتها الدولة القائمة بالادارة بصفة خاصة ، والى المغرب وموريتانيا بصفتهما طرفين معنيين : « بأن تقدما للمحكمة كل المعلومات والوثائق التى يمكن أن توضح الاجابة على السؤالين ، وتدعو الدولة القائمة بالادارة على الفور ، الى تأجيل الاسفتاء الذى أزمعت اجراءه فى الصحراء الغربية ، حتى تقرر الجمعية العامة السياسة الواجب اتباعها من أجل الاسراع بعملية تصفية الاستعمار فى الاقليم ، وفقا لقرارها رقم ١٥١٤ (الدورة ١٥) · وفى ظل الظروف الممكنة ، وعلى ضوء الرأى الاستشارى المطلوب من محكمة العدل الدولية ، وتكرر الجمعية العـامة دعوتها الى جميـع الدول ، باحترام قرارات الجمعية العامة بشأن نشاطات المصالح الأجنبية ، الاقتصادية والمالية، فى الاقليم · والامتناع عن المساعدة على الحفاظ ، على الحالة الاستعمارية فى الاقليم ، سواء بالاستثمارات ، أو بسياسة الهجرة الداخلية الى الاقليم ، وترجو من اللجنة الخاصة المعنية بدراسة الموقف المتعلق بتنفيذ اعلان منح الاستقلال الى البلدان والشعوب المستعمرة ، وأن تتابع الحالة فى الاقليم ، بما فى ذلك ارسال بعثة لزيارة الاقليم ، وأن تقدم تقريرا عن هذا الموضوع الى الجمعية العامة خلال الدورة الثلاثين لها » ·

الأطراف الاقليميـــة لمشـــكلة الصـــحراء

موقف المغرب :

١ - المشكلة من وجهة نظر المغرب :

تتكون عبارة (قضـــية أو مشـــكلة الصـــحراء) من كلمتين (قضـــية وصحراء) ، وكل من الكلمتين فى حد ذاته يمثل قضية أو مشكلة مستقلة ، كما تمثل العبارة كلها (قضية الصحراء) قضيه ثالثة · ولفظة « قضية » تعبير عن الاجراء الشكلى القانونى الناشىء عن قيام الدعوى · والدعوى انما هى وسيلة حماية الحق ، وهى لاحقة عليه ، اذ أن الدعوى لا تظهر الحاجة اليها، الا اذا اعتدى على الحق ، وما دامت الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ، فان صاحب الحق ليس فى حاجة الى أن يطرق باب المحاكم ، فاذا لم تقم منازعة فان الدعوى لا توجد ، وأن القبول بدعوى المغرى أمام محكمة العدل الدولية اقرار بأن المغرب صاحب حق معتدى عليه ، وتلك المفاهيم الأولية - من وجهة نظر المغرب - لم تعترف بها أسبانيا ولم تقتنع بها ولهذا فان أسبانيا رفضت كذلك ترى وجهة النظر المغربية منذ بداية ظهور مشكلة الصحراء أن لفظة (الصحراء) لا خلاف على فهمها طبيعيا ، وانما قام الخلاف على أساس استبداد فى الخمسينات والستينات صلاحية النظر فى القضية من الناحية الشكلية ، الاستعمار الاسبانى وتعسفه فى فهمها موضوعيا ، وتزييف صفاتها التاريخية والاجتماعية والبشرية والسياسية منذ تسلطت اسبانيا بالقهر ومظاهر الغزو على تلك الصحراء ·

وعبارة مشكلة أو قضية الصحراء المغربية تعتبر من وجهة النظر المغربية « قضية » وذلك لامتناع المستعمر منتزع الحق من أصحابه عن الاعتراف بأن الصحراء مغربية ، وعندما عرضت قضية الصحراء على محكمة العدل الدولية ، فقد استندت وجهة النظر المغربية على أن أهل الصحراء قد بايعوا الملك محمد الخامس بصفته (أمير المؤمنين) بأن يكون له وحده السيادة السياسية على الصحراء ، باعتبار أن البيعة عقد سياسى يتم - فى الاسلام - بالقول والعمل بين الخليفة وبين جماعة المبايعين فيعطى الخليفة العهد على نفسه بأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وأن يقيم العدل ويحمى الاسلام مقابل ان يأخذ لنفسه السمع والطاعة من المبايعين ويأخذ لنفسه العدل ومباشرة السلطان لأمور الدين وحماية النفس وتأمين الحدود . وقد أشار الملك الحسن الثانى فى خطاب اعلان المسيرة عام ١٩٧٥ . عندما أوضح الفرق بين روابط السيادة وروابط

البيعة فى القانون الأوروبى نفسه من أن التعاقد السياسى عند الاغريق قديما وعند الأوروبيين المعاصرين لا يخرج عن مضمون البيعة الاسلامية مع بعض الاختلاف فى الشكل والاجراء اقتضته طبيعة تطور المجتمعات ، وقد تمسك الملك الحسن الثانى بهذا المفاهيم مستندا أيضا الى أن نظر محكمة العدل الدولية للقضية التى ترجع الى أوائل القرن الحالى وليس الى نص السيادة ، هو فى حد ذاته انما يرجع الى أن مصطلح البيعة الذى استعملته المحكمة قد جاء متمشيا مع مصطلحات التاريخ الذى استعمرت فيه أسبانيا الصحراء المغربية .

وقد ذكرت محكمة العدل الدولية بأن العناصر والمعلومات التى اطلعت عليها المحكمة تثبت وجود روابط قانونية للبيعة بين سلطان المغرب « وبعض القبائل » القاطنة فى الأراضى الصحراوية أثناء استعمارها من جانب الأسبان، وعبارة « بعض القبائل » التى وردت فى نص قرار محكمة العدل الدولية لا يتعارض مع وجهة النظر المغربية ، بل يتمشى مع الظروف التاريخية والطبيعية لنشأة نظام البيعة فى الاسلام التى تطابق ظروف الصحراء كطبيعة ومجتمع وظروف نظام الحكم المتمثل فى وجود أمير للمؤمنين يتحمل مسئوليات أمور الدنيا والدين . ومن هذا تصل وجهة النظر المغربية الى أن البيعة فى الاسلام مثلها مثل بيعة أهل الصحراء المغربية للامام ، انما هى عقد سياسى تترتب عليه سيادة وممارسة سياسية لأمير المؤمنين دون غيره ، وبهذا اقتنع القاضى السنغالى فى محكمة العدل الدولية عندما أعلن أنه يرى بأن العلاقات القانونية وخصوصا منها علاقة البيعة المنصوص عليها فى الرأى الاستشارى تدل على وجود سلطة للدولة وممارسة ادارة شبيهة بعلاقة السيادة ، تمارس فى منطقة صحراوية وعرة على قبائل بعضها من الرحل وبعضها من المقيمين ، كما أعلن نائب ريس محكمة العدل الدولية بأن بيعة السلطان تكتسى بحد ذاتا بصبغة سياسية ودستورية ، وأن السلطان كان فى عد الاستعمار يجمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية بالاضافة الى السلطة الروحية ، وتلك السلطات أوجدت روابط قانونية بين الصحراء والمغرب بالاضافة الى وجود بيعة ذات أحكام وآثار ونتائج تدخل فى اطار العقد السياسى .

وهكذا ترى وجهة النظر المغربية التى تستند الى الأسانيد والروابط التاريخية والقانونية والسياسية الممثلة فى البيعة - ترى أن مطالبة المغرب بأراضيه يمثل قضية ، وأن القضية بهذا المفهوم تعبر عن الاجراء الشكلى القانونى الناشىء عن قيام الدعوى ، والدعوى - كما سبق ايضاح ذلك - انما هى وسيلة حماية الحق ، وقبول محكمة العدل الدولية للنظر فى دعوى

المغرب هو اعتراف مسبق بأنها صاحبة حق ، كذلك فان وجهة النظر المغربية ترى أن الصحراء ستظل موضوع مطالبة المغرب الدائمة دون توقف بالحجج والوثائق وعلى المستوى الدولى . والصحراء هنا هى اذن الصحراء المغربية وليست الصحراء الغربية ، وان هناك بالطبع فارق كبير بين مفاهيم كل من المصطلحين ، وان الاستيلاء عن طريق وضع اليد يكون بالنسبة لما لا مالك له وكذلك عندما يتخلى صاحب الحق عن ملكيته ، وقد تأكدت محكمة العدل الدولية من عدم وجود هذين المبررين لاستعمار أسبانيا للصحراء المغربية .

وعندما وضعت أسبانيا المسيرة الشعبية للصحراء بأنها عملية غزو ، ردت المغرب بأن الصحراء قبل استعمار أسبانيا لم تكن كيانا سياسيا مستقلا ، بل كانت اقليما يتمتع بالسيادة المغربية ، وأن انتقال المواطنين المسالمين الى جزء من أراضيهم وكشف جميع خطط مراحل هذا الانتقال ينفى الزعم الأسبانى ، ولقد فتح المغرب مجموعة أراضيه منذ عدة قرون فتحا كاملا سياسيا ومعنويا امتزجت فيه عناصر المجتمع وتوحدت لغته وعقيدته وأهدافه، كذلك فان وجهة النظر المغربية ترى أن تقرير المصير لأهل الصحراء هو خدعة، وأنها خدعة تختلف مبدأ السيادة الشعبية ، اذ يهدف تقرير المصير الى الانفصال عن الوحدة الأصلية وهو هدف بارز من أهداف الاستعمار ، بينما يحتم مبدأ السيادة الشعبية حرية الشعب فى حكم نفسه مستقلا فى نطاق وحدته القومية ، غير خاضع لقوميات أجنبية تفرضها قوى الاستعمار لحماية مصالحها المادية ، وما دامت المحكمة الدولية قد أقرت بحق المغرب ، وأن النظرية العامة للحق تكفل بموادها التفصيلية استئثار صاحب الحق بالقدرة على ممارسة كل السلطات التى يكفلها له مضمون الحق ، وأن ذلك يفسر مشروعية الملك الحسن الثانى ــ بصفته أمير للمؤمنين ــ تحذيره لكل من يتعرض لطريق المسيرة .

كذلك ترى وجهة النظر المغربية أن البيعة هنا هى عقد سياسى يتم بالاجماع وهى أيضا رأى أصحاب الحل والعقد ، وفى قضية الصحراء فالعقد وليس رأى مجموع سكان البدو والحضر عن طريق الانتخابات العامة ، لوجوب مراعاة ظروف المكان الصحراوى وسكانه المنتقلين وظروف العصر الذى تمت فيه البيعة قبل عصر الاستعمار الأسبانى للصحراء المغربية ، بل ان الاجماع فى التشريع الاسلامى لا زال سارى المفعول الى جانب القرآن والسنة بصفته ركن الاجتهاد ، فالبيعة على هذا النحو تتمتع بقوة العقد السياسى والاجماع السياسى لأهل الصحراء انعقد بهذه البيعة ، وتؤكد وجهة النظر المغربية أن اتفاقيات بعض الخارجين مع القوى الأجنبية الاستعمارية هو خروج عن الاجماع

المنعقد بالبيعة ولا مشروعية ولا سند له ، وأخيرا فان البيعة الصادرة عن رغبة وأختيار من سكان الصحراء لملكهم وهى أبلغ فى الدلالة على السيادة الشعبية والوحدة الســـياسية • تظل ملزمة لكل من الطرفين المتعاقدين المتعاهدين الميتايعين مما يحدو بالصحراويين «المغاربة» الى فتح الصدور لاستقبال مسيرة « أمير المؤمنين » الذى لم يتنكر لمسئوليات البيعة التى طوق بها الصحراويون عنقه •

ترى وجهة النظر المغربية أيضا « الصحراويين » يرون أن الصــحراء مغربية ، وأن هناك زعماء صحراويين لجأوا الى المغرب (١) مجددين على البيعة

---

(١) ومنها نص الوثيقة « تجديد البيعة » التى رفعها الحاج خطرى الجانى الزعيم الصحراوى الى الملك الحسن الثانى فى ٢ نوفمبر ١٩٧٥ :

الحمد لله

والصلاة والسلام على رسول الله •

مولاى صاحب الجلالة الملك المعظم سيدنا الحسن الثانى

أدام الله مجدكم وأيدكم بروح منه وأبقاكم حصنا حصينا للمغرب ووحدته وعزته وازدهاره، لقد شرفتنى يا مولاى بخطابكم السامى وأذنتم لشخصى الضعيف للمثول بين يدى جلالتكم بمراكش عاصمة الجنوب وتجديد البيعة وتأكيد العهود التى كانت تربط بين أجدادكم المنعمين وبين خدامهم من آبائنا وأجدادنا . انه لشرف عظيم منحتمونى أياه ، وانى لأدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنى اهلا لهذا الشرف • وسأعمل كل ما فى وسعى للحضور فورا الى القصر العامر بالله ، والى أن تصل ساعة اللقاء ، فانى أعاهد الله واشهده على الاخلاص لجلالتكم والتفانى فى طاعتكم ، واننى أضع يدى الضعيفة فى يدكم الكريمة ، لأجدد بيعتى ، وأؤكد ولائى وطاعتى ، لأن مبايعتك هى مبايعة لله ، وطاعتك طاعة لله • قال تعالى : ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله • يد الله فوق أيديهم • وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم • وقال تعالى : (ومن يتول الله ورسوله فان حزب الله هم الغالبون) • وقال تعالى . (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما) •

مولاى ، اننى أبايعك وأعاهدك كما بايع وعاهد أجدادى أجدادك المنعمين ، وانى أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعله عهدا مستمرا الى يوم الدين • حفظ الله جلالتكم بما حفظ به الذكر الحكيم ، وايدك بالسبع المثانى والقرآن العظيم وحفظ ولى عهدك الأمير الأسعد سيدى محمد وأخوه الأمير السعيد المحبوب مولاى رشيد وحفظ الأسرة الشريفة كلها • وحقق على يديك للصحراء ما تصبو اليه من وحدة وعزة وازدهار • وجمع بك وعلى يديك كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها • والله على ما أقول وكيل وكفى بالله شهيدا وكفى به وليا ونصيرا •

والسلام على مقامكم العالى ورحمة الله

وحرر فى لاس باطاس صباح يوم الأحد ٢٧ شوال عام ١٣٩٥ موافق ٢ نوفمبر ١٩٧٥ •

الحاج خطرى الجانى

الامضـــاء

والطاعة والولاء للملك الحسن الثانى بعد أن اعترفت ببيعتهم التاريخية أكبر هيئة قضائية فى العالم ممثلة فى محكمة العدل الدولية وأقرت البيعة دول المؤتمر الاسلامى التى أنابت أمينها العام ليكون فى مقدمة المسيرة الخضراء ، كما شاركت سبع عشرة دولة عربية وعدة دول أفريقية فى هذه المسيرة وهو ما يؤكد - من وجهة النظر المغربية - السيادة لملوك المغرب على مجموع ترابهم الوطنى بما فيه الصحراء ٠

٢ - من الدفاع الى الهجوم :

شعر المغرب بالتقل الاقتصادى والعسكرى والسياسى والنفسى لهجمات البوليسـاريو المتصاعدة ، بالاضافة الى اقتناعه بأن الجيش المغربى النظامى - مهما كانت قوته وقدرته - لن يسـتطيع أن يسـد كل منافذ الصـحراء - ٣٠٠ ألف كيلو متر مربع - المفتوحة على الحدود الجزائرية والموريتانية من الشرق والجنوب ، وعلى المحيط الأطلسى من الغرب بساحل بالغ الطول يسهل التسلل عبره ، كما يسهل عبر رمال الصحراء الواسعة بتضاريسها الملائمة للتمويه والاخفاء خلف الكثبان الرملية ، ومن هنا فقد شهدت أواخر عام ١٩٧٩ تغييرا أساسيا فى الاستراتيجية المغربية ، بشأن الانتقال من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ، أى مباغتة قوات البوليساريو وضربها قبل أن تتحرك ، بدلا من انتظارها حتى تصل الى الهدف الذى تقصده حيث تشتبك معها القوات النظامية المتمركزة ٠ وفى اطار هذه الاستراتيجية الهجومية ، جاءت عملية تمشيط الصحراء للاجهاز على أى قوات أو مخابىء للبوليساريو فيها ، كما جاءت عمليات منظمة « الأزاريو » الجديدة - والتى شكلتها المغرب - لنقل الهجوم الى خلف خطوط الجزائر نفسها وارباك خطوط تموين البوليساريو، خاصة عبر طريق بشار - تندوف حيث القاعدة الأساسية لمعسكرات لاجىء ومقاتلى البوليساريو ٠

وفى اطار الاستراتيجية المغربية الهجومية ، فان ثمة أحاديث كثيرة قد أثيرت حول التحرك المغربى داخل قبائل البربر فى جبال الأطلسى الجزائرية ، وهى القبائل المرتبطة عرقيا وتاريخيا بامتدادانها مع قبائل البربر المغربية ، وكذلك التحرك فى الجنوب بين قبائل « الطوارق » وهى قبائل أفريقية مسلحة تعيش متنقلة بين المغرب وموريتانيا والجزائر ومالى وليبيا وتشاد ، وقد أعتمد عليها كل نظام سياسى فى المنطقة فاستغلها لصالحه ٠ وتعتبر دولة الطوارق مشروع انفصال جاهز ، يمكن استخدامه عند الضرورة نظرا للطبيعة الاستقلالية لقبائل الطوارق التى تنتقل عبر الصحراء الواسعة بحثا عن التجارة والمرعى ،

وهى تتجمع فى مواسم وأسواق سهيرة منتشرة فى الصحراء - بصرف النظر عن الحدود السياسية - متل أسواق تندوف الجزائرية ومحبس المغربية ، وقد استخدم المغرب جزءا من قبائل الطوارق للقتال فى صفه ، وتمكنت المغرب أيضا من تأليب قبائل البربر أيضا لقلقلة الوضع السياسى الجزائرى وهز تركيبته الاجتماعية وأحداث اضطرابات داخلية تصرف الجزائر عن مساندة البوليساريو ، وبالطبع فان المغرب يهدف من ذلك الى بروز الجرح الدفين الذى خلقه الاستعمار الفرنسى بين العرب والبربر ٠

٣ - الآراء السياسية والمشاعر المغربية :

خلال ندوته الصحفية التى عقدها يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٤ أعلن الملك الحسن الثانى أن المغرب سيطلب من الجمعية العامة للامم المتحدة أن ترفع النزاع القانونى الأسبانى المغربى حول الصحراء الى محكمة العدل الدوليه فى لاهاى كما ورد فى موضع سابق من الدراسة ٠ وقد أصدرت الجمعية العامة فى الثالث عشر من ديسمبر ١٩٧٤ بالاغلبية قرارها رقم ٣٢٩٢ تدعو فيه محكمة العدل الدولية رأيها فى سؤالين هما :

(١) هل كانت الصحراء الغربية (وادى الذهب والساقية الحمراء) أرضا خلاء بغير سكان ؟

(٢) اذا كان الجواب على السؤال الأول سلبيا ، فما هى العلاقات القانونية لهذا الاقليم مع المملكة المغربية والمجموعة « الموريتانية » ٠

وقد بدأت المناقشة أمام المحكمة فى ٢٥ مارس ١٩٧٥ وانتهت فى ٣٠ يوليو ١٩٧٥ ، وخلال المدة التى استغرقتها الاجراءات ، استمعت المحكمة الى مرافعة كل من المغرب وموريتانيا وأسبانيا ، كما أطلعت المحكمة على بيانات كتابية او شفوية من دول أخرى بناء على طلب من تلك الدول ٠ وقد أعطت المحكمة فى ول قرار لها الحق للمغرب فى ختيار و تعيين قاضى لديها (لدى المحكمة) ، وفى يوم ١٦ كتوبر أودعت المحكمة الجمعية العامة للأمم المتحدة مذكرات فى شكل رى استشارى يؤكد بصفة قاطعة النقاط التالية بشأن الطلب المغربى :

(١) لدى رفض المحكمة لوجهة النظر الأسبانية ، اعترفت بأن النظر فى النزاع القائم من اختصاصها مؤكدة بذلك موقف المغرب الذى يؤكد أن النزاع بين المغرب وأسبانيا ذو صبغة قانونية ٠

(٢) واستنادا من المحكمة الى مرافعات كل من المغرب وموريتانيا ، رفضت المحكمة النقطة الثانية من وجهة النظر الأسبانية التى تزعم أن الاقليم الصحراوى كان أرضا خلاء أثناء الاحتلال ، كما أنه لم يكن هناك فراغ من حيث السلطة ٠

(٣) تؤكد المحكمة أنه كانت هناك بين الصحراء والمملكة المغربية علاقات قانونية وعلاقات بيعة ٠

وترى وجهة النظر المغربية أن كل أحكام المحكمة لا يمكن أن تعبر الا عن شيء واحد هو : أن الصحراء المسماه بالغربية هى جزء من الاقليم الذى تمارس عليه سيادة ملوك المغرب ، وأن سكان هذا الاقليم كانوا وما يزالون يعتبرون مغاربة وأن المغرب بعد أن تأكد من شرعية مطلبه من محكمة العدل الدوليه يعتبر أنه لا يمكن لأى اعتبار آخر أن تزيف أحكام المحكمة لا سيما وأن هذه الهيئة الدولية العليا التى قامت لاقرار الحق فى حالات النزاع ، تتألف من قضاة منتخبين بصفة مشتركة من طرف مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ، ومعنى هذا أن الهيئتين المذكورتين التابعتين للأمم المتحدة واللتين انتخبتا قضاة المحكمة بطريقة تضمن لها تميل الدول الكبرى الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن ، كما تضمن التمثيل للمناطق الجغرافية فى العالم حتى تسبغ على الأحكام القوة الضرورية أمام الرأى العام الدولى ٠

وانطلاقا من هذه الاعتبارات يرى المغرب أن النزاع الترابى القائم بينه وبين أسبانيا قد سوى بصفة لا غموض ولا لبس فيها ، ولهذا يعتبر المغرب أن أى استنتاج آخر لأى مناقشة تكتسب صبغة سياسية وغير مسببة للاحترام التام للقانون ، لا يمكن أن يأتى مخالفا لروح الأحكام التى وضعتها محكمة العدل الدولية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ٠٠٠ ولذا فلم يتبق للمغرب سوى أن يأخذ من الأحكام الصادرة العبرة التى يفرضها الواقع ٠

ولقد عقدت الجماعة الصحراوية اجتماعا استثنائيا بمدينة العيون يوم الخميس ١٩٧٦/٢/٢٦ بموجب اتفاق مدريد المبرم بين المغرب وموريتانيا

---

(٢) راجع البيان الذى أصدرته سفارة المملكة المغربية بالقاهرة بعنوان « ماذا يعنى رأى محكمة العدل الدولية بلاهاى » الصادر فى ١٦ أكتوبر ١٩٧٥ فى موضوع الصحراء المغربية ص ٢ - ٥ ٠

وأسبانيا بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ وذلك بحضور ممثلى الدول الثلاث ، وبعد بحث الوضع من الصحراء المسترجعة صادقت الجماعة الصحراوية بالاجماع على الاتفاق الثلاثى الذى يضع حدا نهائيا للوجود الأسبانى فى الصحراء « المسترجعة » بعد ٩١ عاما على استعمارها ، ووجهت الجماعة الصحراوية بعد مصادقتها هذه برقية الى كل من ملك المغرب والرئيس الموريتانى مختار ولد دادة والملك خوان كارلوس ملك أسبانيا والى باقى المنظمات الدولية ٠

والمغرب يعتبر هذا الحدث بالغ الأهمية حيث يضع حدا نهائيا للاستعمار الأسبانى باقليمه الصحراوى تمشيا مع الرغبة التى أبداها والنضال الذى قام به لتحرير بقية أجزائه واستكمال وحدته الترابية ، وبمصادقة الجمعية الصحراوية على انتهاء الادارة الأسبانية فى الصحراء وانضمام هذا الاقليم الى بلديه الأصليين المغرب وموريتانيا ، طوى ملف الصحراء نهائيا فالقرار الذى اتخذته الجماعة الصحراوية مطابقا تمام المطابقة لنص الاتفاق الثلاثى بين المغرب وموريتانيا وأسبانيا ، وللمبادىء التى أقرتها هيئة الأمم المتحدة فى تصفية الاستعمار وللقرارات التى اتخذتها الجمعية العامة لهذه المنظمة ومجلس الأمن ٠

ولا بد هنا من التذكير بمطالبة المغرب بالصحراء واستكمال وحدته الترابية منذ حصل على الاستقلال سنة ١٩٥٦ حيث لم يترك المغرب سبيلا من سبل الحوار ولا وسيلة من الناحية الدولية الا اتخذها لاقناع الحكومة الأسبانية فى التنازل عن صحرائه ، ولما أبانت حكومة مدريد عن نيتها فى تنظيم استفتاء منفرد فى الصحراء ، قررت المغرب رفع النزاع الى محكمة العدل الدولية ، وصادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على هذه المناقشة ٠ وبعد صدور قرار المحكمة بالاعتراف بالارتباطات القانونية بين المغرب والصحراء ، قرر المغرب أخذ حقه بيده ، فكانت المسيرة الخضراء التى أظهرت عزم المغرب على استكمال وحدته الترابية بالطرق السلمية ، وانعقد مجلس الأمن غداة تقرير المسيرة الخضراء وأثنائها أصدر ملتمسا يقضى باجراء مفاوضات بين الأطراف المعنية استنادا الى الفصل ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة ٠

وهكذا أبرم اتفاق مدريد يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ بين المغرب وموريتانيا وأسبانيا ، فتعهدت أسبانيا بوضع حد للمسئولية والسلطة التى تتولاها فى اقليم الصحراء بوصفها الدولة المنصرفة ، وحصل الاتفاق باقامة ادارة مؤقتة فى الاقليم بمشاركة المغرب وموريتانيا وبتعاون مع الجماعة الصحراوية٠ وتسليم هذه الادارة المسئوليات والسلطات على أن ينتهى الوجود الأسبانى

فى الاقليم قبل ٢٨ فبراير ١٩٧٦ ، كما نص الفصل الثالث من الاتفاق على احترام رأى سكان الصحراء المعبر عنه من خلال الجماعة الصحراوية .

وعند بحث قضية الصحراء المغربية فى منظمة الآمم المتحدة خلال دورتها الثلاثين صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد مصـــادقة اللجنة الرابعة المختصة بتصفية الاستعمار على ملتمس ينص على تزكية الاتفاق الثلاثى المبرم بمدريد يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ بين الحكومة الأسـبانية والموريتانية والمغربية الذى سلم نصه الى الامين العام لمنظمة الأمم المتحدة يوم ١٨ نوفمبر ١٩٧٥ . وللتذكير بنص الاتفاق على احترام رأى سكان الصحراء من خلال الجماعة وهذا ما تم بالفعـل يوم ٢٦ فبراير ١٩٧٦ فى العيـون حيث صـادقت الجماعة الصـحراوية على الاتفاق الثلاثى الذى انتهى بموجبه الوجود الأسـبانى فى الصحراء المسترجعة » ، وبذلك تكون هذه القضية قد وجدت حلها الطبيعى انسجاما مع المعطيات التاريخية لهذا الاقليم ، ووفقا لمبادىء هيئة الأمم المتحدة شكلا وروحا فى تصفية الاستعمار .

ويرى الغرب أن موقفه من هذه القضية لا غبار عليه ، وانه اذا كان لا يقبل أدنى مساومة فى استرجاع أرضه بوحدته الترابية ، فهو يسـتعد للاسهام فى تخفيف حدة التوتر ، ايمانا منه بالمحافظة على صيانة الأمن فى المنطقة . والمغرب يؤكد عدم سعيه وعدم رغبته فى مواجهة عسكرية مع أى كان ، غير أن الغرب يصمم على الدفاع عن وحدته الوطنية اذا تعرضت لأى اعتداء .

وتجدر الاشارة أيضا بهذا الخصوص الى أن المغرب قد استند فى تبرير ذرائعه بعد البرقية التى وجهها السيد / خطرى ولد سعيد الجحانى رئيس الجماعة الصحراوية الى السيد/محمود رياض الأمين العام لجامعة الدول العربية فى ٢٦ فبراير ١٩٧٦ بمناسبة مصادقة جماعة الاقليم الصحراوى على تصفية بهذه الخصوص أن « جماعة اقليم الصحراء المجحفة يوم الخميس ٢٦ فبراير ١٩٧٦ بالعيون فى جلسة استثنائية تنفيذا للمادة الثالثة من اتفاقية مدريد المبرمة بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ بين أسبانيا وموريتانيا والمغرب ، قد صادقت باجماع الأعضاء الحاضرين على تصفية الاستعمار بهذا الاقليم وعودته الى كل من المغرب وموريتانيا اعتبارا للواقع التاريخى ، واعتمادا على الصلات الوثيقة التى ربطت عبر العصور أبناء الصحراء من البلدين المذكورين ... وأن الجماعة الصحراوية اذ تعبر عن ارتياحها وعن تأييدها المطلق لعودة الأمور الى مجراها الطبيعى والتاريخى ورجوع الأرض الى أهلها وذويها ، فانها تعبر فى الحقيقة

عن رأى جميع الفئات الصحراوية وكافة القبائل التى هى الممثلة الحقيقية والشرعية لها » .

وكان التصريح المشترك بين المغرب وموريتانيا وأسبانيا بشأن الصحراء قد صدر فى ٢١ نوفمبر ١٩٧٥ وقد نص التقرير على اتفاق الوفود الثلاثة على المبادىء الآتية :

أولا : تؤكد أسبانيا قرارها - الذى أعلنته مرارا فى الأمم المتحدة - بتصفية الاستعمار فى الصحراء الغربية ، وذلك بوضع حد للمسئوليات والسلطات التى تتولاها فى هذا الاقليم بوصفها الدولة المتصرفة .

ثانيا : طبقا للقرار المذكور ، ووفقا للمفاوضات التى أوصت بها الأمم المتحدة مع الطرفين المعنيين ، تشرع أسبانيا فورا فى اقامة ادارة مؤقتة فى الاقليم بمشاركة المغرب وموريتانيا وبتعاون مع - الجماعة - وتسلم لهذه الادارة المسئوليات والسلطات التى تشير اليها الفقرة السابقة ، وبصدد ذلك وقع الاتفاق على تعيين حاكمين مساعدين باقتراح من المغرب وموريتانيا وذلك ليعاونا الحاكم العام للاقليم فى مهامه ، وينهى الوجود الأسبانى فى الاقليم فعليا ونهائيا قبل يوم ٢٨ فبراير ١٩٧٦ .

ثالثا : يحترم رأى سكان الصحراء ، المعبر عنه من خلال « الجماعة » .

رابعا : تخبر الأقطار الثلاثة الأمين العام للأمم المتحدة بما هو مقرر فى هذه الوثيقة نتيجة للمفاوضات التى جرت وفقا للمادة الثالثة والثلاثين من ميثاق الأمم المتحدة .

خامسا : أن الأقطار الثلاثة الموقعة تصرح بأنها قد توصلت الى النتائج المذكورة مدفوعة بروح من التفاهم والأخوة واحترام مبادىء ميثاق الأمم المتحدة وذلك كأحسن مساهمة منها فى حفظ السلام والأمن الدوليين .

سادسا : تدخل هذه الوثيقة حيز التنفيذ فى نفس اليوم الذى ينشر فيها بالجريدة الرسمية للدولة « قانون تصفية الاستعمار فى الصحراء » الذى يأذن للحكومة الأسبانية فى أن تضع موضع التنفيذ الالتزامات التى تتضمنها هذه الوثيقة .

٤ - المؤثرات الجديدة عقب صدور التصريح المشترك :

بذل المغرب جهودا اعلامية ضخمة لتأييد حقه فى الصحراء عقب صدور التصريح المشترك فى ٢١ نوفمبر ١٩٧٥ وذلك من خلال الرسائل التى بعث بها الملك الحسن الثانى اغ الملوك والرؤساء العرب ٠

وكانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أكدت على حق المغرب فى الصحراء وذلك من خلال الرسالة التى بعث ياسر عرفات الى الملك الحسن الثانى فى ١١ نوفمبر ١٩٧٥ وجاء فيها ٠٠٠ أن الثورة الفلسطينية تعتبر أن تحرير الصحراء المغربية لا يقل أهمية عن تحرير فلسطين ، كما أنها تتابع باهتمام المسيرة الخضراء مثلما تتابع مسيرة أى فصيلة فدائية داخل فلسطين المحتلة ٠٠ وأن الصحراء المغربية وقضية تحريرها من براثن الاستعمار الأسبانى كانت ولا تزال تمثل هاجسا من هواجسنا ٠

وفى رده على رسالة الرئيس القذافى بشأن الصحراء قال الملك الحسن الثانى فى رسالته بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٠ : « أنه حينما صرح فخامة الأخ سنة ١٩٧٢ أنه مستعد للجهاد فى سبيل تحرير الصحراء لم نرد عليه - أى الملك - لسببين : أولهما أنه لا يرد على مبادرة عربى لاعانة أخ عربى له على التحرر انطلاقا من المثل العربى القائل : وهل أنا الا من غزيه ٠ وثانيهما : فخامة الأخ أضفى على تطوعه لتحرير الصحراء صلة الانتماء مشيرا الى انتسابه الى الصحراويين قبل استقرار أجداده بليبيا الشقيقة » ، - ورد الملك قائلا : « ويمكننى أن أؤكد لكم أنه لم تكن هناك أية حرب تحريريه مطلقا ٠ لأن المحارب والمحارب كانا متواطئين على الاسلام والعروبة ٠ ولأن البوليساريو ليس الا وليد أسبانيا وبالأخص الجناح الشيوعى أو التقدمى من الادارة والجيش الأسبانيين ولا أدل على هذا من أن البوليساريو لم يعلنوا ولو مرة واحدة عن اسم شهيد أو بطل على معركة من المعارك ٠٠٠ بل لدينا حجج ووثائق تدل دلالة قاطعة على أن الصحراء كانت تهيأ لتصبح منطلقا شيوعيا لحركة ثورية من لون البوليساريو ٠٠٠ كما حدث فى البرتغال » ٠

وأضاف الملك قائلا للرئيس القذافى : « وأشار فخامة الرئيس الى أن الوضع خطر فى الصحراء ٠ وأنا أشاطركم هذا الرأى ، وأزيد عليه أن الوضع خطير فى كل هذه المنطقة الغربية من أرض العروبة والاسلام ، ولكن خطورته ليست ناتجة عن ضم قسرى للصحراء ٠ لأن أهل الصحراء عبروا أفرادا وجماعات بواسطة جماعتهم التمثيلية ومنظماتهم السياسية عن رغبتهم فى الانضمام الى المغرب وموريتانيا ٠٠٠ ولكن الخطورة ناتجة عن تدخل الجزائر

التى بعد ما أعلنت فى السابق مرارا وتكرارا أنه لا مطامع ترابية لها فى الصحراء أنها تبارك كل اتفاق بشأنها بين المغرب وموريتانيا ... نراها الآن تعبىء كل قواها ومواردها ضد المغرب وموريتانيا للحيلولة دون استكمال وحدتها الترابية متناسية حقوق الجوار متجاوزة حدود المجاملة واللياقة » .

وفى رسالته الى الرئيس هوارى بومدين فى ١٥ فبراير ١٩٧٦ قال الملك الحسن الثانى : « لقد سبق لفخامتكم أن أنبأتمونى رسميا ثلاث مرات خلال صيف سنة ١٩٧٥ بقولكم الذى أعده عليكم بالحرف الواحد . « قولوا لملك المغرب ، ثم قولوا له بالتأكيد ، أنه مهما كانت خلافاتنا حول مشكلة الصحراء ، وكيفما كانت نهاية النزاع بينه وبين أسبانيا ، فاننى أتعهد له بأنه سوف لا يرى أبدا جنديا جزائريا أو عتادا عسكريا جزائريا فوق تراب الصحراء لمحاربة الشقيق المغربى » . وأضاف الملك قائلا : « الا أنه حدث ما يدعو حقا الى الدهشة والاستغراب ، ذلك « يا سيادة الرئيس أن القوات المسلحة الملكية ، وجدت نفسها يوم تاسع وعشرين يناير ١٩٧٦ فى مواجهة الجيش الوطنى الشعبى فى أمجالا التى هى جزء لا يتجزأ من الصحراء ، وسال الدم بين الشعبين لأنكم لم توفوا بعهدكم ، وها أنتم ترون أيضا بالأمس القريب أن الحامية المغربية التى بقيت فى عين المكان بأمجالا قد أخذت غدرا من لون وحدات من الجيش الوطنى الشعبى الجزائرى ... وهكذا ففى مرتين اثنتين خلال مدة تقل عن عشرة أيام ناقضت أفعالكم يا سيادة الرئيس تعهداتكم ، فمن أجل شرف بلادكم وشعبكم ، اللذين تطبعهما كثير من النعوت التاريخية ، أناشدكم أن تجنبوا المغرب والجزائر مأساة أخرى ... » .

وفى خطابه بمناسبة عيد الشباب عرض الملك الحسن الثانى عرضا تاريخيا معاصرا لتطور مشكلة الصحراء «المغربية» قائلا : « نعلم أننا غواة الاستقلال كنا قد وقعنا على وثيقة مع الحكومة الأسبانية يوم ١٢ ابريل ١٩٥٦ تضمن للمغرب أولا استقلاله ووحدته الترابية ، ... واستمرت بعد ذلك المداولات والمشاورات والمناقشات الى حد أننا حينما احتفلنا بالسنة العاشرة لاستقلال المغرب يوم ٢ مارس فى مدينة فاس استقبلنا وزيرا أسبانيا جاء يمثل حكومته وقلنا له بالحرف الواحد : أننا نطالبكم بارجاع الأرض المغتصبة والصحراء التى تديرونها ... واذا لم ترد أسبانيا الينا حقنا فسنطالبها بذلك أمام هيئة الأمم المتحدة . وفيما يتعلق بمفهوم حق تقرير المصير للصحراء لدى المغرب قال الملك : « ... وكان حق تقرير بالنسبة الينا هو فى الحقيقة طرح السؤال بكيفية واضحة ، هل تريدون البقاء مع الدولة التى تحتلكم أم هل تريدون الرجوع الى حظيرة الوطن ؟ وأضاف الملك قائلا :

« ... وطالبنا بأن يجرى الاستفتاء على هذا الأساس ، وفى وطار هـــذا السؤال المحدود بعسمان من هيئة الأمم المتحدة ومن مجموعة دولية ... »
واستعرض الملك نتائج زيارته لأسبانيا سنة ١٩٧٠ بشأن مشكلة الصحراء قائلا :

« وعندما سافرنا الى أسبانيا سنة ١٩٧٠ ودارت بيننا وبـين الجنرال فرانكو محادثة خاصة ، كان عرضنا لهذه المشكلة أعمق ، وكان موقفنا أكثر مرونة ، وسياستى ليس فيها ما يخفى ، لأنها واضحة كالشمس فى وسط النهار ، واذ ذاك طرحنا على الحكومة الأسبانية الاختيارات التالية ، أننا نعلم الموقع الاستراتيجى لمدينـــة العيون ومدينة سيسنبروس بالنسبة لجـــزر الكنارى ، واننا نعلم انكم تولون هذه الجزر أهمية بالغة من الناحيـــة العسكرية ونحن مستعدون اذ أنتم أرجعتم للمغرب سيادته على ترابه ، لأن نضع رهن اشارتكم قواعد عسكرية لمدة ما ، « ... وأنه اذا كانت خيرات الصحراء سواء التى على الأرض أو التى فى قاع البحار تهمكم كذلك ، فان المغرب على استعداد ليوقع معكم اتفاقية ويشترك معكم فى استخراج وتسويق كل ما من شأنه أن يستخرج ويسوق ... » وأضاف الملك قائلا : « ...انى أترك وصيته لكل مغربى أنه لا يمكن أن يعقل أن يتم تنصيب دولة مزيفـــة لا حقيقة لها - مشيرا بذلك الى الدولة المستقبلة فى الصحراء - فى جنوب ترابنا لأنه من الناحية الاستراتيجية ، ومن الناحية الهيدرولوجية ومن ناحية المنافذ على البحر .. وعلى المحيط الأطلسى ، لا يعقل مثل هذا لأنه سيشكل خطرا مستمرا على سلامة البلاد وعلى حرمة البلاد وعلينا وعلى أولادنا وعـــلى أحفادنا والأجيال القادمة ، فهذه ليست مسألة عاطفية فحسب ، بل مسألة حيوية لكل مغربى ، مدنيا كان أو عســـكريا ، موظفا أو رجل أعمـــال أو عاملا ... » .

وأضاف الملك محذرا الصحراويين قائلا : « اننى أحذر الجميـــع أن المغاربة يقفون وقفة رجل واحـــد فى هذه القضية مهما كانت مشـــاربهم السياسية ومستواهم الاجتماعى .. وهنا أتوجه الى رعايانا فى الصـــحراء وأقول لهم حذارى ثم حذارى من أن يؤدى بكم الغرور والغرور وتركبوا خطة تندمون عليها فى المستقبل . واننا نعرف حيل الاستعمار وحاربنـــاه منذ زمن ، وسيأتى يوم يكون فيه أعضاء الجمـــاعة الصحراوية الذين هم أسر محترمة نحترمهم ، وسيأتى يوم يصحون من نومهم ويجدون أسماءهم .. تلك الأسماء المعروفة بعروبتها ووطنيتها وغيرتها على الاسلام .. سيجدون هذه الأسماء تحت وثائق ليست فى مستوى وطنية الصحراويين ولا عروبتهم،

فلنجعل اذن من هذه السنة سـنة تجنيد من الداخل والخارج لنسترجع أراضينا ... » .

٥ - السمات الرئيسية لوجهة النظر المغربية ١٩٥٥ - ١٩٧٤ :

وفى اطار الجهود المغربية بشأن حق المغرب على الصحراء أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشئون الخارجيـة المذكرات العديدة فى موضع الصحراء « المغربية » ، وتعرضت هذه المذكرات الى التطور التاريخى المعاصر الذى كان من أبرز سماته طبقا لوجهة النظر المغربية ما يلى :

أولا : لم يفتر المغرب منذ سنة ١٩٥٥ - تاريخ اعلان الاستقلال - عن سيادتها اعتبارا لأوضاع قانونية مختلفة ، فكان منها ما احتل واعتبر مناطق سيادة (وهو الحال بالنسبة للمدينتين سبتة ومليلية) وكان منها ما سمى بمناطق حماية ، ثم محاولات أسبانيا عدم تسليم منطقتى الساقية الحمراء ووادى الذهب ، وأن أسبانيا بمحاولاتها - اقامة دولة فى الصحراء - تريد بهذا العمل ابقاء سيطرتهـا المستمرة على جزء من التراب المغـربى ، وأن الاحتلال الأسبانى لهذه المنـاطق لم يغير مصـيرها المشترك طـوال قرون متعاقبة ، وفيما يتعلق بالصحراء بوجه خاص ، قامت كل من فرنسا وأسبانيا فى أوائل القرن الحالى - وأكتوبر ١٩٠٤ - باعلان تصريح مشترك بينهمـا المطالبة باستعادة وحدة ترابه واسترجاع جميع أجزائه التى ظلت خارجة عن أعقبه ابرام اتفاقية سرية حددا فيها - وفى غيبة عن المغرب - مناطق نفوذها عن طريق تقسيم التراب المغربى الذى كان دائما خاضعا لسلطة ملك المغرب وقد قام سكان تلك الأقاليم « المغربية » الذين كانوا دائما متعلقين بملكهم ، هذا التغلغل الاستعمارى .

ثانيا : أن الساقية الحمراء ووادى الذهب كانا الى غاية احتلالهمـا يشكلان جزءا من مجموعة صحراوية ، كانت بكاملها تكون جزءا لا يتجزأ من التراب المغربى . وكانت العلاقات بين هـذه المجموعة وبين سهول سـوس ومراكش وثيقة العرى وتشمل جميع ميادين الحياة العامة . وفى الميـدان السياسى فان عددا من الأسر المغربية انحدرت مباشرة من الصحراء الغربية ، وعـلى الأخص دولة المرابطين التى تنتمى الى قبيلة صنهاجـة الصحراوية الشهيرة ، ومن أحضان هذه القبائل ، كان ملوك مراكش ونهـاس يعينون رجالا ليشغلوا بها مناصب ادارية وقضائية وسياسية ، وأن الملوك العلويين تدخلوا عدة مرات لحماية السكان الصحراويين من التغلغل الأسبانى بوادى الذهب والساقية الحمراء ، ولم يشغل الكفاح ضد التغلغل الأجنبى السلطان

مولاى عبد العزيز ، شقيق جد جلالة الحسن الثـــانى ، عن القيام بعمـــل اقتصادى واجتماعى هام فى هذه الناحية من مملكته ، فقد شيد بالســـاقية الحمراء « مدينة سحارة »(٣)، التى لم تكن لغاية نهاية القرن الناســـع عشر سوى محطة ماء فجعل منها بنفسه وبواسطة واليه على الصحراء المغربية — حاضرة مهمته ، وكانت المواد التى استعملت فى بنائها من خشب ورخام ، تنقل بحرا من طنجة والصويرة الى الساحل الصحراوى ، ثم توجه من هناك الى مدينة « سمارة » على ظهور الجمال ٠

ثالثا : أن الحقيقة التاريخية — من وجهة النظر المغربية — التى تجعل من وادى الذهب والساقية الحمراء جزءا لا يتجزأ من المغرب ، كانت معروفة من قبل الدول الأوروبية نفسها ، وهى التى كانت تستشهد بها كلما رأت فى ذلك مصلحة لها معاهدة الجزيرة الخضراء المبرمة سنة ١٩٠٦ ، والتى تعلن المبادىء الثلاثة الآتية التى تنص على : الحياد واستقلال جلالة الســـلطان ، ووحدة ولاياته ، والحرية الاقتصادية بها دون هدف وعندما أبرمت الاتفاقية الفرنسية الأسبانية بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ التى بموجبها بسطت أسبانيا نفوذها من التراب المغربى كانت أقاليم الساقية الحمراء ووادى الذهب تحكم باسم الخليفة السلطانى المقيم فى تطوان ٠

وفى ٧ ابريل سنة ١٩٥٦ ، تم التوقيع على التصريح المشترك الأسبانى المغربى ، الذى جاء فيه أن الحكومة الأسبانية وصاحب الجلالة محمد الخامس ، سلطان المغرب ، رغبة منهما فى أن يعامل كل منهما الآخر ، معاملة ودية ، على أساس المعاملة بالمثل ، وفى تقوية أواصر صداقتهما العريقة ، وتدعيم السلام بينهما ، فقد قررا نشر التصريح الآتى :

---

(٣) وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى أن وزارة الدولة المكلفة بالشئون الخارجية قد أصدرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٧٥ بيانا يحوى نبذة عن مدينة السحارة وقد دخلتها القوات المسلحة الملكية . وان هذه المدينة تعتبر احدى المعالم الرئيسية للحضارة المغربية فى الصحراء عندما عهد سلطان المغرب المولى عبد العزيز الى ممثله فى الاقليم الصحراوى الشيخ ماء العينين ببنائها لتكون مركز اشعاع ثقافى وفكرى وقد أقيم فى المدينة المذكورة معهدا للدروس الدينية والبحوث العلمية وعندما احتلت فرنسا المدينة فى سنة ١٩١٣ أشعلت فيها النيران مما أدى الى اتلاف المعالم العمرانية للمدينة ، وعندما دخلتها القوات الأسبانية سنه ١٩٣١ لم يبق من المدينة ، سوى الأنقاض ٠

ولدى دخول القوات المسلحة الملكية المدينة سنة ١٩٧٥ ، فقد ذكر بأن مغربى يفيد تطلع المدينة لاستعادة مجدها العمرانى والحضارى بعد أن استرجعت هويتها المغربية ولكن بتقوم من جديد بدورها فى الاشعاع الثقافى والفكرى كما كانت من قبل ، وتقع مدينة سحارة على بعد ٢٣٠ كيلو مترا من مدينة العيون ، وتمتد أيضا فى الساقية الحمراء ٠

١ - أن الحكومة الأسبانية وجـلالة محمد الخامس سـلطان المغرب ، اعتبارا لكون النظام الذى هيمن على المغرب منذ سنة ١٩١٢ لم يعد ملائما للواقع الراهن ، يعلنان أن الاتفاقية الموقعة فى مدريد بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ لا يمكن أن تضبط مستقبل العلاقات الأسبانية المغربية •

٢ - ولهذا فان الحكومة الأسبانية تعترف باستقلال المغرب الذى أعلنه جلالة السلطان محمد الخامس ، وبسيادته التامة ، مع جميع مقومات هـذه السيادة ، بما فى ذلك حق المغرب فى أن تكون له ديبلوماسـيته الخاصـة وجيشه الخاص ، وتؤكد عزمها على احترام الوحدة الترابية للامبراطورية التى تضمنها معاهدات دولية ، وتعهد باتخاذ جميع التدابير الضرورية لجعلها نافذة المفعول •

رابعا : وهكذا كانت الحكومة الأسبانية فى ٧ ابريل ١٩٥٦ ، تنفيـذا لمـا سبق ذكره ، قد اعترفت باستقلال المغرب ووحدة ترابه ، وأرجعت اليه بالفعل المنطقة التى كانت تحتلها فى شمال البلاد ، باستثناء سبتة ومليلية ، وفى سنة ١٩٥٨ قامت بتسليم طرفاية الواقعة فى الجنوب ، كما قامت فى سنة ١٩٦٩ بتسليم ايفنى الواقعة فى الجنوب كذلك • أن طرفاية وايفنى ، وكلاهما كانا يخضعان لنفس النظام الذى تخضع له الآن السـاقية الحمراء ووادى الذهب اللذان ترفض أسـبانيا - حتى ذلك الوقت - ارجاعهمـا للمغرب • وفيما يتعلق بمشكلة الصحراء بوجه خاص ، فان المغرب وجـد نفسه مضطرا لفحص القضية على الأمم المتحدة ، وقد وافقت لجنـة تصفية الاستعمار فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٤ على أول قرار تصدره فى شـأن الصحراء وايفنى ، وأعربت عن أسفها للتأخير الذى تقوم به الدولة الحاكمة فى تحرير تلك الأقاليم الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية •

وفى ديسمبر ١٩٦٥ طالبت الجمعية العامة للأمم المتحدة - الحـكومة الأسبانية الدخول فى مفاوضـات لعلاج مشكلة السـيادة على الاقليم الصحراوى •

خامسا : أمام رفض أسبانيا تنفيذ هذه القرارات ، فقد وافقت الحكومة المغربية على الاقتراح الأسبانى القاضى بتطبيق مبدأ تقرير المصير ، لـكن بشرط أن يكون هذا الاجراء خاضعا للضمانات الآتية :

١ - انسحاب جميع الجيوش الأسبانية من السـاقية الحمراء ووادى الذهب •

٢ ـ الابقاء فقط على قوات بوليسية تراها هيئة الأمم المتحدة ضرورية للمحافظة على الأمن العام •

٣ ـ انسحاب الادارة الأسبانية •

٤ ـ عودة اللاجئين والمنفيين المنحدرين من المنطقتين المذكورتين ، وعلى أن تتم استشارة السكان فى ظروف تحددها الأمم المتحدة •

غير أن أسبانيا قد رفضت فى ديسمبر ١٩٦٦ القرار الذى طلب منها السماح للسكان بمباشرة حقهم فى تقرير المصير بكامل الحرية ، والموافقة على أن تقوم بعثة للأمم المتحدة بالتوجه للمنطقة للمشاركة عمليا فى تنظيم واجراء عملية الاستفتاء •

وفى سنة ١٩٦٧ صوتت أسبانيا بالموافقة على قرار الجمعية العامة ، ولم يفت المغرب اذ ذاك أن يعبر عن ارتياحه للمسلك الجديد الذى أبدته أسبانيا ، وعن أمله فى أن تكون المفاوضات التى أجريت بين الملك الحسن والجنرال فرانكو فى شأن تسليم ايفنى ـ فاتحة لتسوية جميع القضايا المتعلقة بتصفية الاستعمار وأثناء انعقاد دورة الجمعية العامة لسنة ١٩٦٩ عبر المغرب عن خيبة أمله وتحفظه الشديد أمام التدابير العسكرية والسياسية والاقتصادية التى اتخذتها السلطات الأسبانية من أجل تعزيز سيطرتها على أقاليم الساقية الحمراء ووادى الذهب التى ما زالت محتلة من طرف أسبانيا•

سادسا : خلال الدورة الثامنة والعشرين (لسنة ١٩٧٣) لم يفت الحكومة الأسبانية أن تضفى دعاية كبيرة على جواب رئيس الدولة الأسبانية على نداء موجه اليه من « الجمعية الصحراوية » ـ المزعومة بمناسبة انعقاد الدورة المذكورة ، وهو النداء الذى عبر المغرب عن معارضته له ، واذ ذاك قامت الجمعية العامة للأمم المتحدة مرة أخرى بالمصادقة على قرار يذكر بتوصياتها السالفة • ولم تشارك أسبانيا فى التصويت على هذا القرار بدعوى أنه غير ملزم ، وأنه يشتمل على بنود مكررة عديمة الجدوى ، معلنة أنها ستمضى قدما فى تنفيذ سياستها فى الصحراء •

سابعا : أن المغرب منذ نال استقلاله سنة ١٩٥٦ لم يأل جهدا للوصول الى تسوية مع أسبانيا تأخذ بمبدأ التفاوض المباشر ، لكن سرعان ما لاحظ أن السياسة التى ينهجها الطرف الأسبانى تمس شديد المساس بوحدة كيانه الترابى ، ولقد رفض المغرب سياسة الأمر الواقع ، وقام باتخاذ الخطوات

لدى المنظمات الدولية كهيئة الأمم المتحدة ، ومنظمة الوحدة الافريقية والجامعة العربية والأمانة العامة للمؤتمر الاسلامى ... وقد اختارت أسبانيا موقفا سيئا كان من نتائجه زيادة استفحال الوضع بالساقية الحمراء ووادى الذهب واستمرت فى تعزيز وجودها العسكرى هناك وتعريض السكان للقمع والضغط الاستعمارى ، مما أدى بهم الى الهجرة والنزوح عن أراضيهم ... وازاء ذلك فقد وجه الملك الحسن فى ٤ يوليو ١٩٧٤ خطابا الى رئيس الدولة الأسبانية يذكره فيه بأن أى عمل انفرادى تقوم به أسبانيا فى الاقليم الخاضع لنفوذها لابد وأن يضطر المغرب الى العمل على صيانة حقوقه المشروعة(٤) .

ثامنا : أن أى ملاحظ لا يمكن أن ينكر أن المغرب على المستوى الحكومى ومستوى الأحزاب الوطنية قد حرص عندما طرحت مشكلة تحرير الصحراء الغربية من الاستعمار الأسبانى على التوفيق بين مصلحته الخاصة وبين مصلحة الدول المجاورة (الجزائر وموريتانيا) ومصلحة سكان المنطقة ، بما فيهم سكان الصحراء ، فى حين أن حكام الجزائر لم يهتموا الا بسمعة النظام ونفوذه فى أفريقيا والعالم الثالث ... وهنا تكمن النقطة الجوهرية وطبقا لوجهة النظر المغربية — التى تميز موقف المغرب عن موقف الجزائر ، فالمغرب ورغم الاستفزازات الجزائرية لا يتبنى خطا سياسيا مبنيا على اعتبار الدولة الجزائرية دولة أجنبية عدوة كما لو كانت غير عربية ، فى حين أن الجزائر تطالب المحافل الدولية منذ ١٩٧٤ أن تعتبر المغرب دولة متمردة على القانون ووضعها موضع افريقيا الجنوبية واسرائيل .

تاسعا : أن موقف الجزائر من المغرب وموريتانيا هو ضربة فى الصميم للفكرة العربية وهذا وهو السر فى مساندة الأحزاب اليسارية المناوئة لكل تكتل عربى للحكومة الجزائرية ، وأن أى مواطن عربى لا يتصور أن تهتم أوربا الغربية فعلا بمستقبل سكان الصحراء ما دامت مصالحها محفوظة فى كل الأحوال ، وانها تربح من الجزائر العدم أكثر مما تربح مع المغرب وموريتانيا والسبب اذن سياسى استراتيجى ، فالحزب الشيوعى الفرنسى

---

(٤) راجع فى تفصيل ذلك : عبد الله العردى حقوق المغرب الشرعية فى صحرائه المسترجعة وذلك فى البيان الذى أصدرته وزارة الدولة المكلفة بالشئون الخارجية « قسم الصحافة والأنباء » ص . ص فى ١٨ مايو ١٩٧٧ — الرباط .

يساند النظام الجزائرى فى مواقفه لأنه وارث السياسة الديجولية التى كانت تهدف الى ربط الجزائر بفرنسا فى اطار جديد وابعادها عن كل اتجاه عربى واستعمالها كصلة بين فرنسا والعالم الثالث لتسترجع فرنسا بعض نفوذها على المسرح الدولى ٠

أما بالنسبة للتقارب الليبى الجزائرى فان وجهة النظر المغربية ترى أن هذا التحالف مرحلى ودعائى لانجاح المخطط الجزائرى الذى يرمى الى احتكار طرق المواصلات مع افريقيا الغربية ، واذا تحقق ذلك فان دول المغرب الكبير ستتخذ كلها اتجاهات بعيدة عن اتجاهات المشرق العربى وربما أثر هـــذا التغيير فى ليبيا نفسها ٠

وأن كل العناصر مقتنعة فى المغرب أن السياســـة المتبعة فى قضـــية تحرير الصحراء كانت فى صالح الجميع ، فى حين مصلحة الشعب الجزائرى غير واضحة فى موقف حكام الجزائر ، وتدعى الجزائر أن المسألة مسألة شعب يدافع عن حقه فى تقرير مصيره فى مواجهة عنيفة ضد جيش أجنبى محتـــل لأرض غير أرضه ٠ وأنه لتمكين المواطن العربى من معرفة هذا الرأى أو ذاك على الواقع ، فقد لخص التقرير النقاط الجوهرية التى ينبنى عليهـــا الموقف المغربى والتى تبرز ـ من وجهة النظر المغربية ـ التسلسل المنطقى المستمد من التاريخ والجغرافيا والسياسة وراء سلوك المغاربة ، حكومة وأحزابا ، أما قضية الصحراء ٠

(أ) خصوصية الاستعمار فى المغرب :

حيث لم يرث الاستعمار الأوروبى السيادة على المغرب من دولة سابقة (مثل الأتراك فى الجزائر) أو من رؤساء القبائل (عموم افريقيا ، ولم تخلق من العدم (أستراليا) ، وانما استمرت السيادة المغربية رغم تفويض الادارة لدولة أو مجموعة دول أوربية ـ وأكد على هذا التمييز بين السيادة الواحدة والادارة المفوضة الى عناصر مختلفة عقـــد مؤتمر الجزيرة الخضراء وما تلاه من

---

(٥) يشير البيان بذلك الى توجيه اللوم لليسار المصرى وخاصة الى الأستاذ لطفى الخولى الذى كان قد وقع نداء يتضامن مع الجزائر فى حرب تحرير الشعب الصحراوى ، ويشير البيان أيضا الى أن لطفى الخولى لدى خروجه من السجن عام ١٩٦٠ كان يكتب مقالات فى الأهرام عن الجزائر والمغرب وكانت مفاهيمه مخطئة ٠ راجع : بيان وزارة الدولة المكلفة بالشئون الخارجية مرجع سابق ٠

اتفاقيات ثنائية • كان الفرنسيون يديرون شئون الدار البيضاء والأسبانيون طرفاية والبلجيكيون وسواهم طنجة ، لكن الجميع كانوا يعترفون بسيادة واحدة : السيادة المغربية المتمثلة فى « حقوق السلطان » •

(ب) خصوصية الدولة المغربية :

ليست الدولة المغربية دولة « استعمارية » نشأت فى حدود خططها المستعمرون وأورثوها لقادة البلاد الجدد بعد الاستقلال • بل هى - من وجهة النظر المغربية - دولة تاريخية ، تكونت عبر قرون ، وبخاصة بعد القرن السادس عشر • وتبلور الوعى الوطنى المغربى أثناء صراع مرير ضد الأسبان شمالا وضد الأتراك العثمانيين فى الشرق للمحافظة على حدود معروفة لدى السلطة والشعب على السواء وكان الشعور بضرورة حماية حدود معروفة لا يقل رسوخا عن الوعى بالمحافظة على استقلال البلاد •

(ج) خصوصية تصفية الاستعمار فى المغرب :

كانت الحماية تفويضا مؤقتا ومحدودا للسلطة الادارية ، انتهت بالغاء عقد التفويض واسترجاع السلطان لكل سلطة ، وترى وجهة النظر المغربية أنه فى عام ١٩٥٦ لم تخلق دولة جديدة ، ولم تنشأ سيادة جديدة ولم يبرم ميثاق اجتماعى جديد ، لذلك لم يلجأ الى استفتاء وانما حصل تفاوض ديبلوماسى بين رئيس الدولة المحمية والدول الحامية ، استرجعت الدولة المغربية - التى لم تختف أبدا - تدريجيا المناطق التى كانت تديرها تلك الدول الحامية ، استرجع القسم الأكبر من يد فرنسا ثم المنطقة الشمالية من أسبانيا ثم منطقة طنجة من الادارة الدولية ثم طرفاية وسيدى يفنى جنوبا من أسبانيا ، وتم ذلك بالتفاوض الثنائى دفعا لعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذى يضمن وحدة التراث المغربى •

(د) المبادىء التى سار عليها المغرب :

كان كل طلب لاحدى المناطق المحتلة يعتمد على مبدأ ضمان الوحدة الترابية وقد اعتبر المغرب ذلك بمثابة مبدأ أساسى لكل نظام دولى ولم يعارض أحد فى ذلك • واعتبر المغرب أيضا أن هذه المبادىء ليست شاذة لانهاء الاستعمار فى منطقة معينة ، بل ان هذه المبادىء قد طبقت لضم المستعمرات الفرنسية والبرتغالية الى الجمهورية الهندية واريان الغربية الى أندونيسيا والتبت الى الصين ، وعلى أساسها أيضا طالبت الصين بتايوان وأسبانيا بجبل طارق •

وعلى ذلك يعتبر المغرب أن من حقه المطالبة بانهاء الوضعية الاستعمارية فى المناطق الصحراوية التى يعتبرها قسما من التراب الوطنى استنادا الى مبدأ وحدة التراب الذى تضمنته كل المواثيق الدولية ، ومع كونه عضوا فى منظمة الوحدة الافريقية ، فان من حق المغرب – طبقا لهذه الرؤية المغربية – أن يرفض فيما يخصه هو تطبيق المبدأين القائلين بضرورة المحافظة على الحدود الموروثة عن الاستعمار وانهاء السلطة الاستعمارية عن طريق استفتاء شعبى كطريق وحيد لتحقيق حق تقرير المصير .

وقد رد المغرب على الحجج القائلة بأنه يمكن لكل دولة التذرع بنفس الخصوصية الأمر الذى قد ينتهى بتغيير منظمة الوحدة الافريقية – أجاب المغرب بأن دعواه مدعمة بحجج تاريخية وقانونية لا تتوفر لأى دولة افريقية أخرى .

وفى هذا الاطار يرى المغرب الاعتماد على اعتبارين أساسيين : أن ادارة الحماية الفرنسية فى المغرب لم ترسم أبدا حدودا دولية لا مع المقاطعات الجزائرية ولا مع أسبانيا ، وانما اعتبرت الخطوط الفاصلة بين الاختصاصات الادارية لهذا الفريق أو ذاك غير مطابقة لمقتضيات اتفاقية الجزيرة الخضراء ، وتتساءل وجهة النظر المغربية بهذا الخصوص عن كيفية المحافظة على حدود غير موجودة قانونيا ؟ . أما الاعتبار الثانى فهو أن قانون الجنسية الذى أصدرته ادارة الحماية سنة ١٩٢١ ينص على أن الجنسية المغربية لا تفقد أبدا ، وتتساءل وجهة النظر المغربية بهذا الخصوص عن كيفية تنظيم استفتاء فى مناطق تعتبر مغربية ؟ .

رؤيا مغربية للخلاف المغربى الجزائرى

١ _ المفهوم المغربى لوحدة التراب الوطنى :

مرة أخرى نجد أن الرؤية المغربية تركز على الحق التاريخى والقانونى تجاه ما أثارته الجزائر بشأن مشكلة الصحراء ، ويعتبر المغرب أن أسبانيا التى شاركت مع الدول الأوروبيــة فى مؤتمر الجزيرة الخضراء ، تعرف تماما وضعية المغرب الخاصة ، وأن أسبانيا لم تناقش أبدا شرعية المطالب المغربية ، لكنها زعمت أن الصحراء الموجـــودة جنوب خط العــرض ٤ _ ٢٧ درجة ، لا توجد داخل التراب المغربى المعنى فى الاتفاقات الدولية ، وبالتــالى فانه يجب اتباع المبادىء الافريقية لتصفية الاستعمار فيها ٠

وتركز الرؤية المغربية على أن هذه المبادىء الافريقية هى التى وحــدت فيها الجزائر منفذا للدخول فى حلبة الصراع وتعضيد الموقف الأسبانى ، وأن الدافع لذلك الموقف واضح ، فاذا كانت المنطقة لا تخضع للسيادة المغربية المضمونة فى المواثيق الدولية فان الكلام فى مستقبلها يظل محصــــورا بين أسبانيا بصفتها الدولة المسئولة على ادارتهـــا ، ولجنة تصفية الاســتعمار الحريصة على مصلحة السكان ، ويرى المغرب أنه : بما أن الجزائر تملك نفوذا داخل اللجنة لأسباب تتعلق بتطور الأحداث فى العشر سنوات الأخيرة ، فان رأيها _ أى الجزائر _ يصبح أكثر رجحانا من رأى المغرب ، خاصة اذا حرصت أنها تتدخل فقط باسم المبادىء ومصلحة السكان ، وهذا التصريح فى حــد ذاته يعطى ثقلا يفتقده المغرب بسبب مطالبه الترابية ٠ وتركز الرؤية المغربية هنا على اثبات ما تراه حقيقة تتلخص فى أن الموقف الجزائرى كان منذ البداية أكثر تصلبا وعداء للمغرب ٠ وأن أســـــبانيا كانت تقول أنهــا تملك الحجج القانونية التى تثبت أن الصحراء لم تكن أبدا تابعة للدولة المغربية وأن فى هذا اعتراف ضمنى ، فلو كان الأمر بالعكس لتفاوضت أسبانيا فى شـــأن الصحراء مع المغرب كما فعلته من قبل فى شأن طرفاية وسيدى ايفنى ، غير أن الجزائر قد تصرفت داخل وخارج الأمم المتحدة وكأن الدعوى الأسبانية حقيقة لا تستلزم دعما شرعيا ، وعندما أثير التساؤل الجزائرى التالى : مادمتم واثقين أن سكان الصحراء مغاربة فلماذا لا تقبلون تنظيم الاستفتاء ؟

يرد المغرب على هذا بأنه جهل أو تجاهل لتطورات المشكلة وتسلسلها

حيث اذا استعيدت مراحل استكمال الوحدة الترابية المغربية من أولها ، فان الدولة المغربية غير مطالبة بتنظيم استفتاء الا اذا تبين أن المنطقة المتنازع عليها كانت خارجة عن سيادتها أو اذا دعتها الضرورة للتخلى عن حقوقها ، أما ما عدا ذلك فيراه الغرب أن معه الحق فى استرجاع كل ترابه تحت شعار وحدة التراب الوطنى باعتباره حقا قانونيا تعاقديا قائما وليس حقا تاريخيا كما يتخيل البعض ٠

٢ ـ التدخل لدى محكمة العدل الدولية :

عند استشارة محكمة العدل الدولية فى مشكلة الصحراء فقد تركز النزاع المغربى الأسبانى فى نقطة : هل كانت الصحراء تابعة للسيادة المغربية ، وبالتالى يجب أن يستردها المغرب بعد التفاوض مع أسبانيا ؟ ـ أم كانت الصحراء خارجة عن تلك السيادة ويحال الأمر كليا للأمم المتحدة لتنظم استفتاءا فى المنطقة ، وتنشىء سيادة جديدة ودولة جديدة ٠ وعندما قبلت الأمم المتحدة فى خريف ١٩٧٤ فكرة استشارة محكمة العدل ، اعترفت ضمنيا أن الأمر مشكلة ، وأن القضية تحتمل اما حلا افريقيا عن طريق الاستفتاء ، واما حلا مغربيا عن طريق التفاوض الثنائى وتنازل الدولة المستعمرة لصاحب السيادة السابق للاحتلال الأسبانى وبات من الواضح ـ طبقا للرؤية المغربية ـ أنه اذا أعطت المحكمة الحق لأسبانيا وجب على المغرب أن يتخلى عن مطلبه وأن يشارك كباقى الدول القريبة والبعيدة فى تنظيم استفتاء يمكن السكان ، اما أن يقيموا دولة مستقلة ، واما أن يندمجوا فى أى دولة مجاورة ، ولكن اذا جاء رأى المحكمة مواليا لموقف المغرب ، فانه يجب على الأمم المتحدة أن تطالب أسبانيا بالدخول فى مفاوضات مع المغرب لتنقل اليه السلطة ، كما فعلت من قبل فى طرفاية وسيدى ايفنى وتخرج القضية تماما من اختصاصات اللجنة الرابعة ٠

وكانت الجزائر من بين الدول التى قبلت اقتراح استشارة محكمة العدل الدولية ، غير أنها ما لبث أن تراجعت ، وحرصت أن رأى المحكمة لا يمكن أن يلغى تطبيق مبدأ حق تقرير المصير ، مخافة أن تبعد من حل المشكلة اذا خرجت من أيدى أعضاء لجنة تصفية الاستعمار ٠ ونظرا للحجج التى تقدم بها المغرب ، لم تجد المحكمة بدا من أن تعترف أن قبائل الساقية الحمراء كانت بالولاء للسلطان المغربى ، وأن القبائل التى تعيش حاليا داخل حدود الجمهورية الموريتانية تملك حقوقا على أرض وادى الذهب ، غير أن مندوب الجزائر تكلم باسم القانون الاستعمارى الغربى ـ وفقا للرؤية

المغربية ـ متجاهلا كل خصائص القانون العربى الاسلامى الى حد أنه جعل من الصعب على قضاة ينتمون فى معظمهم الى التقاليد القانونية الغربية ، أن يكونوا أكثر تفهما للقانون الاسلامى من ممثل دولة عربية ـ اسلامية وفقا لما يراه المغرب ٠

ان محكمة العدل تعتبر الادارة القانونية لمنظمة الأمم المتحدة التى تخلق القانون الدولى الجديد بكيفية مستمرة وابتكارية ، ومن وظائف المحكمة ترسيخ هذا القانون المبتكر ، ومظاهر هذا القانون محاولة تنسيق حقوق الشعوب والجماعات والأقليات والأفراد على حقوق الدول القائمة ، والميدان الذى أعطت فيه المحاولة نتائج مشجعة هو ميدان تصفية الاستعمار على أساس استشارة السكان عن طريق استفتاء عام حر ٠ وقد ركز المندوب الجزائرى على هذه النقطة ، وذكر القضاة أن واجبهم ترسيخ الاتجاه الجديد ، وكان فى هذا الموقف نوع من الافتئات ـ حسب الرؤية المغربية ـ لأنه أعتبر الجزائر وكانها ضمير العالم الجديد ، ويرى الغرب أن قضاة المحكمة قد تخوفوا من أن يعتبر رأيهم تشجيعا لحقوق الدول القائمة واستخفافا بحقوق الأفراد والجماعات ، وأن ذلك جعلهم يذكرون فى آخر رأيهم الاستشارى بأنهم يتعلقون بمبدأ تقرير المصير ، وأن رأيهم لا يتعارض مع تطبيق هذا المبدأ ، وأنهم لتبرير موقفهم فقد اضطر بعضهم ـ طبقا للرؤية المغربية أن يميز بين الولاء والسيادة المتعارف عليها ، ثم عادوا هكذا الى فكرة تفوق القانون الغربى على الأنظمة القانونية الأخرى بما يتنافى مع اتجاه الأمم المتحدة ذاتها ٠

ويرى المغرب أن تدخل الجزائر لدى محكمة العدل الدولية بشأن مشكلة الصحراء جعل رأى المحكمة يأتى متناقضا ، غير منسجم ، كاشفا عن ميول سياسية أضرت بمركز المحكمة ، وأن تدخل الجزائر هو السبب بالرغم من تصريحاتها المتكررة أنها غير معنية بالموضوع وأنها ستبارك كل اتفاق يتوصل اليه المغرب وموريتانيا وأنها ـ أى الجزائر ـ لم تتكلم أبدا عن وجود شعب صحراوى حتى سنة ١٩٧٤ ٠

ويرى المغرب أنه يحق له بالتالى أن يأخذ بالقسم القانونى من الرأى الاستشارى ، وأن يعتبر الاستنتاج السياسى لاغيا ، وأن الولاء يعنى فى العرف المغربى ـ السيادة ، وذلك حسب اتفاقيات دولية متعددة ، وأنه ليس من حق دولة عربية اسلامية تدعى التقدمية ومحاربة الاستعمار أن تقول اليوم عن المغرب وغيره من الدول الاسلامية ما كان يقوله المستعمرون فى

القرن الماضى ، وأن هذا يعتبر طبقا للرؤية المغربية تنكرا لأبسط معانى التضامن العربى وتقهقرا فكريا سياسيا الى الوراء ، وأن الاعتراف بخصوصية وضعية الصحراء لا يضر فى شيء قداسة مبدأ تقرير المصير ، وأنه لذلك فقد سبق أن قبلت الأمم المتحدة الحق المقترح من جانب المغرب فى قضايا أخرى منها قضية اريان الغربية ، بل ان منظمة الوحدة الآفريقية نفسها قد قبلت هذا المبدأ فى مسألة ميوط وكانبذة لأن كل هذه الحالات هى اعتبارات موضوعية تجعل تطبيق مبدأ تقرير المصير عن طريق استفتاء شعبى ، اما مناقضا للهدف المنشود وهو تصفية الاستعمار ، واما أنه أمر غير ملزم .

٣ ـ المسيرة الخضراء ومغزاها السياسى :

ترى وجهة النظر المغربية أن « حكام » الجزائر لا يهتمون بقضية الصحراء الا من باب تصفية الاستعمار فى منطقة قريبة من بلادهم وأنهم قد أخذا الاحتياطات لجميع الاحتمالات وبخاصة احتمال اعتراف الأمم المتحدة بحقوق المغرب ، ومن بين هذه الاحتياطات :

١ ـ استغلال النفوذ الجزائرى فى اللجنة الرابعة للتأكيد على أن للأمم المتحدة مسئولية فى تصفية الاستعمار من الصحراء وباعتبارها مسئولية لا يمكن التخلى عنها مهما كانت الظروف والملابسات .

٢ ـ قيام الجزائر بالتقارب مع العناصر المعادية للمغرب فى عين المكان وخاصة داخل الجيش الأسبانى الذى لم يغفر أبدا للمغرب انتصاراته فى الريف وسيدى ايفنى .

٣ ـ استدراج عناصر كثيرة من قبيلة الرقيبات التى يعيش قسم منها حول تندوف ، وهى سياسة كانت فرنسا قد اتبعتها من قبل لمضايقة الأسبان .

٤ ـ احتواء جماعة من الشباب الذين لهم علاقة بعيدة أو قريبة بالصحراء أو الذين « هاجروا » من المغرب لاسباب سياسية ، والتجأوا الى ليبيا والجزائر ، بعد أن عملوا داخل الأحزاب الوطنية المغربية ، أو فى موريتانيا ، وتشجيعهم على المطالبة بالاستقلال واقامة دولة مستقلة صوريا ومعتمدة فى حقيقتها على اعانة الجزائر وأسبانيا .

وترى وجهة النظر المغربية أن « حكام » الجزائر قد أظهروا بهذه

الاجراءات تخوفهم من التعاون المغربى الموريتانى ، وأن الهدف هو وضع الأمم المتحدة أمام الأمر الواقع باقامة هياكل دولة ومنعها من أن نعير أى اعتبار لرأى المحكمة حتى ولو كان فى صالح المغرب وموريتانيا .

وكانت أولى نتائج التدخل الجزائرى هو المغزى السياسى للمسيرة الخضراء ، بعد أن لاحظ المغرب أن الجنود الجزائريين قد احتلوا مناطق صحراوية بموافقة أسبانيا ، فى الوقت الذى جمعت هذه الأخيرة كل قواها على الحدود الشمالية ، ويرى المغرب أن الوضع فى خريف عام ١٩٧٥ قد أخذ شكلا غريبا ، فالجزائر قد بعثت بجنودها الى الصحراء فى حين أن المغرب ـ المطالب أصلا بالصحراء حتى من قبل أن تكون الجزائر كدولة ـ ممنوع منعا كليا من المشاركة فى تخطيط مستقبل الصحراء ، وأن السبب فى ذلك هو رغبة أسبانيا الفرانكاوية محاربة المغرب حتى ولو أدت هذه السياسة الى اعطاء المغرب الى غير ذويها ، والسبب الحقيقى لتنظيم المسيرة الخضراء ـ من وجهة النظر المغربية ـ هو التدخل الجزائرى . والدعاية الجزائرية هى التى جعلت من المسيرة ـ فيما بعد ـ أزمة دولية كادت أن تجر بالمنطقة كلها الى حافة الهاوية مع الثمن الباهظ الذى كانت شعوب المغرب الكبير ستدفعه . غير أن مصلحة أسبانيا جاءت غير متفقة مع أهداف الجزائر فتخلوا عنها وبالرغم من الاتفاقيات « السرية » والعهود بين الجزائر وأسبانيا فقد وقعت اتفاقية مدريد .

٤ ـ اتفاقية مدريد (رؤيا مغربية) :

اعترفت محكمة العدل الدولية بوجود علاقات قانونية بين الصحراء من جهة والمغرب وموريتانيا من جهة أخرى ، وبالتالى فقد تخلت أسبانيا عن آرائها السابقة وقبلت اشراك الدولتين فى ادارة الاقليم بعد أخذ رأى السكان فى اطار تنظيمانهم التقليدية ، وكان هذا هو الحل المحتمل منطقيا فى حالة اجابة محكمة العدل الدولية على سؤال الجمعية العامة ، لولا أن الجزائر قد تدخلت دبلوماسيا وعسكريا وهو ما جعل المغرب يفكر فى تنظيم المسيرة الخضراء ومطالبة الامم المتحدة لأسبانيا بالدخول فى مفاوضات مباشرة مع الدولتين المعنيتين بالقضية ـ أى المغرب وموريتانيا ـ بعد أخذ رأى السكان .

ويرى المغرب أنه ليس صحيحا أن اتفاقية مدريد كانت خضوعا لرغبة المغرب ، بل هى تطبيق لرأى محكمة العدل ، وليس صحيحا أنها غير شرعية حيث مورست ضغوط على أسبانيا لأن المفاوضات الدبلوماسية قد يصاحبها

ظروف وملابسات يحس أحد الفريقين المتفاوضين أنها تشكل ضغوطا عليه ، ومثل هذا مارسه - حسب الرؤية المغربية - « حكام » الجزائر الذين بعثوا الى حكومة مدريد يهددونها بعقوبات اقتصادية ، اذا هى اتفقت مع المغرب وموريتانيا ، خاصة وأن الجزائر هى التى أرسلت جنودا الى اقليم كانت تقول أنه لا مطمع لها فيه ٠

ويرى المغرب أن أسبانيا قد انسحبت من الصحراء بفضل حزم الشعب المغربى ، وأنه وموريتانيا قد توصلا الى اتفاق ، ووافق السكان على هذا الحل فى الاطار الذى كانوا دائما يعبرون به عن آرائهم والتى كانت الأمم المتحدة تعتبره شرعيا فى كل وثائقها ، واذا قيل : كيف صح تقسيم الاقليم مع أن المغرب كان يعتبره كله داخل ترابه الوطنى ، فقد أجاب المغرب بأن حكومته طبقت بالحرف رأى محكمة العدل وليس رأيها الخاص فى الموضوع ، وما دام أن المحكمة قد اعترفت بحقوق مشتركة مغربية موريتانية فى الصحراء ، فقد وجب احترام تلك الحقوق ٠

أولا : فى نطاق جغرافى ٠

ثانيا : وما كان المغرب - حسب ما يرى - أن يفعل غير هذا اذ أنه متشبث بالشرعية فى تصرفاته ، وأنه لولا الضجة التى اصطنعتها الجزائر باستعمال كل وسائل الضغط والتخويف والاغراء لما وجدت الأمم المتحدة بدا من المصادقة بالاجماع على الحل المقترح ولا وصت بسحب الملف من لجنة تصفية الاستعمار ٠

وبما أن محكمة العدل الدولية قد اعترفت بروابط سياسية بين الصحراء وبين المغرب وموريتانيا ، فان المغرب يرى أن لوضع الصحراء خصوصيتها ، ولكن حكومة الجزائر نفت هذه الخصوصية واعتبرت المسيرة الخضراء زحفا(٦) موجها ضد أراضى الغير وان اتفاقية مدريد لاغية وطالبت الجزائر أسبانيا بالمكوث فى الصحراء وتتحمل مسئوليتها كسلطة ادارية ،

---

(٦) فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٧٥ ، انطلقت المسيرة الخضراء المغربية الى الصحراء تحت قيادة أحمد عصمان رئيس وزراء المغرب ، وكانت تضم ٣٥٠ ألف مغربى من كل الاتجاهات السياسية لغزو الصحراء سلميا تحت حماية مصاحف القرآن التى حملوها وهم يرددون الأهازيج الدينية، وما كانت المسيرة تعبر حدود المغرب الى الصحراء حتى توقفت لتصلى لله شكرا على أن مكنهم من لمس أرض الأجداد ٠

فى انتظار اقامة ادارة دولية أو ادارة محلية ، وقد اعترفت الأمم المتحدة فيما بعد باتفاقية مدريد ، غير أن الموقف الجزائرى - حسب الرؤية المغربية - قد قسم المجموعة الافريقيه ، ولجأت الحكومة الجزائرية لعرقلة اتفاقية مدريد وشنت حمله دعائيه على النطاق العالمى - حسب وجهة النظر المغربية - وخاصه بين الاوساط الاشتراكية الاوروبية وفى الدول الافريقيه .

ولم يعد هناك بالتالى مشكلة صحراوية وانما أصبحت المشكلة - حسب الرؤية المغربية - هى نزاع حاد بين حكومه الجزائر من جهة وبين المغرب وموريتانيا من جهة أخرى ، فلقد صفى الاستعمار الأسبانى ، أما عن حركه التحرير الصحراوية فانها لم توجد الا على أرض الجزائر ، والحكومه الجزائريه تتدخل فى كافة شئونها ، والعناصر الذين يكونون قيادة تلك الحركه - وأغلبهم من موريتانيا - يحملون جوازات جزائرية ، ويسافرون ضمن وفود جزائرية رسمية ، وقد شهد العالم - ولا يزال - حركات تحريرية حقيقية ، ولكن لا توجد بينها - حسب الروية المغربية - حركه تشبه البوليساريو ، حركة بلا شعب ، وجمهورية بلا تراب وطنى . أما الحجج الجزائرية المتمثلة فى أن المغرب وموريتانيا تحتلان الصحراء بصفة غير شرعيه ، وأن الحكومه الجزائريه ما يدفعها الى مواقفها السياسية هذه : هو وجود ألوف مؤلفة من اللاجئين الذين يرفضون العيش تحت راية المغرب أو موريتانيا ؟ فقد رد المغرب على ذلك موضحا أنه لم يوجد قبل عام ١٩٧٤ لاجئون صحراويون ، وانما الاجراء الجزائرى سببه منافسة المغرب الذى كان يحتضن ٣٠ ألف لاجيء طردهم الأسبان فى فترات متتالية منذ حرب ١٩٥٨ التحريرية ، وأنه عندما وصلت لجنة تقصى الحقائق ، قدمت لها الادارة الجزائريه خمسة آلاف فرد اتضح فيما بعد أن معظمهم من مالى والنيجر والجزائر نفسها ، نزحوا عن مواطنهم التقليدية بسبب توالى سنوات الجفاف، وأن الجزائر بالغت فى الأرقام من خمسة آلاف الى خمسين ألفا ثم الى مائة ألف ، رغم أن سكان الصحراء لم يتعدوا حسب احصاء رسمى أسبانى تبنته الأمم المتحدة ، أربعة وسبعين ألفا فى سنة ١٩٧٣ .

٥ - من محكمة العدل الدولية الى مجلس الآمن :

التقى الملك الحسن الثانى مع الرئيس الموريتانى مختار ولد داده فى « فاس » فى ٩ ديسمبر ١٩٧٤ لتأكيد اتفاق الدولتين حول الصحراء الغربية ، وفى ٢٥ من نفس الشهر دعا الملك الحسن ، أسبانيا ، الى أن تلتزم بالطريق الذى رسمته الأمم المتحدة ، كما أشار الى أن « الاحتكام القانونى ،

لا يترك أى مجال للحقد ، بين الأطراف المعنية ، لما يتسم به بعدم التحيز ، ولأن المحكمة تقرر الحق ، ولا شىء غير الحق » ، وقد أعلنت حركة «مورحوب» فى يناير ١٩٧٥ أنها تنضم الى وجهة النظر المغربية الخاصة بضم الصحراء الغربية الى المغرب ، وبعثت بمذكرة فى هذا الشأن الى محكمة العدل الدولية. غير أن جبهة البوليساريو « وهى الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادى الذهب » سارت فى اتجاه للمغرب بأن قدمت مذكرة الى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الثلاثين سنة ١٩٧٥ ، تطالب فيها المنظمة الدولية :

١ - بتأكيد الحق الثابت للشعب الصحراوى فى الاستقلال .

٢ - الزام الدولة المستعمرة بانهاء وجودها فى الصحراء ، وتسليم السيادة والسلطة الى جبهة البوليساريو التى تمثل الشعب الصحراوى .

٣ - تحذير الدول المجاورة من أية محاولة غير شرعية للتدخل فى الشئون الداخلية للشعب الصحراوى .

٤ - اعلان المنظمة الاجراءات الممكنة لاعادة سيادته والدفاع عن وحدة اعترافها بحق الشعب الصحراوى فى اتخاذ كافة ترابه .

وفى ١٦ أكتوبر ١٩٧٥ ، أدلت محكمة العدل الدولية برأيها الاستشارى بشأن الصحراء الأسبانية كالآتى : فيما يتعلق بالسؤال الأول ، قررت المحكمة وبثلاثة عشر صوتا ضد ثلاثة أصوات ، وفيما يتعلق بالسؤال الثانى ، بأربعة عشر صوتا ضد صوتين : الاستجابة الى طلب رأيها الاستشارى ، وترى المحكمة ، فيما يتعلق بالسؤال الأول ، وبالاجماع ، أن الصحراء الغربية (ريو دورو والساقية الحمراء) لم تكن أرضا بلا صاحب Terra nullius وقت استعمار أسبانيا لها ، وفيما يتعلق بالسؤال الثانى - بأربعة عشر صوتا ضد صوتين - أنه كانت هناك روابط قانونية بين الاقليم ومملكة مراكش ، تتميز بالخصائص المذكورة فى الفقرة ١٦٢ من حيثيات هذا الرأى الاستشارى . وبخمسة عشر صوتا ضد صوت واحد أنه كانت هناك روابط قانونية بين الاقليم والكيان الموريتانى ، تتحيز بالخصائص المذكورة فى الفقرة ١٦٢ من حيثيات هذا الرأى الاستشارى التى تنص على ما يلى : أن المعلومات والامتيازات التى أبلغت الى المحكمة ، تبين أنه فى وقت بدء الاستعمار الأسبانى للصحراء الغربية ، كانت هناك روابط تبعية قانونية بين سلطان مراكش ، وبعض القبائل التى تعيش فى هذا الاقليم .

كذلك توضح هذه المعلومات ، وجود بعض الحقوق المتعلقة بالارض ، والتى كانت تمثل روابط قانونية بين الكيان الموريتانى · وفقا لمفهوم المحكمة ، وبين الاقليم الغربى · الا أن المحكمة تخلص الى أن المعلومات ، التى أبلغت اليها ، لا تكفى لاقامة أى رابطة سيادة اقليمية ، بين اقليم الصحراء الغربية من جهة، ومملكة مراكش أو الكيان الموريتانى من جهة أخرى · فالمحكمة اذن ، لم تتحقق من وجود روابط قانونية ، يمكن أن تعدل من تنفيذ القرار رقم ٢٥١٤ فيما يتعلق بتصفية الاستعمار من الصحراء الغربية ، وبصفة خاصة تنفيذ مبدأ حق تقرير المصير ، بالتعبير الحر والحقيقى عن رغبة أهالى الاقليم ·

وقد كان لصدور هذا الرأى الاستشارى من محكمة العدل الدولية ردود فعل مختلفة فعقب صدوره مباشرة ، أعلن الملك الحسن الثانى اقامة « مسيرة خضراء) تضم ٥٠ ألف شخص وبدء سيرها فى اتجاه مدينة « العيون » عاصمة الصحراء ، وقد عبرت « المسيرة الخضراء » فى ٦ نوفمبر ١٩٧٥ حدود الصحراء الأسبانية وتعمقت داخل الاقليم على مسافة ١٥ كيلو مترا من الحدود ، وصرح الملك الحسن الثانى بأن « المسيرة قد حققت أهدافها » وأصدر أمره الى أفراد المسيرة بالانسحاب ، وعلى الصعيد الأسبانى ، كان الأمير خوان كارلوس قد أعلن أثنـاء يزارة قام بها لمدينة « العيون » أن أسـبانيا ستعارض بالقوة « المسيرة الخضراء » اذا اقتضى الأمر ذلك ، وقد استؤنفت المفاوضات المغربية الأسبانية فى مدريد ولكن دون التوصل الى نتيجة · أما على الصعيد الجزائرى فقد وصل الى مدريد فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٥ وفد جزائرى لمتابعة المفاوضـات الأسـبانية المغربية الموريتانية ، وقد تأجلت المباحثـات الثلاثية الى أجل غير مسمى ، ولكن الجزائر أدانت سياسة « الأمر الواقع » بشأن الصحراء وذلك عقب استئناف المفاوضات بين المغرب وأسبانيا وموريتانيا فى الفترة ١١ - ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ ، وأدت هذه المفاوضات ، الى اتفاق ثلاثى ، ينتهى بمقتضاه الوجود العسكرى الأسبانى فى ميعاد ايته ٢٨ فبراير ١٩٧٦ ، على أن يوضع الاقليم حتى هذا التاريخ تحت ادارة ثلاثية ·

غير أن القوات المغربية لم تلبث أن دخلت الصحراء الغربية واحتلت مدينة سحارة فى ٢٧ نوفمبر ١٩٧٥ ، ثم احتلت مدينة « العيون » فى ١١ نوفمبر ١٩٧٥ ثم احتلت مدينـــة « العيـــون » فى ١١ ديســـمبر من نفس العام ، أما موريتانيـا فقـد احتلت هى الأخرى مدينـــة « داخلة » - فيلاسيسنيروس ، وكانت قد جرت معارك عنيفة فى مدينة « لاجويرا » بين القوات الموريتانية وأعضاء جبهة البوليسـاريو وقد انتهت هذه المعـارك باحتلال القوات الموريتانية للمدينة ، كما أقامت الجبهة فى ١٩ ديســمبر

مظاهرات ومسيرات فى « بير لحلو » و « انفارينى » ، وسرعان ما عمت كل المناطق المحررة ، وفى الرباط أعلنت الصحافة المغربية بأن السلطات الجزائرية قد شرعت فى طرد الرعايا المغاربة المقيمين فى الجزائر ٠

وعلى الصعيد الجزائرى ، فقد سبق ايضاح ادانة الجزائر لسياسة الأمر الواقع بشأن الصحراء وعدم اعترافها بالاتفاق الذى ابرم فى مدريد بين أسبانيا والمغرب وموريتانيا ، كذلك التقى الرئيسان معمر القذافى وهوارى بومدين فى حاسى مسعود بالجزائر ، وأصدرا بيانا مشتركا جاء فيه أن « أى مساس باحدى التورتين ، سيعتبر مساسا بالأخرى ، وقامت الجزائر بحشد قواتها على الحدود المغربية ، وأعلن الرئيس الليبى معمر القذافى أن ليبيا ، لن تظل مكتوفة الايدى اذا جرى تقسيم الصحراء الغربية بين جيرانها من الدول ، أو اذا وجد شعب الصحراء نفسه بلا أرض ٠

٦ ـ اشتباكات الحدود :

منذ أوائل عام ١٩٧٦ تصاعدت الأحداث بين المغرب والجزائر ، ودخلت موريتانيا هى الاخرى كطرف فى النزاع ، كما جرت هذه الأحداث دولا أخرى على الصعيد الاقليمى لمشكلة الصحراء بالاضافه الى الأحداث على الصعيد المحلى من خلال جبهة البوليساريو ٠ ففى ٢١ يناير ، أعلنت الجبهة عن اطلاقها صاروخ سام ـ ٦ على طائرة مقاتله ف ٥ تابعة للقوات المغربية وأسقطتها ، وفى ٢٥ يناير اضطرت القوات الموريتانية الى الانسحاب من مركز « بتين بن نيلى » بعد اشتباك عنيف مع قوات جبهة بوليساريو ، وفى اليوم التالى مباشرة، اتهم وزير الخارجية المتوريتانى ـ الجزائر ـ دون ذكر اسمها لمساندتها مجموعة من المعارضين للحكومتين الموريتانية والمغربية ، وأضاف أن بلاده ستقف فى وجه أى استغلال للتناقضات الداخلية فى الدول الأفريقية « لأغراض خفية » ، كذلك أجرى الملك الحسن اتصالات بالرئيس المصرى أنور السادات ، وكان قد وصل الى الجزائر مبعوثون من الحكومتين السورية والعراقية لعرض وساطة البلدين بين الأطراف المعنية بالنزاع حول الصحراء ، وكذلك شملت هذه الجهود اجراء اتصالات تليفونية بين الرئيسين هوارى بومدين والحبيب بورقيبة أعلن الآخير بعدها حياد تونس حول اقليم الصحراء الغربية ٠

غير أن هذه الجهود قد باءت بالفشل ، ففى ٢٧ ـ ٢٨ يناير ١٩٧٦ ، جرت اشتباكات مسلحة فى « المغلا » التى تقع فى الصحراء الغربية ، على بعد ٣ كيلو مترات من حدود الجزائر ، بين الجيش الجزائرى والقوات المغربية ، وقد أدت هذه الاشتباكات الى احتلال المغرب « للمغلا » ، كما تم أسر ٢٩

جزائريا ينتمون الى الفرقة ٤١ التابعة « للجيش الوطنى الشعبى الجزائرى » ، والمعروف أن المغلا تقع أيضا على الطريق المؤدى الى « بير موتمرين » فى موريتــانيا ، ثم توقف القتــال فى ٣ فبراير بين القــوات المغربية والقوات الجزائرية ، وكانت مصر قــد قامت بالوســاطة بين الأطراف المعنيــة بنزاع الصحراء ، وقد تلخص الموقف الجزائرى اللاحق فيما أوضحته صحيفة المجاهد الرسميه الجزائرية من قضية الصحراء ينحصر فى :

(١) مساندة حركات التحرير ٠

(٢) أن النضال الذى يجرى فى الصحراء ، هو نضال بين التقدمية والاقطاع ، بين نظام ملكى استبدادى وحليف للاستعمار ، وشعب عربى يناضل من أجل بقائه ٠

(٣) أن أى مفاوضات يجب أن تكون بين جبهة « بوليزاريو » الممثلة للشعب الصحراوى ، وبين كل من المغرب وموريتانيا ٠

(٤) أن أية وساطة فى قضية الصحراء ، لا يكون لها أى معنى ، ما لم يكن هدفها التوصل الى انقاذ الشعب الصحراوى وصيانة وجوده ، كذلك أصدر الرئيسان بولدين والقذافى بيانا مشتركا عقب زيارة الرئيس بومدين لطرابلس فى ١٣ فبراير ، وقد تضــمن البيان : « دعم العلاقات العضــوية بين الدولتين » ، وأصدرت الجزائر بيانا نفت فيه وجود أية علاقة لها بالقتال فى الصحراء ، وقالت أن قوات البوليزاريو هى التى قامت بالهجوم فى الصحراء ، كما وجهت الحكومة الجزائرية مذكرة الى « كورت فالدهايم » تندد فيه بالاتفاقية الثلاثية التى كانت قد عقدت بين أسبانيا والمغرب وموريتانيا ، كما وجهت نداءين :

الأول : من الرئيس بومدين الى رؤســاء دول عدم الانحيــاز والدول الاشتراكية والدول الغربية ٠

والثانى : من وزير الخارجية الجزائرى الى كورت فالدهايم ، وقد تضمن النداءات الاشارة الى الوضع الخطير الراهن فى الصحراء ٠

أما على الصعيد المغربى ، فقد وصف رئيس وزراء المغرب فى حديث له مع صحيفة « فيجارو » الفرنسية ، ما قامت به الجزائر من طرد ٢٠ ألف مواطن مغربى من أراضى الجزائر ، بأنه طعنة موجهــة للمغرب العربى ، وفى ظهر

شعوب دول المغرب الكبير ، وأن هذه التصرفات ، تستهدف قطع الجسور ، وخلق جو عدائى بين الشعبين ، كذلك وصف رئيس الوزراء المغربى ، مبدأ تقرير المصير لسكان الصحراء بأنه « فكرة مهملة ، وأن المجتمع الدولى ودول العالم الثالث قد بدأوا - بوجه خاص - يتكشفون ألاعيب تطبيقها بطريقة آلية وعمياء » .

وكان الملك الحسن قد بعث برسالة الى الرئيس بومدين ، يعلن فيها أن قيام القوات الجزائرية بهجومها على واحة المغلا ، أسفر عن وقوعها فى أيدى الجزائريين ، ودعا الملك فى رسالته أن يعلنها الرئيس الجزائرى « حربا ساخرة بين البلدين » ، كذلك أعلن متحدث باسم وزارة الاعلام المغربية ، أن القوات المغربية ، قد دخلت واحة « المغلا » وسيطرت عليها بعد انسحاب القوات الجزائرية منها ، وقد نقلت وكالات الأنباء من الرباط تصريحات عن المسئولين الحكوميين ، تفيد بأن المغرب سينسحب من منظمة الوحدة الأفريقية ، اذا أعترفت المنظمة رسميا بجبهة البوليزاريو ، وكان ممثل جبهة البوليزاريو قد صرح خلال اجتماع تم فى الجزائر بينه وبين « ويليم اتكين » الامين العام لمنظمة الوحدة الأفريقية بضرورة توافر الشروط التالية لعودة السلام الى الصحراء الغربية وهى « الجلاء التام والفورى للقوات الأجنبية ، ودعوة السكان المغاربة الذين أقاموا بالقوة فى الصحراء ، الى بلدهم الأصلى ، وعودة شعب الصحراء الى دياره » .

وعلى صعيد الوساطة العربية ، فقد طلبت حكومة السودان ، عقد اجتماع عاجل لوزراء الخارجية العرب، لبحث مشكلة الصحراء ، وذلك نظرا لان الوجود الأسبانى سينتهى من الصحراء فى آخر شهر فبراير ، كما صرح مسئول بالجامعة العربية بأن السيد محمود رياض الأمين العام للجامعة ، سيقوم بزيارة تونس وليبيا ، وسوف يقوم أيضا بجولة تالية فى عدد من العواصم العربية ، بهدف دعم العمل العربى المشترك فى المرحلة الراهنة ، وأن الأمين العام سيقدم تقرير بذلك الى مجلس الجامعة العربية فى دورته يوم ١٥ مارس ١٩٧٦ .

وعلى صعيد المنظمة الدولية ، فقد نقل أدلوف ريدبيك المبعوث من قبل الأمين العام للأمم المتحدة فى أول رحلة استطلاعية فى الصحراء الغربية ، نقل أول تقرير شفوى الى كورت فالدهايم .

وعموما فقد دخلت مشكلة الصحراء مرحلة جديدة وذلك باعلان أسبانيا انتهاء انسحابها من الصحراء الغربية .

٧ - الانسحاب الأسباني وردود الفعل الاقليمية :

أتمت أسبانيا انسحابها من الصحراء الغربية فى ٢٦ فبراير ١٩٧٦ ، طبقا للاتفاق الثلاثى الذى وقعته مع المغرب وموريتانيا فى مدريد خلال نوفمبر ١٩٧٥ ، وفى الحال تحركت الأطراف الاقليمية والمحلية فى النزاع ، فعلى الصعيد المحلى ، أعلنت جبهة « بوليزاريو » فى اليوم التالى مباشرة ، قيام « جمهورية الصحراء العربية الديموقراطية » على الأراضى التى تسيطر عليها. وقد هدد المغرب بقطع علاقاته الدبلوماسية مع أية دولة تعترف بالجمهورية التى أعلنتها جبهة « بوليزاريو » ، كما لفتت المغرب نظر المبعوث الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة ، الى القرار الذى اتخذه مجلس « الجماعة » فى الصحراء ، بالموافقة على انتقال المنطقة الى المغرب وموريتانيا .

وفى أديس أبابا حيث انعقد مؤتمر وزراء الخارجية لمنظمة الوحدة الأفريقية ، فى الفترة ٢٨ - ٢٩ فبراير ، هدد المغرب وموريتانيا بالانسحاب من المنطقة ، اذا ما وافقت على انضمام جبهة « بوليزاريو » بين صفوفها ، كما هددتا بعزمها على الاعتراف بدورهما بكل الحركات الانفصالية القائمة فى مختلف البلاد الأفريقية ، اذا ما أعترفت المنظمة بوجود « بوليزاريو » ، كذلك وجه الملك الحسن الثانى دعوة الى الرئيس الليبى معمر القذافى ، لزيارة الصحراء « المغربية » ليتعرف بنفسه على رغبة سكان الاقليم فى الانضمام للمغرب ، وفى اطار العلاقات الأمريكية المغربية ، وصل الفريد أثرتون مساعد وزير الخارجيه الأمريكية لشئون الشرق الأوسط ، وصل الى الدار البيضاء فى ٢ مارس ، وأعلن أن زيارته تدخل فى نطاق تبادل وجهات النظر الدولية بين الولايات المتحدة والمغرب فى المسائل التى تهم البلدين ، وقد استمر الملك الحسن فى تصعيده للحملة التى تؤيد حق المغرب فى الصحراء ، فحذر الملك الجزائر فيما وصفه المراقبون ، بأنه أعنف لهجة استخدمها الملك منذ بدء التوتر حول مشكلة الصحراء - بأن المغرب سيحتفظ بالصحراء بأى ثمن ، وأنه سيحطم أى احتمال لهجوم عسكرى قد تقوم به الجزائر ، وأتهم الملك فى خطابه بمناسبة عيد الجلوس ، الجزائر بأنها خلقت موقفا خطيرا بتدخلها فى الصحراء ، وأن هذا التدخل ، لا يعنى سوى أن الجزائر - من وجهة نظر الملك الحسن - تضيع وقتها وطاقاتها دون أن تصل الى شىء .

غير أن تحذيرات الملك الحسن لم تجد صدى لدى جبهة البوليزاريو التى أعلنت فى ٦ مارس عن تشكيل حكومة صحراوية برئاسة محمد الأمين أحمد ، أحد مساعدى سيد العوالى السكرتير العام للجبهة ، وضمت الحكومة ثلاثة وزراء للدفاع والشئون الخارجية والداخلية ، بالاضافة الى أربع وزراء

بدون وزارة ، وأعلن متحدث باسم الجبهة ، أن جمهورية الصحراء ستطلب الانضمام الى الأمم المتحدة ، ومنظمة الوحدة الأفريقية ، وجامعة الدول العربية، وقد اعترفت الجزائر فى نفس اليوم بجمهورية الصحراء العربية الديموقراطية، وكانت صحيفة المجاهد الرسمية الجزائرية قد دعت الجامعةالعربية الى الاعتراف بالجمهورية الصحراوية ، وقد اعترفت بوروندى هى الأخرى بالجمهورية الصحراوية ، أما جامعة الدول العربية فقد صرح أمينها العام بأن مشكلة الصحراء معقدة ، وأن ايجاد مخرج سياسى للاتفاق بين أطرافها ، يحتاج الى وقت ، وقد أدلى محمود رياض بهذا التصريح بعد حوالى أسبوعين قضاها فى مساعى التوفق بين الجزائر وكل من المغرب وموريتانيا فى أزمة الصحراء ، وأشار الأمين العام الى أن كل طرف يتمسك بموقفه ، ولا يريد أن يتزحزح عنه .

على الصعيد الاقليمى أيضا ، أعلنت كل من المغرب وموريتانيا ، قطع علاقاتهما الدبلوماسية مع الجزائر ، بسبب اعتراف هذه الأخيرة بجمهورية الصحراء العربية الديمقراطية ، وقد أعلن متحدث باسم الحكومة الجزائرية تعقيبا على ذلك ، أن قطع المغرب وموريتانيا علاقتهما مع الجزائر ، ليست له أهمية ، لأن الجزائر تتصرفعلى أساس الحق والعدالة الشرعية ، وعلى الصعيد المناوىء لنظام الحكم الجزائرى فقد وجه عدد من المسئولين الجزائريين السابقين نداءا الى الشعب الجزائرى ، يندد بالنزاع مع الشعب المغربى وبالسلطة الفردية ، وطالب النداء بوقف الحرب بين الجزائر والمغرب ، وبانتخاب جمعية وطنية تأسيسية ، وبأنهاء نظام الحكم المطلق الحالي ووقع على النداء فرحاتعباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة السابق ويوسف بن حده رئيس الحكومة الجزائرية السابق وحسين الأحول الأمين العام السابق للحزب الشعبى الجزائرى وحركة التحرير ، والشيخ محمد خير الدين العضو السابق فىالمجلس الوطنى للثورة الجزائرية .

وقد أجرى الشيخ صباح الأحمد وزير خارجية الكويت ، مباحثات فى الجزائر مع أحمد الابراهيمي وزير الاعلام والثقافة بالجزائر ، ورئيس وفدها بمجلس جامعة الدول العربية بشأن أزمة الصحراء الغربية ، وكان وزير خارجية الكويت قد عقد اجتماعا مماثلا مع كل من الدكتور أحمد العراقى وزير خارجية المغرب ، وحمدى ولد مكناس وزير خارجية موريتانيا ، كما نشرت صحيفة « السياسة » الكويتية أن اتفاقا سريا قد وقع بين موريتانيا والمغرب ينص على أن ثلثى الاقليم الصحراوى سيكون من نصيب المغرب والثلث الباقى من نصيب موريتانيا .

وفى اطار المساعى التوفيقية العربية أيضا ، أعلن أحمد العراقى وزير خارجية المغرب، بأن مسئولين من السعودية ومصر وسوريا والعراق والسودان وتونس ، قد قاموا بمســاع حميده ، لحصر الخــلاف بين الجزائر والمغرب ، وقال وزير خارجية المغرب أن الحوار يجب أن يكون لاعادة المياه الى مجاريها مع الجزائر ، ولا نقبل النقاش فى سياتنا الوطنبة واستكمال وحدة التراب الغربى .

غير أن جبهة البوليزاريو كانت قد بدأت فعلا بعمليات حرب عصابات فى المغرب وموريتانيا ضد أهداف عسكرية بحته .

موقف موريتانيا

١ - استقلال موريتانيا وتأثيره :

حصلت موريتانيا على الاستقلال فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠ ، وذلك فى عهد الجمهورية الخامسة فى فرنسا بعد عام ١٩٥٨ وما تلا قيام هذه الجمهورية من اجراء استفتاء فى الأقاليم التابعة للاتحاد الفرنسى بأن يختار سكانه بين البقاء ضمن نظام مرن جديد عرف باسم نظام العائلة الفرنسية Communaite Francaise أو بين الاستقلال التام ، وكان قد أجرى استفتاء فى سبتمبر ١٩٥٨ واختارت موريتانيا مثلها مثل جميع أقاليم غرب ووسط أفريقيا باستثناء غينيا - البقاء ضمن المجموعة الفرنسية - وتذهب المصادر الموريتانية الى تقسيم مهمة تحديد الاختيار بين الاستقلال أو البقاء فى ظل المجموعة الفرنسية وقع على عاتق اللجنة القيادية لحزب التجمع الموريتانى الذى فضل طريق التعقل ، واستطاع هذا الحزب أن يتجنب المشاحنات السياسية ، التى انساقت وراءها أبرز الأحزاب السياسية فى أفريقيا ، وأن وجدت مع ذلك فى موريتانيا أحزاب معارضة أخرى مثل حزب النهضة الذى طالب بتقرير المصير ، ولكنه تعرض للخطر بعد ذلك . وكانت نتيجة التصويت الذى قام به المجلس الاقليمى فى موريتانيا ، أن صوت ٣٢ ألف لصالح البقاء فى المجموعة الفرنسية والموافقة على دستور الجمهورية الخامسة ، فى حين صوت ١٩ ألفا فى صالح الاستقلال التام(١) .

غير ان الزعماء الوطنيين فى موريتانيا تطلعوا فى هذه الفترة للاتصال مباشرة بالمجالات الدولية ، وهكذا خطت موريتانيا خطوتها النهائية لاستكمال السيادة فيما بين شهرى يونية ويولية ١٩٦٠ حيث برزت الى الوجود عدة جمهوريات أفريقية جديدة ، ولكن موريتانيا كانت آخر مستعمرة فرنسية فى غرب أفريقيا(٢) تحصل على استقلالها ، وتم ذلك فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠ وذلك حينما صادق المجلس الوطنى الموريتانى على قانون ينص بتعجيل المطالبة

---

(١) أنور زغلول وشوقى الكمال « موريتانيا العربية » القاهره ، ١٩٦٠ .

(٢) الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، دراسة مسجلة شاملة - القاهرة - معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٨ ص ٦ - ٨٩ .

باستقلال الوطن قبل بداية عام ١٩٦١ ، وسافر المختار ولد داده للتفاوض مع القادة الفرنسيين فى يولية ١٩٦٠ حيث أبرم فى ١٩ أكتوبر ، الاتفاق الموريتانى الفرنسى الذى يقتضى بنقل السلطات الموريتانية الى الوطنيين واعلان الاستقلال الكامل فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠ ٠

وشأن زعماء الحركات الوطنية فى غرب أفريقيا والمشبعين بالفكر الليبرالى فى تكوينهم بسبب ثقافتهم الفرنسية ، فقد تبنت الجمهوريات الجديدة فى غرب أفريقيا النظام البرلمانى ، وما لبث هؤلاء الزعماء بعد أن تولوا السلطة أن نزعوا الى نظام الحزب الواحد ، واذا لم تكن انقلابات عسكرية قد فرضت هذا النظام فى بعض الحالات ، فان هؤلاء الزعماء قاموا بأنفسهم بتغيير ، وحولوا نظام الحكم الى نظام الحزب الواحد ، وكانت آراء هؤلاء الزعماء فى تبرير ذلك أن النظام السابق على الاستقلال لا يلائم طبيعة البلاد ، وخاصة فى بلد مثل موريتانيا ، اذ أن اباحة الأحزاب سيؤدى الى ايقاظ الروح القبلية وظهور الانقسامات الداخلية ، ومن ثم فقد تم تعديل دستور ١٩٥٩ ودستور ١٩٦١ (٧) وأنقلبت موريتانيا من النظام البرلمانى الذى ورثته عن دستور ١٩٥٩ الى النظام الرئاسى الذى أقره الدستور الجديد ، وأصبح رئيس الجمهورية ينتخب بالتصويت العام وأعضاء البرلمان والحكومة يلعبون أدوارا هامة ٠

وقد شهدت السياسة الخارجية لموريتانيا ، تغييرات مستمرة حسب الملابسات ، والضغوط التى أحاطت بالبلاد منذ بداية عهد الاستقلال ٠ ففى السنوات الأولى ، اعتبرت موريتانيا من بين الدول الدائرة فى فلك الغرب عامة ، وفرنسا بصفة خاصة ، ونتج عن ذلك أن معظم الدول العربية ، أيدت المطالب المغربية على موريتانيا لعدة سنوات ٠

ولما خفت الدعاوى المغربية ، انطلقت السياسة الموريتانية فى الطريق الذى يعبر عن الأمانى الوطنية ، وصارت مثل معظم الدول العربية الواقفة
الذى يعبر عن الأمانى الوطنية ، وصارت مثل معظم الدول العربية الواقعة
. .

---

(٧) راجع نص دستور ١٩٥٩ فى : يونس بحرى ، هذه جمهورية موريتانيا الاسلامية ، بيروت ٩٦١ ، ص، ص ١١٢ ـ ١٢٥ ٠ وراجع نص دستور ١٩٦١ فى :
Constitution de la Republique Islamique de Mauritanie Nouackchott, Le 20 Mai, 1961 Mis à jour le 28 Août, 1975.

فى أفريقيا ، تخطط سياستها فى دوائر ثلاث ، الدائرة العربية والأفريقية ثم كتلة أو دائرة عدم الانحياز · غير أنه بحكم عوامل مختلفة ، منها الموقع ومنها وجود أقليات غير عربية فى الجنوب ، فقد اختلفت موريتانيا عن الدول العربية من حيث ترتيب الأولويات ، ويعنى البعض (٨) بذلك الاتجاه العربى أو الأفريقى ففى حين أن موريتانيا لم تنشىء علاقات دبلوماسية مع اسرائيل وطلبت بالانضمام الى الجامعة العربية فى عام ١٩٦٣ ، الا أن اهتماماتها الأفريقية كانت أكثر شأنا ، بموريتانيا من بين الدول المؤسسة لمنظمة الوحدة الأفريقية منذ عام ١٩٦٣ ، كما انضمت الى تنظيمات أقليمية عديدة ، بل أن الأمور الأفريقية تتقدم على الشئون العربية فى اهتمامات موريتانيا ، كذلك فان سياسة التعريب وتزايد المساعدات الاقتصادية من جهة أخرى ، كان من شأنهما أن يقويا التيار العربى ·

٢ ـ مشكلة الصحراء بعد استقلال موريتانيا :

وتأتى مسألة الصحراء هى الأخرى لتحدث تغييرات هامة فى سياسة موريتانيا الخارجية ، فبعد أن كانت الجزائر هى من أوثق البلدان العربية صلة بها باعتبارهما جمهوريتين تتبنيان نظام الحزب الواحد ، وترفعان شعار الاشتراكية ، الا أن الآية انعكست ، وصارت المغرب هى أشد الدول صلة بموريتانيا ، فى حين تأثرت العلاقات الموريتانية الجزائرية ، ووصلت الى منحنى للتصاعد من التأزم أدى الى القطيعة الدبلوماسية ، كما أن مسألة اذ أبدت غالبية دول المنظمة مبدأ تقرير المصير بالنسبة للصحراء ·

وبينما كانت موريتانيا تخطو بخطى بطيئة نحو الحكم الذاتى ، حصل المغرب على استقلاله عن فرنسا بمقتضى اتفاقية مارس ١٩٥٦ · وما كاد المغرب يستكمل استقلاله بالاتفاق مع أسبانيا فى ابريل ١٩٥٦ بتسليم المناطق الخاضعة لحمايتها ، حتى أخذ يركز على اهتمامه على مسألة استكمال الأراضى المغربية بالمفهوم التاريخى · وقد تصدر حزب الاستقلال هذه الدعوى ، وكان له دور هام فى حكم المغرب على عهد الملك محمد الخامس ، ومن هنا لقيت هذه الدعوى التأييد الرسمى من الحكومة المغربية ، ففى عام ١٩٥٦ كتب علال الفاسى زعيم حزب الاستقلال مقالا فى جريدة العلم المغربى ذكر فيه أن حدود المغرب يجب أن تضم جميع الأجزاء المغربية من الصحراء

---

(٨) دكتور جمال زكريا قاسم ، دكتور صلاح العقاد ، بناء الدولة ، فى الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، دراسة مسجلة سابقة ، مرجع سابق ص ٧٥ وما بعدها ·

الكبرى حتى حدود السنغال ، وقد أرفق المقال بخريطة تمثل المغرب الأكبر ، وملحق يبين فيه أهمية الصحراء الاقتصادية ، وأحصيت فى الملحق ثروات الصحراء المستثمر منها ، وما هو فى طريق الاستثمار ، وكان على المغرب أن يخوض أولا بعض المعارك الديبلوماسية ضد أسبانيا ، لاسترجاع الجنوب التى لم تكن داخلة ضمن أراضى للحماية ، أو التى اعتبرتها أسبانيا مستعمرات ينبغى الاحتفاظ بها بخلاف المحميات التى سلمتها منذ عام ١٩٥٦ ٠

وبالاستيلاء على طرفاية عام ١٩٥٨ ، اقتربت الحدود المغربية من موريتانيا ، ولكنها لم تصل الى اقامة حدود مشتركة معها ، بل ظلت الصحراء الأسبانية ، تفصل بين القطرين ، وتمتد فى الداخل حتى تلامس الجزائر ٠ وقد طرح المغرب مطالبه على موريتانيا فى المنظمات الدولية ، وحصل على تأييد بعض هذه المنظمات ، فقد أيد مؤتمر الشعوب الأفريقية الآسيوية الذى عقد فى القاهرة فى عام ١٩٥٨ ، طلب المغرب لاسترجاع جميع المناطق التى لا يزال الاستعمار يسيطر عليها تحقيقا لوحدة المغرب واستقلاله ، وفى ١٢ مارس ١٩٥٨ عقد على المستوى المحلى مؤتمر رؤساء القبائل الصحراوية ، وأكد ذلك المؤتمر عدم اعترافه بالحكومة التى يرأسها المندوب الفرنسى العام فى موريتانيا، وينوب عنه فيها المختار ولد داده ٠ وفى مؤتمر طنجة الذى انعقد فى الفترة ما بين ٢٧ ، ٣٠ ابريل ١٩٥٨ واجتمع فيه ممثلون عن حزب الاستقلال وجبهة التحرير الوطنى الجزائرية — أثر تطور حرب التحرير فى الجزائر — سجل ذلك المؤتمر عدة قرارات جاء فيها ، أن كفاح سكان موريتانيا من أجل تحريرهم من السيطرة الأجنبية ، والحاقهم بالوطن المغرب ، يدخل فى نطاق وحدة المغرب الحضارية والتاريخية ٠ وقد استقبل المغرب مجموعة من الموريتانيين ٠ وأمام عزم فرنسا على اجراء الاستفتاء على دستور الجمهورية الخامسة ، عقد مؤتمر فى الرباط بين ٣،٥ سبتمبر ١٩٥٨ عرف باسم مؤتمر موريتانيا والصحراء ٠ ومن أهم قرارات ذلك المؤتمر ، اعلان الولاء للملك محمد الخامس ، واعتبار موريتانيا والصحراء جزء لا يتجزأ من المغرب ، كما طالب المؤتمرون بعرض قضية موريتانيا والصحراء على الأمم المتحدة ورفض الاستفتاء الذى تقدمت به فرنسا ، كما رأى الملك محمد الخامس فى ابريل ١٩٥٨ تكليف وزارة الخارجية المغربية بتقديم تقرير مفصل يستعرض فيه الحجج القانونية والدبلوماسية والتاريخية ، التى يمكن للمغرب أن يستند اليها ، وقدم ذلك التقرير بالفعل التى اصطدمت فى أروقة الأمم المتحدة ٠ وفى ١٣ نوفمبر ١٩٥٩ صدرت جريدة « شنتيط » فى المغرب ، وكان من أهم أهدافها الدعاية لضم موريتانيا الى المغرب ٠

٣ — التفسير الموريتانى لمطالب المغرب :

وقد انصبت الدعاوى المغربية ، ليس على موريتانيا فحسب ، بل كانت الصحراء وأجزاء من مالى والسنغال ، بالاضافة الى أقسام من الصحراء الكبرى التابعة للجزائر · ففى يونيو ١٩٦١ نشر علال الفاسى وثيقة بعنوان « الحقيقة على الحدود المغربية » ، ذكر فيها أن دولة مالى فى حدودها السابقة ، هى الدولة الوحيدة المجاورة للمغرب على حدود الصحراء ، ومما يجدر ذكره أن المطالب المغربية على موريتانيا قد اتخذت شكلا أكثر حده بمجرد أن أعلن استقلال موريتانيا فى عام ١٩٦٠ ، ويرجع ذلك الى أن موريتانيا كانت قد أضافت النقاط القريبة الى المغرب ، فأسبانيا ما زالت أقدامها راسخة فى الصحراء ، وقد ضمتها الى جزر كناريا ، والجزائر لم تستقل بعد · ومن جهة أخرى وجد بعض الموريتانيين الذين أيدوا فكرة الاتحاد مع المغرب · وقد أشارت بعض الصحف الموريتانية عن وقوع مؤامرة لحساب المغرب تحقيقا لأهداف حزب الاستقلال الرامية الى اتحاد القطرين ، وقد صدرت فى نواكشوط أحكام بالاعدام على بعض المسئولين عن تنفيذ تلك المؤامرة ، وقد احتج المغرب على ذلك برسالة بعث بها علال الفاسى الى المختار ولد داده ·

أما التفسير الموريتانى لمطالب المغرب فقد انحصر فى طمع المغرب فى ثروات موريتانيا ، وأن المغرب يخفى مطامعه تحت شعار معطيات تاريخية مزعومة وخاطئة ·· ومن الواضح أن ما يراد تحريره ليس جمالنا ورمالنا ·· بل حديدنا ونحاسنا » (٩) ·

وعموما فقد اتسمت الفترة السابقة على عامى ١٩٦٠ ، ١٩٦١ بأن المغرب جعل مطالبه على موريتانيا محور السياسة الخارجية (١٠) ، ومن أجل هذه المشكلة ، قبل الانضمام الى مجموعة أفريقية تعتبر دولا تقدمية تناهض الاستعمار ، وسميت هذه المجموعة بدول الدار البيضاء ، اذ أنها ولدت مع مؤتمر قمة انعقد فى مدينة الدار البيضاء ، مثل مجموعة من الدول العربية والأفريقية ، وذلك فى مقابل تأييد هذه المجموعة للمطالب المغربية فى موريتانيا·

---

(٩) من خطاب الداه سيدى المختار انجاى الناطق بلسان موريتانيا فى ١٩٥٠/٩/١٦ فى الكتاب الأخضر الموريتانى : الجمهورية الاسلامية الموريتانية ، والمملكة المغربية — باريس ١٩٦٠ ص ٩ وما بعدها ·

(١٠) عن موقف المغرب من استقلال موريتانيا · راجع : محمد اسماعيل ، وعبد الخالق علامة . قضية موريتانيا — القاهرة ١٩٦١ ص ص ١٠ — ١٢٥ ·

كذلك نشر المغرب كتابا أبيض فى أكتوبر ١٩٦٠ أكد فيه على الحقوق التاريخية فى بلاد شنقيط ، وجادلت موريتانيا بكتاب رسمى آخر عرف بالكتاب الأخضر ، ويتضح من المجادلات أن المغرب استشهد بأن البلدان الصحراوية ، ظلت حتى الحماية الفرنسية جزءا لا يتجزأ من أراضيه ، كما استشهد بدولة المرابطين وغزو بنى متعل وحملات المنصور الدهبى ٠ وأكدت الحكومة المغربية أن مقومات السيادة من عمله ومقاييس ومكاييل وضرائب وغيرها ظلت قائمة حتى الاحتلال الفرنسى ، وأن السلطة المركزية كانت تعين القادة والباشوات منها ، وأن دعاء المصلين كانت للسلطان ، وأما المقاومة التى قام بها الشيخ ماء العينين (١١) ، فقد أعتبرت أهمية خاصة اذ أكدت الحكومة المغربية بأنه حضر بنفسه الى مراكش فى عام ١٨٩٧ لأداء واجب الخضوع للسلطان ، وأن المعاهدات التى جعلت موريتانيا تحت السيادة الفرنسية لا تصلح لرحض حجج المغرب ٠

٤ ــ المطالب الموريتانية :

وردت الحكومة الموريتانية من جانبها ، بأنها لم تكن خاضعة يوما للمغرب ، كما أن المؤرخين الذين يعترضوا لحدود المغرب جغرافيا وسياسيا، لم يتعرضوا قط لادخال موريتانيا داخل تلك الحدود ، ومن بين هؤلاء المؤرخ المعروف ابن خلدون ٠ كما أن الخرائط الجغرافية لبلاد المغرب لا تتعدى جهة الجنوب خط ٢٨ شمالا ، وأن موريتانيا لم تكن يوما تعرف بالمغرب ، ولا تدخل تحت اسمه وانما هى معروفة منذ زمن بعيد باسم بلاد الشنقيط ، بينما كان المغرب الأقصى يعرف باسم مراكش (١٢) ، كما أن موريتانيا تفصلها عن المغرب صحراء كبيرة فاصلة تمتد ألف وخمسمائة كيلو مترا مما يصعب معه الاتصال بينهما الا فى زمن الشتاء وعن طريق القوافل التى تمكث أكثر من شهر ، أما عن طلب الشيخ ماء العينين المساعدة من سلطان المغرب ، فلا يستطيع أحد مهما كان تطرفه ، أن يسلم بأن طلب المعونة تخول لمقدمها السيطرة على المستقين به ، فضلا عن أن المغرب لم يرسل جيشا كبيرا ، ولم تتعد مساعدة مولاى عبد العزيز أكثر من سبعين بندقية سلمها للوفد الموريتانى (١٣) ٠

---

(١١) راجع تفصيل ذلك فى القسم الثانى من هذه الدراسة ٠

(١٢) وزارة الاعلام والمواصلات ، أضواء على موريتانيا ، نواكشوط ١٩٧٤ ص ٣٥ وما بعدها ٠

(١٣) نفس المرجع السابق ٠

وحين عرض الموضوع على الأمم المتحدة ـ قبل اعلان استقلال موريتانيا بأكثر من شهر ـ أن أكد ممثل المغرب أن سيادة المغرب على مناطقه الجنوبية تثبتها المواثيق والاتفاقات الدولية ، وأن المغرب منذ استقلاله داوم على المطالبة باعادة جزئه الجنوبي (١٤) ، وقد أنقسم الرأى فى الأمم المتحدة بين مؤيد للدعاوى المغربية ومعارض لها ، وساندت بعض الدول العربية ودول أخرى ، المغرب ، مؤكدة أن المسألة هى تجزئة المغرب وليس استقلال موريتانيا ، وأنه ليس من الصواب القول بأن الموريتانيين قد مارسوا حقهم فى تقرير المصير ، لأنه لم يتح لهم الخيار بالاتحاد مع المغرب ، ولو أنهم كانوا قد أعربوا عن رغباتهم بصدد هذه المسألة بواسطة استفتاء يجرى تحت اشراف الامم المتحدة ، لجاز عندئذ فقط اعتبار النتيجة صحيحة • أما الدول الأفريقيه فقد ساندت القضية الموريتانية ، حيث ناشد ممثلوا بعض الدول الأفريقية المغرب سحب طلبه والترحيب باستقلال موريتانيا ، وكانت هذه الدول ترى أن استقلال موريتانيا كسب للنضال الأفريقى حتى ولو كان استقلال صوريا، وأنه فى المدى البعيد سيتحول الى استقلال حقيقى تبعا لتطورات النضال الأفريقى بصفة عامة •

أما عن الدول العربية فقد كانت وباستثناء تونس بمناورة سياسية حيث جعلت الاتحاد السوفيتى يستعمل حق الفيتو لمنع التحاق موريتانيا بعد استقلالها فى ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠ ـ ولم يكن تصرف الاتحاد السوفيتى من أجل المغرب بقدر ما كان تعبيرا عن التنافس بين القوى العظمى . فقد علق قبول موريتانيا على قبول دولة شيوعية فى الأمم المتحدة هى دولة منغوليا •

وعموما فقد أحرزت موريتانيا نصرا فى ١٩ ابريل ١٩٦١ حيث توالتقبول موريتانيا فى الأمم المتحدة والمنظمات المتفرعة عنها ، وازدادت المشكلات تعقيدا بالنسبة للمغرب ، بعد أن أصبح لموريتانيا كيان سياسى وقانونى ، ومن ثم كان لا بد من فتح صفحة جديدة فى العلاقات بين الدولتين ، ويرى بعض المؤرخين المعاصرين(١) أن الملك الحسن الثانى قد اختلف عن سلفه الملك محمد الخامس فى أنه لم يشأ الاعتماد على حزب الاستقلال ، وبالتالى خفف من حدة الدعاوى الى المغرب الكبير ، ولعل ذلك ، شجع بعض اللاجئين الموريتانيين بعد

---

(١٤) H. Duprieg, les Revendications Morcaines sur la Mauritanie et sur le Sahara devant le droit international et devant l'Histoire Communaute et Continent No. 9 janvier mars 1967.

تولى الحسن السلطة للتوسط ، على أساس الاعتراف بوجود كيان مستقل لموريتانيا ، واتحادها بشكل ما باتحاد مع المغرب ، غير أن المختار ولد داده رفض هذه الوساطة رفضا باتا وفي عام ١٩٦٣ جرت محاولة أخرى للوساطة بين البلدين ، فقد انتهز الزعيم الجزائري أحمد بن بيللا فرصة تأسيس منظمة الوحدة الافريقية في أديس أبابا ، والظاهر أن مساومة حدثت في ذلك الوقت على أساس اعتراف المغرب باستقلال موريتانيا • مقابل أن تتخلى الأخيرة عن مطالبها بالصحراء • وقد أدى اختفاء بن بيللا من على المسرح السياسي الجزائري الى توقف الوساطة ، غير أن دولا عربية عديدة أخذت تعترف بجمهورية موريتانيا وكان من أسبقها تونس والجزائر ومصر ، وبعد فترة من الصمت ، تحول المغرب بدوره عن موقفه السابق ، وقرر الاعتراف بموريتانيا في عام ١٩٧٠ ، وكان ذلك على أثر تسوية مشكلات الحدود مع الجزائر(١٦) •

وعموما فقد استأثرت مشكلة الصحراء باهتمام موريتانيا رغم كل المعاناة التي تعرضت لها عشية حصولها على الاستقلال أو بعده ، ويرجع اهتمام موريتانيا بمشكلة الصحراء الى عام ١٩٥٧ - أي قبل الاستقلال بثلاث سنوات حين القى المختار ولد داده خطابا في مدينة اطار وطالب ولد داده بحرية المنطقة ، وان الصحراء جزء لا يتجزأ من التراب الوطني الموريتاني ، غير أن مطالبة موريتانيا لم تتخذ شكلا جديا الا بعد تصفية خلافاتها مع المغرب - كما سبق أن الحنا لذلك - ومن جهة أخرى فان أسبانيا كانت متشبثة باقليم الصحراء ، ولذلك لم تر موريتانيا أن الوقت قد تهيأ بعد لمجابهة مع أسبانيا ، فظلت هذه المشكلة محل صراع بين أسبانيا والمغرب من حيث المواجهة العسكرية والدبلوماسية •

وقد اتخذت مشكلة الصحراء طريقا آخر طوال الستينات كان يبدو أكثر بروزا على الصراع الأسباني المغربي ، والمقصود بها طرح القضية سنويا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث تتنافس كل من المغرب وموريتانيا بعرض حججها في تنبيت حق كل منهما على الصحراء • ومن الطريف(١٧) أن موريتانيا

---

(١٥) دكتور جمال زكريا قاسم ، دكتور صلاح العقاد ، بناء الدولة في : الجمهورية الموريتانية ، مرجع سابق ص ٧٩ •

(١٦) محمد عبد الغني سعودي ، موريتانيا بين العروبة والاسلام الى أفريقيا الغربية ، في مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد السادس ص ١٢٧ •

(١٧) دكتور جمال زكريا قاسم ، دكتور صلاح العقاد ، بناء الدولة ، في : الجمهورية الموريتانية ، مرجع سابق ص ٨٣ •

قد استندت فى دعواها الى الكتاب الأبيض المغربى ، الذى أصدرته حكومة المغرب ، لتثبت حقوقها التاريخية فى موريتانيا ، وفيه يتضح أن مطالبة المغرب بالصحراء تنبنى حقوقها التاريخية فىموريتانيا، وفيه يتضح أن مطالبة المغرب بالصحراء تنبنى على أساس أنها جزء من موريتانيا التابعة لها ، ولم يلبث أن أصبح الموقف أكثر تعقيدا فى أكتوبر ١٩٦٤ ، حينما أبلغ سفير موريتانيا فى واشنطن اللجنة الخاصة بتصفية الاستعمار ، عن رغبة الحكومة الموريتانية بأن تبدأ مباحثات مع أسبانيا حول المناطق ، التى تكون الصحراء الأسبانية ، وزاد من تدهور الموقف ، اشتداد المطالبة المغربية بموريتانيا ، الى درجة عبرت فيها بعض الأحزاب المغربية عن موريتانيا ، باعتبارها المقاطعة السليبة ٠

وشهدت الفترة التالية تصاعد حدة النزاع بين الأطراف الثلاثة ، الى ان أقرت الأمم المتحدة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٦ قرارها الخاص ، والذى جاء فيه مطالبة القوة الحاكمة ، أن تقرر فى أسرع وقت ممكن ، وبالتعاون مع الحكومتين المغربية والموريتانية وأى طرف آخر ، بالاجراءات الكفيلة بتنظيم استفتاء يتم تحت اشراف الأمم المتحدة ، وذلك لتمكين السكان المحليين من ممارسة حقهم فى تقرير مصيرهم(١٨) ٠ وجاء هذا القرار من جانب الأمم المتحدة تأسيسا على قرارات سابقة ، خاصة بتصفية الاستعمار ٠ وهو القرار الذى صدر فى ديسمبر ١٩٦٠ والذى كان يقضى بمنح الاستقلال للبلدان من الشعوب المستعمرة ٠ كما اعتمد على قرار سبق أن أصدره مؤتمر رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية فى نوفمبر ١٩٦٦ بشأن الاقاليم الخاضعة للادارة الاسبانية ، وهو يفتح المجال لأى طرف له علاقة بالنزاع وبصفة خاصة ، الجزائر ٠

وقد نصت توصية دورة ١٩٦٦ على ضرورة اجراء استفتاء على تقرير المصير ، واعادة المنفيين الى البلاد ، وسيثير هذا النص ردود فعل كبيرة ، لأنه يفتح الباب أمام الدول المجاورة ، لكى ترسل موطنيها عند اجراء الاستفتاء ٠ غير أن أعضاء الأمم المتحدة كانوا ينظرون الى مشكلة الصحراء على انها قضية

---

(١٨) وثائق حزب الشعب — سلسلة دراسات وبحوث ، العدد ٣ مايو ١٩٧٤ ٠ بشأن دو ه الصحراء الواقعة تحت السيطرة الأسبانية ٠ وراجع أيضا :

Robert Rezette, le Sahara Occidental et les Frantieres Marocaines, Paris 1965 pp. 128 - 136.

استعمارية بحته ، وان المهم هو انهاء الوجود الاسبانى . ولهذا السبب نفسه أشارت التوصية الى أن اجراء الاستفتاء يتم بالتشاور مع الدول المعنية ، كذلك نصت التوصية على عدم طرح استتمارات جديدة ، من شأنها أن تقوى الوجود الاستعمارى فى المنطقة . وعلى الرغم من أن أسبانيا قد اضطرت الى التسليم لسكان الصحراء بحق تقرير المصير ، الا أنها ظلت تأمل فى أن تنتهى الأمور لصالحها ، وذلك بمنح الاقليم حكما ذاتيا حتى تستمر محتفظة بسيطرتها الاقتصادية ، ومن جهة أخرى فقد تعمدت أسبانيا تأجيل موعد اجراء الاستفتاء فى الوقت الذى نشطت فيه الى تهيئة الأوضاع لبقائها فى المنطقة متعللة دائما بالنزاع القائم بين المغرب وموريتانيا والجزائر .

٥ — المفاهيم المتعارضة لتقرير المصير :

تأجل اعلان الاستفتاء حول تقرير مصير شعب الصحراء ريثما يتم الاتفاق مع أسبانيا على تسليم السلطة ، وقد تم التمهيد لهذا التأجيل فى مؤتمر صحفى فى ١٦ سبتمبر ١٩٧٥ تم فيه تذكير باعلانها فى ابريل ١٩٥٦ بشأن احترامها لسلامة الأراضى ، كما أعلن عن مشروعات تعمير هامة فى اقليم طرفايه ، الذى كان قد أهمل منذ ضمه الى المغرب فى عام ١٩٥٨ ، ولم تستطع الحكومة المغربية فى هذه الظروف تجاهل موريتانيا بشأن مطالبها هى الأخرى فى مسألة الصحراء .

وكانت الحكومة المغربية قد ساومت أسبانيا حتى عام ١٩٧٠ بشأن تنازل هذه الأخيرة لها عن الصحراء برمتها ، وعرض المغرب عرضا عن ذلك الاحتفاظ لأسبانيا بامتيازات اقتصادية وقواعد عسكرية فى حالة تنازلها لها عن الصحراء . ومن ناحية ثانية كانت أسبانيا تفضل — فى حالة خروجها من الصحراء — عدم انفراد المغرب بها ، بل تشترك معها موريتانيا[١٩] ، ومن المعروف أن موريتانيا لم تتعرض علاقاتها بأسبانيا بأزمات عنيفة كما هو الحال مع المغرب ، كذلك تعتبر الصحراء — من الناحية الجيوبوليتيكية — أقرب الى موريتانيا سواء من حيث التركيب البشرى أو من حيث امتداد الحدود المشتركة ، وذلك لان الحدود الدولية التى أقيمت فى بداية القرن العشرين باشتراك أسبانيا وفرنسا ، قد فصلت بين شطرى منطقة واحدة ، وبالتالى فان رسم الحدود لم يضع فى الاعتبار ، وحدة أراضى القبائل وليس وحدة القبائل

---

(١) مولود داده « امانة توحيد الوطن » انتصار دائم للشعب الموريتانى وحزبه » نواكشوط ١٩٧٦ ، محاضرة ألقيت أمام اتحاد شباب نواكشوط فى ٢٦ ديسمبر ١٩٧٥ .

نفسها ، وتبلغ الحدود المشتركة بين موريتانيا والصحراء ١٦٠٠ كم ، في حين تبلغ بالنسبة للمغرب ٤٠٠ كم والجزائر ٤٠٠ كم .

وقد استند الكتاب المغربي الصادر عام ١٩٦٠ في المطالبة بالصحراء على كونها جزءا من موريتانيا ، فسماها موريتانيا الأسبانية ، مما أثار احتجاج الحكومة الأسبانية وقتئذ ، واذا كان المغرب يعتمد في مطالبته بالصحراء على الذكريات التاريخية ، فان موريتانيا لا تستطيع أن تنافسها في هذا المجال ، لأن موريتانيا في استطاعتها تقديم حجج واقعية تستند الى الواقع الجيوبوليتيكي والاجتماعي ، ولذلك استخدمت في عرضها المقدم الى محكمة العدل الدولية عبارة المجموعة الشنقيطية ، للاستدلال على حقها التاريخي في الصحراء لافتقار وجود دولة مستعمرة كالمغرب ، غير أن موريتانيا قد أكدت في هذا العرب أن الامارات والدول المتعددة التي نشأت في المنطقة ، كانت دائما دولا مستقلة وليست تابعة لدولة أخرى .

٦ - المفهوم المغربي وخصوصيته :

أعلن الملك الحسن في أغسطس ١٩٧٤ بأن تقرير المصير المقبول لديه ، يكون بتخيير أهل الصحراء بين أمرين ، البقاء تحت الاحتلال الأسباني أو العودة الى الوطن المغربي ، وعلى أثر ذلك قدمت موريتانيا مذكرة في ٢٠ اغسطس ١٩٧٤ الى ممثلي الدول ، أوضحت فيها أن تقرير المصير ينبغي أن يشتمل على اختيار ثالث وهو عودة الصحراويين الى الوطن الموريتاني . ويبدو أن موريتانيا أدركت أنه من الصعب مجابهة المغرب والجزائر معا ، فرأت أن تنسق خططها مع المغرب ، وأيدت خطوة الملك الحسن التي مهدت لحصول المغرب على القسم الأكبر من الصحراء ، وتمثلت هذه الخطوة في تقديم اقتراح الى الجمعية العامة في الدورة التاسعة والعشرين ، تم بموجبه أخذ رأى محكمة العدل الدولية في مسألة محددة ، وهي هل كانت الصحراء قبل الامارة الأسبانية أرضا بلا صاحب ، كما تذكر أسبانيا ، أم أنها كانت تابعة لدولة أخرى(٢٠) ، ولم يكن في الامكان طرح القضية مباشرة على محكمة العدل

---

(٢٠) سبق ايضاح ذلك تفصيلا عند عرض وجهة النظر المغربية في الصفحات . وراجع ايضا .

International Court of Justice Reports of Judgment, Advisory opinions and orders, Western Sahara — Advisory Opinion 16 October 1975.

الدولية للتحكيم ، لان ذلك يتطلب موافقة الأطراف المتنازعة مسبقا ، ولذلك اعترفت كل من المغرب وموريتانيا بحقوق البلد الآخر أمام الجمعية العامة ، وتحولت القضية على شكل استشاره من طرف الجمعية العامة ، باعتبار أنها مسألة قانونية وتاريخية ، وذلك طبقا للمادة ٩٦٥ من ميثاق المنظمة ٠

وقد وافقت الجمعية العامة على هذه الاستشارة بأغلبية ٨١ صوتا منها الدول الكبرى الأربع (باستثناء الصين) مقـــابل لا شيء وامتناع ٤٣ عن التصويت ، وقد ذاعت التوصية ، الأطراف المعنية الى تقديم الوثائق التى تؤيد وجهة نظرها ، وقدمت الى محكمة العدل الدولية عـدة عروض تتناول وجهات النظر الموريتانية والمغربية والأسبانية بشأن الصحراء ، وقد استند العرضان (المغربى والموريتانى) على أن الصحراء لم تكن أرضا بلا صاحب ، وأكد العرض المغربى على أن المقاومة المغربية للاستعمار الاسبانى تؤكد صحة ذلك(٢١) ورأت الجمعية العامة للامم المتحدة أن يؤجل الاستفتاء الى ما بعد ايضاح رأى محكمة العدل الدولية ٠

وهكذا استطاع الملك الحسن الثانى أن يكسب وقتا ، ينفذ فيه خططه الدبلوماسية ، حيث قام قاضى العيون على رأس وفد من الاشراف بزيارة المغرب ليقدم ولائه للملك ، كما استمرت جهود التنسيق مـــع موريتانيا ، ووضعت الخطوط العريضة للتقسيم ، وذلك أثناء زيارة المختار ولد دادة لمدينة فاس بالمغرب فى ديسمبر ١٩٧٤ ، حيث اتفق مع ملك المغرب على تخطيط الحدود ، طبقا لما كان يسمى فى عام ١٩٧٢ بمنطقتى النفوذ ، كما تم الاتفاق على أسس التعاون الاقتصادى فى المنطقة ، ومن ذلك العهد تمت اقامة روابط وثيقة بين البلدين ، ومما يجدر ذكره أن مؤتمر جامعة الدول العربية قد وافق فى اكتوبر ١٩٧٤ خلال اجتماعه فى الرباط ، على توصية تجعل من مشكل الصحراء ، مشكلة موريتانية مغربية ٠

٧ ـ تقرير المصير بين المؤيدين والمعارضين :

ويبدو أن كثيرا من الدول لم تكن تتوقع أن تنتهى مشكلة الصحراء بتسليم السلطة الى الدولتين المجاورتين دون اجراء استفتاء حول تقرير المصير، والدليل على ذلك أن معظم الاعضاء فى منظمة الوحدة الافريقية عارضوا فيما

Cour Internationale de Just ce — Sahara Occidental Exp [illegible]
ecrit du Gouvernment, Mara Cain.

بعد التقسيم ، وطالبوا بحق تقرير المصير ، وفى أكتوبر ١٩٧٥ ، أصدرت محكمة العدل الدولية رأيها بأن هذا الاقليم ، لم يكن أرضا بلا صاحب قبل الاستعمار ، بل أنه أكد أنه كان يحتوى على منطقتى نفوذ ، أحداهما موريتانية والأخرى مغربية ، وبذا أعطى هذا الرأى حجـــة جديدة لكل من المغرب وموريتانيا كى تواصلا جهودهما للتقاضى عن فكرة الاستفتاء والاتفاق مـــع أسبانيا مباشرة على تسليم السلطة • ومن بين الحجج التى استندت عليهـــا الدولتان كى يضفيا الشرعية على عدم واقعية الاستفتاء ، أن أهل الصحراء غير مستقلين ، وانهم لم يبلغوا درجة من الوعى لكى يستفتوا ، وأن الصحراء غير قادرة على أن تكون دولة ، وأن مبدأ تقرير المصير يستلزم أن يكون بين الجزائريين المعنيين فوارق تبرر تطبيق هذا المبدأ ، كما اعتبرت الدولتان أن الحقوق التاريخية وصلات القربى التى تربط الصحراء بالقطرين كافية لاثبات عدم الحاجة الى الاستفتاء •

وعموما فقد قامت أسبانيا بتسليم السلطة فى الصحراء الى كل من المغرب وموريتانيا فى ٢٧ فبراير ١٩٧٦ – أى قبل الموعد المقرر حسب الاتفاق الثلاثى الموقع من قبل فى نوفمبر ١٩٧٥ ، وعلى أثر ذلك جرت المباحثات بين المغرب وموريتانيا ، على تفضيل اتفاقية التقسيم ، وبمقتضى هذه الاتفاقيه ، تحصل موريتانيا على الثلث الجنوبى للصحراء (منطقة ريودى أورد) ، ولكن هذه المنطقة تضم فقط ربع السكان (١٥ الى ٢٠ ألف نسمة) ، ولما كانت مناجم بوكراع الغنية بالفوسفات ، والتى أنتجت فى عام ١٩٧٤ أربعة مليون طن تقع فى المنطقة المغربية ، فقد اتفق على أن تقدم المغرب لموريتانيا نسبة من هذه الثروة • غير أن هذه الاتفاقية قد تعرضت لانتقادات شديدة فى منظمة الوحدة الافريقية ، ربما لأن دول المنطقة لا تدرك طبيعة الصلات البشريـــة التى تقوم بين أجزاء الوطن العربى – كما يرى بعض الباحثين(٢٢) ، وقد اعتاد أعضاء المنظمة الأفريقيون ، أن تؤسس الدول فى اطـــار التقسيمات الاستعمارية ، مهما كانت هذه التقسيمات تشتمل على اقاليم متناهية فى الصغر ، كما أن تسع دول اعترفوا بجمهورية الصحراء الديمقراطية العربية ، ذلك أنه فى اليوم الذى أعلنت فيه أسبانيا القاء سلطانهـــا قامت قيادة البوليزاريو باعلان جمهورية الصحراء فى المنفى (فى مدينة الجزائر) وأخذت تنظم مقاومة مسلحة للادارتين الجديدتين المغربية والموريتانية • وقد قدر عدد

---

(٢٢) دكتور جمال زكريا قاسم ، دكتور صلاح العقاد ، مرجع سبق ص ٨٨ •

المتطوعين فى البوليزاريو بخسمة آلاف مقاتل معظمهم من قبائل الرقيبات ، ولما كان لهذه القبائل فروع فى داخل موريتانيا ، فان ذلك قد سهل عملية التسلل من وقت لآخر على نواكشوط . كذلك فان كل من الجزائر وليبيا تزودان البوليزاريو ليس بمساعدات مالية فقط ، وانما بمتطوعين .

ومن الواضح أن المشكلات التى نجمت عن ضم الصحراء قد أثرت على حياة موريتانيا تأثيرا كبيرا ، فهى من جهة أثارت مشاعر حماس وطنى شديد بتوحيد التراب الموريتانى ، ومن ناحية أخرى حققت لموريتانيا فى هذه الفترة العديد من المزايا الاقتصادية ، هذا فضلا عن تقليل المسافة التى يقطعها الخط الحديدى الواصل بين مناجم الحديد فى الداخل الى نواذيبو على الساحل ، غير أن موريتانيا — من جهة أخرى — بضمها هذا الجزء من الصحراء اليها وقتئذ — قد واجهت أعباء عسكرية كبيرة حتى أنها خصصت ما يقرب من ٢٥٪ من ميزانيتها لأغراض الدفاع وهو ما أثر بشدة على خططها للتنمية ، ومن جهة ثالثة فمهما قيل عن مساوىء ذلك فانه لا يقاس بوجود حدود مباشرة وللمرة الأولى بين موريتانيا والمغرب ، ولما كان الاستعمار الاسبانى قد عمد على ترسيخ القبلية ، وأهمل الاهتمام بالنواحى الثقافية والتعليمية فان موريتانيا كان عليها عبء آخر وهو أن تبذل مزيدا من الجهود لدمج الصحراء فى الوطن الموريتانى بواسطة تعزيز شبكة من المواصلات الجوية والبرية ووضع خطط اقتصادية واجتماعية وثقافية من أجل توحيد الوطن الموريتانى باعتباره هدفا رئيسيا ومطلبا وطنيا تصبو اليه .

موقف الجزائر

١ ـ الاسانيد الجزائرية حول تقرير المصير :

استندت وجهة النظر الجزائرية الى القرارات العديدة التى أصدرتها لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة بأن تضمن الجمعية العامة حقوق شعبها ، وان السلطة الحاكمة مسئولة فى توجيه شعب الصحراء الى الاستقلال وذلك بممارسة حقه فى تقرير المصير ، وان على الشعب الصحراوى أن يقرر مستقبله عن طريق استفتاء تنظمه السلطة الحاكمة ـ اى اسبانيا ـ بالمشاورة مع المغرب وموريتانيا والجزائر ويتم هذا الاستفتاء تحت مراقبة وضمان هيئة الأمم المتحدة ٠

وحين أخطرت الحكومة الاسبانية الجمعية العامة للامم المتحدة أنها سوف تقرر استفتاء تقرير المصير خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٧٥ فقد ردت حكومتا المغرب وموريتانيا بمطالبتهما بالصحراء باعتبارها جزء من التراب الوطنى لكل من البلدين ، وقد كان رد الفعل الجزائرى هو « لفت نظر اللجنة الرابعة تجاه أى موقف سيتخذ خارج هيئة الأمم المتحدة مخالفا لقراراتها(٢٣) ، وبالأخص اذا كان هذا الحل يسمح لاسبانيا بالمساومة بسيادة لا تملكها ونلبى مطالب المغرب وموريتانيا التى كانت اسبانيا قد عارضتهما ورفضتها محكمة العدول الدولية » ٠

وازاء الخطوة الثلاثية التى تمت على الصعيد الاسبانى المغربى الموريتانى فقد رأت الجزائر ، بأن هذه الخطوة التى وصلت الى هذا الحل تعد انكارا للالتزامات الرسمية من قبل الحكومة الاسبانية تجاه شعب الصحراء ، كما أنها تعد خرقا للارتباطات التى وقعت عليها كل من المغرب وموريتانيا من حيث انضمامهما الى جميع القرارات التى تبنتها الأمم المتحدة منذ عشر سنوات ،

---

(٢٣) راجع فى تفصيل ذلك ٠ كلمة المندوب الدائم للجزائر لدى الأمم المتحدة أمام اللجنة الرابعة (١٩ نوفمبر ١٩٧٥) ومذكرة حكومة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية بشأن قضية الصحراء الغربية (١٢ فبراير ١٩٧٦) ـ اصدار السفارة الجزائرية بالقاهرة ـ القاهرة ٢١ فبراير ١٩٧٦ ٠

وان المغرب وموريتانيا - من وجهة النظر الجزائرية - قد تجاهلتا وجود شعب في الصحراء .

ومن ثم فان نشاط الحكومة الجزائرية كان دائما - وفقا لما تراه وجهة النظر الجزائرية - ضمن اطار الأمم المتحدة ، وانها قد اشتركت في جميع قرارات الجمعية العامة .

وعموما فقد تطورت وجهة النظر الجزائرية أثر الاتفاق الثلاثي المبرم في مدريد ، ورأت أن هناك عواقب خطيرة سواء فيما يتعلق بمصير الشعب الصحراوي ووحدته القومية وسلامة ترابه الوطني ، أو بمصير السلام والأمن والاستقرار في المنطقة ، وقد كان من أثر هذا الاتفاق وتخلي اسبانيا عن مسئولياتها ما رأت الجزائر فيه بأنه مخالف تماما للقرارات التي أصدرتها الأمم المتحدة بشأن قضية الصحراء حيث كانت مساعي الجزائر مطابقة دائما لموقف الأسرة الدولية ممثلة في منظمة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية ومجموعة دول عدم الانحياز ، وانه منذ ٢٠ ديسمبر ١٩٦٦ طلبت الجمعية العامة للامم المتحدة في القرار ٢٠/٣٢٢٩ من الدولة الحاكمة أن تحدد في أقرب وقت وفقا لتطلعات سكان الصحراء بالتشاور مع الحكومتين المغربية والموريتانية ، وي طرف أخر معني بالقضية ، كيفية تنظيم استفتاء تحت اشراف منظمة الامم المتحدة ، يتيح لسكان هذه البلاد ، ممارسة حقهم في تقرير المصير .

وقد بقيت منظمة الأمم المتحدة من سنة ١٩٦٦ الى سنة ١٩٧٤ على رأيها. ووافقت على قرارات أكدت باستمرار حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره من امثلة هذه القرارات ، القرار ٢٢/٢٢٥٤ ، والقرار ٢٣/٢٤٢٨ ، والقرار ٢٤/٢٥٩١ ، والقرار ٢٥/٢٧١١ ، والقرار ٢٧/٢٩٨٤ ، والقرار ٢٨/٣١٦٢

وترى الجزائر ان القرارات السابقه قد عززتها أيضا قرارات منظمه الوحدة الافريقيه وتوصيات دول عدم الانحياز ، كما اكدتها فتوى محكمة العدل الدوليه وتقرير بعثه الامم المتحدة التي قامت بزيارة الصحراء الغربيه . وفي الصعيد الاقليمي فان الدول الثلاثة المجاورة للصحراء وهي المغرب وموريتانيا والجزائر قد قررت بالاتفاق فيما بينها منذ عام ١٩٦٩ أن تضم جهودها وأن تشاور لجعل القرارات المتعلقة بالصحراء موضع التنفيذ . و اجتمع رؤساء الدول الثلاث في ١٤ سبتمبر ١٩٧٠ في نواديبو . واصدروا بيانا مشتركا التزموا فيه بتقرير تعاونهم للتعجيل بتصفية الاستعمار من

الصحراء الواقعة تحت السيطرة الاسبانية ، وقد أسسوا لجنة تنسيق ثلاثية مكلفة بتتبع مسار تصفية الاستعمار فى هذه المنطقة ٠

٢ ـ اعتراض الجزائر على ضم الصحراء الى المغرب :

ان الجزائر ـ وعلى الرغم من عدم وجود مطالب اقليمية لها فى الصحرا . الا أنها تعترض تماما على ضم الصحراء الى المغرب وذلك لأن وجود دولـــة مستقلة صغيرة تقع بينها وبين المحيط يجعل مرور مواردها أكثر سهولة ، مما لو ألحقت بالمغرب ، اذ أن الخلافات الايديولوجية قد تغلق المجال فى التعاون بين النظم السياسية القائمة فى كل من الجزائر والمغرب من ناحية أخرى ، ومن ثم كان تأييد الجازئر لجبهة تحرير الصحراء ، ويتمثل الموقف الرسمى للجزائر ـ كما سبق ايضاح ذلك فى أن أى تسوية مرضية للمشكلة لا يمكن الوصول اليها الا بتطبيق قرارات الأمم المتحدة التى اتخذت فى هذا الشأن وخاصة القرار رقم ١٥١٤ الذى اتخذ فى الدورة الخامسة عشر ، والقرار رقم ٢٢٩٢ الذى اتخذ فى الدورة الرابعة والعشرين ٠ ويتناول القرار الأول بصفة عامة مشكلة ازالة الاستعمار عن الأراضى التى لا تزال تحت السيطـــرة الأجنبية ، وأما القرار الثانى فانه يثبت جميع القرارات السابقـــة حول الصحراء ، ويوضح بدون التباس ضرورة تصفية الاستعمار على ضوء الرأى الاستشارى الذى أدلت به محكمة العدل الدولية وعلى ضوء لجنة تقصى الحقائق التابعة للأمم المتحدة ٠

وتتمسك الحكومة الجازئرية بضرورة تأكيد حق تقرير المصير بالاضافة الى أنها ترفض الموافقة على أى حل كان لا تشارك فى تحضيره وتطبيقه بصفتها طرفا من الأطراف المعنية وذات المصلحة . وان منظمة الأمم المتحدة هى الاطار الوحيد المناسب لتصفية عادلة وحقيقية ٠ وعلى هذا المفهوم شجعت الجزائر جميع المحاولات التى قام بها كورت فالدهايم بشأن الوصول الى حل للمشكلة، وان على شعب الصحراء أن يقرر مستقبله عن طريق استفتاء تنظمه السلطة الحاكمة بالمشاورة مع المغرب وموريتانيا والجزائر(٢٤) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الجزائر تستند فى موقفها على القرارات التى سبق أن أصدرتها الأمم المتحدة والمنظمات الاقليمية الأخرى . كما سبقت الاشارة الى

---

(٢٤) كلمة المندوب الدائم للجزائر لدى الأمم المتحده امام اللجنة الرابعه . مصدر سابق ٠
وراجع ايضا مذكرة حكومة الجمهوريه الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، مصدر سابق ٠

ذلك تفصيلا ، ويعنى ذلك أن الجزائر تتضامن تضامنا كاملا مع سكان الصحراء والتمسك بحق تقرير المصير .

والجدير بالذكر أيضا أن بعثة الأمم المتحدة التى كانت قد زارت الصحراء فى أواخر عام ١٩٧٥ قد أوصت بأن تسوية مشكلة الصحراء تقتضى مشاركة جميع الأطراف المعنية والمتهمة - ويعنى هذا من وجهة النظر الجزائرية : الدولة الحاكمة وقتئذ وهى اسبانيا ، والحكومات المجاورة وممثلى الصحراويين ، وكانت حكومات الدول الثلاثة المجاورة للصحراء والحركات السياسية بها ، والناطقين بشأن المبعدين السياسيين واللاجئين الصحراويين فى البلدان المجاورة أعلنوا الشروط التالية لاجراء استفتاء فى البلاد :

(أ) سحب القوات المسلحة والادارة الأسبانية .

(ب) رجوع المبعدين السياسيين واللاجئين فى هذه الدول المجاورة الى الصحراء .

(ج) تحديد فترة انتقال ، تقوم فيها منظمة الأمم المتحدة بحضورها فى البلاد ، بمسئولية الادارة وحفظ السلام والنظام .

وترى الجزائر أن المغرب قد ضرب بالرأى العام العالمى عرض الحائط وأنه - أى المغرب - قرر من طرف واحد ، وباتفاق مع الحكومة الموريتانية ، غزو التراب الصحراوى تحت قناع « المسيرة الخضراء » ، وان تدور الأحداث قد أكد للجزائر - حسب الرؤية الجزائرية - أن ما سمى بالمسيرة الخضراء ، لم تكن الا حيله لتغطيه تسلل القوات المغربية النظامية ، وتحويل الانظار عـــن المناورات التى بدأت بين حكومتى المغرب وموريتانيا من جهة والدولة الحاكمة للصحراء - وقتئذ - من جهة أخرى ، وان تلك المناورات قد أدت - من وجهة النظر الجزائرية - الى اتفاق مدريد الثلاثى الذى يقضى الشعب الصحراوى بوصفه الطرف المعنى بالدرجة الأولى . ويهدف الى اقتسام ترابه بين مملكـــة المغرب وجمهورية موريتانيا الاسلامية .

وترى الجزائر أن المغرب وموريتانيا بمجرد اقدامهما على غزو التراب الصحراوى قد أصبحتا دولتين معتديتين بكل ما يترتب عن مثل هذا الوصف من آثار قانونية وفقا لقرار عام ١٩٧٠ المتضمن الاعلان الخاص بمبادىء القانون الدولى بشأن العلاقات الودية والتعاون بين الدول ، وكذا القرار ٢٩/٣٣١٤ الصادر فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٠ والمتضمن تحديد مفهوم العدوان والذى ينص

فى مادته السادسة على أن أخلال « الدول بواجبها فى عدم استعمال القـوة المسلحة لحرمان الشعوب من حقها فى تقرير المصير ، وفى الحرية والاستقلال ، - يعتبر - حالة عدوان سافر » .

كما وأن القرار سالف الذكر يتضمن تحديد العدوان فى مادته السابعة مؤكدا على شرعية التأييد المبذول للشعوب المكافحة مثل الشعب الصحراوى ، من أجل الحصول على حقه فى تقرير المصير لمواجهة جيوش الغزو ، وليس فى هذا التحديد - كما جاء فى القرار نفسه - ما يمكن بحال من الأحوال - حسب ما يفهم من ميناق طبقا للرؤية الجزائرية - أن يمس حق الشعوب المحرومه بالقوة من حقها فى تقرير المصير والحرية والاستقلال ، ذلك الحق الذى يشير اليه الاعلان الخاص بمبادىء القانون الدولى المتعلق بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول ، طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، ولا سيما الشعوب الخاضعة للانظمـة الاستعمارية ، وكذا لحق هذه الشعوب نفسها فى الكفاح من أجل هذه الغاية ، والسعى الى الحصول أو تلقى دعم ما ، وفقا لمبادىء الميثاق .

ومن مناقشات مجلس الأمن ، ومن القرارات التى اتخدها فى الفترة ما بين ٢٠ أكتوبر ، ٢١ نوفمبر ١٩٧٥ تركز وجهة النظر الجزائرية عـلى النقاط التالية :

أ - ان مجلس الأمن اقتصر على بحث الوضع الناجم عن قرار المغرب « بتنظيم مسيرة الى تراب الصحراء العربية » على أعتبار أن المشكلة الأساسية المتمثلة فى تصفية الاستعمار من الصحراء ، هو من اختصاص الجمعية العامة وحدها ، وذلك طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، وللاعلان الخـاص بمنح البلدان والشعوب المستعمرة استقلالها « قرار ١٥١٤ » .

ب - ان مجلس الأمن قد طلب بالحاح من كل الاطراف المعنية والمهتمة وهى ، علاوة على أسبانيا بوصفها الدولة الحاكمة والجزائر والمغرب وموريتانيا - تفادى كل عمل انفرادى او غيره ، من شأنه أن يزيد فى خطورة التوتر فى المنطقة . وقد كلف الأمين العام باجراء مشاورات مع الأطراف المعنيه والمهتمه حتى يتمكن مجلس الأمن من اتخاذ التدابير المناسبه لمواجهة الوضع الراهن فى الصحراء الغربية .

وترى الجزائر أنه فى هذا السياق بالذات ، فان حكومة مدريد قد تحدثت فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ عن أعلان مبدئى توصلت اليه مع المغرب وموريتانيا ،

وعمدت بموجبه الى تحويل السلطات الى المغرب وموريتانيا ، وهذا الاعلان المبدئى كان يشكل — طبقا للرؤية الجزائرية — انتهاكا مبينا لقرارات مجلس الأمن ، وعائقا اضافيا فى طريق الجهود المبذولة من قبل الأمين والتعاون مع كافة الاطراف المعنية والمهتمة ·

وتعيب الجزائر على اعلان مدريد بأنه تم خارج الأمم المتحدة وأنه يشكل عرقلة حقيقية للجهود المبذولة فى نطاق الأمم المتحدة لتصفية الاستعمار فى الصحراء الغربية بتصفية « منسجمة » سليمة ، تقوم على المعطيات الأساسية التالية :

أ — ان المسار لتصفية الاستعمار بالصحراء الغربية كما حددته الجمعية العامة منذ عام ١٩٦٥ وأكدته فتوى محكمة العدل الدولية ، وتقرير بعثة الامم المتحدة التى زارت المنطقة — قد اثبت صحة هذا المسار ·

ب — وبما أن الصحراء الغربية بلد غير مستقل طبقا للباب الحادى والعشرين من الميثاق · فان اسبانيا وهى الدولة الحاكمة ، المسئولة أمام الأمم المتحدة · لا يحق لها أن تحيل مسئولياتها لغير شعب هذا البلد الذى هو وحده صاحب السيادة ، وان الامم المتحدة هى التى تتولى الحفاظ على هذه السيادة ·

ج — وحيث أن ما ذكر معترف به اعترافا عاما ، فان الحكومة الجزائرية لا تقر باية شرعية لاعلان مدريد ، بل تعتبره باطلا ، غير مقبول ، باعتبار أن حكومات اسبانيا والمغرب وموريتانيا لا يحق لها التصرف اطلاقا فى التراب الصحراوى وفى مستقبل شعبه ·

د — وينتج عن ذلك أن الحكومة الاسبانية ، كدولة حاكمة ، ما تزال تتحمل مسئولياتها الأساسية أمام الأمم المتحدة والمجموعة الدولية ، ولا سيما فيما يتعلق بالتزاماتها المترتبة على البند ١٠٣ من الميثاق ، أما الجمعية العامة فيما يخصها فلا تزال ، مناقشة الصحراء الغربية معروضة عليها ، ومن واجبها فى هذه الحالة من تصفية الاستعمار ، ان تتخذ القرارات المناسبة لضمان حق الشعب الصحراوى الثابت فى تقرير المصير وفى ممارسته الفعلية لهذا الحق ·

وفى ١٠ ديسمبر ١٩٧٥ وافقت الجمعية العامة باغلبية ساحقة على القرار ٣٤٥٨/١ الذى أكد من جديد حق شعب الصحراء الغربية الثابت فى تقرير

المصير ، وطالب باتخاذ تدابير لتمكين هذا الشعب من ممارسة حقه ممارسة حرة كاملة تحت اشراف الأمم المتحدة ، وترى الجزائر أنه من حيث أن المسألة تتعلق ببلد غير مستقل تنطبق عليه الاحكام المطابقة لميثاق الأمم المتحـــدة وقراراتها ، وان أسبانيا يجوز لها تتنمى عن هذا التفويض الا لمنظمة الأمم المتحدة أو للشعب الصحراوى دون أية دولة أخرى ٠

وتأسيسا على ما سبق فان وجهة النظر الجزائرية ترى أن الاتفاق المبرم فى ١٥ نوفمبر ١٩٧٥ بين ممثلى الحكومات الأسبانية والمغربية والموريتانيه لا ينطوىَ على أية شرعية ، لانه يتنافى كليا مع ميثاق الأمم المتحدة ، ومع كل القرارات الصادرة عنها منذ عام ١٩٦٥ ، وخاصة القرار الاخير رقم ٣٤٥٨ ـ أ ـ ٣١ الصادر فى ١٠ ديسمبر ١٩٧٥ ويقصد هذا القرار نقل سيادة صاحبها ـ وهو الشعب الصحراوى ـ دون غيره ٠

وعموما فان المحصلة التى خرجت بها الجزائر هى أن احدى الاعتبارات الأساسية من اتفاق مدريد والذى ينص على استشارة شعب الصحراء العربية بواسطة الجماعة ، قد اصبح معطلا ، ذلك لان هذه الجماعة قد حلت نفسهـا بنفسها فى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٥ ساحبة بذلك كل ذريعة للاطراف الموقعة على الاتفاق ، ويعنى ذلك أن دعوة مشروعية استشارة الشعب الصحراوى بواسطة الجماعة يعتبر باطلا من وجهة النظر الجزائرية التى تركز على الرجـــوع الى الشرعية الدولية لكى تضمن للشعب الصحراوى ممارسة حقه الثابت فى تقرير المصير عن طريق استفتاء حر حقيقى ٠

٣ ـ تقييم موقف الجزائر :

أدت الاشتباكات المسلحة فى « المفلا » ـ فى أوائل عام ١٩٧٦ ـ والتى وقعت على بعد عدة كيلو مترات من حدود الجزائر بين وحدة عسكرية جزائرية والقوات المغربية ، أدت الى احتلال القوات المغربية للمفلا ، وخوفا من أن يؤدى تصاعد هذه الأحداث الى مضاعفات خطيرة بين المغرب والجزائر وتأثير ذلك على الموقف العربى كله ، قامت مصر بمهمة الوساطة الدبلوماسية بين الطرفين، مما كان له أثره المباشر فى ايقاف القتال المسلح بينهما ٠

وعندئذ أعلنت الجزائر أن موقفها من هذه المشكلة يتلخص فيما يأتى :

أولا : ان الهدف الوحيد من تحرك الجزائر فى المشكلة ، ينطلق من سياستها فى مساندة حركات التحرير ٠

ثانيا : ان النضال فى الصحراء هو نضال بين التقدمية والاقطاع • بين نظام ملكى استبدادى وحليف للاستعمار ، وشعب عربى يناضل من أجل بقائه •

ثالثا : ان أى مفاوضات يجب أن تكون بين جبهة البوليزاريو الممثلة للشعب الصحراوى ، وكل من المغرب وموريتانيا •

رابعا : ان أى وساطة فى قضية الصحراء ، لا يكون لها معنى ، ما لم يكن هدفها التوصل الى انقاذ الشعب الصحراوى وصيانة وجوده •

وفى ٢٦ فبراير ١٩٧٦ أتمت أسبانيا انسحابها من الصحراء الغربية طبقا للاتفاق الثلاثى الذى وقعته مع المغرب وموريتانيا فى مدريد فى نوفمبر ١٩٧٥ ، وفى اليوم التالى مباشرة أعلنت جبهة البوليزاريو قيام جمهورية الصحراء العربية الديمقراطية على الأراضى التى تسيطر عليها ، وعلى الفور اعترفت الجزائر بالجمهورية الجديدة ، وكان رد الفعل المغربى والموريتانى على هذا الاجراء الجزائرى ان اقدمت الدولتان على قطع علاقاتهما الدبلوماسية مع الجزائر •

وفى الفترة التالية صعدت الجزائر من تأييدها ماديا وعسكريا لجبهة البوليزاريو وخاصه بعد اعلان تقسيم الصحراء الغربية بصورة رسمية بين المغرب وموريتانيا وذلك بموجب اتفاقية وقعت فى الرباط واستمرت المشكلة تشكل بؤرة توتر وصراع ولم تحسم بصورة نهائية مما يشكل ردود فعل عربية ودولية متباينه فى الفترة القادمة •

٤ ـ من التنافس الاقليمى الى بروز آراء الصحراويين (١٩٦٥ ـ ١٩٧٥)

أسند التنافس حول الصحراء منذ منتصف الستينات وذلك نتيجة للقرار الذى اصدرته الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٥ والذى يدعو أسبانيا الى تحرير اقليمى الصحراء وايفنى والى الدخول فى مفاوضات لتقرير مصيرها • أما الامم المتحده فقد مضت فى اصدار قرارات تدعو فيها اسبانيا الى اجراء استفتاء تحت اشراف المنظمة الدولية ، وفى ضوء التشاور بشأن ذلك مع المغرب وموريتانيا . وهى فى ذلك تهدف الى اتاحه الفرصة أمام شعب الصحراء لتقرير مصيره بنفسه « القرار رقم ٢٥٩١ فى ديسمبر ١٩٦٧ » وقد اضطرت أسبانيا الى قبول مبدأ حق تقرير المصير لشعب الاقليم الصحراوى ولكنها أضفت عليه مفهوما خاصا : فهى تريد منح الاقليم حكما ذاتيا تدريجيا على نحو يربط مستقبله الاقتصادى بأسبانيا •

أما اقليم اينيني ، فقد سلمته أسبانيا فى أبريل ١٩٦٩ الى المغرب ، ولكنها احتفظت باقليم الصحراء وخاصة بعد أن تأكدت من أهميته الاقتصادية النابعة عن الثروة الفوسفاتية ، وأمام تمسك الاطراف الثلاثة العربية بمواقفها رأت أسبانيا أن الفرصة سانحة لها لتأجيل موعد اجراء الاستفتاء المطلوب منها بينما نشطت فى تهيئة الأوضاع الداخلية لصالحها ·

ويبرر كل من الدول العربية الثلاث موقفه حول مصير الاقليم الصحراوى الى ما نصت عليه قرارات الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦٦ من ضرورة منح سكان الاقليم حرية تقرير المصير عن طريق اجراء استفتاء تحت اشراف المنظمة الدولية · ومع ذلك فان كل دولة تستند الى حجج خاصة · فموقف المغرب نابع من مطلبه بضم الاقليم اليه ، وبالتالى فهو متمسك باجراء استفتاء معين يضع السكان أمام اختيارين : أما الانضمام الى المملكة المغربية أو البقاء تحت الحكم الاسبانى ، كذلك كانت وجهة نظر المغرب وقتئذ تنحصر فى اصراره - كشرط مسبق لاجراء الاستفتاء - على ضرورة انسحاب القوات الاسبانية المرابطة فى الصحراء وعلى عودة اللاجئين ليشاركوا فى الأدلاء بالرأى ، والمعروف أن عددا كبيرا من هؤلاء يقيمون فى المغرب وهم يناصرونه فى موقفه ·

أما موريتانيا فانها قد كيفت قبولها منح السكان حق تقرير المصير بحقوق تاريخية لموريتانيا على الجزء الجنوبى من الاقليم وبعلاقات عرقية races بين الشعب الموريتانى والقبائل الصحراوية فى الجنوب ·

وبخصوص موقف الجزائر فانه قد تلخص وقتئذ فى أنه ليس لديها مطالب اقليمية على هذه الصحراء ولكنها ترى اقامة دولة مستقلة قد يسهل عليها التفاوض معها بشأن ضمان وصول الحديد المستخرج من منطقة «تندوف» فى أقصى جنوب الجزائر الى المحيط · ومما أضفى التعقيدات على الأمور هو أن كلا من الدول الثلاث قد دأب على التحرك الدبلوماسى النشط على الساحة الاقليمية وكذا فى المحافل الدولية لكسب أكبر عدد من الدول لصفه ·

٥ - آراء سكان الصحراء (١٩٦٥ - ١٩٧٥) :

جرت التقاليد الاستعمارية أن تشهد المرحلة التى ستؤدى الى تغيير وضع بلد من مستعمرة الى دولة مستقلة ذات سيادة كاملة ، انشقاقات مفتعلة فى صفوف الشعب بحكم الوضع الاستعمارى الذى يحيا فى ظله ، ونتيجة للضغوط التى تفرضها عليه الدولة الحاكمة ، فان الحكومة الاسبانية قد أدعت

بأن الشعب الصحراوى يرغب فى العودة الى الوطن الأم – أى الى المغرب – بل أن المغرب قد أكد أيضا رفضه لاجراء استفتاء يطرح أمام سكان الصحراء الاستقلال التام . فى حين أكدت موريتانيا وقتئذ بأن العلاقات العرقية والثقافية قوية بين قبائل الجنوب « الصحراوى » والشعب الموريتانى مما لا يدع مجالا الا الى ضم الجزء الجنوبى لموريتانيا .

وقد كانت هذه بمثابة العقدة العويصة التى شكلت جوهر قضية الصحراء ، وأثارت مشكلة نزاع قائم بين دول ثلاث متاخمة لاقليم الصحراء وهو نزاع استند الى وقائع تاريخية وعرقية ولكنه فى ضوء تطوراته منذ الستينات قد تعلق أساسا بوقائع اقتصادية ، فاكتشاف الثروة الفوسفاتية الهائلة فى منجم « أبو فراع » بالاقليم الصحراوى – والذى وصل فى نهاية السبعينات الى ما يقرب من ١٠ مليون طن – وقد كان هذا بمثابة حافز للحكومة المغربية بأن تسارع بالنقاط القرار الصادر من محكمة العدل الدولية بتنظيم مسيرة شعبية تضم حوالى ٢٥٠ ألف شخص فى اتجاه الصحراء وهو أمر قد أدى الى تأزم الصراع القائم ، مما دعا الجزائر الى حشد قواتها على الحدود .

وفى ضوء هذه التطورات ، فقد أثيرت فى هذه الفترة – أى حتى عام ١٩٧٥ – التساؤلات الآتية :

أولا : كيف سيقرر مصير الاقليم والشعب « الصحراويين » ؟

ثانيا : هل ستتغلب العوامل التاريخية على ظاهرة العصر الحالى والتى تتلخص فى تطلع كل شعب الى الاستقلال التام – وهى ظاهرة أقرتها الجماعة الدولية لكافة شعوبها ؟

ثالثا : ماذا ستكون عليه الصيغة النهائية للاستفتاء الذى تقرر اجراؤه عام ١٩٧٥ .

وبالطبع فان الشعب الصحراوى هو الذى كان عليه أن يقرر الكلمة الأخيرة فى تقرير مصيره . لكن ذلك يرتبط بجبهة البوليزاريو وهو ما يستدعى وقفة للتفسير والتعليل .

جبهـــة البوليزاريو والمســـتقبل

موقف جبهـة البوليزاريو

١ ـ نشأة الجبهة وتطورها :

ان الأصل التاريخي لحركة تحرير الصحراء الغربية نشأت خلال الفترة الاستعمارية الاسبانية لهذه المنطقة ١٩٠٠ ـ ١٩٧٦ فى ظل ثورات القبائل الصحراوية الغربية الاصل ١٧٠٠ قبيلة ـ بقيادة قبيلة « الرقيبات » وهى أكبرها عددا وقوة ، وكانت الثورتان المميزتان لهذه القبائل هما ثورتى ١٩٣٤ ـ ١٩٥٧ . ومنذ نهاية الخمسينات تحولت الثورة الى تنظيم محكم فى شكل حزب الاسلام ، وخلال عامى ٧٢ ـ ١٩٧٣ أصبح فى الصحراء عدة منظمات سياسية وبجانب حزب الاسلام وهى حزب الاتحاد الوطنى الذى أنشىء بتأييد ومؤازرة أسبانيا ، وجبهة التحرير والوحدة التى أنشئت بتأييد ومؤازرة المغرب ، والجبهـــة الشعبيـــة لتحرير الســـاقية الحمراء ووادى الذهب « البوليساريو » التى بدأت أول نشاطاتها العسكرية فى عام ١٩٧٣ والتى استفادت فى قيامها ونحوها بالمجموعات السياسية المختلفة سواء فى المغرب أو فى الصحراء .

غير أن التطور الأساسى فى حركة البوليساريو حدث عندما مد مؤسسوها الأوائل خطوط تفاهمهم وتعاونهم السياسى والعسكرى الى الجزائر باعتبارها دولة تقدمية ، تناصر حركات التحرير العربية والافريقية ، وتبع ذلك هروب قيادات البوليساريو فى الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ الى الجزائر ، التى رحبت بهم ، وقد عمل قادة البوليساريو على تصعيد حدة الخلاف المغربى الجزائرى ، ومن ناحية أخرى فقد وجد فيهم الجزائريون الفرصة لتحقيق أهداف الجزائر فى اضعاف النظام المغربى من جهة وفى الوصول الى المحيط الاطلسى غربا من جهة أخرى ، وفى انعاش العمق الاستراتيجى وتدعيم المجال الحيوى من جهـــة ثالثة وفى هذه الظروف تسلحت البوليساريو وتم تدريبها وتحويلها بواسطة الدعم الجزائرى الليبى بالرغم من اختلاف الاهداف بين الاطراف الثلاثة ـ وقد استفادت البوليزاريو على الصعيد العربى والافريقى العالمى ، وذلك بعد أن طرحت نفسها كحركة تحرر وطنى تنتمى الى حركة التحرير العالمى وترتبط بالثورتين العربية والافريقية .

وهذه المفاهيم نجدها واضحة بصـــورة أكثر عند استعراضنا لوثائق

الجبهة ، وتعبر احدى(١) هذه الوثائق عن طموحات الجبهة ، وعدم ارتباط الصحراويين بالمغرب ، وترد على الادعاءات المغربية وتفندها •

وترى الجبهة أنها حركة تحرير للساقية الحمراء ووادى الذهب ، وأنها قبل خمسة عشر عاما قد اعترفت الأمم المتحدة بحق تقـــرير مصير شعب الصحراء بحرية ، من خلال مطالبة أسبانيا بتطبيق ما جاء فى ميثاق الأمم المتحدة ، وان الجمعية العامة لم تنقطع عن تأكيد هذا الحق وتوضيح جوهره وشكليات تطبيقه منذ عام ١٩٦٦ ، وتلح الجبهة على اجراء استفتاء يمكن شعب الصحراء من التعبير عن رأيه بحرية فى جو من الأمن والسلام بمراقبة من الأمم المتحدة • وترى جبهة البوليزاريو فى أسبانيا عدوها الاستعمارى الأول، وأنها — أى أسبانيا — حاولت ضم الصحراء نهائيا اليها ، مشجعة بالأخص هجرة الاوروبيين الى الصحراء والتماذج فيها ، « وأسبنة » الصحراويين ، الذين لم يفرض عليهم اللجوء • غير أن هذه المحاولات قد فشلت بسبب صمود شعب الصحراء ، بما فى ذلك من وضعتهم اسبانيا فى المقدمة ، من أجل خلق كيان مصطنع خاضع لأسبانيا ، وترى الجبهة أن الشعب الصحراوى قد عانى كثيرا منذ أواخر الخمسينات من القمع والتهجير ، الذى تبع الانتفاضة الكبرى لجماهير الصحراء سنة ١٩٥٨ وأوشكت على طرد المستعمر الاسبانى نهائيا •

ومنذ سنة ٦٧ — ١٩٦٨ قويت الحركة المناهضة للاستعمار فى الصحراء، وفى سنة ١٩٧٠ ، كانت الانتفاضة الكبرى بالعيون يوم ١٧ يونيو ، حيث قام شعب الصحراء بمظاهرات صاخبة وعنيفة ، وتدين سياسة ادماج الصحراء فى التراب الاسبانى • وقد استنكرت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذه العملية وأدانتها فى قرارها الذى صدر فى ديسمبر من نفس العام ، وقد قامت الجبهة بأولى عملياتها فى أوائل مايو ١٩٧٣ ، ومنذ ذلك الحين ، والجبهة توالى غاراتها على المستعمرين « الأسبان » وتؤثر تدريجيا على الرأى العام الاسبانى ، الذى اكتشف اخطار هذه الحرب غير العادلة ، ومنذ السنة الثانية لحرب التحرير بدأت أسبانيا تلمس القوة الحقيقية لكفاح شعب الصحراء ، وكان ذلك حافزا — من وجهة نظر الجبهة — لاعلانها الذى صدر فى عام ١٩٧٤ ، عن نيتها من تنظيم استفتاء تقرير المصير فى النصف الأول من سنة ١٩٧٥ ، وهو ما لم يتم تحقيقه •

---

(١) وهى مذكرة الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادى الذهب ، البوليزاريو الى الأمم المتحدة فى أكتوبر ١٩٧٥ •

٢ ـ مفاهيم متعارضة :

وتعتبر جبهة البوليزاريو بأن ما حدث من الدول العربية المجاورة يعتبر « ضربة خنجر فى الخلف من جانب هؤلاء الاشقاء » ، وبدلا من الدعم والمساندة المنتظرة من هذه الدول المجاورة والشقيقة ، كان العكس من جانب كل من المغرب وموريتانيا ، وانه اذا كانت الحكومة الموريتانية تحرم شعب الصحراء من مساندتها ، فان الحكومة المغربية قد ذهبت الى أبعد من ذلك ، حيث مارست الضغوط من كل شيء : أولا بالضغط على المواطنين اللاجئين فى المغرب لأسباب سياسية أو غيرها ليفرض عليهم أن يكونوا آلة سياسته التوسعية ، وترى البوليزاريو أن القمع المغربى قد اتخذ بعد ذلك صورة الضغط من كل فرد أو عائلة لها أى اتجاه ازاء وطنها .. الصحراء .. بحيث يضم كل صحراوى لا يقبل أن يكون عميلا ، ضمن لائحة الاعداء .

وتجنى البوليزاريو باللوم الشديد على الملك الحسن ، من خلال التهديد الذى أطلقه فى خطابه عام ١٩٧٥ ، والذى جاء فيه : « الحرب هى المعركة الأخيرة ، التى يمكن أن يركبها الانسان ، اذا فشلت المعارك الدبلوماسية كلها .. ولكن اذا هى لم تنجح ، فلم يبق لنا الا أن نخوض غمار المعركة » بل أن جبهة البوليزاريو تذهب أبعد من ذلك فترى أن فى المغرب سياسيون يعطون نزوعا وحشيا ، يظهر فى بعض الأحيان ، كما هو الشأن بالنسبة للفاشية والنازية .

وترى جبهة البوليزاريو أن تدخلات وحدات الجيش المغربى ضد الشعب الصحراوى تتكاثر عبر الحدود ، وان هذه الوحدات تقوم بحملات ابادة موجهة(٢) ضد الصحراويين تجاوزت الحدود . النهب ، الاغتيال ، الاختطافات هتك الحرمات عبر الحدود .

وترد جبهة البوليزاريو على المقولات المغربية بأن « الصحراويين من شعبنا » ترد الجبهة قائلة : « وهل هكذا يعامل المواطنون وحتى الرعايا ! ولماذا يخشى رأيهم ؟ واذا كان الصحراويين مغاربة ، لماذا لا يقولونها هم أى الصحراويون ـ فى أول مناسبة .. وتجيب جبهة البوليزاريو على هذه التساؤلات قائلة : ان الصحراويين لم يكونوا فى يوم من الأيام مغاربة ، لم يكن لهم أى تطلع لأن يصبحوا رعايا آية جلالة » .

---

(٢) وتعتبر جبهة البوليزاريو أن المسئول عن ذلك حتى عام ١٩٧٥ هو العميد المغربى أحمد الدليمى ، وتصف الجبهة ان دوره معروف فى تصفية المهدى بن بركة .

وتضيف الجبهة قائلة : يقولون الصحراء مغربية ، لأنها عربية ومسلمة، بحجة أن بعض القوافل المغربية مرت بها ـ سحابة صيف ـ « بحثا عن الذهب السوداني » . في عصور غابرة • والصحراء « موريتانية لأن قبائل صحراوية تنتمي الى نفس البشرى ، أو نفس الجنس ـ انها قضية اصطلاح ـ كأغلبية الموريتانيين ، أنها مغربية أو « موريتانية » لأن سكانها أقل من أن يكونـوا دولتهم وحدهم » •

وترد الجبهة على الأسانيد المغربية المستمدة من التاريخ قائلة « أنه من غير الصحيح أن الصحراء ، قد احتلت في يوم من الأيام من طرف المغرب •• (وهذا ما أكدته محكمة العدل الدولية بانه لا وجود لأية علاقات سيادة للمغرب على وطننا) •• وغير صحيح أيضا ، ان الصحراويين عاجزون عن تكوين دولتهم وحدهم •• صحيح أن الصحراويين هم عرب ومسلمون •• ولكن بيننا وبينهم فوارق هي أكبر ما يمكن أن تكون بين شعبين مسلمين •• المغاربة أقرب الى الجزائريين والتونسيين من الصحراويين الذين هم أقرب الى الشرق العربي وخصوصا الجزيرة »(٣) •

واذا كانت المغرب تعتمد على أسانيد تاريخية في تبرير تمسكها بالصحراء كجزء من التراب الوطني المغربي ، فان جبهة البوليزاريو تعتمد هي الأخرى على وقائع تاريخية لتبرير موقفها من حق تقرير المصير لشعب الصحراء قائلة : « ••• ان احد أجداد صاحب الجلالة الحسن الثاني كان يسمى بلطف اجدادنا (المجموعة المتوحشة والتي لا مأوى لها) ، فنرى كيف أن المغاربة . يشعرون بفوارقهم مع الصحراويين وقد جاءت هذه العبارة في وثيقة مغربية ، وهي لها العلويين • كان يعرف جيدا . وبشكل واضح ، الحـدود الحقيقية للمملكة . وتقصد ـ أي الجبهه ـ هنا المعاهدة الموقعة بين السلطان محمد بن عبد الله وكارلوس الثالث ملك اسبانيا بمراكش بتاريخ ٢٨ مايو ١٧٦٧ ، والتي ينص بندها الثامن عشر على ما يلي (٤) : « جلالته يكف عن التحدث في موضوع المؤسسه . الذي أراد جلالة الملك الكاثوليكي بناءها . في جنوب وادي نون ،

(٣) راجع بمفصل في مذكرة الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب الى الأمم المتحدة ـ أغسطس ١٩٧٥ •

(٤) مترجمة من اللغة الاسبانية • لعدم العثور على النص العربي للمعاهدة ، راجع : المصدر السابق •

ـ يطلق الاوروبيون على سكان موريتانيا بعض Maures حسب المفهوم الفرنسي في حين يطلق عليها الانجليز Moors . أما العرب فكانوا يسمون موريتانيا : شنقيط •

لأنه لا يمكن ان يكون مسئولا عن الحوادث والآلام ، التى يمكن أن تقع ، نظرا لان سيادته ، لا تمتد الى هناك ، ولان المجموعات المتوحشة والمفترسة ، سكان ذلك البلد ، قـــد تسببوا دائما فى الخســـائر لســكان جزر كناريا بل استعبدوهم » .

٣ ـ البوليزاريو ضد موريتانيا :

فيما يتعلق بأوجه الشبه لاختلاف بين الصحراويين والموريتانيين ،فترى جبهة البوليزاريو ما يأتى : صحيح ان الصحـــراويين من « البيظان » أو ما اصطلح على تسميته بالمور Maures ، وهذا قد يخلق بينهم وبين الموريتانيين علاقات ليست مع اى شعب آخر . ولكن هناك فوارق ، مع ان الأهم هو أن الصحراويين ليست مع أى شعب آخر . ولكن هناك فوارق ، مع ان الأهم هو أن الصحراويين والموريتانيين ، لم يكونوا فى يوم ، تحت نفس السلطة السياسية . أولئك كان لهم أمراء ، بينما خلـــق الصحراويون نوعا من الديموقراطية القبلية سموها « مجلس الأربعين » ، وهذه العلاقات تخلق فى نظر الصحراويين واجبات التضامن وامكانية الالتقاء ، وليس حق الاغتصاب .

وترى البوليزاريو أن الدول العربية المجاورة حاولت أن تفرض على محكمة العدل الدولية مفهوما خاطئا ، هو أنه منذ قرن كانت للصحراء علاقات سيادة مع الصحراويين ، وان الجيران العرب يستغلون ذلك لتبرير مطامعهم التوسعية ، ولكن البوليزاريو ترى أن محكمة العدل الدولية فى غير حاجـة للبحث لتنفيذ هذه المزاعم ، وان وراء هذه المزاعم توجد مطامع جشعة لاعلان مثلا أنه فى أوائل هذا القرن ، كانت كل من سوريا والبانيا اقليمين عثمانيين، والسودان تابع لمصر ـ والمصر جزء من الدولة العثمانية والمجرية ، وايرلندا جزء من بريطانيا . وهكذا قالت المحكمة كاملها والتى تلخص من وجهة نظر البوليزاريو ، ان الصحراء لم تكن عليهـــا أية سيادة من طرف ، اى من التوسعيين » ـ « المغرب وموريتانيا » المجاورين للصحراء .

وتوجه البوليزاريو اللوم لموريتانيين لانهم يتنكرون حق الصحراويين فى الوجود المستقل ، هذا بانهم كانوا هم انفسهم [illegible] موضوع نفس المطالب [illegible] . ونتساءل البوليزاريو : كيف يقوم اخوتنا فى موريتانيا بتأييد نفس المطالب التوسعية وانكار نفس الحقوق التى دافعوا عنها [illegible] ! وهكذا ترى البوليزاريو أن الشعب الصحراوى كغيره ، له الحق فى الوجود [illegible] سيادته الوطنية ، وينادى البوليزاريو بتحقيق

أمانى المغرب العربى ، نحو وحدة أشمل ، وان الطريق الوحيد للوصول الى هذا الهدف هو التشاور بين الشعوب ، وان الشعب الصحراوى سيسهل بدوره هذه الوحدة الضرورية ما أمكنه ذلك ، ولكنه انتظارا لذلك ، يريد أن يؤكد حقه فى الوجود وفى ممارسة حقوق ضحى بالكثير من أجل انتزاعها ، وانه مصمم على بناء دولة مؤسسة على أسس ديموقراطية ، مستقاة من التقاليد العربية والافريقية . وان تأكيد حق شعب الصحراء فى تقرير مصيره والحصول على الاستقلال هو حق طبيعى ثابت لا قدرة لاى سلطة كانت أن تعتبره حقا باطلا .

٤ ـ أسانيد البوليزاريو :

وستستند جبهة البوليزاريو الى الفقرات التالية من قرارات الهيئات الدولية سواء على صعيد الأمم المتحدة أو منظمة الوحدة الافريقية أو مجموعة دول عدم الانحياز :

أولا : القرار الصادر بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٧٢ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ، والذى يؤكد الحق الثابت لسكان الصحراء فى تقرير المصير والاستقلال . كما يؤكد هذا القرار على مشروعية كفاح الشعوب المستعمرة وتضامنها ومساندتها لسكان الصحراء فى كفاحهم من أجل حق التمتع بحق تقرير المصير والاستقلال ومطالبة كل الدول بتقديم العون المادى والمعنوى الضرورى لهذا الكفاح .

ثانيا : القرار الصادر فى شهر يونيو ١٩٧٢ فى الرباط فى اطار مجلس وزراء خارجية منظمة الوحدة الافريقية . فقد عبر القرار عن تضامنه مع سكان الصحراء الخاضعة للنفوذ الاسبانى ، وطالب أسبانيا بأن تخلق جوا من الحرية والديموقراطية بما يمكن شعب الصحراء من التمتع بحقه فى تقرير المصير والاستقلال فى أقرب وقت ، وطبقا لميثاق منظمة الأمم المتحدة .

ثالثا : القرار الذى اتخذه مؤتمر القمة دول عدم الانحياز فى سبتمبر ١٩٧٣ بالجزائر ، والذى يعبر فيه عن تضامن دول عدم الانحياز مع سكان الصحراء الخاضعين للنفوذ الاسبانى . وتشبث هذه الدول الدائم بمبدأ تقرير المصير ورغبتها فى أن يطبق هذا المبدأ فى اطار يضمن لسكان الصحراء الخاضعة للنفوذ الاسبانى من خلال التعبير الحر والحقيقى عن ارادتهم طبقا للتوصيات المناسبة للامم المتحدة .

٥ - مواقف متعارضة :

وترى جبهة البوليزاريو أن التوسعيين - يقصد المغاربة - هم الذين صوتوا بأنفسهم مرارا على هذه التوصيات ، وتبنوها فى بيانات عديدة خلال اللقاءات التى تمت بين دول المنطقة ، ففى ٢٢ يوليو سنة ١٩٧٣ وقعت الدول الثلاث المجاورة للصحراء ، فى أغادير ، على تصريح فى مؤتمر القمة ، جاء فيه : « تشبث الزعماء الثلاث الثابت بمبدأ تقرير المصير والعمل على تصفية الاستعمار من الصحراء » . ويتساءل البوليزاريو عما اذا كان العقل يتصور ويقبل المنطق أن يتراجع المجتمع الدولى عن الاعتراف بهذا الحق ، وذلك بعد أن وصل كفاح شعب الصحراء من أجل انتزاع استقلاله الى أرقى مستوى .. ويضع لنفسه ممثلا شرعيا ووحيدا هو قائد كفاحه وهى الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادى الذهب .

وتوجه البوليزاريو اللوم لكل من المغرب وموريتانيا دون ذكر اسميهما صراحة قائلة : « لقد حاولوا وضع محكمة العدل الدولية فى فخ يهدف الى مساندة قضية دنيئة ، واعطاء شرعية لجريمة يهيأ لها فى الخفاء ، غير أن قضاة المحكمة ، لم تطل عليهم الخدعة ، وأصدروا قرارهم الذى أثبت سيادة شعب الصحراء على وطنه ، وحقه فى تقرير المصير والاستقلال .. فالصحراء أرض لشعب عاش مستقلا طيلة قرون ، وهو مصمم على اعادة سيادته وصيانة وحدته فى هذه الأرض » .

وطالبت البوليزاريو من الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٥ بالتاكيد على الحق الثابت للشعب الصحراوى فى الاستقلال ، وان تتحول السيادة والسلطة من الدولة المستعمرة (بكسر الميم) الى الممثلين الحقيقيين لشعب الصحراء ، كما حذرت الجبهة جيران الصحراء من أية محاولة غير شرعية للتدخل فى الشئون الداخلية لشعب الصحراء الذى له الحق فى اتخاذ الاجراءات الممكنة لاعادة سيادته والدفاع عن وحدة ترابة .

٦ - البوليزاريو والتطورات الأخيرة :

ولقد ضمت البوليزاريو تيارات سياسية وفكرية متعددة ، وآمنت قيادتاتها بمبادىء مختلفة ، مثل الناصرية والجزائرية والقذافية والماركسية والمادية أيضا ، وفيما يتعلق باقامة جمهورية الصحراء واستقلالها سارت التوجهات فى أواخر عام ١٩٧٩ نحو هدفين : هدف سياسى . وهدف عسكرى. فعلى الصعيد السياسى ، تحقق للبوليزاريو نصر سياسى فى شهر ديسمبر

١٩٧٩ ، حيث أعلنت لجنة الحكماء الافريقيين ، والتى كانت قد عقدت عـــدة جلسات بتكليف من منظمة الوحدة الافريقية ـ أعلنت فى البداية اعترافها بحق تقرير المصير للشعب الصحراوى ، ثم طالبت المغرب بسحب جيشه من الصحراء المتنازع عليها ، ثم طالبت بعد ذلك بتشكيل قوة افريقية تحفظ النظام فى الصحراء لحين تقرير المصير ٠

ولم يكن هذا القرار ـ الذى رفضه المغرب وأيده كل من الجـــزائر والبوليزاريو ـ هو الأول من نوعه ، فقد سبقته مسيرة طويلة من الحرب السياسية والاعلاميه ، بالاضافة الى العديد من القرارات التى تركزت كلها فى عام ١٩٧٩ ٠ وكان من أبرز هذه القرارات :

١ ـ قرار مؤتمر القمة الافريقى فى موتروفيا ، والذى سبقت الاشارة اليه ٠

٢ ـ قرار قمة عدم الانحياز فى هافانا ٠

٣ ـ قرار لجنة تصفية الاستعمار ، من الجمعية العامة للأمم المتحدة ، والذى صوتت عليه حوالى ٨٠ دولة ٠ وكل هذه القرارات جـــاءت لصالح البوليزاريو وضد المغرب ، وبالاضافة الى ذلك ، فقد اعترفت ١٧ دولة منها دولتان عربيتان رسميا بالجمهورية الصحراوية وأوفد بعضها سفراء ، وكان أول المعترفين : الجزائر ـ بنين ـ موزمبيق ـ مدغشقر ـ أنجولا ـ بوروندى ـ غينيا بيساو ـ توجو ـ راوندا ـ كوريا الديموقراطية ، وعدون ٠ وتجدر الاشارة أيضا بهذا الخصوص الى نجاح جبهة البوليزاريو فى اقامة علاقات قوية مع دول المعسكر الاشتراكى واليسار الأوربى ، وخـــاصة الفرنسى والاسبانى والايطالى ، ثم مع عدد من الدول العربية التقدمية ـ باستثناء العراق المؤيد للمغرب حتى الآن ـ بل أن البوليزاريو قد حصلت أيضا على تأييد دول عربية محافظة مثل الاردن والامارات ٠

أما على الصعيد العسكرى ، فقد تحولت البوليزاريو فى خلال خمس سنوات فقط ، الى أقوى « منظمة مسلحة » فى الشمال الافريقى ، واستطاعت تعبئة ما بين ٢٠ ـ ٢٥ ألف مقاتل(٥) ، لكن الأهم هو التطور الخطير فى

---

(٥) ترى المغرب أن معظم هذه القوات من غير الصحراويين ، وخاصة من الطوارق وقبائل دوف الجزائرية ، وقبائل موريتانيا ، وقبائل « الرابش » من شمال مالى ، وكلهم متشابهون فى الشعور والشكل والملابس واللهجة الحسانية ٠

أساليب القتال والتخطيط والتدريب والتسليح ، فقد طبقت البوليزاريو أساليب حرب العصابات ، بهجمات مركزة وبأعداد كبيرة - ما بين أربعة الى خمسة آلاف مقاتل فى الهجوم الواحد - مستخدمين أسلحة متقدمة ، وخاصة الصواريخ أرض - أرض ، وأرض جو ، ومدفعية متوسطة وقصيرة المدى ، بالاضافة الى الاسلحة الصغيرة والرشاشات السريعة • الملاحظ هنا أن المساندة الجزائرية الليبية قد لعبت الدور الأساسى فى هذا التقدم العسكرى ، بالاضافة الى بروز الدور الكوبى والفيتنامى • وفى كل هذه التطورات المساندة البوليزاريو عربيا وأفريقيا ودوليا حدثت ردود فعل جوهرية لدى الرأى العام العالمى ، من خلال ما أثارته « الجمهورية الصحراوية المستقلة » وبشأن الاهتمام أيضا من جانب المراقبين بالشمال الافريقى بتطور الأوضاع فى الصحراء ، ذات الأهمية الجيوبوليتيكية النادرة ، حيث تمتد هذه الصحراء الغربية على ٣٠٠ الف كيلو متر مربع ، وحيث هى محصورة بين المغرب والجزائر وموريتانيا والمحيط الأطلسى ، من محبس والجديرية شمالا الى الكويرة وتشملا جنوبا ، ومن البير الحلو والكلته شرقا الى بوجدور والداخلة والعركوب غربا على المحيط الاطلسى وهى جميعا أماكن حساسة فى حرب الصحراء •

وعلى صعيد رؤية البوليزاريو للسلام ، فقد تركزت شروطها فيما يأتى :

١ - اعتراف المغرب بحق تقرير المصير للصحراويين •

٢ - تنفيذ القرارات الدولية وخاصة تلك التى أصدرتها مؤتمرات القمة الافريقية وعدم الانحياز والجمعية العامة للامم المتحدة •

٣ - انسحاب الجيش المغربى من كل الصحراء •

٤ - وقف عمليات الاعتقال والمطاردة التى تشنها حكومة المغرب •

٥ - دخول الحكومة المغربية فى مفاوضات مباشرة مع ممثلى البوليزاريو لتسوية الخلافات بينهما •

سيناريو الحاضر والمستقبل

١ - عودة الى المشاعر المغربية :

يرى المغرب أن موقف الحكومة الجزائرية يتعدى معارضة سياسة المغرب وموريتانيا الى حد تهديد كيان الدولتين معا ، وهو موقف مرفوض فى العلاقات الدولية ، وبالاحرى بين الدول العربية ، حيث لو اتخذت كل دولة عربية من جارتها هذا الموقف العدائى لانفرط عقد ميثاق الجامعة العربية والوحدة العربية التى يتطلع العرب اليها .

ويحتل الجيش الجزائرى مناطق شاسعة يعتبرها المغرب جزءا من أراضيه ، بعضها الى عام ١٩٠٠ وبعضها الى عام ١٩٣٤ ، انتزعتها فرنسا وضمتها الى مستعمرتها فى الجزائر ، ثم ورثتها الدولة الجديدة سنة ١٩٦٢ ، وفى هذه المناطق على وجه الخصوص جمعت الحكومة الجزائرية من اعتبرتهم لاجئين من الصحراء الغربية تحت ستار حكومة صحراوية انشأتها فى الجزائر العاصمة وقامت بتسليم وتدريب عصابات منهم وأرستلهم الى الصحراء لقتل المغاربة ثم الرجوع الى تندوف حيث لا يتبعهم الجيش المغربى .

ويرى أحد الباحثين(٦) المغاربة أن الحكومة الجزائرية التى تنادى بالابقاء على الحدود الموروثة عن الاستعمار هى نفسها التى تبعث جنودها خلف تلك الحدود فى حين أنها تطالب المغرب وراء حدوده ، ويضيف الباحث المغربى الى ذلك قوله : ان أى أحد من العرب يخطىء حين يسمى ما يحدث فى الصحراء هو حرب عصابات وحرب تحرير ، وأنه لا يوجد فى أرض الصحراء سكان أصليون يحاربون جيش احتلال أو أقلية عنصرية مثل ما يقع فى أريتريا أو ناميا ، وأنه من الناحية الاستراتيجية هى حرب بين الجزائر والمغرب ، ومن

---

(٦) عبد الله العروى عضو الاتحاد الاستراكى للقوى الشعبية فى مذكرته الى التقدميين العرب حول حقوق المغرب الشرعية فى صحرائه المسترجعة ، فى جريدة المحرر ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ مايو - المغرب ، وهى نص الرسالة التى بعث بها الباحث المذكور الى الأستاذ لطفى الخولى بالقاهرة باعتباره زعيما فى منظمات يسارية ونادى بتضامن اليسار المصرى مع الجزائر فى حرب تحرير الشعب الصحراوى .

الناحية التكتيكية هى حرب وحدات عسكرية صغيرة مجهزة أصلا فى تندوف وتبعث داخل الصحراء وموريتانيا لضرب المراكز الادارية . وان المشتركين فى هذه الوحدات هم عناصر من الجيش الاحياطى الصحـــراوى الذى خدم الاستعمار الاسبانى ومن القبائل القاطنه فى الجزائر ومالى وعناصر من الجيش الجزائرى النظامى ، فهى اذن حرب جزائرية الهدف منها تفكيـــك الدولة الموريتانية وفصلها عن المغرب ٠

ان الاحتمال الوحيد غير الوارد ، هو تحقيق مبدأ تقرير المصير واقامة دولة صحراوية مستقلة عن المغرب وموريتانيا فى حدودها قبل عام ١٩٧٦ ، وان من يساند ذلك — فى رأى المغرب — كأنه يصرح بحق « النظـــام ، الجزائرى — أيضا — فى التوسع على المغرب ٠ والمغرب هو ثالث دولة عربية من حيث السكان بعد مصر والسودان وهو الدولة التى تتوافر فيها العناصر المادية والبشرية لتكوين دولة حديثة متكاملة ، وأنه على القارىء العربى — حسب الرؤية المغربية — أن يتذكر أن المغرب على صعيد الحكومة وعلى صعيد الاحزاب السياسية ما فتىء يقدم اقتراحات بناءة لتجنب الازمة وضمان مصالح الجميع ، وان قضية الصحراء كانت منذ سنة ١٩٥٦ وما زالت قضية وطنية مغربية فى حين أنها لا تشكل هذا المفهوم بالنسبة للجزائر ٠

٢ — صراع على السيادة الاقليمة :

ان صراع الجزائر والمغرب على « سيادة » شمال افريقيا ، صراع حديث ومعاصر ، بمعنى أنه بدأ عمليا منذ استقلال الجزائر فى عام ١٩٦٢ وفى العام التالى مباشرة أى ١٩٦٣ وقعت أول مواجهة سياسية عسكرية بينهما فى حرب « تندوف الفنية بالحديد » وهى منطقة تعتبرها المغرب جزءا من أراضيها ضمها الاستعمار الفرنسى مع أربعة أقاليم أخرى للجزائر — التى كانت مستعمرة فرنسية أيضا ٠ وقد تحولت الحدود المغربية الجازئرية من مجال عمل مفتوح أمام جيش التحرير الجازئرى خلال حرب الاستقلال ، والتى كانت « وجدة » المغربية قاعدته الأساسية ، ومن ميدان تعاون وامتزاج بين هذا الجيش وجيش التحرير المغربى ، تحولت الى خطوط صدام وقتال أسال كبرا من الدماء و « العداوة » فى صفوف الطرفين ٠٠ على أن معركة تندوف الأولى انتهت ايجابيا لصالح الجزائر بتثبيت السيادة الجزائرية ، ثم مطالبة المغرب فيما بعد باستعادة هذه المناطق ٠ ومنذ ذلك الحين أصبحت المواجهات محتملة على جانبى الحدود وبدأت كل دولة تبنى قوتها العسكرية وعيناها على الطرف الآخر ٠

وفى أواخر عام ١٩٧٩ كان ميزان القوى بين المغرب والجزائر على الوجه الآتى :

المغرب : ٢٠ مليون نسمة يمتلك جيشا قوامه ٩٨ - ١٠٠ ألف مقاتل وقوات احتياط من ٣٠ - ٥٠ ألف ويتمركز الجيش المغربى فى قواعد أساسية هى الدار البيضاء - صافى - أجادير - طنجة - القنيطرة - بالاضافة الى القواعد الجديدة فى الصحراء وخاصة فى مدن العيون وسحارة والداخلة • ويعتمد الجيش المغربى على سلاحى الدبابات والطيران ومعظمها أمريكى وفرنسى من أنواع ف - ٥ والميراج التى حصلت المغرب عليها فى نفس العام من خلال عقده صفقات (الميراج - ٧٥ طائرة) ثم صفقة أمريكية لم يكشف عن حجمها وان كان المعروف أنها تقوم أساسا على الطائرات المقاتلة المتقدمة وعلى أجهزة الرصد والرادار الحديث التى تسمح بمسح الصحراء الواسعة •

وهكذا مضت كل من الجزائر والمغرب فى تقوية كياناتها المنفصلة بديلا من الشعار الذى كان مطروحا خلال فترتى حرب الاستقلال وما بعد الاستقلال « لوحدة المغرب الكبير » ، حتى وصلت الدولتان الى حافة حرب شاملة جديدة، يمكن أن تستنزف كل امكانياتهما الاقتصادية والعسكرية والبشرية الى حد الانهاك والاضعاف الشديدين • واذا كانت مناوشات الصراع حول تندوف - منجم خام الحديد الهائل - هى محور المواجهة المسلحة الأولى فى عام ١٩٦٣ ، فان الصحراء الغربية (الساقية الحمراء ووادى الذهب) - التى كانت حتى عام ١٩٧٥ خاضعة للاستعمار الاسبانى ، قد أصبحت بعد ذلك بسنوات مطمعا لتورط أطراف اقليمية ودولية أخرى بدلا من الجزائر والمغرب • وأبرز هذه الاطراف وهى ليبيا وكوبا وفيتنام والاتحاد السوفيتى من خلال الدعم السياسى والعسكرى التسليحى لجبهة البوليساريو فى عملياتها داخل الصحراء ، فمن ناحية تمتل الجزائر خط مواجهة مباشر مع المغرب ، ومن ناحية أخرى فان المغرب تتلقى مساعدات عسكرية ودعما سياسيا وماليا من أطراف أخرى عربية ودولية أهمها مصر والمملكة السعودية ثم فرنسا والولايات المتحدة الامريكية •

ونتيجة لذلك فقد اتسعت معركة الصحراء بشكل حولها من صراع محلى اقليمى الى صراع دولى تلعب فيه القوى الاقليمية والدولية المنافسة وخاصة المعسكرين الشرقى والغربى دورا أساسيا لتصبح منطقة شمال غرب افريقيا، نقطة صدام سياسى وعسكرى ، على صعيد دولى مثل القرن الافريقى والشرق الأوسط والهند الصينية مع ما يحمله ذلك من مخاطر أساسية على السلام

والأمن الدوليين . وبقدر ما يقدم كل من المعسكرين المتنافسين من دعم سياسى واقتصادى وأمنى لاصدقائه المحليين ، بقدر ما يعكس ذلك من توزيع المصالح والأهداف على خريطة الصراع فيصبح طبيعيا أن يقف المعسكر الاشتراكى خلف الجزائر ممثلة للتجارب الثورية فى العالم الثالث ، وخلف جبهة البوليساريو التى تنادى بجمهورية صحراوية تقدمية ديمقراطية ، وان يقف المعسكر الامريكى الاوروبى خلف المغرب بنظامه السياسى الملكى المحافظ ، واذا كانت الاطراف الدولية المشتركة فى الصراع حول الصحراء قد أمدت طرفى الصراع بمدد هائل من المعونات العسكرية الاقتصادية ، فانها أيضا تريد التحكيم فى حدة الصراع ودرجات تصاعده حتى لا يعلن الزمام بشكل يهدد الوفاق الدولى من أساسه .

٣ ـ خيوط متشابكة :

وفى هذا الاطار يجب التنويه الى أن خيوط العمل بين أطراف الصراع محليا وأقليميا ودوليا هى خيوط متداخلة نظرا لأن المصالح الاستراتيجية متداخلة فى الأساس ، فالولايات المتحدة الامريكية تعادى الجزائر مقابل صداقة دائمة مع المغرب ، وكذلك فرنسا واسبانيا ـ وهى سبب المشكلة ـ والولايات المتحدة الامريكية لا تريد أن تنحاز تماما الى جانب المغرب فتفقد مصالحها الاقتصادية مع المغرب فى حين أنه لا يخفى اهتماماته المتزايدة أيضا بالجزائر ، وقد وقع الاتحاد السوفيتى اتفاقية مع المغرب بمقتضاها يبيع المغرب الفوسفات الى الاتحاد السوفيتى ، ومن المعروف أن المغرب ينتج ٢٠ مليون طن من الفوسفات وهو ثانى دولة فى العالم بعد أمريكا فى انتاج الفوسفات . ومن الأهمية بمكان عدم أهمال « ارادة القوى المحلية » فى القدرة على ادارة الصراع وتطوير مراحله صعودا وهبوطا ، وصولا أما الى الصدام المسلح الشامل وأما الى التسوية السلمية ، خاصة وان لهذا الصراع الذى فجرته قضية الصحراء المغربية بين الجزائر والمغرب ، له أبعاد تاريخية ضمن أطار تصفية المستعمرات ، كما أن له بعد اقتصاديا هاما بحكم الثروات المعدينية والنفطية فى المناطق المتنازع عليها وله بعد استراتيجى وسياسى عميق داخل اطار نظرية توازن القوى فى شمال افريقيا وحتى السيادة والهيمنة كما سيأتى تفصيل ذلك .

وعلى الصعيد الاقليمى أيضا نجد أن الغرب ومنذ الاستقلال . لم يعرف حتى الآن تضامنا والتئاما قوميا حول هدف او قضية مثلما وحدته قضية الصحرا ، ويمكن قياس ذلك على كافة الاتجاهات السياسية المغربية ابتداءا

من الحزب الشيوعي - التقـــدم والاشتراكية - ووصولا الى حزب تجمـــع الاحرار اليمين ٠

أما الجزائر والبوليزاريو فهما يراهنان معـــا على رصيد الانتصـــارات السياسية والدبلوماسية والاعلامية التى تحققت فى عام ١٩٧٩ وأيضـــا على انهيار الجبهة الداخلية فى المغرب ذاته على أزمته الاقتصادية الخانقة بسبب تزايد الانفاق العسكرى وعلى التذمر السياسى الداخلى وخاصة بين الاحزاب التقـــدمية تعبيرا عن السخط الجمـــاهيرى من طول المعاناة ، أما رصـــيد الانتصارات السياسية والعسكرية فقد تمثل فى قرارات قمة ليبرفيل عام ١٩٧٩ ولجنة تصفية الاستعمار بالامم المتحدة بالاضـــافة الى تطوير أسلوب العمل العسكرى داخل الصحراء ، بل داخل حدود المغرب نفسها ٠

غير أن كل من المغرب والجزائر قد أعلنتا عن رغبتهما فى تجنب الحرب وضرورة الاحتكام الى الحوار السياسى للوصول الى تسوية ، وقد ألقى الملك الحسن الثانى فى منتصف نوفمبر ١٩٧٩ خطابا شدد فيه على رغبة بلاده فى الحوار مع كل الأطراف لحل القضية ، وطالب الجزائريين بضرورة قيام حوار قائلا : « اذا أردتم أن نعيش فى جوار مثمر وأن نستثمر خبراتنا البشرية والاقتصادية ، وأن نجعـــل من الصحراء - حقلا يدر خيراته على بلدينـــا وجيراننا ، فكونوا على مستوى المســـئولية » ٠ وقال الملك مخاطبـــا رجال البوليساريو - المطالبين بالاســـتقلال واقامة الجمهورية الصـــحراوية - : « ما زالت أبواب المغرب مفتوحة أمامكم . وما دامت فرص التصالح موجودة فانى أدعوكم للمذاكرة - أى الحوار - وللجنوح للســـلم ، أما اذا بقيتم على موقفكم ، فاعلموا انه لن يكون لكم فى يوم من الأيام أى شبر من السلطة أو السيادة فى الصحراء » ٠ وقد جاء رد الفعـــل الجزائرى من جانب الرئيس الشاذلى بن جديد قائلا : « أن مشكلة الصحراء واضـــحة وموقف الجزائر يمشى مع مقررات المنظمات الدولية ، واننا نؤمن بتقرير المصير ٠٠٠ ، وأن هناك بطبيعة الحال شعب صحراوى مسئول عن أرضه ، أما الحديث عن نزاع جزائرى مغربى فهو حديث خاطىء ، فحقيقة الصراع مركزة فى نضال شعب من أجل نيل حريته وتقرير مصيره » وعندما سئل الرئيس بن جـــديد عن العلاقات بين الجزائر والمغرب ، رد قائلا : « أن الجزائر ليست هى التى قطعت العلاقات ، بل المغرب ٠٠ ان العـــلاقات يجب أن تكون مبنية على قواعـــد واضحة ، وتوجد الآن مشكلة سياسية فى المنطقـــة ، فكل ما فى الأمر ان الدولتين لم تتفقا على طريقة حله ، ولا يمكن أن يكون هناك تعاون طالما ظلت

هذه المشكلة السياسية مطروحة ، واننا نعتقد أن مشكلة الصحراء لن تحل الا بالطرق السياسية والسلمية ، فالاسلحة لا تحل المشاكل السياسية » .

٤ — التحالف الكبير داخل المغرب :

جاءت قضية الصحراء لتنوحد الشعب المغربى بكافة اتجاهاته وميوله السياسية لأول مرة منذ سنوات وتحول أطراف الصراع السياسى المغربى من العداوة التقليدية التى فرضتها الخلافات الايديولوجية والسياسية عبر سنوات صراع طويلة ، الى توحيد فى الرأى فور اثارة قضية الصحراء بدءا بالاتحاد الاشتراكى للقوات الشعبية الذى يتزعم المعارضة المغربية وصولا الى أقرب الموالين للقصر الملكى مرورا بحزب الاستقلال فى الوسط ، والأمر المثير وقتها هو موقف الاتحاد الاشتراكى للقوات الشعبية وهو حزب الجماهير والطبقات العاملة والمثقفين اليساريين الذى أسسه الزعيم المغربى الراحل المهدى بن بركة ، والذى عرف بمعارضته الصارمة للملك الحسن الثانى ؛ والذى ارتبط بروابط تقليدية بكل التجمعات الديمقراطية واليسارية فى العالم كله وكان ذلك سببا فى تعرض كوادره لاضطهاد واضح من السلطات المغربية عبر السنوات الأخيرة .

وقد أكدت المعارضة المغربية انها رغم علاقاتها مع النظام الحاكم الا انها تعلن تأييدها فى هذه القضية الوطنية ، بل ان المعارضة المغربية للنظام الحاكم قد اعتبرت « حكام » الجزائر بأنهم يريدون هيمنة وتوسعا فى المغرب العربى وداخل افريقيا على حساب المغرب ، وأن المعارضة المغربية للنظام الحاكم تؤمن بالمغرب العربى الموحد . وهكذا ربحت السلطة الحاكمة فى كسب تأييد المعارضة لها ، بل أن الأحزاب الوطنية المعارضة فى المغرب قد خطت خطوة أوسع وتقبلت الحوار مع الملك الحسن حول الممارسة الديمقراطية .

ورغم هذا الموقف الاجتماعى المغربى حول قضية الصحراء ، واعادة توحيدها مع المغرب ، ورغم اتفاق المغرب وموريتانيا حتى عام ١٩٧٨ على انقسام هذه الأراضى الشاسعة ، الا أن الصراع حولها أخذ ينعقد بسبب تداخل أطراف وملابسات كبيرة ، ولاسباب محلية واقليمية ودولية تهدد بتفجير المغرب الكبير ، لأن العنصر الأساسى الذى فجر الصراع الحديث حول الصحراء هو اكتشاف الفوسفات فيها بكميات ضخمة لأول مرة منذ عام ١٩٦٤ . فالقوى العظمى great powers تنظر بغزل شديد الى ثروات المنطقة .

٥ - التعادل المغربى الجزائرى :

تعتبر مشكلة الصحراء واحدة من أدق وأخطر وأعقـــد المشكلات التى تهدد شعوب دول المغرب العربى كله ، وقد امتدت الاشتباكات المسلحـــة وحوادث الحدود بين الاطراف المتنازعة ثم بدخل الأطراف الاقليمية الأخرى خلال شهر سبتمبر ١٩٧٩ - امتدت لـــكى تنذر بالدمار المغربى العـــربى برمته ، فالنار التى اندلعت فى المناطق الصحراوية لم تقتصر هذه المرة على المناطق المتنازع عليها بين المغرب والجزائر ، بل ان دولة أخرى هى ليبيا قد ساهمت هى الأخرى فى زيادة حدة الصراع وموريتانيا أيضا تصورت انهـا بخروجها من الصراع واتفاقها مع البوليساريو عام ١٩٧٩ انها يمكن أن تكون عامل تهدئة ، لكن ذلك قد انعكس على المغرب بتوجيهه ضربا قاصمة واحدة احتل بها ٩٠ ألف كيلو متر من الصحراء ٠

وبالرغم من ذلك فقد ساد التعادل تقريبا بين ما أحرزته كل من المغرب والجزائر فالجزائر فى قمـــة مونروفيا فى نفس العـــام استطاعت أن تحقق انتصارا دبلوماسيا على المغرب ، حيث أدان مؤتمر منظمة الوحدة الافريقيـة المغرب ٠ وموريتانيا باتفاقها فى أوائل أغسطس مع البوليســاريو انسحبت من الصراع - أو هكذا تصورت - وبعد أيام أعلن عن تشكيل جبهة لتحرير شعب موريتانيا ، والمغرب باحتلاله - أو بحسب التعبير المغربى - باستعادته للجزء المغربى من الصحراء - قد حقق بذلك نصرا حاسما فى القضية ، غير أن أرض الواقع فى الصحراء المغربية قد أوضحت أن تحقق انتصارا عسكريا حاسما على البوليساريو هو أمر صعب المنال وأن معارك الصحراء ســـوف تستمر ، بل وتتسع ، وقد جاءت معارك البوليساريو مع المغرب مؤخرا لتثير جدلا شديدا فى الرباط وبأنه لم تعد هناك حاجة الى توجيـــه الضربات الى الجزائر ٠

وفى مناسبة أخرى لاحقة أعلن الملك الحسن الثانى أنه على اســـتعداد للذهاب الى آخر المدى من أجل الاحتفاظ بالصحراء الغربية ، ثم أعرب عن اعتقاده بأنه لا تزال هناك فى الأجواء عدة فرص لاجراء حـــوار بين المغرب والجزائر وأوضح الملك أنه يتوقـــع أن يتصرف الرئيس الشاذلى بن جديد بحرية أكبر فى بلاده ، وقد جاء رد الفعل الجزائرى على الفور ، حين أعلنت صحيفة « المجاهد » الجزائرية رفض الجزائر لاقتراح العاهل المغربى قائلة أن ملك المغرب لم يدرك بعد أن الجزائر لا تبيع أراضيها ، وذكرت الصحيفة أن الحسن الثانى ينكر على شعب الصحراء حقه فى الوطن ، وأن أى حوار يطرحه

ملك المغرب انما يجب أن يتم مــع شعب الصحراء • وقالت الصحيفة ان أساتذة الحسن الثـــانى والعقول المفكرة التى تقف وراءه هم المســتعمرون والعنصريون والامبرياليون •

وتجدر الاشـارة بهذا الخصوص الى الجهود المصرية لرأب الصدع بين المغرب والجزائر والتى جرت منذ سنوات ، وعلى وجــه التحديد فى فبراير ١٩٧٦ حينما كاد يحدث الانفجار وتقــع المواجهة العسكرية الشـاملة بين المغرب والجزائر وتم حشد عسكرى جزائرى كثيف فى مدينة تندوف قــدر بنحو ١٦ ألف جندى تعززهم مئات من الدبابات ومدافع الهاون ••• وحشد آخر فى منطقة تغريت بالصحراء الغربيــة ، يقابله استعدادات عســكرية مغربية هائلة • وكادت المواجهة أن تحدث بين الجيشين العربيين لولا التحرك المصرى حيث تدخلت مصر لدى الملك الحسن الذى قام بتأجيل تنفيذ قراره ، وبالفعل نجحت مصر فى تطويق الموقف وأمكن فى النهــاية تحقيق فـكرة اللقاء بالحوار •

أما على الصعيد المغربى فان المحصلة قد أصبحت فى الفترة الأخيرة •

وقد جاء رد الحسن الثانى على مراحل بمثابة ضربة موجهة الى كل من موريتانيا والبوليساريو ، وفى نفس الوقت كان ذلك بمثابة تحذير نهـائى الى الجزائر ، فمنذ الساعات الأولى لانهاء التحالف المغربى الموريتـانى ، أراد الملك الحسن أن يلعب لعبة التناقضات بين أجنحة النظام الجديد الحـاكم فى الجزائر فقد ردد الملك أنه بالرغم من أن الجزائر تتحمل المسئولية الأولى فى دعم البوليساريو ، الا أن مسئوليتها فيما حدث مسئولية محدودة وان سبب الانفجار يعود الى ليبيا وكوبا ، ويرى الملك الحسن أن ليبيا قد وصلت الى البحر الأحمر عن طريق أثيوبيا وهى تريد الآن الوصـــول الى مياه المحيط الأطلسى •

وأوضح الملك الحسن الثانى أن بلاده ستواصل القتال حتى آخر رجل من أجل حماية ترابها الوطنى ، وكشف الملك النقاب عن أن كوبا تعد لتقديم مساعدات فعالة للثوار ، وأنها عبأت كل امكانياتهـا لاثارة الاضطرابات فى المغرب عن طريق دعم جبهة البوليساريو بكل ما تحتاجــه من المستشارين العسكريين ، اضافة الى الدعم الليبى بالمـال والســلاح لجبهة البوليساريو خاصة وأن جناحها العسكرى قد انتقل من الجزائر واستقر نهائيا فى ليبيا •

وعلى الصعيد الجزائرى فقد وقعت خلافات داخل الجزائر وخاصــة بين

قيادات الجيش بسبب الموقف من العقيـــد القذافى ، وقد عارض ضـــباط جزائريون موقف صالح يحياوى منسق حزب جبهة التحرير الذى يرى أن تأييد القذافى للبوليســاريو لا يلقى تقديرا من مجموعة الشاذلى بن جديد رئيس الجزائر الذى يحاول تجنب الحرب مع المغرب •

وفى ١٤ أغسطس ١٩٧٩ أعلن الملك الحسن الثانى أمام السفراء العرب والاجانب ضم مقاطعة وادى الذهب الى سائر مقاطعات المملكة بعـد أن تلقى البيعة من قاضى « الداخلة » . وبهذه المبايعة نجح النظام المغربى فى اقنـاع المواطنين المغاربة بأنه حقق انتصارا •

وفى أغسطس ١٩٧٩ وقعت جبهة البوليساريو فى الجزائر اتفاقية سلام نهائيه مع موريتانيا اعترفت فيها الأخيرة بالحقوق الوطنية لشعب الصحراء ، وتعهدت باعادة منطقة تيرس المغربية اليها • وهو الجزء الذى كانت موريتانيا تحتله من الصحراء الغربية منذ عام ١٩٧٥ • ووجدت المغرب الذى لا يزال تسيطر على الجزء الآخر من الصحراء وهو « الساقية الحمراء » نفسها نتيجـة لهذا التصرف من جانب موريتانيا فى موقف خطير •• ففضلا عن تورطها فى عمليات مقاومة وجد المغرب نفسه وحيدا بعد أن تخلت عنه موريتانيا •

٦ ـ تساؤلات مغربية :

وكان التساؤل الذى سيطر على المغاربة وقتئذ هو كيف يواجـه الملك الحسن اتخاذ القرار ؟ وهل سيصدر الأوامر الى جيشـــه باحتلال تيرس ، الجزء الموريتـــانى من الصحراء قبـــل أن يسترده المحـاربون الصحراويون ويحاصرون المغرب من الجنوب . وكان الملك قد هدد أكثر من مرة فى المـاضى بأن لديه الوسائل الفورية(٧) لتنفيذ ذلك حيث يعسكر فى موريتانيا سـتة

---

(٧) [illegible] . وفى ٧ مايو ١٩٨٠ قال الوزير المغربى المسئول عن شئون الصحراء فى [illegible] المغرب [illegible] دولة تقوم بها السوفيت حتى يمدون البوليساريو [illegible] واكد الوزير رفض بلاده اجراء أى حوار مع [illegible] المغرب لاجراء مثل هذا الحوار مع الجزائر . وفى ٢٣ يونيو [illegible] البوليساريو قد فقدت ٦٠٠ شخصا فى الوقت الذى [illegible] فى احدى معارك الأسبوع الماضى • وفى ٣٠ يونيو [illegible] القوات الجوية والبرية المغربية قد صدت هجوما للبوليساريو وأسفر هذا الهجوم عن مصرع ١٨٠ من ثوار البوليساريو فى حين قتل ١٨ من المغرب وأصيب ٢٨ آخرون [illegible] نزاع الصحراء بين المغرب والجزائر

آلاف جندى مغربى وهم الذين استنجدت بهم موريتانيا خلال حكم الرئيس السابق ولد داده عام ١٩٧٧ • وتحقيقات واسعة من حدوث وتصاعد الحوادث •

وتجدر الاشارة ومنذ عام ١٩٧٥ لم يكن أحد يتصور أن بضعة آلاف من الصحراويين لا يتجاوز عددهم عشرة آلاف رجل قد أقسموا على استعادة صحرائهم ، وقد تم افتتاح مكتب لجبهة تحرير البوليساريو فى الجزائر ومن هناك صدرت البيانات الاعلامية ، كانت الأسلحة الجزائرية تتدفق على الجبهة وقام أعضاء الجبهة بعملياتهم منذ ذلك الحين ضد المغرب وموريتانيا التى كانت متحالفة مع المغرب وقتئذ ، لكن هذا التحالف قد اندثر بعد ذلك بأربعة أعوام وأختارت موريتانيا الانحياز الى الطرف الجزائرى فى النزاع •

هناك سيطرة عسكرية مغربية على الصحراء ، بل أن الادارة المغربية (٨)

فى شهر يونيو ١٩٨٠ كما نشرت الصحف الكويتية ان وزيرى خارجية المغرب والجزائر سيجتمعان لتطويق مشكلة الصحراء ، بل أن محادثات سرية بين ممثلين مغاربة وجزائريين قد عقدت فى مدينة جنيف خلال نفس الشهر ، وتجدر الاشارة أن موريتانيا قد انحازت منذ نهاية اغسطس ١٩٨٠ الى جانب الجزائر صاحبة الدعم الاكبر للبوليساريو فى النزاع حول الصحراء • راجع الأهرام - الجمهوريه - اعدادا - خلال عام ١٩٨٠ ، وفى ١٧ فبراير ١٩٨٠ أعلنت جبهة البوليساريو فى بيان أصدرته فى الجزائر أن الهجوم على قرية بوجادو جنوبى مدينة العيون عاصمة الصحراء الغربية قد أسفر عن مصرع أكثر من ٤٠٠ جندى مغربى واسقاط طائرتين مغربيتين من طراز ميراج ف ١ ، ف ٥ • فى حين أعلن المغرب أنه تصدى فى هذه المعركة للمهاجمين وقتل ٢٠٩ من عناصر البوليساريو ودمر ٤٠ عربة من سيارات الجبهة العسكرية وأن المغاربة الذين « استشهدوا » هم تسعة فقط وفى اوائل مارس ١٩٨٠ اعلن ممثل جبهة البوليساريو فى باريس أن القتال العنيف ما زال دائرا فى الصحراء وأن قوات الثوار استولت على مدينة سمرا لعدة ساعات ، وفى ١٨ أبريل أعلن رسميا فى الرباط قطع العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وليبيا على أثر اعتراف الحكومة الليبية بجمهورية الصحراء ضمن قرارات مؤتمر الدول العربية فى طرابلس وكانت الدول الأخرى التى شاركت فى قرارات المؤتمر هى سوريا والجزائر واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية • وقد أعترفت كلها بدولة الصحراء التى تزعمها جبهة البوليساريو فى فترة سابقة على المؤتمر ، فى حين أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية فى ١٩٨٠/٤/٢٣ بأن ليبيا قد زورت قرارات الرؤساء • وان الاعتراف بجمهورية الصحراء قد أضيف بعد سفر الوفود من طرابلس • وفى ٦ مايو ذكر بيان لوزارة الاعلام المغربية أنه تم تدمير جيوب المقاومة فى جنوب المغرب من بين قوات البوليساريو ، أى ٢٢٥ من أفراد جبهة البوليساريو قد قتلوا فى حين قتل ٢٦ من القوات المغربية ، وفى ٢٥ مايو ١٩٨٠ قال بيان مغربى ان البوليساريو خسرت فى معركة انطبع ١٥٠ قتيلا كما تحطمت ٤٤ سيارة عسكرية من بينها حربية •

قد عادت الى الاقليم ويعنى ذلك أن القضية قد حسمت مرحليا وعمليا حتى نهاية عام ١٩٧٩ لصالح المغرب ، ولكن الثابت أيضا أن سيطرة أى طرف سيطرة كامله ومحكمة على كل مناطق الصحراء هو أمر مشكوك فيه ، وقد أكده مؤخرا تصاعد عمليات البوليساريو ، كذلك فان الحشود العسكرية بين أطراف الصراع قائمة على قدم وساق ٠

ومن الثابت أيضا أن هناك قوى خارج أطراف الصراع تريد أن تجد دورا فى المنطقة ٠٠ فليبيا وكوبا تلعبان دورا يمكن أن يؤثر على مجريات الأمور حيث يؤيد العقيد القذافى بشدة جبهة البوليساريو ويدعمها عسكريا ويساندها سياسيا ولاتخلو خطاباته بين الفينة والفينة بالعداء السافر للمغرب والتأييد الشديد للصحراويين وجمهوريتهم ٠

وعلى الصعيد الموريتانى ، فقد قررت اللجنة العسكرية فى موريتانيا العودة الى الاشتراك فى حرب الصحراء كخيار وحيد لاحتواء الصراعات الداخلية بين أجنحه اللجنة العسكرية منذ وقعت موريتانيا اتفاق الجزائر مع البوليساريو وانسحابها من الجزء الخاص بها من الصحراء وحيادها من الصراع ٠ ويرى البعض ان اتفاق الجزائر كان مناورة مؤقتة لتحييد موريتانيا لفترة معينة تعود بعدها الى حلبة الصراع بعد أن تكون الجزائر قد مهدت وهيأت الظروف لاساءة العلاقات بين المغرب وموريتانيا ٠

وهناك من يربط بين اتهام موريتانيا للمغرب بأنه يغير بطائراته وقواته على المواقع العسكرية الموريتانيه ، وبين نطاق المخطط الموضوع لافساد واساءة العلاقه بين نواكشوط والرباط ، وقد نفى المغرب اتهامات موريتانيا برمتها ومع ذلك فان الازمة لا تزال تتصاعد وأن أحد الجانبين لديه الاصرار التام على هذا التصاعد وعدم العودة الى العلاقات الطبيعية ، فالمغرب ينوى ضم بلدة (المقويرة) الواقعة فى أقصى الجنوب من الصحراء ، وهى القرية التى قالت موريتانيا أن الطائرات المغربية قد هاجمتها ، ويعتبر المغرب أن قرية (المقويرة) هى جزء من وادى الذهب الذى استولى عليه المغرب عند انسحاب موريتانيا باتفاق الجزائر ٠ فى حين أن هناك فى العاصمة الجزائرية من يرى استعداد اللجنة العسكرية الموريتانية للتخلى عن هذه البلدة ، وتسليمها للبوليساريو ٠

---

(٨٠) وقد قام [illegible] الثانى بأول زيارة لاقليم جنوب الصحراء فى أوائل مارس ١٩٨٠، وأكد فى خطاب له أن الصحراء جزء لا يتجزأ من الأراضى المغربية . وأن سيادة المغرب [illegible] تاريخية وواقع ملموس ٠

وعموما فان العلاقات الموريتانية المغربية لم تستقر منذ انقلاب يوليو ١٩٧٨ على الرئيس مختار ولد داده ، وانقلاب موريتانيا من الصراع المشترك وانحيازها للجزائر فى الفترة الأخيرة قد أدى الى تصاعد التوتر بين موريتانيا والمغرب وهو ما سوف يجعل جبهة البوليساريو تستفيد من هذا التوتر ، ويعيد هذا للأذهان أن المغرب كانت تطالب أساسا منذ أكثر من ١٥ سنة بموريتانيا كجزء من تراب المملكة المغربية ، ثم تنازلت المغرب عن طلبها تحت ضغوط دولية وأفريقية وعربية ، وأصبحت موريتانيا بعد ذلك عضوا فى الجامعة العربية ٠ وعندما ظهرت مشكلة الصحراء كانت موريتانيا هى الدولة التى تطالب بالصحراء وتعتبرها جزءا من أراضيها ، وتعارض أى حق للمغرب فيها ، وانتقل الأمر فى هذه المشكلة الى الجامعة العربية ، والى الأمم المتحدة ، الى أن اتفق الملك الحسن والرئيس السابق مختار ولد داده على اقتسام الصحراء وعندئذ أعلنت موريتانيا سقوط طلب السيادة على كل الأراضى الصحراوية وحدها ٠

٧ — خروج موريتانيا من الحلبة :

وقد تطورت قضية الصحراء لتصل الى مداها بخروج موريتانيا منها نهائيا وأعلانها تخليها عن المطالبة بأى حق فى نصيبها فى الصحراء معلنة بذلك انهاء الاتفاقية الخاصة بالصحراء بينها وبين المغرب ٠ وعلى الجانب الآخر من القضية يتردد السؤال الآتى : ما هو موقف الاتحاد السوفيتى مع جبهة البوليساريو التى تتبناها الجزائر فى ظل العلاقة العضوية بين أنظمة الحكم فى موسكو والجزائر وفى البوليساريو ٠ غير أن تطور الأحداث لم يسر على هذا النمط فالسوفيت لهم مصالحهم بالطبع التى ترجح دعم خطهم العقائدى والدليل على ذلك فيما يتعلق بقضية الصحراء — أنه عندما عقد السوفيت صفقة الفوسفات مع المغرب من حوالى أربعة أعوام وهى الصفقة التى عرفت فيما بعد بصفقة العصر — أدخلوا تعديلا فى سياستهم تجاه قضية الصحراء ، فلم يعد السوفيت يظهرون صراحة أو علانية فى القضية ، وأن كانوا يدعمون الجزائر سرا بالأسلحة التى تستخدمها قوات البوليساريو ، والسوفيت بذلك يحافظون على توازنهم فى موقفهم بين الجزائر والمغرب ، فهم سرا يؤيدون الجزائر بالسلاح ، وهم علانية لا يظهرون تأييدهم السافر ضد المغرب فى قضية الصحراء ٠

وقد أعلن المغرب فى عديد من المناسبات شجبه للموقف السوفيتى وأن ما يجرى فى الصحراء هو جزء من مخطط سوفيتى لحصار العالم الاسلامى بحزام يخدم مصالحه ، وأن المغرب لا يواجه مجرد منظمة صحراوية وانما يواجه

مؤامرة دولية ، وان البوليساريو تمتلك أسلحة متطورة للغاية تعتبر من احدث اسلحة حلف وارسو .

أما على الصعيد الأمريكى فان الولايات المتحدة قد أعربت عن رغبتها فى ايجاد تسوية سلمية للنزاع وأنها بصدد أقامة اتصالات على مستوى منخفض مع جبهه البوليساريو التى تحارب القوات المغربية فى الصحراء ، وبالطبع فان الولايات المتحدة هى التى تمد المغرب بالطائرات وذلك بالاضافة الى فرنسا وقد زادت الولايات المتحدة مؤخرا من مساعداتها للمغرب .

وعلى صعيد الجمهورية الصحراويه « البوليساريو » فقد تم بالفعل الاعتراف بجمهوريه الصحراء من جانب العديد من الدول ، والذى جاء رد فعلها على المغرب بعدم اعترافه على الاطلاق بالتفاوض أو النقاش مع جبهة البوليساريو التى لا تمثل ـ وجهة النظر المغربية ـ الا نفسها ولا تجسد أى وجود قانونى دولى .

وعموما فقد طوى عام ١٩٨٠ أحداثه بجولات من المناقشات استمعت فيها لجنه تصفية الاستعمار بالامم المتحدة خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٠ لآراء المواطنين من أبناء الصحراء ـ ومنهم مسئولون فى جبهة التحرير ـ حيث اكدوا أن ليبيا والجزائر وراء استمرار الازمة ، وأوضحوا أن سكان الصحراء « المغربية » أكدوا بحرية تامة هويتهم « المغربيه » وانتماءهم المغربى . وان الوحدة المتطلبه والعضوية للمملكة المغربية قد فرضت نفسها منذ قرون بروابط بشرية على الرغم من النفوذ والاستعمار .

غير ان عامى ١٩٨١ ، ١٩٨٢ قد شهدنا تطورات جوهرية فى المشكلة الصحراوية وخاصـــه حين اعترفت منظمة الوحـــدة الافريقية بالجمهورية الصحراويه عضوا فيها وهو ما أثار ردود فعل واسعة داخل المنظمة حيث انقسمت الدول الافريقية بين مؤيد ومعارض . أما المغرب فلا يزال يتمسك بموقفه تجاه الصحراء .

الباب الخامس

في أوروبا

الفصل التاسع

النزاع التركى اليونانى حول قبرص

١ - استقلال جزيرة قبرص :

فى أكتوبر ١٩٥٧ ، ترك الماريشال هاردينج جزيرة قبرص ، الأمر الذى جعل أهل قبرص يتنفسون الصعداء · ولقد حاول خليفته ، السير هاج فوت ، وقت استلامه السلطة ، أن يعيد التفاهم ، الذى كان قد انقطع منذ شهور طويلة ، بين السلطات البريطانية وبين أهالى قبرص ومنذ وصوله ، وعد بأن يبحث حالة المعتقلين فى معسكرات الاعتقال ، وأن يطلق سراحهم تدريجيا · وكان أكثر دبلوماسية من سابقه ، وسرعان ما فهم أنه لا يمكنه أن ينجح دون أن يعمل أولا على ابعاد مناخ عدم الثقة ، الثقيل ، والذى كان يخيم على الأهالى اليونانيين ، ويضع حدا للاتهامات بالتعذيب ، تجاه المعتقلين· ومع ذلك فان مهمته لم تكن سهلة ، وذلك نتيجة لتصلب الأتراك ، ولموقف بعض الوزراء البريطانيين ضد رئيس الأساقفة مكاريوس · وكان القبارصة الأتراك ، وبخاصة بعد أن أيدهم نظام هاردينج ، غير مستعدين للتنازل عن مصالحهم · وكانت مقابلة حاكم قبرص ، مع وزير خارجية تركيا ، فى أنقرة ، فى شهر فبراير ١٩٥٨ ، تمثل فشلا واضحا · أما القبارصة اليونانيون ، والذين شجعتهم وعوده ، فانهم استمروا فى المطالبة بالغاء حالة الطوارىء ، واطلاق سراح المعتقلين ، وعودة البطريرك ·

وفى أثناء صيف عام ١٩٥٨ وقعت أحداث خطيرة بين القبارصة الأتراك، والقبارصة اليونانيين · ذلك ان بعض القبارصة اليونانيون من سكان القرى تعرضوا ، فى أثناء عودتهم لقراهم ، لهجوم قام به بعض القبارصة الأتراك ، وذلك قرب نيقوسيا ، كما تم احراق بعض المساكن وبعض الكنائس اليونانية· وأدى ذلك الى اصدار الأوامر بمنع التجول فى نيقوسيا ، وفى القرى الأخرى· وقامت السلطات بالقاء القبض على ما يزيد على ٢٠٠٠ر٢ قبرصى يونانى ، ووضعتهم فى معسكرات الاعتقال ، تفاديا لقيامهم بأعمال انتقامية ·

وفى ذلك الوقت ، أعلن ماكميـــلان ، رئيس وزراء بريطانيا ، خطته من أجل ايجاد حل مؤقت لمشكلة قبرص · وكانت النقط الرئيسية فيه تنص على فترة سبع سنوات ، تظل خلالها جزيرة قبرص تحت السيطرة البريطانية،

مع نوع من الاستقلال الذاتى المحلى • أما المجلس التنفيذى ، الذى يرأسه الحاكم الانجليزى ، فيضم اربعة وزراء من القبارصة اليونانيين ، ووزيرين من القبارصة الأتراك • ويكون هناك مجلسان منفصلان : الأول للأغلبية من القبارصة اليونانيين ، والثانى للاقلية من القبارصة الأتراك ، ويختص كل منهما بشئون طائفته • أما الوضع المقبل للجزيرة فلا يمكن دراسته الا بعد انقضاء فترة السبع سنوات •

ولقد رفض القبارصة اليونانيون هذا المشروع ، كما أن رئيس الاساقفة ، بعد استشارته لعمد الجزيرة ، ولأعضاء المجلس ، رفضه كذلك •

وتدخل المستر سباك ، السكرتير العام لحلف شمال الاطلنطى ، ولكن هذا التدخل لم يؤد الى أية نتيجة • أما اليونان ، فانها رفضت ، وبناء على اصرار رئيس الأساقفة مكاريوس ، أن تشترك فى المؤتمر الذى اقترحوه من أجل مناقشة المشروع الانجليزى والتعديلات التى اقترح المستر سباك ادخالها عليه • وفضلت أن تطلب ، من جديد ، عرض المشكلة على الامم المتحدة •

٢ — اتفاقيات زيوريخ ولندن (فبراير ١٩٥٩) :

أدى التجاء اليونان الى الامم المتحدة الى صدور قرار ، من الجمعية العمومية ، بالرغبة فى رؤية « الاطراف المعنية تستمر فى بذل جهودها ، من أجل الوصول الى حل سلمى ، وديمقراطى ، وعادل ، طبقا لميثاق الأمم المتحدة » •

ومع ذلك ، فان الحالة ظلت فى قبرص فى منتهى الخطورة ، وبشكل جعل كل البناء الدفاعى لحلف شمال الاطلنطى مهددا بالخطر ، بسبب سوء العلاقات بين اليونان ، وبين تركيا • وفى ذلك الوقت ، قررت الولايات المتحدة الأمريكية ضرورة العمل على التقارب بين اليونان وتركيا • ونحت ضغطها ، وبنية البحث عن حل لمشكلة قبرص ، قام المندوبون اليونانيون والمندوبون الاتراك ، فى شهر ديسمبر ١٦٥٨ ، بأول اتصالات دبلوماسية • وبعد تبادل وجهات النظر الأولية ، على أساس استقلال جزيرة قبرص ، واستبعاد أمر اتحادها مع اليونان ، وكذلك أمر تقسيمها بين اليونانيين والاتراك ، اتفق وزيرا خارجية اليانون وتركيا على استمرار محادثاتهما فى أثينا ، وفى أنقرة •

وفى يوم ٥ فبراير ١٩٥٩ ، وبعد اتصالات دبلوماسية عديدة ، تقابل رئيسا الوزراء ، التركى واليونانى ، ومعهما وزيرا الخارجية ، فى زيوريخ ، من أجل تسوية تفاصيل حل المشكلة • وبعد جلسات طويلة وصعبة ، استمرت مدة ستة أيام ، اتفقوا أخيرا ، يوم ١١ فبراير ، ووقعوا على الوثائق التى تنشىء البنيان الأساسى لجمهورية قبرص ، وتقسم الوظائف الادارية والحكومية بين القبارصة الأتراك والقبارصة اليونانيين فى الجزيرة •

ولقد اتفقوا فى نفس الوقت على أن تحتفظ بريطانيا العظمى ، بالقواعد العسكرية فى قبرص ، ووقعوا على مشروعات لمعاهدة للضمانات ، وعلى معاهدة تحالف بين بلادهم وجمهورية قبرص المقبلة • وفى نفس اليوم ذهب أفيروف وزورلو ، وزيرا خارجية اليونان وتركيا ، بالطائرة الى لندن ، لعرض الاتفاق على الحكومة البريطانية •

ولقد أعلن أفيروف ، عند وصوله الى العاصمة البريطانية ، أن الاتفاق الذى عقد يسوى الخلافات بين حكومتى أثينا وأنقرة بشكل نهائى • ولقد كان اتفاقا يقوم على أساس التوافق ، والحل الوسط ، وصلوا اليه رغم الصعوبات الضخمة • ووجدت الحكومة البريطانية نفسها أمام الأمر الواقع ، بهذا الاتفاق اليونانى التركى ، فلم تتمكن من التراجع ، واضطرت الى الموافقة عليه ، بعد ابداء بعض التحفظات بشأن القواعد البريطانية ، والتسهيلات فى أمور المواصلات مع داخل الجزيرة ، واستخدام مطار نيقوسيا ومطار فماجوستا •

وفى ١٥ فبراير ١٩٥٩ ، قدم رئيس وزراء المملكة المتحدة دعوة ، الى زميليه ، اليونانى والقبرصى ، للحضور الى لندن ، للمشاركة فى المؤتمر الذى سيقرر التسوية النهائية لمشكلة قبرص • ومن جانبهما ، قامت اليونان وتركيا ، بدعوة رئيس الأساقفة مكاريوس ، وكذلك كوجوك ، ومستشاريهما ، لكى يوقعوا على الاتفاق باسم طوائفهما • وفى يوم ١٩ فبراير ١٩٥٩ تم التوقيع على الوثائق الخاصة بميلاد الدولة الجديدة فى لانكستر هاوس ، من جانب رؤساء وزراء بريطانيا وتركيا واليونان ، وقبلها رئيس الأساقفة مكاريوس ، بطريرك قبرص ، نيابة عن القبارصة اليونانيين ، وكوجك كممثل للقبارصة الأتراك •

وكانت الاتفاقيات التى تم التوقيع عليها تشتمل على :

أولا : وثيقة أساسية بشأن جمهورية قبرص ،

ثانيا : معاهدة ضمانات ، بين قبرص من ناحية ، واليونان ، والمملكة المتحدة ، وتركيا من ناحية أخرى ،

ثالثا : معاهدة تحالف بين قبرص ، واليونان ، وتركيا ،

رابعا : اعلان من جانب الحكومة البريطانية ، بشأن القواعد العسكرية وضمان سلامتها ، من جانب اليونان ، وتركيا ، وجمهورية قبرص ،

خامسا : تشكيل ثلاث لجان تكلف باعداد :

أ — دستور الجمهورية ٠

ب — شروط نقل السلطات ٠

جـ — الاحتفاظ بالسيادة البريطانية على القاعدتين العسكريتين البريطانيتين فى قبرص ٠

ولقد نصت هذه التسوية على أنه لا يجوز ، بأى حال من الأحوال ، أن تزيد الفترة الانتقالية ، الخاصة بنقل السلطات ، بما فى ذلك وضع الدستور وتطبيقه ، على اثنتى عشر شهرا ، ابتداء من يوم ١٩ فبراير ١٩٥٩ ٠

٣ — الجمهورية :

حين وصلت أنباء التوقيع على الاتفاقيات الى قبرص ، ساد الفرح ، وزينت المدن والقرى بالزهور وبالأعلام ٠ واحتفل الشعب ، فى فرحته ، بالافراج عن ٢٫٠٠٠ معتقل ، كانوا محتجزين فى معسكرات الاعتقال ، وخروجهم ، ولقد ساروا فى موكب شعبى حتى كاندرائية نيقوسيا ٠ وفى يوم أول مارس ١٩٥٩ ، قام أكثر من مائتى ألف شخص ، مجتمعين فى نيقوسيا ، باستقبال مكاريوس ، رئيس الأساقفة ، بكل حماس ، حين عودته الى جزيرة قبرص ، بعد نفى استمر لمدة ثلاث سنوات ٠

ومع ذلك ، فان الفترة الانتقالية لم تكن أقل صعوبة من عملية ميلاد جمهورية قبرص ٠ فلقد تبع اتفاقات لندن مفاوضات طويلة بشأن امتداد اتساع القواعد العسكرية البريطانية ، على الساحل الجنوبى للجزيرة ٠ وحتى يوم ١٩ فبراير ١٩٦٠ ، وهو اليوم المحدد لاعلان الجمهورية ، لم يكن هناك أى شىء تمت تسويته سوى انتخاب رئيس الأساقفة مكاريوس رئيسا للجمهورية ، وكوچك نائبا للرئيس ٠ ولقد استمرت المفاوضات بين الرئيس المنتخب وبين الانجليز حتى شهر مايو ، وهو الوقت الذى تمت فيه أخيرا الموافقة على الدستور ، وتمت فيه تسوية مسألة امتداد اتساع القواعد العسكرية البريطانية ٠

٤ ـ دستور جمهورية قبرص :

تتمثل النصوص الاساسية لدستور جمهورية قبرص فيما يلي : ـ

أولا : دولة قبرص جمهورية ، ذات نظام رئاسي ، يكون رئيسها يونانيا ، ونائب الرئيس تركيا ، يتم انتخاب كل منهما على التوالي بواسطة الطائفتين اليونانية والتركية في الجزيرة ، بنظام الانتخاب العام ، ولفترة خمس سنوات .

ثانيا : يشرف على السلطة التنفيذية الرئيس ، ونائب الرئيس ، ويعاونهما مجلس وزراء ، يتكون من سبع وزراء يونانيين ، وثلاث وزراء أتراك .

ثالثا : اللغات الرسمية هي اللغة اليونانية واللغة التركية .

رابعا : يمارس السلطة التشريعية مجلس للنواب ، يتكون من خمسين نائبا ، منهم خمسة وثلاثون من اليونانيين ، وخمسة عشر من الأتراك .

خامسا : يكون للرئيس ولنائب الرئيس ، بشكل منفصل ، وسويا ، حق الاعتراض النهائي على كل قانون أو قرار يتعلق بالشئون الخارجية ، الا ، فيما يتعلق بمشاركة جمهورية قبرص في المنظمات الدولية ، ومواثيق التحالف . والتي تكون اليونان وتركيا كلاهما أعضاء فيها ، وبشئون الدفاع والأمن .

سادسا : يكون لكل طائفة مجلسها الطائفي ، يتكون عدد من الممثلين تقوم هي نفسها بتحديده . ويكون من حق المجالس الطائفية فرض الضرائب والرسوم الشخصية على أعضاء طائفتها ، وتكون مختصة في كل المسائل الدينية ، وسائل التربية ، والثقافة والتعليم ، وكذلك في الأحوال الشخصية .

سابعا : تتكون الادارة من ٧٠٪ من اليونانيين ، ٣٠٪ من الأتراك .

ثامنا : سيكون للجمهورية جيش من ٢٠٠٠ر٢٠ رجل ، يكون ٦٠٪ منهم يتحدثون اليونانية ، ٤٠٪ يتحدثون التركية .

تاسعا : يتم انشاء بلديات منفصلة في الخمس مدن الكبرى ، بواسطة السكان اليونانيين ، وبواسطة السكان الأتراك في هذه المدن .

عاشرا : يتم عقد معاهدة ، تضمن الاستقلال ، وسلامة الأراضى ، والدستور ، بين جمهورية قبرص ، واليونان ، والمملكة المتحدة ، وتركيا • ويتم كذلك عقد معاهدة دفاع عسكرى بين جمهورية قبرص ، واليونان ، وتركيا •

حادى عشر : أمور الاتحاد الكامل ، أو الجزئى ، لقبرص مع أية دولة ، أو الاستقلال الانفصالى ، ممنوعة •

ثانى عشر : تمنح جمهورية قبرص معاملة الدولة الأكثر ودا للمملكة المتحدة ، ولليونان ، وتركيا ، ولكل الاتفاقات ، مهما كان نوعها •

ثالث عشر : تتكون المحكمة العليا من اثنين من اليونانيين ، وأحد الأتراك ، وأحد المحايدين •

رابع عشر : القوانين والقرارات التى يعتبرها الرئيس أو نائب الرئيس على أنها تميز احدى الطائفتين على الطائفة الأخرى ، تعرض على محكمة عليا دستورية ، يمكنها أن تنقض ، أو تصدق أو تعيد مثل هذا القانون أو هذه القرارات الى مجلس النواب •

خامس عشر : فى حالة عمل اصلاح زراعى ، لا يترك توزيع الأراضى الا على أشخاص من نفس الطائفة التى يكون منها الشخص الذى نزعت ملكيته •

وبعد انتخاب أعضاء مجلس النواب ، فى شهر يوليو، تحدد موعد اعلان الجمهورية بيوم ١٦ أغسطس ١٩٦٠ • وانتهى الحكم البريطانى على جزيرة قبرص عند منتصف ليل ١٥ أغسطس • وبعد بضع دقائق استلم رئيس الأساقفة ، مكاريوس ، رسميا ، وأمام ممثلى الشعب ، سلطانه كأول رئيس للجمهورية • ودخلت قبرص فى شهر سبتمبر عضوا فى الأمم المتحدة ، ثم انضمت فى شهر مارس ١٩٦١ الى مجموعة الكومنولث البريطانى •

معاهدة الضمان وتاثيرها على الأوضاع فى قبرص

اضطرت بريطـانيا ، بعد تطور الأوضاع فى الجزيرة الى منحهـا (١)، الاستقلال وذلك فى عام ١٩٥٩ بالاشتراك مع اليونان وتركيا ، طبقا لمعاهدة زيوريخ عام ١٩٥٩ (٢) ولندن عام ١٩٦٠ ٠

وفى ١٧ فبراير ١٩٥٩ كان قد عقد مؤتمر آخر بين رؤساء وزارات بريطانيا واليونان وتركيـا والرئيس مـكاريوس ممثل قبرص وقتئذ وتمت الموافقة على النقاط التالية :

١ ـ اعتبار مؤتمر زيوريخ قاعدة أساسية لتسوية المشكلة القبرصية٠

٢ ـ عقد معاهدة تضـامن بين بريطانيا وتركيا واليونان وجمهورية قبرص ٠

٣ ـ عقد تحالف بين اليونان وتركيا وقبرص ٠

٤ ـ السـماح لبريطانيا بامتلاك قواعد عسـكرية فى منطقتين من الجزيرة ٠

١ ـ معاهدة الضمان سنة ١٩٦٠ : ـ

فى ١٦ اغسطس ١٩٦٠ تم التوقيع على معاهدة الضمان فى نيقوسيا بين جمهورية قبرص من جهة وبريطانيا واليونان وتركيا من جهة أخرى ، ووفقا لهذه المعاهدة ضمنت هذه الدول استقلال قبرص وسلامتها ، وأهم ما جاء فيها :

---

(١) حمدى حافظ ، المشكلات العالمية المعاصرة ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ص ص ٤٣٨ ـ ٤٥٥ ٠

Zurich Agreement to Independent", in : the World Today, Vol. 10, No. 12 December 1960, p. 531.

أولا : تتولى جمهورية قبرص صيانة استقلالها ووحدتها الاقليمية وأمنها وكذلك أحترامها لدستورها . وتعهد بعدم اشتراكها كليا أو جزئيا فى أى اتحاد سياسى أو اقتصادى مع أى دولة كانت ، ووفقا لذلك فانها تعلن منع أى نشاط من شأنه أن يشجع بصورة أو بأخرى الاتحاد مع أى دولة أخرى أو تقسيم الجزيرة .

ثانيا : تتعهد اليونان وتركيا وبريطانيا بضمان استقلال الجمهورية القبرصية الذى قررته المادة الأولى من المعاهدة الحالية وتضمنت الاستقلال والسلامة الاقليمية وأمن الجمهورية القبرصية والذى قررته المواد الأساسية فى الدستور . وتتعهد هذه بمنع أى نشاط مباشر أو غير مباشر يهدف الى اتحاد قبرص مع أى دولة أخرى أو تقسيم الجزيرة .

ثالثا : تتعهد الجمهورية القبرصية واليونان وتركيا على احترام المناطق الواقعة تحت السيادة البريطانية منذ تأسيس الجمهورية القبرصية وضمان استخدام وتمتع بريطانيا بجميع حقوقها فى الجزيرة .

رابعا : فى حالة خرق نصوص هذه المعاهدة تتعهد اليونان وتركيا والمملكة المتحدة بالتشاور معها لضمان مراعاة هذه النصوص .

خامسا : تصبح المعاهدة سارية المفعول من تاريخ التوقيع عليها .

وتجدر الاشارة الى أنه قد وقعت فى نفس الفترة معاهدة التحالف(٢) بين اليونان وتركيا وجمهورية قبرص فى نيقوسيا فى ١٦ أغسطس ١٩٦٠ وكانت أهم نقاطها ما يلى :

١ — تتعهد الاطراف المتعاقدة بالتعاون للدفاع المشترك والتشاور معا للمشاكل التى يتطلبها هذا الدفاع .

٢ — تتعهد الاطراف المتعاقدة بمقاومة أى هجوم أو عدوان مباشر أو غير مباشر لاستقلال أو الوحدة الاقليمية للجمهورية القبرصية .

---

(٢) The Turkish Year Book of International Relations 1963, pp. 298 - 302.

٣ ــ تنشأ قيادة عليا ثلاثية فى الجمهورية القبرصية لتحقيق الهدف من هذا التحالف ٠

٤ ــ يتولى القيادة العليا الثلاثية بالتناوب لمدة عام واحــــد : ضابط يونانى وتركى وقبرصى ٠

٥ ــ تصبح هذه المعاهدة سارية المفعول من تاريخ التوقيع عليها ٠

وقد اعتبرت تركيا أن هذه المعاهدات هى الأساس الملائم والسليم لتنظيم العلاقة بين الطائفتين التركية واليونانية ، كما اعتبرت تركيا أن معاهــدة الحماية الموقعة وفقا لهاتين الاتفاقيتين تمثل ضمانا لها من جانبها فى مواجهه أى عدوان من جانب القبارصة اليونانيين أو اليونان نفسها ٠ غير ان تركيا فى الفترة التالية للصراع اخذت تنادى بتقسيم الجزيرة ، أما اليونان فكانت تهدف الى ضم الجزيرة لها فى حين ان الجمهورية القبرصية أرادت ان تبقى مستقلة ٠

٢ ــ تاثير معاهدة الضمان على أوضاع قبرص :

ولقد رحبت الحكومة اليونانية بالاتفاقية لما لها من أثر فى تخفيف حدة النزاع الذى استمر سنوات طويلة خاصة وان الأسقف مكاريوس وافق عليها، ونصت هذه المعاهدة والتى صدقت عليها كل من بريطانيا واليونان وتركيا ــ على ضمان استقلال الجزيرة بشرط ضمان وجود قــــاعدتين استراتيجيتين لبريطانيا فى قبرص ٠ ويرى اندرياس باباندريو فى كتابه(٣) Democracy at the Gunpoint بانه على الرغم من أن بريطانيا كانت واثقة من أنها ستجلو يوما من جزيرة قبرص الا انها كانت تحرص على الابقاء على قاعدة عسكرية فى الجزيرة لمواجهة النواجد العسكرى السوفيتى(٤) ولحماية مصالحها فى الشرق الأوسط ، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا تحرص على عدم قيام وحدة بين اليونان وقبرص لأن هذه الوحدة ستقلب ميزان القوى فى منطقة البحــر المتوسط ٠

---

(٣) Papandreou, Andreas : Democracy at Gunpoint "The Great Front" Penguin Books with Andre Deutsch, 1973 pp. 130-140.

(٤) راجع ٠ دكتور اسماعيل صبرى مقلد ، الوجود السوفيتى فى البحر المتوسط ، فى : السياسة الدولية ــ القاهرة ، العدد ٤٨ ، ابريل ١٦٧٧ ص ص ٦ ــ ٢٥

ونصت المعاهدة على الإعتراف بوجود جماعتين هما الجماعة اليونانية التى تضم القبارصة من أصل يونانى ولهم لغتهم ولهم حق ممارسة شعار الديانة الأرثوذكسية ، والجماعة التركية التى تضم القبارصة من أصل تركى ولهم لغتهم التركية وتقاليدهم المنبثقة من الاسلام ، وان يختار رئيس الجمهورية من بين الجالية اليونانية ، أما نائب رئيس الجمهورية فيكون من بين الجالية التركية ، وتكون العلاقة بين الرئيس ونائبه ، ليست مثل النظام الرئاسى المتبع فى الولايات المتحدة الامريكية حيث يتولى نائب الرئيس السلطة فى حالة وفاة الرئيس أو عدم قدرته ، وانما نص الدستور القبرصى على أنه فى حالة وفاة الرئيس أو عجزه فان مهامه يتولا معا الرئيس ونائب الرئيس فى المجلس النيابى المنتخب (المادة ٣٦ من الدستور القبرصى) ، وهو ما يوضح طبيعة نظام الحكم فى قبرص من أن اختيار رئيس الجمهورية يتم مستقلا عن نائب الرئيس ، فالرئيس ينتخب بواسطة القبارصة اليونانيين ونائب الرئيس ينتخب بواسطة القبارصة الاتراك وسلطات كل منهما تتم بالتعاون والتنسيق حيث يقوم الرئيس بانتخاب سبعة من الوزراء ، ويقوم نائب الرئيس بانتخاب ثلاثة من الوزراء (المادتين ٤٨ ، ٤٩ من الدستور القبرصى) ، ويكون لكل من الرئيس ونائبه سلطة الاعتراض على القرارات التى يتخذها مجلس الوزراء فيما يخص الشئون الخارجية والدفاع والامن (المادة ٥٠ من الدستور القبرصى) .

أما المجلس النيابى فيتكون من ٥٠ عضوا ينتخب القبارصة اليونانيون ٧٠٪ منه وينتخب القبارصة الاتراك ٣٠٪ منه ، ويتولى رئاسة هذا المجلس أحد القبارصة اليونانيين ، ويكون نائبه من القبارصة الاتراك ، وقد تعهدت الاطراف الثلاثة (اليونان وتركيا وبريطانيا) بتنفيذ دستور سنة ١٩٦٠ وان أى تعديل فيه يجب أن يتم بناء على موافقة جميع الاطراف المعنية ، وقد نصت معاهدة الضمان التى وقعتها كل من بريطانيا واليونان وتركيا عام ١٩٦٠ على أن هذه الدول الثلاثة تضمن سلامة واستقلال الجزيرة وسلامة أراضيها وبالتالى يكون من حقها أن تتخذ اجراء يتم تنسيقه بينها أو تقوم به احدى هذه الدول عقب مشاورات مسبقة بين الدول الضامنة لاستعادة الوضع الراهن فى دستور الجمهورية القبرصية ، ورغم هذا الاستقلال فان التوتر والصراع بين القبارصة اليونانيين والقبارصة الاتراك قد استمر .

وعموما فان هناك ملامح رئيسية للمراحل التى مرت بها المشكلة القبرصية منذ ظهورها على مسرح السياسة الدولية ، سواء قبل استقلال الجزيرة أو فى الفترة اللاحقة للاستقلال مباشرة .

ويمكن ابراز هذه الملامح ـ وخاصة تجاه وجهتى النظر المختلفتين . اليونانيين القبارصة والاتراك القبارصة ، وعلى صعيد الصراع الطائفى ، وفى ردود الفعل المختلفة عن الدستور والمطالبة بتعديله ـ يمكن ابراز ذلك فى التفسيرات الآتية :

ان هذه الفترة قد اتسمت بأن السبب الأساسى فى الصراع الطائفى انما هو العرض الذى كان قد تقدم به منذ أكثر من عشر سنوات (٥) مضت ـ ، بول ـ ملك اليونان الى الحاكم البريطانى من أجل اقامة اتحاد مع قبرص وعلى الرغم من رفض بريطانيا لهذا الاقتراح ، الا أن مكاريوس أعلن وقتئذ ـ أى فى عام ١٩٥٠ ـ أن ٩٥٫٦ فى المائه من القبارصه يفضلون الاتحاد مع اليونان ، ثم تكونت المنظمات السرية ، وعلى رأسها منظمة « ايوكا » للكفاح من أجل الانضمام الى اليونان ـ union with Greece مما دفع الاتراك القبارصة الى اعلان معارضتهم لهذا الاتحاد أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فضلا عن مطالبتهم بتقسيم الجزيرة التى يشكلون ١٨ فى المائة من سكانها ، بينهم وبين اليونانيين القبارصة ، أى أن رفع شعار الاتحاد مع اليونان ، كانت له اثار تراكمية على المشكله الطائفية . وتشدد الاتراك القبارصة فى ضرورة وجود نوع من الاستقلال الذاتى لهم ، وجاءت اتفاقيتا زيورخ ولندن الموقعتان فى فبراير ١٩٥٩ لتنظما العلاقة بين الجانبين داخل قبرص ، بالاضافة الى تنظيم علاقة قبرص بكل من بريطانيا وتركيا واليونان اذ بمقتضاها تم اعلان استقلال قبرص فى أغسطس ١٩٦٠ .

وعلى الرغم من أن اتفاقيتى زيورخ ولندن كانتا الأساس فى اعلان استقلال قبرص وتنظيم العلاقة بين الجانبين اليونانى والتركى داخل قبرص ، وكذلك علاقتها فى مواجهة الدول الثلاث المعنية بها ، الا انها كانت السبب الاساسى فى تفجر الحوادث الدامية بين الطائفتين ، وتوتر العلاقات بين كل من تركيا من جانب ، واليونان وقبرص من جانب آخر ، منذ عام(٦) ١٩٦٣ .

٣ ـ وجهة نظر اليونانيين القبارصة :

(أ) ترى وجهة نظر اليونانيين القبارصة أن هاتين الاتفاقيتين قد

---

(٥) كان ذلك على وجه التحديد فى ٢٧ يوليو ١٩٤٧ .

(٦) راجع فى تفصيل ذلك : Nicos Karanidiotis "The Cyprus Problem" G.M. Michalas S.A. Press 1975, Athens.

أجحفتا بحقوقهم لصالح الاتراك القبارصة فبينما تبلغ نسبة هؤلاء ١٨ فى المائة من السكان ، الا أنهم حصلوا على نسبة تختلف كثيرا عن حجمهم ، الا وهى ٣٠ فى المائة فى الخدمات المدينة ، وعلى نفس النسبة فى المقاعد البرلمانية، بالاضافة الى ٤٠ من المائة فى الجيش والشرطة ، وتعيين نائب رئيس للجمهورية من الاتراك مع تمتعه بحق الاعتراض مثل رئيس الجمهورية ، على أى قانون أو اقرار يتعلق بالشئون الخارجية أو الدفاع أو الأمن •

(ب) يرى القبارصة اليونانيون أيضا أن هذه الاتفاقيات فرضت عليهم وأنهم لم يشتركوا فى وضعها ، وبالتالى يمتد انتقادهم الى الدستور الذى وضع طبقا لهما وخاصة فيما يتعلق بمعاهدة الحماية الموقعة بين قبرص وكل من بريطانيا واليونان وتركيا •

وقد عبر الرئيس مكاريوس عن هذا المعنى فى التصريحات التى أدلى بها فى يوليو ١٩٦٣ فأوضح أن جمهورية قبرص نشأت من اتفاقيتى زيورخ ولندن ، ولكن مستقبلها يجب أن يتحدد طبقا لارادة شعبنا ، وبالتالى يجب أن يعدل الدستور بحيث تلغى المواد التى لا يمكن تنفيذها ، وبالفعل تقدم فى ٣ نوفمبر عام ١٩٦٣ — ثلاثة عشر اقتراحا الى نائب رئيس الجمهورية القبرصى لتعديل بعض مواد الدستور •

٤ — وجهة نظر الاتراك القبارصة :

(أ) انصرفت وجهة نظر الاتراك القبارصة الى أن هاتين الاتفاقيتين تمثلان الأساس الملائم والسليم لتنظيم العلاقة بين الطرفين ، كما أنهما تقدمان أسس أية تسوية مستقبلة لمشكلة قبرص •

(ب) ان اتفاقية زيورخ قد نصت صراحة على استبعاد الاتحاد الكلى والجزئى لقبرص مع أية دولة أخرى ، أو انقسامها الى دولتين • وبالتالى يرى القبارصة الاتراك ، ان من حقهم المطالبة بالانفصال والاستقلال الذاتى ، فى مواجهة رفع القبارصة اليونانيين لشعار الاتحاد مع اليونان •

(ج) ان معاهدة الحماية الموقعة طبقا لهاتين الاتفاقيتين تمثل ضمانا لهم من جانب تركيا فى مواجهة أى عدوان من جانب القبارصة اليونانيين أو اليونان نفسها • ولتلافى هذا الاختلاف فى وجهات النظر ، وحسما للاشتباكات التى نشبت بين الطائفتين ، فان مجلس الأمن قد رأى أن تتضمن مقدمة قراره الصادر فى ٤ مارس ١٩٦٤ الاشارة الى معاهدة الضمان الموقعة عام ١٩٦٠ ،

بالاضافه الى المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة التى تقضى بامتناع الدول الأعضاء عن التهديد أو استخدام القوة فى مواجهة دولة أخرى ٠

وقد نص هذا القرار على ارسال قوات دولية لحفظ السلام لفترة ثلاثة شهور ، بالاضافة الى تعيين مبعوث دولى ٠ وقد وقع الاختيار على السفير الفنلندى لدى السويد أولا ، ثم دكتور « جالو بلازا » من اكوادور بعد ذلك ، والملاحظ أن هذه الفترة قد تميزت بالنشاط الدولى الواضح من أجل ايجاد حل لمشكلة قبرص عن طريق قوات المنظمة الدولية وليس عن طريق قوات تابعة لحلف شمال الاطلنطى كما اقترحت الحكومة الامريكية ٠

حلف شمال الاطلنطى ومشكلة قبرص

١ — الولايات المتحدة وتركيا والمشكلة :

ارتبطت قضية قبرص باثنين من أعضاء حلف شمال الاطلنطى وهما تركيا واليونان ، غير أن هذا الحلف لم يتمكن من البت فى فض هذا النزاع ، كما أن مجهودات الأمم المتحدة قد فشلت هى الاخرى فى ايجاد حل لهذه المشكلة ، ولم يكن هناك أى تغيير فى وجهة نظر تركيا تجاه حلف الاطلنطى قبل انفجار الحوادث فى قبرص فى عام ١٩٦٣ ، كذلك فان العلاقات التركية الامريكية كانت قد تأثرت الى حد ما بالتغير النسبى فى تركيا عام ١٩١١ ، بعد صدور قانون الحريات من قبل المجلس الوطنى التركى ، الذى سمح للافكار اليسارية بابداء رأيها على الصعيدين الداخلى والخارجى .

أما من حيث العلاقة بين تركيا واليونان ، فقد كانت طبيعية[١] قبل انفجار الحوادث فى جزيرة قبرص . الا أن هذه العلاقات لم تدم طويلا نتيجة لقرار الرئيس مكاريوس بتعديل دستور عام ١٩٦٠ . وعقب ذلك صرح عصمت انيونو رئيس الوزارة التركية وقتئذ قائلا : « ان هذا القرار يخالف معاهدتى زيوريخ ولندن ، وان تركيا سوف تأخذ على عاتقها حماية الاتراك فى الجزيرة . وأضاف قائلا : « ان تركيا لا تلجأ الى التدخل العسكرى قبل المشاورة والمناقشة مع الدول الضامنة للاتفاقيات الدولية » .

كذلك فقد اقترح انيونو انشاء نظام فيدرالى لادارة الجزيرة ، وأشار الى اخفاق معاهدة لندن قائلا : « ان هذه المعاهدة غير ملائمة فى الوقت الحاضر لأنها وجدت قبل اشاعة السلام والأمن فى الجزيرة ، وان الحكومة التركية تؤيد شرعية المعاهدات الدولية التى أوجدت جمهورية قبرص وان المعاهدات الدولية لا يمكن ابطالها من جانب واحد » .

---

(١) ويمكن قياس هذه العلاقات الطيبة بين تركيا واليونان من تصريحات المسئولين وقتئذ ، وعلى سبيل المثال فقد أعلن الجنرال جودت سوناى رئيس الأركان العام فى مؤتمر حلف شمال الأطلنطى وقتئذ فى أنقرة فى مارس ١٩٦٣ بان تركيا واليونان تسيران سويا معا على طريق الحرية . راجع فى تفصيل ذلك .
The Turkish Year book of International Relations 1963, p. 312.

أما رد فعل بريطانيا على ذلك فقد جاء فى صورة ارسالها فرقة عسكرية تعزيزا لقواتها فى قبرص ، وصرح رئيس وزراء بريطانيا قائلا : « ان تدخل بريطانيا فى المشكلة القبرصية هو لمنع انفجار الحرب بين تركيا واليونان ، وان بريطانيا غير مستعدة لتحمل هذا العبء مدة طويلة » • وفى نفس الوقت أرسلت بريطانيا مذكرة الى مجلس الأمن للاجتماع فورا لبحث هذا الموقف ، وقد خاطب يوثانت كلا من اليونان وتركيا وقبرص لمنع أى عمل من شأنه أن يؤدى الى نشوب الحرب ، وقال رئيس الوفد التركى فى لندن أن الرئيس مكاريوس تبنى وجهة نظر الجانب اليونانى فى قبرص ، وأنه فى حالة انسحاب القوات الضامنة لاستقلال الجزيرة ، فان الشيوعيين هم الذين سيسيطرون على الموقف فيها ، خاصة وان ٣٧٪ من اليونانيين فيها ينضمون تحت لواء الحزب الشيوعى ، فان قبرص مهددة بأن تكون كوبا ثانية(٢) •

وبناء على طلب تركيا ، عقد مجلس حلف شمال الأطلنطى اجتماعا فى لاهاى فى شهر مارس ١٩٦٤ ، وأعطى مجلس الحلف تعليماته الى سكرتير عام الحلف بأن يبذل مساعيه الحميدة للتخفيف من حدة الحرب بين اليونان وتركيا بشأن جزيرة قبرص ، وعقب زيارته لكل من اليونان وتركيا ، صرح سكرتير عام حلف شمال الاطلنطى قائلا : « ان جميع الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى ترى أنه يتعين على حكومتى اليونان وتركيا أن تؤيد وساطة الأمم المتحدة فى قبرص ، وان على الحكومتين أن تدركا بأن الخلاف القائم بينهما يضع الحلف فى موقف خطير فى منطقة حيوية له » •

وفى بيان مجلس الحلف ، احالت الدول الأعضاء قضية قبرص الى هيئة الأمم المتحدة ، وجاء فى بيان الحلف ما يلى : « ان دول حلف شمال الاطلنطى ستكلل جهودها لحسم الخلاف بين الأطراف المتنازعة فى الحلف ، وفقا للمادة الأولى من معاهدة الحلف ، وقرار مجلس وزراء الحلف فى عام ١٩٥٦ فى فض المنازعات بين الدول الأعضاء » (٣) • ومما يجدر ذكره بهذا الخصوص أن نفس المادة الأولى من حلف شمال الأطلنطى قد نصت على أن : « تتعهد أطراف

---

(٢) حمدى حافظ ، المشكلات العالمية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ — ٤٦٠ •

(٣) أحمد نورى النعيمى ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، دار الحرية للطباعة — بغداد — ١٩٧٥ ص ١٩٧٤ نقلا عن
The Turkish Year book of International Relations 1964, p. 213.

المعاهدة بما ورد فى ميثاق الأمم المتحدة بأن يعملوا على تسوية جميع المنازعات الدولية التى يكونون مشتركين فيها بطرق سلمية ، وبكيفية لا تؤدى الى تعكير صفو السلم أو الأمن الدوليين ، ولا تناقض مبادىء العدالة ، وان يمتنعوا فى علاقاتهم الدولية عن التهديد أو استعمال القوة بأية كيفية لا تتفق مع أغراض الأمم المتحدة » ، وهكذا عمل حلف شمال الاطلنطى فى هذه الفترة على أن تكون جهوده فى تسوية مشكلة قبرص متوافقة مع الجهود الرامية الى احالة هذه المشكلة الى الأمم المتحدة .

وفى اطار التطورات السياسية لمشكلة قبرص أيضا وقتئذ على صعيد حلف شمال الاطلنطى — فقد أرسل الرئيس الامريكى جونســـون مبعوثه الشخصى الى أنقرة فى فبراير ١٩٦٤ ، واتفق المبعوث الشخصى للرئيس الامريكى مع الرئيس عصمت انيونو على أن تتم المشاورة وتبادل الآراء فيما بين الدولتين (تركيا والولايات المتحدة) ، وكرر المبعوث الامريكى قرار حكومته بشأن حل القضية القبرصية . وصرح ويليام فولبرايت ، عضو الكونجرس الامريكى ، والذى كلف من قبل الرئيس الامريكى لتقصى الحقائق بين تركيا واليونان ، صرح قائلا : « أنه من المهم الذى لا شك فيه أن تنتهى أعمال العنف فى قبرص ، غير أن ذلك ليس جزءا من برنامج مهمتى ، بل ان برنامجى ينصب على علاقة دول حلف شمال الاطلنطى بهذا الموضوع » . وبعد مقابلة بين فولبرايت ورئيس الوزراء البريطانى أذيع بأن وزارة الخارجيــة الأمريكية أخذت تؤيد وجهة نظر اليونان فى قضية قبرص ثم زار فولبرايت تركيا وقابل رئيس وزرائها ، وأكد له بأن الكونجرس الامريكى ينظر قلق الى حلفاء وأصدقاء أمريكا ، الذين يهتمون بشئونهم الخاصة ولا يراعون السلم فى العالم الغربى ، وأشار فولبرايت الى أن الولايات المتحدة اقترحت ترحيل السكان الأتراك الموجودين فى جزيرة قبرص يهدف الحفاظ على السلم والأمن فى حوض البحر المتوسط . وقد أحدث هذا الطلب قلقا بالغا فى الأوسط التركية التى أجابت فولبرايت بأن الحل الذى تراه هو الفصل بين الجزء التركى والجزء اليونانى .

أما رد الفعل السوفيتى حول ذلك فقد جاء فى تصريح خروشوف ، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى وقتئذ ، بأن الدول الغربية هى التى وضعت قبرص فى حالة متأزمة ، لأن من مصلحة هذه الدول تحويل الجزيرة الى قاعدة ذرية .

وفى مـارس ١٩٦٤ زار عصـمت اينونو ، رئيس وزراء تركيـــــا

واشنطن ، واجتمع مع الرئيس جونسون ، وعقب الانتهاء من المحادثات صدر بلاغ مشترك جاء فيه : « يؤيد الطرفان تقوية الجهود المبذولة من قبل الأمم المتحدة لاعادة السلم والأمن فى الجزيرة ، ويؤكدان احترامها لجميع الاتفاقيات القائمة » ولنفس الغرض ، أرسل الرئيس جونسون مبعوثه الشخصى الى اليونان ، وقدم دين أتشيسون (المبعوث الشخصى) عدة اقتراحات لحل المشكلة القبرصية ، وقد جاء فى هذه الاقتراحات :

١ ـ اتحاد قبرص مع اليونان ·

٢ ـ ان تتخلى اليونان عن جزر الدوديكانيز لتركيا التى تعتبر قريبة لسواحل الأناضول التركية ·

٣ ـ تعيين قاعدة عسكرية تركية فى قبرص ·

٤ ـ تعويض القبارصة الاتراك الذين يغادرون الجزيرة أو يريدون البقاء فيها ·

غير أن الاشتباكات تجددت بين الطائفتين التركية واليونانية فى الجزيرة، فى منتصف مارس ١٩٦٤ ، وعلى أثر ذلك اجتمع وزراء خارجية الدول الأعضاء فى حلف شمال الاطلنطى فى لاهاى ، وصرح دين راسك عقب الاجتماع قائلا : « ان نشوب حرب بين اليونان وتركيا أمر مستبعد ،وان حلف شمال الاطلنطى لن يتدخل فى موضوع قبرص ، وان هذا الأمر متروك لهيئة الأمم المتحدة » وقد وافق وزيرا خارجية تركيا واليونان على أن يخص السكرتير العام لحلف شمال الاطلنطى بالمشكلة القبرصية ، فيما يتعلق بالمسائل المتعلقة بدول الحلف المتصلة بالمشكلة · وفى أواخر مارس أصدر مجلس النواب القبرصى قرارا بدعوة الرجال للخدمة العسكرية فى الحرس الوطنى ، لانشاء قوة مسلحة ، غير أن نائب الرئيس مكاريوس اعترض على هذا القرار مما دفعه

---

(٤) بقيت هذه الرسالة سرية حتى عام ١٩٦٦ عندما تسرب قسم منها الى الرأى العام عن طريق الصحافة التركية · راجع فى تفصيل ذلك .

— Ulman, A.H. & Dekejian, "Changing Patterns in Turkish = Foreign Policy 1959 - 1967", in : ORBIS. XI No. 3, 1967, University of Pensylvia, pp. 70 - 78.

راجع فى تفصيل ذلك : أحمد نورى النعيمى ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، مرجع سابق ص ص ١٧٩ ـ ١٨٢ ·

مكاريوس الى أن يعلن بأن الدستور لم يعد قائما وان نائبه أيضا لم يعد نائبا »، وعقب ذلك صرح رئيس وزراء تركيا قائلا : « ان دولتى ستحمى الأتراك القبارصة، اذ لم يتيسر الاحتفاظ بحقوقهم بالوسائل السلمية والاجراءات الدولية الجارى اتخاذها ، وان قرار التجنيد المذكــور مخالف لاتفاقات زيوريخ ولندن » • وعقب ذلك أصبحت القوات القبرصية فى حالة استعداد قصوى لمواجهة الأسطول التركى ، الذى كان مرابطا فى الاسكندرية على بعد ١٢٠ ميلا من قبرص • ونتيجة لذلك فقد دعا الرئيس جونسون رئيس وزراء تركيا الى واشنطن للتحدث معه ، كما دعا أيضا رئيس وزراء اليونان للغرض نفسه • غير أن الرأى العام التركى لم يكن راضيا عن هذه الدعوة ، لأنهم اعتبروها مؤامرة من الولايات المتحدة لمنعهم من التدخل لحماية معاهدتى زيوريخ ولندن » •

وفى نفس الوقت أبلغت الولايات المتحدة الامريكية كلا من الحكومتين التركية واليونانية بأن الحكومة الامريكية سوف تتخذ اجراءات معينة للحد من وقوع حرب بين دولتين من دول أعضاء حلف شمال الاطلسى ، وأعلنت بأنها سوف تضع الأسطول السادس الامريكى فى البحر المتوسط لمحاصرة الجزيرة • وازاء قرار تركيا بالتدخل فى الجزيرة ، فان الرئيس جونسون بعث برسالة الى عصمت اينونو رئيس وزراء تركيا فى ٥ يونيو ١٩٦٤ ، وقد اعتبرت هـذه الرسالة بمثابة وثيقة رسمية فى العلاقات التركية الأمريكية ، ونقطة تحول بين الدولتين منذ الحرب العالمية الثانية • وجاء فى رسالة جونسون ـ التى كشف النقاب عن جزء منها عام ١٩٦٦(٤) ـ جاء ما يلى : « ومن جهة أخرى أيها الرئيس ، فنحن مجبرون على أن نلفت أنظاركم الى التزاماتكم فى حلف شمال الاطلنطى ، ويجب أن تدركوا جيدا بأن التدخل فى قبرص سيؤدى الى وقوع حرب بين تركيا واليونان •• وان وزير خارجيتنا دين راسك قد أوضح فى اجتماع مجلس حلف شمال الأطلسى الأخير فى لاهاى : بأنه يجب فهم عدم وقوع حرب بين تركيا واليونان بكل معنى الكلمة •• ان الانضمام الى الحلف معناه عدم قبول فكرة الحرب بين الدول الأعضاء فيه ، وكما أن كلا من ألمانيا وفرنسا قد دفنتا بعضهما الذى دام قرنا من الزمن ، لالتزامها بحلف شمال الاطلنطى ، فيجب أن ينتظر نفس الشىء من تركيا واليونان ، وأضاف جونسون قائلا فى رسالته الى عصمت اينونو : « ان تدخلكم العسكرى فى جزيرة قبرص بدون موافقة الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى قد ينتج عنه تدخل سوفيتى فى المشكلة ، وبهذا الخصوص فان الدول الأعضاء فى الحلف سوف لا تدافع عن تركيا » •

وقد أجاب الرئيس اينونو على رسالة جونسون قائلا : « جاء فى قسم من رسالتكم بأنه نتيجة لتدخل السوفيت فى قبرص فان دول حلف شمال الأطلسى لا تدافع عن تركيا ، ولكن المبادىء الأساسية للحلف تخالف ماذهبتم اليه ، لانه فى حالة وقوع عدوان على أية دولة من الدول الأعضاء من الحلف فان الحلف سيكون مسئولا عن رد هذا العدوان » ٠ وجاء فى الرسالة أيضا قول اينونو لجونسون : « ٠٠ ولنبدأ من نهاية عام ١٩٢٦ ، فان وجوب التدخل العسكرى فى قبرص مع هذه المناسبة يكون للمرة الرابعة ، ومن البداية فقد تشاورنا معكم فى هذا الموضوع ، وعندما تجددت الاشتباكات فى الجزيرة فى ٢٥ يناير ١٩٦٣ أعلمنا كم باتصالنا مع الدول الموقعة على المعاهدة المذكورة ، وكان جوابكم بأن الولايات المتحدة لم تكن طرفا فى هذه المشكلة ٠٠ وفى شهر فبراير عام ١٩٦٤ احتجزنا أياما قاسية ، وقد أخبرناكم بواسطة مبعوثكم الشخصى الذى كان يزور أنقرة ٠٠٠ » ٠

وفى مناسبة أخرى وصفت اينونو موقف الولايات المتحدة بأنها « غير راغبة فى اتخاذ رأى اجراء يساعد على حل مشكلة قبرص ، وان الموقف بين تركيا واليونان قد أصبح مظلما » ٠ ويلاحظ أحد الباحثين أن الولايات المتحدة قد حرصت على اقامة حالة قريبة من التوازن فى القوة العسكرية بين تركيا واليونان ، على الرغم من اختلاف حجم البلدين من حيث المساحة الجغرافية وعدد السكان ، ومن حيث مدى اتساع القطاع المواجه للاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا ، فاليونان التى يبلغ عدد سكانها ٨ر٩٠٠ر٠٠٠ نسمة لديها قوة جوية (كلها طائرات أمريكية) تقدر بنحو ٢٢٥ طائرة حربية ، فى حين أن تركيا بكل مساحتها الشاسعة وعدد سكانها البالغ ٣٧ر٩٠٠ر٠٠٠ لديها قوة جوية تقدر بنحو ٢٨٨ طائرة ، وقررت الولايات المتحدة بيع كل من البلدين ٤٠ طائرة ، « فانتوم » عام ١٩٧٢ ، واليونان مثلا لديها ١٣ مدمرة ، وتركيا لديها بالمقابل ١٤ مدمرة ، واليونان لديها ٧ سفن حراسة ساحلية وتركيا لديها بالمقابل ٨ سفن من هذا الطراز ٠

وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن للولايات المتحدة أن تتحكم فى توازن قوى الاحتياط البشرى لدى الدولتين الذى بلغ نحو ٨٠٠ ألف فى تركيا مقابل ١٨٠ ألفا لدى اليونان : الا أنها أستطاعت أن تضمن الى حد كبير التوازن فى كمية ونوعية التسليم ، وهو الأمر الأهم فى حروب العصر المحدودة ، التى تسارع الدول الكبرى الى اخمادها بسرعة حين تنشب بين الدول الصغرى ، خشية اهتزاز خريطة التوازن المرسومة لكل منطقة ، ومن ثم لاتاحة فرصته

لاستنمار الاحتياطات البشرية على الوجـــه الاكمل وفقـــا لقوانين الحـــرب الكلاسيكية .

وفى تقيم رسالة جونسون الى اينونو يمكن القول ان الرأى العام التركى قد وضعه اينونو فى موقف حرج ازاء سياسته الداخلية ، وذلك عندما اتهمته الاحزاب السياسية بالجبن فى الدفاع عن مصالح تركيا فى قبرص ، كـذلك فقد ظهر فى الفترة اللاحقة خطأ تقدير تركيا لموقف الولايات المتحدة من قضية قبرص ، وذلك من خلال المناخ السياسى الذى ساد في عام ١٩٦٤ . فتركيا لم تأخذ بالاهتمام الكافى أمر تغيير الظروف عام ١٩٦٤ ، اذ أن الولايات المتحدة تمكنت بنجاح عام ١٩٥٩ من أن تمارس الضغط الاقتصادى عـــلى اليونان ـ نتيجة لضعفها اقتصاديا ـ لقبول معاهـــدات زيوريخ ولندن ، وبموجبها استقلت جزيرة قبرص ، وقد تمكنت اليونان فى عام ١٩٦٤ من بدول السوق الأوروبية المشتركة ، كذلك فان ظروف معاهدة عام ١٩٥٩ قد تغيرت كثيرا بسبب متطلبات الأمن الأمريكى ، ولأن قبرص أصبحت دولـــة مستقلة فقد أصبحت حكومتها لا تتبع دائما أوامر اليونان ، كذلك فانه ليس من مصلحة الولايات المتحدة تقسيم الجزيرة ،لأن ذلك يؤدى الى نفس المصاعب، متلما هى الحالة في كوريا وفيتنام ، فضلا عن أن الولايات المتحدة ستعارض التدخل التركى المسلح فى قبرص ، طالما أن ذلك يؤدى الى انهيار الجانب الجنوبى لحلف شمال الأطلنطى .

وفى تقييم رسالة جونسون الى اينونو فى عام ١٩٦٤ يمكن القول ـ بالاضافة الى الاعتبارات السابقة ـ ان العلاقات التركية الامريكية قد مرت بمنحنى هابط ، ووصلت الى أدنى حد لها ، فقد كشفت الرسالة عن أشياء كثيرة كانت خافية على الرأى العام التركى ، منها الاتفاقيات الننائية التىوقعتها تركيا مع الولايات المتحدة والتى يبلغ عددها ٥٥ اتفاقية عقدت خلال حكم الرئيس مندريس ، وهذه الانفاقيات الثنائية كان معظمها سريا ، ولم يعلن للرأى العام التركى ،ووقع بعضها وفقا للمادة الثالثة من حلف شمال الأطلسى، أما البعض الآخر فقد وقع خارج الحلف ، وقد بدأ الرأى العام التركى مناقشة هذه الاتفاقيات فى الصحف ، وهو ما أدى الى انتشار العداء للوجود الامريكى فى تركيا ، والمطالبة بازالة القواعد العسكرية من الاراضى التركية ، وقيـــام المظاهرات الضخمة المعادية للولايات المتحدة ، حيث هاجم المتظاهرون قنصلية الولايات المتحدة ، ومكتب الاستعلامات الامريكى فى ١٢ يناير ١٩٦٦ ، وقد أدى ذلك الى أن تعدل الحكومة الامريكية من هذه الاتفاقيات بما يرضى الرأى العام التركى ، ومن التعديلات الجوهرية لهذه الاتفاقيات عدم قيام الولايات

المتحدة بأى عمل دون علم الحكومة التركية وأن تؤدى هذه الاتفاقيات الى التعاون المشترك بين الطرفين على أساس المساواة فى الحقوق واحترام السيادة للدولتين .

وكان من نتائج ذلك أيضا أن خفضت الولايات المتحدة عدد أشخاصها فى الأراضى التركية من ٢٧٠٠٠ الى ٧٠٠٠ ، وأحيلت المطارات العسكرية وأجهزة الرادار الامريكية الى القوات العسكرية التركية ،أما القواعد العسكرية الأخرى فوصفت لها مبادىء جديدة . وتجد الاشارة أيضا الى أن وسائل اطلاق الاسلحة النووية فى الوحدات الامريكية المرابطة فى تركيا أصبحت تحت تصرف القوات المسلحة التركية ،باستثناء القاعدة الجوية فى أدنة ، حيث زودت هذه الأخيرة بطائرات أمريكية ذات مدى قصير ، ومجهزة برءوس نووية ، وبموجب مخططات حلف شمال الاطلنطى الدفاعية ، فان هذه الطائرات لم توضع تحت قيادة الجيش التركى ، وانما وضعت تحت القيادة العليا للقوات المتحالفة فى أوربا مباشرة(٥) .

٢ ـ الولايات المتحدة واليونان والمشكلة :

حين جاءت حكومة باباندريو عام ١٩٦٤ ، سارت تجاه مشكلة(٦) قبرص على النحو التالى :

أولا : اخراج المشكلة من أيدى بريطانيا والولايات المتحدة لعدم اختصاصها ، ورفض تدخل حلف الاطلنطى فى هذا النزاع ، ومن الجدير

---

(٥) راجع فى تفصيل ذلك .
دكتور محمود اسماعيل محمد ، استخدام الأسلحة النووية فى العصر النووى ، فى : السياسة الدولية ، العدد ٢٤ ، أبريل ١٩٧١ ـ القاهرة ، مؤسسة الأهرام ص ص ٩٠ ـ ٩٥ .

(٦) ان مشكلة قبرص فى عموميانها لم تكن تتعلق فقط بتوازن القوى السياسية الداخلية بين جالتين متنافستين ، بل أنها نبعت أساسا عن سمات النظام السياسى المشترك القائم فى الجزيرة منذ استقلالها فى منتصف أغسطس سنة ١٩٦٠ والذى فرضته عليها بريطانيا وتركيا واليونان ، الدول الثلاث التى ضمنت استقلال الجزيرة وتعهدت بحماية نظامها الدستورى بموجب اتفاقيتى لندن وزيوريخ . كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من الدراسة ، غير أنه يمكن القول أن المشكلة القبرصية فى تطوراتها ترجع أيضا الى محاولات الدول الأخرى ذات المصلحة فى استغلال ثغرات المجتمع القبرصى والنفاذ من خلال تلك الثغرات من أجل السيطرة على الموقع الاستراتيجى للجزيرة . راجع :
Nicos Karanidiotis "The Cyprus Problem" : op. cit. p. 15-25.

بالذكر أن من أهم العقبات التى واجهت مكاريوس وقتئذ هى الضغوط التى تعرض لها من جانب حلف الاطلنطى والولايات المتحدة بصفة خاصة . فقد كانت قبرص - منذ انشاء الحلف - بمثابة الشرارة التى هددت باندلاع الحرب بين أطرافه ونفويض أركانه ، فخلال الخمسينات كانت مشكلة قبرص سببا فى الخلاف الحاد الذى نشب بين اليونان وبريطانيا ، وكانت الأخيرة تلقى تأييد واشنطن التام . ومنذ الستينات ، كان النزاع حول الجزيرة هو السبب الرئيسى فى توتر العلاقات بين اليونان وتركيا اللتين تشكلان الجناح الجنوبى الشرقى لحلف الاطلنطى .

وفى ظل مخطط الاستراتيجية الامريكية فى منطقة البحر المتوسط ، الذى يستلزم بالطبع تدعيم الحلف ، وليس اضعافه - كانت وجهة النظر الامريكية تنصرف الى ضرورة حل مشكلة قبرص بأية وسيلة ومنها :

(أ) تأييد حل بريطانيا وتركيا واليونان فى العمل طبقا لمعاهدة الحماية الموقعة فى لندن ، وهو ما رفضته قبرص بشدة وأعلن مندوبها أثناء مناقشة الأزمة أمام مجلس الأمن فى فبراير ١٩٦٤ ، فقد أوضح أن أية دولة لا تملك الحق فى العمل العسكرى داخل بلاده وأن حكومته ترفض أى قيد على وحدة وسيادة دولة قبرص ، كما هو مفروض طبقا لمعاهدة الحماية . وهكذا لم يكفل قرار مجلس الأمن الذى صدر فى ٤ مارس ١٩٦٤ متضمنا ارسال قوات دولية لحفظ السلام وتعيين مبعوث دولى - لم يكفل هذا القرار تحقيق السلام فى قبرص ، بالرغم من الجهود الدولية التى بذلت بهذا الصدد ، نتيجة تضافر عدة عوامل فى الجزيرة ، فقد أرسل الأسقف مكاريوس فى الخامس من مارس ١٩٦٤ - أى بعد صدور قرار مجلس الأمن بيوم واحد - أرسل بيانا الى الحكومة البريطانية ، أعلن فيه عدم اعترافه بخط الهدنة الذى يفصل الأحياء التركية عن الأحياء القبرصية ، وقام أيضا فى أبريل من نفس العام ، بارسال خطابات الى رؤساء حكومات كل من تركيا وبريطانيا ، يعلنهما نبذه لمعاهدة التحالف الموقعة بين الأطراف الثلاثة ، غير أن الحكومة البريطانية أوضحت للرئيس القبرصى أن هذه المعاهدة لا يمكن أن نلغى ، لأن المادة رقم ١٨١ من الدستور القبرصى تتضمن هذه المعاهدة ، وان الدستور لا يزال سارى المفعول . وقد أثارت هذه التحركات من جانب الرئيس القبرصى ، بالاضافة الى تصريحاته عن سير قبرص تجاه « اينوسيس » حفيظة الاتراك القبارصة ، وكذلك تركيا .

(ب) ضرورة استجابة القبارصة اليونانيين لطالب القبارصة الاتراك -

طبقا لوجهة النظر الامريكية ، والتى عبر عنها حلف شمال الاطلنطى ـ وذلك بالحصول على الحكم الذاتى فى ظل دولة فيدرالية ، ولقد لقى هذا الاقتراح ـ هو الآخر ـ معارضة شديدة من جانب الأسقف مكاريوس ، الذى كان يرى أن ذلك من شأنه أن يؤدى الى خلق دولة داخل دولة ، بالاضافة الى أن نسبة ١٨ فى المائة التى يشكلها الأتراك لا تعد مسوغا لاقامة حكومة فيدرالية ، وقد انعكس الاهتمام الامريكى فى ارسال المبعوثين الشخصيين الى العواصم الثلاث المعنية ، وفى الاقتراح الامريكى المقدم خلال أزمة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ الخـــاص بارسال قوات أمريكية وأخرى تابعة لحفظ السلام فى الجزيرة وقد أعلنت قبرص رفضها لهذا المشروع ، على الرغم من موافقة كل من تركيا واليونان عليه ، وتأييده من جانب بريطانيا ، ويضاف الى ما سبق ، تلويح الحكومة الامريكية باتخاذ اجراءات معنية لمنع نشوب الحرب بين الدولتين الأم ، ويعنى بذلك قطع المعونة العسكرية واستخدام الاسطول السادس كأداة للضغط .

ثانيا : سارت حكومة بابا ندريو بعد عام ١٩٦٤ على أن يكون الهدف النهائى هو وحدة قبرص مع اليونان مع عدم انتهاك حقوق الأقلية التركية فى الجزيرة ، بيد أن الحكومة الامريكية قد مارست ضغطها على حكومة باباندريـو فى أثينا ، وكذا على الحكومه التركية بهدف التوصل الى تسوية مشتركة تتم فى ظل حلف شمال الاطلنطى ، وان حل المشكلة ـ فى رأى خبراء الحلف ـ يكمن فى تقسيم الجزيرة بين اليونان وتركيا . غير أن الرئيس القبرصى مكاريوس قد أصر على مخالفة هذه الآراء برمتها ، بالاضافة الى عدم منح القبارصه الأتراك حكما ذاتيا ، كما عارض بشدة معاهدة الحماية(٦) .

ثالثا : رأت حكومة باباندريو تقديم المعونة والمساعدة العسكرية لقبرص فى حالة أى هجوم عليها من الاتراك .

---

(٦) راجع فى تفصيل ذلك :

— Dimitri. S. Bitsios "Cyprus — The Vulnerable Republic Institute for Balkon Studies — These salonik, 1975. pp. 30-40.

— Nicos Karanidiotis "The Cyprus Problem", op. cit. pp. 9-12.

(٧) راجع :

— Panandreou, Andreas : Democracy At Gunpoint "The Great Front" Penguin Books with Andre Deutsch, 1973 pp. 28-42.

ـ د . نور عسان العطيه ، « حول الأزمة القبرصية » فى : قضايا عربية ، العدوان ص ١١ ، ١٢ ، بيروت ١٩٧٦ .

غير أن هذه الاقتراحات لم تلق قبولا لدى الملك والعسكريين اليونانيين، مما أدى الى حدوث الصدام بين جورج باباندريو والملك ، وخاصة بسبب فضيحة Aspida وهى التنظيم السرى اليسارى الذى كونه أبن رئيس الوزراء ، والذى كان يهدف الى قلب نظام الحكم لصالح اليسار ، مع مساندة الرئيس القبرصى مكاريوس فى صراعه الدائر مع الحرس الوطنى ، الذى كان يطالب بالوحدة العاجلة(٧) ٠

ولقد استقرت ظاهرة الخلافات السياسية بين الملـك والعســكريين اليونانيين ، وشهدت هذه الفترة أيضا قيام انقلاب عسكرى فى اليونان ، والذى كان لقادته من مشكلة قبرص ، هذا الموقف جاء مغايرا تماما لما يتوقع الجميع ٠

الانقلاب العسكرى اليونانى سنة ١٩٦٧
وموقفه من مشكلة قبرص

١ — الانقلاب العسكرى اليونانى سنة ١٩٦٧ :

عندما وقع انقلاب أبريل سنة ١٩٦٧ ، اتبع العسكريون سياسة غير متوقعة تجاه مشكلة قبرص . فرغم شعارات الحكومة العسكرية اليونانية ، التى أعلنتها فى البداية باقامة دولة تقوم على أساس القومية اليونانية ، التى تعنى اتساع النظرة وشمولها على كل من ينطق اللغة اللاتينية(١) — فان موقف الحكومة العسكرية اليونانية تجاه قبرص كان غير ذلك تماما ، فرغم الشعار المعلن للعسكريين بالقومية اليونانية ، فقد اقتصرت نظرة العسكريين تجاه مشكلة قبرص على حصر المشكلة فى أضيق نطاق ، والابتعاد عن الانزلاق فيها . فقبل انقلاب عام ١٩٦٧ ، كانت صرخة أو صيحة الوحدة تسمع فى أثينا بقوة أكبر مما كانت تسمع فى نيقوسيا ، وكان التوتر خلال الفترة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ بين تركيا واليونان ظاهرا بسبب قبرص ، فلقد أرغم الاتراك بواسطة الولايات المتحدة على الاحتفاظ بالسلام ولكنهم قاموا خلال هـــذه الفترة بتوسيع رقعة القبارصة الاتراك فى منطقتى Kolias و Khonomou التى يسكنها غالبية من القبارصة اليونانيين .

وحين تم الانقلاب العسكرى ، حاول العسكريون فى البداية علاج مشكلة قبرص بطريقه مختلفة ، وكانت الرؤى السائدة هى عدم التسرع فى حــل المشكلة ، اذ كان هدفهم الأساسى فى البداية هو تقوية حكمهم داخل البلاد ، وترتب على ذلك أن خفت صرخة الوحـــدة بين اليونان وقبرص . وصرح بابادوبلوس ، فى أول زيارة له لجزيرة قبرص فى أغسطس ١٩٦٧ ، عندما كان وزيرا للدولة لشئون مجلس الوزراء ، صرح بأن اليونان وتركيا تسعيان

---

(١) وقد أطلقت الحكومة العسكرية اليونانية على مفهوم القومية اليونانية لفظ «الهيلينية» . راجع فى تفصيل ذلك : نادل محمد زكى صادق ، النظام السياسى فى اليونان خلال فترة الحكم العسكرى ، (٢١ أبريل ١٩٦٧ — ٢٤ يولية ١٩٧٤) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية — جامعة القاهرة ١٩٧٧ ص ص ٢٩٠ — ٢٩٥ .

الى مواجهة عدوهم المشترك . وهو الشيوعية . وان كل الخلافات بعد ذلك هى خلافات ثانوية .

وقد عقد اجتماع قمة بين الدولتين . دون التمهيد لذلك دبلوماسيا . وتقابل رئيسا وزراء الدولتين على الحدود التركية اليونانية . فى ٩ سبتمبر ١٩٦٧ ، ورأس الوفد اليونانى فى هذا الاجتماع الكولونيل جورج بابادوبلوس قائد الانقلاب ، ورئيس الوزراء كوليس Ko'ias ، ووزير الخارجية ايكونومو Ekonomou ، ووافق الجانب اليونانى فى الاجتماع على كل الاقتراحات التى قدمها الجانب التركى ، والتى أغفلت تماما حقوق الجماعة اليونانية فى استنبول ، وتجميد مصير منطقتى Imbors — Tendos . وبذلك أغلق الباب أمام نداء اليونانيين بالوحدة مع قبرص . وصرح رئيس الوزراء التركى ، ديميريل ، عقب عودته الى تركيا ، بأنه تمكن خلال مباحثات هذا الاجتماع من « تمييع » اقتراح اليونان بالوحدة مع قبرص ، وأنه أصر على تنفيذ اتفاقية زيورخ ، والتى لا يمكن تغييرها الا بالرجوع الى تركيا واليونان وانجلترا(٢) .

وفى نوفمبر ١٩٦٧ ، وبعد أن حدثت اشتباكات فى قبرص . نتج عنها التهديد بغزو الاتراك للجزيرة ، قام سيروس فانس ، من قبل الحكومة(٣) الامريكية ، بزيارة كل من أثينا ونيوقيسيا وأنقرة . ونجحت مساعيه فى اتفاقية سحب القوات اليونانية بأكملها ، وكذا القوات التركية من قبرص ، فيما عدا ما قررته اتفاقيتى زيورخ ولندن .

٢ ـ ردود فعل الانقلاب العسكرى اليونانى على مكاريوس :

اولا : الضغط والانذار الموجه لمكاريوس :

جاءت ردود فعل موقف حكومة الانقلاب العسكرى اليونانى على الرئيس

---

(٢) راجع :
— Nicos, Karanidiotis "The Cyprus Problem" op. cit pp. 80 - 85.
— Dimitri, S. Bitsios "Cyprus. The Vulnerable Republic Institute for Balkan Studies" op. cit. pp. 35 42.

(٣) راجع :
ـ دكتور حسان العطية . « حول الازمة القبرصية » ، مرجع سابق .
ـ دكتور حسان العطية . « السياسة الامريكية . الازمة القبرصية » فى مجلة العلوم السياسية والقانونية ، العدد الأول ـ بغداد ١٩٧٨ .
ـ نجم نورى النعيمى « الموقف التركى من أزمة قبرص » فى : مجلة العلوم السياسية والقانونية ، العدد الثانى ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٩٧٧ .

مكاريوس لتزيد من المشكلات التى تواجه الأسقف مكاريوس بعد المشكلة الطائفيه . وتفسير ذلك أن الحكم العسكرى فى اليونان اذ أن يقيم علاقات وثيقة مع الحكم العسكرى فى تركيا ، بمؤازرة الولايات المتحدة الامريكية . وقد تغيرت الاسباب التى استندت اليها حكومة الانقلاب العسكرى اليونانى فى معارضتها للأسقف مكاريوس على مدى السنوات الخمس السابقة على وقوع الانقلاب العسكرى فى اليونان . فقد أصدرت الحكومة اليونانية بيانا رسميا فى أول يوليو ١٩٦٧ ، نشر فى كل الصحف اليونانية ، وطالب البيان بسرعة ابعاد كل الزعماء القبارصة الذين يخلقون الظروف غير الملائمة ، ويضعون الشروط الهدامه التى تجعل من صيحة الوحدة غير ممكنة ، ودعا البيان هؤلاء الأشخاص الذين يضمون من يتولون أعلى المناصب فى الدولة ، الى افساح مكان لمن يثق فى الحكومة اليونانية الوطنية ، ويتمتع بالروح الواقعية ، المطلوبة لاقرار حل نهائى للازمة اليونانية .

غير أن السنوات التالية أثبتت أن حكومة الانقلاب العسكرى اليونانى قد اتخذت موقفا مغايرا تجاه المشكلة القبرصية . فمثلا السبعينات ، مارست الحكومة اليونانيه أسلوبا مخالفا فى ضغطها على الأسقف مكاريوس . فقد أرسلت مبعوثا شخصيا الى قبرص لاقناع الجانب القبرصى اليونانى بتقديم مزيد من التنازلات للمطالب التى ينادى بها القبارصة الاتراك من أجل الاستقلال الاقليمى . بالاضافة الى التخلى عن العناصر اليسارية المشتركة فى الحكومة القبرصية ، ولهذا أرسلت الانذارات المتتالية الى الأسقف مكاريوس ، ومنها الانذار الموجه فى فبراير ١٩٧٢ ، والذى تضمن النقاط الثلاث الآتية :

١ - ضرورة اعادة الوحدة الوطنية الممزقة الى الجزيرة .

٢ - منع وقوع أى مواجهة محتملة ، الأمر الذى يزيد من احتمالات شحنات الأسلحة التشيكية ، وكانت هذه الشحنات الى قبرص قد هزت استقرار الجزيرة عام ١٩٦٦ . عندما تناقلت الأنباء نبأ استيراد الرئيس القبرصى لهذه الشحنات من اجل تسليح قوات البوليس القبرصية التى تتلقى اوامرها من الحكومة القبرصيه ، ذلك بعكس الحرس الوطنى ، الذى كان يخضع فى هذه الآونة للجنرال جريفاس ، أو يدين بالولاء لليونان ، كما حدث فى سنه ١٩٧٢ . مما ادى الى توقف المحادثات بين ممثلى الطائفتين ، ومطالبة كل من تركيا واليونان بتسليم هذه الشحنات الى قوات الأمم المتحدة . وقد انتهى الأمر بتوقيع اتفاق فى ١١ مارس ١٩٧٢ يقضى بتخزين الأسلحة فى « القيادة العامة للبوليس فى أثالا » مع الحرية التامة لقوات الأمم المتحدة فى

التفتيش عليها فى أى وقت ، وبدون اخطار سابق ، وطبقا للقائمة التى سلمتها الحكومة القبرصية الى ممثل الأمم المتحدة فى الجزيرة ٠

٣ ـ كذلك فقد تضمن الانذار الذى كانت حكومة الانقلاب العسكرى فى اليونان قد وجهته الى مكاريوس فى فبراير ١٩٧٢ ـ تضمن الانذار مسئولية اليونان فى المحافظة على الأمن فى الجزيرة ، وطالب بضرورة تعديل الوزارة القبرصية ، بحيث تختفى منها العناصر اليسارية ٠ وبالفعل قام الأسقف مكاريوس باحداث هذا التعديل ، وان كان لم يرضخ للمطالب اليونانية فيما يتعلق بمطالب القبارصة الأتراك ٠

ولم تكتف الحكومة اليونانية بالضغوط والانذارات الموجهة الى الأسقف مكاريوس ، بل لجأت الى تحريك العناصر الدينية ، كأداة مساعدة للضغط ٠

ثانيا : مطالبة الكنيسة القبرصية باستقالة مكاريوس :

تعرض الرئيس القبرصى مكاريوس ، خلال عام ١٩٧٢ ، لحملة شعواء من جانب الكنيسة القبرصية ، لكى يستقيل من منصبه ، وقد وجهت الكنيسة انذارين الى مكاريوس : أحدهما فى فبراير والآخر فى يوليو من نفس العام ٠ ويلاحظ أن انذارات الاساقفة القبارصة كانت تسير فى خط متواز مع الانذارات اليونانية ٠ وقد أرسل الأسقف مكاريوس فى ٢٠ مارس ١٩٧٢ رده على مطالبة الكنيسة القبرصية له بالاستقالة من منصبه ، واشتمل هذا الرد على عدم موافقة مكاريوس على طلبهم الخاص باستقالته من منصبه كرئيس للدولة ، وانه قد يضطر الى قبول هذا الطلب اذا وجد من الكنيسة القبرصية اصرارا على ذلك ، وهذا الموقف من جانب مكاريوس يعد انعكاسا من جانبه على تجنب حدوث انقسام داخل الكنيسة لأنه لم يكن ولن يكون أبدا متمردا على الكنيسة ، ولم يحاول انتهاك قوانينها التى نصب حارسا عليها ٠ كذلك فقد أوضح مكاريوس فى رده على الكنيسة القبرصية بأنه لا يوجد تعارض بين مهام رئيس الجمهورية والكتاب المقدس ، أو قوانين الكنيسة وتقاليدها ، ولذا ينبغى عدم اعتبار مهام رئيس الدولة مهاما دنيوية ٠

وقد اتهم مكاريوس أساقفة الكنيسة القبرصية بأنهم يتصرفون بناء على تحريض عناصر من خارج الكنيسة ، غير أن الأساقفة اصروا على موقفهم ، حيث قرروا فى يوليو من نفس العام عزل مكاريوس عن منصبه كرئيس للجمهورية ، بل انهم اتهموه أيضا بأن سياسته قد أسفرت عن اضطرابات وطنية ودينية وتقسيم الجزيرة ٠ غير أن جلانكوس كلاديوس ، رئيس البرلمان القبرصى ،

تقدم باقتراح ينص على استمرار الاسقف مكـــاريوس فى منصبه كرئيس للدولة ، رينما ننهى فترته فى فبراير ١٩٧٣ ، مقابل تعهد الرئيس القبرصى بالاستقاله من سلطانه المدنية بعد انتهاء هذه المدة ، ثم جاءت اعادة تنصيب الاسقف مكاريوس والتأييد الواضح من جانب الشعب القبرصى — جاء ذلك بمثابة رد حاسم على الحكومة اليونانية ، وأنصارها فى داخل قبرص ٠

ثالثا : انتخابات عام ١٩٧٣ ونتائجها :

غير أن الأزمة الداخلية الطاحنة ، التى مرت بها قبرص ، قد تجددت مرة أخرى وانعكس ذلك ليس على الصراع الذى احتدم بين الأسقف مكاريوس والكنيسة فحسب ، بل على موجة الانفجارات التى سادت فى الجزيرة أيضا ، وذلك قبل مرور أقل من شهر على اعادة تولى الأسقف مكـــاريوس منصب الرئاسة لمدة خمس سنوات أخرى ، وكذلك انتخاب رءوف دنكتاش ممثل الأتراك القبارصة نائبا لرئيس الجمهورية ، وفى كلتا الحالتين ، لم تجـــر الانتخابات العامة التى كان مقررا لها الثانى عشر من فبراير ١٩٧٣ ، نظرا لعدم وجود مرشحين منافسين لهما طبقا للدستور القبرصى ٠

وعلى الرغم من أن فوز كل من الأسقف « مكاريوس » و « دنكتاش » كان متوقعا ، الا أن الهدوء الذى تمت فيه اعادة التنصيب ، كان غير متوقع ٠ فقد كانت الأنظار فى الفترة السابقة على فوز مكاريوس مركزة نحو جزيرة قبرص، التى تتلاقى وتتصادم فيها تيارات واتجاهات شتى . فمن سياسة عـــدم الانحياز ، الى الولاء لحلف الاطلنطى ، ومن الشيوعيين الذين حصلوا على ٤٠ فى المائة ، ٤٣ فى المائة فى انتخابات عامى ١٩٤٩ و ١٩٦٠ على التوالى ، الى أقصى اليمين ، ممثلا فى أنصار منظمة « أيوكا » ، ومن ذروة الرخاء الاقتصادى الى قمة التوتر السياسى الذى تمثل من موجة العنف والانفجـــارات التى اجتاحت الجزيرة من جانب أنصار الجنرال جريفاس ، والتى تدعو الى الاتحاد مع اليونان Enosis ، فى الايام السابقة لاعادة تنصيب الأسقف مكاريوس رئيسا للجمهورية ٠

كذلك فان هذه الانتخابات جاءت بعد التحديات والضغوط التى تعرض لها « مكاريوس » من جانب عدة أطراف فى الداخل والخارج ، وقد زاد من أهمية هذه الانتخابات أن استمرار الأسقف مكاريوس على مسرح السياسة فى قبرص لم يقتصر أثره على نطاق الجزيرة ، وانما تعدى ذلك الى دوائر متعددة ، تشمل البحر المتوسط ثم منطقة الشرق الأوسط ، لكى تمتد هذه

الدوائر أيضا الى الصراع الغربى والشرقى ، ثم الى نطاق الاستراتيجية الدولية ٠

فعلى صعيد جزيرة قبرص ، كان للرئيس القبرصى دوره البارز فى المحافظة على وحدة واستقلال أراضى قبرص ، فى مواجهة المنادين بالاتحاد مع اليونان ، الذين كان يتزعمهم الجنرال جريفاس أو المنادين بتقسيم الجزيرة من بين الأتراك القبارصة ٠

وعلى الصعيد الدولى كان للرئيس مكاريوس مواقفه المحددة فى المحافظة على الخط السياسى الذى التزمت به قبرص وهو عدم الانحياز ، وعدم السماح بتحويل جزيرة قبرص الى قاعدة لحلف شمال الاطلنطى ، وبالتالى فقد كان استمرار الأسقف مكاريوس فى الحكم بمثابة عامل تهدئة فى منطقة البحر المتوسط الحافلة بالتوترات ، وتزايد حدة التنافس بين البحرية السوفيتية والأسطول الساس الأمريكى ، ولقد انعكس اهتمام واشنطن بالمنطقة ، فى رضوخها للمطالب المالية لحكومة مالطة ، والاتفاق الذى عقد وقتئذ لتحصل بمقتضاه البحرية الامريكية على تسهيلات فى الموانى اليونانية ، وقد عد ذلك بمثابة امتداد للاتفاق الذى وقع فى عام ١٩٥٣ ، فى اطار حلف الاطلنطى(٤) ٠

وقد حدد رئيس جمهورية قبرص ، فى أعقاب اعادة تنصيبه ، الخطوط العامة لسياسته ، وتتلخص فيما يأتى :

١ — تنديده بالعنف والارهاب ، اللذين تستخدمهما قوات الجنرال جريفاس بهدف الاتحاد مع اليونان ، لأنهم يعملون دون تقدير للمسئولية ، ويعدون العدة لحرب أهلية ٠

٢ — يجب على الحكومة اليونانية والحكومة القبرصية أن تدركا حقيقة عدم امكانية تسوية مشكلة قبرص سلميا ، الا على أساس أنها دولة مستقلة

★ ★ ★

(٤) راجع فى تفصيل ذلك :

— أحمد نورى محمد النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، م٠س٠ذ ص ص ٢٢٥ـ٣٤٤

— نزيرة الأفندى ، الطائفية وعدم الانحياز فى قبرص ، فى : السياسة الدولية ـ المجلد التاسع ١٩٧٣٠ص ص ٤٣٧ ـ ٤٤٣ ٠

ذات سيادة ، وانها تمثل أمة واحدة ، وعن طريق المفاوضات مع الأتراك القبارصة ٠

٣ ـ ضرورة موافقة الشعب القبرصي على أى حل لمشكلته ، حيث أن بلاده تهدف الى حل مشكلتها القومية ، وبالتالى لن تقبل أى حل وسط مع الأتراك يمكن أن يهدد مستقبل القبارصة اليونانيين ٠

٤ ـ التزام الجمهورية القبرصية بسياستها القائمة على عدم الانحياز ، وسعيها الدائم الى اقامة علاقة الصداقة والتعاون مع جميع الدول ، على أساس من المساواة وعدم التدخل "٠

انقلاب ١٥ يوليو ١٩٧٤ فى قبرص
(أسبابه ونتائجه) :

١ — الأسباب :

فى صباح يوم ١٥ يوليو ١٩٧٤ ، أنفجر الموقف القبرصى العام حين وقع انقلاب عسكرى ضد الرئيس الأسقف مكاريوس ، قام به قادة الحرس الوطنى اليونانى القبرصى الذى يضم ١٢ ألف رجل تحت سيطرة ٦٥٠ من الضباط اليونانيين واستطاع مكاريوس أن ينجو بحياته ، وغادر بلاده بعد أن لجأ الى القوات البريطانية التى تعسكر فى قاعدتى اكروتيرى وديكيليا ، فى جنوب وجنوب شرق الجزيرة • وأعلنت سلطات الانقلاب بيانا بسياستها الجديدة يقوم على مبادىء معينة ، أهمها التوحيد الكامل للسكان اليونانيين فى السلام وفى ظل الكنيسة ، ومواصلة البحث عن حل لمشكلة قبرص(١) عن طريق مفاوضات بين الجاليتين ، وتسوية المشكلات الحيوية للشعب ، وتنظيم انتخابات عامة خلال عام لاقامة حكومة نعبر عن الرضا الشعبى ، والابقاء على العلاقات الودية بين قبرص والعالم الخارجى والحفاظ على سياسة عدم الانحياز •

وقد حرص قادة الانقلاب على عدم اعلان نواياهم الحقيقية المستترة وراء حركتهم العسكرية العنيفة ، الا وهى تحقيق حلم « وحـــدة جزيرة قبرص تطوير اقتصادها وتقليل اعتمادها على الولايات المتحدة بعد تقوية علاقاتهـا بأكملها مع دولة اليونان » • وكان من أغرب وقـــائع هذا الانقلاب ، تعيين نيكولاس سامبسون رئيسا لجمهورية قبرص خلفا لمكاريوس • وسامبسون صحفى قبرصى يونانى ، انضم فى فترة تالية الى منظمة ايوكا « المنظمـــة القبرصية للمقاومة الوطنية » ، ولم يكن هو العقل المدبر للعملية ، كما أنه لم يكن فى يوم ما من زعماء الحركة السياسية لليونانيين القبارصة فى الجزيرة • كذلك فقد أحاط الغموض والتعقيد والتشابك الشديد — أحاط ذلك بالانقلاب العسكرى القبرصى وبمقوماته الخفية والمعلنة •

---

(١) راجع : نازلى معوض أحمد ، الصراع التركى اليونانى فى الجزيرة القبرصية ، فى : السياسة الدولية ، العدد ٣٨ ، اكتوبر ١٩٧٤ — القاهرة ص ١٥٦ •

وتحليل الغرابة فى هذا الانقلاب يتضح من أنه قد تم فى فترة من تاريخ قبرص كانت تحفل بدلائل ومؤشرات جعلت المراقبين الدوليين يستبعدون حدوث تغييرات جذرية فى حياة الجزيرة ٠ فحتى بداية شهر يوليو - أى قبل الانقلاب بأيام معدودة لم تهتز مكانة رئيس الدولة الأسقف مكاريوس ، الذى نمتع بشخصية فريدة متميزة ، فكان رئيس الدولة الوحيد فى العالم الذى حمل عبء الدين والدنيا معا ، ونجح الى حد كبير فى الموازنة بين واجباته كرجل يترأس الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية ، وكسياسى على قمة السلطة فى بلاده ، كذلك فقد عمل مكاريوس بسياسته الخارجية على النحو السابق - على ايجاد رادع دولى قوى بالنسبة لحكومتى كل من اليونان وتركيا ، بمنعهما من فرض تسوية معينة لصالحهما من أجل انهاء المشكلة الطائفية فى الجزيرة بين الأتراك واليونانيين(٢) ٠

وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى أنه قد ساد هدوء اجتماعى نسبى فى العلاقات بين الطائفتين فى السنوات السابقة على الانقلاب العسكرى ضد الرئيس مكاريوس ، صحيح أن الطائفتين التركيـــة واليونانية لم تنس الأحداث التى حفل بها تاريخ العداء بينهما ، غير أن القبارصة الأتراك والغالبية اليونانيه فى الجزيرة ، كانوا قد وصلوا الى التسليم بأن مصلحتهم تكمن فى البقاء داخل اطار نظام الحكم القبرصى المستقل ، الذى أقامه مكاريوس ،ولذلك تضاءلت رغبة كل من الطائفتين فى الارتباط بالدولة الأم ، سواء كانت تركيا او اليونان ٠ فالأولى تعانى من أزمات اقتصادية طاحنة ، وتسودها ظروف معيشية صعبة . والثانية يفتقد مجتمعها الداخلى الى أية مقومات للحريـــات السياسية منذ استيلاء المؤسسة العسكرية على الحكم فى أثينا سنة ١٩٦٧ ، ولكن الاقتصاد القبرصى - بعكس الاقتصاد التركى والاقتصاد اليونانى - كان قد شهد فى هذه الفترة - ونتيجة للهدوء الاجتماعى النسبى فى العلاقات بين الطائفتين التركية واليونانية - شهد تطورا انمائيا كبيرا فى قطاعات الانتاج الزراعى ، مما جعل المتوسط السنوى للدخل الفردى يبلغ حوالى ٣٥٠ جنيها استرلينيا . وبذلك تمنعت قبرص فى هذه الفترة بأعلى مستوى معيشة فى منطقة البحر المتوسط(٢) ٠

---

(٢) نفس المرجع السابق ٠

(٣) راجع فى تفصيل اوضاع جزيرة قبرص الاقتصادية ٠
Meger, A.J., The Economy of Cyprus, Cambridge, Harvard University Press, 1962.

ومنذ شهر يناير ١٩٧٤ ، كان قد مات الجنرال جريفاس ، القائد العنيد لمنظمة أيوكا ، والعدو الأول للرئيس مكاريوس بسبب رفض الأخير تنفيذ مشروعات تلك المنظمة الأرهابية لضم الجزيرة الى اليونان ، وبذلك تخلص مكاريوس بطريقة طبيعية من عقبة كانت تقف حجر عثرة فى طريقه السياسى. ويعنى ذلك كله أن المجتمع القبرصى ، حتى بداية يوليو ١٩٧٤ ، لم يكن يعانى من مشاكل خطيرة تستوجب قلب أوضاعه السياسية الرسمية ، راسا عـلى عقب ، على النحو الذى حدث فى منتصف الشهر فى جزيرة قبرص . ر ل

عقب ، على النحو الذى حدث فى منتصف الشهر فى جزيرة قبرص . ومع ذلك فانه يمكن اجمال الأسباب الكامنة وراء الأنقلاب العسكرى لقوات الحرس الوطنى اليونانى القبرصى ضد الرئيس مكاريوس فيما يأتى :

اولا : مذكرة مكاريوس للحكومة اليونانية :

كان السبب المباشر الذى جاء الانقلاب ردا فوريا عليه هو مذكره رسمية شديدة اللهجة من ستة صفحات ، كتبها الاسقف مكاريوس بيده وأرسلها الى الحكومة العسكرية اليونانية فى ٥ يوليو ١٩٧٤ ، وكانت أهم فقراتها : « .. اننى عجبت كثيرا لان منظمة أيوكا الارهابية غير الشرعية والتى تمارس أعمال الاذى فى كل مكان ، وينبر نشاطها حالة من الانقسام فى قبرص ، تحظى بتأييد حكومة أثينا بل ومساعدتها .. ولقد حاولت كثيرا أن أحصل على جواب شاف للاسباب التى تدعو حكومة أثينا الى تاييد هذه المنظمة ، فلم أوفق فى ذلك .. وأنها لحقيقة لا تقبل الجدل وهى أن صحافة اليونان تهاجمنا وتؤيد خصومنا برغم أننى أعتبر أنه من واجبى القومى أن أمد يد التعاون لكل حكومة يونانية ، هذا على الرغم من أننى لا أستطيع القول بأننى أشعر بأى نوع من التعاطف مع النظم الحاكمة العسكريه ، وخاصة فى اليونان ، البلد الذى ولدت فيه الديموقراطية وترعرعت .. وفى اكثر من مرة أشعر بأن يدا خفيه تمتد نحوى من أثينا تريد تحطيم وجودى الانسانى . ومع ذلك فاننى من أجل الصالح العام كنت الزم الصمت ولا أتكلم » . واضاف مكاريوس فى مذكرته للحكومة اليونانية فى ٥ يوليو ١٩٧٤ قائلا : « .. ومع ذلك ، فان الصمت لا يفيد عندما يؤيد الضباط اليونانيون فى الحرس الوطنى . وبايعاز من حكومة اثينا ، يؤيدون منظمه ايوكا الارهابية . فى نشاطها الاجرامى ، ومن بينه الاغتيال السياسى والذى يهدف الى تصفية الدوله القبرصيه .. » .

وأضاف مكاريوس قائلا : « أنه تم ضبط وثائق توضح أنه يتم تمويل أيوكا نفسها من أثينا » . وطالب مكاريوس بأسلوب حاد بانسحاب الضباط

اليونانيين الذين يعملون فى الحرس الوطنى بقبرص وبأن تصدر الأوامر من أثينا الى منظمة أيوكا وتضع حدا لنشاطها »(٤) ٠

ثانيا : تصاعد أعمال العنف من جانب منظمة أيوكا :

يمكن أيضا ارجاع الأسباب التى أدت الى الانقلاب العسكرى لقوات الحرس الوطنى اليونانى القبرصى ضد الرئيس مكاريوس - يمكن ارجاعها الى سبب آخر وهو تزايد وتصاعد عمليات العنف من جانب أعضاء منظمة أيوكا خلال النصف الأول من عام ١٩٧٤ ، حيث لقى ثمانية من أنصار مكاريوس مصرعهم واختطف وزير الداخلية القبرصى ، غير أن مكاريوس قد ظل على ثقة بأن ميزان القوة السياسية يميل الى صالحه ضد النظام العسكرى فى أثينا ، والذى كان هذا الأخير يفقد شعبيته باطراد فى اليونان ، نتيجة للازمات الاقتصادية والتعسف الشديد فى استخدام السلطة ضد الشعب اليونانى ، ولذلك كانت رسالة مكاريوس المذكورة سلفا الى الحكومة العسكرية اليونانية بمثابة تمد صارخ لكافة القوى السياسية والعسكرية الداعية لفكرة الوحدة مع اليونان « اينوسيس » ٠

ثالثا : عدم تمكن مكاريوس من تقدير أصحاب السلطة الحقيقية فى اليونان :

استبعد مكاريوس أن يقوم الحكم العسكرى اليونانى بارتكاب فعل جسيم الأثر فى قبرص ، تترتب عليه حرب شاملة بين تركيا واليونان ، وجاء تقدير مكاريوس سليما من الناحية الموضوعية ٠ غير أنه كان بعيدا عن الصواب ، بالنظر الى الحكومة التى كانت قائمة فى ذلك الحين فى أثينا ، حيث لم تكن القوة الحقيقية تتمثل فى شخص الجنرال فيدون جيرنكيس ، رئيس الجمهورية اليونانية الذى أرسل اليه مكاريوس برسالته ، ولكن القوة الحقيقية كانت متمثلة فى شخص أكثر صلابة ، وهو البريجادير ديمتريوس بوانتديس ، رئيس شرطة الأمن الحربى اليونانى ، وكانت وسائل التحقيقات الا... الشديدة ، التى اتبعتها شرطة الأمن الحربى فى أنحاء اليونان منذ الانقلاب العسكرى فى أثينا سنة ١٩٦٧ هى التى أدت فيما بعد الى طرد اليونان من المجلس الأوربى ، كذلك نجدر الاشارة الى وجود معتقدات معينة ظلت راسخة

---

(٤) نازلى معوض أحمد ، الصراع الدركى اليونانى فى الجزيرة القبرصية ، م٠ س٠ ذ ص ص ١٥٨ - ١٦٠ ٠

لدى البريجادير ديمتريوس بوانتيلاس ـ رجل أثينا القوى ـ وهذه المعتقدات تتلخص فى عدائه الشديد للشيوعية ، وارتباطه العاطفى الشديد بفكرة الدور الحضارى للقومية الهللينية ـ وهى القومية اليونانية التى تعنى اتساع النظرة وشمولها على كل من ينطق اللغة اليونانيه .

وهكذا حدث التخبط فى أثينا ، وانعكس ذلك على قبرص ودفـــع مكاريوس الثمن لسوء تقديره لطبيعة ردود فعل خصمه الاثينى ازاء نزعته الاستقلالية وتصميمه على اقامة دولة مستقلة غير تابعة لقوى خارجية ، على أراضى قبرص .

رابعا : التقارب القبرصى السوفيتى :

هناك أسباب أخرى أدت فى تراكمها وتفاعلها طويل المدى الى حدوث الانقلاب العسكرى فى قبرص ، فمنذ سبتمبر سنة ١٩٦٤ اتجه مكاريوس نحو الاتحاد السوفيتى طالبا معونته السياسية فى المحافل الدولية ، ومساعداته العسكرية من أجل موازنة النفوذ الغربى المتزايد فى الجزيرة ، ولمواجهـــة هذا التقارب القبرصى السوفيتى ، تضاعفت مخاوف اليونان والمعسكر الغربى بصفة عامة .

خامسا : فشل مكاريوس فى حل المشكلة الطائفية :

ويعتبر هذا العامل من أهم العوامل التى أسهمت فى الانقلاب العسكرى لقوات الحرس الوطنى اليونانى القبرصى ضد الرئيس الأسقف مكاريوس ، فلقد أخفق مكاريوس فى حل المشكلة الطائفية(٥) بالجزيرة واعتقد أن مجرد اعلان استقلال الجزيرة ، ومحاولة التخلص من النفوذ الغربى وانتهاج سياسة القومية القبرصية الموحدة ، وغير المنحازة ، هو الحل الوسط التوفيقى لمنازعات الطائفتين ، ويرى البعض أن موقف مكاريوس من المشكلة الطائفية كان يدور حول رفضه أن يصبح مجرد حاكم اقليمى لمقاطعة يونانية أو رئيس شرفى صورى السلطات ، فى دولة فيدرالية يتبع جزءا منها الدولة التركية .

سادسا : الأوضاع اليونانية الداخلية وانعكاساتها :

من الثابت أن المسألة القبرصية قد استخدمت دائما ، حتى قبل أن

---

(٥) Nicos Karauidiotis "The Cyprus Problem" op. cit. pp. 148 - 160.

يتولى العسكريون السلطة في أثينا - استخدمت كحجة قوية لاقامة الوحدة الوطنية الداخلية في اليونان ، ولاخفاء المصاعب المحلية عن الشعب اليوناني. وفي سنة ١٩٧٤ بلغت الحكومة العسكرية اليونانية من الضعف في داخل البلاد . حدا قامت معه بطرد عدد من المراسلين الأجانب ، كان من بينهم مراسل الاذاعة البريطانيه ، وذلك حتى لا تنكشف حقائق الأمور داخل اليونان أمام الرأى العام العالمي ، وتلت ذلك موجات عنيفة من الاعتقالات ، ووقف صدور الصحف ، واتهام طلاب الجامعات بالنشاط اليسارى ، وتؤكد وقائع التاريخ الحديث أنه عندما تكون قاعدة النظام الحاكم فى بلد ما مهتزة وضعيفة ، فان القائمين على ذلك النظام يتجهون الى معارك سياسية أو عسكرية في خارج البلاد ، بهدف تحويل انتباه الرأى العام المحلى عن الاضطرابات والمساوىء الداخلية .

ردود فعل الانقلاب :

يمكن اجمال ردود فعل انقلاب ١٥ يوليو ١٩٧٤ على صعيد طرفى المشكلة فيما يأتى :

أولا : أدى الانقلاب العسكرى الفاشل فى قبرص الى انهيار الحكم العسكرى فى اليونان ، حكم الجنرالات الذين استولوا على السلطة فى ابريل عام ١٩٦٧ ، وبعد انقضاء سبع سنوات على حكمهم ، أعلن العسكريون . بعد الاخفاق الذى لحق بهم فى قبرص ، تخليهم عن السلطة لقيادة مدنية .

ثانيا : تصاعدت الخلافات بين تركيا واليونان على بحر ايجة ، بين الدولتين الحليفتين داخل حلف شمال الاطلنطى ، وتعود هذه الخلافات الى اكتشاف اليونان البترول فى بحر ايجة ، وذلك منذ عام ١٩٧٢ ، كما أن اليونان قامت بتسليح جزر الدوديكانيز ، وقد اعترضت تركيا على هذا الاجراء اليونانى ، مؤكدة ان ذلك يعتبر خرقا صريحا لمعاهدة لوزان ، التى وقعت فى عام ١٩٢٣ بين تركيا واليونان ، ولقد أدى الأمر الى أن تبعث تركيا في عام ١٩٧٦ باحدى سفن البحث للقيام بعمليات التنقيب والبحث ، غير أن اليونان أحالت هذا الموضوع الى محكمة العدل الدولية فى لاهاى ، وأعلنت المحكمة بعد انقضاء ثلاث سنوات من عرض الموضوع عليها ، أنها غير مختصة بالنظر فى هذا الموضوع ، وبعد فشل كل الجهود التى بذلت من قبل حلف شمال الاطلنطى ، نشب الصراع بينهما ، حيث استخدمت الدولتان فيه جميع الأسلحة ، مما تسبب فى احداث أكبر تصدع فى الحلف منذ قيامه ، حيث ان

يسبق لأى دولة من أعضائه ان اشتبكت فى حرب مع دولة أخرى ، أعضاء الحلف ٠

ثالثا : نتج عن الصراع المسلح بين الدولتين ـ تركيا واليونان ـ الشكوك التى أصبحت بمثابة المعول الذى يمكن أن يهدم حلف شمال الاطلنطى برمته ، ناهيك غن ضعف التضامن بين أعضائه ، حيث قررت الحكومة اليونانية الانسحاب من الجناح العسكرى فى الحلف ، ولقد بررت اليونان موقفها هذا تجاه الحلف من أنه لم يمنع الصدام المسلح بين عضوين من أعضائه ٠ ولقد اعتبر بعض المراقبين الدبلوماسيين خروج اليونان من الحلف على أنه بادرة خطيرة ، أكثر من انسحاب فرنسا من الجهاز العسكرى للحلف ، وباعتبار ان اليونان تجاور بلغاريا ، وهى ـ أى بلغاريا أحد أعضاء حلف وارسو ٠

رابعا : وتجدر الاشارة بهذا الخصوص الى أن اليونان قدمت مجموعة من الاقتراحات الى مجلس حلف شمال الاطلنطى ، فى يوليو ١٩٧٧ ، أكدت فيها على ابقاء القوات المسلحة اليونانية تحت القيادة اليونانية فى وقت السلم، غير أن الحلف رفض هذه المقترحات ٠ والرأى العام فى الأمانة العامة للحلف كان(٦) هو أن قبول الشروط اليونانية سيخلق سابقة بالنسبة للبلدان الأعضاء الأخرى ، وبالرغم من أن الحلف قد رفض هذه المقترحات ، فانه لم يناشد الحكومة اليونانية بالعودة الى الحلف ، غير أن أحد أعضاء دول الحلف أوضح ضرورة أن تعيد اليونان النظر فى قرارها ، عندما يتم التوصل الى تسوية مرضية ومقبولة لمشكلة قبرص والنزاع اليونانى التركى ، وبهذا الخصوص فقد قيل أيضا أن انضمام اليونان الى السوق الأوربية المشتركة سيساعد على عودتها الى الجهاز العسكرى للحلف ، أما رد الحلف للحكومة اليونانية فقد جاء مشتملا على عدة نقاط ، منها أن المشكلة الرئيسية التى تواجه الحلف ، بانسحاب اليونان من الجهاز العسكرى هى مشكلة نظام الانذار المبكر الذى ترفض اليونان الاشتراك فيه بصورة كاملة ، لكى لا تحصل تركيا على معلومات مباشرة عنه ، مثلما كان يحدث قبل عام ١٩٧٤ ٠ والنقطة الثانية هى ما يراه بعض المراقبين الدبلوماسيين من اصرار الحلف على اجراء مناوراته

---

(٦) راجع فى تفصيل ذلك :

احمد نورى النعيمى : تركيا وحلف شمال الأطلسى م٠ س٠ ذ٠ ص ص ٢٢٥ ـ ٢٥٤ ٠

فى بحر ايجة ، من قبل قائد بحرى تركى ، يستهدف فى حقيقته اغراء اليونان بالعودة الى الحلف ، وبالتالى فانه اذا ساد بحر ايجة وضع طبيعى ، فـان المسئولين اليونانيين وقتئذ كانوا سيميلون الى الموافقة على اشتراك القوات اليونانية فى مناورات فى تلك المنطقة ، ما دامت تكون تحت قيادة يونانية ، وذلك بدون أو يكونوا قد قرروا العودة الى حلف شمال الاطلنطى .

أما التبريرات التى اتخذت كذريعة من جانب المسئولين اليونانيين تجاه هذا القرار ، فهل أنه فى حالة استمرار امتناع اليونان عن الاشتراك فى مثل تلك المناورات ، فان ذلك يدعو أن يقود المناورات قائد بحرى تركى . وبمقارنة ذلك بالأوضاع السائدة قبل عام ١٩٧٤ ، فاننا نجد نظاما مشابها لذلك ، حيث كان الأتراك يشتركون وحدهم فى المناورات التى كان يجريها حلف شمال الاطلنطى فى بحر ايجة ، وبمعنى آخر تكون تركيا هى الشريك الوحيد فى الحلف ، ويدعم تلك الحجة اليونانية أن الذى كان يقود تلك المناورات ، كان قائدا بحريا تركيا .

وتجدر الاشارة بهذا الخصوص أيضا الى أن المصادر الرسمية فى مقـر حلف شمال الاطلنطى فى بروكسل كانت قد أكـدت صدق ظن المسئولين اليونانيين ، بمعنى تولى الضباط الاتراك قيادة القوة الجـوية التكتيكية ، والقوات البريه للجناح الجنوبى الشرقى فى حلف شمال الاطلنطى ، اعتبارا من النصف الثانى من عام ١٩٧٧ ، ونقل عن مصادر الحلف قولها أن قيادتى هذين التشكيلين تقعان فى أزمير ، فى غرب تركيا ، ويقودهما الضـباط الامريكيون .

أما رد فعل وزارة الدفاع اليونانية عقب ذلك ، فجاء متضمنا أن وضع مقر الحلف فى ازمير تحت قيادة تركية لن يؤثر فى موقف اليونان من الحلف ، بل أن ذلك يعنى اليونان فى كثير أو قليل ، لأن اليونان قد انسحبت من مقر الحلف بأزمير فى صيف عام ١٩٧٤ ، وأنها لا تنوى العودة اليه وخاصه بعد احداث قبرص فى نفس العام(٧) .

---

(٧) راجع : احمد نورى النعيمى « الموقف التركى من ازمة قبرص بين ١٩٧٤ - ١٩٧٦ » فى : مجلة العلوم السياسيه والقانونية ، العدد الثانى - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٧ ص ص ٢٣٥ - ٢٤٠ .

الغزو التركى لقبرص

١ ـ خلفية الغزو :

أولا : كانت الحكومة التركية قد تيقنت من أنها اذا لم تسارع بالقيام بعمل عسكرى فعال فى الجزيرة التى لا تبعد عن شواطئها باكثر من ٤٠ ميلا ، ويكون فيها الاتراك نحو ١ر٥ من سكانها ، فان نظام الحكم الذى أقامته سلطات الانقلاب فى الجزيرة ، سرعان ما يصبح شرعيا كأمر واقع ٠ كما أدركت تركيا أن المشكلة القبرصية لا بد أن تقع مرة أخرى فى حضم التعقيدات الدولية ، التى لن تسفر الا عن احكام قبضة القبارصة اليونانيين الموالين لأتينا ، على شئون الحكم فى قبرص ، ولا شك فى أن مسألة روديسيا ومشكلة ايرلندا الشمالية وغيرها من الأزمات السياسية ، التى لم تؤد اطالة سبها الزمنية الى حلها ، كانت كلها فى ذهن واضعى السياسة التركية تجاه الانقلاب القبرصى ٠

ثانيا : من جهة ثانية فقد تدهورت العلاقات اليونانيه التركيه بشدة منذ بداية عام ١٩٧٤ بسبب النزاع بين البلدين حول مناطق التنقيب عن البترول فى بحر ايجة ٠ وانهارت محادثات الحكومة التركية فى العنف الانقلابى الذى تورطت فيه الحكومة اليونانية العسكرية منذ نظام مكاريوس فى قبرص ، وكان ذلك يعتبر فرصة سانحة للتدخل العسكرى فى الجزيرة ، لكى يتوطد وجود تركيا الفعلى فى منطقة الجزر التى ظهرت بها المؤشرات البترولية المذكورة(١) ٠

ثالثا : لم تنس الحكومة التركية ، والرأى العام التركى ، السوابق التاريخية للتعصب القومى اليونانى الشديد ، فى مواجهة الاقليات التركية ، سواء فى جزيرة كريت حيث ذبحت السلطات اليونانية عددا ضخما من ... الجالية التركية بها ، وفى ظرف عدة شهور ، أخلت الجزيرة تماما من العنصر التركى ، وكان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى ، او فى جزر ساموس ... التى لا تبعد عن الشواطىء التركية باكثر من خمسة كيلو مترات فقط ٠

Nicos, Karanidiotis "The Cyprus Problem" op. cit. pp. 38 - 70.

رابعا : يضاف الى الاعتبارات السابقة ، والمتعلقة بالعداء التقليدى التاريخى بين اليونان وتركيا - ضمن خلفيات الغزو التركى لقبرص - عامل يرجعه الى الموقف السياسى الداخلى فى تركيا ، فلقد شهدت البلاد فى الفترة السابقة مباشرة على غزو قبرص ، سلسلة من الأزمات الاقتصادية والاضرابات التى شملت قطاعات متعددة ، مهنية وانتاجية وتجارية . هذا بالاضافة الى تصاعد عمليات العنف من قوى اليسار من بين الشباب والطلاب الأتراك ، وتكرار صدامات الحكومة معها . وبعد وفاة عصمت اينونو ، الرئيس السابق لجمهورية تركيا ، افتقدت السياسة التركية الشخصية القوية التى تجمع حولها اغلبية الراى العام فى البلاد . ولذلك جاء اختيار رئيس الوزراء بولنت ايجيفيت نتيجة لمشاورات ومساومات حزبية ، دامت ثلاثة أشهر كاملة ، وظل ايجيفيت يواجه متاعب تفكك الائتلاف الوزارى القائم . وقبل الغزو التركى لقبرص بأيام قليلة ، تحرج مركز ايجيفيت بعد أن نجح حزب العدالة ، بزعامة سليمان ديميريل ، فى جذب عدد كبير من النواب ضد مشروع قانون العفو الذى قدمته الحكومة للبرلمان ، وذلك حتى لا يشمل هذا المشروع بمسائل العفو عن المتهمين السياسيين . ولجأ رئيس الوزراء الى المحكمة الدستورية التى أصدرت حكما لصالح الحكومة . وبعد أزمة قبرص ، استطاع رئيس الوزراء ، بعد نجاح الغزو التركى للجزيرة ، ان يحصل على شبه اجماع الرأى العام التركى فى داخل وخارج البرلمان(٢) .

خامسا : تدهور العلاقات بين تركيا واليونان الى أدنى درجة لها فى عام ١٩٧٤ ، وقد بلغت هذه العلاقات المتوترة لاروتها نتيجة للاحداث فى المناطق المتنازع عليها من بحر ايجة . ولما كانت كل من تركيا واليونان عضوين في حلف شمال الاطلنطى ، فان التوتر فى العلاقات بينهما يؤدى على المدى البعيد الى انهيار الجناح الجنوبى لحلف شمال الاطلنطى . ويعود توتر هذه العلاقات بين الدولتين الى الانقلاب العسكرى الذى وقع فى قبرص فى ١٥ يوليو ١٩٧٤ . ولم يكن الانقلاب - فى حقيقته - مفاجئا لأحد داخل جزيرة قبرص ، لانه منذ عام ١٩٧٣ ، والخلاف يتصاعد بين الأسقف مكاريوس وبين حكومة اليونان العسكرية ، نتيجة محاولات الحكومة اليونانية المستمرة لقلب نظام

---

(٢) — Hamit, Batu, "New Development in Turkish Foreign Policy" The Atlantic Community Quarterly, Vol. 15, No. 3, 1977.
— Adam, T.W. Cyprus — Reluctant Republic", The Middle East Journal, 1974.

حكم مكاريوس ، والذى كان يرفض الانضمام الى حلف شمال الاطلنطى ، واستخدام الأراضى القبرصية كقواعد للحلف ·

ونجدر الاشارة الى أن قادة الحرس الوطنى فى قبرص ، وهم من الضباط اليونانيين ، قد حاولوا – بتأييد من اليونان – الاطاحة بحكم مكاريوس ، وهو ما جعل مكاريوس يطالب وقتئذ أن يكون الحرس الوطنى فى قبرص تحت سلطات حكومته مباشرة ، وتلى ذلك صدور الاوامر لقادة الحرس الوطنى فى قبرص بمغادرة الجزيرة ، نظرا للدور غير الشرعى الذى مارسه الضباط اليونانيين العاملون فى الحرس الوطنى فى دعم منظمة أيوكا السرية ، وعلى أثر ذلك عقدت قيادة القوات المسلحة اليونانية اجتماعا فى ١٢ يوليو ١٩٧٤ لمناقشة أبعاد طلب الرئيس مكاريوس ، والخطوات الكفيلة بمواجهة الموقف المتأزم ، مما حدا ببعض الأوساط العالمية للتأكيد على امكانية تدخل اليونان فى قبرص ، الذى بات أمرا محتملا ·

ومن منظور تاريخي ، فقد كانت العلاقات المتوترة بين الرئيس مكاريوس والنظام العسكرى فى اليونان ، لها جذورها ، فمنذ استقلال قبرص والرئيس مكاريوس يرفض الاتحاد بين قبرص واليونان ، فضلا عن اتهام حكومة قبرص للحكومات اليونانية المتعاقبة بمساعدة منظمة أيوكا « السرية » ، كذلك فقد تازمت العلاقات بين قبرص واليونان ، منذ بداية أغسطس ١٩٧٣ ، نتيجة لازدياد نشاط منظمة « أيوكا » السرية ، الأمر الذى جعل جورج بابادوبولوس ، الرئيس الأسبق لليونان ، يطالب بوقف نشاطات منظمة أيوكا ، بل وأن نحل المنظمة نفسها ، وكان هدف اليونان من وراء ذلك هو التظاهر بعدم تاييد أو مساندة هذه المنظمة ، وقد سبق ايضاح أن الرئيس مكاريوس كان قد طالب النظام العسكرى فى اليونان بسحب جميع الضباط العاملين فى الحرس الوطنى ، وكان يهدف من وراء ذلك الى أن يسيطر تماما على القوات المسلحة فى الجزيرة ، والتى كانت خاضعة لتوجيهات الضباط اليونانيين ، لم تذعن لخطة الرئيس مكاريوس ، وتحركت فى وقت مبكر ، فنشبت اشتباكات بينهما وبين القوات المسلحة ، فى ٥ يوليو ١٩٧٤ ، أى فى اليوم الثانى لطلب الحكومة القبرصية لسحب الضباط اليونانيين العاملين فى الحرس الوطنى ·

سادسا : استغل مكاريوس الاضطراب السياسى الذى كان [illegible] اليونان وتقدم من أجل القضاء على كل ما يهدد حكمه فى الداخل والخارج [illegible] ان الشعب القبرصى يعانى من ارهاب منظمة أيوكا ، وعلى

الرغم من أن صحيفة « هارلفى » القبرصية قد كشفت المخطط الكامل لمنظمة « أيوكا » السرية وضباط الحرس الوطنى ، الا أن حكومة قبرص لم تتخذ ما يكفل القضاء على هذا المخطط . فقد أكدت الصحيفة أن منظمة « أيوكا » تريد تنفيذ مؤامرة قبل العشرين من شهر يوليو ، لاحباط مشروع الرئيس مكاريوس المتعلق بانهاء الحرس الوطنى . وأضافت الصحيفة قائلة : « ان المنظمة قامت بتوزيع الزى العسكرى على أفرادها ، بهدف تنفيذ خطة تؤدى الى صدام مسلح بين الحرس الوطنى والسلطات الأمنية ، كما تهدف خطة المنظمة الى القيام بأعمال اغتيالات واسعة النطاق ، تشمل المسئولين والسياسيين البارزين المعارضين لها ، وحذرت الصحيفة حكومة الرئيس مكاريوس من أن منظمة « أيوكا » السرية ، وبدعم من ضباط الحرس الوطنى، تحاول القيام بحركة انقلابية ، وقد حدث هذا بالفعل .

٢ ـ نتائج الغزو :

أولا ـ التطورات اللاحقة :

ترتب على الانقلاب العسكرى فى قبرص مجموعة نتائج سياسية وعسكرية ذات أهمية بالغة سواء بالنسبة للدولة(٣) القبرصية ، محليا أو على صعيد منطقة البحر المتوسط ـ اقليميا ـ أو على صعيد المجتمع الدولى ـ عالميا ـ . ففى ١٩ يوليو ـ أى بعد وقوع الانقلاب بأربعة أيام ، أنذر بولنت ايجيفيت ، رئيس وزراء تركيا ، فى محادثاته بشأن أزمة قبرص ، مع جوزيف سيسكو مبعوث الرئيس الامريكى نيكسون ، فى لندن ، بالتدخل العسكرى فى الجزيرة ، اذا لم يتم تحقيق « مطالب أساسية ، وهى سحب ضباط القيادة الانقلابية ، وضمان حماية الجالية التركية ، واعادة حكومة مكاريوس » . ثم طلبت تركيا من الحكومة البريطانية التدخل العسكرى فى أزمة قبرص ، غير أن جيمس كالاهن ، وزير خارجية بريطانيا ، أعلن أن بلاده « تنوى البقاء خارج الأزمة القبرصية فى تطوراتها الحالية » .

وفى اليوم التالى مباشرة ـ أى فى ٢٠ يوليو ١٩٧٤ ـ بدأت القوات التركية تغزو جزيرة قبرص ، جوا وبحرا ، فى نيقوسيا وكيرينيا فى

---

(٢) Adam, T.W., Cyprus — Reluctant Republic", pp. cit.

وراجع أيضا فى تفصيل ذلك .

Crawshaw, Nancy, "Cyprus" Problems of Recovery, The World Today, Vol. 32, No. 2. February 1976 pp. 95–99

الشمال ، وليماسول فى الجنوب ، ولقد استندت تركيا فى تدخلها العسكرى فى الجزيرة الى نص المادة (٤) من معـــاهدة الضمان ، الموقعة بين تركيا وبريطانيا واليونان لعام ١٩٦٠ ، حيث جاء فى هذه المادة أنه يحق لتركيا العمل العسكرى ، فى حالة تدهور الأوضاع فى الجزيرة ، وتعرض استقلالها الى الخطر ، وبلغ مجموع القوات التركية التى نزلت الى الجزيرة ستة آلاف جندى ، وجاء رد الفعل اليونانى ، من جانب الحكومة اليونانية ، فى صورة اعلان التعبئة العامة ، واستدعاء جميع الاحتياط ، كما قامت اليونان باجراء حشود ضخمة من قواتها على حدودها الشرقية مـــع تركيا ، وتجمعت نذر الحرب بين الدولتين ، ووجه وزير خارجية اليونان انذارا الى سفير تركيا فى أثينا بوقف عمليات الانزال فى قبرص ٠

وفى رد رئيس وزراء تركيا على الانذار اليـــونانى ذكر ما يلى : « ان الاجراء اليونانى فى قبرص من شأنه أن يؤدى الى انتهاك استقلال الجزيرة ، وان الغرض الاساسى من عملية الانزال العسكرى فى قبرص ليس حمـــاية الاتراك فحسب ، بل أيضا حمـــاية القبارصة اليونانيين ٠٠٠ » ، ولقـــد اصطدمت القوات التركية بالقوات اليونانية فى معركة بحـــرية بالقرب من بافوس ، على الساحل الجنوبى الغربى لقبرص ، وجاء ذلك بعد أقل من يومين فقط من اعلان تركيا انزال قواتها بالبحر والجو فى قبرص ، ولكن الصدام توقف بعد الجهود الدبلوماسية من جانب الولايات المتحدة الامريكية ٠

أما وكالات الأنباء الغربية فقد جاءت تعليقاتها حول احتمال الحرب بين تركيا واليونان من أن هذه الأخيرة — أى اليونان — لو دخلت الحرب مع تركيا صاحبة أقوى جيش فى شرق البحر المتوسط ، فانها سوف تلاقى تدميرا وهزيمة كبيرة ومحققة ، وربما استندت وكالات الأنباء الغربية فى آرائها هذه على مقولات من جانب المسئولين اليونانيين ، من أن الظروف عند اليونان ، وكذا على ما ذكره رئيس وزراء اليونان وقتئذ بصفة خاصة ، من أن دخـــول اليونان فى حرب مع تركيا يتطلب دخول القوات الجوية اليونانية الحرب ، ولأن المسافة بعيدة بين تركيا واليونان ، فان الحرب مع تركيا كما أضـــاف كرامينلس رئيس الوزراء اليونانى — تكون غير ذى جدوى ، وربما كانت مثل هذه المقولات قريبة من الواقع ، لأن القوات التركية المتحركة من قواعدها فى

Ibid. (٤)

وراجع أيضا : نازلى معوض احمد ، الصراع التركى اليونانى فى الجزيرة القبرصية ، مرجع سابق ص ص ١٦٠ — ١٦٢ ٠

— Nicos; Karanidiotis "The Cyprus Problem", op. cit., pp. 56 - 60.

الأناضول - والتى لا تبعد أكثر من ١٦٠ كم عن قبرص - بامكانها الوصول الى أهدافها بسهولة تامة فى حين أن أقرب القواعد الجوية اليونانية فى جزر رودس وكريت كانت تبعد عن قبرص ٤٠٠ كم .

كذلك فقد دعمت وكالات الأنباء الغربية وجهة نظرها بشـــأن التفوق التركى على اليونان بأنه نظرا لقرب الجزر اليونانية من السواحل التركية فان هذه الجزر تصبح تحت رحمة القوات التركية ، وان بامكان القوات التركية أن تلحق بالتالى الهزيمة بالقوات اليونانية فى تراقيا ، خلال خمسة أيام ، وتفتح أمامها الطريق الى سالونيك وعموما ، فقـــد أدى الانزال التركى فى قبرص الى سيطرة القوات التركية ، التى وصل تعـــدادها الى ثلاثين ألف جندى على القطاع الشمالى من قبرص ، وبمعنى آخر فان نعداد هذه القوات ، طبقا لبيانات المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية فى لندن ، يبلغ حـوالى ثلاثة أمثال القوات المسلحة اليونانية ، وتقول هــــذه البيانات أن مجموع القوات المسلحة التركية النظامية ٤٥٥ ألف جندى ، يضاف اليهم نحو ٥٠٠، ألف من قوات الاحتياط فى حين أن مجموع القوات المسلحة اليونانية النظامية ١٦٠ ألف جندى ، يضاف اليهم نحو ٢٠٠ ألف من قوات الاحتياط ، وهـ الاحصائية ، التى أوردها المعهـــد الدولى للدراسات الاستراتيجيـة ، تفسر السبب الذى جعل الحكومة اليونانية تقبل ايقاف القتال ، بسبب التفـــاوت الكبير بين حجم وفعالية امكانياتها العسكرية ، وبين القوات المسلحـــة التركية .

ولقد قبلت تركيا ايقاف القتال ، كهدنة قصيرة لالتقاط الأنفـــاس ، تعاود بعدها تحركها العســـكرى فى قبرص ، لتوطيد وجودها فى أنحـاء الجزيرة ، حيث تمكنت تركيا بالفعل من السيطرة على حوالى ٤٠٪ من الأراضى القبرصية ، ويرى البعض أن هذه العملية العسكرية من قبل تركيا قد أدت من جانب آخر الى خدمة الاستراتيجية التركية ، لأنها استطاعت استخدام ٤٠٪ من مساحة جزيرة قبرص لصالح استراتيجيتها ، وخاصة ازاء أساس الدولة القبرصـــية المستقبلة كما تراها تركيا ، وكان من نتيجـــة الانزال العسكرى التركى هو هجرة ١٦٠٠٠ يونانى من أماكنهم فى القطاع الشمالى ، كما ترك حوالى ٤٠٫٠٠٠ يونانى بيوتهم لأنهـا استخدمت كثكنات للجيش التركى .

وتجدر الاشارة الى خلفيات هذا العنف التركى الشـديد والسريع فى

مواجهة تطورات المشكلة القبرصية(٥) .

ثانيا ـ نتائج الغزو بالنسبة لقبرص :

لم تمر ثمانى وأربعون ساعة على بدء الغزو التركى لقبرص حتى ترتبت عليه تطورات خطيرة الأثر بالنسبة لكل من قبرص واليونان . فلقد قدم نيكولاس سامبسون ، الرئيس الذى عينته سلطات الانقلاب استقالته ، بعد أن ظل ثمانية أيام فقط فى منصبه ، وخلفه جلافكوس كلاريديس ، رئيس المجلس الوطنى (البرلمان) ونائب الرئيس مكاريوس . وكلاريديس هو مؤسس وزعيم الحزب الديموقراطى الموحد ، اليمينى المعتدل ، الذى دافع دائما عن سياسة الرئيس مكاريوس فيما يتعلق بمستقبل قبرص وكيفية حل المشكلة الطائفية عن طريق المفاوضات المباشرة ، فى اطار فكرة استقلال الجزيرة كدولة ذات سيادة . وكان كلاريديس يحظى أيضا باحترام الأقلية التركية ، بعد أن مثل الجانب اليونانى فى المفاوضات التى دارت بين زعماء الجاليتين ، فى أواخر أعوام الستينيات . وكان أول اجراء اتخذه كلاريديس ، بعد تعيينه رئيسا للجمهورية ، هو الاجتماع مع رءوف دنكتاش ، زعيم طائفة القبارصة الأتراك ، بحضور قادة قوات الأمم المتحدة بالجزيرة ، لبحث وسائل تنفيذ وقف اطلاق النار : وهكذا أنهى الغزو التركى سيطرة قادة الانقلاب العسكرى من ضباط الحرس الوطنى على مقاليد الحكم فى قبرص .

ثالثا ـ نتائج الغزو بالنسبة لليونان :

شهدت اليونان تحولا جذريا فى أوضاعها السياسية الداخلية على أثر الغزو التركى القبرصى ، فالحكومة العسكرية برئاسة أدامنتيوس أندروتسوبولوس ، بعد أن أخطأت خطأ فاحشا فى أسلوب معالجة خلافاتها بالنظام السياسى القبرصى ، أذعنت لضغوط الجيش الثالث ، بقيادة الجنرال ايدانيس دافوس ، وهو الجيش الذى توجد مراكزه فى سالونيكا ويشرف على منطقة الحدود بين تركيا واليونان . واستقالت الحكومة العسكرية ، مع بقاء الجنرال فيدون جزيكس رئيسا للجمهورية . وأعلنت القوات المسلحة اليونانية أنها قررت التخلى عن الحكم فى البلاد ، وتسليم زمام الأمور الى حكومة مدنية . واستدعى الرئيس جزيكيس ، قسطنطين كارامانليس ، رئيس وزراء اليونان الأسبق فى الفترة ما بين عامى ١٩٥٥ ، ١٩٦٣ ، من منفاه بباريس ، ليترأس الوزارة المدنية الجديدة .

---

(٥) Crawshaw, Nancy, "Cyprus Problems of Recovery", op. cit.

ولقد تمكن هذا السياسى المخضرم فى ضون سغاعات قليلة ، من عودته الى بلاده ، من تشكيل حكومة جديدة ، من أحد عشر وزيرا ، منهم خمسة من نواب حزب الاتحاد الوطنى المراديكالى السابقين ، وهـــو الحزب الذى كان كرامانليس قد أسسه قبل ذلك - وثلاثة من نواب حزب اتحـاد الوسط ، الذى يتزعمه جورج مافروس وزير الخارجية ، وثلاثة من المستقلين • وقررت حكومة كرامانليس اصدار عفو عام عن جميع المسجونين السياسيين ، والغاء المعتقل الذى أقامته الحكومة العسكرية السابقة فى جزيرة باروس ، فى بحر ايجه • كذلك أعفت الحكومة المدنية الجديدة البريجادير ديمتريوس يوانيدس، قائد الشرطة العســـكرية من منصبه ، وأصدرت مرسوما دســتوريا يقضى بادخال ١٢ تعديلا على دستور سنة ١٩٥٢ ، الذى أعيد العمل به منــذ أول أغسطس سنة ١٩٧٤ ، وتشمل هذه التعديلات ضـــمان حقوق المواطنين ، واستقلال القضاء واخضاع الجرائم الصحفية للمحـــاكم العـــادية ، وتوفير الضمانات لحرية التعبير ، ونزاهة الانتخابات •

وهكذا تسببت أحداث قبرص فى جعل رياح الحرية السياسية تهب على اليونان ، بعد سبع سنوات من الدكتاتورية العسكرية وتمتعت اليونان بحكم مدنى يتسم بالديمقراطية التقليدية(٦) •

---

(٦) نازلى معوض أحمد ، الصراع التركى اليونانى فى الجزيرة القبرصية ، مرجع سابق
- دكتور غسان عطية ، « حول الأزمة القبرصية » ، مرجع سابق •
— Nicos Karanidiotis "The Cyprus Problem, op. cit.

التبريرات والمفاوضات

١ ـ دوافع تركيا لغزو قبرص (التبريرات التركية) :

بررت تركيا انزال قواتها فى قبرص بأنها تدافع عن حقوق الطائفة التركية فى الجزيرة ، والتى يبلغ عددها ٢٠٪ من مجموع السكان .

ولقد استغلت تركيا الانقلاب العسكرى فى قبرص كى تحسم الصراع على جزر بحر ايجه . ولا سيما عندما استطاعت اليونان الحصول على البترول من قاع بحر ايجه ، وكانت تركيا قد فقدت هذه الجزر فى العشرينيات من هذا القرن ، نتيجة للحرب التى قامت بين تركيا واليونان ، وترى تركيا أن هذه الجزر متاخمة للاناضول ، وبالمقارنة باليونان فان هذه الجزر تبتعد عنها بمئات من الكيلو مترات ، وفي خضم هذه الأحداث ، قامت تركيا بارسال سفينه بحث ، وردت اليونان بمذكرة احتجاج مطالبة فيها بسحب سفينة البحث التركية ، غير أن سليمان ديمريل ، رئيس الوزراء وقتئذ ، أعلن أن السفينة ستستمر فى مهمتها فى بحر ايجه (١) . وتنفيذ برنامجها المحدد ، بالرغم من احتجاجات اليونان .

وعموما فقد جاءت قضية جزر بحر ايجه لتخلق جوا من عدم الاستقرار السياسى فى كل من تركيا واليونان ، وتزيد من التوتر فى العلاقات بينهما ، خاصة وأن تركيا لم تنس الحرب الدامية التى كانت قد خاضتها مع اليونان فى بداية العشرينيات من هذا القرن .

وهناك أيضا الدور المؤثر للأحزاب السياسية التركية على الأزمة القبرصية ، فالاتراك يعتبرون احتلال ٣٨٪ من جزيرة قبرص بمثابة عملية تحرير لمواطنيهم ، والأحزاب السياسية التركية على اختلاف وجهات نظرها ، لا تقبل بعودة القبارصة الأتراك الى وضعهم القديم ، وهذا يفسر السبب فى

---

(١) يرجع فى تفصيل ذلك الى :

أحمد نوري النعيمي . الصراع التركى اليونانى على بحر ايجه ، فى : مجلة الحقوق ، العددان الاول والثانى ـ بغداد ١٩٧٧ .

تنافس الأحزاب السياسية الكبيرة ــ وعلى رأسها حزب العدالة بزعامة سليمان ديميريل ، وحزب الشعب الجمهورى برئاسة بولند أجويد ــ تنافس هذه الأحزاب على اثارة المشاعر القومية التركية ، ثم تعهدها بعدم الرضوخ لأى ضغط أجنبى من شأنه أن يؤدى الى التنازل عن أى شبر من الأرض التى استولت عليها القوات التركية ، بل أن حزب الشعب الجمهورى قداستغل هذا الموضوع فى الانتخابات النيابية ، التى كانت على وشك أن تجرى فى تركيا ، فى الحصول على أغلبية المقاعد فى المجلس الوطنى التركى ، وباعتبار هذا الحزب بمثابة المنقذ ، الذى تمكن من تحرير الأقلية القبرصية التركية من سيطرة الأكثرية القبرصية اليونانية .

وأدت هذه المنافسة الحادة بين الحزبين الكبيرين الى أحداث انتخابية ذاتية ، لا سيما وأنها ــ أى هذه المنافسة ــ قد تطرقت الى نقد السياسة الخارجية التركية . فخليفة عصمت اينونو حمل شعار وجوب التخلص من النفوذ الأمريكى ، فاما أن تكون هناك علاقات بين تركيا والولايات المتحدة تقوم على مبدأ الند للند ، واما أن تنتهى العلاقة مع أمريكا بانسحاب تركيا من الأحلاف العسكرية ، وازالة القواعد العسكرية فيها . وعلى هذا الأساس ، فليس من حق الولايات المتحدة ــ من وجهة النظر هذه من جانب قادة الشعب الجمهورى ــ التدخل أو ممارسة الضغط على تركيا . لارغامها على تقديم تنازلات لليونان من قبرص (٢) ، أما سليمان ديميريل ، خليفة عدنان مندريس ، فقد اضطر الى المزايدة على أجويد بشأن مصير الأزمة القبرصية ، ولم يكن باستطاعته التساهل فى هذا الموضوع ، والا خسر ثقة الناخبين ، وقيادات الجيش التركى التى ما زالت تمسك بجميع خيوط الدبلوماسية التركية .

أما فيما يتعلق بحزب الانقاذ الوطنى ، الذى شكل الائتلاف الحكومى بزعامة أجويد ، فقد أكد هذا الحزب ضرورة سيطرة القوات المسلحة التركية على الجزيرة كلها ، وعلى ذلك فان نجم الدين اربكان زعيم الحزب ، لم يؤيد خطة أجويد ، فيما يتعلق بالحكم الفيدرالى فى جزيرة قبرص . وتجدر الاشارة فيما يتكوين حزب الانقاذ الوطنى الى أنه كان جناحا فى حزب العدالة ، لكنه انفصل عنه فى يناير ١٩٧٠ ، ثم تكون هذا الحزب ــ حز الانقاذ الوطنى ــ بقرار من المحكمة الدستورية بعد تدخل الجيش فى مارس ١٩٧٢ ، كذلك تأتى أهمية ما اتخذه هذا الحزب من قرارات على صعيد الرأى العام التركى ،

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١ .

واستقطابه لتأييده ، مما يدعو الى هذا الحزب من اقامة توازن بين تركيا وحلف شمال الأطلسى ، وذلك لتحقيق مصالح تركيا ، واعتنق الحزب أيضا المبادىء الاسلامية ، وطالب باعادة دروس الدين الاسلامى الى المدارس ، ومثل شعاره « الله والأخلاق » أملا لدى الجماهير التركية ، مما جعل الحزب يمثل نفسه فى المجلس الوطنى التركى بـــ ٤٨ مقعدا ، بموجب انتخابات عام ١٩٧٣ (٣)٠

وعموما ـــ فانه فيما يتعلق بوجهة النظر التركية (٤) ، لتبرير تدخلها فى جزيرة قبرص ، فاننا نجد أن الحجة الأساسية لهذا التدخل المسلح جاءت تحت ذريعة نصرة القبارصة الأتراك المضطهدين ، ولقد أرضت هذه التبريرات طبقات المجتمع التركى ، التى سادتها البهجة نتيجة لانهزام اليونان ، وحتى أوساط اليسار التركى ، اعتبرت التدخل التركى المسلح فى جزيرة قبرص كوسيلة لزعزعة النظام العسكرى فى أثينا ، الذى كان الكولونيلات على قمته، أما بالنســبة لأجويد ، فان التدخل كان بمثابة فرصة ذهبية لاســتقطاب العسكريين والمعارضة اليمينية الى جانبه ، وبالتالى لتحقيق نوع من الوحدة المقدسة • ولقد أثار التدخل التركى المسلح فى جزيرة قبرص ردود فعلمختلفة سوف تتعرض لها فى موضع لاحق من هذه الدراسة ، ولكن ما ينبغى التركيز عليه هنا ، هو الموقف السوفيتى (٤) حيث جاء سفير الاتحاد الســـوفيتى

---

(٣) يرجع فى تفصيل ذلك :

— Landau M., Jacob, The 1973 Elections in Turkey and Israel", in : The World Today, Vol. 30, No. 4, April, 1974, p. 176.

ـ احمد نورى النعيمى ، تركيا وحلف شمال الاطلسى ، مرجع سابق ص ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ ٠

(1) Turkish Foreign Policy Report, Ministry of Foreign Affairs, Aukara, August, 1974 & No. 15, July 1; 1976.

(٤) راجع فى تفصيل الموقف السوفيتى وحذوره تجاه تركيا وقبرص ٠

— George, S. Harris. The Origines of Communism in Turkery, Hoover Institution Publications, Stanford, California, 1967.
— Karpart, Kemal H., "Society Economic and Politics in Contemporary Turkey", World Politics, A Quarterly Journal of International Relations, Vol. XUII, No. 1, October 1964.
— Giritli, Ismet, "Turkish — Soviet Relations", Indian Quarterly : A journal of International Studies, No. 1, Vol. XXVI, January — March, 1970.
— Batu, Hamit, "New Development in Turkish Foreign Policy", The Atlantic Community Guartely Vol. 15, No. 3, Fall, 1977.

فى أنقرة ، ليؤكد لرئيس الجمهورية التركى تفهم الكرملين ، وهكذا أعتبرت أكثرية الرأى العام التركى هذا التدخل بمثابة عملية عسكرية ناجحة ، فضلا عن أن احتلال الجزء الشمالى من الجزيرة قد مثل حقيقة ، من وجهة النظر التركية ، وهى أن التقسيم بات هو الطريقة الوحيدة لحماية الأقلية التركية فى قبرص ٠

٢ — المفاوضات المباشرة بين طرفى المشكلة :

أدى التغير فى نظام الحكم فى كل من قبرص واليونان الى ظهور امكانيات التفاوض المباشر بين تركيا واليونان ، حول مستقبل قبرص ٠ فلقد قبلت كل من أنقرة وأثينا الدعوة البريطانية (٥) للتباحث حول الأزمة ، وخضعتا للضغوط المتضافرة ، التى قامت بها الدبلوماسية الأمريكية ، والدول الأوروبية الأعضـاء فى السوق الأوروبية المشـتركة ، من خلال جهود وزير الخارجية الفرنسى ٠

وفى ٢٥ يوليو ١٩٧٤ ، بدأ فى جنيف المؤتمر الثلاثى للسلام فى قبرص بين وزراء خارجية بريطانيا وتركيا واليونان [الدول الثلاث الضامنة لاستقلال قبرص وفقا لمعاهدة الضمان لسنة ١٩٦٠] ، وبحضور ممثل للأمم المتحدة ، كمراقب ، هو روبرتو جوير ، المساعد الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة ٠ واتضح خلال أيام انعقاد المؤتمر مدى عمق وحدة التضارب بين وجهتى نظر اليونان وتركيا ، بشأن تنظيم المستقبل السياسى القبرصى ٠

وفى اليوم الثالث للمؤتمر ، تقدم طوران جينيس ، وزير خارجية تركيا، بمشروع اتفاق شامل ، يتضمن اتخاذ اجراءات عاجلة لضمان احترام وقف اطلاق النار فى قبرص ، وايجاد مناطق فاصلة بين القوات التركية واليونانية، على أن تشرف عليها قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة ، وأن تقوم بريطانيا وتركيا واليونان بالاشراف على مطار نيقوسيا ، مع احترام الحقوق والتسهيلات التى تتمتع بها القوات البريطانية فى المنطقة ، وأن يستعيد نائب رئيس جمهورية قبرص ، وهو تركى ، سلطاته ، كما تستعيد قبرص وضعها الطبيعى كدولة ذات قوميتين ٠ وأخيرا طالب المشروع التركى باقامة ادارتين تتمتعان

---

(٥) راجع :
Kurkcuaglu, Omer, British Policy During 1974 Cyprus Crises" Dis Politica, Nos. 2-3 February 1975. Ankara.

بالاستقلال الذاتى فى الجزيرة ، احداهما تركية والاخرى يونانية . غير أن الجانب اليونانى رفض هذه المقترحات ، بدعوى . أنها كانت تهدد استقلال الجزيرة ، وأصر على أن هدف مؤتمر جنيف هو تطبيق قرار مجلس الأمن بشأن قبرص ، والذى يقضى باقرار السلام والعودة للنظام الدستورى ، وانسحاب الجيوش الأجنبية أولا . وأعلن جورج مافروس ، وزير خارجية اليونان ، ان تسوية المشكلة القبرصية لا يمكن ان تتم على مائدة المفاوضات الا باشتراك ممثلين عن الشعب القبرصى .

ولقد توصل المؤتمرون فى ٢١ يوليو ١٩٧٤ الى اتفاق بشأن قبرص ، وصفه المراقبون بأنه يعطى تركيا قبضة (٦) عسكرية حديدية على الجزيرة كما يكفل بقاء قبرص مقسمة الى أجل غير مسمى ، اذ لم يلزم هذا الاتفاق تركيا بسحب قواتها الغازية ، وانما قنع فقط بخفض هذه القوات ووقف اطلاق النار . كما تقرر استئناف التشاور الدبلوماسى على مستوى وزراء الخارجية الثلاثة ، يوم ٨ أغسطس ١٩٧٤ ، لبحث المشكلات الدستورية لقبرص . وبناء على هذا الاتفاق ، أصدر مجلس الامن قرارا بتفويض قوات الأمم المتحدة فى قبرص سلطات اضافية للمحافظة على وقف اطلاق النار بين القوات التركية واليونانية ، وذلك بأن يتسع اختصاص القوات الدولية فى الجزيرة ، بحيث لا يقتصر على مهمتها الاصلية منذ سنة ١٩٦٤ ، وهى مجرد حفظ السلام بين القبارصة اليونانيين والأتراك فى المناطق التى يختلط فيها سكان الجانبين ، بل يمتد كذلك ليشمل استخدام هذه القوات فى منطقة أمن عازلة ، وتقام بين القوات التركية وقوات الحرس الوطنى اليونانى القبرصى .

غير أن الاشتباكات العسكرية قد استمرت فى أنحاء واسعة من جزيرة قبرص ، حتى استأنف وزراء خارجية تركيا واليونان وبريطانيا اجتماعهم فى جنيف يوم ٨ أغسطس ، فى محاولة لتدعيم النواحى التنفيذية العملية لقرار وقف اطلاق النار بين الجانبين . واشترك الرئيس القبرصى الجديد ، كليريديس ، فى هذه الجولة الجديدة من المباحثات ، معلنا ايمانه بالمحافظة على استقلال قبرص ووحدة أراضيها ، ضمن تسوية سياسية دائمة ،

---

(٦) وراجع أيضا :

— Newsweek August 26, 1974.

— The International Herald Tribune, November 8, 1976.

تكفل اقامة حكم ذاتي واسع النطاق لطائفة القبارصة الأتراك ، وقد أدت هذه التطورات الى انهيار مؤتمر جنيف الثاني ، بعد أن رفض الجانبان اليوناني والقبرصي مقترحات تركية ، تنص على منح الأقلية التركية في قبرص — وعددهم ١١٠ ألف نسمة ، ستة أقاليم مستقلة يحكمونها ذاتيا ·

كذلك فقد أدت الاشتباكات العسكرية وتصاعدها في الجزيرة الى انفجار الموقف العسكري مرة أخرى بصورة خطيرة ، فاندلع القتال على أوسع نطاق ، وتمكنت القوات التركية في منتصف أغسطس ١٩٧٤ من السيطرة على نحو ٣٥٪ من مجموع مساحة الجزيرة ، اذ قامت باحتلال قطاع رئيسي من شمال قبرص يمتد فأماجوستا في الشرق الى خليج مورفو ومدينة لنيكا في الشمال الغربي ، مارا بنيقوسيا العاصمة ، والهضبة الوسطى للجزيرة ، فيما سمي « بخط أتيلا » ، وهو الجزء الذي يحدد القطاع التركي الذي تطالب أنقرة بادارة مستقلة له ، في اطار دولة فيدرالية ، وانتقل الرئيس القبرصي كلاريديس ووزراؤه من نيقوسيا الى ليماسول · ولقد اعتبرت تركيا أنها قد حققت الأهداف الاقليمية لطائفة الأتراك القبارصة ، وقد أصدر بولنت ايجيفيت ، رئيس وزراء تركيا بيانا يعلن فيه ، بعد نجاح التحرك العسكري التركي في قبرص ، أن بلاده قد بدأت وقف اطلاق النار ، بعد أن تم ارساء الدولة القبرصية الاتحادية الجديدة » (٧) ، وسرعان ما جاء رد الفعل اليوناني ، فأذاعت حكومة اليونان بيانا رسميا تذكر فيه أنه نظرا لعجز حلف شمال الأطلنطي عن منع تركيا عن اثارة نزاع بين عضوين في الحلف ، فقد أصدر رئيس الوزراء أمرا الى القوات المسلحة اليونانية بالانسحاب من الأجهزة العسكرية للحلف ، وأن يقتصر اشتراك اليونان في الحلف على عضويتها في أنشطته السياسية فقط ·

ولقد أثر قرار اليونان بالانسحاب من الحلف الأطلنطي على الاتفاقيات الثنائية بين الولايات المتحدة (٨) واليونان بصفة خاصة ، فيما يتعلق بالتسهيلات البحرية للأسطول السادس في الموانى اليونانية ، ومنها ميناء بيريه ، بالاضافة الى المنشآت الدفاعية لحلف الأطلنطي ، الموجودة على أراضي

---

(٧) Ibid

(٨) راجع : Gonlubol, Mehmet, "Turkish — US Relations", Foreign Policy, No. 4, December 1971, Ankara.

اليونان ، وفرضت الحكومة اليونانية فور انسحابها من الحلف ، قيودا على الحركة فى القواعد العسكرية الأمريكية لديها (٩) ، وانعكست هذه الاجراءات أيضا على صعيد الرأى العام اليونانى ، حيث سادت موجة عنيفة من العداء الشعبى فى أثينا ضد الولايات المتحدة ، بسبب امتناع هذه الأخيرة عن التدخل لوقف تقدم الغزو التركى لقبرص واجتاحت العاصمة اليونانية مظاهرات صاخبة ضد السياسة الأمريكية فى أزمة قبرص ، ورفضت الحكومة اليونانية، فى أواخر أغسطس ١٩٧٤ ، نداءا وجهه اليها هنرى كيسنجر ، وزير الخارجية الأمريكى ، لاستئناف المحادثات الثلاثية من أجل تسوية الأزمة القبرصية نهائيا ، وأوضحت الحكومة اليونانية موقفها رسميا من حلف الأطلنطى فى مذكرة رسمية أرسلتها الى الدول الأعضاء الأربع عشرة فى الحلف ، تعلن فيها انهاء استخدام قوات الحلف لقواعدها فى اليونان (١٠) ، ومنع استخدام المياه الاقليمية والمجال الجوى اليونانى ، دون اذن مسبق من حكومة اليونان ؛ وقدمت اليونان فى مذكرتها تفسيرا لقرارها بالانسحاب من حلف الأطلنطى ، على أساس « أنها لا تستطيع التعاون مع حلف الأطلنطى ، على تركيا ، خرقت الاتفاقات الدولية ، وتسببت فى أضرار بالغة لليونانين القبارصة ، باحتلال تركيا لأكثر من ثلث أراضى قبرص » (١١) .

---

(٩) Ibid.

Tashan, Seyti, "Turkish — US Relations and Cyprus".

(١٠)

Foreign Policy, Nos — 2 — 3, Vol. 4, February 1975, Ankara pp. 160-175

(١١) Cyprus and Turkey, Ministry of Foreign Affairs, Ankara, 1974.

وراجع أيضا :

— Roston, James, "Cyprus Crises and Nato's Flank, in : International Herald Tribune, July 18; 1974.

— The New York Times, September 9, 1974.

ردود فعل الولايات المتحـدة

١ ـ موقف الولايات المتحدة (١) :

هناك محوران رئيسيان تدور حولهما السياسة الأمريكية تجاه قبرص. أولهما هو منع انتقال الجزيرة الى النفوذ السوفيتي ، فالجزيرة تتمتع بموقع استراتيجي فريد في شرق البحر المتوسط ، وبذلك تمثل الحلقة الأرضية المثلى لربـط الأحلاف الغربية الثلاثة : حلف شـمال الأطلنطى ، والحلف المركزى ، وحلف جنوب شرقى آسيا . وتضاعف أهمية قبرص الاستراتيجية بعد أن تزايد الوجود البحرى السوفيتى فى المنطقة ، وبعد أن أنهت كل من مالطة وليبيا القواعد العسـكرية البريطـانية والأمريـكية التى كانت قائمة على أراضيها ، والمحور الثانى للسياسة الأمريكية هو أن الأزمة القبرصية وثيقة الصلة ببنيان حلف شمال الأطلنطى ، واحتمالات تصدعه نظرا لكونها تحمل مقدمات دائمة للصراع العسكرى بين تركيا واليونان . وهذا يفسر الموقف الأمريكى المهاون للغزو العسكرى التركى لقبرص . فتركيا ، بالنسبة للولايات المتحدة ، ومصالحها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية في منطقة شرق البحر المتوسط ، هى الحليف الأقوى بكثير من الحليف الآخر فى نفس المنطقة ، وهو اليونان . وسيطرة الحليف الأقوى على زمام الأمور فى الجزيرة ، كفيل بتحقيق المصالح والأهداف الأمريكية فى ذلك الجزء الحيوى من العالم .

من هنا جاء التأييد الأمريكى لوجهة النظر البريطانية الرسمية ، التى ترى حل مشكلة قبرص على النمط السويسرى ، بانشاء مقاطعات يونانية وتركية منفصلة ، تحت رئاسة حكومة فيدرالية .

ومن منظور تاريخى ، حاولت الولايات المتحدة ، منذ عام ١٩٦٧ ، ايجاد تسوية سلمية لمشكلة قبرص ، وقد تمت مباحثات بين وزيرى خارجية تركيا واليونان فى يونيو ١٩٧١ لبحث المشـكلة ، وأكد الجانب الأمريكى فى هذه المباحثات على ضرورة ايجاد مقر دائم للأسطول السادس الأمريكى :

---

(١) راجع فى تفصيل ذلك :
— Tashan, Seyfi, "Turkish — US Relations and Cyprus, op. cit., pp. 174 - 178.
— The New York Times, July 18, 1974.

بهدف اقامة ثلاثة آلاف من الرعايا الأمريكيين وعائلاتهم ، وقد نتج عن هذه الاجتماعات توقيع اتفاق بين الطرفين ، ويدل هذا الموقف الأمريكى على مدى اهتمام الولايات المتحدة بضرورة التوصل الى حل للمشكلة القبرصية منذ البداية ٠

وهذا الموقف الأمريكى تجاه مشكلة قبرص قد أخذ أشكالا عديدة ، فضلا عن تطوره حسب تطورات المشكلة ذاتها ، وتفسير ذلك نجده فى الشواهد التالية : فعندما حدث الانقلاب العسكرى فى قبرص ، فان التقارير التى تسربت من وزارة الدفاع الأمريكية تدل على أن الولايات المتحدة كانت لها اليد الطولى فى الانقلاب ، لأنها كانت راغبة فى الاطاحة بحكم الرئيس مكاريوس ، لأنه انتهج سياسة عدم الانحياز ، وأقام علاقات صداقة مع دول المعسكر الاشتراكى ٠ كما أن مكاريوس رفض اقامة قاعدة بحرية للولايات المتحدة فى الجزيرة ، وليس هذا فحسب ، بل أن مكاريوس وقف ضد المخططات الاستراتيجية الأمريكية فى شرق البحر المتوسط (٢) وهو ما يستدعى وقفة لتفسير وتعليل موقف مكاريوس على النحو السابق ٠ فقد كانت جزيرة قبرص مركزا الحاملات الطائرات ٠ كما كانت قاعدة للقوات الانجليزية والفرنسية ، وقت الهجوم على السويس ، فى سنة ١٩٥٦ ، ولقد عارضت اليونان فى سيطرة بريطانيا على الجزيرة ، وشجعت الوطنيين اليونانيين فيها على طلب الانضمام الى الوطن الأم بقيادة مكاريوس ، وعجزت بريطانيا عن الصمود أمام عمليات الفدائيين ، واضطرت الى الموافقة على اتفاقيات زيوريخ ولندن سنة ١٩٥٩ مع اليونان وتركيا ، وبدأت بذلك سياسة حل وسط ، باعطائها الاستقلال للجزيرة ، وباحتفاظها بالقواعد العسكرية تحت السيادة البريطانية ، وبضمانها بعض الميزات للاقلية التركية ٠ ولكن مكاريوس — الذى أصبح رئيسا للجمهورية سنة ١٩٦٠ — كان يرغب فى التخلص من القيود والاشتراكات والتحفظات ٠ وزادت حدة الصدامات بين الجاليتين ، اليونانية والتركية فى الجزيرة ، إبتداء من سنة ١٩٦٣ ٠ وزاد التوتر حدة سنة ١٩٦٧ ، وأظهرت الحكومة العسكرية التركية نيتها للدفاع عن الجالية التركية فى الجزيرة ضد الحكومة العسكرية اليونانية غير المحبوبة ، والتى كان العسكريون قد قاموا بانقلاب واستولوا به على السلطة فى أثينا ، واضطرت هذه الحكومة

---

(٢) راجع فى تفصيل ذلك :

دكتور اسماعيل صبرى مقلد ، الأمن الأوروبى والتعايش السلمى بين المعسكرين ، فى : السياسة الدولية ، العدد ٣٢ — القاهرة ، أبريل ١٩٧٣ ٠

الى انتهاء الأوامر بسحب القوات اليونانية ، التى كانت قد وصلت بغير طريق شرعى الى الجزيرة . بقيادة الجنرال جريفاس ، ولكن العداء ظل مستمر بين الطائفتين . وعجز الانجليز والأمريكيون عن أن يجدوا حلا مرضيا لكل من تركيا واليونان حليفيهما فى حلف شمال (٣) الأطلنطى . وحين أثيرت مشكلة قبرص من جديد فى سنة ١٩٧٤ بالانقلاب الذى تم فيها ضد مكاريوس من أجل الوصول الى ضم الجزيرة لليونان ، واضطر مكاريوس الى الخروج من الجزيرة محتفظا بالسلطة الشرعية ، اضطرت تركيا الى التدخل ، وأرسلت ٤٠٫٠٠٠ جندى الى الجزيرة ، واحتلت ثلثها الشمالى الذى تسكنه غالبية الأتراك ، وأظهرت عجز حكومة اليونان العسكرية عن الوصول الى مواجهة ساخنة مع تركيا بشأن قبرص ، الأمر الذى أدى الى فقدانها هيبتها والى سقوطها . وعاد مكاريوس الى الجزيرة ، وظلت القوات التركية فى قطاعها الشمالى . وكادت كل من تركيا واليونان وقتئذ أن تصلا الى حالة مواجهة ، وانهما عضوان فى حلف شمال الأطلسى ، وقررت الولايات المتحدة عدم تزويد تركيا ببعض الأسلحة ، كما أعلنت اليونان انسحابها من حلف شمال الأطلسى . وحدثت الفوضى داخل الحلف (٤) .

٢ - مواجهة الولايات المتحدة للأزمة :

ان أهمية القطاع الجنوبى من حلف شمال الأطلسى لم تغب أبدا عن أذهان صانعى السياسة الأمريكية ، حتى مع تغير الموقف الأمريكى من الكتلة الشرقية وقتئذ ، وقد استأثرت اليونان باهتمام الولايات المتحدة ، وأصبح النفوذ الأمريكى فى اليونان قوى جدا ، وامتد الى الأحزاب السياسية وجماعات الضغط ورجال الجيش ، وننبغى الاشارة بهذا الخصوص الى قيام الضباط الأمريكيين بتدريب الضباط اليونانيين ، وكذلك ساد تلاحم بين المخابرات الأمريكية واليونانية ، وهذا التعاون تعود جذوره التاريخية الى ما قبل وصول الضباط اليونانيين الى الحكم ، ولقد عمل بابا دوبولس فى المخابرات الأمريكية لفترة طويلة .

وتبدو أهمية الفقرات السابقة حين نعلم أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت غير راضية عن تصرفات هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا

---

(٣) راجع فى تفصيل ذلك :
دكتور جلال يحيى . العالم المعاصر - دار الكتب الجامعة - الاسكندرية ١٩٧٦ ص ص ٤١١ - ٤١٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٤١٣ .

ـ وقتئذ ـ ازاء حكم مكاريوس (٥) ، لأن تأييد مكاريوس من وجهة نظر الوزارة، يعنى التخلص من الحكم العسكرى فى اليونان ، غير أن هنرى كيسنجر عارضه فى ذلك بشــدة ، وبرر موقفه (٦) هذا أمام البنتـاجون ووكالة المخابرات الأمريــكية بأن اليونان تعتبر مهمة للولايات المتحـدة لأنها تخدم المصـالح الاستراتيجية ، خاصة وأن هناك قاعدة عسكرية أمريكية تعتبر مقرا للاسطول الأمريكى السادس ، وتخلى الولايات المتحدة ـ من وجهة نظر كيســنجر ـ عن النظام العســكرى فى اليونان يعنى معاداة اليونان لأمريـكا ، وبالتالى تعريض المصـالح الأمريكية فى اليونان للخطر ، كذلك فقد أكد كيســنجر على الدور الأمريكى فى منع قيام الحرب بين تركيا واليونان بشأن قبرص ، خوفا من انهيار الجناح الجنوبى الشرقى من حلف شمال الأطلنطى .

والصحف الأمريكية ، هى الأخرى ، أشارت صراحة الى تورط الحكومة الأمريكية فى الانقلاب الذى حدث فى قبرص ، ولمحت هذه الصحف الى العلاقة الشخصية التى ربطت بين السفير الأمريكى فى اليونان وقتئذ وبين أحد الرجال الأقوياء فى المجلس العسكرى ، وكيف كانت المقابلات تتم فيما بينهما ، وكتبت احدى الصحف الأمريكية مقالة أكدت فيها أن الولايات المتحدة كانت تعرف الشىء الكثير عن المؤامرة ، ولكنها لم تحاول منع ذلك قبل وقوع الانقلاب فى قبرص ، أما الصحف البريطانية ، وعلى رأسها صحيفة الجارديان ، فكتبت تقول : « ان الطرف الذى يجب ارغامه هو اليونان ، ومن الثابت أن الولايات المتحدة قد تأخرت فى القيام بردها الصارم ، وأنها كانت تستطيع فى أى وقت تشاء أن تقوم بهذا الشىء ، وأن تمنع وقوع الأحداث المؤلمة » .

وكتب جيمس ريستون ، وحد صحفى أمريكى ذائع الصيت ، ويمثل الاتجاه الرسمى فى الولايات المتحدة ، كتب فى الهيرالد تريبيون مؤكدا على النقاط التالية .

---

(٥) راجع : أحمــد نورى النعيمى ، الموقف التركى من ازمة قبرص ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ ، مرجع سابق ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

— The New York Times July 18, 1974.

(٦) Tashan, Sayfi, "Turkish — US Relations and Cyprus", in : Foreign Policy; Nos : 2 - 3, Vol. 4, February 1975, Ankara. p. 170.

راجع : دكتور غسان العطية ، السياسة الأمريكية والأزمة القبرصية ، انقلاب سامبسون والغزو التركى ١٩٧٤ ، فى : مجلة العلوم السياسية والقانونية ، العدد الأول ـ بغداد ١٩٧٨ ص ص ٨٨ ـ ٩٢ .

أولا : من الممكن أن يتغير ميزان الاستراتيجية فى كل (٧) من مالطة وكريت وقبرص فيما اذا سيطرت عليها قوى معادية ، ان موسكو وواشنطن يتسامحان فى حالة حياد جزيرة قبرص ، ولكنهما بالتأكيد يختلفان فى حالة سيطرة احداهما عليها • وهكذا نجد أن حكومة نيكسون قد واجهت مشاكل جمه ، منها التدخل فى الشئون الداخلية لليونان ، وبالتالى تحريض النظام العسكرى فيها على الاحاطة بحكم الرئيس مكاريوس • ان الولايات المتحدة بحاجة الى التعاون مع الحكم العسكرى فى أثينا ، لأسباب استراتيجية للدفاع عن مصالحها فى الشرق الأوسط •

ثانيا : تولى الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بالحوادث الأخيرة فى قبرص لتفادى وقوع صدام مسلح بين دولتين من أعضاء حلف شمال الأطلسى ، لان وقوع ذلك سوف يؤدى الى أخطار جسيمة ، من الناحية الاستراتيجية ، فى شرق البحر المتوسط •

ثالثا : تؤكد الآراء الرسمية فى الولايات المتحدة أنه من الصعوبة بمكان دعم الأسطول السادس الأمريكى فى شرق البحر المتوسط بدون وجود القواعد العسكرية فى اليونان •

رابعا : أن الولايات المتحدة تعاطفت مع حكم الرئيس مكاريوس ، وبالتالى تعهدت بالدفاع عن حكمه ، الا أن لأخير اتجه نحو الاتحاد السوفيتى • ومن الأمور التى أقلقت الساسة الأمريكيين أنه اذا متلك السوفيت قاعدة عسكرية فى قبرص ، فان ذلك سوف يكون له أثر سىء على الأوضاع الأمنية فى كل من تركيا واليونان •

وهكذا يمكن أن نلمس أن هدف الانقلاب الذى حدث فى قبرص كان هو الاطاحة بحكم الرئيس مكاريوس ، ثم العمل على ضم قبرص الى حلف شمال الأطلسى ، ويتحقق ذلك بأسلوبين • اما بتوحيد قبرص مع اليونان تحت سياسة الأمر الواقع وضمها لمنطقة الدفاع الامريكية • واما بتقسيم الجزيرة ، وهو ما يقود الى النتيجة ذاتها ، فالجزيرة بقسميها — فى هذه الحالة —

---

(٧) Rèston James, "Cyprus Crises and Nato's Flank", in : International Horald Tribune, July 18, 1974.

وقد اعتمدنا فى هذا الجزء من الدراسة على :

— احمد نورى محمد النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، مرجع سابق •

ستخضع لتركيا واليونان ، وكل من هاتين الدولتين تعتبر ركيزة لحلف شمال الأطلسي فى شرق البحر المتوسط ، ويبدو أن الولايات المتحدة — طبقا لأحد(٨) الآراء — وبعد أن تقسم الجزيرة الى قسمين ، تركي ويونانى ، ستحصل على القواعد التى كان مكاريوس يرفضها بحجة حياد قبرص ، فى كلا القسمين ، ولن تبخل الولايات المتحدة على الدولتين ، التركية واليونانية ، بالتعويض المطلوب فى شتى المجالات العسكرية والاقتصادية وهكذا يكون الخلاف الطائفى ، الذى عصف بالجزيرة منذ سنوات ، قد انتهى بتقسيم الجزيرة ، والقضاء على وحدتها واستقلالها ·

وتشير الدلائل الى أن الولايات المتحدة وقفت ضد التدخل العسكرى التركى فى جزيرة قبرص ، الذى تم بالانزال التركى فى الجزيرة فى ٢٠ يوليو ١٩٧٤ ، ويمكن استنتاج موقف الولايات المتحدة هذا من التقارير الصحفية(٩) التى بعث بها السفير الامريكى فى أثينا الى وزارة الدفاع الامريكية ، والتى ذكر فيها أن الأسطول السادس الامريكى قد انتشر ، وبشكل غير عادى فى بحر ايجه بهدف عرقلة الخطط العسكرية التركية فى قبرص ، وأن هذا التصرف من قبل الولايات المتحدة قد أدى الى موجة من الغضب فى تركيا ·

أما من وجهة النظر الرسمية فقد انعكست على تصريح الناطق الرسمى لوزارة الخارجية الامريكية ، والذى جاء فيه : « نحن نطالب تركيا — بصفة خاصة — بوقف اطلاق النار ، حيث أن استخدام القوة ، فضلا عن أنه يعرض العلاقات بين تركيا واليونان للخطر ، فانه يؤدى أيضا الى تعريض المنطقة كلها الى خطر ، وأن حل القضية القبرصية لايمكن أن يكون عن طريق استخدام سياسة القوة » ·

ومن الناحية الواقعية ، فقد كان بامكان الولايات المتحدة أن تمنع تركيا من التدخل فى الشئون الداخلية لقبرص ، كما فعلت عام ١٩٦٤ فى عهد جونسون ، حين بعث برسالة تهديد شديدة اللهجة الى عصمت اينونو ، رئيس وزراء تركيا وقتئذ ، يحذره فيها من خطورة التدخل فى قبرص ، وأبلغ جونسون اينونو أنه فى حالة تدخل تركيا فى الجزيرة ، وقيام الاتحاد

---

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٥٠ ·

(٩) — The New York Times, July 18, 1974.
— The New York Times, September 9, 1974.

السوفيتي بصددها ، فان الولايات المتحدة سوف تأخذ موقفا محايدا من ذلك .

ومنذ تلك الفترة ، سادت العلاقات السيئة بين الشعب التركي والحكومة الامريكية ، حيث طالب الرأى العام التركى بالغاء مجموعة المعاهدات الثنائية التى تمت مع الولايات المتحدة ، وان تشرف تركيا على القواعد العسكرية الامريكية ، كما طالب قسم من الرأى العام التركى بانسحاب تركيا من حلف شمال الاطلسى ، غير أن الولايات المتحدة لم تحاول منع تركيا من ذلك . وربما يرجع السبب فى ذلك الى محاولة الولايات التخفيف من حدة اللهجة القاسية فى رسالة جونسون(١٠) .

---

(١٠) يرجع فى تفصيل ذلك الى :

– احمد نور النعيمى ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٥ ص ص ١٧٥ – ١٨٢ .

— Esmer, Ahmet Sukru, "Cyprus in the General Assembly" Faris, 18 November 1976.

ردود فعل أوربا الغربية

١ ـ موقف بريطانيا العظمى :

يكمن سبب اهتمام بريطانيا بالأوضاع فى قبرص فى أن بريطانيا تعتبر من الدول الضامنة لاستقلال الجزيرة ، حيث أنها وقعت على معاهدة الضمان مع كل من تركيا واليونان فى عام ١٩٦٠ ، وبموجب هذه المعاهدة فان كل طرف ملزم بالدفاع عن الجزيرة فى حالة انتهاك سيادتها أو العدوان عليها ، ومن ناحية أخرى فان بريطانيا قد أخذت تؤكد باستمرار على أهمية قواعدها العسكرية فى قبرص ، بعد أن فقدت قواعدها فى مالطة قبل ذلك ·

وبعد الانزال التركى فى قبرص ، ونتيجة لتردى الأوضاع فيها ، فان هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا ، قد عقد اجتماعا طارئا مع أعضاء حكومته ، وبعد الانتهاء من هذا الاجتماع أرسلت الحكومة البريطانية ٤٠٠ من أعضاء الكوماندوز لتعزيز القوات البريطانية فى قاعدتى اكريتورى Akrotori وديكيليا Dikelya فى قبرص ·

ولقد لجأ حوالى ١٧٫٠٠٠ مهاجر يونانى و ١٠٫٠٠٠ مهاجر تركى الى القواعد البريطانية فى الجزيرة ، بعد سيطرة القوات التركية عى الجزء الشمالى من الجزيرة · ولقد طالبت تركيا بريطانيا بتسليم اللاجئين الأتراك ، لتوطينهم فى الجزء الشمالى من الجزيرة · ولكن بريطانيا لم تسمح لهؤلاء اللاجئين بمغادرة قواعدها فى الجزيرة ، الا بعد تسوية مشكلة المهاجرين بصفة عامة ، الأمر الذى أدى الى ردود فعل قوية فى الأوسط الرسمية فى تركيا ، فقد صرح أجويد ، رئيس وزراء تركيا وقتئذ ، قائلا : « ان عدم تلبية بريطانيا لنداء تركيا بالسماح للمهاجرين الاتراك بمغادرة قواعدها فى الجزيرة يؤدى الى الاساءة والضرر فى العلاقات بين البلدين(١) ·

وفى مؤتمر جنيف ، الذى عقد بين بريطانيا وتركيا واليونان فى شهر يوليو ١٩٧٤ ، أدت بريطانيا دورا مهما بتأكيدها على اتباع الوسائل السلمية

---

(١) Daily News; January 27, 1979.

(٢) 1977 Milliyet Meclisi Albumu, Donem.

لحل القضية القبرصية ، ولقد تحدث جيمس كالاهان ، وزير خارجية بريطانيا، معبرا عن رضائه من أن بريطانيا لازال لها التأثير الفعال فى القضايا الدولية.

غير أن العلاقات قد توترت بين تركيا وبريطانيا فى الفترة اللاحقة ، ففى مؤتمر جنيف الثانى ، كان هناك تصلب فى الرأى من جانب بريطانيا تجاه تركيا ، وأثيرت مناقشات حادة بين مندوبى الدولتين ، حتى أن وزير خارجية بريطانيا صرح قائلا : « ان قبرص اليوم هى أسيرة الجيش التركى وسيكون الأخير أسيرا من قبل قبرص غدا » . كذلك فقد كتبت احدى الصحف(٣) التركية قائلة بهذا الخصوص : « ان تركيا تقدم مفاتيح السلام فى البحر المتوسط » ، واضافت هذه الصحيفة قائلة : « من الممكن تفسير دور بريطانيا فى مؤتمر جنيف بأنها تعتقد ـ أن بريطانيا ـ لا زالت تتحكم فى جزيرة قبرص من النواحى الجيوبوليتيكية والاقتصادية ، فى عالم تغير فيه الظروف والأوضاع السياسية » ، وأضافت الصحيفة قائلة : « ان بريطانيا قد دخلت قبرص قبل مائة عام على أثر الحرب الروسية العثمانية ، لحماية مواقعها الاستراتيجية ضد التوسع الروسى ، وعلى الرغم من تغير الأوضاع الاقتصادية والظروف السياسية فى العلاقات الدولية ، فان بريطانيا تعمل على استعادة دورها المنقرض فى شرقى البحر المتوسط » . وبشأن موقف بريطانيا تجاه تركيا فى مؤتمر جنيف انتقدت هذه الصحيفة التركية موقف بريطانيا قائلة : « انه فى لقاءات السلام فى جنيف ، اصطدم المشروع التركى القاضى بايجاد دولة فيدرالية(٣) ، بعقبات واضحة من جانب بريطانيا .. » .

وتجدر الاشارة الى أن حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد بعثتا بمندوبيهما الى مؤتمر جنيف ، وهو ما جعل العلاقات بين بريطانيا(٤) وتركيا لم تصل الى نقطة حاسمة ، حيث كان هناك اهمال من قبل بريطانيا للاقتراح السوفيتى القاضى بأن قضية قبرص يجب أن لا تحل بين القوى

---

(٣) The International Herald Tribune, November, 8, 1976.

(٤) فى تفصيل موقف بريطانيا ، راجع :

— Kurkcouglu, Omer, British Policy During 1974 Cyprus Crises, op., cit. pp. 31 - 38.
— Newsweek, August 26, 1974, pp. 8 - 12.
— The International Herald Tribune, November 8 1976.
— Altug, Yilmaz, "The Cyprus Conflict", in Dis Politica Nos. 1 - 2 February, Ankara, 1977 pp. 130 - 132.

الثلاث الضامنة للجزيرة فحسب ، بل يجب حل ذلك عن طريق مؤتمر موسع، يشترك فيه أعضاء مجلس الأمن ، بهدف ايجاد التقارب بين الدولتين ٠

أما عن موقف بريطانيا تجاه مكاريوس ، فالملاحظ أن بريطانيا قد أكدت على شرعية حكم مكاريوس ، كما أن بريطانيا هى التى أقلت مكاريوس بطائرة خاصة من احدى قواعدها ، وأرسلته الى جزيرة مالطة ، وجدير بالذكر أن المندوب البريطانى فى مجلس الأمن قد أدى دورا مهما فى صياغة قرار وقف اطلاق النار ٠ وبالطبع فان مصالح بريطانيا هى الأسباب الكامنة فى مواقفها هذه من مشكلة قبرص ، وتتمثل هذه المصالح فى معظمها ، فى القواعد العسكرية البريطانية فى قبرص ، حيث أن هناك مجموعة من القواعد البريطانية فى الجزيرة ، تمتلكها بموجب معاهدة الضمان التى وقعت عام ١٩٦٠ ، وتعتبر هذه القواعد من أقوى القواعد العسكرية فى شرقى البحر المتوسط ، وخاصة منذ استقلال باكستان والهند ، ومحاولات مصر الناجحة فى سحب القوات البريطانية من قناة السويس ، ولهذا أخذت بريطانيا تعزز قواعدها العسكرية فى قبرص ، أضف الى ذلك حاجة أوروبا من البترول العربى ، وهو ما يجعل من قبرص نقطة ارتكاز ومركز قوة لبريطانيا ،ويستدل على ذلك ايضا من أحداث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، حين قامت قوات مظلية بريطانية من جزيرة قبرص بالهجوم على منطقة قناة السويس ، ويفسر ذلك كله الأسباب التى جعلت تحاول تدويل الأزمة القبرصية منذ استقلال الجزيرة ، لخدمة مصالحها فى منطقة البحر المتوسط ٠

٢ ـ موقف فرنسا :

من الملاحظ أن فرنسا قد تعاطفت مع اليونان ، حتى قبل مشكلة قبرص عام ١٩٧٤ ، بأكثر من عشر سنوات ، كما أن الحكومة اليونانية قد حذت حذو فرنسا فى الانسحاب من الجهاز العسكرى لحلف شمال الاطلنطى بعد الأحداث الاخيرة فى الجزيرة ، ويفسر ذلك أيضا الموقف الفرنسى الذى يريد الابتعاد عن النفوذ الامريكى ، وبالتالى فان فرنسا وجدت نفسها بحاجة الى دولة أخرى بجوارها ، تساندها فى هذا المفهوم تجاه الولايات المتحدة ٠ ويفسر هذا ايضا بالعلاقات التى توطدت ، خلال الاحدى عشر عاما الماضية ، بين ديستان وكرامنليس ، وهذا الأخير قد فتح الباب أمام فرنسا كى تقوم بدورها فى منافسة الولايات المتحدة بشأن توسيع نفوذها فى أوروبا ، وبالطبع فان فرنسا لم تستفد سياسيا من اليونان فحسب ، بل أن البضائع والسلع الفرنسية قد غزت الأسواق اليونانية ، وعلى ذلك فان فرنسا قد بنت موقعها

من مشكلة قبرص على الاعتبارات السابقة ، ثم قامت بتمويل اليونان بطائرات الميراج المقاتلة ، وبالقوات الحربية المتطورة ، والمدافع المضادة للطائرات . وبالطبع فان هدف فرنسا من ذلك كان كسر الاحتكار الامريكي في تجهيز اليونان بالطائرات والمعدات الحربية .

وهكذا جاء رد الفعل الفرنسي المباشر لانقلاب ١٥ يوليو ١٩٧٤ بأن أعلن رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك : « أن فرنسا قلقة جدا من الوضع المتدهور(٥) في جزيرة قبرص ، وتخشى من امكان حدوث مجابهة عسكرية بين تركيا واليونان ، حليفتا فرنسا في حلف شمال الاطلنطي ، ومن احتمال توسع نطاق النزاع » . وأكد شيراك استعداد فرنسا لتقديم المساعدة الى بريطانيا ، التي يقع على عاتقها عبء ومسئوليات خاصة في قبرص ، والعمل على دفع الدول الأوربية التسع في السوق الاوروبية المشتركة للقيام بعمل مشترك ، يعطي بريطانيا امكانية التحرك لتحقيق السلام في جزيرة قبرص .

ولم تفاجأ تركيا من موقف فرنسا تجاهها ، وعندما عين كرامنليس رئيسا للوزراء ، بعد انهاء الحكم العسكري في أثينا ، وضع رئيس الجمهورية الفرنسية تحت تصرفه طائرته الخاصة ليتوجه بها الى أثينا ، كما أعربت فرنسا عن تفهمها لموقف اليونان من سحب قواتها المسلحة من حلف شمال الاطلنطي .

وأثناء مناقشة مشكلة قبرص في مجلس الأمن ، قدمت فرنسا بيانا أكدت فيه على ضرورة انسحاب القوات التركية من القطاع الشمالي من الجزيرة . ونتيجة لذلك فقد عم الأوساط السياسية في أنقرة الاستغراب والمرارة . وعلى الرغم من رفض أجويد ، رئيس وزراء تركيا ، للموقف الفرنسي بصورة رسمية ، فانه أبدى أسفه تجاه عدم التزام فرنسا الصمت ، كما سبق أن فعلت ابان الانقلاب العسكري في اليونان . وقد وصفت احدى الصحف التركية السياسة الخارجية الفرنسية على أنها : « مستمدة من سياسة الاتجار بالمدافع » وهي تعني بذلك صفقة الأسلحة المبرمة بين فرنسا واليونان(٦) .

وفي الأمم المتحدة ، هاجم المندوب التركي ، بعنف ، موقف فرنسا وتساءل قائلا : « هل هذه هي فرنسا الجديدة التي نراها أمامنا ، أم أنها

---

(٥) أحمد نوري النعيمي ، تركيا وحلف شمال الأطلسي ، مرجع سابق ص ٢٥١ .

(٦) Daily News, 20 August, 1974, Ankara

فرنسا « الفرقة الأجنبية » وساقية « سيدى يوسف » .. فرنسا المظليين وقناة السويس .. هل فرنسا هذه هى التى تدعى بحـــق ادانة الأعمال التركية » . وقد رد المندوب الفرنسى على المندوب التركى قائلا : « ان كلام المندوب التركى هذا يثير المزيد من الشكوك حول الأسلوب الذى تسعى تركيا لاتباعه فى تطبيق قرار مجلس الأمن »(٧) .

أما ردود فعل الصحف التركية فجاءت معبرة عن أن اقتراب فرنسا من اليونان قد جاء على حساب تركيا ، وان سياسة فرنسا بالتالى هى سياسة غير عقلانية ، بالاضافة الى أنها تلحق الضرر بالمصالح الفرنسية فى تركيا ، وان هذه السياسة ضد تركيا ، بالاضافة الى موقف الارتياح من المظاهرات العدائية الأرمنية فى مرسيليا ضد الاتراك ، تدفع بالعلاقات الفرنسية التركية الى أدنى حد لها . لذلك وجدت الصحف التركية فى الموقف الفرنسى ازاءها أن هذا سيدفع تركيا الى أن توازن سياستها فى أوربا ، وتبحث عن دولة أخرى لتحل محل فرنسا . أما رئيس الجمهورية التركية فانه قال : « ان أزمـــة قبرص عام ١٩٧٤ قد كشفت عن أصدقاء تركيا وأعدائها فى آن واحد » ـ مشيرا بذلك الى موقف فرنسا(٨) ـ وأضاف : « ان وجود فرنسا على رأس الدولة التى عبرت عن سياسة عدائية فى هذه الأحداث قد أثبت على الأقل عدم امكانية الثقة بفرنسا من قبل تركيا .

---

(٧) Milliyet, op. cit.,

(٨) فى تفصيل موقف فرنسا ، راجع أيضا :

— Esmer, Ahmet Sukur "Mandate of the Cyprus peace", Bairs, December 21, 1976.
— Esmer, Ahmet Sukru, "Cyprus in the General Assembly" op. cit.
— Daily News, 20 Augusts, 1974, Ankara.
— Turkish Foreign Policy Report, Ministry of Foreign Affairs, Ankara Augusts, 1974, No. 15, July 1, 1976, No. 17, November 1, 1976, No. 18, January 1, Ankara, 1977.

الموقف السوفيتى

الأصول التاريخية للموقف السوفيتى

١ ـ السياسة الخارجية الروسية تجاه المضايق عشية الحرب العالمية الأولى :

بقى توجيه للسياسة الخارجية للامبراطورية الروسية عشية الحرب العالمية الاولى خاضعا لمشغوليتين : الوصول الى البحر المتوسط ، والذى كان الدافع الرئيسى للعمل الذى قامت به فى الامبراطورية العثمانية وفى البلقان ، ثم التوسع فى الشرق الأقصى ، حيث كانت الأراضى السيبيرية مجاورة للامبراطورية الصينية ، وهو ما لا يتعلق بموضوع هذه الدراسة !

اما فيما يتعلق بالمشغولية الأولى ـ موضوع دراستنا ـ وهى الوصول الى البحر المتوسط والمياه الدافئة ، فالملاحظ أنه بعد خروج روسيا من الحرب الروسية اليابانية ، ومن الهزيمة العسكرية سنة ١٩٠٤ ، عادت السياسة الخارجية الروسية كى تركز على أوربا ٠ وزادت اهمية المشغوليات العثمانية ، ولكن الجيش الروسى وقتئذ كانت تسوده الفوضى ، والاقتصاد الروسى كان فى أدنى درجاته ، وهذا الخسوف فى القوة الروسية قد استمر طوال السنوات الست السابقة على الحرب العالمية الأولى ٠ ومع ذلك لم تبدأ الحكومة القيصرية فى التفكير فى امكانية اعادة محاولاتها فى المسائل العثمانية الا ابتداء من سنة ١٩١١ فقط ، ولكن دون أن تمتلك الوسائل العسكرية اللازمة لتدعيم هذه السياسة ٠

ولما كانت السياسة الخارجية لأى دولة هى انعكاس للأوضاع الداخلية ، فقد كانت السياسة الخارجية الروسية وقتئذ محكومة بالأوضاع الداخلية ، فكانت روسيا محتاجة لاستخدام رءوس الأموال والتقنين للأجانب بدرجة أوسع ، غير أن الحكومة الروسية لم تكن ترغب فى المخاطرة برؤية النفوذ الأجنبى يؤثر على الحياة السياسية الداخلية ٠ ومع ذلك فهذه المحاولات لم تكن تستند الى حركة كبيرة فى الرأى العام ، فمثلا : كانت جماهير الفلاحين غير متأثرة بمجهود التوسع ، فى حين كان العمال معادين له ، وأظهرت بعض أوساط البورجوازية موافقتها على التوسع ٠

هذه الأوضاع كانت لها نتائج طويلة الأمد فى روسيا ، فالأوساط المسيرة للسياسة الروسية الخارجية(١) كانت قد ابتلعت ، كما ذكر أحد الساسة وقتئذ « حبة مرة » ، وكانت روسيا ترغب فى أن تقوم بالانتقام فى اليوم الذى تستطيع فيه ذلك ، ولم تكن تنتظر الا سنوح الفرصة ٠ ومنح الموقف البلقانى هذه الفرصة لروسيا سنة ١٩١٢ ٠ وكان سبب هذه الأزمة الجديدة هو الشعور القومى للشعوب المسيحية فى شبه الجزيرة ، ففى مقدونيا، وحيث كانت موافقة روسيا والنمسا والمجر الضمنية قد احتفظت بالسيطرة العثمانية على السكان البلغاريين والصرب واليونانيين فى خلال أزمة ١٨٩٧ — ١٩٠٣ ، فان هذه الاقليات القومية كان لها ، فى سنة ١٩٠٨ ، أملا فى الحصول على نظام أكثر صلاحية ٠

ولذلك فان حركة الاجتماع تجاه التقاليد العثمانية بدأت فى مقدونيا منذ سنة ١٩١٠ ، وكان من المنطقى أن تعمل الدول المسيحية فى البلقان على تأييد هذه الحركات ، حتى يتم تحرير الأراضى الخاضعة ٠ ولكن ، اذا كان الشعور المعادى للاتراك مشتركا بين الأهالى المسيحيين ، فان الحركات القومية البلغارية والصربية واليونانية كانت كذلك متنافسة فيما بينها ، وذلك بسبب الاختلافات بين التقاليد الثقافية ، وبين أشكال الحياة الاجتماعية ، وبين الذكريات التاريخية ، وخاصة بسبب الحذر والخوف ، الذى كان يفصل بين الكنائس الارثوذكسية ، ففى مقدونيا كانت الدعاية الدينية للكنيسة الصربية تتنازع الرعايا مع الكنيسة البلغارية ٠

وكانت الحكومة الروسية قد فكرت ، فى خريف سنة ١٩١١ ، فى تأييد الامبراطورية العثمانية ، وفى انشاء « اتحاد بلقانى » يضم الامبراطورية والدول المسيحية ٠ وفى نظير ذلك كانت قد طلبت الى الحكومة العثمانية أن تستعد لاعادة النظر فى وضعية المضايق ، الامر الذى سيمد حق المرور الى سفن الحرب الروسية ٠ ولكن سرعان ما وجدت أن هذا الحل صعب التحقيق ، لأن الدول العظمى لن توافق على اعادة النظر فى هذه الوضعية ، ولذلك فان الحكومة الروسية القيصرية غيرت أهدافها ، وقررت أن تؤيد تحالف الدول البلقانية ضد الامبراطورية العثمانية ، ولكى تحرر الشعوب المسيحية فى مقدونيا ٠ ولا شك فى أن الحكومة الروسية كانت لا تجهل أن هذه المحاولة

---

(١) بيير رينوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، مرجع سابق ٧٤٠ ٠
— Taylor, op. cit., p. 118.

من طبيعتها أن تتسبب فى اخطار حرب عامة ، ولكنها اعتقدت أن فى وسعها أن نواجه هذا الخطر ، اذ أن قواتها المسلحة ، التى كانت غير كافية فى سنة ١٩٠٩ ، قد تحسنت الآن • وكانت الميزات التى فكرت فيها الحكومة الروسية تكمن فى الأهداف السياسية المتوقعة قبل أى شىء آخر : مثل اعادة النفوذ الروسى الذى كان قد تزعزع بأزمة سنة ١٩٠٩ الى فكر الشعوب المسيحية ، واضعاف الامبراطورية العثمانية بطريقة تسمح لها ، فى يوم من الأيام ، بحل مسألة المضايق بشكل يتمشى مع المصالح الروسية • ولم تتدخل المسائل الاقتصادية الا كوسيلة فى خدمة المخططات السياسية • فحين أيدت روسيا ، بمساعدة رءوس الأموال الفرنسية ، مشروع السكة الحديدية التى ستعبر شبه الجزيرة البلقانية من الشرق الى الغرب ، لكى تنتهى على ساحل البحر الادرياتى ، كانت ترب فى غلق الطريق أمام التوسع النمسوى المجرى ، أكثر من حسابها لمكاسب الصادرات الروسية أو الارباح المالية •

٢ ـ القوميات ومشكلات الحدود فى البلقان :

وعموما فقد سادت المطالب الملحة للمشاعر القومية فى أوربا فى بداية سنة ١٩١٤ ، وانعكس ذلك على احتجاجات الاقليات القومية ضد السيطـرة الأجنبية • وهذه اليقظة للاحتجاجات فى المناطق التى كانت أكثر من مرة ، مركزا لحركات القوميات ، أثارت الشعور فى سان بطرسبرج ولندن وبرلين ، نتيجة للصعوبات الداخلية الممكنة أو المتوقعة ، فى حالة اشتباك الدول فى حرب دولية كبرى • ولكن أيا من هذه التهديدات لم يبد على أن من طبيعته التسبب فى التو واللحظة فى صدام بين الدول العظمى •

وكانت الخصومات البلقانية تخضع لذكريات الصراع الذى كان قـد مزق شبه الجزيرة • وفى أوائل سنة ١٩١٤ نشرت لجنة كونتها هيئة كارنيجى carnegie للسلام الدولى ، التحقيقات التى قامت بها فى البلقان ، والتى تجمع نوعا من الشهادات التى تمثل ، مرحلة مخيفة مفزعة ، من القتـــل والاغتيال واشعال الحرائق والمذابح ، ليس فقط بين المسلمين والمسيحيين الذين تفصلهم الأحقاد الدنيوية والعواطف الدينية ـ على حد قول أحـــد الباحثين(٢) ـ ولكن كذلك بين اليونانيين والبلغار ، وبين اليونانيين والصرب،

راجع فى تفصيل ذلك : دكتور أحمد عبد القادر الجمال ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ص ٣٥٠ ـ ٤٥٠ •

(٢) بيير رينوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـ ١٩١٤ ، مرجع سابق ص ٨٥٤ •

الذين كانوا ، بالأمس فقط « قد اتجهوا الى السماء سويا ، طالبين العون على حرب التحرير » • وهذه الضغائن والأحقاد حافظت عـــلى حالة من عدم الاستقرار ، كانت تتسبب فى امكانيات مباشرة لصدامات محلية ، خطيرة بالنسبة للسلم العام ، لأنها كانت تزيد من عدم الثقة الموجودة بين الدول العظمى •

وجاء ميلاد امارة ألبانيا ليؤدى الى نشوء صعوبات من نوع جديد ، لم تشترك فيها الصرب واليونان وحدهما ، وهما جارتى الدولة الجديدة ، ولكن كذلك النمسا والمجر وايطاليا ، البريكان اللذان لا يثقان فى بعضهما فى داخل التحالف الثلاثى والمتنافستان فيما بينهما فى البحر الأدرياتى •

وكان رسم الحدود ، بعد أن هدد فى أكتوبر سنة ١٩١٣ بأن يؤدى الى اشتباك بين ألبانيا والصرب ، قد وضع الآن البانيا فى مواجهة اليونان ، وحاولت الحكومة اليونانية أن تحتفظ « مؤقتا » بأبيروس الشمالية ، حيث كانت أغلبية السكان تتحدث اللغة اليونانية ، وحيث كانت لجنة تحديـد الحدود قد أعطت لألبانيا ، فى ديسمبر سنة ١٩١٣ ، منطقة أجيرو سكاترو وسانت كارانتا • حقيقة أنها كانت مستعدة للموافقة على أن تسحب موظفيها وجنودها من هذه المنطقة ، ولكن بشرط أن ترضيها الدول العظمى فى الخلاف الخاص بتقسيم جزر بحر ايجة • وانتهت بأن نفذت هذا الانسحاب •

٣ ـ الجزر والمضايق :

ومصير الجزر العثمانية فى بحر ايجة بين تركيا واليونان ، فى صدام دبلوماسى ، هدد بأن يصبح صداما مسلحا • وكانت معاهدة بوخارست قد تركت الدول العظمى أمر اتخاذ قرار فيها • وأخذ هذا القرار فى فبراير سنة ١٩١٤ ، وأعطى لليونان كل الجزر باستثناء تينيدوس وايمبروس ، التى تشرف على مدخل الدردنيل ، وكاستيللو ريزو ، القريبة من الدوديكانيز ، والتى كانت ايطاليا تحتفظ فيها باحتلال « مؤقت » • ولكن الحكومة التركية ، التى كانت ترغب فى أن تحصل كذلك على خيوس وميتيلين ، رفضت الموافقة على ذلك ولم، تتفق الدول على ارغامها على قبول قرارها • ودخلت الحكومتان اليونانية والعثمانية سويا فى مفاوضات مباشرة ، ولكن بدون جدوى • وكان فشل هذه المحادثات يعنى نشوب حرب ، فاشترت تركيا بارجتين كانتا تبنيان من الترسانات الانجليزية ، وأعلن فنزيلوس Venizelos رئيس الوزراء اليونانى فى يوليو سنة ١٩١٤ ، تصميمه على الدخول فى حرب قبل أن يتم تدعيم الأسطول التركى • حقيقة أن هذه الامكانية لوقوع حرب وقائية قد

اختفت بعد بضعة أيام ، اذ أن الحكومة اليونانية نجحت ، عن طريق شراء بارجتين من الترسانات الامريكية ، فى اعادة اقامة توازن القوى البحرية • ولكن الأمر بدا على أنه مجرد تأجيل لما يجب أن يحدث •

كذلك فان منافسات الاتجاهات القومية البلقانية لم تكمن هى وحدها التى تسببت سريعا فى أشد الاخطار بالنسبة للسلم العام • فكانت اثار « مسألة المضايق » تمثل تهديدا آخر • فعقب الهزائم التى لحقت بها فى حرب البلقان الأولى ، وأمام الامكانيات التى كانت تخشى وقوعها فى بحر ايجة أو فى آسيا الصغرى ، كان من الطبيعى أن ترغب الحكومة العثمانية فى اعادة تنظيم جيشها ، وفى أقرب وقت ممكن ، وكان من المنطقى أيضا أن تفكر فى الاستعانة بالمانيا بهذا الخصوص •

وفى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ ، نصت اتفاقية ألمانية تركية على أن تشرف بعثة من ٦٠ ضابطا، برئاسة الجنرال ليمان فون ساندرس
على ممارسة سلطة التفتيش العام ، وفى كل الامبراطورية العثمانية ، على القوات ، والتحصينات ، والسكك الحديدية ، فضلا عن تعيين الجنرال ليمان قائدا للفيلق التركى الاول الموجود فى القسطنطينية • فماذا كان انعكاس ذلك على الحكومة الروسية • لقد نظرت الحكومة الروسية بقلق الى امكانية وضع الجيش التركى « فى أيدى ألمانيا » ، ولكنها كانت مشغولة أكثر من ذلك بوضع حامية البوسفور تحت القيادة المباشرة لأحد الألمان • وبدون جدوى أكد السلطان ليمان أن فون ساندرس لن يمارس أية سلطة « تتعارض مع استقلال الامبراطورية العثمانية » •

والواقع أن المسألة الخاصة بالقيادة المباشرة فى القسطنطينية كانت مثار مناقشات بين ألمانيا وروسيا ، وكانت كذلك موضوعا للضغط الدبلوماسى الذى قامت به روسيا ، مدعمة فيه بفرنسا وكذلك بانجلترا ، وان كان ذلك بموقف مرن ، على الحكومة العثمانية ، وذلك بتهديدها بطلب « تعويضات » • وقبلت روسيا حلا وسطا تمثل فى اكتفاءها بأن يظل ليمان مفتشا عاما للجيش التركى ، ويترك القيادة المباشرة للفيلق الأول ، وان كان كل ذلك لم يمنع نشوب حرب أوربية عظمى فيما بعد •

وفى روسيا كان هناك اتجاهان متعارضان بشأن الاستعداد للحرب ، فأصحاب سياسة الكرامة والتوسع على حساب الامبراطورية العثمانية بدوا على أنهم يفكرون بسرور فى امكانية نشوب حرب عامة ، تمنح روسيا ، فى

اعتقادهم ، فرصة تسوية مشكلة المضايق(٣) ، واصلاح الموقف الذى كان مهددا بزيادة النفوذ الألمانى فى القسطنطينية ، وكذلك بامكانية نشوب حرب يونانية تركية • وفى ٢١ فبراير سنة ١٩١٤ رأى المؤتمر الذى انعقد ، برئاسة وزير الخارجية وضم بعض الدبلوماسيين ورؤساء أركان الحرب ، ان الموقف الدولى للمضايق ، لا يمكن تغييره فى وقت قصير : فاذا كانت تركيا مهددة « بفقدان المضايق » ، فيمكن لروسيا أن تضطر الى الاستيلاء عليهـــا حتى تتفادى استيلاء « دولة أخرى » عليها ، ولذلك لقد وضع برنامج عمل لكل احتمال • غير أن تبادل وجهات النظر بين الساسة والعسكريين أظهر أن روسيا لن تكون لها قبل عامين أو ثلاثة أعوام على الأقل ، الوسائل العسكرية والبحرية اللازمة لعملية انزال •

٤ ـ تسويات الحرب العالمية الأولى :

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى مفاوضات سرية بين وزراء خارجية كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا، عشية قيام ثورة أكتوبر الروسية عام ١٩١٧ • وكان وزير خارجية روسيا العنصرية قد اقتنع من قبل بضم المناطق المتاخمة لترابزون وارضروم الى روسيا ، غير أن هذه المحاولات قد فشلت لدى وقوع الثورة الشيوعية ، حيث أبرمت معاهدة برست ـ ليتوفسك Brast-Litovsk بين الاتحاد السوفيتى من جانب ـ وبين المانيا والنمسا والمجر وبلغاريـــا وتركيا من جانب آخر • وقد وقعت هذه المعاهدة فى ٣ مارس ١٩١٨ ، وفيها وعد السوفيت بارجاع باطوم وقارص وارتوان واردهان الى تركيا ، ولـكن السوفيت تمسكوا فيما بعد بباطوم ، وذلك بسبب وجود النقط فيها(٤) •

وفى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس خلال يناير عام ١٩١٩ كان موضوع المضايق التركية هو الموضوع الأكثر أهمية ، واقترحت الدبلوماسية

---

(٣) راجع فى تفصيل ذلك :

— Ponomaryoc, B., Gromyko, A., Khvostorv, History of Soviet Foreign Policy 1917-1945. Moscow, 1969.

— Soviet, Turkish Relations, Collection of Documents, Vol. 1 (1917-1926). Moscow, 1947.

— Royal Institute of International Affairs, Soviet Documents on Foreign Policy 1917-1924, Oxford University Press, 1957.

— Laqueur, Walter, The Soviet Union and the Middle East, London, 1969.

الانجليزية فى أول الأمر اعطاء الأوضاع الخاصة بالبحر المتوسط وضعية دولية تحت اشراف عصبة الأمم ٠ ولم تعد بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا الى دراسة تسوية الصلح العثمانى الا فى عام ١٩٢٠ ، ففى ١٠ أغسطس من هذا العام ، اقتطعت معاهدة سيفر من السلطان أربعة أخماس الاقاليم التى كانت تتكون منها الامبراطورية العثمانية السابقة وتركت له ، علاوة على القسطنطينية ، منطقة الأناضول الوسطى ٠ وفى هـذه التسوية تمكنت بريطانيا من اقرار نزع سلاح البوسفور(٥) والدردنيل ، حيث تضمن حرية الملاحة فى كل وقت ، تحت اشراف لجنة مشتركة من الحلفاء : حلا كان سيظهر على أنه مرفوض بالنسبة للسياسة الانجليزية التى كان فى وسع السياسة القيصرية أن تحاول الوصول الى البحر المتوسط ، ولكنه أصبح حلا يتفق مع المصالح البريطانية ، ما دامت روسيا قد ضعفت ٠ وأخيرا فان بحر ايجة قد أصبح « بحيرة يونانية » ، يمكن لبريطانيا أن تأمل فى أن تحتفظ بنفوذ كبير فيه ٠ ولقد حصلت على هذه المميزات على حساب ايطاليا بنوع خاص ، وكذلك على حساب فرنسا ٠ فكانت السياسة الايطالية فى بحر الادرياتيك والسياسة الفرنسية فى منطقة الراين ، فى أشد الحاجة الى التأييد الانجليزى لها(٦) ٠

٥ ـ الحرب التركية اليونانية سنة ١٩١٩ وموقف السوفيت :

وبعد انهيار الخلافة العثمانية ، وميلاد تركيا العثمانية فى عام ١٩٢٠ ، من قبل مصطفى كمال أتاتورك ، وجدت تركيا نفسها أمام مواجهة القوى الاوربية ٠ ونتيجة لهذه الظروف فقد تبنى أتاتورك سياسة مفادها التقرب من الاتحاد السوفيتى ، وانعكس ذلك على تأليف الحزب الشيوعى التركى عام ١٩٢٠ ٠ ومما يجدر ذكره أنه عندما ظهرت الجمهورية التركية ، ونتيجة قيام ثورة أكتوبر الروسية ، فقد كان هناك فى تركيا نشاط شيوعى ، وفى هذه الفترة كانت علاقة تركيا جيدة بالاتحاد السوفيتى ، خاصة وان الدولتين كانتا متفقتان عى بعض الأهداف فى السياسة الخارجية ، وتركزت هذه الأهداف على

---

(٤) راجع :
Royal Institute of International Affairs Soviet Documents on Foreign Policy : 1917 - 1924, Oxford University Press, 1951 p. 50.

(٥) راجع : بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، أزمات القرن العشرين ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ تعريب الأستاذ الدكتور جلال يحيى ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٩ ص ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ٠

(٦) المرجع السابق ٠

أن الدولتين قد اعتبرتا الدول الغربية عدوة مشتركة لهما(٧) .

كذلك فان قوة التنظيمات الدينية فى تركيا والتى تعود أساسا الى عصر الامبراطورية العثمانية كان هذا أيضا سببا شجع مصطفى كمال أتاتورك على قيام حزب شيوعى محلى ، وان كان مصطفى كمال نفسه من المناهضين للحركة الشيوعية . غير أن هناك بالطبع تناقض فى سياسة حكومة أتاتورك هذه ، فهى من جهة قد ادعت بأنها تسير فى طريق الشعوب الغربية ، الرامية الى فصل الدين عن السياسة ، ومن جهة ثانية فانه تدخل تدخلا مباشرا فى الشئون الدينية ، كما سبق ايضاح ذلك . كل هذا يأتي فى الوقت الذى أكد فيه أتاتورك بان هذا المفهوم كان يعنى عدم تدخل الدولة فى أمور الدين .

ولقد رحب السوفيت بسياسة أتاتورك هذه ، خاصة وأنهم اعتبروا ثورته ثورة تحررية ، وترتب على ذلك أن قدم السوفييت كافة المساعدات للاتراك فى صراعهم ضد الاستعمار ، وتم ارسال العمال الاتراك الى الاتحاد السوفيتى لتدريبهم هناك . كما اقترح السوفييت توثيق العلاقات أكثر وأكثر مع تركيا الكمالية ، وانعكس ذلك على ارسال الحكومة السوفيتية ، فى ٢ يونيو ١٩٢٢ ، مذكرة الى أتاتورك ، جاء فيها : « ان الحكومة السوفيتية تؤيد بحرارة كفاح تركيا من أجل الاستقلال والسيادة ، وتوثيق عرى الصداقة بين الدولتين » .

ونتيجة لهذه التطورات ، فقد وقعت معاهدة التعاون والصداقة بين الدولتين ، فى ١٣ أكتوبر ١٩٢١ . ونتيجة لذلك فقد أطلق أتاتورك الحرية السياسية للحزب الشيوعى التركى . وقد استمرت سياسة الصداقة وعدم الاعتداء بين تركيا والاتحاد السوفيتى الى عام ١٩٤٥ ، وفى خلال تلك الفترة أعلن السوفيت انهاء معاهدة عام ١٩٢٥ ، وأرادوا العودة الى السياسة القيصرية من جديد ، حيث طالب السوفيت بالسيطرة المشتركة على المضايق ، هذه المناطق كانت خاضعة لروسيا القيصرية بين عامى ١٨٧٨ و ١٩١٧ ، وهى التى تخلى عنها السوفيت بمقتضى معاهدة الصداقة لعام ١٩٢١ . وبهذا

---

(٧) راجع :

— Laqueur Walter, The Soviet Union and the Middle East, London. 1969 pp. 11-19.
— Royal Institute of International Affairs, Soviet Documents on Foreign Policy, op. cit.

الخصوص يجدر ذكر أن الرأى العام السوفيتى ، ممثلا فى الصحافة والاذاعة قد قام بحملة واسعة النطاق ، لنشر نبأ مطالبة أساتذة « جورجيا » بنطاق ساحلى فى الشمال الشرقى من تركيا يبلغ طوله ١٨٠ ميلا ، بحجة أنه كان داخلا فى أراضى جورجيا منذ ألفى عام(٨) ٠

٦ ـ أثر الحرب التركية اليونانية على تطوير تركيا :

وكانت سلطة تركيا لا تزال مبسوطة فوق الأناضول بعد الحرب العالمية الاولى ، ومع أن القوات البريطانية قد انتزعت من الاتراك كل من سوريا وفلسطين والعراق خلال الحرب ، فان كراهيتهم للمسيحيين المقيمين بآسيا الصغرى ـ التى هى تركيا الحقيقية ـ ومقتهم اياهم ، بلغا درجة كبيرة ٠ أضف الى هذا أن الترك كانوا قد اتهموا بأزهاق أرواح الكثيرين من الأرمن خلال الحرب الأولى ٠

ولقد نال فينيزيلوس ـ رئيس وزراء اليونان وقتئذ ـ اذنا من رئيس وزارتى بريطانيا وفرنسا بانزال قوات يونانية فى أزمير ٠ كما أنه خشى أيضا أن تقع تلك المدينة فى قبضة الايطاليين ، اذا هو لم يبادر باحتلالها ٠ وآمل فينيزيلوس فى أن يجد فيها اليونانيون مكانا مأمونا اذا اشتد الخطر عليهم ٠

غير أن الترك قد اعتبروا أن رفع الراية اليونانية فوق أى مكان من آسيا الصغرى ، اعتبر الترك ذلك بمثابة اهانة بالغة ٠ ولذا أثار نزول الجيش اليونانى فى ازمير ، فى ١٥ أبريل سنة ١٩١٩ ، فى نفوس الترك تصميما على اليونانيين ٠ ومن ناحية أخرى ، فقد أتاح ذلك لمصطفى كمال اتاتورك ـ أول رئيس(٩) لجمهورية تركيا الحديثة ـ الفرصة لخلق دولة تركية مستقلة

---

(٨) راجع : احمد نورى النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، مرجع سابق ص ٣١٣ ـ كيرك جورج ، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاسلام الى الوقت الحاضر ، ترجمة عمر الاسكندرانى ـ دار الطباعة الحديثة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ص ٤٠٠ ـ ٤١٠ ٠

— East, Gordon, "The New Frontiers of the Soviet Union; in : Foreign Affairs, Vol. 29, No. 4, July 1951, pp. 600 - 605.

— Soviet, Turkish Relations, Collection of Documents; Vol. 1, (1917 - 1926), op. cit. p. 85.

(٩) مصطفى كمال اتاتورك ١٨٧٨ ـ ١٩٣٨ هو مؤسس الدولة التركية الحديثة وقد حارب الجيوش اليونانية والانجليزية والفرنسية فى الأناضول وأطاح بالخلافة العثمانية التى كانت

جديدة من ركام الامبراطورية العثمانية المهزومة وحطامها المبعثرة ، فبعد أربعة أيام من نزول اليونانيين فى أزمير ، وصل مصطفى كمال الى أرض وطنه الأسيوى يحمل تفويضا من السلطان · وكان قد حزم أمره على البقاء فى الأناضول الى أن تظفر الأمة باستقلالها » وكون جمعية نيابية ، وقعت فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩١٩ ميثاقا يقضى بمواصلة الحرب الى أن تحرر أرض الوطن ، وانضوى تحت هذا المفهوم كل من دبت فى نفـــوسهم الحياة والحماس من الشعب التركى ، وصمموا على الوقوف وراء مصطفى كمال أتاتورك صفـــا واحدا ·

وأقام مصطفى كمال حكومة فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٠ ، واتخذ أنقرة عاصمة له ، وأعلن انفصاله عن السلطان · وتلت هذه الحركة بضعة انتصارات أولية تجاه اليونانيين الذين اصيبوا بالاضطراب فى الداخل ، وبتصدع الجبهة اليونانية العسكرية فى الخارج وقدمتى الجيش اليونانى ، بقيادة قسطنطين ، بهزيمة ساحقة عند زحفه السريع على أنقرة فى الفترة ٢٣ اغسطس ـ ١٣ سبتمبر ١٩٢١ ، وعاد فى تقهقر سريع ، وفى فوضى شاملة منسحبا صوب البحر ·

وهكذا واجه اليونانيون بمفردهم العاصفة ، وانهارت صفوفهم أمام أول ضربة قاسية وجهت ضدهم فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٢ · ودخل الترك أزمير فى أعقابهم ، وذبحوا جميع من صادفوهم من الجنس اليونانى ، وأنقذت سفن الحلفاء أكثر من مليون مسيحى هاموا على وجوههم ، ونتج عن ذلك انهيار نظامين للحكم هما · العرش اليونانى وعرش آل عثمان ، وكان الأول غريبا عن اليونان ، حكمها ما يقرب من تسعين عاما ، وكان الثانى عريقا فى أصول الشعب العثمانى وتقاليده ، غير أن اليونان صارت بعد هذه النكبة دولة أكثر غنى وأقوى وأكثر سكانا مما كانت ، نتيجة لقدوم المهاجرين الآسيويين · وكذلك امتازت الجمهورية التركية التى أقامها مصطفى كمال عـــلى أنقاض السلطنة العثمانية بتركيز سلطة الدولة · وبذلك انتهت مســـألة الاقليات المسيحية فى تركيا ، والتى أقلعت الاوربيين ، وصاغت سياســـات الدول الغربية دهرا طويلا ، وكفت هذه المسألة عن أن تقضى مضاجع النظم السياسية الاوربية ·

عاصمتها الاستانة ـ استنبول حاليا ـ وشكل حكومة مؤقتة فى أنقرة · راجع :

ـ محمد زكى عبد القادر ، الحرية والكرامة الانسانية ـ القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٣٥ ·

— Soviet-Turkish Relations, op. cit., pp. 89-91.

واضطر الحلفاء ، فى مؤتمر لوزان الذى عقد سنة ١٩٢٣ ، الى أن يصدقوا على النتائج السياسية التى ترتبت على الانتصار التركى وعلى الصعيد التركى الداخلى ، مهد ذلك الانتصار السلسلة من الاصلاحات الجريئة ، والتى جعلت مصطفى كمال يلمع كعلم من أعلام الاتراك • وألغيت الخلافة من تركيا ، وحتى حينما أعرب بعض النواب عن شكوكهم تجاه ذلك ، رد عليهم مصطفى كمال بقوله : ان آخر الخلفاء الحقيقيين اغتيل سنة ٩٢٤م ، « وان السيادة تنال بالقوة والبطش والعنف ، فبالعنف نال خلفاء عثمان حق حكم الأمة التركية ، وبالقوة حافظوا على سلطانهم أكثر من قرون ستة • وقد ثارت الأمة على هؤلاء المغتصبين ، ووضعتهم فى مكانهم الصحيح(١٠) •

وكان ذلك يعنى فى جوهره اعطاء تركيا مظهر الدولة المتمدينة الغربية ، ومظهر ذلك انعكس فى الزام النساء برفع النقاب ، وجعـــل المدارس تحت اشراف الدولة ، وصدور قانون سنة ١٩٢٨ الذى نص على الغاء أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ، أى للجمهورية التركية ، والزام الترك بابدال الطرابيش بالقبعة ، كما أدخلت الحروف اللاتينية فى الكتابة التركية واقتبست القوانين الاوربية •

وهكذا خاض الشعب التركى حرب التحرير الشعبية ضد الاحتـــلال الأجنبى بعد الحرب العالمية الأولى ، واستطاع طرد الأوربيين من استنبول ، وعندما نجحت حرب التحرير التركية فى الحصول عى الاستقلال السياسى للدولة ، وايجاد دولة قومية والغاء الامتيازات الأجنبية وانهاء سلطة الديون الأجنبية • الا أن تركيا كانت وقتئذ بحاجة الى تغييرات اجتماعية ضرورية ، المجموعات الاشتراكية وقتئذ هو محـــاربة ما سمى بالاقطـــاع العثمانى والاستعمار ، ومعنى أن محاولات الاصلاح لم تتجاوز البناء الفوقى ، ولم تفهم الثورة اصطلاح علاقات الانتاج ، وكان من شأن ذلك أن نشأ صراع بين البناء الفوقى والبناء التحتى أو السفلى(١١) •

---

(١٠) من خطاب الغاه مصطفى كمال أتاتورك فى المجلس الوطنى فى ١٩٢٧/١٠/٢ •
ويرجع فى تفصيل ذلك الى : هـ ١٠ل٠ فيشر • تاريخ أوروبا الحديث . مرجع سابق ص ٥٨٥ — ٥٨٦ •

(١١) Ataov Turkkaya, N.A.T.O. and Turkey, Since Printing House Ankara, 1970 p. 80.

الموقف السوفيتى
فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين

١ ـ المضايق بين المنافسات الاوربية ومؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ :

أثيرت مشكلة المضايق بين الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى ،حيث كانت بريطانيا والدول الأوربية الأخرى فى وضع يسمح لهم بفرض الحلول على كل من الاتحاد السوفيتى والامبراطورية العثمانية ٠ وقد تم فعلا فى معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ٠ وكان مؤتمر لوزان الذى افتتح فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢ واستمر حتى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ، قد حضره مندوبو كل من بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وايطاليا ، واليابان ، واليونان ، ورومـــانيا ، ويوغوسلافيا ، وتركيا ٠ وقد كانت المناقشات الخاصة بمضايق البحر الأسود تهم كلا من الاتحاد السوفيتى ، وجمهورية أوكرانيا السوفيتية ، وجمهورية جورجيا السوفيتية ٠ وكذلك دعيت كل من بلغاريا ، والبانيا ، وبلجيكا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، والنرويج والسويد للمناقشات حول بعض النقاط ٠ وانتهى المؤتمر بابرام معاهدة صلح بين بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وايطاليا، واليابان ، واليونان ، ورومانيا ويوغوسلافيا من ناحية ، وتركيا من الناحية الأخرى ٠ ومما يجدر ذكره أن مسألة وضع نظام لمضايق البحر الأسود قد احتلت مكانا هاما فى جدول أعمال المؤتمر ، استئاثرت باهتمام الوفـــد السوفيتى ٠ الذى قدم مقترحات صاغها الزعيم السوفيتى لينين ٠ غير أن مقترحاته لم تقبل ، وترتب على ذلك عدم موافقة الاتحاد السوفيتى على هذه المعاهدة وعدم التصديق من جانب اتحاد الجمهوريات السوفيتية عليها ٠ وكان لينين قد صرح قبل ذلك ، وفيما يتعلق بالمضايق قائلا : « يتضمن برنامجنا اغلاق المضايق فى وجه كل السفن الحربية فى زمن السلم والحرب ٠ وهذا يخدم المصالح التجارية المباشرة لكل الدول ، وليس مصالح الدول التى تتاخم المضايق أراضيها فقط ، بل مصالح كل الدول الأخرى أيضا »(١) ٠

---

(١) راجع : لنين ف٥٠أ : فى السياسة الخارجية للدولة السوفيتية ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ـ مكتبة دار الشرق ـ القاهرة ١٩٧٢ ص ص ٤٤٠ ـ ٤٥٠ ، ٥٤٠ ـ ٥٦٠ ٠

راجع : بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، أزمات القرن العشرين ١٩١٤ ـ ١٩٤٥ ، مرجع سابق ص ص ٣٢٨ ـ ٣٣١ ٠

غير أن مؤتمر لوزان ، من ناحية أخرى ، جاء وكأنه بمثابـــة بلورة cristalization للسياسات المتنافسة بين الدول الأوربية ، التى اقتنصت فرصا استفادت منها كثيرا ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت المواقع التى حصلت عليها أوربا مهددة فى هذه الفترة ، بواسطة الاتجاهات الوطنية للمسلمين ، وهو ما انعكس تأثيره على مشكلة المضايق وكذا على القرارات التى كانت معاهدة سيفر لسنة ١٩٢٠ قد أتت بها ، ثم على مؤتمر لوزان ، كما يتضح من العرض الآتى : فلقد كانت حركات مقاومة سيطرة الدول الاوربية تهدف الى اقامة مجموعات سياسية فى البلاد الاسلامية ، ولكنها لم تحاول فى ذلك الوقت اقامة تعاون فيما بينها • وظلت الحركـــات الوطنية للاتراك ، والحركات الوطنية العربية ، والاتجاهات الوطنية فى ايران وحتى تلك التى وجدت فى أفغانستان ، تتميز بصفات مختلفة •

ووجدت الحركة الوطنية التركية متنفسا لها فى الحركة التى قادهـا مصطفى كمال ، والتى احتجت على تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وكذلك على الميزات التى منحتها نصوص معاهدة سيفر ، فى شـــهر أغسطس ١٩٢٠ ، لبريطانيا العظمى واليونان • وطالب مصطفى كمال بضرورة اعادة النظر فى هذه المعاهدة ، وعلى الأقل فيما يتعلق بوضع الأهالى الأتراك تحت سيطـرة أجنبية ، ولذلك فانه رفض الموافقة على حق الاحتلال الذى منح لليونان فى منطقة أزمير ، ولفرنسا فى قيليقيا ، ولايطاليا فى جنوب الأناضول حـول أضاليا ، وطالب كذلك بسحب قوة الحلفاء ، والتى كانت تقريبا بريطانية فقط ، والتى كانت مكلفة باحتلال القسطنطينية ، وبضمان تطبيق الوضعية الجديدة للمضايق العثمانية • وأكدت الحكومة الكمالية نجاح هذه المطالب ، عن طريق الضغط المسلح ، وحتى عن طريق الحرب •

ودفع دخول القوات التركية الى قيليقيا والى منطقة أضاليا ، كل من فرنسا وايطاليا الى قبول التفاوض • وتنازلت الحكومة الفرنسية ، باتفاقية ٢٠ أكتوبر ١٩٢١ ، عن احتلال قيليقيا ، باستثناء لواء الاسكندرونة ، الذى كان الأتراك لا يكونون فيه الا جزءا من السكان ، وتخلت الحكومة الايطالية عن منطقة أضاليا ، فى الوقت الذى احتفظت فيه ببعض المميزات لاستغلال موارد ما تحت الأرض •

ولم تنتظر القوات اليونانية الموجودة فى أزمير الهجوم التركى ، بل قامت بعملية هجومية وقائية ، تحطمت بسرعة ، ففتح يوم ٢٢ أغسطس ١٩٢٢ الطريق أمام جيش الكماليين الى أزمير ، التى تم احتلالها بعد أسبوعين ، دون

أن يكون لدى الوزارة الانجليزية أية نية لمعارضة ذلك • وعندئذ توجه الجيش التركى صوب الدردنيل ، حتى وجد نفسه أمام قوة فرنسية ـ انجليزيـة مكلفة بالدفاع عن المضايق • ولقد تحاشوا الاصطدام ، غير أن هدنة مودانيا ـ فى ١١ أكتوبر ١٩٢٢ ـ قد أعطت مصطفى كمال أتاتورك حـق أخذ ادارة القسطنطينية ، وطرد السلطان ، وتم تحقيق الجزء الأول من هذا البرنامج يوم ٤ نوفمبر ، والثانى يوم ١٧ نوفمبر •

وبقيت بعد ذلك عملية تتويج هذه النتائج ، باعادة النظر فى معاهدة سيفر • وعمل مؤتمر لوزان ـ الذى تقرر اجتماعه من أجل هدنة مودانيا ـ على اعادة النظر هذه ، وذكر اللورد كيرزن Curzon ، رئيس الوفد البريطانى : « ان الأتراك ، قد أظهروا أنفسهم « وقحاء » ولا يمكن التفاوض معهم » ، ولكن الوزارة الانجليزية (وكان بونارلو Bonar haw قد حل محل لويد جورج) كانت ترغب ، مهما كان الثمن ، فى تحاشى الوصول الى صدام • وفى ٢٤ يوليو ١٩٢٣ ، أعادت المعاهدة الجديدة لتركيا سيادتها على كل شبه جزيرة الأناضول ، وعلى القسطنطينية ، وتراقيا حتى مارتيز (أى بما فيها أدرنة) ، وأخيرا على جزر ايمبروس وتينيروس ، اللتين كانتا تتحكمان ، من بحر ايجة ، فى مدخل الدردنيل ، والغت نظام الاعفاءات الذى كان الأجانب ، طبقا لنظام الامتيازات الأجنبية ، يتمتعون به فى الأرضى التركية ، وسوت أخيرا وضعية المضايق(٢) فاعترفت الحكومة التركية بمبدأ حريـة المرور ، الذى وضعته معاهدة سيفر ، ولكنها حصلت على حق منع مرور سفن الدولة التى تكون تركيا معها فى حالة حرب •

وفى هذا النجاح ، لم يكن التأييد الدبلوماسى الذى أعطته روسيـا السوفيتية للحكومة الكمالية ، بالتأكيد ، عنصرا كافيا للتفسير • فلم يكن فى وسع الجمهورية التركية أن تحطم الوضعية الدولية المفروضة فى عام ١٩٢٠ ، اذا كانت قد واجهت مقاومة مشتركة من جانب بريطانيا العظمى ، وفرنسا وايطاليا • ولكن الدول المنتصرة كانت قد انقسمت على بعضهـا ، ذلك أن بريطانيا العظمى ، التى كانت أكبر المستفيدين من معاهدة سيفر ، لم تجد معونة شركائها من أجل الدفاع عن نصوص هذه المعاهدة ، اذ أن فرنسا وايطاليا وجدا استحالة العودة الى السلاح ، بعد أقل من ثلاث سنوات منذ الحرب العالمية ، للمحافظة على المواقع التى كانت أهميتها كبيرة بالنسبـة

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ •

للمصالح البريطانية ، ولكنها كانت ثانوية بالنسبة لكـــل منهما • وحينما وافقتا تقريبا على جميع النقاط ــ أمام ضغط مصطفى كمال أتاتورك ــ احتجت الحكومة الانجليزية بلا جدوى على هذه المفاوضات ، التى كانت تشجع ــ بالطبع ــ الأتراك على مواصلة تحقيق برنامجهم • وفى خريف عام ١٢٢ ، رفضت الحكومة الفرنسية أن تصدر الأوامر الى قواتهـــا بسد الطريق أمام جيش الكماليين •

ومن جانب آخر ، كانت السياسة الانجليزية ــ كما سبق ايضاح ذلك ــ قد وضعت آمالها على يونان فينيزيلوس • غير أن الملك قسطنطين ، الذى كان منفيا منذ عام ١٩١٧ ، كان قد عاد الى عرشه ، منذ شهر ديسمبر عام ١٩٢٠ ، بعد استفتاء • وكان فينيزيلوس قد أبعد هو الآخر عن السلطة ، فلم يعد من الممكن الاعتماد على مرونة الحكومة اليونانية • واذا كانت بريطانيا ــ رغبة منها فى تسوية السلم مع تركيا ــ قد حاولت أن تلقى مسئولية الهزائم التى أصابت سياستها على تهرب حلفائها ، فان هذه السياسة البريطانية ، من جانب لويد جورج ، قد انهارت تماما منذ أن عجزت عن لعب البطاقة اليونانية• فماذا كان تأثير هذه المنافسات الاوربية على مؤتمر لوزان فى عام ١٩٢٣ • وعلى قراراته المتعلقة بمشكلة المضايق ، ووقعها بين السوفييت وتركيا من ناحية ، وبين الدول الأوربية وتركيا ، من ناحية أخرى •

لقد تضمنت معاهدة لوزان ، فى ٢٤ يوليو ١٩٢٢ ، القرارات الرئيسية التالية ، فيما يتعلق بالاعتبارات السابقة :

أولا : البواخر التجارية : اعترف المؤتمرون فى لوزان بحق مبدأ حرية المرور فى وقتى السلم والحرب على السواء ، مع استثناء هذا المبدأ عندما تكون تركيا فى حالة حرب ، اذ بموجب ذلك يحق لتركيا ايقاف بواخر العدو ، مع حرية المرور للبواخر المحايدة •

ثانيا : البواخر الحربية : يحق للبواخر الحربية المرور فى المضايق التركية وقت السلم ، بشرط أن لا يتجاوز الحد الأعلى للقوة ، التى ترسلها الى البحر الأسود أية دولة من غير دول البحر الأسود ، قوة تكون أقوى من أساطيله • وعلى الرغم من هذا الشرط ، فقد أصبح من حق كل دولة من غير دول البحر الأسود أن تبعث اليه أساطيل بحرية لا تزيد على قطع ثلاث ، بحمولة لا تتجاوز العشرة آلاف طن ، أما اذا كانت تركيا من الدول المحاربة ، فانه يسمح للدول المحايدة بحق المرور فقط • وبالاضافة الى ذلك ، فقد اتفق المؤتمر على تجريد

منطقة المضايق من السمة العسكرية ، كما تم الاتفاق أيضا على أن تكون ادارة المضايق الفعليه عن طريق لجنة دولية(٣) ٠

٢ — ردود الفعل السوفيتية :

لم تكن قرارات مؤتمر لوزان مبعث رضاء الاتحاد السوفيتي ، ولقد رفض السوفيت التوقيع على معاهدة لوزان ، أما بالنسبة لتركيا ، فانها تعهدت أمام نظام الأمن الجماعي لعصبة الأمم ، بأن تعمل جاهدة على نجاح قرارات هذه المعاهدة ، والعمل المستمر على تجريد المضايق من الصبغة العسكرية ٠ غير أن الظروف تغيرت بمرور الزمن الى حد كبير ، وضعفت(٤) عصبة الأمم ، حيث قامت ايطاليا بالهجوم على الحبشة ، واستأنف ألمانيا تسليح الراين ٠ وفى مواجهة هذه الظروف ، فكرت تركيا فى انشاء وضع جديد فى المضايق ، من شأنه أن يعيد تسليحها من جديد ، وتم هذا فعلا بتوقيع اتفاقية مونترو ، فى ٢٠ يوليو ١٩٣٦ ، كبديل للنظام السابق للمضايق لعام ١٩٢٣ ٠

ومما يجدر ذكره أن اتفاقية مونترو قد وقعت بين الاتحاد السوفيتى ، وتركيا ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، واليونان ، ويوغوسلافيا واليابان ، ولقد رحب السوفيت بهذه الاتفاقية ، لأنهـــا حققت لهم بعض الأهداف الاستراتيجية ، فحالت بينها كقوة بحرية هائلة فى البحر الأسود ، وبين القوى الأجنبية ، ومنها ألمانيا الهتلرية ، التى كانت تشـــكل تهديدا عسكريا للاتحاد السوفيتى(٥) ، وعلى الرغم من ترحيب السوفيت بهـــذه الاتفاقية ، وتحقيق بعض الأهداف ، الا أن أجهزة الاعلام السوفيتية عبرت عن

---

(٣) النعمى : تركيا وحلف شمال الأطلسى ، مرجع سابق ص ٤٩ ، راجع أيضا :
Mijid, Khadduri, Major Middle Eastern. Problems in Internationai Washington, D.C. 1975, p. 7.

(٤) حول الأمن الجماعي وعدم كفايته فى فترة ما بين الحربين ٠ راجع :
بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ازمات القرن العشرين ١٩١٤ ــ ١٩٤٥ ، مرجع سابق ص ص ٣٧٨ ــ ٣٨٥ ، ٤٤٩ ــ ٤٨٠ ٠

(٥) دكتور اسماعيل صبرى مقلد ، البحر المتوسط فى الاستراتيجية الدولية ــ القاهرة يونيو ١٩٧٧ ص ص ١٥٠ ــ ١٦٠ ٠

راجع : أنور الشمانيني ، من مونيخ الى وارسو أو السياسة العالمية ــ المطبعة التجارية ١٩٣٩ ص ص ١٣٥ ــ ١٤٥ ٠

ــ احمد نورى النعيمى ، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، مرجع سابق ص ص ٢١ ــ ٢٥ ٠

استيائها وتذمرها من هذه الاتفاقية ، حيث اتهمت تركيا بأنها استسلمت لضغوط القوى الاستعمارية •

ولقد أثبتت نصوص معاهدة مونترو أن السوفيت لابد وأنهم قادرون على تعديلها مستقبلا ، بالرغم مما حققته هذه المعاهدة من أهداف استراتيجية للسوفيت • ولقد تم هذا بالفعل عقب الحرب العالمية الثانية ، وما أتت به أحداث هذه الحرب من انتصار للسوفيت ، وهو ما يمكن تتبعه من نصوص اتفاقية مونترو •

لقد تضمنت هذه الاتفاقية بعض الشروط ، منها أنه يحق للسفن التجارية المرور في وقت السلم دون أن يكون هناك أى تحديد للزمن ، أما فى وقت الحرب فاذا كانت تركيا من الدول المحاربة فانه يحق للسفن التجارية غير المشاركة في الحرب المرور فيها ، شريطة أن لا تقدم المعونات للعدو • وبالنسبة للدول الواقعة على البحر الأسود ، فانه يصبح من حقها ارسال سفن أجنبية كى تمر من المضايق وتزيد حمولة هذه السفن على خمسة عشر ألف طن •

كما تقرر تمتع تركيا بايقاف السفن الحربية الأجنبية أو أن تسمح لها بالمرور عبر المضايق عند تعرضها لخطر نشوب الحرب ، وبمعنى آخر ، فقد منحت اتفاقية مونترو تركيا حق الادارة الفعلية وتحصين المناطق ، كما نصت على الغاء لجنة المضايق ، التى نصت عليها قبل ذلك نصوص معاهدة لوزان •

وعموما فانه قد عاد الى تركيا اشرافها العسكرى على المضايق ، بمقتضى معاهدة مونترو ، كما قوى مركزها فى البحرين ، الأسود والمتوسط • كما عقدت تركيا معاهدة مع بريطانيا وفرنسا فى أكتوبر ١٩٣٩ ، وتمهدت تركيا بتقديم المساعدة اذا ما انتقلت الحرب الى منطقة البحر المتوسط • ولقد تضمنت الاتفاقية شرطا يكون لها بمقتضاه الا تضطر لأى نزاع ضد الاتحاد السوفيتى • غير أن السوفيت لم يرحبوا بهذه المعاهدة فيما بعد ، وانتقدوها ـة ، وأعلن مولوتوف استهجانه لعمل تركيا فى هذه الشأن(٦) •

---

(٦) راجع فى تفصيل ذلك •

— Royal Institute of International Affairs, Documents on International Affairs : 1917-1924. op. cit. pp. 118-125.

٣ ـ موقف السوفيت من معاهدة مونترو :

ولقد حقق السوفيت انتصارات كبيرة فى الحرب العالمية الثانية ، ولم يقدم الأتراك مساعدة تذكر السوفيت وقتئذ • أما الولايات المتحدة ، فقد كانت بعيدة عن أوربا وعن تركيا أيضا ، وهكذا أصبح للسوفيت ثقة كبيرة فى استراتجيتهم • وقدموا طلباتهم الى الحكومة التركية ، وتضمنت هذه المطالب : تعديل اتفاقية مونترو ، والمذكرات المتبادلة بين الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتى الى الحكومة التركية بين عامى ١٩٤٥(٧) ـ ١٩٤٦ وهى التى كانت من حصيلة قرارات بوتسدام ، لتعديل معاهدة مونترو •

ولقد حرصت الحكومة السوفيتية برغبتها فى انهاء المعاهدة التى عقدتها تركيا عام ١٩٢٥ • وذلك فى المذكرة التى بعثها الى الحكومة التركية فى ٧ أسطس ١٩٤٦ • وأشار السوفيت فيها الى عديد من الحوادث التى وقعت خلال الحرب العالمية الثانية ، فى المضايق التركية ، وهى حادثة مرور زورق الدوريه الألمانى seefalke ، فى ٩ يوليو ١٩٤١ ، عبر المضايق الى البحر الأسود • وقد احتجت السلطات السوفيتية على ذلك ، وأيضا على مرور الباخرة الايطالية Tarvisio ، عبر المضايق فى أغسطس ١٩٤١ الى البحر الأسود ، وكذا سماح السلطات التركية بمرور السفن التجارية الالمانية فى ٤ نوفمبر ١٩٤٢ ، والتى كانت تحمل ١٤٠ر٠٠٠ طن من المواد الأولية ، وهى فى طريقها الى البحر الأسود ، ومرور مجموعة بواخر ألمانية عبر المضايق الى البحر الأسود فى يونيو ١٩٤٤ ، من طراز Ems ، يقدر عددها بثمانية ، وخمس بواخر من طراز الناقلات الحربية Kriogstransport للقيام بأعمال ببعض الأعمال فى البحر الأسود •

وفى شهر أبريل ١٩٤٦ ، بينما كان السوفيت يركزون على أن تركيا سمحت لبريطانيا بانشاء قواعد عسكرية على مقربة من المضايق ، قدمت الحكومة السوفيتية مذكرة ثانية رفضوا فيها ما اقتراحه الأتراك من عقد مؤتمر من الموقعين على اتفاقية « مونترو » ، ومعهم الولايات المتحدة ، وأنذرت المذكرة بأن كل محاولة لادخال الولايات المتحدة أو بريطانيا فى الأمر ، تعتبر وكأنها موجهة ضد مصالح دول البحر الأسود •

---

٧ لعل من أفضل الدراسات التى عرضت بصورة وناقشة لهذا الموضوع :
راجع : أحمد نورى النعيمى : « السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية ، مرجع سابق ص ص ٨٠ ـ ١٢٠ •

غير أن تركيا قامت بتنفيذ المزاعم السوفيتية ، وجاء فى احدى المذكرات التركية الرد التالى : « السنامدينيين بأنج واحد من أقاليمنا التركية ، ولسنا ملزمين بالتنازل عن الأرض التركية ، وسوف نعيش ونموت شرفاء ٠٠ » ٠ كما اتسمت الدبلوماسية التركية — على قول أحد الباحثين(٨) — بالدنيامية فى هذه الفترة بأن جعلت من القوى العظمى شريكا لها فى هذه المشكلة ، وخاصة الولايات المتحدة الامريكية ، التى ركزت تركيا على ضرورة مساندتها — أى مساندة الولايات المتحدة — لها ، باعتبار أن السوفيت لا يشكلون — على حد الزعم التركى — تهديدا على تركيا ودول الشرق الأوسط فحسب ، بل العالم بأكمله ٠

وعموما يمكن اجمال الدوافع الحقيقية من وراء مطالبة السوفيت بتعديل اتفاقية مونترو ، فيما تضمنته هذه الاتفاقية من قيود تتعلق باستخدام السفن الحربية السوفيتية للمضايق التركية ، وقـــد حرمت هذه القيود الاتحاد السوفيتى من منافع كثيرة ، خاصة اذا أخذنا فى الاعتبار التوسع الهائل فى الاسطول البحرى السوفيتى ، وهو ما يعتبره السوفيت دليلا على عدم صلاحية هذه الاتفاقية بالنسبة لهم ٠ واذا كان السوفيت قد رحبوا بهذه الاتفاقية عند توقيعها لاعتبارات تتعلق بالأمن السوفيتى فى تلك الفترة ، الا أنهم قـــد اعتبروها فيما بعد عقبة تحول دون الدفاع عن المصالح السوفيتية ، فلم يسمح للاتحاد السوفيتى سوى بمرور مدمرة واحدة أو طراد واحد للعبور يوميا ، فى حين أن الحكومة التركية كانت تسمح بمرور مدمرتين فى اليوم لدول أخرى ، وهو ما اعتبره السوفيت التزاما موجها ضدهم ، كذلك لم يكن هناك نص صريح يشير الى استخدام الاتحاد السوفيتى لحاملات الطائرات ، وكأنها من السفن الحربية ، التى تمر فى المضايق التركية ، أما الغواصـات السوفيتية فانه نادرا ما تغوص فى البحر المتوسط عبر البحر الأســود والمضايق ، اذ أنه بموجب اتفاقية مونترو يسمح للسوفيت بمرور غواصاتهم فى هيئة مجموعات أو قوافل ، بمعنى أنه يجوز مرور الغواصات السوفيتية فى هذه الممرات المائية بصورة فردية فقط ، وبشرط أن تطفو على السطح ٠

---

(٨) المرجع السابق ، وقد أورد الباحث المذكور تقريرا كاملا كان هو تمخض عن مباحثات S. Saracoglu Wilson E.C. رئيس وزراء تركيا بعكس آراء عصمت اينونو بشكل قاطع هذا الموضوع ٠

راجع فى تفصيل ذلك أيضا : أحمد نورى النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، مرجع سابق ص ص ٥٣ — ٥٤ ٠

وعلى الصعيد جعل الولايات المتحدة كشريك كامل لتركيا فى مواجهة الاتحاد السوفيتى ، نجد أن الولايات المتحدة استغلت النزاع بين تركيا والاتحاد السوفيتى ، فقامت بتوقيع اتفاقية مع تركيا ، منحتها بموجبها ١٠ ملايين دولار ، كما قامت الولايات المتحدة وقتئذ بتعزيز موقفها فى تركيا بارسال البارجة الحربية الى مضيق البسفور ، وهى بارجة مزودة بالاسلحة المتنوعة • وكانت الغاية من ارسالها الى تركيا بصورة رئيسية هى انذار الاتحاد السوفيتى الذى كان يحاول التوسع فى منطقة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما أن السوفيت قد خرجوا من الحرب وهم منتصرون ، اذ سيطروا على ثلثى الأراضى فى أوربا الشرقية وشمال آسيا بأجمعه ، واستطاعوا بالتالى نشر النظام الماركسى فى هذه الدول • وتحت هذه الظروف أعلنت الولايات المتحدة فى مناسبات عديدة بأن تبقى المضايق وحدها تحت الحماية التركية ، وان الاتحاد السوفيتى يجب أن لا يتدخل فى هذا الأمر •

وفى هذه الفترة أيضا أرسلت تركيا مذكرة رسمية الى الكونجرس الامريكى ناشدته بدعم الاقتصاد التركى ، وكانت هذه النقلة المهمة هى التى حالت دون تقدم تركيا مستقلا فى السياسة الاقتصادية ، وبالتالى كانت عاملا فى عدم الاستقرار الاقتصادى فى تركيا فيما بعد •

راجع فى تفصيل ذلك :

— Manisali, Erol, "The Effects of the U.S. Military Embargo on the Turkish Economy, Foreign Policy; Ankara 1975, pp. 85 - 89.
— Howard N., Harry, "The Bicentennial in American - Turkish Relations", in : The Middle East Jurnal, Vol. 30, No. 3, Summer 1976 pp. 300 - 310.
— The Economist Vol. 259, No. 6919 April 3, 1976.

تطور السياسة السوفيتية منذ الخمسينيات

١ - تطور السياسة السوفينية تجاه تركيا :

بدا أن السوفيت قد تخلوا عن سياسة ستالين تجـــاه تركيا ، منذ منتصف الخمسينات(١) ، فبعد وفاة ستالين ، قامت الحـــكومة السوفيتية بارسال مذكرة الى الحكومة التركية أكدت فيها على أن الحكومة السوفيتية سوف تقوم على تعزيز علاقاتها مع جيرانها ، وأنها قد تخلت أيضا عن مطالبها الاقليمية فى تركيا • وفى مناسبة لاحقة ، أكد السوفيت أيضا تخليهم عن اقامة قواعد عسكرية على المضايق ، والعودة الى السياسة التى اتبعها كل من لينين وأتاتورك بشأن تقديم مساعدات الى تركيا(٢) •

غير أن الأتراك قابلوا هذه السياسة السوفيتية بفتور ، بل انهم أعتبروا السياسة التى اتبعها خرشوف بعد وفاة ستالين ، والتى عرفت بسياســة التعايش السلمى ـ بمجرد مناورة سياسية • ولقد فسر الغرب ذلك بأن الموقف السوفيتى يتسم بالابهام والغموض ، ومن ناحية ثانية ، فان السوفيت لم يكونوا على وفاق مع حكم عدنان مندريس ، الذى استمر لمدة عشر سنوات ، أى من عام ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ ، لأنهم وضعوا المسئولية الكبرى على تازم العلاقات السوفيتية التركية على مندريس ، وتلى ذلك قيام الحركة الانقلابية بالااطحة بعدنان مندريس ، فى ٢٧ مايو ١٩٦٠ • وبالطبع ، فقد أيد السوفيت هــذه الحركة الانقلابية ، وكان يراقب باهتمام التطورات السياسية فى تركيا بعد انقلاب ٢٧ مايو ١٩٦٠ • ولكن الأحتياء والتذمر عم الساسة السوفيت بعد ذلك ، وخاصة بعد البيان الأول للانقلابيين فى تركيــا ، عندما أكد هؤلاء ارتباطهم بحلف الاطلنطى • وقد جاء رد فعل الساسة السوفيت فى الرسالة التى بعث بها خروتشوف الى القادة الاتراك ، وذلك فى ١٨ يونيو ١٩٦٠ ،

Laqueur. Walter, The Soviet Union and the Middle East, London 1959 pp. 200 - 210.

Giritli, Ismet, "Turkish - Soviet Relations" Indian Quarterly : A Journal of International Studies, No. 1, Vol. XXV, 1970 p. 17.

راجع . احمد نورى النعيمى ، تركيا وحلف شمال الأطلسى ، مرجع سابق ص ٣٢٧ •

قائلا : « اذا كانت الحكومة الجديدة فى تركيا تنتهج مبادىء أتاتورك فى السياسة الخارجية ، فان العلاقات بين البلدين سوف تصل الى مستوى عال من علاقات حسن الجوار والصداقة » . كما أكد خروتشوف فى رسالته هذه أن تطوير العلاقات بين تركيا والاتحاد السوفيتى لا يتعلق بعضوية فى حلف شمال الأطلسى والمعاهدة المركزية .

كما بعث خروتشوف برسالة أخرى الى جمال كورسيل ، فى ٢٨ يونيو من نفس العام ، اقترح فيها على كورسيل اتباع سياسة الحياد كوسيلة لتخفيض عبء الاسلحة الملقاة على عاتق تركيا . الا أن كورسيل رفض هذا الاقتراح ، مؤكدا أن هذه الاسلحة تستخدم لأغراض دفاعية فى اطار حلف شمال الاطلسى . وأكد جمال كورسيل - قائد الحركة الانقلابية فى رسالة بعث بها الى خروتشوف ، فى ٨ يوليو ١٩٦٠ ، مؤكدا أن حكومته تقف مع الأحلاف ، طالما أن لها طبيعة دفاعية . غير أن مؤتمر الاحزاب الشيوعية ، الذى عقد فى موسكو فى نوفمبر ١٩٦٠ ، هاجم الحكومة الجديدة ، وقامت حكومة كورسيل ببناء محطات اذاعة فى شرقى تركيا ، للرد على الرعاية السوفيتية .

ويرى بعض الباحثين بهذا الصدد أن التغيير فى السياسة الخارجية التركية تجاه الاتحاد السوفيتى قد بدأ فعلا بعد محاولة عصمت اينونو غزو الجزيرة القبرصية فى عام ١٩٦٤ ، كما أن هذه الفترة تسجل فترة الفتور فى العلاقات بين تركيا وحلفائها فى حلف شمال الأطلسى ، بسبب الموقف السلبى لهؤلاء من تركيا بشأن الأزمة القبرصية ، وتعود هذه التطورات جميعا الى الرسالة التى وجهها جونسون الى اينونو ، فى ٥ يونيو ١٩٦٤ ، والتى حذره فيها من مغبة التدخل فى **الجزيرة القبرصية ، كما سبق ايضاح ذلك .** وهذا
فيها من مغبة التدخل فى الجزيرة القبرصية ، كما سبق ايضاح ذلك . وهذا
التحول فى السياسة الخارجية التركية لم يبدو واضحا للعيان الا فى هذه الفترة - أى عام ١٩٦٤ - وذلك بمناسبة الازمة القبرصية ، حيث اختبرت تركيا حليفاتها فى حلف شمال الاطلنطى . وفى هذا الخصوص أرادت تركيا من تقربها من الاتحاد السوفيتى تحقيق مكاسب عديدة ، منها الرغبة فى الحصول على دعم الكتلة الاشتراكية لها فى الأمم المتحدة ، فيما يتعلق بالقضية القبرصية ، بعد أن أصبح واضحا عدم قبول تركيا لحلول حلفائها فى حلف شمال الاطلنطى . كذلك فقد اعتقد عصمت اينونو ، رئيس وزراء تركيا وقتئذ ، بأن التقارب التركى السوفيتى سوف يحرم الرئيس مكاريوس من امتياز التهديد ، وذلك لوقوف السوفيت الى جانبه ، وهو الأمر الذى كان

متوقعا لممارسة الضغط على الولايات المتحدة والغرب ، لأنهما كانا يؤديان دورا فعالا فى اجبار اليونان على قبول حل يتوافق مع مصالح تركيا • ومن المكاسب التى أرادت تركيا أيضا تحقيقها من تقاربها من الاتحاد السوفيتى الرغبة فى الحصول على المعونة الاقتصادية من الاتحاد السوفيتى ، بعد انتفاء مصلحة الولايات المتحدة والغرب فى تركيا •

وكان من نتائج الزيارات المتبادلة بين المسئولين فى تركيا والاتحاد السوفيتى أن أعلن الطرفان التزامهما بقرارات مجلس الأمن ،فيما يتعلق بالقضية القبرصية(٢) •

٢ ـ موقف السوفيت من مشكلة قبرص ١٩٦٤ ـ ١٩٧٤ :

ساند السوفيت حكم مكاريوس فى قبرص فى الفترة الواقعة بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ ، وذلك بسبب معارضة مكاريوس للانضمام للاحلاف العسكرية ، واتباع سياسة عدم الانحياز ، فى حين خسر الاتراك المساندة السوفيتية بسبب ارتباطهم بالأحلاف العسكرية الغربية • غير أن الاتراك اقتربوا من السوفيت فى هذه الفترة بالذات ، بسبب امتناع الولايات المتحدة عن مساندة تركيا فى الأزمة القبرصية فى عام ١٩٦٤ وبالتالى فقد دفع هذا الموقف تركيا للتقرب من الاتحاد السوفيتى بعد حرب باردة بينهما استمرت أكثر من عقد من الزمن

وازاء احتمالات فرض تسوية لمشكلة قبرص من جانب حلف شمال الاطلنطى(٣) فى الفترة اللاحقة ، فقد أكد الاتحاد السوفيتى مساندته لجزيرة

---

(٢) The Turkish Year book of International Relations 1965, pp. 190-196.

(٣) فى عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ ابان أزمة قبرص اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية ارسال قوات أمريكية وأخرى تابعة لحلف شمال الأطلنطى لحفظ السلام فى الجزيرة • وقد أعلنت قبرص رفضها لهذا المشروع على الرغم من موافقة كل من تركيا واليونان عليه وتأييده من جانب بريطانيا• كذلك فقد عمدت الولايات المتحدة الى فرض تسوية للمشكلة القبرصية على كل من اليونان وتركيا فى اطار حلف شمال الأطلنطى عام ١٩٧١ وهو المشروع الذى نادى به « دين أتشستون » ، وبالفعل تمت فى اجتماعات المجلس الوزارى لحلف الأطلنطى التى عقدت فى يونيو ١٩٧١ بلشبونة، كذلك فان معظم القبارصة اليونانيين قد رأوا أن الضغط الذى مارسته اليونان كان مصدره الرئيسى حلف شمال الأطلنطى •

قبرص من أجل المحافظة على استقلالها ووحدة أراضيها ، كما قام الرئيس مكاريوس بزيارة للاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩٧١ وصدر في أعقابها البيان المشترك متضمنا تأكيد الجانبين بأن قبرص ، بصفتها عضوا كاملا في الأمم المتحدة ، لها الحق ، ويجب أن تتمتع بالسيادة التامة والاستقلال الكامل بدون أى تدخل أو غزو خارجي • وأوضح البيان تأكيد الاتحاد السوفيتي لمعارضته الايجابية لاى تدخل أو غزو أو استخدام للقوة أو التهديد بها في مواجهة قبرص • وقد جاءت اعادة تنصيب مكاريوس في عام ١٩٧٣ لتتفق واهتمامات ومصالح الاتحاد السوفيتي اذ أن سياسته تحول دون وضع قبرص تحت سيطرة حلف الاطلنطى • ولذلك كان للاتحاد السوفيتي _ دائما _ مواقفه المؤيدة لسيادة قبرص منذ اعلان استقلالها في عام ١٩٦٠ • وخلال اندلاع القتال في قبرص عام ١٩٦٣ أعلن الاسقف مكاريوس ، في حديث وجهه الى الأمة ، دعوته الى مقاومة التدخل الأجنبي • وأوضح عدم استعداده للتسليم ازاء أى تهديد أو ابتزاز ، لأن الشعب القبرصي ليس بمفرده ، ولكنه يملك تعاطف القوى الأخرى في كفاحه • وقد اعتبرت هذه التلميحات بمثابة تحذير لحلف الأطلنطى بشأن تهديده لقبرص ، وما يترتب عليه من رد فعل سوفيتي • وبالفعل ، أصدرت وكالة تاس في أعقاب ذلك بيانا رسميا حذرت فيه الغرب من التدخل في الشئون الداخلية لقبرص •

وقد أكد الموقف السوفيتي من خلال سلسلة المذكرات والخطابات التي أرسلتها الحكومة السوفيتية الى حكومات كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وتركيا واليونان ، خلال الفترات الحرجة للمشكلة القبرصية ، مطالبة اياهم بالامتناع عن التدخل في شئون قبرص ، لأن مثل هذه المحاولة ستكون مصدرا لتعقيدات دولية • وذات نتائج مشحونة بالخطر • ويضاف الى ذلك كله مساندة الاتحاد السوفيتي للشعب القبرصي داخل الأمم المتحدة والاتفاق الموقع بين الطرفين في ٣٠ سبتمبر ١٩٦٤ ، لتقديم المساعدة العسكرية السوفيتية من أجل سلامة ووحدة قبرص ، وفي مواجهة بعض دول حلف الاطلنطى ، التي تحاول فرض حلول سياسية غير مقبولة من جانب الشعب القبرصي ، بما في ذلك اقامة قواعد عسكرية أجنبية • وان كانت العلاقات بين البلدين قد تعرضت لهزات طفيفة عام ١٩٦٥ ، نتيجة تصريحات أدلى بها أندريه جرميكو ، وزير الخارجية السوفيتي ، لصحيفة ازفستيا . اشار فيها الى ضرورة احترام حقوق الطائفتين في الجزيرة ، مع امكانية اقامة حكومة فيدالية • كما تعرضت تلك العلاقات لهزة عام ١٩٦٧ ، نتيجة استبعاد قنصل السفارة السوفيتية في قبرص بتهمة التجسس •

وعندما وقع الانقلاب العسكرى فى اليونان عام ١٩٦٧ ، فان السوفيت لم يؤيدوا هذا الانقلاب ، لأن النظام العسكرى فى اليونان قد ضرب وأخمد الحركات اليسارية بشدة ، كما اقترب هذا النظام من الولايات المتحدة · وعلى ذلك رفض السوفيت رفضا قاطعا سياسة Enosis التى أعلنتها الحكومة العسكرية فى اليونان بشأن قبرص ·

وتجدر الاشارة الى أنه كان قد تم توقيع اتفاقية بين الاتحاد السوفيتى وتركيا فى ٢٥ مارس ١٩٦٧ ، والتى أكدت على التزام الاتحاد السوفيتى باقامة خمسة مشاريع ضخمة فى تركيا فى الاسكندرونة وأزمير وبانديرما ، وسيدى شير ، كما قدم السوفيت مساعدة اقتصادية لتركيا بلغت قيمتها ٣٥٠ مليون دولار · وفى عام ١٩٧٢ ، وقع السوفيت أيضا على اتفاقية تجارية تعهدوا فيها بتقديم معونة مالية لتركيا بلغت حوالى ٣٠٠ مليون مارك · غير أن العلاقات التركية ــ السوفيتية قد سادها نوع من الفتور ، وذلك فى أعقاب التدخل التركى فى قبرص فى ٢٠ يوليو ١٩٧٤ · وبهذا الصدد تجدر الاشارة الى أن السوفيت كانوا يؤكدون ، ومنذ أكثر من عشر سنوات مضت على الانزال التركى فى جزيرة قبرص أن مناقشة الازمة القبرصية ينبغى أن تكون فى اطار العلاقات الدولية ، وبمعنى آخر فان الاتحاد السوفيتى لم يكن يعترف بالمعاهدات بين تركيا واليونان وبريطانيا ، والتى سميت بمعاهدات الضمان · كذلك فان المركز السياسى التركى ، الذى ارتبط بالغرب باستمرار ، كان ينظر اليه بريبة من جانب السوفيت ، وقد حاولت الحكومات التركية المتعاقبة تبنى مفهوم جديد للسياسة الخارجية ، وأصبح هذا الاتجاه واضحا منذ الانزال التركى فى قبرص عام ١٩٧٤ ، وردود الفعل الغربية ، والتى بلغت ذروتها فى حظر الاسلحة الامريكية والموقف السلبى لحلف شمال الاطلنطى تجاه ذلك، والتدهور فى علاقات تركيا مع دول السوق الاوربية المشتركة · وكل ذلك كانت له ردود فعل سيئة من جانب بعض أعضاء حلف شمال الاطلنطى تجاه تركيا ، وخاصة من مواقف هذه الأخيرة ازاء الأزمة القبرصية ، وأزمة بحر ايجة ·

ففيما يتعلق بمشكلة قبرص أكد بودجورنى خلال زيارته لتركيا قبل ذلك بأن الاتحاد السوفيتى يعارض محاولات التدخل فى الشئون الداخلية لقبرص ، واضاف قائلا : « ان الوصول الى حل جذرى للقضية القبرصية يكون عن طريق اتفاق بين الطائفتين التركية واليونانية فى الجزيرة ، وبدون

تدخل من الخارج ، وكان رد الفعل التركى على ذلـــك ما أعلنته الصحف(٤) التركية وقتئذ ، بأن القادة السوفيت يستخدمون لغة خاصة عند اتصالهم بالاسقف مكاريوس ، ولغة أخرى عند اتصالهم بالمسئولين الأتراك • وعموما فقد ساند الاتحاد السوفيتى مكاريوس والنظام الدستورى القائم فى قبرص قبل الانقلاب العسكرى ، ضد الاسقف مكاريوس ، فى ١٥ يوليو ١٩٧٤ ، وطالبت موسكو ، فى بيان رسمى ، بتطبيق قرار مجلس الأمن الذى ينص على اعادة حكومة مكاريوس الشرعية • كذلك اتهمت موسكو أوساط حلف شمال الاطلنطى بأنها تجعل من موضوع وحـــــدة أراضى قبرص المستقلة مادة للمساومة ، رغبة فى تعزيز المواقع الاستراتيجية لحلف الاطلنطى شرقى البحر المتوســــط وطالبت بانســـحاب كل القوات الأجنبية التركية واليونانية والبريطانية من الجزيرة •

فور عرض المشكلة القبرصية على الأمم المتحدة ، لعب المندوب السوفيتى، جاكوب ماليك ، دورا هاما فى صياغة قرار وقف اطلاق النار بين الطرفين المتنازعين • ومن ناحية أخرى ، استخدم المندوب السوفيتى حق الاعتراض (الفيتو) فى مجلس الأمن ضد اقتراح يدعو الى تفويض الأمين العام للامم المتحدة اتخاذ الاجراءات المناسبة التى تمكن القوات لدولية فى قبرص من نفيذ اتفاقية جنيف ، المتعلقة بوقف اطلاق النار فى جزيرة قبرص ، كما عبر المندوب السوفيتى عن عدم ارتياحه من تورط العالم الغربى وحلوله الانفرادية فى حل هذه الازمة • كما أوضح السوفيت موقفهم من التطورات الأخيرة فى قبرص ، فى البيان الذى أصدرته الحكومة السوفيتية فى ٢٢ أغسطس ١٩٧٤، والذى احتوى على النقاط التالية :

أولا : وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٥٣ فانه يجب على القوات العسكرية والأجنبية الانسحاب فورا من جزيرة قبرص •

ثانيا : ان ما يسمى بمعاهدات الضمان(٥) التى فرضت على الجزيرة ، هى معاهدات عاجزة تماما عن تأدية دورها فى استقلال الجزيرة كما يجب أن يكون ، وبمعنى آخر فانه ، وفقا لوجهة النظر السوفيتية فان هذه المعاهدات لا تعتبر قائمة ، وبالتالى فانه لا يحق لتركيا أو لليونان أو لبريطانيا حــــق التدخل فى الجزيرة •

---

(٤) Daily News, No. 4092, 13 April, Ankara, 1972, pp. 1 - 5.

ثالثا : ان عدم انسحاب القوات الغازية من قبرص لا بد وان يؤدى فى المستقبل الى التوتر فى العلاقات بين الدول الكبرى .

وقد جاءت ردود فعل هذا البيان قوية ومثيرة للجدل بين الرأى العام التركى رسميا كان أم شعبيا ، وردت تركيا بصـــورة رسمية على البيان السوفيتى سالف الذكر بصورة رسمية ، فى مذكرة فى ٢٨ أغسطس ١٩٧٤ ، ومضمونها يدور هو الآخر فى النقاط التالية :

وألا : ان احترام سيادة قبرص واستقلالها التام يكون عن طريق الدول الضامنة للمعاهدة ، وبمعنى آخر فانه لا يحق لغير هذه الدول — مشيرة بذلك الى الاتحاد السوفيتى — التدخل فى الشئون الداخلية لقبرص .

ثانيا : ان الحكومة التركية قد قررت تخفيض قواتها فى جزيرة قبرص على مراحل زمنية .

ثالثا : ان تورط أية دولة فى الأزمة القبرصية لا بد وأن يؤدى أيضا الى أن يقرر الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن السياسات والأوضاع الراهنـة للاقطار الأخرى ، كما هى الحالة عليها الآن .

وبالتالى فان هذه الحالة تقود الى اضعاف سيادة هذه الأقطار وقد برهنت تجارب الماضى القريب أن الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن لا يعملون بصورة حيادية فى فض المنازعات الدولية .

رابعا : ترى تركيا أنه بالامكان حل أزمة قبرص عن طريق المفاوضات بين الأطراف المعنية ، أو بالشكل الذى يتوقع قرار مجلس الأمن رقم ٣٥٣ واعلان جنيف فى ٣٠ يوليو ١٩٧٤ .

وعندما أبرمت اتفاقية جنيف لاقرار الســـلام فى قبرص بين الدول الضامنة لاستقلال الجزيرة فى ٣٠ يوليو ١٩٧٤ ، كان هناك استياء من قبل الأوساط الرسمية فى الاتحاد السوفيتى وهو ما تستدل عليه من البيان الذى أصدرته الحكومة السوفيتية عقب ذلك والذى تضمن النقاط التالية :

(*) وقعت معاهدات الضمان هذه بين الدول الثلاث : تركيا واليونان وبريطانيا فى فترة سابقة . راجع : احمد نورى النعيمى ، الموقف التركى من أزمة قبرص بين ١٩٧٤ — ١٩٧٦ ، مرجع سابق ص ٢٥٠ .

أولا : ان قرار مجلس الأمن رقم ٣٥٣ نص على انسحاب القــوات العسكرية الأجنبية فورا من جزيرة قبرص ، فى حين أن اعلان جنيف كان لا يشير الى تخفيض عدد القوات الأجنبية فيها ٠

ثانيا : اعترف اعلان جنيف بوجود ادارتين مستقلتين ، تتمتع كل منهما بالحكم الذاتى ٠ الا أن هذا الاعتراف الذى كان مطلبا أساسيا للحكومـــة التركية ، مرفوض أساسا من قبل الاتحاد السوفيتى ، ويعنى ذلك أن الاتحاد السوفيتى قد وقف الى جانب استقلال وسيادة ووحدة أراضى قبرص ، والى جانب عودة حكومة مكاريوس ، ووضع حدا للتدخل العسكرى الأجنبى فى قبرص ، طالب بسحب جميع القوات العسكرية الأجنبية من الجزيرة ، وتنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٣٥٣ ، أى أن السوفيت اعتقـــدوا أنه من الضرورى اشتراك ممثل الحكومة القبرصية الشرعية فى جميع المحادثات الدولية المتعلقة بالقضية ، ومن بينها محادثات جنيف ، وأنه ينبغى الحفاظ على سياسة قبرص المستقله والتى تعتمد أساسا على مبدأ عدم الانحياز ٠

ولقد سبقت الاشارة الى ان الاتحاد السوفيتى قد أدان النظام العسكرى فى اليونان بالانقلاب العسكرى الذى وقع ضد حـــكومة مكاريوس ٠ ودعى السوفيت الى اتخاذ الاجراءات الفورية الرامية الى وقف التدخل اليونانى فى الشئون الداخلية لجزيرة قبرص ، ان هذا الموقف ممكن تفسيره بأن النظـام العسكرى فى اليونان كان على علاقة قوية مع الولايات المتحدة ، حيث قـام النظام العسكرى فى اليونان ، بمنح الولايات المتحدة قاعدة عسكرية ، وبالتالى فان الاطاحة بحكم مكاريوس لا بد وان يؤدى الى تحقيق سياسة اينوسيس ، وهذه السياسة تحول جزيرة قبرص برمتها فيما بعد الى قاعدة عسكريـــة تابعة لحلف شمال الاطلسى ٠

غير أن السوفيت كانوا مدركين تماما لحقيقة نوايا الولايات المتحدة فى اقامة سلسلة من القواعد العسكرية فى اليونان ، وقد صمت السوفيت ، من جانبهم حرصا على عدم هدم سياسة الوفاق الدولى بين الدولتين العظميين ، ولكن السوفيت قد أكدوا بأنهم لا يعترفون بأية حكومة خارج حكومة مكاريوس وعلى ذلك فانهم اعتبروا الانقلاب الذى وقع فى قبرص بمثابة خدمة للاغراض الدفاعية لحلف شمال الاطلسى ٠

وقد أدت هذه التطورات الى فتور العلاقات بين الدولتين : الاتحـــاد السوفيتى وتركيا ، ومع ذلك فقد قام مساعد وزير الخارجية السوفيتية ، فى

١٣ سبتمبر ١٩٧٤ ، بزيارة الى أنقرة ، ولكن الجانب السوفيتى أصر على موقفه تجاه مشكلة قبرص . كذلك فقد اتضح للاتراك خلال زيارة رئيس المجلس الوطنى التركى الكبير مع وفد برلمانى الى موسكو ، فى ١٨ أكتوبر ١٩٧٤ ، خلال مقابلتهم لبودجورنى ، من أن القادة السوفيت كانوا ضد الاقتراحات التركية ، الخاصة باقامة اتحاد فدرالى ، قائم على الناحية الجيوبولتيكية لقبرص ، وأعلنوا احتجاجهم على ذلك ، مؤكدين بان النظام الفيدرالى يؤدى الى تقسيم الجزيرة ، وأيدوا رغبتهم الملحة فى اقامة نظام مركزى للجزيرة(٦) . وبمعنى آخر ، فان السوفيت قد عارضوا أى تغيير يحدث فى الهيكل الديموغرافى للسكان ، وأكدو السوفيت على ضرورة اعادة المهاجرين اليونانيين الى أماكنهم ، كما وأن قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٢١٢ ، فى أول نوفمبر ١٩٧٤ ، يعكس وجهة النظر السوفيتية ، وبعد هذا القرار ، كانت هناك دلائل تشير الى تقارب السوفيت من اليونان ، بعد انهيار النظام العسكرى فيها . فمن ناحية انتقد اليونانيون الولايات المتحدة لفشلها فى مواجهة الازمة القبرصية ، وقامت مظاهرات صاخبة شهدتها اليونان ضد الوجود الامريكى ، كما خضع كرامنليس لتأثيرات المعارضة السياسية فيما يتعلق بالتزامات اليونان بالدفاعات الغربية ، الأمر الذى دفع كيسنجر الى أن يقول فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى واشنطن والذى ذكر فيه أن الولايات المتحدة لا تخضع لتهديدات اليونان بانسحابها من حلف شمال الاطلسى .

غير أن حكومة كرامنليس قررت فعلا الانسحاب من الجهاز العسكرى لحلف شمال الاطلسى ، وقد رحب الاتحاد السوفيتى بقرار الحكومة اليونانية ، لان ذلك يؤدى الى انهيار الجناح الجنوبى الشرقى لحلف شمال الاطلسى .

كذلك فان عملية الانزال العسكرى التركى فى قبرص ، والتى أدت الى الاستيلاء على نحو ٣٨ فى المائة من الأراضى فى الجزء الشمالى من جزيرة قبرص، قد أوجد قناعة لدى السوفيت بامكانية تقسيم الجزيرة بين الطائفتين التركية والقبرصية ، مما يتعارض ومصلحة السوفيت . وهذا الموقف من قبل الاتحاد السوفيتى قد أدى الى الفتور فى العلاقات بين تركيا والاتحاد السوفيتى الذى حاول تخفيف وطأة موقفه بزيارات متعاقبة الى تركيا فى عام ١٩٧٦ . وقد نجحت هذه الجهود فى التقارب بين الدولتين ، فى زيارة وزير الطاقة التركى الى موسكو فى شهر ديسمبر ١٩٧٦ ، ونتج عن هذه الزيارة توقيع اتفاقية

---

(٦) المرجع السابق ص ٣٣٥ .

اقتصادية جديدة بين البلدين ، تعهد السوفييت بمقتضاها بتمويل ٢٠ مشروع في تركيا ، وبلغ انجاز ذلك مبلغا حوالى ٣ر٣ بليون دولار(٧) .

٣ - موقف السوفيت من مشكلة قبرص ١٩٧٤ - ١٩٨٢ :

حاول كوسيجين ، رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ، تحسين العلاقات مع تركيا ، وقد استغل كوسيجين الخلافات التركية الامريكية ، على أثر قرار حظر الاسلحة عن تركيا ، لتوقيع معاهدة الصداقة وعدم الاعتداء . غير أنه قد فشل في ذلك ، بسبب اصراره على انسحاب تركيا من حلف شمال الأطلسى ، وأكد كوسيجين استعداد الاتحاد السوفيتى لامداد تركيا بالأسلحة السوفيتية ، فيما اذا قطعت تركيا علاقاتها مع الغرب .

وخلال زيارته لتركيا ، انفق كوسيجين مع الساسة الأتراك على وثيقة سياسية تستند الى مقررات هلسنكى ، وقد عبر الرأى العـــام التركى عن ارتياحه عن البلاغ المشترك عقب انتهاء زيارة كوسجين ، حيث أن البلاغ لم يشر الى انسحاب القوات التركية من قبرص ، أو جعل مشكلة قبرص مشكلة دولية ، ولكن البلاغ المشترك أشار الى ضرورة اجراء المزيد من المفاوضات لحل مشكلة قبرص ، والتأكيد على استقلال الجزيرة ، واتباعها سياسة عـــدم الانحياز ، ومنح الحقوق الشرعية للطائفتين التركية واليونانية فى قبرص .

وفى تقييم زيارة كوسيجين الى تركيا يمكن القول بأنه على الرغم من أن كوسيجين لم يحاول دفع حكومة ديمريل الى مواجهـــة مباشرة مع الولايات المتحدة ، الا أن تأكيد كوسيجين على انسحاب تركيا من حلف شمال الأطلسى كان يعنى أن السوفييت قد حاولوا استغلال الفجوة القائمة فى العـــلاقات التركية الامريكية . كذلك يمكن القول - فى تقييم هذه الزيارة - أن تركيا قد اهتمت كثيرا بزيارة كوسيجين الى أنقرة . لأنها كانت بحاجة ماسة الى أصدقاء جدد بعد تأزم علاقاتها مع الولايات المتحدة ، على أثر حظر الأسلحة العسكرية اليها ، على الرغم من أن الساســـة الأتراك لم يرغبوا فى تحرك السوفييت حول الحدود التركية .

ويمكن القول أيضا بأن هناك عاملا آخر دفـــع تركيا الى التقرب من

---

(٧) Turkish Foreign Policy Report, Ministry of Foreign Affairs, Ankara, No. 18, January 1, Ankara, 1977, pp. 18 - 24.

الاتحاد السوفيتى بصورة خاصة ، والمعسكر الاشتراكى بصورة عامة ، وهو مفهوم الوفاق الدولى بين المعسكرين ، حيث أنه ، منذ التوقيع على اعــلان هلسنكى ، فى ٣١ يوليو ١٩٧٥ ، تم تقارب بين تركيا والكتلة الاشتراكية ، وذلك عن طريق العلاقات الثنائية • وقد أكدت حكومة سليمان ديميريل ، والتى جاءت فى ابريل عام ١٩٧٥ ، على سياسة الوفاق الدولى • وجاء فى برنامج الحكومة « تاخذ حكومتنا على عاتقها المساهمة فى نتائج الوفاق الدولى فى العالم ، وســـوف تستمر جهـــودنا فى مؤتمر الامن الأوروبى ومؤتمر التعاون ، لأن ذلك يؤدى الى تقوية السلم فى أوربا » •

وبالفعل ، قامت تركيا بتطبيق سياسة الوفاق الدولى ، ووقعت مـــع رومانيا « اعلان صياغة المبادىء الجديدة » ، فى ٢٩ أغسطس ١٩٧٥ • وقد أكد هذا الاعلان التقارب بين الدولتين ، فنتج عنه مزيد من الزيارات ، وعلى مستوى عال ، بين تركيا ورومانيا • كذلك فقد اجتمع وزير خارجية تركيا ووزير خارجية بلغاريا فى أدرنة ، بالقرب من الحدود البلغارية ، فى يوليـــو ١٩٧٥ ، لتنظيم التبادل فى القوة الكهربية بين الدولتين ، كما قامت تركيا بتوسيع علاقاتها مع الدول البلقانية ، وكان من نتائج ذلك ابرام مجموعـــة من الاتفاقيات الثنائية بين هذه الدول •

وعندما نجح حزب اجويد فى انتخـــابات عام ١٩٧٧ ، حاول تطبيق سياسة الوفاق الدولى والاستفادة منها فى السياسة الخارجية • وقام اجويد بزيارة رسمية الى موسكو فى ٢٣ يونيو ١٩٧٨ ، وأدت زيارته الى توقيـــع وثيقة سياسية ، أكدت على احيـــاء روح علاقات الجوار والصداقة والثقـــة المتبادلة ، والذى أرساها كل من لينين وأتاتورك(٨) •

ولقد اتفق الطرفان على برنامج التبادل العلمى بين ١٩٧٨ ـ ١٩٨٠ ، والتزم الجانب السوفيتى بتقديم المساعدات لتركيا فى المجالات الاقتصـــادية والفنية ، وذلك لبناء مشاريع ومحطات كهربائية • وصرح اجويد فى الكرملين قائلا : « ان حكومتى تؤمن بأهمية هذه المنطقة فى صـــيانة السلم والأمن الدوليين ••• وان علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى تستند الى الثقة المتبادلة ، والمنفعه المشتركة ، فى اطار مفهوم الوفاق الدولى والسلم العالمى » •

---

(٨) News week, March 12, 1979.

أما كوسيجين فقد قال : « ان اختلاف الأنظمة الاجتماعية بيننا وبين تركيا لا يعتبر عقبة فى العلاقات بين الدولتين ، وان علاقتنا مع جارتنا تركيا تقوم أساسا على سياسة الوفاق وقمة هلسنكى » .

أما رد فعل الدول الغربية على ذلك ، فقد انعكس على الولايات المتحدة بصفة خاصة ، حيث اعتراها القلق ، واعتبرت أن من شأن تدعيم العلاقات بين السوفييت والأتراك أن يتسع النفوذ السوفيتى فى شرقى البحر المتوسط . وفى هذا الخصوص كتب أحد أعضاء الكونجرس الامريكى تقريرا الى لجنة العلاقات الخارجية ، جاء فيه : « ان تركيا دولة حاجزة حاسمة بين الاتحاد السوفيتى ومناطق استراتيجية عبر الشرق الأوسط ... أما اليونان فانها هى الأخرى هامة لأمن ومصالح الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط.. ان التأثير العسكرى فى الشرق الاوسط من الممكن أن يقلب الموازين ، فيما اذا قامت تركيا بالتقرب من الاتحاد السوفيتى ... وفى وقت نرى فيه الكرملين يصمم على زيادة قوته البحرية وتأثيره السياسى فى شرقى البحر المتوسط » .

وهكذا كان موقع تركيا وأوضاعها الجيوبوليتيكية لهما أهمية كبرى بالنسبة للدولتين العظمتين على السواء ، اذ أن جميع الطرق المائية ، والأرضية والجوية ، من البحر الأسود الى البحر المتوسط ، ومن البلقان الى الخليج العربى ، لابد أن يكون المرور منها واليها عن طريق تركيا وبواسطة المضايق التركية . وهذا يعنى أن تركيا لها القابلية فى حماية شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط ضد الاتحاد السوفيتى ، وأن هذا الموقع الجيوبولتيكى يساعد تركيا فى الدفاع عن الشرق الاوسط من كل تهديد قادم من الشمال . كذلك فان الحدود الطويلة لتركيا مع الاتحاد السوفيتى ، والحدود القصيرة مع بلغاريا ، والتى تقدر بـ ٧٠٠ ميل بحرى على ساحل البحر الاسود ، لابد وأن تساعد تركيا فى السيطرة على التأثير والنفوذ السوفيتى فى المنطقة .

وعموما ، فانه من استعراض العلاقات بين السوفييت والأتراك . فى الفترة من ١٩٧٦ — ١٩٨٠ ، والتى سادتها الزيارات المتبادلة بين قادة الدولتين ، فان ذلك قد انعكس على نظرة كل منهما الى مشكلة قبرص . واذا كانت مشكلة قبرص قد وضعت على الرف ، واذا كان الطرفان ، السوفيتى والتركى قد دعيا الى مزيد من اجراء المفاوضات لحل مشكلة قبرص ، الا أن النظرة السوفيتية تجاه قبرص ومشكلتها ظلت كما هى ، وهى التأكيد على

استقلال الجزيرة ، ومنح الحقوق الشرعية للطائفتين ، التركية واليونانية فى الجزيرة • واذا كانت مشكلة قبرص قد وضعت على الرف بين الدولتين فى هذه الفترة ، فانما يرجع ذلك الى أن السوفيت أرادوا أن يستقطبوا تركيا الى جانبهم ، بكافة الاغراءات الاقتصادية والسياسية ، وذلك بسبب أهمية [1]وضاع الجيوبوليتيكية لتركيا بالنسبة للاتحاد السوفيتى • وكان هذا هو نير الاساسى فى العلاقات السوفيتية التركية ، سواء فى عهد روسيا القيصرية ، أو فى عهد روسيا الثورة ، وصولا الى الوقت الحاضر •

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الثالث :

الصفحة

الفصل السابع :

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الخامس :

الفصل التاسع :

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٨٢/٥٠٦٧
الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٤٢ ـ ١٠٣ ـ ٩٧٧

مطبعـة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ ـ القاهرة